



موسوعة الإمام المهدي عجل الله تعالى فرجه الشريف

تاريخ الغيبة الكبرى

السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره

شبكة ومنتديات جامع الأئمة عليهم السلام الإسلامية
فريق عمل الكتب الالكترونية
www.jam3aama.com




آية الله العظمى
السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره


تاريخ
الغيبة الكبرى

٢٠١١م - ١٤٣٢هـ



فاكس: ٠٠٩٦٤٣٣٣٦١١٠٣
تلفون: ٠٠٩٦٤٧٧٠٦٠٦٢٧٧٨
البريد الالكتروني: alturaath_1943@yahoo.com
تلفون لبنان: ٠٠٩٦١٧٠٠٥١٠٨٧



هاتف:٧٠٠٥١٠٨٧ _ ٠١٢٧٧٣٩٠
Email:. iraqsms@gmail.com

موسوعة

الإمام المهدي عجل الله فرجه

الكتاب الثاني

تاريخ الغيبة الكبرى

يتكفل فهماً إسلامياً جديداً لغيبة الإمام المهدي (عليه السلام) وشرائط ظهوره وعلاماته وتكليف الفرد المسلم خلال ذلك

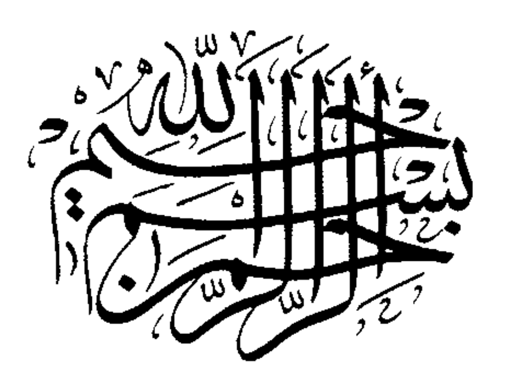
تأليف

آية الله العظمى

السيد الشهيد محمد الصدر قدس سره







بسمه تعالى

كان لزاماً علينا ان ننشر هذه الكتب القيمة لما تضم من علم وافر وفكر عال ووعي كبير وفائدة جمة للمجتمع كافة... فما خطه السيد الوالد (قدس) بقلمه مواضيع كثيرة لابد لنا من نشرها لانها تصب في بناء مجتمع اسلامي...

وبعد طول انتظار تم بعون الفضلاء والمؤمنين وباشراف مباشر منا بتنضيد وتصحيح وتدقيق هذه المؤلفات الجليلة القدر لتخرج للنور فيشع شعاعها على المؤمنين من مشارق الارض ومغاربها جزاهم الله خيرا.

علماً ان كل كتاب له (قدس) لا يضم مقدمة لنا فهو ليس صادراً عنا على ان يكون المخول من قبلنا لطباعة هذه الكتب هو: "هيئة تراث السيد الشهيد" في النجف الاشرف او من يخول تخويلا خطيا منا

مقتدى الصدر

١٠ جمادى الثانية ١٤٢٩

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة
على اشرف الخلق محمد وآله الطاهرين

بحث تمهيدي
في انقسام الغيبة

بحث تمهيدي: في انقسام الغيبة

- ١ -

لا شك أن للمهدي عليه السلام غيبتين اثنتين. وهذا من واضحات الفكر الإمامي، بل من قطعياته التي لا يمكن أن يرقى إليها الشك. ووافقهم عليه بعض علماء العامة. وقد وردت في ذلك الروايات في مصادر الفريقين.

روى السيد البرزنجي(١) عن أبي عبد الله الحسين بن علي عليه السلام أنه قال: لصاحب هذا الأمر - يعني المهدي عليه السلام - غيبتان. إحداهما تطول حتى يقول بعضهم مات وبعضهم ذهب. ولا يطلع على موضعه أحد من ولي ولا غيره إلا المولى الذي يلي أمره.

وأخرج النعماني(٢) بإسناده عن إسحاق بن عمار قال سمعت أبا عبد الله

(١) الإشاعة لاشراط الساعة، ص٩٣.

(٢) الغيبة، ص٨٩.

جعفر بن محمد عليه السلام يقول: للقائم غيبتان إحداهما طويلة والأخرى قصيرة. فالأولى يعلم بمكانه فيها خاصة من شيعته. والأخرى لا يعلم بمكانه فيها إلا خاصة مواليه في دينه.

وأخرج(١) عن إبراهيم بن عمر الكناسي قال سمعت أبا جعفر الباقر عليه السلام يقول: إن لصاحب هذا الأمر غيبتين.

وأخرج(٢) عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبد الله عليه السلام كان أبو جعفر عليه السلام يقول، لقائم آل محمد غيبتان إحداهما أطول من الأخرى، فقال: نعم... الحديث. وأخرجه الطبرسي في إعلام الهدى(٣) أيضاً...

وأخرج النعماني أيضاً(٤) عن محمد بن مسلم الثقفي عن الباقر أبي جعفر عليه السلام أنه سمعه يقول: إن للقائم غيبتين. يقال في إحداهما: هلك، ولا يدرى في أي واد سلك.

وأخرج أيضاً عن المفضل بن عمر قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن لصاحب هذا الأمر غيبتين، في إحداهما يرجع إلى أهله، والأخرى يقال: هلك في أي واد سلك.

وأخرج الشيخ(٥) عن حازم بن حبيب عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: يا حازم إن لصاحب هذا الأمر غيبتين، يظهر في الثانية. إن جاءك من يقول: أنه

---

(١) المصدر ص٨٩.

(٢) المصدر، ص٩٠.

(٣) انظر ص٤١٦.

(٤) الغيبة، ص٩٠ وكذلك الذي يليه.

(٥) انظر الغيبة، ص٢١٦.

نفض يده من تراب قبره، فلا تصدقه.

إلى غير ذلك من الأخبار، وهي كثيرة وكافية للإثبات التاريخي.

- ٢ -

ولفهم هذه الأخبار أطروحتان رئيسيتان:

الأطروحة الأولى:

وهي الموافقة للفهم غير الإمامي للمهدي عليه السلام القائل: بأن المهدي رجل يولد في زمانه فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً.

وهي: إن الغيبتين منفصلتان يتخللهما ويفصل بينهما ظهور للناس. ويكون الظهور بعد الغيبة الثانية هو يوم الثورة الكبرى. وتكون مدة كلتا الغيبتين محددة بسنين قليلة... توجبهما مصالح وقتية محددة ترجع إلى شخص المهدي عليه السلام أو إلى مصلحة انتصاره بعد الظهور.

وهذه الأطروحة هي المتعينة لا خيار في تعديها، طبقاً لهذا الفهم غير الإمامي... لوضوح عدم إمكان وجود الغيبة الطويلة، مع العمر المحدد من السنين.

وهذه الأطروحة هي التي فهمها البرزنجي[1] من هذه الاخبار حين قال: وهاتان الغيبتان - والله اعلم - ما مر آنفاً أنه يختفي بجبال مكة ولا يطلع عليه أحد. قال: ويؤيده ما روي عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر، أنه قال:

(١) الإشاعة، ص٩٣.

يكون لصاحب هذا الأمر غيبة في بعض هذه الشعاب، وأومأ بيده إلى ذي طوى. أقول: ولم يذكر البرزنجي الغيبة الثانية.

الأطروحة الثانية:

وهي الموافقة للفهم الإمامي للمهدي عليه السلام القائل: بأن المهدي حي منذ ولادته في القرن الثالث الهجري إلى حين ظهوره في اليوم الموعود.

وهي الأطروحة التي فهمها العلماء الإماميون بشكل عام، ونص قدماؤهم على مضمونها بشكل خاص. وهي من ضروريات مذهبهم.

قال النعماني[1] هذه الأحاديث التي يذكرونها: إن للقائم عليه السلام غيبتين، أحاديث قد صحت عندنا بحمد الله. وأوضح الله قول الأئمة عليهم السلام وأظهر برهان صدقهم فيها.

فأما الغيبة الأولى، فهي التي كانت السفراء فيها بين الإمام وبين الخلق قياماً منصوبين ظاهرين موجودي الأشخاص... وهي الغيبة القصيرة التي انقضت أيامها وتصرمت مدتها. والغيبة الثانية هي التي ارتفع فيها أشخاص السفراء والوسائط، للأمر الذي يريده الله هو التدبير الذي يمضيه في الخلق لوقوع التمحيص والامتحان... وهذا زمان ذلك قد حضر... الخ كلامه.

وقال المفيد في الإرشاد[2]: وله قبل قيامه غيبتان: إحداهما أطول من الأخرى، كما جاءت بذلك الاخبار. فأما القصرى منهما، منذ وقت مولده إلى انقطاع السفارة بينه وبين شيعته وعدم السفراء بالوفاة، أما الطولى فهي بعد

(١) الغيبة، ص٩٠ / ٩١.

(٢) انظر، ص٣٢٦.

الأولى، وفي آخرها يقوم بالسيف.

وقال الطبرسي[1]: فانظر كيف حصلت الغيبتان لصاحب الأمر على حسب ما تضمنت الاخبار السابقة. أما غيبته الصغرى منهما فهي التي كان فيها سفراؤه موجودين وأبوابه معروفين، لا تختلف الامامية القائلون بإمامة الحسن بن علي عليه السلام فيهم... الخ كلامه.

وقال ابن الصباغ[2] - وهو مالكي المذهب -: وله قبل قيامه غيبتان: إحداهما أطول من الأخرى. فأما الأولى فهي القصرى، فمنذ ولادته إلى انقطاع السفارة بينه وبين شيعته. وأما الثانية، وهي الطولى، فهي التي بعد الأولى. في آخرها يقوم بالسيف. قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾.

إلى غير ذلك من الأقوال التي يطول المقام بنقلها.

وقد سبق أن عرفنا في التاريخ السابق، وسنزيده في هذا التاريخ توضيحاً... مقدار الفرق بين الغيبتين الكبرى والصغرى. وتتلخص الفروق فيما يلي:

أولاً: قصر مدة الغيبة الصغرى، إذ كانت حوالي السبعين عاماً. بخلاف الغيبة الكبرى، فإنها غير معروفة الأمد، باعتبار جهلنا بموعد ظهور المهدي عليه السلام.

ثانياً: اقتران الغيبة الصغرى بالسفارة الخاصة، القائمة بين المهدي عليه السلام

(١) إعلام الورى، ص٤١٦.

(٢) الفصول المهمة: ص٣٠٩.

وقواعده الشعبية، وانقطاع ذلك في الغيبة الكبرى.

ثالثاً: إنتهاء أمد الغيبة الصغرى بوفاة السفير الرابع علي بن محمد السمري. وأما الكبرى، فلا زالت سارية المفعول، وتنتهي بيوم الظهور الموعود.

رابعاً: إن المشاهدين للمهدي عليه السلام خلال غيبته الصغرى، أكثر بنسبة مهمة عنهم في غيبته الكبرى.

ويمكن أن يكون الفرق الأول، هو سبب تسمية الغيبتين بالصغرى والكبرى... حيث تكون الأولى قصيرة والأخرى طويلة. كما يمكن أن يكون الفرق الأخير هو سبب التسمية، ويكون المقصود هو قلة الاحتجاب في الصغرى وكثرته في الكبرى.

وعلى ذلك فالغيبتان متصلتان لا يفصل بينهما ظهور. وقد سبق في التاريخ السابق[١]، ان عرفنا الحكمة الأساسية من إيجاد الغيبة الصغرى، وهو التمهيد الذهني لوجود الغيبة الكبرى في الناس. إذ لو بدأ المهدي عليه السلام بالغيبة المطلقة فجأة، وبدون إنذار وإرهاص، لما أمكن إثبات وجوده في التاريخ. فتنقطع حجة الله على عباده.

وستعرف في هذا التاريخ تفصيلاً وجه الحكمة من وجود الغيبة الكبرى، سواء ما يعود إلى المهدي نفسه أو إلى المخلصين من أصحابه أم إلى البشرية كلها من حيث ما يعود عليها من الخير في اليوم الموعود.

---

(١) أنظر تاريخ الغيبة الصغرى، ص٥٨٢ وغيرها.

- ٣ -

وبالمقدار الذي تكتسبه الغيبة الكبرى من أهمية وصعوبة وعمق في المدى البعيد... يكون التركيز عليها في الأخبار. فبينما يكون التركيز على الغيبة الصغرى قليلاً. كالحديث الذي أخرجه الصدوق عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: - في المهدي عليه السلام - يغيب عنكم شخصه ولا يحل لكم تسميته. وقد عرفنا في التاريخ السابق أن حرمة التسمية خاصة بعصر الغيبة الصغرى.

... نجد أن التركيز على الغيبة شديد في الأخبار.

أخرج النعماني[1] عن أبي عبد الله عليه السلام في حديث، قال فيه: والله ليغيبن سبتاً[2] من الدهر، وليخملن حتى يقال: مات أو هلك، بأي واد سلك. ولتفيضن عليه أعين المؤمنين. ليكفأن كتكفئ السفينة في أمواج البحر، حتى لا ينجو إلا من أخذ الله ميثاقه، وكتب الإيمان في قلبه وأيده بروح منه... الخ الحديث. وذكر له عدة أسانيد.

وهذا بالضبط هو الذي سيحدث في عصر الغيبة الكبرى. على ما سنسمع في هذا التاريخ.

وأخرج أيضاً[3] عن موسى بن جعفر عليه السلام، أنه قال: إذا فقد الخامس من ولد السابع فالله الله في أديانكم، لا يزيلنكم عنها. فإنه لا بد لصاحب هذا الأمر من غيبة، حتى يرجع عن هذا الأمر من كان يقول به. إنما هي محنة من الله

---

(١) الغيبة، ص٧٦.

(٢) السبت يأتي لغة بمعنى الدهر والبرهة من الزمان.

(٣) الغيبة، ص٧٨.

يمتحن الله بها خلقه... الحديث.

وأخرج[١] عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال: قال لي: يا أبا الجارود، إذا دار الفلك، وقالوا: مات أو هلك وبأي واد سلك، وقال الطالب له: أنى يكون ذلك، وقد بليت عظامه. فعند ذلك، فارتجوه. الحديث.

وعن[٢] أبي عبد الله: إن القائم إذا قام يقول الناس: أنى ذلك وقد بليت عظامه.

وعن[٣] أبي عبد الله أنه قال: إذا فقد الناس الإمام، مكثوا سبتاً لا يدرون أياً من أي. ثم يظهر الله عز وجل لهم صاحبهم.

وعنه عليه السلام[٤] قال: كيف أنتم إذا صرتم في حال لا يكون فيها إمام هدى ولا علماً يرى... الحديث.

وأخرج الصدوق[٥] عن الحسين بن علي عليه السلام في حديث: له غيبة يرتد فيها أقوام ويثبت على الدين فيها آخرون. فيؤذن ويقال لهم: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. أما أن الصابر في غيبته على الأذى والتكذيب بمنزلة المجاهد بين يدي رسول الله وآله الطاهرين الأخيار.

وعن علي بن الحسين عليه السلام أنه قال:... ثم تمتد الغيبة بولي الله الثاني عشر... إن أهل زمان غيبته، القائلين بإمامته والمنتظرين لظهوره، أفضل من

---

(١) المصدر، ص٧٨.

(٢) المصدر والصفحة.

(٣) المصدر، ص٨١.

(٤) المصدر والصفحة.

(٥) إكمال الدين المخطوط، وكذلك الذي بعده.

أهل كل زمان، لأن الله تبارك وتعالى أعطاهم من العقول والأفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة المشاهدة. وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله بالسيف... الحديث.

-٤-

فهذه هي الأخبار التي تدل على أهمية الغيبة في المدى البعيد. وأما الأخبار التي تدل عليها بشكل مباشر، فكثيرة:

أما الغيبة الصغرى، فيدل عليها كل أخبار السفراء الأربعة والوكلاء والمعارضين المنحرفين والتوقيعات الصادرة عن المهدي عليه السلام وكل من رآه منذ ولادته إلى نهاية ذلك العصر... إلى غير ذلك من الأخبار التي سمعناها تفصيلاً في التاريخ السابق.

وأما الغيبة الكبرى، فيدل عليها ما سنذكره من أخبار المشاهدة وأخبار التمحيص وأخبار الانتظار وفضل المنتظرين. وأخبار علامات الظهور، وما دل على فساد الزمان وانحراف أهله، وغير ذلك، فإنها جميعاً مرتبطة ارتباطاً عضوياً بعصر الغيبة الكبرى على ما سنعرف.

- ٥ -

وبمجموع هذه الأدلة، نستطيع أن ننفي الأطروحة الأولى التي ذكرناها في الفقرة الثانية من هذا البحث.

وذلك لوضوح أنها لا تنسجم مع شيء من هذه الأدلة:

أما أخبار الغيبة الصغرى، فواضح، باعتبار أن الأطروحة الأولى لا تدعي

وجود السفراء والوكلاء والمعارضين والتوقيعات خلال الغيبة الأولى. بل لم يثبت عن هذه الأطروحة أنها تدعي أن الغيبة الأولى أصغر من الثانية، في المدة أو في درجة الاختفاء.

وأما أخبار الغيبة الكبرى، فلما سنعرفه من أن أي شيء من التمحيص والانتظار وعلامات الظهور، لا يمكن أن يحدث إلا في دهر طويل. وكذلك لا معنى لأخبار المشاهدة وهي متواترة مضموناً، مع الاختفاء القليل الذي يمتد مثلاً لخمس سنوات أو عشر.

مضافاً إلى أن ما تقول به الأطروحة الأولى من ظهور المهدي بين الغيبتين... مما لا يفهم وجهه. إذ يبقى التساؤل عن أنه لماذا يظهر إذا لم يكن عازماً على أن يملأ الأرض قسطاً وعدلاً.

فإن قال قائل: أنه يظهر بعد الغيبة الأولى ليقوم بمهمته الكبرى، لأنه يتخيل وجود فرص النجاح، وحيث انها غير موجودة في الواقع، فإنه يفشل في مهمته، فيختفي مرة ثانية ليظهر بعد ذلك فيقوم بمهمته خير قيام.

نقول: إن عهدة هذا القول على مدعيه، إذ يتصور المهدي عليه السلام قاصر التدبير والتفكير من النواحي الاجتماعية والسياسية والعسكرية، بحيث يمكن أن يسيطر عليه خيال كاذب. أما المهدي الذي ذخره الله تعالى ليومه الموعود، وخطط لنجاح مهمته تخطيطاً مضبوطاً عميقاً، على ما سنسمع، فهو قائد عالمي، من المستحيل أن يقع في مثل هذه الأوهام.

- ٦ -

هذا، وقد نرى أئمة الهدى عليهم السلام، يخاطبون الناس على قدر عقولهم، كما

هو المفروض في كل كلام بليغ. فهم يأخذون المستوى العقلي والثقافي والإيماني لمجتمعهم بنظر الاعتبار حين يتحدثون عن المهدي عليه السلام. فإذا كان المخاطب والسامع ذا مستوى عال، كان الجواب عميقاً ومفصلاً، وإذا كان ذا مستوى واطئ، كان الجواب مختصراً وناظراً إلى زاوية معينة متجنباً الخوض الكامل في الجواب... طبقاً لهذا القانون.

أخرج النعماني[١] والصدوق[٢] عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام أنه قال - في كلام له - : يا بني عقولكم تضعف عن هذا وأحلامكم تضيق عن حمله. ولكن أن تعيشوا فسوف تدركوه.

وطبقاً لهذا الاتجاه نسمع الأخبار التالية:

أخرج النعماني[٣] عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: لو قد قام القائم لأنكره الناس، لأنه يرجع إليهم شاباً موفقاً... وإن من أعظم البلية أن يخرج إليهم شاباً وهم يحسبونه شيخاً كبيراً.

وهذا الخبر صادق تماماً، لأن المهدي عليه السلام سوف يظهر شاباً. كما أن من البلاء العظيم والامتحان العميق أن يخرج شاباً، إذا كانوا يفكرون كونه شيخاً كبيراً. ولكنه لم يقل أنهم يفكرون فعلاً بذلك، ومن هنا يكون الاختصار في العطاء.

إن هذا الخبر يوحي بوضوح أن مدة الغيبة سوف لن تتجاوز مدة العمر الطبيعي الذي يكون به الفرد شيخاً، غير أن الله تعالى سوف يحفظ للمهدي

(١) الغيبة، ص٧٨.

(٢) انظر الإكمال المخطوط.

(٣) الغيبة، ص٩٩.

شبابه خلال هذه المدة. وهذا العطاء منسجم مع تلك الذهنية التي لا يمكن أن تستوعب بحال، العمر الطويل الذي يمتد مئات السنين.

ومن الواضح أن الناس سوف لن يحسبوه شيخاً، إذ مع تمادي العمر مئات السنين، ينتفي من الذهن مفهوم الشيخوخة تماماً، ويبقى تطور شكل الإنسان بالقدرة الإلهية وحدها، تلك القدرة التي حفظته هذا المقدار من السنين.

ونحو ذلك الخبر السابق عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام الذي يقول فيه: ولكن أن تعيشوا فسوف تدركوه. فإنه من المؤكد أنهم لو عاشوا لأدركوه، ولو استلزم عيشهم أن يبقوا في الحياة مئات السنين. ولكنه لم يقل أنهم سوف يعيشون فعلاً إلى عصر الظهور.

غير أن الانطباع الأولي لأهل ذلك العصر، عن هذا الحديث، هو أن الظهور يمكن أن يحدث خلال عمر طبيعي للإنسان... أو أنه يحدث كذلك فعلاً.

وأخرج الصدوق[1] عن زرارة عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: ان للقائم غيبة قبل ظهوره. قلت: ولم. قال: يخاف. وأومأ إلى بطنه. قال زرارة: يعني القتل.

وعن أبي عبد الله الصادق عليه السلام قال: للقائم غيبة قبل قيامه، قلت: ولم. قال: يخاف على نفسه الذبح.

وهذا صحيح إلا أنه لم يحدد مقدار الغيبة ولا انقسامها، تبعاً لمستوى السامعين.

(١) انظر الإكمال المخطوط، وكذلك الذي يليه.

وأخرج النعماني[١] عن أبي جعفر بن محمد بن علي عليه السلام أنه قال: يكون لصاحب هذا الأمر غيبة في بعض هذه الشعاب. وأومأ بيده إلى ذي طوى. . . الحديث.

وقد احتج البرزنجي[٢] بهذا الحديث لأجل استبعاد الفهم الأمامي للمهدي. ولا بد أن يكون مراده أن الغيبة بين الشعاب لا تكون إلا خلال العمر الطبيعي للإنسان.

وهذا المضمون وإن ناقشناه في التاريخ السابق[٣] . . . إلا أنه يمكن القول بصحته، بعد التنزل - جدلاً - عن تلك المناقشة. ولا يكون الخبر منافياً مع الفهم الإمامي بحال. لوضوح أنه يمكن أن نتصور المهدي عليه السلام ساكناً في الشعاب والبراري والقفار طيلة غيبته مهما طالت. ولا يتعين كونها غيبة ذات مدة قليلة، كما هو معلوم.

وقد سمعنا في التاريخ السابق[٤] ما روي عن الإمام المهدي عليه السلام نفسه، فيما قاله لعلي بن المازيار: يا ابن المازيار، أبي أبو محمد عهد إليّ أن لا أجاور قوماً غضب الله عليهم ولعنهم ولهم الخزي في الدنيا والآخرة ولهم عذاب أليم. وأمرني أن لا أسكن من الجبال إلا أوعرها، ومن البلاد إلا عفرها.

إذن فمن الممكن أن يكون المراد من كلا الخبرين، مضمون واحد. غير

---

(١) الغيبة، ص٩٥.

(٢) الإشاعة، ص٩٣.

(٣) تاريخ الغيبة الصغرى، ص٥٠٧.

(٤) المصدر والصفحة.

أن هذا المضمون لم يثبت تاريخياً، كما سمعنا في التاريخ السابق، وسيتضح بجلاء في القسم الأول من هذا التاريخ.

- ٧ -

بقيت علينا بعض الاستفهامات التي قد تثار حول بعض ما سبق.

الاستفهام الأول:

إن بعض الأخبار، التي رويناها في الفقرة الأولى من هذا البحث، دلت على أن الغيبة الطويلة، تحدث قبل القصيرة. كقوله في بعضها: للقائم غيبتان إحداهما طويلة والأخرى قصيرة. وقوله في الخبر الآخر: إحداهما أطول من الأخرى. وهذا ما دل على ما ذكرناه.

وجوابه: إن المراد من ذلك، الإخبار عن وجود الغيبتين. وأما تقديم الغيبة الطويلة بالذكر، فباعتبار أهميتها لا باعتبار سبقها الزماني على الغيبة الأخرى. وقد قال في نفس الخبر: فالأولى يعلم بمكانه الخاصة من شيعته، والأخرى لا يعلم بمكانه فيها إلا خاصة مواليه في دينه. وهو نص بتقدم الغيبة الصغرى التي تتصف بقلة الاحتجاب على صاحبتها.

الاستفهام الثاني:

قوله في بعض تلك الأخبار يظهر في الثانية. فإنه دال على أنه عليه السلام يظهر خلال الغيبة الثانية. فكيف يصح ذلك؟

وجوابه: أن هذه الفكرة التي فهمها السائل تتضمن تهافتاً في التصور،

لتنافي الغيبة مع الظهور، فلا معنى لأن يظهر وهو غائب. وإنما المراد أنه يظهر بعد انتهاء الغيبة الثانية. كما هو معلوم.

الاستفهام الثالث:

قوله في بعض تلك الأخبار: إن لصاحب هذا الأمر غيبتين في إحداهما يرجع إلى أهله. وهو دال على أن المهدي عليه السلام خلال الغيبة الصغرى يرجع إلى أهله. فما معنى ذلك؟

وجوابه: أننا سمعنا في التاريخ السابق[1] أن الإمام المهدي عليه السلام كان ساكناً في دار أبيه في سامراء ردحاً من عصر غيبته الصغرى. وهو دار أهله بطبيعة الحال، كما نطق هذا الخبر. ويحتمل أن يكون المراد إعطاء فكرة قلة الاختفاء خلال الغيبة الصغرى، مشبهاً بمن يخرج من أهله ويعود. ومن هنا يقول في الخبر - بالنسبة إلى الغيبة الكبرى -: والأخرى يقال: هلك في أي واد سلك.

الاستفهام الرابع:

سمعنا المفيد فيما سبق يقول: فأما القصرى منهما، منذ وقت مولده إلى انقطاع السفارة بينه وبين شيعته. وكذلك قال ابن الصباغ.

على حين سمعنا من التاريخ السابق[2] أن أول الغيبة الصغرى هو يوم وفاة الإمام العسكري عليه السلام والد المهدي عليه السلام. وليس أولها ولادة المهدي

---

(١) أنظر تاريخ الغيبة الصغرى، ص٥٠٤.

(٢) المصدر السابق، ص٣٤١.

نفسه. . . وإن كان مختفياً فعلاً خلال حياة أبيه. فأي الوجهين هو الصحيح؟

وجوابه: إن الوجه الذي اخترناه في التاريخ السابق هو الصحيح، وهو بدء الغيبة الصغرى، بوفاة الإمام العسكري عليه السلام، وقد سبق أن برهنا عليه هناك.

- ٨ -

وبكل ذلك، يتبرهن انقسام الغيبة إلى صغرى وكبرى، بالمفهوم الإمامي.

وإذا كان هذا من صفات المهدي عليه السلام ولم ينسجم إلا مع المفهوم الإمامي، يتعين الأخذ بهذا المفهوم بالخصوص.

وطبقاً لذلك، كتبنا فيما سبق تاريخ الغيبة الصغرى أولاً، ونكتب الآن تاريخ الغيبة الكبرى، وهو هذا الكتاب الذي بين يديك.

مقدمة

الغيبة الكبرى هي الزمان الذي يبدأ بانتهاء الغيبة الصغرى، بالإعلان الذي أعلنه الإمام المهدي عليه السلام، عام ٣٢٩ للهجرة، بانتهاء السفارة وبدء الغيبة التامة وأنه لا ظهور إلا بإذن الله عز وجل[١].

وهو الذي ينتهي بيوم الظهور الموعود الذي يبزغ فيه نور الإمام المهدي عليه السلام، وتسعد البشرية بلقائه ليخرجها من الظلمات إلى النور، ويملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

ومعه نكون الآن معاصرين لهذه الفترة التي نؤرخها، وسيبقى الناس معاصرين لها، حتى يأذن الله تعالى بالفرج.

والإسلام والمسلمين يمرون في هذه الفترة بأصعب الظروف التي عاشوها، بل التي عاشها أهل سائر الأديان السماوية، بشكل عام. باعتبار ما تتصف به من خصائص ومميزات يجعلها من أحرج الأحوال في منطق الإسلام بالنسبة إلى ما سبقها وما يلحقها من الدهور.

الخصيصة الأولى:

وهي الرئيسية التي تعطي هذه الفترة شكلها المعتاد. وهي: أن المسلمين منقطعون بالكلية عن قائدهم وموجههم وإمامهم، لا يجدون إلى رؤيته والتعرف

(١) انظر تاريخ الغيبة الصغرى، ص٣٩٠ وما بعدها وص٥٨٤ وما بعدها.

عليه سبيلاً، ولا إلى الاستفادة من أعماله وأقواله طريقاً. ولا يجدون له وكيلاً أو سفيراً خاصاً، ولا يسمعون عنه بياناً ولا يرون له توقيعاً، كما كان عليه الحال خلال الغيبة الصغرى. إذ في هذه الفترة التي نؤرخها يكون كل ذلك قد انقطع بشكل عام.

وبذلك تتميز هذه الفترة عن سائر الفترات في عمر الإسلام والمسلمين. فهي تختلف عن زمان وجود النبي ﷺ وزمان الأئمة الاثني عشر عليهم السلام وزمان ظهور المهدي عليه السلام، بوجود القائد والموجِّه خلال تلك الفترة دون هذه الفترة. وتختلف عن زمان الغيبة الصغرى بوجود السفراء للمهدي عليه السلام وصدور البيانات والتوقيعات عنه، خلال تلك الفترة، دون هذه الفترة التي نؤرخها.

الخصيصة الثانية:

سيادة الظلم والجور في الأرض، بمعنى انحسار الإسلام بنظامه العادل عن المجتمعات البشرية، وما تعانيه البشرية - نتيجة لذلك - من أنحاء التعسف والانحراف والظلم والحروب.

وبذلك تتميز هذه الفترة عن زمان سيادة النظام الإسلامي الكامل، وهو ما كان في زمان وجود النبي ﷺ وإقامته لدولة الحق، وما سيكون عند ظهور الإمام المهدي عليه السلام وإقامته لدولة الحق أيضاً.

وتشترك فترة الغيبة الكبرى، بهذه الخصيصة، مع كل أزمنة انحسار الإسلام - ولو انحساراً جزئياً - عن واقع الحياة. كأزمنة الخلفاء الأمويين والعباسيين. وإن كانت ظروفنا المتأخرة أشد وأقسى مما قبلها من حيث سيادة المبادئ المادية وقسوة الظلم والتعسف، وتهديد البشرية بالفناء بالحرب العالمية الثالثة.

الخصيصة الثالثة تاكد الامتحان الإلهي ووضوحه:

فإن كل فرد - على الإطلاق - يواجه في هذه الفترة مزالق ثلاثة، تشكل خطراً على دينه وعلى دنياه، وبمقدار ما يبذله من تضحية وما يملكه من قوة في الإرادة، فإنه يستطيع أن يضمن سعادته وحسن مستقبله ونجاحه في الامتحان الإلهي.

المزلق الأول:

ما يواجهه الإنسان من شهوات ونوازع ذاتية طبيعية، تتطلب منه الإشباع بإلحاح، ولا يسكن صوتها إلا بالإشباع التام، وهي تتطلبه من أي طريق كان، لا تعين لصاحبها الطريق المشروع خاصة. بل يمكن لها أن تطلق لصاحبها العنان فلا يبصر ما بين يديه من قوانين وتقاليد وأديان وحدود.

وهذا المزلق غير خاص بعصر الغيبة الكبرى، ولكنه فيها آكد وأشد تأثيراً باعتبار زيادة الإغراء وتلبيس الانحراف باللبوس المنطقي الزائف.

المزلق الثاني:

مواجهة الإنسان لضروب الاضطهاد والضغط والصعوبات التي يواجهها في طريق الحق والإيمان. مما يحتاج في مكافحته إلى قوة في الإرادة والعزم على التضحية.

وهذا المزلق يواجهه الفرد في زمن انحسار الإسلام عن واقع الحياة. بما في ذلك زمان الغيبة الكبرى.

المزلق الثالث:

مواجهة الإنسان لضروب التشكيك في وجود الإمام القائد المهدي عليه السلام،

كلما طال الزمان وابتعد شخص الإمام عن واقع الحياة، وطغت على الفكر الإنساني التيارات المادية التي تستبعد عن حسابها عالم الروح، وكل ما هو غير محسوس ولا منظور.

وهذا المزلق، يواجهه الفرد في زمان غيبة الإمام‌عليه‌السلام . وخاصة في غيبته الكبرى التي ينعدم فيها السفراء. وبالأخص بعد النهضة الأوروبية المادية وبدء عصر الاستعمار وطغيان التيار المادي العالمي الجارف.

وبمقدار ما يستطيع الفرد من تحصيل المناعة ضد هذه التيارات، والصمود الفكري أمامها، والتركيز على مفاهيم الإسلام وبراهينه، فإنه يستطيع أن يضمن سعادته عند الله عز وجل في الدنيا والآخرة.

وكل هذه المزالق الثلاثة، تجتمع بإلحاح وتأكيد، في عصر الغيبة الكبرى بشكل واضح وصريح. ومن هنا كان الامتحان الإلهي لصلاحية الفرد إسلامياً وقوة إرادته إيمانياً، كان شديد الوقع كبير التأثير صعب الاجتياز. ومن هنا ورد في بعض النصوص عن أئمة الهدى‌عليهم‌السلام حين سئلوا عن موعد ظهور المهدي‌عليه‌السلام : لا والله حتى تمحصوا، ولا والله حتى تغربلوا، ولا والله حتى يشقى من يشقى ويسعد من يسعد[1] .

وهذا الامتحان الإلهي إنما شرع وأنجز ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[2] . فإن من يشقى وينحرف، يكون مقتنعاً بصواب رأيه وعمله، فيهلك شقياً منحرفاً، فيستحق اللعنة الإلهية والخسران الأبدي. وأما من سعد بإيمانه نتيجة للامتحان، فإن إيمانه يكون صلباً قوياً ممحصاً، بمعنى

(١) انظر الحديث وإيضاحات الامتحان الإلهي في داخل هذا الكتاب.

(٢) الأنفال: ٤٢.

كونه ثابتاً رغم الظلم والطغيان، ونتيجة للصمود والانتصار. وهو من أعظم وأوعى الإيمان. فيحيى كل منهما ببينة، ويهلكان عن بينة.

صيغة البحث ومصاعبه:

إن تاريخ الغيبة الكبرى، من حيث حوادثه العامة لعله من أوضح التواريخ وأسهلها تسجيلاً، لأنه من التواريخ القريبة أو المعاصرة التي لا زلنا نعيشها ونمارس حوادثها.

إلا أن تاريخ هذه الفترة، فيما يخص المهدي عليه السلام، من أشد الغموض والتعقيد، وصعوبة الاستنتاج، لما سنشير إليه من العوامل. فإن الباحث الذي يطرق هذا الباب سوف يواجه عدداً ضخماً من الأسئلة لا بد من الجواب عليها، ليكون البحث بحثاً تاريخياً منظماً واعياً إسلامياً. وأما مع إهمال بعضها أو قسم منها، فإننا سنواجه فراغات أو فجوات تاريخية مؤسفة. ومن هنا تكون وظيفة الباحث تحصيل الجواب على أكثر الأسئلة - على الأقل - ليتم لنا التاريخ المنظم الكامل الواعي.

فمن الأسئلة التي نواجهها: التساؤل عن مكان الإمام المهدي عليه السلام في غيبته الكبرى، وطريقة حياته، وأسباب عيشه الاعتيادية، وهل يواجه الناس، ومتى يواجههم، وماذا يقول لهم، وما هي سياسته العامة أمام المجتمع بشكل عام، وتجاه قواعده الشعبية المؤمنة به، بشكل عام، وتجاه الذين يقابلونه بشكل خاص.

وكيف يقضي وقته الطويل في خلال هذه السنين المترامية والقرون المتطاولة.

وهل هو متزوج وله ذرية أم لا؟ وإذا كان متزوجاً فمن هي زوجته؟، وأين هم أولاده؟ وإذا لم يكن متزوجاً، فهل يمكنه الزواج؟، ومتى يتزوج؟.

ثم أنه هل من المستطاع تخمين وقت ظهوره إجمالاً؟ وما هي العلامات التي نعرف بها قرب وقت الظهور. وهذه العلامات الواردة في الأخبار، ما الذي يصح منها وما الذي لا يصح. وما هو الأسلوب الواعي الذي يمكننا أن نفهم به من هذه العلامات... إلى غير ذلك من الأسئلة الكثيرة المتنوعة.

والجواب على عدد من هذه الأسئلة، وإن كان ممكناً على ضوء ما وردنا من الأخبار عن المعصومين عليهم السلام ومن الأخبار التي تضمنت مشاهدة الإمام عليه السلام. إلا أن عدداً آخر من الأسئلة لم يرد جوابه في رواية على الإطلاق، أو ورد جوابه غامضاً مجملاً، أو بشكل قام الدليل العقلي أو الشرعي على فساده وبطلانه.

ومن هنا نستطيع أن نلخص عوامل التعقيد والغموض في هذا البحث في العوامل التالية:

العامل الأول:

ضآلة أو انعدام الدليل الصالح للجواب على بعض الأسئلة، كما أشرنا، كالإشارة إلى مكانه أو طريقة حياته أو تحديد سياسيته العامة تجاه الآخرين... كما سنسمع.

العامل الثاني:

إن بعض ما وردنا من الأخبار، قام الدليل على بطلانها، واقتضت القواعد العقلية أو الشرعية بطلانها. وذلك نتيجة لعدم الوعي، والانحراف الذي عاشه

بعض الرواة نتيجة تأثرهم بعوامل الشر السائدة في عصور الغيبة الكبرى. ومن هنا كان لا بد من أخذ الأخبار بحذر، والنظر إليها بمنظار النقد.

العامل الثالث:

إن أغلب بل جميع ما وردنا من الأخبار مما يصلح تاريخياً لهذه الفترة، لا نجدها تواجه المشكلة المطروحة بصراحة أو تعطينا الجواب بوضوح. بل نراها بجميع أساليبها وحقولها تحيط المهدي عليه السلام بهالة من القدس والغموض، بحيث لا يمكن الكلام المباشر عنه، أو الخوض في حاله. وكأنه لا بد من إعطاء صورة واحدة من حياة وقسم صغير من واقع، لا يكاد يسمن من جوع أو يغني عن سؤال.

ومن هنا يضطر الباحث إلى استشمام ما وراء الحوادث والنظر إلى الدلالات البعيدة، ومحاولة إيجاد النظر الجموعي إلى الأخبار وتكوين نظرة عامة موحدة عن الجميع، قائمة على أساس صحيح من حيث قواعد الإسلام.

العامل الرابع:

عدم مشاركة المسلمين من إخواننا العامة في هذا الحقل. فإنهم رووا في ميلاده ورووا في ظهوره، إلا أنهم لم ينبسوا ببنت شفة تجاه أخبار الغيبة الكبرى، ما عدا بعض النوادر من أخبار مشاهدتهم للمهدي خلال هذه الفترة.

والعذر لهم في ذلك واضح عقائدياً، وذلك لأنهم لا يرون وجود المهدي خلال هذه الفترة، بل يذهب أكثرهم إلى أن المهدي شخص يولد في وقته المعين عند الله تعالى ليملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً.

وأما نحن، فحين نقيم الدليل على حياته من حيث إمكانها وتحققها،

فينفتح الكلام عن الغيبة الكبرى سخياً موفراً بما فيها من حقائق وتاريخ. أما هذا الدليل المشار إليه فهو موكول إلى أجزاء آتية من هذه الموسوعة. وأما التاريخ فهو مما يتكلفه هذا الكتاب.

ويكاد الكلام أن ينحصر فيما ورد من طرق الإمامية من الأخبار، فيكون عددها - ولا شك - أقل بكثير مما لو شاركت أخبار العامة بإمدادها نصاً أو معنى.

إلا أن ذلك مما لا يكاد يخل بغرضنا من هذا البحث، فإن الغرض الأساسي منه هو إثبات الفكرة الكاملة عن الإمام المهدي عليه السلام كما تعتقدها قواعده الشعبية، وكما تقتضيها قواعد العقل والإسلام، خالية من الزوائد والخرافات والانحرافات. ليرى منكروها - من أي صنف كانوا من البشر - مقدار ما في الفكرة الإمامية عن المهدي من عدالة ووعي إسلاميين.

ومعه، فينبغي الاقتصار على ما ورد في طرقنا من أخبار وعلى ألسنة مؤرخينا من كلام، حتى تبرز الصورة المطلوبة من خلال ذلك، دون زيادة أو تحريف. مع ضم القليل مما ورد من أخبار العامة صالحاً لتاريخ هذه الفترة، فإنه يكون أيضاً محطاً للاستدلال والاعتماد، عندما نخرج بصحته بعد التمحيص.

تذليل هذه المصاعب:

يكون تذليل الصعوبات المنهجية الناتجة عن هذه العوامل، باتخاذ منهج معين وقاعدة عامة يمكن تطبيقها والاستفادة منها في جميع الموارد، وتحصيل الجواب الشافي عن كل سؤال على أساسها.

وملخص المنهج الذي سنسير عليه، هو: إن السؤال المُثار تاريخياً، له صورتان. إحداهما: أن يوجد في الأخبار ما يصلح أن يكون جواباً عنه. وثانيتهما: أن لا يوجد في الأخبار شيء من ذلك. ويقع الحديث عن كل من الصورتين مستقلاً:

الصورة الأولى:

ما إذا كان الجواب على السؤال التاريخي، موجوداً في الأخبار. ففي مثل ذلك لا بد من النظر الفاحص الناقد الممحص، وعرضه على القواعد العامة العقلية والشرعية. وحينئذ، فلا يخلو أمره: أما أن ينسجم معها أو لا ينسجم. وعلى كلا التقديرين فأما أن يوجد له معارض من الأخبار أو لا يوجد. إذن يكون للجواب عدة حالات:

الحالة الأولى:

أن يكون مضمون الخبر أو العدد من الأخبار، الصالح لتذليل المشكلة التاريخية، منسجماً مع القواعد العامة العقلية والشرعية، ولا يكون له معارض. فنأخذ به ونسير عليه. ولا إشكال في ذلك.

ونقصد بالانسجام مع القواعد، مجرد عدم التنافي بين مضمون الخبر وبينها. بمعنى أنه لا توجد قاعدة عامة نافية له أو دالة على بطلانه. وأما الانسجام بمعنى الاتفاق معها في المضمون، فهو غير محتمل، لأن شأن القواعد العامة عدم التعرض إلى الموارد الخاصة والخصائص التفصيلية. فتبقى درجة إثبات الخبر لمضمونه بمقدار ما له من قوة إثبات واعتبار ووثاقة في الراوي وترابط في المدلول، وتعدد في النقول التاريخية ووجود الشواهد

والقرائن على صحتها. ونحو ذلك.

ولا بد - على هذا المستوى - من جمع الأخبار، والنظر إلى موارد اتفاقها واختلافها، وما تستقل ببيانه بعض الأخبار دون بعض، لكي يستنتج من ذلك نظرية متكاملة تدل عليها سائر الأخبار ولا ينافيها شيء منها. لكي تصلح أن تكون هذه الأطروحة أو النظرية جواباً شافياً عن السؤال التاريخي أو المشكلة المطروحة.

الحالة الثانية:

أن يكون مضمون الخبر، خالياً عن المعارض، إلا أنه معارض مع القواعد العامة العقلية أو الشرعية. ومن المعلوم - في مثل ذلك - لزوم طرحه وعدم الأخذ به.

إلا أننا نود أن نشير إلى أن الساقط من الخبر يكون محدداً بحدود المدلول الباطل، دون غيره. فلو احتوت رواية واحدة على مضمون باطل ومضمون صحيح، أخذنا بالصحيح ورفضنا الباطل، ولا يستدعي رفض بعضها رفض الجميع. وعلى أي حال، فلو سقط مضمون الخبر، ولم يصلح لحل المشكلة، ولم يكن غيره موجوداً، كان المورد - في الحقيقة - خالياً عن الإثبات التاريخي، فيندرج في الصورة الثانية الآتية:

الحالة الثالثة:

أن يكون مضمون الخبر معارضاً بمثله، فكان لدينا على السؤال التاريخي جوابان متعارضان في الأخبار. فأي من الجوابين أو الخبرين نقدم؟ هذا له عدة أشكال:

الشكل الأول:

أن يكون أحد الخبرين منسجماً مع القواعد العامة دون الآخر. فنأخذ بالمنسجم بطبيعة الحال، وندع الآخر، لأن انسجام الخبر مع القواعد يكون مرجحاً له في مورد التعارض.

الشكل الثاني:

أن يكون كلا الخبرين المتعارضين غير منسجمين مع القواعد العامة، فيتعين طرحهما معاً، ويبقى السؤال خالياً عن الجواب، فيندرج في الصورة الثانية الآتية.

الشكل الثالث:

أن يكون كلاهما منسجمين مع القواعد العامة، أي أنها لا تنافي أياً منهما. ففي مثل ذلك لا بد من الرجوع إلى القرائن الخاصة للترجيح، ككثرة الأخبار في أحد الجانبين أو اعتضاده بنقول أخرى، ونحو ذلك، وإن لم توجد مثل هذه القرائن فلا بد من الالتزام بتساقط المضمونين. فيكون المورد كأنه خال عن الخبر يعجز كل منهما عن الإثبات التاريخي. فيندرج السؤال في الصورة الثانية الآتية. ونكرر هنا أيضاً، أن سقوط بعض مداليل الخبر نتيجة للتعارض، غير موجب لسقوط جميع ما دلت عليه من مضامين.

الصورة الثانية:

ما إذا كان المورد خالياً عن الجواب في الأخبار بالمرة، أو كان الخبر الدال على وجوبه ساقطاً عاجزاً عن الإثبات، لفساده بحسب القواعد العامة أو

نتيجة للتعارض، بالنحو الذي أوضحناه في الصورة الأولى.

وفي مثل ذلك يبقى المورد خالياً عن الجواب، ويمكن اعتباره فجوة تاريخية مؤسفة بالنسبة إلى الأخبار. وينحصر تحصيل الجواب عليه من القواعد العامة والقرائن المربوطة بالمورد. ثم نصوغ للجواب (أطروحة) معينة محتملة الصدق، ونقيم من هذه القواعد والقرائن مؤيدات لها. فيتعين الأخذ بهذه الأطروحة بصفتها الحل الوحيد للمشكلة.

فكرة عن مباحث الكتاب:

إذا اتضح هذا المنهج وصح، يكون في الإمكان أن ندخل في تفاصيل تاريخ الغيبة الكبرى، مقسمين البحث إلى أقسام ثلاثة:

القسم الأول:

في تاريخ شخص الإمام المهدي عليه السلام خلال هذه الفترة، وما يتصف به من خصائص وصفات.

القسم الثاني:

في سرد الحوادث والصفات التي تكون للإنسانية عامة وللمجتمع المسلم خاصة، بحسب ما ورد في الأخبار، وما تقتضيه القواعد العامة.

القسم الثالث:

في علائم الظهور الواردة في الأخبار ومحاولة فهمها فهماً واعياً منظماً، على ضوء المنهج السابق.

وهنا لا بد أن نشير إلى تعذر ما كنا عملناه في تاريخ الغيبة الصغرى من إعطاء فكرة عن التاريخ العام للفترة التي نعرض لها قبل التكلم من تاريخها الخاص المقصود. فإن فترة الغيبة الصغرى حيث كانت محدودة أمكن ضبط تاريخها العام، في فصل معين. وأما فترة الغيبة الكبرى، فتنقسم إلى مستقبل وإلى ماضٍ، بالنسبة إلى عصرنا الحاضر. أما المستقبل فلا يعلمه إلا الله عز وجل. وأما الماضي فلو اتسع المجال لضبط تاريخ طوله حوالي ألف ومائة سنة، لأمكن أن نتصدى لذلك إلا أن ذلك خارج عن طوق البحث الفردي، مهما زاد واتسع. فضلاً عن المبني على اختصار.

على أن للفرد المثقف الاعتيادي فكرة كافية عن التاريخ الحديث في الألف سنة المعاصرة. وهي وإن كانت فكرة مختصرة إلا أنها كافية في التقديم لهذا البحث، ولا تحتاج إلى أكثر من ذلك لندرة ارتباط التاريخ الخاص بالمهدي عليه السلام خلال هذه الفترة بالحوادث العامة. بخلاف ما كان عليه الحال في زمن الأئمة المعصومين عليهم السلام والغيبة الصغرى من زيادة الارتباط.

القسم الأول
تاريخ شخص الإمام المهدي

من حيث مكانه ومعيشته وتكليفه الشرعي بحفظ الشريعة الإسلامية، ولقائه مع الناس وقضائه لحوائجهم، والكلام عن ذريته، وغير ذلك.

والكلام حول ذلك يقع ضمن فصول متعددة:

الفصل الأول
في السر الأساسي لغيبة المهدي عليه السلام

ونريد به الأسلوب الأساسي الذي يتبعه عليه السلام في احتجابه عن الناس ونجاته من براثن الظلم. وبمعرفتنا لهذا الأسلوب، سيسهل علينا الجواب على عدد كثير من الأسئلة التي تثار في الفصول الآتية، إن شاء الله تعالى.

ونواجه في بادئ الأمر، في أسلوب احتجابه أطروحتين أساسيتين:

الأطروحة الأولى: أطروحة خفاء الشخص:

وهي الأطروحة التقليدية المتعارفة المركوزة في ذهن عدد من الناس، وتدل عليه ظواهر بعض الأدلة على ما سنسمع. وهي أن المهدي عليه السلام يختفي جسمه عن الأنظار، فهو يرى الناس ولا يرونه، وبالرغم من أنه قد يكون موجوداً في مكان إلا أنه يُرى المكان خالياً منه.

أخرج الصدوق في إكمال الدين[1] بإسناده عن الريان بن الصلت، قال: سمعته يقول: سئل أبو الحسن الرضا عليه السلام عن القائم عليه السلام، فقال: لا يرى جسمه ولا يسمى باسمه.

(١) انظر الأخبار الثلاثة في المصدر المخطوط.

وأخرج بإسناده عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام في حديث: قال: الخامس من ولد السابع يغيب عنكم شخصه ولا يحل لكم تسميته. وأخرج أيضاً بإسناده عن عبيد بن زرارة قال سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

يفقد الناس أمامهم فيشهد الموسم فيراهم ولا يرونه.

وهذه الأطروحة هي أسهل افتراض عملي لاحتجاب الإمام المهدي عليه السلام عن الناس ونجاته من ظلم الظالمين. فإنه في اختفائه هذا يكون في مأمن قطعي حقيقي من أي مطاردة أو تنكيل، حيثما كان على وجه البسيطة.

وهذا الاختفاء يتم عن طريق الإعجاز الإلهي، كما تم طول عمره لمدى السنين المتطاولة بالإعجاز أيضاً. وكان كلا الأمرين لأجل حفظ الإمام المهدي عليه السلام عن الموت والأخطار، لكي يقوم بالمسؤولية الإسلامية الكبرى في اليوم الموعود.

ونحن نعلم بالدليل القطعي في الإسلام أهمية هذا اليوم الموعود عند الله عز وجل وعند رسوله، فإنه اليوم الذي يتحقق به الغرض الأساسي من خلق البشرية، على ما سنعرف، وتتنفذ به آمال الأنبياء والمرسلين، وتتكلل جهودهم بالنجاح، بوجود المجتمع العادل وإنجاز دولة الحق. كما أننا نبرهن[1] على أن الأهداف الإلهية المهمة، إذا توقف وجودها على المعجزة، فإن الله تعالى يوجدها لا محالة، من أجل تحقيق ذلك الهدف المهم.

وإذ نعتقد - كما هو المفروض في هذا التاريخ - بولادة الإمام المهدي عليه السلام المذخور لليوم الموعود، يتبرهن لدينا بوضوح كيف ولماذا تعلق الغرض الإلهي بحفظه وصيانته، كما تعلق بطول عمره. فإذا كانت صيانته

(١) انظر المعجزة في المفهوم الإسلامي، مخطوط للمؤلف.

منحصرة باختفاء شخصه، لزم على الله عز وجل تنفيذ هذه المعجزة وفاء بغرضه الكبير.

وتضيف هذه الأطروحة الأولى، قائلة: بأن هذا الاحتجاب قد يزول أحياناً، عندما توجد مصلحة في زواله: كما لو أراد المهدي عليه السلام أن يقابل شخصاً من البشر لأجل أن يقضي له حاجة أو يوجه له توجيهاً أو ينذره إنذاراً. فإن المقابلة تتوقف على رؤيته، ولا تتم مع الاختفاء.

ويكون مقدار ظهوره للناس محدوداً بحدود المصلحة، فإن اقتضت أن يظهر للناس ظهوراً تاماً لكل رائي تحقق ذلك، واستمرت الرؤية بمقدار أداء غرضه من المقابلة. ثم يحتجب فجأة فلا يراه أحد، بالرغم من أنه لم يغادر المكان الذي كان فيه. وإذا اقتضت ظهوره لشخص دون شخص تعين ذلك أيضاً، إذ قد يكون انكشافه للآخرين خطراً عليه.

وعلى ذلك تحمل كل أخبار مشاهدة المهدي عليه السلام خلال غيبته، حتى ما كان خلال الغيبة الصغرى، وخاصة فيما سمعناه في تاريخ الغيبة الصغرى[1] بأن المهدي عليه السلام ظهر لعمه جعفر الكذاب مرتين، ثم اختفى من دون أن يعلم أين ذهب. فإنه يعطي أن الاختفاء كان على شكل هذه الأطروحة.

وأما أخبار المشاهدة خلال الغيبة الكبرى، فبعضها ظاهر في الدلالة على ذلك، بل منها ما هو صريح به. بل أن بعض هذه الأخبار تتوسع، فتنسب الاختفاء إلى فرسه الذي يركبه وخادمه الذي يخدمه، بل حتى الصراف الذي يحوّل عليه شخصاً لأخذ المال[2].

---

(١) انظر ص٣٠٣

(٢) انظر النجم الثاقب، ص٣٥١.

وأود أن أشير في هذا الصدد إلى أن هذه الأطروحة في غنى عما نبزه بعض مؤرخي العامة على المعتقدين بغيبة المهدي عليه السلام. من أنه نزل إلى السرداب واختفى فيه ولم يظهر. كما سبق أن ناقشنا ذلك في تاريخ الغيبة الصغرى[1]. وأن أخبار مشاهدة المهدي عليه السلام في كل من غيبته الصغرى والكبرى مجمعة على مشاهدته في أماكن أخرى. وعلى أي حال، فهذه الأطروحة في غنى عن ذلك، لوضوح إمكان اختفاء المهدي عليه السلام بشخصه في أي مكان، ولا ينحصر ذلك في السرداب بطبيعة الحال.

وسيأتي في الفصول الآتية، ما يصلح أن يكون تكملة للتصور المترابط للمهدي عليه السلام بحسب هذه الأطروحة.

الأطروحة الثانية: أطروحة خفاء العنوان:

ونريد به أن الناس يرون الإمام المهدي عليه السلام بشخصه بدون أن يكونوا عارفين أو ملتفتين إلى حقيقته.

فإننا سبق أن عرفنا من تاريخ الغيبة الصغرى، أن المهدي عليه السلام رباه أبوه محتجباً عن الناس، إلا القليل من الخاصة الذين أراد أن يطلعهم على وجوده ويثبت لهم إمامته بعده. ثم ازداد المهدي عليه السلام احتجاباً بعد وفاة أبيه وأصبح لا يكاد يتصل بالناس إلا عن طريق سفرائه الأربعة. غير عدد من الخاصة المأمونين الذين كانوا باحثين عن الخلف بعد الإمام العسكري عليه السلام، كعلي بن مهزيار الأهوازي وغيره. وكان المهدي عليه السلام يؤكد عليهم في كل مرة الأمر بالكتمان والحذر.

---

(١) المصدر، ص٥٢٢.

وكلما تقدمت السنين في الغيبة الصغرى، وتقدمت الأجيال، قلّ الذين عاصروا الإمام العسكري عليه السلام وشاهدوا ابنه المهدي عليه السلام، حتى انقرضوا. ووجدت أجيال جديدة لا تعلم من أسلوب اتصالها بالإمام عليه السلام إلا الاتصال بسفيره، على أفضل التقادير. وكان هذا الجيل - بشكل عام - جاهلاً بالكلية بسحنة وشكل إمامه المهدي عليه السلام، بحيث لو واجهوه لما عرفوه البتة إلا بإقامته دلالة قطعية على شخصيته.

ومن هنا تيسر له - كما علمنا في ذلك التاريخ - فرصة السفر إلى مختلف أنحاء البلاد كمكة ومصر، من دون أن يكون ملفتاً لنظر أحد.

وهذا ما نعنيه من خفاء العنوان. فإن أي شخص يراه يكون غافلاً بالمرة عن كونه هو الإمام المهدي عليه السلام. وإنما يرى فيه شخصاً عادياً كسائر الناس لا يلفت النظر على الإطلاق.

ويمكن للمهدي عليه السلام أن يعيش في أي مكان يختاره وفي أي بلد يفضله سنين متطاولة، من دون أن يلفت إلى حقيقته نظر أحد. وتكون حياته في تلك الفترة كحياة أي شخص آخر يكتسب عيشه من بعض الأعمال الحرة كالتجارة أو الزراعة أو غيرها. ويبقى على حاله هذه في مدينة واحدة أو عدة مدن، حتى يأذن الله تعالى له بالفرج. ويمكن الاستدلال على هذه الأطروحة، انطلاقاً من زاويتين:

الزاوية الأولى:

الأخبار الواردة بهذا الصدد منها: ما أخرجه الشيخ الطوسي في الغيبة[1]

(١) انظر المصدر ص٢٢١.

عن السفير الثاني الشيخ محمد بن عثمان العمري أنه قال: والله إن صاحب هذا الأمر ليحضر الموسم كل سنة يرى الناس ويعرفهم ويرونه ولا يعرفونه.

والمقصود بصاحب هذا الأمر: الإمام المهدي عليه السلام، والمراد بالموسم موسم الحج. والرواية واضحة الدلالة على عدم اختفاء الشخص ومقترنة بالقسم بالله تعالى تأكيداً. وصادرة من سفير المهدي عليه السلام وهو أكثر الناس اطلاعاً على حاله.

ومنها: ما ورد عن السفير من قوله حول السؤال عن اسم الإمام المهدي عليه السلام: وإذا وقع الاسم وقع الطلب[١].

فإنه ليس في طلب الحكام للمهدي عليه السلام ومطاردتهم له، أي خطر ولا أي تأثير، لو كانت الأطروحة الأولى صادقة وكان جسم المهدي عليه السلام مختفياً، إذ يستحيل عليهم الوصول إليه. وإنما يبدأ الخطر والنهي عن الاسم تجنباً للمطاردة طبقاً للأطروحة الثانية. فإنه ما دام عنوان المهدي عليه السلام واسمه مجهولين، يكون في مأمن عن المطاردة، وأما إذا «وقع الاسم» وعرف العنوان، لا يكون هذا الأمن متحققاً ويكون احتمال المطاردة قوياً.

ومنها: ما ورد من التوقيع الذي خرج من المهدي عليه السلام إلى سفيره محمد بن عثمان رضي الله عنه يقول فيه: فإنهم إن وقفوا على الاسم أذاعوه، وإن وقفوا على المكان دلّوا عليه[٢].

فإنه لو صدقت الأطروحة الأولى لم يكن رؤية المهدي عليه السلام في أي مكان على الإطلاق، ولم يكن في الدلالة على أي مكان خطر أصلاً. وإنما يكون

---

(١) نفس المصدر، ص ٢١٩.

(٢) المصدر، ص٢٢٢.

الخطر موجوداً طبقاً للأطروحة الثانية.

ومنها: ما قاله أبو سهل النوبختي حين سئل فقيل له: كيف صار هذا الأمر إلى الشيخ أبي القاسم الحسين بن روح دونك، فقال: هم أعلم وما اختاروه. ولكن أنا رجل ألقى الخصوم وأناظرهم. ولو علمت بمكانه كما علم أبو القاسم وضغطتني الحجة على مكانه لعلّي كنت أدل على مكانه. وأبو القاسم فلو كانت الحجة تحت ذيله وقرض بالمقاريض ما كشف الذيل عنه[١].

ومن الواضح أنه لا معنى لكل هذه الاحتياطات والتحفظات مع صحة الأطروحة الأولى أي اختفاء شخص المهدي عليه السلام. وإنما لا بد من ذلك مع صحة الأطروحة الثانية، فإن الدلالة على المكان مستلزم لانكشاف العنوان. والقائل لهذا الكلام هو أبو سهل النوبختي الذي كان من جلالة القدر والوثاقة بحيث كان من المحتمل أن يكون هو السفير عن الإمام عليه السلام... ومن هنا سئل في هذه الرواية عن غض النظر عنه وإبداله بالشيخ ابن روح.

فهذه جملة من الأخبار الدالة على صحة الأطروحة الثانية، وبطلان الأولى. إلى أخبار غيرها لا نطيل الحديث بسردها.

الزاوية الثانية:

قانون المعجزات الذي يقول: إن المعجزة إنما تحدث عند توقف إقامة الحق عليها، واما مع عدم هذا التوقف، وإمكان إنجاز الأمر بدون المعجزة فإنها لا تحدث بحال. كما برهنا عليه في محله[٢].

---

(١) المصدر، ص٢٤٠.

(٢) انظر المعجزة في المفهوم الإسلامي، المخطوط.

ولا شك أن حفظ الإمام المهدي عليه السلام وبقاءه مما يتوقف عليه إقامة الحق بعد ظهوره. فلو توقف حفظه على إقامة المعجزة بخفائه شخصياً لزم ذلك. إلا أن هذا غير لازم لما عرفناه من كفاية خفاء العنوان في إنجاز الغرض المطلوب وهو حفظه من كيد الأعداء. وسنذكر فيما يلي بعض الإيضاحات لذلك. ومن هنا تكون معجزة اختفائه بلا موضوع، ويتعين الأخذ بالأطروحة الثانية.

ومن أجل تنظيم هذه الأطروحة فكرياً وبرهانياً، لا بد من الجواب عليها.

السؤال الأول:

إذا كان المهدي عليه السلام ظاهراً بشخصه للناس، وهم لا يعرفونه، فكيف لا يلتفتون إليه طوال السنين، وهم يرونه باقياً لا يموت، على حين يموت غيره من الناس.

وفي هذا السؤال غفلة عن الأسلوب الذي يمكن للمهدي عليه السلام أن يتخذه تلافياً لهذا المحذور. فإنه لو عاش في مدينة واحدة حقبة طويلة من الزمن لانكشف أمره لا محالة. ولكنه - بطبيعة الحال - لا يعمل ذلك، بل يقضي في كل مدينة أو منطقة، عدداً من السنين تكون كافية لبقاء غفلة الناس عن حقيقته.

فلو كان يقضي في كل مدينة من العالم الإسلامي خمسين عاماً، لكان الآن قد أكمل سكنى اثنتين وعشرين مدينة. وتوجد في العالم الإسلامي أضعاف ذلك من المدن التي يمكن للمهدي عليه السلام أن يسكنها تباعاً. كما يمكن أن يعود إلى نفس المدينة التي سكن بها، بعد مضي جيلين أو أكثر وانقراض من كان يعرف شخصه من الناس.

ومن البسيط جداً ألا ينتبه الناس إلى عمره خلال السنوات التي يقضيها في بلدتهم. فإن هناك نوعاً من الناس، نصادف منهم العدد غير القليل، تكون سحنتهم ثابتة التقاطيع على مر السنين. فلو فرضنا - في الأطروحة - كون المهدي عليه السلام على هذا الغرار، لم يكن ليثير العجب بين الناس، بعد أن يكونوا قد شاهدوا عدداً غير قليل من هذا القبيل.

ثم حين يمر الزمان الطويل، الذي يكون وجود المهدي عليه السلام فيه ملفتاً للنظر ومثيراً للانتباه، يكون المهدي عليه السلام قد غادر هذه المدينة بطريق اعتيادي جداً إلى مدينة أخرى ليسكن فيها حقبة من السنين. وهكذا.

السؤال الثاني:

أنه كيف تتم المقابلة مع الإمام عليه السلام، على الشكل الوارد في أخبار المقابلة؟ وكيف يختفي الإمام بعدها؟

أما حدوث المقابلة، ففي غاية البساطة، فإنه عليه السلام إذ يرى المصلحة في مقابلة شخص، فإنه يكشف له عن حقيقته إما بالصراحة، أو بالدلائل التي تدل عليه في النتيجة، لكي يعرف الفرد أن الذي رآه هو المهدي عليه السلام ولو بعد حين.

والمهدي عليه السلام يحتاج في إثبات حقيقته لأي فرد إلى دليل، لجهل الناس جهلاً مطلقاً بذلك. وهو يعبّر عن معجزة يقيمها الإمام عليه السلام في سبيل ذلك، وهذه المعجزة تقوم في طريق إثبات الحجة على المكلفين، فتكون ممكنة وصحيحة، وهي طريق منحصر لإثبات ذلك، كما هو واضح، إذ بدونها يحتمل أن لا يكون هو المهدي عليه السلام على أي حال.

والغالب في أخبار المشاهدة أن الفرد لا ينتبه إلى حقيقة المهدي عليه السلام إلا بعد فراقه، ومضي شيء من الزمان. لأن الفرد لا يستطيع أن يشخّص أن ما قام به المهدي عليه السلام أو ما قاله هو من المعجزات الخاصة به، إلا بعد مفارقته بمدة. وبذلك يضمن المهدي عليه السلام خلاصه من الاطلاع الصريح المباشر على حقيقته في أثناء المقابلة، فتندفع عنه عدة مضاعفات محتملة.

وأما أنه كيف يختفي المهدي عليه السلام بعد انتهاء المقابلة، فلذلك أطروحتان، من الممكن له تطبيق أي منهما:

الأولى: الاختفاء الشخصي الإعجازي. فيما إذا انحصر طريق التخلص به، فيكون مطابقاً مع قانون المعجزات.

الثانية: وهي المتحققة على الأغلب في ظروف اللقاء المنقولة لنا في أخبار المشاهدة، سواء ما وقع منها في عصر الغيبة الصغرى أو ما يقع في الغيبة الكبرى. وهو الاختفاء بطريق طبيعي، لعدم انحصار التخلص بالمعجزة. بل كان المهدي عليه السلام يزجي هذا الأمر بنحو عادي جداً غير ملفت للنظر. كما لو أصبح رفيقاً في السفر مع بعض الأشخاص ثم يفارقه[١] أو يبقى المهدي عليه السلام في مكانه ويسافر عنه الشخص الآخر[٢]. أو أن المهدي يوصل شخصاً إلى مأمنه من متاهة وقع فيها ثم يرجع. ولا يلتفت ذلك الشخص إلى حقيقة منقذه إلا بعد ذهابه[٣]. ويكون لغفلته هذه الأثر الكبير في سهولة وسرعة اختفاء المهدي عنه. ومع إمكان الاختفاء الطبيعي، يكون الاختفاء الإعجازي بلا موضوع.

---

(١) انظر الغيبة للشيخ الطوسي، ص١٨١.

(٢) انظر النجم الثاقب، ص٣٠٦.

(٣) انظر المصدر، ص٣٤١ وغيرها.

ويستطيع المهدي عليه السلام أن يخطط بمقابلته نحواً من الأسلوب، ينتج غفلة الرائي عن كونه هو المهدي عليه السلام في أثناء المقابلة. وإنما يتوصل إلى الالتفات إلى ذلك بعدها. ويقيم دلائله بحيث لا تكون ملفتة للنظر أثناء وقوعها، وإنما يحتاج الالتفاف إليها إلى شيء من الحساب والتفكير، لا يتوفر - عادة - إلى بعد اختفاء المهدي. وهذا هو الديدن الذي يطبقه الإمام عليه السلام في أغلب المقابلات.

وهذا التخطيط المسبق الذي يقوم به المهدي عليه السلام يغنيه عن التفكير في طريقة الاختفاء عند المقابلة. وإن كان لا يعدم - بغض النظر عن الاختفاء الإعجازي - مثل هذه الطريقة. ولئن كنا نرى في كل زمان أشخاصاً عارفين بطرق الاختفاء السريع، لمختلف الأغراض، كالبحث عن المجرمين أو الهرب من العقاب. أو عن مقابلة الدائن، أو غير ذلك... فكيف بالإمام المهدي عليه السلام صاحب القابليات غير المحدودة الذي يستطيع بها أن يحكم العالم كله، والمعد لذلك من الله تعالى إعداداً خاصاً.

السؤال الثالث:

إن من يرى المهدي عليه السلام، فسوف يعرفه بشخصه، وسيعرفه كلما رآه. وهو ما يؤدي بالمهدي عليه السلام تدريجاً إلى انكشاف أمره وانتفاء غيبته المتمثلة بخفاء عنوانه والجهل بحقيقته. إذ من المحتمل للرائي أن يخبر الآخرين بذلك، فيعرفون حقيقته وينكشف أمره.

ويمكن الانطلاق إلى الجواب على مستويات ثلاثة:

المستوى الأول:

إن الفرد الذي يحظى بمقابلة المهدي عليه السلام لن يكون إلا من خاصة

المؤمنين المتكاملين في الإخلاص - على الأغلب - ومثل هذا الفرد يكون مأموناً على إمامه عليه السلام من النقل إلى الآخرين. فإن الناس لا يعلمون من هذا الشخص أنه رأى المهدي وعرفه، وله الحرية في أن يقول ذلك أو أن يستره، أو أن يبدي بعض الحادث ويخفي البعض الآخر، بالمقدار الذي يحقق به مصلحة الغيبة والستر على الإمام الغائب عليه السلام.

المستوى الثاني:

إذا لم يكن الرائي مأموناً، فيما إذا اقتضت المصلحة مقابلته، فقد يكون بعيد المزار جداً، ويكون المهدي عليه السلام عالماً سلفاً بأنه لن يصادفه في مدينته أو في الأماكن التي يطرقها طيلة حياته. ومعه فيكون الخطر المشار إليه في السؤال غير ذي موضوع.

المستوى الثالث:

إذا كان الرائي قريباً في مكانه من المنطقة التي يسكنها المهدي عليه السلام ولم يكن مأموناً، فإنه يحتاج المهدي إلى تخطيط معين لتفادي الخطر المذكور.

ولعل أوضح تخطيط وأقربه إلى الأذهان هو أن يغير زيه الذي يعيش به عادة بين الناس ليقابل الفرد المطلوب بزي جديد. ومن هنا نرى الإمام المهدي عليه السلام - على ما دلت عليه الروايات - يقابل الناس بأزياء مختلفة. ففي عدد من المرات يكون مرتدياً عقالاً وراكباً جملاً أو فرساً. وفي مرة على شكل فلاح يحمل المنجل، وأخرى على شكل رجل من رجال الدين العلويين[١]. وهذا أحسن ضمان لعدم التفات الناس إلى شخصيته المتمثلة بزيه العادي.

---

(١) راجع ذلك في النجم الثاقب في عدد من مواضيع الكتاب.

على أن المقابلات تقترن في جملة من الأحيان، بأشكال من الضرورة والحرج عند الفرد، وهي الضرورة التي يريد المهدي عليه السلام إزالتها، على ما سنسمع، ومثل هذا الفرد يصعب عليه، وهو في حالته تلك تمييز سحنة الإمام عليه السلام بشكل يستطيع أن يشخصه بعد ذلك، خاصة وهو في زيه التنكري.

وهناك أساليب أخرى، يمكن اتخاذها في هذا الصدد، لا ينبغي أن نطيل بها الحديث.

ولو فرض أنه احتاج الأمر وانحصر حفظ الإمام عليه السلام بالإعجاز بطريق الاختفاء الشخصي، لو قابله الفرد الرائي مرة ثانية، لكان ذلك ضرورياً ومتعيناً. أو تكون المعجزة على شكل نسيان الرائي لسحنة الإمام عليه السلام بعد المقابلة.

فهذه ثلاثة أسئلة مع أجوبتها تضع الملامح الرئيسية على أطروحة خفاء العنوان. وسيأتي لها العديد من الإيضاحات والتطبيقات في الفصول الآتية.

وعرفنا أيضاً كيف تتبرهن هذه الأطروحة في مقابل الأطروحة الأولى، من حيث أن باستطاعة الإمام المهدي عليه السلام أن يحتجب عن الناس بشكل طبيعي لا إعجاز فيه، ما لم يتوقف احتجابه على الإعجاز، طبقاً لقانون المعجزات. وإذا تمّ ذلك يكون الالتزام باختفائه الشخصي الدائم، بالمعجزة، منفياً بهذا القانون، وينبغي تأويل أو نفي كل خبر دال عليه.

كما أن هذه الأطروحة الثانية، هي التي تنسجم مع التصورات العامة التي اتخذناها في فهم الأسلوب العام لحياة الإمام المهدي عليه السلام في غيبته الصغرى.

* * *

ونود أن نشير في خاتمة هذه الأطروحة إلى نقاط ثلاث:

النقطة الأولى:

أننا إذ نعرف أن المهدي عليه السلام متى استطاع الاحتجاب بشكل طبيعي، فإن المعجزة لا تساهم في احتجابه... لا نستطيع - على البعد - مقتضيات الظروف والأحوال التي يمر بها المهدي عليه السلام في كل مقابلة. وهل كان بإمكانه أن يختفي بشكل طبيعي، أو يتعين عليه الاختفاء الإعجازي.

فمثلاً: إن لاختفائه بعد مقابلته لجعفر الكذاب مرتين، احتمالين، هما اختفاؤه الشخصي أو اختفاؤه الطبيعي، بحسب الظروف التي كان يعيشها المهدي عليه السلام يومئذ. وأما بدء هذه المقابلة فلا حاجة إلى افتراض كونه إعجازياً، بأي حال، كما ذهب إليه رونلدسن[1]، بل يمكن أن يكون طبيعياً اعتيادياً.

وعلى أي حال، فبعض الروايات، يمكنها أن تعطينا الظرف الذي تنتهي به المقابلة. حيث يتضح من بعضها إمكان الاحتجاب الطبيعي، كما سبق أن مثلنا. بينما يتضح من بعضها تعيّن الاحتجاب الإعجازي أحياناً، كما ستسمع في مستقبل هذا التاريخ.

النقطة الثانية:

في الإلماع إلى الأنحاء المتصورة لما يحصل بالمعجزة من أثر يوجب اختفاء الجسم على الناظر، بالرغم من اقتضاء القوانين الكونية لحصول الرؤية.

فنقول: إن المعجزة أما أن تتصرف في الرائي أو في المرئي. فتصرفها في الرائي هو جعله بنحو يعجز عن إدراك الواقع الذي أمامه. فيرى المكان خالياً

(١) انظر عقيدة الشيعة، ص ٢٣٧.

عن الإمام المهدي عليه السلام مع أنه موجود فيه بالفعل. فلو تعين بحسب المصلحة الملزمة والغرض الإلهي، أن يراه شخص دون شخص، كان نظر من يراه اعتيادياً، ونظر من لا يراه محجوباً بالمعجزة. وكذلك أيضاً التصرف في الحواس الأخرى كالسمع واللمس وغيرها، وقد تحتجب بعض حواس الفرد دون بعض، فيسمع صوت المهدي عليه السلام من دون أن يراه[1].

وفرق الأطروحتين الرئيسيتين بالنسبة إلى الإعجاز الإلهي هو: أن الأطروحة الأولى ترى أن هذا الإعجاز هو الأمر الاعتيادي الدائم والثابت لكل الناس، بالنسبة إلى حياة المهدي عليه السلام حال غيبته الكبرى. وإنما تحتاج مقابلته إلى استثناء عن هذا الدوام. على حين ترى الأطروحة الثانية أن الأمر الاعتيادي الدائم هو انكشاف جسم المهدي عليه السلام للناس وإمكان معاشرته معهم. ويحتاج اختفاء شخصه إلى استثناء لا يحدث إلا عند توقف حفظ الإمام المهدي عليه السلام عليه. وأما تصرف المعجزة في المرئي أي الواقع الموضوعي القابل للرؤية. فأوضح طريق لذلك هو أن تحول المعجزة دون وصول الصورة النورية الصادرة عن جسم المهدي عليه السلام أو ذبذباته الصوتية، وغير ذلك مما تتقبله الحواس الخمس... تحول دون وصولها إلى الرائي أو السامع. ومعه يكون الفرد عاجزاً أيضاً عن الإحساس بالواقع الموضوعي الذي أمامه. وهناك أكثر من نحو واحد، متصور للمعجزة في محل الكلام، وهي تحتاج إلى بحث فلسفي وفيزياوي مطول، فيكون الأحجى أن نضرب عنه صفحاً تحاشياً للتطويل.

النقطة الثالثة:

أنه ساعد الإمام المهدي عليه السلام في غيبته عوامل نفسية أربعة متحققة لدى

---

(١) البحار، ج٣، ص ١٤٦.

الناس على اختلاف نحلهم واتجاهاتهم، مما جعل عليهم من الممتنع التصدي للبحث عنه لأجل الاستفادة منه أو التنكيل به.

العامل الأول:

الجهل بشكله وهيئة جسمه جهلاً تاماً. وهو عامل مشترك بين أعدائه ومحبيه.

العامل الثاني:

إنكاره من قبل غير قواعده الشعبية بما فيهم سائر الحكام الظالمين الذين يمثل المهدي رمز الثورة عليهم وإزالة نظمهم من الوجود. فهم في إنكارهم له مرتاحين عن مطاردته، وهو مرتاح من مطاردتهم.

العامل الثالث:

ارتكاز صحة الأطروحة الأولى عند عدد من قواعده الشعبية، أخذاً بظواهر الأخبار التي سمعناها. إذ مع صحتها لا يكون هناك سبيل إلى معرفته بل يستحيل الإحساس بوجوده، إلا عن طريق المعجزة، وهي لا تتحقق إلا للأوحدي من الناس.

العامل الرابع:

الإيمان بعناية الله تعالى له وحفظه ليومه الموعود. فمتى تعلّقت المصلحة بالمقابلة مع المهدي عليه السلام كان هو الذي يريدها. ومتى لم تتعلق بها المصلحة، فالأصلح للإسلام والمسلمين ألا تتم المقابلة وإن تحرّق الفرد المؤمن إليها شوقاً. ومن هنا يكون الفرد الاعتيادي في حالة يأس من مقابلته والتعرف إليه.

الفصل الثاني

التكليف الإسلامي للإمام المهدي عليه السلام في غيبته الكبرى. وما يقوم بتنفيذه تجاه الإسلام والمسلمين من أعمال نافعة ومصالح كبرى

ينقسم تكليف الإمام عموماً في الإسلام عند ظهوره وعدم وجود المانع عن عمله، إلى عدة أقسام:

القسم الأول:

وجوب توليه رئاسة الدولة وقيادة الأمة، بمعنى تطبيق الأطروحة الكاملة للعدل الإسلامي على وجه الأرض. والأخذ بالأزِمَّة العليا للمجتمع لأجل ضمان هذا التطبيق.

القسم الثاني:

وجوب الدعوة الإسلامية، بمعنى إدخال المجتمع الكافر في بلاد الإسلام، إما بالحرب أو بالصلح أو بغيرهما.

القسم الثالث:

وجوب الحفاظ على المجتمع المسلم ضد الغزو الخارجي، والدفاع عن بيضة الإسلام بالنفس والنفيس.

القسم الرابع:

وجوب الحفاظ على المجتمع المسلم ضد الانحراف وشيوع الفساد في العقيدة أو السلوك بالتوجيه الصالح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ تعاليم الإسلام.

وهذه الأقسام الأربعة، تجب وجوباً مطلقاً في أي مكان وزمان، يجب أن يبذل الإمام والأمة في سبيلها أقصى ما يستطيع وتستطيع.

القسم الخامس:

وهو خاص بصورة عجز الإمام عن جملة من الأعمال السابقة، لكونه يعيش في مجتمع منحرف يطارده ويراقبه ويعزله عن الأعمال الاجتماعية والسياسية، كما كان عليه حال أئمتنا عليهم السلام - بشكل عام -. وقد حملنا عن بعض جوانب ذلك صورة واضحة في تاريخ الغيبة الصغرى.

ففي مثل ذلك يكون عمل الإمام - كما رأينا في ذلك التاريخ - مكرساً في الأغلب - على الحفاظ على قواعده الشعبية ومواليه، وعلى حسن علاقتهم بالآخرين وحسن تلقيهم تعاليم الدين وتطبيقهم أحكام الإسلام.

نعم، إن وجد الإمام طريقاً أحياناً إلى القيام ببعض الأعمال الإسلامية على نطاق واسع. وكان المانع مرتفعاً عنه في ذلك العمل، وجب عليه إنجازه، وكان ذلك العمل أوسع من قواعده الشعبية وشاملاً خيره لكل بلاد الإسلام.

القسم السادس:

وجوب إغاثة الملهوف وإعانة المضطر. وهو تكليف عام لا يختص

بالإمام عليه السلام، بل يعم كل مسلم. نعم، قد يحول العجز عن الإغاثة أو وجود عمل أو هدف إسلامي أهم، فيسقط وجوبها، كما قرر في محله بحسب القواعد الإسلامية.

إذا علمنا هذه الأقسام، وعلمنا أن الإمام المهدي عليه السلام، يجب عليه بالنظر الأولي كل هذه الأمور جملة وتفصيلاً، يجب أن يؤدي منها ما يستطيع إليه سبيلاً. شأنه في ذلك شأن أي إمام آخر. وقد أدى الأئمة من آبائه عليهم السلام، ما استطاعوا من هذه التكاليف، وتركوا ما عجزوا عنه، أو اقتضت المصالح الإسلامية العليا تركه.

أما الإمام المهدي عليه السلام نفسه، فهو مذخور للقيام بدولة الحق في اليوم الموعود، وهو من أعظم الأهداف الإلهية، يرتبط بأصل خلقة البشرية ووجودها على ما سنبرهن عليه في مستقبل هذا التاريخ. وقد علمنا من القواعد العامة بما فيها قانون المعجزات بأن الأهداف الإلهية العليا تتقدم على أي شيء آخر، فكل ما تتوقف على حدوثه فإنه يحدث لا محالة وكل ما تتوقف على انتقائه وانعدامه فإنه ينتفي لا محالة، سواء كان ذلك من أمور الكون أو من أحكام الشريعة.

فإذا نظرنا إلى هذا الهدف المهم، الذي ذخر المهدي عليه السلام له، وجدنا أن أموراً عديدة يتوقف على حدوثها كوجود المهدي عليه السلام وغيبته، والمعجزة التي تتكفل طول بقائه، والمعجزة التي تتكفل اختفاءه الشخصي أحياناً لصيانته من الأخطار. كما نجد أن أموراً يتوقف اليوم الموعود على انتفائها. فمن ذلك في جانب الأحكام: إن كل حكم شرعي يكون تطبيقه منافياً مع حفظ الإمام المهدي أو غيبته وبالتالي يكون منافياً مع وجود اليوم الموعود نفسه، فإن هذا التطبيق يكون ساقطاً شرعاً عن الإمام، ولا يجب عليه امتثال الحكم وتنفيذه. وأما الأحكام الشرعية الإسلامية غير المنافية مع هذه الأمور، سواء الأحكام

الشخصية كوجوب الصلاة والصوم،أو العامة كوجوب الأمر بالمعروف - مثلاً- على ما سنسمع، فلا موجب للالتزام بسقوطها، بل تكون شاملة له ويجب عليه تنفيذها لفرض استطاعته ذلك، باعتبار عدم منافاتها مع غيبته وهدفه.

إذا علمنا ذلك، استطعنا أن نحكم بوضوح بسقوط التكليف بأي واحد من الأقسام السابقة، إذا كان مستلزماً لانكشاف أمره وزوال غيبته. وهذا واضح إلى حد كبير في الأقسام الثلاثة الأولى، فإنه مستلزم لذلك عادة، إلا أن يفترض كونه قائداً أو موجهاً بشخصية ثانوية يعرف بها غير صفة الحقيقة على ما سيأتي.

وبغض النظر عن ذلك، تكون الأطروحتان الرئيسيتان للغيبة، مختلفتين في المدلول:

أما بناء على صحة أطروحة خفاء الشخص، فكل الأقسام يمتنع عليه القيام بها، إلا ما كان خلال الأحوال الاستثنائية التي تتم فيها المقابلة مع الآخرين. لوضوح أنه حال اختفائه لا يمكنه القيام بأي عمل.

وقد يخطر في الذهن، أنه يمكن للمهدي عليه السلام الظهور التام، والقيام بسائر الأعمال وتطبيق كل الأحكام.

والجواب: إن هذا قبل أوانه لا يكون ممكناً. أولاً: لأنه منوط بإذن الله تعالى لا بإذن المهدي عليه السلام. وثانياً: لأن لانتصاره في يوم ظهوره شرائط معينة على ما سنعرف وبدون تحقق هذه الشرائط لا يمكن الانتصار وبالتالي لا يتحقق الهدف الأسمى المطلوب. إذن فلا بد من تأجيل الظهور الكامل إلى حين تحقق تلك الشروط، ولا تجوز المبادرة إليه في الظروف غير المدروسة وتحت المناسبات الطارئة.

نعم، يبقى احتمال واحد، على تقدير صحة الأطروحة الأولى، وهو إمكان الإكثار من المقابلات والظهورات المتقطعة. وهي وإن كانت استثناء من الحال الاعتيادي للمهدي عليه السلام إلا أنها تتضمن - على أي حال - تطبيقاً للحكم الإسلامي وإنقاذاً لبلاد الإسلام من عدد من المظالم التي تقع فيها. فلماذا لم يحدث ذلك واقتصرت المقابلات على قليل من الموارد نسبياً.

وهذا السؤال لا نجد له جواباً بناء على صحة الأطروحة الأولى، لعدم تعرض الإمام المهدي عليه السلام لأي خطر، باعتبار إمكان اختفائه في اللحظة التي يشاء. ومعه يكون تطبيق الحكم الشرعي ممكناً بالنسبة إليه، فيكون واجباً عليه. على حين لم يحدث ذلك بالكثرة المطلوبة جزماً، وإلا لاشتهر أمره وشاع. وهذا بنفسه يدل على بطلان هذه الأطروحة، إذ عدم قيام الإمام المهدي عليه السلام بذلك يدل على عدم وجوبه عليه، وحيث إننا برهنا بوجود التكليف عليه على تقدير صحة الأطروحة، إذن فالقول بصحتها مستلزم للقول بتقصير الإمام المهدي عليه السلام في تطبيق أحكامه. وهو واضح البطلان، إذن فهذه الأطروحة باطلة.

وهناك مناقشات وجدل، يعود إلى هذا الأمر يحسن عدم الإطالة في ذكره.

* * *

وأما بناء على صحة الأطروحة الثانية، كما هو الصحيح... فهذا الاحتمال الذي كنا نناقشه، وهو إمكان الإكثار من الظهورات والمقابلات يكون واضح الفساد، بل هو منتف موضوعاً. لأن تعدد الظهور بكثرة يؤدي إلى تعرف الكثيرين على حقيقته وانكشاف أمره، ومن ثم يكون منافياً مع غيبته وقد عرفنا أن كل أمر مناف للغيبة لا يمكن حدوثه، قبل تحقق شرائط

اليوم الموعود.

وقد يخطر في الذهن: بأن تخطيطاً دقيقاً يمكن أن يقوم به المهدي عليه السلام في كل مقابلة، كفيل بعدم انكشاف أمره، وجوابه: بأن كثرة الظلم وتعدد حاجات الناس وضروراتهم، يوجب كثرة الظهور وكثرته تكون موجبة لإلفات النظر إليه بنحو لا يفيد معه تخطيط دقيق.

كما قد يخطر في الذهن: بأن المهدي يمكنه إخفاء شخصه بالمعجزة في أوقات الخطر. إذن فليظهر للعمل موقتاً، ثم فليختف متى استلزمت المصلحة ضرورة الاختفاء.

وهذه الفكرة لها عدة أجوبة أهمها أمران:

الأمر الأول:

إن معنى ذلك توقف تنفيذ الأحكام الشرعية على المعجزة. لأن تنفيذه من قبل المهدي عليه السلام مستلزم عادة لوقوعه في الخطر، نتيجة لانحراف المجتمع، فيكون مستلزماً لاختفائه الإعجازي. ونحن نعلم، بحسب القواعد الإسلامية، إن كل حكم شرعي إذا توقف على المعجزة لم يكن تنفيذه واجباً، إلا ما يمت إلى أصل الإسلام بصلة، كإثبات النبوة أو الإمامة أو إقامة دولة الحق. ومن الواضح أن الحكم الشرعي بوجوب إغاثة المضطر - مثلاً - لا يمت إلى أهل الإسلام بصلة، فلا يكون واجباً.

الأمر الثاني:

أنه لو تعددت ظهورات المهدي عليه السلام فسوف يعرفه الكثيرون بمجرد رؤيته، فيلزمه الاختفاء قبل أن تسنح له فرصة العمل. وهذا معناه أن كثرة

الظهور في أي زمان تمنع عن مواصلة أي شكل من أشكال العمل.

• • •

وعلى أي حال، فالعمل المتصور للإمام المهدي عليه السلام بناء على ما هو الصحيح من صحة الأطروحة الثانية، على قسمين: عمل يقوم به بصفته الحقيقية، بحيث يمكن للفرد نسبته إليه ولو بعد انتهاء العمل. وعمل يقوم به حال كونه مجهول الحقيقة، يعيش في المجتمع كفرد عادي، بشخصية ثانوية، في اسم آخر وحرفة ومكان غير ملفت لأي نظر.

أما العمل بصفته الحقيقية، في تنفيذ ما يمكنه تنفيذه من الأقسام السابقة للتكاليف الإسلامية، فحاله هو ما سبق أن قلناه قبل أسطر. وقد رأينا أنه من غير المحتمل أن يكون المهدي عليه السلام شرعاً مكلفاً بذلك، لتعذر العمل عليه بهذه الصفة، طبقاً لكلتا الأطروحتين.

لا يبقى - بعدها - إلا الأعمال التي أعربت عنها أخبار المشاهدة في الغيبة الكبرى، مما يمت إلى القسمين الأخيرين من التكاليف بصلة، على ما سنوضح عند دراسة المقابلات في مستقبل هذا التاريخ. فإن هذا العدد من المقابلات لا ينافي غرضه ولا يخل بغيبته.

وأما عمله بصفته فرداً اعتيادياً في المجتمع، فهذا ما لا دليل على نفيه بحال، بل استطعنا الاستدلال عليه، كما سبق، حسبنا من ذلك إمكان العمل بالنسبة إليه، وعدم منافاته مع غيبته وخفاء عنوانه بحال، فيكون واجباً عليه، كأي فرد آخر من المسلمين يجب عليه أن يؤدي أي عمل ممكن في مصلحة الإسلام. وهو أعلى وأولى من يلتزم بإطاعة أحكام الإسلام.

ومن هنا لا يمكننا أن نتصوره عليه السلام إلا قائماً بواجبه في أي قسم من

الأقسام السابقة اقتضت المصلحة في تنفيذه. كهداية شخص أو جماعة من الكفر إلى الإسلام أو من الانحراف إلى الوعي أو من الظلم إلى الاعتدال، أو جعل الموانع ضد الظلم القائم في المجتمع، في تأثيره على الإسلام والمسلمين عامة وضد قواعده الشعبية خاصة. إلى غير ذلك، وما أدرانا كيف سيصبح حال المجتمع المسلم لو سحب الإمام عليه السلام لطفه وكف أعماله. وإلى أي درجة من الضلال والظلم يمكن أن يبلغ.

على أننا نحتمل في كل عمل خيري عام أو سُنّة اجتماعية حسنة أو فكرة إسلامية جديدة، أو نحو ذلك من الأمور... نحتمل أن يكون وراءها أصبع مخلص متحرك من قبل الإمام المهدي عليه السلام. وأنه هو الذي زرع بذرته الأولى في صدر أو عمل أحد الأشخاص أو الجماعات... بحيث أنتجت أكلها في كل حين بإذن ربها. وهذا الاحتمال لا نافي له، بتقدير صدق أطروحة خفاء العنوان. ومجرد الاحتمال يكفينا بهذا الصدد، بصفته أطروحة محتملة تنسجم مع الأدلة العامة والخاصة، كما ذكرنا في المقدمة.

وهذا هو المراد الحقيقي الواعي من النصوص الواردة عن المهدي عليه السلام نفسه، والتي تثبت قيامه بالعمل النافع بوضوح.

فمن ذلك قوله المشهور: وأما وجه الانتفاع بي في غيبتي، فكالانتفاع بالشمس إذا غيبها عن الأبصار السحاب[١]. وأضاف عليه السلام: وأني لأمان لأهل الأرض كما أن النجوم أمان لأهل السماء.

فالسحاب كناية عن خفاء العنوان. والشمس كناية عن التأثير النافع المنتج في المجتمع. بعد وضوح أن العمل الذي يمكن للمهدي عليه السلام تنفيذه مع جهل

(١) الاحتجاج، ج٢، ص٢٨٤ وغيرها.

الناس بحقيقته وعنوانه - أي في غيبته -، أقل بكثير مما يستطيع القيام به حال ظهوره وإعلان أمره.

وهذا الفهم هو المعين لهذا الحديث الشريف، بناء على أطروحة خفاء العنوان. لا ما ذكروه[١] من التفسيرات التي يرجع بعضها إلى وجود تشريفي فلسفي للإمام عليه السلام، وبعضها إلى أنحاء تقديرية من النفع. وإنما ذكر علماؤنا الأسبقون إنما من باب «ضيق الخناق» وعدم الالتفات إلى هذا الفهم الواعي.

نعم، يتعين المصير إلى تلك التفسيرات بناء على أطروحة خفاء الشخص. حيث يتعذر العمل على المهدي عليه السلام إلا بالمقدار القليل الذي تدل عليه أخبار المشاهدة - كما عرفنا -، مما لا يكاد يكفي أن يكون نفعاً عاماً مشابهاً لنفع الشمس وإن غيبها السحاب. فلا بد - والحال هذه - من الأخذ في فهم النص بتلك التفسيرات. ولكننا حيث قلنا ببطلان هذه الأطروحة، يتعين أن نأخذ بفهمنا الواعي لهذا الحديث.

ومن ذلك: ما روي عن المهدي عليه السلام مخاطباً لقواعده الشعبية: أنّا غير مهملين لمراعاتكم ولا ناسين لذكركم. ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء واصطلمكم الأعداء. فاتقوا الله جل جلاله. وظاهرونا على انتياشكم من فتنة قد أنافت عليكم، يهلك فيها من حم أجله، ويحمى عنها من أدرك أمله[٢].

ونحن نعلم أن وقوفه عليه السلام ضد الأعداء ونزول اللأواء - وهي الشدائد -، لا يكون إلا بالعمل المثمر والجهاد الحقيقي على الصعيدين العام والخاص. وخاصة، وهو يأمرنا بمظاهرته أي معاونته وموافقته على إخراجنا من الفتنة

(١) أنظرها في بيان مفصل لصاحب البحار في ج١٣، ص١٢٩.

(٢) الاحتجاج، ج٢، ص٣٢٣.

والنجاة من الهلكة. فإن على كل فرد مسؤولية تامة في ذلك، ولا تنحصر المسؤولية بالقائد، كما هو واضح، بل أن شعوره بالمسؤولية لا يكاد يكون مثمراً من دون شعور شعبه ورعيته بمسؤوليتهم تجاه قائدهم ومبدئهم أيضاً.

إذن، فهو عليه السلام يحمل هم شعبه ومواليه، يتذكرهم دائماً ويعمل على حفظهم ودرء المخاطر عنهم باستمرار، بمقدار ما يمكنه أن يؤديه من عمل، تماماً كما عرفنا عن آبائه عليهم السلام، وكما عرفناه في خلال غيبته الصغرى. غاية الفرق أن تلك الأعمال كانت منه ومن آبائه عليهم السلام بالصفة الحقيقية لهم. وأما عمله خلال هذه الفترة، فليست بهذه الصفة، وإنما بصفته فرداً اعتيادياً في المجتمع.

ولكن الإمام المهدي عليه السلام يتوخى في موارد عمله وجود شرطين أساسيين، إن اجتمعا كان في إمكانه أن يتصدى للعمل، وإن تخلف أحدهما ترك العمل لا محالة وأبقى الواقع على واقعه.

الشرط الأول:

أن لا يؤدي به عمله إلى انكشاف أمره وانتفاء غيبته. إذ من الواضح أن المهدي عليه السلام حين يقوم بالأعمال العامة الإسلامية، بصفته فرداً عادياً في المجتمع، يمكنه أن يستمر بها إلى حد معين ليس بالقليل. ولكنه لو لمع اسمه واشتهر صيته، بـ«شخصيته الثانوية» لكان هناك احتمال كبير في انكشاف حقيقته وافتضاح سره. لا أقل من أن ينتبه الناس إلى غموض نسبه وجهالة أصله، فيوصلوا بالفحص والسؤال إلى حقيقته، أو يحتملوا ذلك على الأقل، وهو ما لا يريده الله تعالى أن يكون.

إذن فعمل المهدي عليه السلام لا بد أن يقتصر على الحدود التي لا تؤدي إلى

انكشاف أمره، فيدقق في ذلك ويخطط له، وهو الخبير الألمعي ويحسب لكل عمل حسابه. وأي عمل علم أن التدخل فيه يوجب الانكشاف انسحب عنه، مهما ترتبت عليه من نتائج، لأن انحفاظ سره وذخره لليوم الموعود، أهم من جميع ما يتركه من أعمال.

ولكن هذا لا ينافي تأثيره في الأعمال الإسلامية الخيرة التي نراها سائدة في المجتمع. وذلك لإمكان أن يكون هو المؤثر في تأسيسها حال صغرها وضآلة شأنها، وقد أودعها إلى المخلصين الذين يأخذون بها ويذكون أوارها، بدون أن يلتفتوا أو يلتفت إلى حقيقة عمله، بقليل ولا بكثير.

الشرط الثاني:

أن لا يؤدي عمله إلى التخلف والقصور في تربية الأمة، أو اختلال شرائط يوم الظهور الموعود.

بيان ذلك: أننا أشرنا أن ليوم الظهور الموعود شرائط سوف نتعرض لها تفصيلاً في مستقبل هذا التاريخ. ولكل شرط من تلك الشروط أسبابه وعلله. تلك الأسباب التي تتولد وتنشأ في عصر ما قبل الظهور. حتى ما إذا آتت أكلها وأثرت تأثيرها بتحقيق تلك الشروط وإنجازها، كان يوم الظهور قد آن أوانه وتحققت أركانه.

والمهدي عليه السلام، حيث يعلم الشرائط والأسباب، مكلف - على الأقل - بحماية تلك الأسباب عن التخلف أو الانحراف، لئلا يتأخر تأثيرها أو ينخفض عما هو المطلوب إنتاجها. إن لم يكن مكلفاً بإذكاء أوارها والسير الحثيث في تقدم تأثيرها.

ومن أهم شرائط اليوم الموعود: أن تكون الأمة ساعة الظهور على مستوى عال من الشعور بالمسؤولية الإسلامية، والاستعداد للتضحية في سبيل الله عز وجل. أو على الأقل، أن يكون فيها العدد الكافي ممن يحمل هذا الشعور ليكون هو الجندي الصالح الذي يضرب بين يدي المهدي عليه السلام ضد الكفر والانحراف، ويبني بساعده المفتول الغد الإسلامي المشرق. ويكون الجيش المكون من مثل هذا الشخص هو الجيش الرائد الواعي الذي يملأ الأرض بقيادة المهدي عليه السلام قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

وإذا كان ذلك من الشرائط، فلا بد من توفر أسبابه في زمن ما قبل الظهور، في عصر الغيبة الكبرى، والمحافظة على هذه الأسباب.

وإن السبب الرئيسي الكبير لتولد الوعي والشعور بالمسؤولية الإسلامية والإقدام على التضحية لدى الأمة، هو مرورها بعدد مهم من التجارب القاسية والظروف الصعبة وإحساسها بالظلم والتعسف ردحاً كبيراً من الزمن... حتى تستطيع أن تفهم نفسها وأن تشخص واقعها وتشعر بمسؤوليتها. فإن هذه الصعوبات كالمبرد الذي يجلو الذهب ويجعل السكين نافذاً. فإن الأمة – في مثل ذلك – لا تخلد إلى الهدوء والسكون، بل تضطر إلى التفكير بأمرها وبلورة فكرتها وتشخيص آلامها وآمالها وتشعر بنحو وجداني عميق بسهولة التضحية في سبيل الأهداف الكبيرة ووجوبها إذا لزم الأمر ونادى منادي الجهاد.

وتلك الأمة الواعية هي التي تستطيع أن تضرب قدماً بين يدي الإمام المهدي عليه السلام وأن تؤسس العدل المنتظر في اليوم الموعود. دون الأمة المنحرفة المتداعية، أو الأمة المنعزلة المتحنثة. وسيأتي لذلك إيضاحات عديدة وسنسمع له شواهد كثيرة من الكتاب والسنة.

فإذا كان مرور الأمة بظروف الظلم والتعسف ضرورياً لتحقيق شرط اليوم الموعود، ومثل هذا الشرط يجب رعايته والمحافظة عليه... إذن فالمهدي عليه السلام بالرغم من أنه يحس بالأسى لمرور شعبه وقواعده بمثل هذه الظروف القاسية، إلا أنه لا يتصدى لإزالتها ولا يعمل على تغييرها، تقديماً لمصلحة اليوم الموعود على أهل هذا اليوم الموجود.

وأما ما لا يكون من الظلم دخيلاً في تحقيق ذلك الشرط، وكان الشرط الأول لعمل المهدي عليه السلام متوفراً فيه أيضاً، فإن الإمام المهدي عليه السلام يتدخل لإزالته ويعمل على رفعه، بموجب التكليف الشرعي الإسلامي المتوجه إليه.

ونحن - الذين لا نعيش نظر المهدي عليه السلام وأهدافه - نكاد نكون في جهل مطبق، من حيث تشخيص أن هذا الظلم هل له دخل في تحقيق شرط الظهور أو لا. ما عدا بعض موارد التخمين. فإنه يحتاج إلى نظر بعيد يمتد خلال السنين إلى يوم الظهور. وهذا النظر منعدم لدى أي فرد في العالم ما عدا المهدي عليه السلام نفسه. فيعود تشخيص ذلك إليه، بما وهبه الله تعالى من ملكات وقابليات على تشخيص الداء والقيادة نحو الدواء.

* * *

عدة نقاط:

أود الإشارة في نهاية هذا الفصل إلى عدة نقاط:

النقطة الأولى:

إن ما ذكرناه قبل لحظة، من وجود بعض أشكال الظلم منتج لشرط يوم الظهور، وهو وعي الأمة وشعورها بالمسؤولية... وأن المهدي عليه السلام لا يقف حائلاً ضد هذا الظلم ولا يعمل على رفعه... لا يمكن أن ندعي وجوب الاقتداء بالمهدي عليه السلام في ذلك أو أن لنا به أسوة حسنة في ذلك، فيجب إهمال الظلم يفتك بالأمة بدون أن نحاول إصلاحه أو نحول دون تأثيره. لا يمكن أن يكون هذا صحيحاً، للفرق بين تكليفنا الشرعي وتكليفه وبين مسؤوليتنا ومسؤوليته.

بيان ذلك: أن كلا الشرطين اللذين عرفناهما لعمل المهدي عليه السلام غير موجودين فينا، فيكون تكليفنا الإسلامي أوسع بكثير من هذه الجهة من تكليف الإمام المهدي عليه السلام خلال غيبته.

أما الشرط الأول: وهو عدم انتفاء الغيبة والمحافظة على ستر العنوان... فمن الواضح عدم توفره فينا. بل هو من مختصاته عليه السلام.

وأما الشرط الثاني: وهو ألا يحول العمل ضد الظلم المؤثر في إيجاد شرط الظهور... فمن الواضح أن المهدي عليه السلام إذا حال دون تحقق هذا الظلم، فسوف يحول دون حدوث الوعي عند الأمة، فيبقى شعورها متبلداً وتربيتها قاصرة، وبالتالي يكون الشرط المطلوب متعذر الوجود.

وأما نحن إذ نشعر بالظلم فنكافح ضده أو نخطط لأجل دحره ودفعه،

لا نكون قد حلنا دون وعي الأمة، بل أن كفاح الأمة نفسه وجهادها ضد مشاكلها وآلامها من أهم العناصر التي تنضم إلى الشعور بالظلم فتحدث الوعي لدى الأمة يكمل عندها الشعور بالمسؤولية. ذلك العمل الذي يعطي دروساً في التضحية وحنكة في التدبير الاجتماعي، يؤهل الأمة شيئاً فشيئاً إلى تحقيق الشرط المأمول.

ومعه يكون الكفاح ضد الظلم، بهذا الاعتبار، فضلاً عن الاعتبارات الأخرى، لازماً ومطلوباً في الإسلام من كل المسلمين ما عدا المهدي عليه السلام. نعم، ستكون الأمة وقائدها متضامنة ضد كل أنواع الظلم بعد أن يحصل الشرط المطلوب، ويبقى الظلم المتأخر مستأنفاً لا حاجة إليه. فيقوم عليه الإمام المهدي عليه السلام بالسلاح لإزالته من الوجود. وذلك هو يوم الظهور.

النقطة الثانية:

إن عمل المهدي عليه السلام في المجتمع، في حدود ما تقتضيه أطروحة خفاء العنوان، يمكن أن يتصف بعدة صفات:

فعمله نافذ وناجح ومؤثر دائماً، وإنما الإخفاق إذا حصل فإنما يحصل نتيجة لقصور أو تقصير غيره في العمل. فإننا لم نفهم أهمية عمله من كونه عضواً في جمعية خيرية مثلاً أو متولياً لوقف عام مثلاً، وإن كان ذلك ممكناً ومهماً... إلا أن الأهم من ذلك هو كونه الرائد المؤسس لأعمال الخير العامة، ودفع الشر والظلم - مما لا يكون مؤثراً في شرط اليوم الموعود -. بمعنى أنه عليه السلام، بعد أن يعرف أهمية العمل الخيِّر أو أخطار العمل الظالم بالنسبة للمجتمع المسلم، فإنه يتسبب إلى إيجاد ما هو خير ورفع ما هو ظلم.

وهو بذلك يستعمل حنكته وفراسته لتوخي أقرب الطرق وأصلحها وأكبرها

تأثيراً. وقد يسبق عمله وجود العمل الظالم نفسه. كالذي رأيناه من المهدي عليه السلام نفسه في غيبته الصغرى أكثر من مرة، حيث سمعناه ينهي وكلاءه عن قبض أي شيء من الأموال، فامتثلوا أمره من دون أن يعلموا السبب. ثم اتضح أن السلطات قد أمرت بدس الأموال إلى الوكلاء، فمن قبض منهم مالاً قبضوا عليه[1]. وبذلك فشل هذا المخطط الظالم. ومن يعمل مثل ذلك مرة أو مرات، يمكنه أن يعمله متى يشاء.

أما لو استلزمت إزالته للظلم ظهوره لبعض الأفراد، على حقيقته، فهو مما قد يحصل تبعاً لظروف خاصة وتخطيط خاص، سوف ندرسه في بعض الفصول المقبلة. وأما إذا لم تتوفر تلك الظروف ترك المهدي عليه السلام الظلم على حاله، لعدم توفر الشرط الأول من الشرطين السابقين.

وعلى أي حال، فبالنسبة إلى العمل الخيِّر الصالح، يستطيع المهدي أن يقنع فرداً أو جماعة للقيام به، أو يشجع أناساً مندفعين تلقائياً للقيام بمثله، ويؤيدهم التأييد الكافي، ويحاول أن يرفع الموانع عن تقدم عملهم وازدهاره. كل ذلك من دون أن يفترض عضواً فعلياً مشاركاً في شيء من الأعمال. ومعه تكون الأعمال بطبيعتها، بالرغم مما أوجد لها المهدي عليه السلام من فرص النجاح، قابلة للإخفاق أو الضيق تبعاً لقصور أصحابها القائمين بها أو تقصيرهم نفسياً أو عملياً.

وأما بالنسبة إلى العمل الظالم، فهو يتسبب إلى رفعه أو التقليل من تأثيره، إما بمحاولة إقناع الفاعل على الارتداع عنه أو الضغط عليه أو إحراج مصالحه بنحو يصغر معه عمله ويضيق أو بنحو ينعدم تأثيره أساساً. أو بإذكاء أوار الثورة

---

(١) انظر تاريخ الغيبة الصغرى، ص ٥٥٨.

أو الاحتجاج عليه من قبل الآخرين.

النقطة الثالثة:

هناك كلام لرونلدسن حول الإمام المهدي عليه السلام، فيما يخص ما نحن فيه من الموضوع. يتبنى المهدي فيه بعدم الالتفات إلى أصحابه وقواعده الشعبية، وعدم رفع الظلم عنهم. وهو بذلك يريد أن يستنتج عدم وجوده، إذ لو كان موجوداً فهو شخص يشعر بالمسؤولية والعطف تجاه أصحابه، فهو لا محالة رافع للظلم عنهم أو مشاركهم في العمل ضده. مع أنه لم يعمل ذلك، بالرغم من أن المظالم في التاريخ كثيرة وشديدة، إذن فهو غير موجود.

وهو إن لم يصرح بهذه النتيجة، ولكنه يوحي بها إيحاء واضحاً، حين يقول: «وفي القرن التالي لغيبة الإمام استلم البويهيون زمام السلطة الزمنية فبذلوا جهوداً كبيرة لتوحيد الطائفة الشيعية وتقويتها، كبناء مشاهدها وجمع أحاديثها وتشجيع علمائها ومجتهديها. ومع ذلك فلم يظهر الإمام المنتظر في هذا القرن الذي كانت الطائفة الشيعية تتمتع فيه بحسن الحال». ومرّ قرن آخر دالت فيه دولة حماة الشيعة من البويهيين ولكن الإمام بقي في (غيبته الكبرى).

ومرّ قرن ثالث يمتاز بالظلم والثورات وتحكم المماليك. ولكن الإمام الذي كانوا يرتجون ظهوره لم يظهر.

وجاء دور الحروب الصليبية التي اشترك (آل البيت) فيها دون أن يكون لهم إمام. فمن الجانب الإسلامي، كانت السلطة لإعلان الجهاد تنحصر بيد بني العباس والفاطميين المارقين في مقاومة الجيوش الغازية للشعوب المسيحية بالاسم في أوروبا، ولكن الإمام أخرّ ظهوره.

وبعد مرور أربعة قرون على وفاة آخر الوكلاء في القرن الثالث عشر - يعني الميلادي - اجتاح الغزاة المغول بلاد إيران يقتلون ويهدمون بقساوة لا مثيل لها. وبالرغم من التخريب والآلام فإن (صاحب الزمان) المنتظر بفارغ الصبر لم يظهر.

وحتى في ابتداء القرن السادس على زمن شيوع أذربيجان والدولة الصفوية الجديدة، لم يتصل الإمام الغائب بشيعته إلا بالطيف! فكان يظهر لهؤلاء الملوك، كما يدعون!![1]

وبالرغم من أن في هذا الكلام عدة نقاط محتاجة لإعادة النظر، إلا أن المهم الآن مناقشة الإشكال الرئيسي الذي يثيره، وهو استبعاد وجود الإمام من عدم ظهوره عند الحاجة لأجل رفع الظلم عن قواعده الشعبية خاصة، والمسلمين عامة.

وقد اتضح الجواب على ذلك مما سبق أن قلناه متمثلاً في عدة وجوه:

أولاً: أننا يجب أن لا نتوقع من الإمام المهدي عليه السلام الظهور الكامل، تحت أي ظرف من الظروف، باعتباره مذخوراً لنشر العدل الكامل في العالم كله، لا لرفع المظالم الوقتية أو الاتصال بأشخاص معينين. وقد عرفنا أن الإسراع بالظهور قبل أوانه يوجب جزماً فشل التخطيط الإلهي لليوم الموعود. لأن نجاحه منوط بشروط معينة وظروف خاصة لا تتوفر قبل اليوم الموعود جزماً. وقد عرفنا أن كل ما أعاق عن نجاحه لا يمكن وجوده بحسب إرادة الله تعالى وإرادة المهدي عليه السلام نفسه، مهما كان الظرف مهماً وصعباً.

ثانياً: أننا نحتمل - على الأقل - أن المهدي عليه السلام يرى أن بعض الظلم

---

(١) عقيدة الشيعة لرونلدسن، ص ٣٤٨ - ٣٤٩.

الذي كان ساري المفعول خلال التاريخ، كالحروب الصليبية مثلاً، غير قابلة للإزالة من قبله حال الغيبة بحال. ولا ينفع التخطيط السري أو العمل الاعتيادي، بصفته فرداً عادياً، في إزالتها... لقوة تأثيرها وضراوة اندفاعها. ومعه يصبح الإمام المهدي عليه السلام حال غيبته عاجزاً عن رفع هذا الظلم، فيكون معذوراً عن عدم التصدي لرفعه طبقاً للقواعد الإسلامية ولوظيفته الواعية الصحيحة.

ثالثاً: إن جملة من موارد الظلم الساري في المجتمع، لا يتوفر فيه الشرط الأول من الشرطين السابقين اللذين ذكرناهما لعمل المهدي عليه السلام، فلا يعمل المهدي لإزالته بطبيعة الحال. وهو ما إذا كان العمل ملازماً لانكشاف أمره وانتفاء غيبته.

رابعاً: إن جملة من موارد الظلم، لا يتوفر فيه الشرط الثاني من الشرطين السابقين، باعتبار أن وجوده سبب لانتشار الوعي في الأمة وشعورها بالمسؤولية الذي هو أحد الشروط الكبرى ليوم الظهور. وقد قلنا بأن مثل هذا الظلم وإن وجب على الأمة الكفاح لإزالته، إلا أن الإمام المهدي عليه السلام لا يتسبب لرفعه، لأن في رفعه إزالة للشرط الأساسي لليوم الموعود، وهو ما لا يمكن تحققه في نظر الإسلام.

إذن فسائر أنحاء الظلم الساري المفعول في التاريخ لا محالة مندرج تحت أحد هذه الأقسام، فإذا كان المهدي عليه السلام قد عمل لإزالتها فقد خالف وظيفته الإسلامية ومسؤوليته الحقيقية، ولا أقل من احتمال ذلك، لأجل حمل المهدي عليه السلام على الصحة.

إذن فليس هناك أي تلازم بين وجود المهدي وبين وقوفه ضد هذه الأنحاء من الظلم والشرور، حتى يمكن لرونلدسن أن يستنتج من عدم وقوفه ضد

الظلم، عدم وجوده.

وأما الأنحاء الأخرى من الظلم، فقد قلنا بأن تكليفه الشرعي ووظيفته الإسلامية، تقتضي وقوفه ضده وحيلولته دونه بصفته فرداً عادياً في المجتمع، كما أوضحناه. إذن فهو يقف ضد الظلم في حدود الشروط الخاصة الإسلامية، كيف وهو على طول الخط يمثل المعارضة الصامدة ضد الظلم والطغيان.

الفصل الثالث

في الحياة الخاصة للمهدي عليه السلام
وكل ما يعود إلى شخصه عليه السلام من الأمور حال غيبته الكبرى

ويمكن الكلام عن ذلك في ضمن عدة أمور:

الأمر الأول:

هل الإمام المهدي عليه السلام متزوج وله ذرية أم لا.

ويمكن بيان ذلك على مستويين، باعتبار ما تقتضيه القواعد العامة، أولاً، وما تقتضيه الأخبار الخاصة ثانياً.

المستوى الأول: فيما تقتضيه القواعد العامة المتوفرة لدينا.

وهذا مما يختلف حاله على اختلاف الأطروحتين الرئيسيتين اللتين عرضناهما فيما سبق.

أما الأطروحة الأولى: أطروحة خفاء الشخص، فهي - بغض النظر عن الأخبار الخاصة الآتية - تقتضي أن لا يكون المهدي متزوجاً، وأن يبقى غير متزوج طيلة غيبته. ولا غرابة في ذلك، فإن كل ما ينافي غيبته ويعرضه للخطر

يكون وجوده غير جائز، فيكون زواجه غير جائز، لوضوح منافاته مع غيبته ولزومه لانكشاف أمره. إذ مع خفاء شخصه لا يمكنه الزواج بطبيعة الحال عادة. وأما مع ظهوره وانكشاف أمره، فهو المحذور الذي يجب تجنبه ويخل بالغرض الأسمى من وجوده.

وأما افتراض أنه ينكشف لزوجته فقط، بحيث تراه وتخالطه من دون كل الناس، فهو وإن كان ممكناً عقلاً، إلا إنه بعيداً كل البعد عن التطبيق العملي بحيث نقطع بعدم إمكانه. فإن هذه الزوجة يجب أن تكون قبل زاوجها من خاصة الخاصة المأمونين الموثوقين إلى أعلى الدرجات، بحيث لا يكون في مقابلتها إياه واطلاعها على حقيقته أي خطر. ومثل هذه المرأة تكاد تكون منعدمة بين النساء، إن لم تكون معدومة فعلاً. . . فضلاً عن أن يجد في كل جيل امرأة من هذا القبيل.

إذن فبقاؤه طيلة غيبته أو في الأعم الأغلب منها بدون زواج، ضروري لحفظه وسلامته إلى يوم ظهوره الموعود، فيكون ذلك متعيناً عليه. . لو أخذنا بالأطروحة الأولى.

وأما على الأطروحة الثانية: أطروحة خفاء العنوان، فكل هذا الكلام الذي رأيناه يكون بدون موضوع. فإن المهدي عليه السلام وإن كان من المتعذر عليه إيجاد الزواج بصفته الحقيقية، لما قلناه من عدم وجود المرأة الخاصة المأمونة بالنحو المطلوب. ولكن زواجه بصفته فرداً عادياً في المجتمع، أو بشخصيته الثانية، ممكن ومن أيسر الأمور، بحيث لا تطلع الزوجة على حقيقته طول عمرها. فإن بدا التشكيك يغزو ذهن المرأة في بعض تصرفاته أو عدم ظهور الكبر عليه بمرور الزمان. . . أمكن للمهدي عليه السلام أن يخطط تخطيطاً بسيطاً لطلاقها وإبعادها عن نفسه، أو مغادرة المدينة التي كان فيها إلى مكانٍ آخر، حيث

يعيش ردحاً آخر من الزمن، وقد يتزوج مرة أخرى.. وهكذا.

وإذا أمكن زواجه، أمكن القول بتحققه، وإن الإمام المهدي عليه السلام متزوج في غيبته الكبرى بالفعل. وذلك لأن فيه تطبيقاً للسنة المؤكدة في الإسلام والأوامر الكثيرة بالزواج والحث العظيم عليه والنهي عن تركه، والمهدي أولى من يتبع السنة الإسلامية. وبخاصة إذا قلنا بأن المعصوم لا يترك المستحب ولا يفعل المكروه مهما أمكن، والتزمنا بعصمة المهدي عليه السلام كما هو الصحيح. فيتعين أن يكون متزوجاً، بعد أن توصلنا إلى إمكان زواجه وعدم منافاته مع احتجابه.

وإذا سرنا مع هذا التصور، أمكن أن نتصور له في كل جيل، أو في أكثر الأجيال ذرية متجددة تتكاثر بمرور الزمن، ولكنها تجهل بالمرة بأنها من نسل الإمام المهدي عليه السلام، لأنه لا يكشف حقيقته أمام زوجته وأولاده الصلبيين، فكيف بالأجيال المتأخرة من ذريته.

إلا أن أمامنا شيئاً واحداً يحول بيننا وبين التوسع في هذا الافتراض، إن لم يكن برهاناً على انتفاء الذرية أصلاً. وهو: إن وجود الذرية ملازم عادة لإنكشاف أمره والاطلاع على حقيقته. فإن السنين القليلة بل العشرين والثلاثين منها قد تمضي مع جهل زوجته وأولاده بحقيقته، كما أنه يمكن التخلص من الزوجة حين يبدو عليها بوادر الالتفات. ولكن كيف يمكن التخلص من الذرية؟! فإنهم أو بعضهم - على أقل تقدير - يكونون أحرص الناس على مشاهدة أبيهم وملاحقته أينما ذهب. ومعه يكون دائماً تحت رقابتهم ومشاهدتهم. ومن ثم لا يمكنه الحفاظ على سره العميق زماناً مترامياً طويلاً. فإنهم بعد مضي الخمسين أو السبعين عاماً، سوف يلاحظون بكل وضوح عدم ظهور امارات المشيب والشيخوخة على والدهم، وأنه بقي شاباً على شكله

الأول. ومن ثم يحتملون على الأقل كونه هو المهدي عليه السلام، أو أنه فرد شاذ لا بد من الفحص عنه والتأكد من حقيقته.. وبالفحص ومداومة السؤال، لا بد أن يتوصلوا إلى الاحتمال على أقل تقدير. وهذا مناف مع غيبته وكتمان أمره. وأما لو بقيت ذريته تراقبه، ولو بشخصيته الثانية، عدة أجيال، فيكون انكشاف أمره بمقدار من الوضوح.

وأما افتراض أنه يعيش مع زوجته وأولاده، ويظهر عليه المشيب فعلاً، ثم أنه يختفي ويتحول شكله إلى الشباب تارة أخرى عن طريق المعجزة، لكي يستأنف حياة زوجية جديدة.. وهكذا.. فهو افتراض عاطل ترد عليه عدة اعتراضات أهمها منافاته مع قانون المعجزات، فإن زواج المهدي ووجود الذرية لديه لا يمت إلى الهداية الإلهية بصلة، لكي يمكن أن تقوم المعجزة من أجله.

إذن فلا بد من الالتزام بعدم وجود الذرية للمهدي عليه السلام بالنحو المنافي لغيبته. أما بانعدام الذرية على الإطلاق، أو بوجود القليل من الذرية التي تجهل حال نسبها على الإطلاق، كما يجهله الآخرون، ولعلنا نصادف بعضاً منهم، ولكن إثبات نسبه في عداد المستحيل.

فالمتحصل من القواعد العامة، هو أن المظنون أن يكون الإمام المهدي عليه السلام متزوجاً بدون ذرية. لا لنقص فيه بل ولا في زوجته، بل لإشاءة الله تعالى ذلك، أو تعمد المهدي عليه السلام له، احتفاظاً بسره ومحافظة على أمره.

المستوى الثاني: فيما تدل عليه الأخبار من وجود الزوجة والأولاد للمهدي عليه السلام. ونحن نواجه بهذا الصدد شكلين أو طائفتين من الأخبار:

الشكل الأول:

الأخبار الدالة على زواجه ووجود الذرية له، بنحو مجمل من حيث كون ذلك حاصلاً في زمان الغيبة أو بعد الظهور، ومن حيث كونه بعنوانه الواقعي أو بشخصيته الثانية. وسنعرف فيما يأتي أنه لا بد من تخصيص هذه الأخبار، فيما بعد الظهور، أو في حال الغيبة بشكل لا يكون سبباً لانكشاف أمره وانتفاء غيبته.

الشكل الثاني:

الأخبار الدالة على زواجه ووجود الذرية له في غيبته الكبرى. وهي ثلاث روايات:

الأولى: ما رواه الحاج النوري قدس سره في النجم الثاقب عن كتاب الغيبة للشيخ الطوسي وكتاب الغيبة للنعماني. قال: رويا بطريق معتبر عن المفضل بن عمر، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول: إن لصاحب هذا الأمر غيبتين، إحداهما تطول حتى يقول بعضهم: مات. وبعضهم يقول: قتل. وبعضهم يقول: ذهب. فلا يبقى على أمره من أصحابه إلا نفر يسير لا يطلع على موضعه أحد من ولده ولا غيره، إلا المولى الذي يلي أمره[١].

الثانية: رواية كمال الدين الانباري، التي سنذكر مضمونها في الأمر الرابع الآتي[٢].

الثالثة: رواية زين الدين المازندراني، وهي مشابهة للرواية الثانية، من عدة

(١) النجم الثاقب، ص٢٢٤، وغيبة الشيخ، ص١٠٢.

(٢) النجم الثاقب، ص٢١٧.

نواحٍ، على ما سنرى في الفصل الآتي[١].

إلا أن شيئاً من هذه الروايات، لا يصح الاستدلال به، بمعنى أنها، لو تمت من ناحية السند، لا تكاد تثبت أكثر وأوسع مما اقتضته القواعد العامة التي عرفناها على المستوى الأولي.

أما الرواية الأولى، فلا تصح لعدة وجوه:

الوجه الأول:

أنه لا دليل على وجود ذكر الولد في هذه الرواية. فإن كلاً من الشيخ الطوسي والشيخ النعماني يرويانها بنص واحد، إلا أن الشيخ الطوسي قال: لا يطلع على موضعه أحد من ولده ولا غيره[٢]. والشيخ النعماني روى: من ولي ولا غيره[٣]. ومع تهافت نسخ الرواية فيما هو محل الشاهد، لا يمكن المصير إلى الاستدلال بها.

الوجه الثاني:

أنه على تقدير الاعتراف بوجود كلمة الولد في الرواية، فإنها لا تكاد تدل على أمر زائد على ما اقتضته القواعد بناء على الأطروحة الثانية، فإنه يمكن أن يكون للإمام المهدي عليه السلام ذرية لا تعرف حقيقة أبيها، بمقدار لا يصل الأمر إلى انكشاف أمره وذيوع سره، كما سبق أن عرفنا. أو يكون المهدي عليه السلام قد حصل في بعض الأجيال، على زوجة موثوقة عرفت حقيقته وصانت سره

---

(١) المصدر، ص٢٨٤، وانظر البحار ص........

(٢) غيبة الشيخ، ص١٠٢.

(٣) غيبة النعماني، ص٨٩.

وسترته عن ذريته.

أما وجود ولد أو ذرية يعاشرونه ويعرفونه، فهو منفي بنص الرواية، كما هو منفي بمقتضى القواعد.

ثالثا: أننا نحتمل على الأقل، أن المراد بقوله: لا يطلع على موضعه أحد من ولده ولا غيره.. المبالغة في بيان زيادة الخفاء. بمعنى أنه حتى لو كان له ولدٌ لما اطَّلَعَ على حقيقته فضلاً عن غير الولد. وهذا بمجرده لا يكون دليلاً على وجود الولد فعلاً، كما هو واضح. واحتمال هذا المعنى يكفي لإسقاط الاستدلال بالرواية، فإنه إذا دخل الاحتمال بطل الاستدلال.

وأما الروايتان الأخيرتان، التي سنسمعهما، فالمقدار المشترك من مدلوليهما، هو أن المهدي عليه السلام ساكن خلال غيبته الكبرى في بعض الجزر المجهولة من البحر الأبيض المتوسط... متزوج وله ذرية. وقد أسس هناك مجتمعاً إسلامياً نموذجياً مكوناً من أولاده والأخيار من أتباعهم وأصحابهم. وهو يعيش في ذلك المجتمع محتجباً، في الوقت الذي يتولى الرئاسة العامة أولاده وذريته.

وسيأتي التعرض إلى تفاصيل المضمون بمقدار الحاجة، مع إيضاح نقاط الضعف فيه. ويكفينا في حدود محل الاستدلال المناقشة من ناحيتين:

أولاً: إن كلا الروايتين لا تكادان تصحان أساساً، لابتنائهما على الأساس الذي تقوم عليه الأطروحة الأولى، كما سنوضحه عند التعرض إلى تفاصيلها. وهو أساس سبق أن أقمنا البرهان على بطلانه.

ثانياً: أنه على تقدير صحتهما، فهما لا يدلان على شيء زائد مما اقتضته القواعد العامة. فإن غاية ما تدلان عليه هو افتراض أن الإمام المهدي عليه السلام قد وجد في بعض الأجيال امرأة صالحة موثوقة عرفته وسترت أمره وحجبته عن

ذريته. وقد علم ذريته بانتسابهم إليه من دون أن يروه أو يعرفوا مكانه. وبالجملة يكفي في صدق هاتين الروايتين وقوع الزواج للمهدي عليه السلام مرة واحدة خلال الأجيال، وهو مما لم تنفه القواعد العامة، كما هو معلوم.

إذن فلم نجد من الروايات، ما يصلح للاستدلال به على مضمون زائد على ما عرفناه في القواعد العامة.

الأمر الثاني:

في مكان المهدي عليه السلام في غيبته الكبرى.

سبق أن سمعنا في تاريخ الغيبة الصغرى[1]، أن المهدي عليه السلام قال لمحمد بن إبراهيم بن مهزيار حين قابله: يا ابن المازيار! أبي أبو محمد عهد إلي أن لا أجاور قوماً غضب الله عليهم ولعنهم ولهم الخزي في الدنيا والآخرة ولهم عذاب أليم. وأمرني أن لا أسكن من الجبال إلا وعرها، ومن البلاد إلا عفرها... الخ كلامه.

وهو دال على تعيين مكان المهدي عليه السلام في البراري والقفار النائية... سواء في ذلك عصر غيبته الصغرى، وعصر غيبته الكبرى. وسواء أخذنا بأطروحة خفاء الشخص أو أطروحة خفاء العنوان. فإنه منسجم مع كلتا الأطروحتين.

إلا أننا ذكرنا أن هذا وإن كان محتملاً في نفسه، إلا أنه مناف مع أعداد من الروايات الدالة على وجوده بكثرة في أماكن أخرى. أهمها روايات المشاهدة في الغيبة الصغرى وأخبار المشاهدة الكبرى... إلا على بعض الفروض النادرة

---

(١) انظر ص ٥٤٠ وغيرها.

أو الإعجازية التي نحن في غنى عن افتراضها، والمهدي عليه السلام في غنى عن اتخاذها، فإن المعجزة لا تقع إلا عند توقف إقامة الحجة عليها، كما سبق.

فإذا تجاوزنا هذه الرواية يبقى الكلام في تشخيص مكان المهدي عليه السلام تارة بحسب القواعد العامة التي تقتضيها الأطروحتان الرئيسيتان، وأخرى بحسب الأخبار الخاصة التي يمكن الاستدلال بها في هذا الصدد.

أما الأطروحة الأولى: أطروحة خفاء الشخص... فهي تقتضي الجهل المطبق بمكانه عليه السلام، إلا ما يكون عند مشاهدته حين تقتضي المصلحة ذلك.

وأما الأطروحة الثانية: أطروحة خفاء العنوان، فقد سبق أن أوضحنا إمكان أن يعيش الإمام المهدي عليه السلام في أي مكان شاء ويذهب إلى أي مكان يريد، من الحواضر أو البوادي من البر أو البحر أو الجو، من دون أن يلفت إلى نفسه نظراً أو يكشف سراً. كما أوضحنا أنه لا ينبغي أن نتصور له مكاناً واحداً مستمراً أو غالباً طيلة غيبته، لأن ذلك ملازم عادة لالتفات الناس إلى حقيقته وانتقاء غيبته... بل هو - لا محالة - يوزع سكناه بين البلدان، لكي يبعد عن نفسه الشكوك.

وأما بحسب الروايات الخاصة، فنواجه منها عدة أخبار:

الأول: خبر المفضل بن عمر، السابق الذي يقول فيه: لا يطلع على موضعه أحد من ولده ولا غيره إلا المولى الذي يلي أمره.

الثاني: رواية كمال الدين الانباري، التي أشرنا إليها.

الثالث: رواية زين الدين المازندراني، السابقة.

وتشترك هاتان الروايتان في بيان أن المهدي عليه السلام يسكن في بعض الجزر

المجهولة في البحر الأبيض المتوسط. وكأن في هذا تطبيقاً لما ورد في رواية ابن مهزيار من أنه لا يسكن في الجبال إلا وعرها ومن البلاد إلا عفرها، وأن لا يجاور قوماً غضب الله عليهم ولعنهم!

وقد سبق أن ذكرنا، وسيأتي أيضاً، بأن هاتين الروايتين مبتنيتان على الأساس الذي تبتني عليه الأطروحة الأولى، ومعه تكون باطلة وغير معتبرة جملة وتفصيلاً.

الرابع: ما ورد عن أبي بصير عن الإمام الباقرعليه السلام إنه قال: لا بد لصاحب هذا الأمر من عزلة، ولا بد في عزلته من قوة. وما بثلاثين من وحشة. ونعم المنزل طيبة[١].

ويشترك هذا الخبر مع الخبر الأول في الدلالة على انعزال الإمام المهديعليه السلام وبعده عن الناس، ويتعارضان من حيث أن الأخير يثبت أن جماعة من الناس في كل جيل يعرفون المهدي ويتصلون به ويرفعون عنه الوحشة، وهذا ما ينفيه الخبر الأول بوضوح حيث يقرر عدم إطلاع أحد على موضعه حتى ولده، إلا المولى الذي يلي أمره. ويستقل الخبر الأخير على تعيين مكان المهديعليه السلام في طيبة، وهي مدينة الرسول الأعظمصلى الله عليه وآله وسلم.

فهذه نقاط ثلاث، ينبغي أن يقع الكلام عنها، ويحسن من أجل ضبط السياق، أن نبدأ بالأخيرة.

النقطة الأولى:

حول ما دل عليه خبر أبي بصير من سكنى المهدي في مدينة الرسولصلى الله عليه وآله وسلم.

---

(١) الغيبة للشيخ الطوسي، ص١٠٢.

وهذا أمر ينافيه ما ورد في خبر إبن مهزيار من اختصاص مكان المهديعليه السلام في البراري والقفار. كما ينافي ما ورد في أخبار المقابلات في الغيبتين الصغرى والكبرى، كما ذكرنا، من وجود المهديعليه السلام في أماكن أخرى من العالم. ومع هذه المنافاة لا تكاد تكون رواية أبي بصير قابلة للإثبات أو الاستدلال.

ولو غضضنا النظر عن ذلك، لم نجد أن سكناه المدينة مناف للقواعد العامة التي عرفناها.. سواء أخذنا بأطروحة خفاء الشخص أو بأطروحة خفاء العنوان. أما على أطروحة خفاء الشخص، فمن الممكن أن نفترض سكناه حال خفائه في المدينة نفسها، بدون لزوم أي إشكال أو صعوبة.

وأما على أطروحة خفاء العنوان، فينبغي أن نخص هذه السكنى بما إذا لم تستلزم إنكشاف أمره أو إلتفات الناس إلى سره. لما سبق أن عرفناه من أن يعود إلى سكناها بين جيل وجيل أو نحو ذلك، بحيث لو راجعنا المعدل العام لزمان الغيبة الكبرى، رأينا مكانه الأغلب هو المدينة المنورة. وقد سبق أن عرفنا أن مثل هذا الأسلوب في سكنى المدن لا يكون مظنة للإنكشاف.

ولعل هذا الأنسب بحال المهديعليه السلام واتجاهه، من حيث أنه يود مجاورة قبر جده الأعظم رسول الإنسانيةصلى الله عليه وآله، والقرب إلى مكان الحج ليتسنى له القيام به كل عام. وبخاصة وإن أغلب سكان المدينة المنورة في أغلب أجيال التاريخ الإسلامي، إن لم يكن كلها، من المنكرين لوجوده أصلاً.. وهو مما يسهل له الحفاظ على خفاء عنوانه ودوام غيبته.

النقطة الثانية:

فيما تختلف فيه الروايتان من المضمون، حول أن المهديعليه السلام هل يعاشر

بعض الناس أو لا.

وعند الموازنة بين الأمرين، لا بد من عرضهما على القواعد العامة التي عرفناها. وسوف تختلف نتيجة الموازنة طبقاً للأطروحتين الرئيسيتين السابقتين: أما لو أخذنا بأطروحة خفاء الشخص، فسوف يرجح الأخذ برواية المفضل بن عمر. وإن لم تكن مطابقة لها تماماً لدلالة الرواية على انكشاف المهدي عليه السلام للمولى الذي يلي أمره، وهو يُنافي الالتزام الكامل بهذه الأطروحة. وأما لو أخذنا بأطروحة خفاء العنوان، فسوف يرجح الأخذ برواية أبي بصير، وإن لم تكن مطابقة لها تماماً لدلالة الرواية على انحصار العارفين بالمهدي عليه السلام والمعاشرين له بثلاثين، في كل جيل، بحيث لولاهم لكان في وحدة موحشة.

وهذا ما يستغنى عن افتراضه بناء على هذه الأطروحة. إذ يمكن للمهدي عليه السلام أن يعاشر أي شخص كما عرفنا. نعم، يمكن أن يكون للثلاثين خصيصة الاطلاع على حقيقته، وهو أمر لطيف، إلا أنه لا يستلزم عدمهم وجود الوحدة الموحشة على أي حال.

النقطة الثالثة:

فيما تشترك فيه الروايتان من النص على اعتزال المهدي عليه السلام عن الناس.

وهذا يمكن حمله على أحد وجهين:

الوجه الأول:

أن يفسر بالاعتزال النسبي، يعني اعتزاله بصفته الحقيقية، وإن كان مرتبطاً بالناس بصفته فرداً عادياً في المجتمع. وهذا الوجه قريب من أطروحة خفاء العنوان. إلا أنه مخالف لكلتا الروايتين في ظاهرهما، كما يتضح لمن قرأهما.

الوجه الثاني:

أن يعترف بعزلته عليه السلام، بشكل مطلق. وهذا أقرب إلى أطروحة خفاء الشخص، فإنها تستلزم العزلة المطلقة. ولكنه لا ينافي الأطروحة الأخرى لإمكان أن يرى المهدي عليه السلام حال انعزاله من دون أن تعرف حقيقته.

إلا إننا عرفنا أنه لا حاجة إلى افتراض مثل هذه العزلة مع خفاء العنوان. إن لم تكن بنفسها ملفتة للنظر والتساؤل عن حقيقة هذا الفرد المنعزل وعن سبب انعزاله، مما يثير حوله الانتباه.

فإذا لم يصح الوجه الأول، كما لم يصح الوجه الثاني انطلاقاً من أطروحة خفاء العنوان، الصحيحة، لم يمكن القول بصحة المضمون المشترك بين الروايتين، وإن كان مدعماً برواية ابن مهزيار أيضاً.

الأمر الثالث:

ما ورد من تسمية أولاده وسكنهم وأعمالهم.

تنص رواية الانباري المشار إليها، إن للحجة المهدي عليه السلام عدة أولاد في الجزر المجهولة في البحر الأبيض المتوسط.

أحدهم: طاهر بن محمد بن الحسن. وهو يحكم إحدى تلك الجزر المسماة بالزاهرة[1].

ثانيهم: قاسم بن محمد بن الحسن. وهو يحكم الجزيرة المسماة

(١) النجم الثاقب، ص٢٢٠ - ٢٢١.

بالرائقة[١].

ثالثهم: إبراهيم بن صاحب الأمر. وهو يحكم بلدة هناك تسمى بالصافية[٢].

رابعهم: عبد الرحمن بن صاحب الأمر. وهو يحكم بلدة باسم طلوم[٣].

خامسهم: هاشم بن صاحب الأمر. وهو يحكم بلدة باسم عناطيس[٤].

وكلهم يحكمون تحت الإشراف العام لأبيهم صاحب الأمر المهدي عليه السلام. وإن لم تدل الرواية على أنهم يرونه ويجتمعون به أو لا.

وحيث أن الحادثة المروية بهذه الرواية مؤرخة بتاريخ القرن السادس الهجري[٥]، فيكون قد مضى على ولادة الإمام المهدي عليه السلام حوالي الأربعمائة سنة. ولا نحتمل طول عمر أولاده ولا زوجته بالشكل الخارج عن الطبيعي من أعمار الآخرين من الناس. إذن، فلو صحت الرواية، يتعين أن يكون قد تم زواجه ووجود أولاده في مثل ذلك العصر. وقد سبق أن ذكرنا أن ذلك إنما يتم فيما لو كان المهدي عليه السلام قد وجد امرأة موثوقة في أعلى درجات الإخلاص، بحيث تعرفه وتساعده على إخفاء نفسه حتى على أولاده، وإن كانت قد لا تخفي عنهم انتسابهم إليه.

أما زواجه في العصور المتقدمة على ذلك، أو في العصور المتأخرة عنه،

(١) نفس المصدر، ص٢٢٢.
(٢) المصدر والصفحة.
(٣) المصدر والصفحة.
(٤) المصدر والصفحة.
(٥) المصدر، ص٢١٧.

أو وجود ذرية له فيها، فلا تتعرض له الرواية. فيبقى محولاً على مقتضى القواعد السابقة.

وأما صحة هذه الرواية، فقد سبقت الإشارة إلى عدم صحتها، وسيأتي تفصيل ذلك الأمر الآتي:

وأما رواية المازندراني المشابهة لها في المضمون، فهي مؤرخة في القرن السابع الهجري.. تدل على وجود عدة جزائر في البحر الأبيض أيضاً أكبرها المسماة بـ(الخضراء) يحكمها نائب خاص عن الإمام المهدي عليه السلام، يسمى بمحمد ويلقب بشمس الدين، وهو من ذرية المهدي، وبينهما خمسة آباء[١]. لكن لا يتضح انتسابه إلى أي من الأولاد السابقين.

ولعل هناك شي من البعد في تسلسل خمسة أجيال خلال قرن من الزمن، إلا بتقدير تعدد زواجه أو سرعة تناسل أولاده.

والظاهر من هذه الرواية عدم وجود أولاد المهدي عليه السلام المباشرين بل من بعدهم أيضاً، وإلا لما أصبح حفيده الخامس حاكماً هناك، دونهم. وخاصة وإن الرواية تنص على أن آباءه أفضل منه، بقرينة عدم مشاهدته للإمام عليه السلام، وأما أبوه فقد سمع صوته ولم ير شخصه، وأما جده فقد رأى شخصه وسمع صوته[٢]. وكلما كان الفرد أقرب ارتباطاً بالمهدي عليه السلام دل ذلك على زيادة في فضله وإخلاصه.

وحساب هذه الرواية، من حيث أصل صحتها واعتبارها، موكول إلى الأمر الرابع الآتي.

---

(١) البحار، ج١٣، ص١٤٦.

(٢) المصدر والصفحة السابقة.

الأمر الرابع:

تأسيس المهدي عليه السلام في غيبته الكبرى مجتمعاً إسلامياً نموذجياً.. أو عدم صحة ذلك.

يدل على تأسيسه لمثل هذا المجتمع، الروايتان المشار إليهما فيما سبق للانباري والمازندراني.. وتنفيه سائر القرائن الأخرى من عقلية ونقلية على ما يأتي.

ونود أن ندرس فيما يلي الخصائص العامة الفكرية والاجتماعية والعلمية والسياسية لهذا المجتمع النموذجي، وما أنتجته هذه الخصائص فيه من مستوى من الرفاه والازدهار في الزراعة والتجارة.

ولا يخفى أننا بعد أن نناقش في أصل ثبوت هاتين الروايتين وصحتهما، فسوف لن تبقى لهذه الخصائص قيمة من وجهة نظر إسلامية موضوعية، إلا باعتبارها صحيحة في نظر الراوي وبحسب فهمه الخاص. وإنما ندرسها الآن بصفتها ممثلة لوجهة نظر بعض المسلمين تجاه شكل المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية عامة والنظام المهدوي خاصة. وسننطلق بعد ذلك إلى تطبيقه على القواعد والأدلة الإسلامية الحقة.

تتفق الروايتان: على أن هناك مدن كبيرة وكثيرة على ساحل البحر، ربما كانت في بر إحدى القارات، وربما كانت في جزائر ضخمة في أحد البحار. وتنص رواية المازندراني على أنه هو البحر الأبيض المتوسط. وإن هذه الجزائر هي السبب في تسميته البحر الأبيض لأنها محاطة بماء أبيض صاف كماء الفرات يختلف لونه عن لون سائر ماء البحر، إذا وردت فيه سفن الكفار والمحاربين غرقت بقدرة الله تعالى وبركة الإمام المهدي عليه السلام.

وتشكل هذه المجموعة رقعة مهمة من الأرض، لأن إحدى المدن تبعد عن الأخرى بمقدار مسير إثني عشر يوماً أو خمسة عشر يوماً، بحراً أو براً، بوسائط النقل التي كانت سائدة يومئذ في القرنين السادس والسابع الهجريين. وهي مسافة تكون بالتقريب مثل ما بين مكة المكرمة والمدينة المنورة في الحجاز أو بين البصرة وبغداد في العراق. وبالرغم من سعة هذه المساحة، فإنه مليئة بالبساتين والقرى، التي قد تصل إلى ألف ومائتي قرية لكل مدينة. ومعه يمكن تقدير سكانها بما لا يقل عن عشرة ملايين من البشر. فتكون بذلك دولة متوسطة الحجم، يمكن أن تشكل المجتمع النموذجي الإسلامي على أحسن طراز.

وتتصف هذه المجموعة بالجمال الطبيعي والرفاه الاقتصادي إلى حد بعيد، بحيث تخون اللغة لسان الراوي في وصفه. ويكفينا من ذلك أن أكثر دورها مبنية بالرخام الشفاف، ويحيط كل مدينة مئات المزارع والبساتين ذات الهواء الطلق والفواكه العديدة.

وتنص رواية الانباري بأن الذئاب والغنم يعيشون في هذه المزارع بصداقة وألفة. وأن السباع والهوام مطلقو السراح ما بين الناس، من دون أن يضروا أحداً أو يوجبوا حادثاً أو مرضاً.

وتشتمل المدن على أسواق كثيرة فيها من الأمتعة المعروضة ما لا يوصف ولا يتناهى. وفيها حمامات كثيرة. وفيها مسجد أعظم يجتمع الناس لإقامة الصلاة. وتوجد حول المدينة أسوار وقلاع وأبراج عالية من جهة البحر، لأجل أن تزداد منعة وقوة.

وأما دين الشعب الساكن في هذه البلاد، فهو الإسلام على المذهب الإمامي الإثنى عشري.

وأما أخلاقهم الكريمة، فحدث عنها ولا حرج، يصفها الانباري بأنها أحسن أخلاق على وجه الأرض. فهم في الأمانة والتدين والصدق بلا مثيل، وكلامهم خال من اللغو والغيبة والسفاهة والكذب والنميمة. ويؤدون الحقوق المالية الشرعية. وتسود معاملاتهم روح الثقة وحسن الظن إلى حد يقول البائع للمشتري: زن لنفسك وخذ، فإن أخذك لحقك غير متوقف على وجودي. وبمجرد أن يعلن المؤذن دخول وقت الصلاة، يترك الناس أعمالهم ويتوجهون رجالاً ونساءً إلى أدائها.

وتتصف مجتمعات هذه المدن بالتضامن والألفة، فإذا احتاجت بعض الجزر أو المدن إلى مساعدة، أو كانت خالية من الزراعة، أرسلت إليها الميرة والبضائع الكثيرة، من المدن الأخرى الحافلة بالخير والبركات، تبرعاً دون مقابل.

ويحكم هذه المجتمعات حاكم واحد، كما في رواية المازندراني، أو عدة حكام، كما في رواية الانباري... منصوبين من قبل الإمام المهدي عليه السلام، بحيث يعتبر أهم حاكم نائباً خاصاً له عليه السلام. ومن ثم فهو يقيم صلاة الجمعة، لتحقق شرط وجوبها، وهو وجود الإمام المعصوم أو نائبه الخاص.

وهو الذي يقيم صلاة الجماعة في كل وقت، وهو الذي يفتي الناس بالمسائل الشرعية، ويقضي بينهم. بل تنص رواية المازندراني أنه يدرس العلوم العربية وأصول الدين والفقه الذي تلقاه عن صاحب الأمر المهدي عليه السلام. وهو الذي يجادل عن المذهب إن لزم الأمر، ويكون جداله حاداً وصريحاً، ويكون هو الظاهر في الجدال على خصمه على طول الخط. وله من الكرم وحسن الضيافة الشيء الكثير.

وقد سبق أن عرفنا أسماء عدد من حكام تلك البلاد. وقد كان منهم خمسة

من أولاد المهدي عليه السلام نفسه، في رواية الانباري، وواحد من أحفاده في رواية المازندراني.

يطاع الحاكم هناك من قبل شعبه إطاعة تامة، وله فيهم الكلمة النهائية، وله في قلوبهم المهابة والوقار. وقد يخبر بما ينبغي أن يكون جاهلاً به عادة، كاسم الشخص المسافر الطارئ على البلاد، فيكون هذا آية صدقه وأساس حكمه. وليس هو اخباراً بالغيب وإنما يرويه عن الإمام المهدي عليه السلام ولو بالواسطة، والإمام المهدي عليه السلام عالم بتعاليم الله عز وجل إياه، بالإلهام أو نحوه. ومن هنا يقول الرواي: فقلت: ومن أين تعرفني باسمي واسم أبي؟ قال: أعلم أنه قد تقدم إليّ وصفك وأصلك ومعرفة اسمك وشخصك وهيئتك واسم أبيك رحمه الله[1]. وإنما تقدم ذلك إليه من المهدي عليه السلام.

والمهدي عليه السلام يسكن في تلك المجتمعات نفسها بنحو منعزل لا يراه حتى الحكام أنفسهم بالرغم مما يتصفون به من إخلاص ووثاقة. وإذا خرج إلى الحج أو إلى أي مكان آخر، فإنه يعود إليها تارةً أخرى.

وهو يعطي تعليماته للحاكم عن طريق المراسلة، فيما يحتاجه من البت في أمور الناس من المحاكمات وغيرها، كما تنص على ذلك رواية المازندراني. وبذلك يكون له الإشراف المباشر على سائر هذه الدولة النموذجية، ويبقى ذكره فيها حياً وقانونه نافذاً. وتتربى الأجيال على الإخلاص له وانتظار فرجه، وهو أمر عام بين سائر أفراد الشعب هناك إلى حد لا يكادون يقسمون إلا به في كلامهم الاعتيادي.

فهذا هو الوصف العام لهذا المجتمع النموذجي الذي دلت عليه هاتان

---

(١) البحار، ج١٣، ص١٤٠،

الروايتان. إلا أنهما لا يمكن أن يكون لهما جانب من الصحة على الإطلاق. وذلك لوجود عدة اعتراضات نذكر منها ثلاثة رئيسية:

الاعتراض الأول:

إن الكرة الأرضية الآن، بل فيما قبل الآن مرت بعدة قرون، قد عرفت شبراً شبراً ومسحت متراً متراً، واطلع الناس على خفاياها وزواياها. وبالرغم من ذلك لم يجد أحد تلك المناطق ولا اطلع على وجود تلك الجزائر والمدن. ولو كانت موجودة لعرفت يقيناً، ولكانت من أهم العالم الإسلامي. إذن فهي غير موجودة قطعاً.

وأما الزعم بأنها برمتها مختفية عن الأنظار، كما هو حال المهدي نفسه، لو صحت أطروحة خفاء الشخص... فهو ما حاول بعض الباحثين أن يقوله[1] مستشهداً بسعة قدرة الله تعالى، وبما روي من أن رسول الله ﷺ كان أحياناً يختفي عن كفار قريش في أثناء صلاته.

إلا أن هذا الاستدلال يثبت الإمكان العقلي لاختفاء هذه المدن، ولكنه لا يثبت وقوعه فعلاً. ونحن نعترف بسعة قدرة الله تعالى على ذلك وما هو أهم منه وأوسع. إلا أننا ننفي وقوع ذلك خارجاً، ونثبت الفرق بين اختفاء المهدي عليه السلام والنبي ﷺ من ناحية، واختفاء هذه البلدان من ناحية أخرى.

فإن اختفاء المهدي عليه السلام والنبي ﷺ إنما يتحقق لتوقف حياتهما عليه تلك الحياة المذخورة لهداية الناس وإكمال الحجة عليهم، فيتكون الاختفاء مطابقاً مع قانون المعجزات، وهو أنه مهما توقف إكمال الحجة على المعجزة أوجدها

(١) انظر النجم الثاقب، ص٢٢٧.

الله جزماً، وخرق بها النواميس الطبيعية، ولا توجد المعجزة في خارج هذا الحد. وبذلك سبق أن نفينا الأطروحة الأولى، لعدم احتياج المهدي عليه السلام في سلامته إلى الاختفاء الدائم.

وأما بالنسبة إلى بلد أو مجتمع مسلم، يختفي اختفاء شخصياً برمته، كما يدعي هذا الباحث... فليس الأمر فيه أن إقامة الحجة أو إكمالها متوقف على وجود المعجزة. فإن المفروض أن أفراد المجتمع قد اعتنقوا الإسلام وأخلصوا له وتمت حجته عليهم. فأي حجة تبقى بعد ذلك لنحتاج إلى المعجزة. وإنما المفروض أن سلامته من الأعداء متوقف على اختفائه... إلا أن ذلك مما لا يعرف في الإسلام، وهو خارج عن القانون العام لإقامة المعجزات. إذن فالمعجزة غير متحققة، فلو كان موجوداً لكان ظاهراً لا محالة. ولو كان ظاهراً لكان معروفاً. وحيث أنه غير معروف ولا ظاهر، إذن فهو غير موجود.

ولو صح اختفاء مجتمع مسلم لسلامته من الاعتداء، لصح اختفاء مجتمعات مسلمة كثيرة تعرضت للغارات العديدة على مر التاريخ. على أن ذلك لم يحدث. ولو كان قانون المعجزات يوجب حدوث ذلك، لحدث على أي حال.

وقد يقال: بأن لهذا المجتمع المفترض خصوصية كبرى تميزه عن سائر المجتمعات، وهو وجود الإمام المهدي فيه، فمن الجائز أن يخصه الله تعالى بالاختفاء.

إلا أن هذه الفكرة غير صحيحة بالمرة. إذ لو توقفت سلامة الإمام عليه السلام وبقائه وغيبته، على غياب هذه المدن، لكان أمراً صحيحاً. إلا أن هذا التوقف غير موجود بالمرة، إذ قد عرفنا بأن الإمام المهدي عليه السلام يمكنه أن يحرز سلامته وغيبته في أي مكان من العالم على كلا الأطروحتين الرئيسيتين. ومعه لا تبقى

لذلك المجتمع أي خصوصية من هذه الناحية.

بل من المستطاع القول، بالنسبة إلى ما ذكرناه من إتمام الحجة: أنه ليس فقط أن إقامة الحجة على هذا المجتمع لا يتوقف على اختفائه كما قلنا، بل إن إكمال الحجة عليه يتوقف على ظهوره وكونه جزءاً من العالم البشري المنظور. وذلك انطلاقاً من قانون التمحيص الإلهي الثابت عقلاً ونقلاً، على ما سنفصله في باب قادم من هذا التاريخ.

فإن الفرد المسلم والمجتمع المسلم، كلما واجه التيارات الكافرة على مختلف مستوياتها، وصمد تجاه الانحرافات الجائرة، وضحى في سبيل دينه، كلما يكون إيمانه أقوى وأرسخ، وإرادته أمضى وأعظم. فاصطدامه مع الكفر والانحراف في حرب جسدية أو عقائدية، جزء من المخطط الإلهي للتمحيص والامتحان... ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾. وبذلك يكون إكمال الحجة متوقفاً على هذا الاصطدام، وسنرى في مستقبل هذا التاريخ أن يوم الظهور الموعود للمهدي عليه السلام مما يتوقف على هذا التمحيص. وهذا الاصطدام إنما يحدث والتمحيص إنما يتحقق، فيما إذا كان المجتمع ظاهراً للعيان متفاعلاً مع العالم الخارجي، دون ما إذا كان مرتاحاً في اختفائه منساقاً مع أحلامه.

إذن فالقانون العام للتمحيص وقانون المعجزات منافيان لاختفاء أي مجتمع مسلم وانعزاله عن العالم، ومعه فلو كان هذا المجتمع موجوداً لكان ظاهراً. وحيث أنه غير ظاهر إذن فهو غير موجود.

وهذا هو مرادنا مما قلناه فيما سبق، من أن هاتين الروايتين مبتنيتان على الأساس الذي تبتني عليه الأطروحة الأولى، وقد عرفنا الآن أنه أسوأ حالاً وأشد بعداً من الأطروحة الأولى بكثير حيث برهنا على بطلان تلك الأطروحة

بالاستغناء عنها بالأطروحة الثانية. وأما هذه المدن، فكلاً من قانوي المعجزات والتمحيص، ينفيان اختفاءهما بالضرورة.

وليت شعري، لم يلتفت هذا الباحث الذي يدعي اختفاء هذه المدن الكثيرة، إلى أن سياق الروايتين الدالتين على وجودهما منافٍ مع هذه الفكرة: وذلك انطلاقاً من نقطتين أساسيتين:

النقطة الأولى:

ما نصت عليه رواية المازندراني، من أن البحر الأبيض إنما سمي بذلك لوجود ماء صاف كماء الفرات حول الجزر، إذا دخلته سفن الأعداء غرقت بقدرة الله تعالى وبركة المهدي عليه السلام.

فإن هذه الجزر إذا كانت مختفية عن الأنظار. كيف يهتدي إليها الأعداء. بل يكفي اختفاؤها حماية لها كما هو واضح. فوجود مثل هذا الماء الصافي - لو صح - أدل دليل على عدم الاختفاء.

النقطة الثانية:

إن الاختفاء لو كان صحيحاً، لكان اللازم أن لا تنكشف هذه الجزر لأحد من الخارج إلا لمن لديه القسم العالي من الإخلاص والوثاقة من المسلمين، حيث يكون انكشافها لغير هؤلاء الأفراد مظنة للخطر، وطريقاً محتملاً لهجوم الأعداء، بشكل أو آخر.

في حين أن قافلة هذا الراوي في البحر، وصلت إلى هذه الجزر، بما فيها من مسلمين على اختلاف مستوياتهم ومذاهبهم، وبما فيها من مسيحيين! إذن فوجود هؤلاء يؤكد عدم الاختفاء.

الاعتراض الثاني:

إن هاتين الروايتين للانباري والمازندراني، منافيتان ومعارضتان، مع عدد من الأخبار الواردة بمضامين مختلفة. . . تتفق كلها على نفي مضمون هاتين الروايتين، كل من ناحيته الخاصة. ومن الثابت أنه كلما تعارض الخبر والخبران مع مجموعة ضخمة من الأخبار، توجب القطع بمضمونها المشترك، قدمت المجموعة الضخمة لا محالة، ولم يبق للخبر والخبرين أي اعتبار.

وتتمثل هذه المجموعة المعارضة في هذا الصدد، في عدة أشكال من الأخبار:

الشكل الأول:

أخبار التمحيص والامتحان الإلهي، كقول الإمام الباقرعليه السلام :

هيهات هيهات لا يكون فَرجنا حتى تغربلوا ثم تغربلوا - يقولها ثلاثاً - حتى يذهب الله تعالى الكدر ويبقى الصفو. وقول الإمام الصادقعليه السلام : والله لتميزن. والله لتمحصن. والله لتغربلن، كما تغربل الزوان من القمح.

وهي أخبار كثيرة تدل على قانون الهي وقعت من أجله الغيبة الكبرى، على ما سنوضح في مستقبل هذا التاريخ. وهو قانون عام على كل البشر، وغير قابل للتخصيص باستثناء مجتمع أو عدة مجتمعات منه. وقد عرفنا أن الاختفاء عن الأنظار ينافي معنى الاختبار والتمحيص، ويستلزم عدم شمول هذا القانون للمجتمع المختفي. ومعه تكون الأخبار الدالة على التمحيص دالة على نفي وجود مجتمع غير مشمول لهذا القانون.

الشكل الثاني:

ما دل على سكنى المهدي عليه السلام في أماكن أخرى غير ما دلت عليه هاتان الروايتان، كالمدينة المنورة، في أحد الأخبار التي سمعناها، وكالبراري والقفار في خبر آخر سمعناه.

ونحن وإن كنا قد ناقشنا في هذين الخبرين، إلا أن ذلك لا ينافي وقوعها طرفاً للمعارضة مع الروايتين، ليشاركا مع المجموعة في إسقاطهما عن الاعتبار. على أن هناك أخبار أخرى تدل على سكنى المهدي عليه السلام في أماكن أخرى، غير ما سبق، لا حاجة إلى الإفاضة فيها فعلاً.

الشكل الثالث:

الأخبار الكثيرة الدالة على مشاهدة المهدي عليه السلام في غير هذه المدن المفروضة... بكثرة لا يستهان بها، على ما سيأتي في الفصل الآتي.

فتدل هذه الأخبار، على وجود المهدي عليه السلام ردحاً من الزمن، خارج تلك المناطق المفروضة، بل إن سكناه الغالبة ليست هناك. وهو معنى على خلاف ما ادعته هاتان الروايتان من سكناه ووجوده الغالب في تلك المناطق.

إذ لو كانت سكناه هناك حقاً، لم يكن مقابلته في خارج تلك المناطق، إلا على سبيل الصدفة أو نتيجة للمعجزة. وكلاهما لا يمكن افتراض وقوعه في المقام: أما الصدفة، فلكثرة المشاهدات إلى حد يقطع بتعمد الإمام المهدي عليه السلام لها وليست على سبيل الصدفة. وأما المعجزة فلعدم انطباق المورد على قانون المعجزات، لعدم انحصار سبب إقامة الحجة على هذه المعجزة التي تقوم من أجل المقابلة.

بل يمكن القول: بأن الانطباع العام الذي تعطيه أخبار المقابلات مع المهدي عليه السلام في غيبته الكبرى، هو كونه ساكناً في العراق، وإذا حصلت المقابلة في غير هذه البلاد، فإنما هي لمصلحة مهمة اقتضتها. وهذا ما سيأتي التعرض له في الفصل الآتي مقروناً بالتبرير النظري الذي يبني عليه. ومن الواضح أن سكناه في العراق ينافي سكناه في تلك المدن المفروضة.

الشكل الرابع:

الخبر المتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله بألفاظ متقاربة، من أن المهدي عليه السلام بعد ظهوره (يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً).

وامتلاء الأرض جوراً وظلماً يستلزم أن أكثر أهل الأرض بما فيهم أكثر أفراد المجتمع المسلم أيضاً، أصبحوا ظالمين منحرفين... بحيث لا يمكن افتراض وجود مجتمع كامل باق على إخلاصه الكامل للإسلام. ومثل هذا العموم المعطى في هذا الحديث غير قابل للتخصيص والاستثناء. ومعه فوجود مجتمع أو عدة مجتمعات برمتها باقية على إخلاصها للإسلام، يكون معارضاً لذلك الخبر المتواتر لا محالة. ومهما تعارض الخبر الواحد مع المتواتر، أخذنا بالمتواتر وطرحنا الخبر الواحد.

وقد يخطر في الذهن: أن المراد من الأرض التي تمتلئ ظلماً وجوراً، في الحديث النبوي، هو الأرض المنظورة، كما هو الظاهر من لفظ الأرض، دون الأرض المختفية، كما دلت عليه هاتان الروايتان. ومعه فلا منافاة بين الحديث النبوي المتواتر وبينها.

وجواب ذلك: أننا عرفنا في الاعتراض الأول أن هاتين الروايتين دالتان على عدم اختفاء المدن التي تخبر عن وجودها. وإنما كان اختفاؤها رأياً لبعض

الباحثين وقد ناقشناه. ومعه تكون هذه المدن - على تقدير وجودها - من الأرض المنظورة، فيشملها الحديث النبوي، فيدل على عدم وجودها.

وقد يخطر في الذهن أيضاً: أن هذه المجتمعات وجدت مخلصة للإسلام خلال الغيبة الكبرى، وهذا لا ينافي كونها تصبح منحرفة بعد ذلك قبل ظهور المهدي عليه السلام ليصدق الحديث النبوي الشريف.

وجواب ذلك: إن هذه المجتمعات المفروضة، قائمة على أساس الدوام والاستمرار في نظامها الإسلامي، وغير قابلة للانحراف، بعد الإلتفات إلى كونها تحت الإشراف الدائم للإمام المهدي عليه السلام نفسه، كما نطقت به تينك الروايتان.

هذا... وهناك غير هذه الأشكال من الروايات الصالحة لمعارضة الروايتين، مما لا نريد الإطالة بذكره، وهو لا يخفى على المتتبع المتأمل.

الاعتراض الثالث:

إن المجتمع المزعوم غير منسجم مع عدد من تعاليم الإسلام المهمة، في تكوينه الفكري ونظامه الاجتماعي. فهو مجتمع إسلامي ناقص من حيث التطبيق. إذن فالمهدي عليه السلام لم يؤسسه إذ أن المجتمع الذي يكون المهدي عليه السلام مؤسساً له ومشرفاً عليه، لا يكون إلا مجتمعاً كاملاً عادلاً من جميع الجهات. وخاصة بعد أن تتربى عدة أجيال تحت هذا الإشراف، في جو من الصيانة والحفظ عن الأعداء، كما هو المفروض في هذه المجتمعات.

ويمكن أن ننطلق إلى بيان هذا النقص عن طريق العوامل التي تدخلت في ذهن الراوي، خلال روايته، وقد مزج بينها مزجاً عجيباً ليعرب عن فكرته في

تكوين المجتمع العادل و«المدينة الفاضلة». ونقصد بالراوي كلاً من الانباري والمازندراني اللذان رويا تينك الروايتين.

العامل الأول:

العامل الحضاري أو المدني - بالأصح -، ذلك الذي كان يعيشه الراوي في القرنين السادس والسابع الهجريين. وقد اتضح تأثره بهذا العامل من عدة أمور ذكرها خلال الرواية:

الأمر الأول:

وجود أسوار وأبراج وقلاع للمدينة تجاه البحر، فإن هذه هي وسيلة الدفاع الأساسية في تلك القرون.

الأمر الثاني:

وجود ماء صاف يوجب غرق السفن المعتدية. وقد كانت السفن البحرية أهم أساليب الهجوم في ذلك العصر.

الأمر الثالث:

إن الراوي أكد على وجود مساجد وحمامات وأسواق كثيرة، وهي المؤسسات الأساسية المشار إليها في كل مدينة في ذلك الزمان. ولو كان الراوي يعرف المدارس والمستشفيات والجمعيات ونحو ذلك، لقال أنها موجودة هناك أيضاً.

الأمر الرابع:

انعدام الإشارة إلى التجارة في كلتا الروايتين، وظهورهما بانحصار سبل العيش

بالزراعة تقريباً، إلا ما كان من قبيل التجارات السوقية الصغيرة والحرف اليدوية.

الأمر الخامس:

التأكيد على وجود ريف واسع يحيط بكل مدينة، يتكون من قرى كثيرة. وهذا هو الشكل الذي كانت عليه المدن بشكل أو آخر، في عصر الراوي، وكان الريف ناشئاً من الشكل الإقطاعي والطبقي للمجتمع، ومن هنا حصل التمييز بين القرية والمدينة. وهو مما لا يعترف به نظام الإسلام.

وهناك أمور أخرى غير هذه، لا حاجة إلى سردها. ونستطيع أن نؤكد أن المجتمع الذي يكون بإشراف المهدي عليه السلام حيث تتربى الأجيال برأيه وقانونه، لا يمكن أن يبقى ذو صبغة مدنية واطئة، كما وصفه الراوي... لا أقل من وجود فكرة مبسطة عن المدارس والمستشفيات والتجارة، ومحاولة لتطوير وسائل الدفاع، وتطوير القرى وتثقيف أهلها لكي يصل المجتمع إلى العدل الكامل.

العامل الثاني:

العامل الفكري أو الاتجاه السياسي المركوز في ذهن الراوي نتيجة لشكل الحكم السائد في الدول في تلك العصور.

فكما أن الدول كانت في الأعم الأغلب محكومة لملوك مستبدين، يكون الملك فيها هو الحاكم بأمره، المطلق العنان في التصرف، وليس له مجلس وزراء ولا برلمان ولا لجنة استشارية ولا هيئة قضائية، ولا أي شيء من هذا القبيل. بل هو أما أن يمارس ذلك بنفسه إن استطاع، وأما أن يهمل ذلك إهمالاً... فكذلك ينبغي أن يكون المجتمع العادل، في رأي الراوي.

مع أن هذا بعيد عن روح الإسلام كل البعد، فإن الإسلام وإن كان يرى للرئيس صلاحية مطلقة في التصرف، إلا أنه لا يتوقع منه القيام فعلاً بكل شيء. بل أنه يوزع صلاحياته على المؤمنين الموثوقين من شعبه، كل حسب قابليته وموهبته. فهناك قضاة وهناك مستشارين وهناك سلطة تنفيذية كاملة، بحسب ما يحتاجه كل ظرف من سلطات.

وهذا ما أسقطه الراوي بالمرة من مدينته الفاضلة. فيكون هذا المجتمع ناقصاً من حيث التطبيق الإسلامي نقصاناً كبيراً.

وقد يخطر في الذهن: بأن التدبير المباشر حيث كان موكولاً إلى المهدي عليه السلام عن طريق المراسلة، فلا حاجة إلى كل هذه التشكيلات.

وجواب ذلك:

إن هذا الإشراف يقتضي الإمساك بالزمام الأعلى للدولة وتحديد سياستها العامة وقواعدها الكلية من الناحية القانونية والاجتماعية والعقائدية. وأما البت في جزيئات الأمور لملايين الناس، فهو مما يتعذر إيجاده بالمراسلة كما هو معلوم، إلا عن طريق المعجزة. المعجزة لا تكون هي الأساس أصلاً في العمل الإسلامي وقيادة الدول، بعد تمامية الحجة على الناس.

وقد يخطر في الذهن، أن النبي صلى الله عليه وآله كان يقود الأمة الإسلامية بمفرده، فكذلك ينبغي أن يكون عليه الرئيس الإسلامي في كل عصر.

وجوابه:

إن هناك فروقاً بين النبي صلى الله عليه وآله وبين غيره عامة وهؤلاء الذين يحكمون هذه المدن المزعومة خاصة، نذكر منها فرقين:

الفرق الأول:

إن المسلمين كانوا قلة نسبياً وكانت حاجاتهم بسيطة ودخلهم الاقتصادي واطئ، فكانت القيادة الاجتماعية لشخص واحد عبقري كالنبيﷺ بمكان من الإمكان. وأما عند تكثر الناس وتعقد الحاجات وسعة الدولة، فلا يكون ذلك ممكناً بأي حال، مهما كان القائد عبقرياً، لوضوح، استحالة النظر في مئات القضايا في وقت قصير.

الفرق الثاني:

إن النبيﷺ كان يقود مجتمعه بالصراحة والمواجهة، على حين تقول الرواية أن المهدي عليه السلام يقود ذلك المجتمع بالمراسلة. ومن الواضح أن ما تنتجه المراسلة لا يمكن أن يصل إلى نتائج المواجهة بأي حال.

العامل الثالث:

العامل الفكري والاتجاه الاجتماعي للقواعد الشعبية المتدينة وعلمائها، بشكل عام، في حقبة من الغيبة الكبرى. ولا زال هذا الاتجاه موجوداً عند التقليديين من الناس.

ويتجلى تأثر الراوي بهذا العامل، في عدة أمور:

الأمر الأول:

التركيز في العمل الإسلامي على جانب العبادات، والإهمال الكامل أو الغالب للعلاقات الاجتماعية العامة، ولوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن

المنكر، ونحوها من المسؤوليات العامة في الإسلام، مما هو قليل في مجتمعاتنا المسلمة منذ عهد غير قريب. ومن هذه الزاوية انطلق الراوي، إلى مدينته الفاضلة، فكانت لهذه المسؤوليات، زاوية مهملة فيها.

الأمر الثاني:

الاقتصار في العمل الإسلامي عند العلماء التقليديين على التدريس وإقامة الجماعة والإفتاء إذا سألهم أحد... ولا شيء غير ذلك، ما عدا مصالح شخصية لا تمت إلى المجتمع بصلة.

إذن فينبغي أن يكون الرئيس الأعلى للمدينة الفاضلة، مقتصراً في عمله على أمثال هذه الأمور... باعتقاد هذا الراوي.

مع أن علماءنا، وإن كانوا - في الأغلب - كذلك، باعتبار ضعفهم وقصورهم عن تولي الحكم في المجتمع. وأما الرئيس الأعلى للدولة الإسلامية، ففتواه هي القانون العام، وتدريبه هو التوجيه السياسي العام لاطلاع الشعب على آلامهم وآمالهم وحلول مشاكلهم. ويقوم بنفسه أو نائبه الخاص بإقامة صلاة الجمعة وخطبتها. وأما تدريس العلوم العربية، بل والفقه أيضاً... وأما إقامة صلاة الجماعة في سائر الأيام، فقد تكون مسؤوليات الرئيس وتعقد أعماله مانعاً عن الالتزام بها والاستمرار عليها. وإنما يوكل ذلك إلى غيره من ذوي الكفاءة الإسلامية، كما يوكل القضاء أيضاً وجانب كبير من السلطة التنفيذية إليهم أيضاً.

وكل ذلك مما لم يعرب عنه الراوي في مدينته، فتكون مدينة ناقصة إسلامياً غير فاضلة.

الأمر الثالث:

ما هو موجود بين أغلب أهل المذاهب الإسلامية، على اختلافها، من التأكيد على الاتجاه المذهبي، وغض النظر عن المفهوم الإسلامي العام. وهذا بعيد عن تعاليم الإسلام كل البعد. مع أن هذا موجود بوضوح في المجتمع المزعوم على مستويين:

المستوى الأول:

الجدل المطول العميق الذي اهتم به الحاكم في المجتمع المفروض... ذلك الجدل القائم على أساس مذهبي خالص. فقد كان مهتماً بإثبات صدق أحد المذاهب الإسلامية ضد المذاهب الأخرى ولم يكن مهتماً بإثبات صدق الإسلام ضد الأديان والمبادئ الأخرى، في حين كان بين الحاضرين مسيحي أو عدة مسيحيين، لم يفكر هذا الحاكم أن يناقشهم لإدخالهم في الإسلام. وهو من الأمور المؤسفة الشديدة الغرابة.

المستوى الثاني:

عدم تصدي المجتمع المفروض، مع أنه يتخذ شكل الدولة الإسلامية، إلى هداية العالم الخارجي، لا بدعاية عامة ولا بحرب جهادية. مع أن من أوضح تعاليم الإسلام وواجباته هو ولاية الدولة الإسلامية على العالم ووجوب هدايته إلى الحق. ولم تكد تتخلى أي دولة إسلامية في التاريخ عن هذا الواجب، بل طبقته بحسب الإمكان تطبيقاً واقعياً أو شكلياً. فما بال هذه الدولة المزعومة قد تخلت عن هذا الواجب المقدس.

العامل الرابع:

تأثر الراوي بما سمعه عن اتجاهات الأئمة المعصومين عليهم السلام وأعمالهم،

حال وجودهم قبل الغيبة.

ويظهر ذلك واضحاً في روايته من جهتين:

الناحية الأولى:

ما سمعه الراوي من إقامة الأئمةعليهم السلام للمعجزات ونطقهم بالأخبار بالغيب. إذن فينبغي - في رأيه - أن يكون حاكم تلك البلاد المزعومة، مظهراً للمعجزات وناطقاً بالمغيبات.

إلا أن ذلك لا يجب أن يكون موجوداً في الدولة الإسلامية، فإن قيادتها وتدبير الأمور فيها لا يعود إلى المعجزة بحال، بعد تمامية الحجة على شعبها في أول دخول الإسلام إليهم أو دخولهم في الإسلام. وعلى ذلك قامت دولة النبيصلى الله عليه وآله، وحسبنا من ذلك قولهصلى الله عليه وآله: إنما اقضي بينكم بالبينات والأيمان. وهو حديث صحيح مستفيض، يراد بالحصر فيه أنهصلى الله عليه وآله لا يستعمل المعجزة وعلم الغيب المسبق في القضاء. وكذلك الحال في سائر تدابير الدولة، فيما لا يعود إلى إقامة الحجة بصلة.

وقد يخطر في الذهن: أن الإخبار بالغيب الذي صدر من حاكم تلك البلاد، حين ناداه باسمه واسم أبيه، كان من أجل إقامة الحجة عليه، فيكون مطابقاً لقانون المعجزات.

وجواب ذلك: إن هذا أمر محتمل، ولكن ينافيه وجود مناسبات أخرى لإقامة الحجة في ذلك المجتمع، لم تقم فيها المعجزة. حيث كان هناك مسيحيون تجب هدايتهم إلى الإسلام، وكان هناك مسلمون من مذاهب أخرى، اضطر الحاكم إلى الدخول معهم في جدل طويل، مع أنه كان يمكن أن يستغني بالمعجزة. ومن المعلوم أن هذه المناسبات أولى من مجرد إخبار المسافر

باسمه مع كونه متديناً على نفس المذهب والدين.

الناحية الثانية:

ما سمعناه في تاريخ الغيبة الصغرى من تكريس الأئمة عليهم السلام، الأعم الأغلب من جهودهم في قيادة قواعدهم ومواليهم، وتدبير شؤونهم ومحاولة دفع الأخطار عنهم. إذن فينبغي أن تكون الدولة في عصر الغيبة على ذلك، في رأي الراوي.

مع أن هذا الرأي مخدوش من جهتين:

الأولى: أن الأئمة عليهم السلام وإن كرسوا غالب جهودهم في سبيل ذلك الهدف، إلا أن لهم أعمالاً كثيرة على المستوى الإسلامي العام في الارتباط بعلماء المذاهب الأخرى والتقرب إلى قواعدهم الشعبية، كما سمعنا طرفاً منه في تاريخ الغيبة الصغرى، وهذا مما لم يلتفت إليه الراوي ليطبق مجتمعه عليه.

الثانية: إن الأئمة عليهم السلام إنما كرسوا جهودهم في قواعدهم الشعبية، باعتبار انعزالهم عن الحكم وبعدهم عن المستوى السياسي العالي، بسبب ما كانوا يواجهونه من الضغط والمطاردة من الجهاز الحاكم يومئذ.

وأما «المدينة الفاضلة» التي تكلم عنها الراوي، فهي - لو صحت - تمثل دولة إسلامية. والدولة الإسلامية يجب عليها أن تفرض سلطتها على كل المجتمع المسلم بما فيه من مذاهب واتجاهات بل وبما فيه من أديان... بشكل متساو، وتستهدف المصلحة الإسلامية العليا بالنسبة إلى الجميع. وهذا حكم اتفقت عليه سائر المذاهب الإسلامية، وطبقته كل الدول المسلمة على مر التاريخ.

ولا يجوز للدولة الإسلامية أن تقصر سلطانها على الشعب الموافق لها في المذهب بأي حال من الأحوال. كما أراد هذا الراوي أن يقول.

ومعه فقد تحصل من هذا الاعتراض الثالث أن هناك ما لا يقل عن اثنتي عشرة جهة من جهات النقص المهمة في التطبيقات الإسلامية، في هذه المدينة الفاضلة. وبعضها تكاد تكون من ضروريات الدين على مستوى الحكم الإسلامي العام.

إذن فهذا المجتمع المزعوم غير موجود، إذ لو كان موجوداً وكان تحت الحكم المباشر للمهدي عليه السلام وقيادته، لما أمكن أن يكون ناقصاً بأي حال.

إذن، فانطلاقاً من هذه الاعتراضات الثلاثة، واعتراضات أخرى لا مجال لتفصيلها، تسقط الروايتان للانباري والمازندراني عن الاعتبار، ومعه فلا يبقى دليل تأسيس المهدي عليه السلام في غيبته الكبرى مجتمعاً نموذجياً. وإنما هو مذخور للقيام بدولة الحق والعدل في العالم كله في اليوم الموعود. عجل الله فرجه.

الفصل الرابع

في مقابلاته عليه السلام خلال غيبته الكبرى والمصالح والأهداف التي يتوخاها من ورائها

وينبغي أن ننطلق إلى الحديث عن ذلك في ضمن جهتين رئيسيتين، باعتبار انقسام الحديث، تارة إلى ما تقتضيه القواعد العامة من ذلك، وأخرى إلى ما تدل عليه الروايات الناقلة لتفاصيل المقابلات.

الجهة الأولى:

فيما تقتضيه القواعد العامة من خصائص المقابلات:

ويقع الكلام في ذلك، ضمن أمور:

الأمر الأول:

في أنه هل يرى المهدي عليه السلام على الدوام، بحيث تستطيع أن تقابله وتحادثه متى سنح لك ذلك، أو لا.

يختلف الجواب على مثل هذا السؤال، نتيجة للأخذ بإحدى الأطروحتين الرئيسيتين السابقتين. فإن رأينا صحة أطروحة خفاء الشخص، كان الجواب

بالنفي لا محالة، ما لم تتعلق مصلحة خاصة وإرادة من قبل المهدي عليه السلام في الظهور والمقابلة.

وقد سبق أن أشرنا أنه بناءً على الأخذ بهذه الأطروحة يكون الشيء الدائم هو الاختفاء الإعجازي، وما هو الاستثناء هو الظهور الطبيعي المتقطع القليل.

وأما لو أخذنا بأطروحة خفاء العنوان، وهي التي اخترناها واستدللنا على صحتها، فهنا مستويات ثلاثة للمقابلة:

المستوى الأول:

مقابلة المهدي عليه السلام بشخصيته الثانية، حال كونه مجهول الحقيقة مغفولاً عنه بالمرة.

وهذا المستوى متوفر دائماً للناس الذين يعايشونه في مجتمعه أو الذين يصادفونه في أي مكان كان. طبقاً لمفهوم هذه الأطروحة.

المستوى الثاني:

مقابلة المهدي عليه السلام بصفته الحقيقية، مع عدم الالتفات إلى ذلك إلا بعد انتهاء المقابلة.

وهذا المستوى هو الذي سارت عليه المقابلات الاعتيادية المروية، على ما سنسمع في الجهة الثانية من هذا الفصل مشفوعاً بالتبرير النظري له.

المستوى الثالث:

مقابلة المهدي عليه السلام بصفته الحقيقية، مع الالتفات إلى ذلك في أثناء

المقابلة. وهذا المستوى قليل في روايات المشاهدة جداً، باعتبار كونه مخالفاً في الأغلب للمصلحة، ومنافياً للغيبة التامة، على ما سنسمع.

الأمر الثاني:

في كيفية المقابلة معه عليه السلام.

ويختلف ذلك أيضاً باختلاف الأطروحتين الرئيسيتين:

أما بناء على الأخذ بالأطروحة الأولى، فتحتاج المقابلة إلى عدة معجزات، بعد أن عرفنا أن مفهوم هذه الأطروحة يتضمن الاختفاء الإعجازي الدائم. ولا يمكن أن تحدث المقابلة مع استمرار الاختفاء بطبيعة الحال، إذن فلا بد من حدوث عدة معجزات لإتمام الغرض من المقابلة.

المعجزة الأولى:

ظهوره بعد استمرار الاختفاء بشكل استثنائي، اقتضته مصلحة خاصة. وهذا الظهور يقطع الحالة الإعجازية الدائمة للاختفاء، فيكون هو معجزة أيضاً.

المعجزة الثانية:

إقامة الحجة القاطعة على إثبات حقيقته وأنه هو المهدي عليه السلام. بحيث يثبت ذلك ولو بعد انتهاء المقابلة.

وهذه المعجزة ضرورية لإثبات حقيقته، بعد العلم أن الرائي جاهل بالمرة بشكل الإمام المهدي عليه السلام وسحنته. ومن الواضح أنه لا يكفي للرائي مجرد إدعاء كونه هو المهدي المقصود، بل يحتاج لا محالة إلى إقامة الحجة بالمعجزة لإثباته.

المعجزة الثالثة:

اختفاؤه بعد الظهور، وعوده إلى حالة الاختفاء الأولى بعد أن يكون قد أنجز المطلوب من المقابلة.

فهذا ما تحتاجه المقابلة لو صحت الأطروحة الأولى.

وأما لو أخذنا بالأطروحة الثانية: أطروحة خفاء العنوان، التي تقول: بأن الشيء الدائم بالنسبة إلى المهدي عليه السلام هو الظهور الشخصي مع خفاء العنوان، كما سبق أن أوضحناه... فالمعجزة الأولى لا حاجة لها على الإطلاق. بل حسب المهدي عليه السلام أن يقابل الفرد كأي إنسان آخر، وينجز ما هو المطلوب من مقابلته، ويعرفه بحقيقته، ولو بحسب النتيجة، أي ولو بعد المقابلة.

كما لا حاجة، في الأعم الأغلب إلى المعجزة الثالثة، أعني الاختفاء بعد المقابلة. بل يكون ذهاب المهدي عليه السلام بعد انتهائها طبيعياً، ولو بتخطيط مسبق يقوم به المهدي عليه السلام لأجل تنفيذ الذهاب بشكل لا يكون ملفتاً للنظر.

نعم، لو وقع الإمام في ضيق وحرج عند مقابلته، بحيث تعرضت غيبته العامة إلى الخطر، كان لا بد له من الإختفاء الإعجازي، وهو مطابق - في مثل ذلك - لقانون المعجزات، لأن في حفظ غيبته تنفيذاً لليوم الموعود.

وأما المعجزة الثانية، وهي التي تثبت بها حقيقته... فهي مما لا بد منه في الأعم الأغلب جداً من المقابلات. لما أشرنا إليه من أن الفرد حيث لا يعرف المهدي بشخصه ولا يكفيه مجرد دعوى كونه هو المهدي عليه السلام، كان لا بد من إقامة الحجة لإثبات صدقه، والحجة لا تكون إلا بالمعجزة، ومن هنا كانت هذه المعجزة مطابقة لقانون المعجزات.

نعم، قد يستغنى أحياناً عن هذه المعجزة، فيما إذا كان الشخص الرائي

ممن يعرف المهدي عليه السلام بشخصه وعنوانه. كما لو كان رآه في مرة سابقة وقامت الحجة لديه على حقيقته، ثم رآه ثانياً وعرفه، فلا حاجة به إلى إقامة الحجة تارة أخرى. ومعه يكون لقاؤه مع المهدي عليه السلام طبيعياً جداً، من دون أن تقع أي معجزة.

والمثال الواضح لذلك هو السفراء الأربعة في الغيبة الصغرى. فإنهم يعرفون المهدي عليه السلام بشخصه وعنوانه، ويأخذون منه التوقيعات. ومثاله في الغيبة الكبرى ما يظهر من بعض الروايات أن الخاصة من المخلصين يجتمعون بالمهدي عليه السلام ويعرفونه، على ما سيأتي. كما يظهر من بعض الروايات أن السيد مهدي بحر العلوم كان كذلك أيضاً، على ما سنسمع في أخبار المقابلات.

الأمر الثالث:

ما هي المصالح المتوخاة والأهداف المطلوبة للمهدي عليه السلام من مقابلته للآخرين، بمقدار ما تهدينا إليه القواعد العامة. وسنسمع في الجهة الثانية من هذا الفصل تفاصيل ذلك وتطبيقاته.

وما ينبغي أن يكون هدفاً له عليه السلام من المقابلات، هو قيامه بالمسؤولية الإسلامية، بأحد الأنحاء التي سبق أن ذكرناها في الفصل الثاني من هذا القسم من التاريخ... فيما إذا انحصر تنفيذها على المقابلة مع الآخرين بالشخصية الحقيقية، ولم يمكن القيام بها حال الاستتار والجهل بالعنوان. وكانت الواقعة مشمولة للشروط التي ذكرناها في ذلك الفصل لعمله الإسلامي المثمر في المجتمع، سواء على الصعيد الخاص أو الصعيد العام.

فقد يكون هدفه إنقاذ شخص من ضرر وقع عليه أو إنقاذ مجتمع من

تعسف ظالم عليه. أو هداية شخص وتقويمه من الانحراف العقائدي أو الكفر أو الانحراف السلوكي، أو الدفاع عن شخص أو مجتمع ضد الانحراف، أو نحو ذلك من الأهداف التي كنا قد حملنا عنها فكرة فيما سبق... مع توفر شروط العمل فيها لا محالة.

الأمر الرابع:

في كيفية حضور الإمام المهدي عليه السلام للمقابلة الصريحة، مع الآخرين.

وإنما يثار التساؤل عن ذلك، باعتبار ما قد يخطر في الذهن من أنه إذا كان الشخص الذي يريد المهدي عليه السلام مقابلته بعيداً عنه، بحيث يحتاج إلى سفر طويل. فما الذي يمكن له أن يفعله. وذلك بعد الالتفات إلى نقطتين:

النقطة الأولى:

إن بعد المسافة هو الغالب في موارد عمل الإمام عليه السلام، لأنها متفرقة على وجه البسيطة. ومن هنا يضطر الإمام إلى السفر المتطاول دائماً لقضاء حوائج الناس وحل مشاكلهم.

النقطة الثانية:

أنه قد يكون في كثرة الأسفار خطر على غيبته ومظنة لانكشاف أمره، وخاصة بعد أن فرض العمل عن طريق المقابلة بالشخصية الحقيقية.

والجواب على ذلك يكون بإعطاء عدة أساليب ممكنة للمقابلة، وتذليل الصعوبة المشار إليها في السؤال. مع الاعتراف أنه إذا لم يكن شيء منها ممكناً، وكان فيها خطر على غيبته، فإنه عليه السلام لا يمارس العمل، لأن العمل

نفسه وإن فرض جامعاً للشرائط، إلا أن الطريق إليه متعذراً ومقدماته خطرة، وإيجاد العمل بدون مقدماته ممتنع. إذن فينسد باب العمل جزماً.

وتتلخص الأساليب المحتملة في عدة وجوه تختلف باختلاف الموارد:

الوجه الأول:

أننا لا حاجة لأن نفترض كون الشخص الذي يريد المهدي مقابلته بعيداً. بل يمكن أن يكون قريباً، يعيش في نفس المجتمع الذي يعيش المهدي عليه السلام فيه... فلا يحتاج إلى سفر أو مضي مدة. سواء كان المهدي عليه السلام يعيش في ذلك المجتمع مختفياً، طبقاً للأطروحة الأولى، أو ظاهراً مجهول العنوان، طبقاً للأطروحة الثانية.

ومعه فلا مجال للسؤال عن صعوبة المقابلة بأي حال.

الوجه الثاني:

مجرد الصدفة... وهو أمر محتمل في بعض المقابلات، فيما إذا صادف المهدي عليه السلام في بعض أسفاره شخصاً أو أناساً محتاجين إلى العمل في سبيل إنقاذهم أو هدايتهم... بشكل تتوفر فيه الشرائط.

وحمل جميع المقابلات على مجرد الصدفة، غير ممكن لكثرة المقابلات على مر التاريخ، بحيث نعلم أن عدداً مهماً منها كان نتيجة لتخطيط وتعمد من قبل المهدي عليه السلام... إلا أن بعضها يمكن أن يكون قد حدث صدفة.

ومعه، ففي مورد الصدفة لا حاجة إلى السؤال عن كيفية تجشم السفر أو استلزامه لانكشاف الغيبة. فإن المفروض أن السفر لم يكن لأجل المقابلة،

وإنما كان لأهداف أخرى خطط فيها بقاء الاختفاء واستمرار الغيبة.

الوجه الثالث:

إن المهدي عليه السلام إذ يعلم وجود مورد للعمل المثمر الحاصل على الشرائط في مكان بعيد عنه من العالم، ويكون الطريق إليه مأموناً بالنسبة إليه، فإنه يقصده قصداً ويسافر إليه عمداً بطريق طبيعي جداً، ليقوم بالوظيفة الإسلامية المقدسة في أنحاء المعمورة.

وهذا ممكن للغاية، مع التخطيط لدفع الأخطار المحتملة. حيث يكون للمهدي عليه السلام أن يسافر وأن يرجع بشخصيته الثانية، ولا يكشف حقيقته إلا للفرد المنوي مقابلته.

ونحن بعد أن نلتفت إلى الوجوه الأخرى، لا نجد هذا الوجه هو الغالب في المقبلات، لكي يستلزم أن يكون المهدي عليه السلام مضطراً إلى السفر المتطاول المستمر في سبيل قضاء حوائج الناس، كما فهمنا من السؤال.

وعلى أي حال، فهذين الوجهين الثاني والثالث، منسجمين أيضاً مع الأطروحتين الرئيسيتين، فإن مصادفة مورد العمل أو قصده سفراً يمكن أن يكون مع اختفاء الشخص كما يمكن أن يكون مع خفاء العنوان.

الوجه الرابع:

اتخاذ المعجزة في قضاء الحاجة أو العمل في سبيل هداية أو دفع ظلامة. سواء من ناحية سرعة الوصول بشكل إعجازي إلى المناطق البعيدة من الأرض أو من أي ناحية أخرى تحتاج إلى الإعجاز.

وهذا الوجه منسجم مع كلتا الأطروحتين الرئيسيتين. ولكنه، طبقاً لقانون المعجزات، منحصر بما إذا تضمن العمل في بعض الموارد إقامة الحجة على الآخرين، بإيجاد الهداية أو برفع بعض أشكال الظلم. ومن البعيد أن نتصوره متحققاً في قضاء حاجة شخصية مهما كانت الضرورة فيها قصوى، ما لم يكن راجعاً إلى إقامة الحجة، بنحو من الأنحاء.

وهذه المعجزة التي نتحدث عنها الآن، هي غير تلك المعجزة التي يستعملها المهدي عليه السلام لإثبات حقيقته للآخرين. ومن هنا قد يحتاج إلى كلتا المعجزتين، وقد يحتاج إلى إحداهما، وقد يتكفل إنجاز كلا الغرضين: سرعة الوصول والكشف عن حقيقته، بمعجزة واحدة. كما قد لا يحتاج إلى شيء منها أحياناً. . . ذلك باختلاف خصائص كل واقعة وكل شخص تطلب مقابلته.

وبهذا ينتهي المقصود من بيان ما تقتضيه القواعد في مقابلات المهدي عليه السلام، فلا بد أن ننظر إلى الأخبار الخاصة لنرى مقدار ما تثبته من المشاهدة، وهل أنه منسجم مع ما تمّ طبقاً للقواعد العامة أو لا.

الجهة الثانية:

في الأخبار الخاصة الدالة على مشاهدة الإمام المهدي عليه السلام في غيبته الكبرى. وهي عدد ضخم يفوق حد التواتر بكثير، بحيث نعلم، لدى مراجعتها واستقرائها، بعدم الكذب والوهم والخطأ فيها في الجملة. وإن كانت كل رواية لو روعيت وحدها لكانت قابلة لبعض المناقشات على ما سوف يأتي.

والحاصل منها في اليد، ما يفوق المائة، يذكر منها الشيخ المجلس في البحار[1] عدداً منها، ويذكر منها المحدِّث النوري في النجم الثاقب مائة كاملة.

(١) الجزء الثالث عشر، ص١٤٣ وما بعدها.

وقد كتب أيضاً رسالة خاصة في ذلك سماها «جنة المأوى» ألحقت بالجزء الثالث عشر من البحار، يذكر فيها تسعاً وخمسين حادثة.

وهناك على الألسن والمصادر الأخرى ما يزيد على ذلك بكثير.

على أننا سبق أن ذكرنا في تاريخ الغيبة الصغرى[1] أنه يحتمل - إن لم يكن يطمئن أو يجزم - بأن هناك مقابلات غير مروية أساساً، وأن المهدي عليه السلام يتصل بعدد من المؤمنين في العالم في كل جيل، مع حرصهم على عدم التفوه بذلك وكتمه إلى الأبد، تحت عوامل نفسيه مختلفة شرحناها هناك. بل من الممكن القول بأن المقابلات غير المروية أكثر بكثير من المقابلات المروية.

وعلى أي حال، فينبغي أن نتكلم في ما وردنا من الأخبار، من حيث تمحيص أقسامها، ومن حيث معطيات مدلولها، في ضمن عدة أمور:

الأمر الأول:

في تمحيص هذه الروايات، ومعرفة أقسامها، فإنها ليست على نسق واحد وأسلوب مطرد في مقابلة المهدي عليه السلام، بل يختلف الحال فيها اختلافاً كبيراً. ومرد هذا الاختلاف إلى الاختلاف في ظروف الشخص الرائي ومقدار وثاقته وضعفه وسنح الهدف الذي يستهدفه الإمام من وراء المقابلة، وطريقة التخطيط الذي يضمن به سلامته وإخفاء نفسه. وبذلك تكاد تختلف كل رواية عن الأخرى... وما يمكن أن يعنون من الاختلافات هو ما نذكره في الأقسام التالية، نذكره بنحو قابل للتداخل وإمكان اندراج رواية واحدة في أكثر من قسم واحد:

---

(١) انظر ص٥٩٧ وما بعدها.

القسم الأول:

ما كان منها متضمناً لإسناد أكثر من معجزة واحدة للإمام المهدي(عليه السلام): اثنتين أو ثلاث... وقد تصل إلى أربع.

وقد سبق أن ذكرنا أنه لا حاجة إلى المعجزة إلا بمقدار إقامة الحجة، ويكون الزائد أمراً مستأنفاً لا يصدر عن الخالق الحكيم. ومعه لا بد من إسقاط المعجزات الزائدة عن ذلك عن نظر الاعتبار، ما لم نجد لها وجوهاً للتصحيح... وإن كان ذلك لا يسقط مجموع الرواية ولا الدلالة على مقابلة الإمام المهدي، لما ذكرناه من أن سقوط بعض مدلول الرواية لا يقتضي سقوط الجميع.

إلا أننا لا نعدم وجوهاً للتصحيح:

الوجه الأول:

إننا وإن قلنا أن المعجزة منحصرة بمورد إقامة الحجة، إلا أن ذلك كما يقتضي عدم زيادتها على ذلك يقتضي عدم نقصها عن هذا الحد أيضاً. فلا بد من إقامة المعجزة بنحو يقنع الفرد العادي، وينتفي بها احتمال الصدفة والتزوير، ولا تكون قاصرة عن ذلك. وأما لو كانت المعجزة مختصرة وغير ملفتة للنظر، فقد لا تحمل الفرد الاعتيادي على الاقتناع.

ومعه فقد تمس الحاجة - أحياناً - إلى ضم أكثر من معجزة واحدة إلى بعضها البعض، لكي تحصل القناعة. وهذا هو الذي وقع في عدد من أخبار المشاهدة التي نحن بصدد الحديث عنها. وقد سبق أن سمعنا في تاريخ الغيبة الصغرى كيف كان يقيم المهدي(عليه السلام) دلالتين منضمتين، حيث يقول بعض

المؤمنين لأخيه المؤمن: لا تغتم فإن لك في التوقيع إليك دلالتين: إحداهما: إعلانه إياك أن المال ألف دينار. والثانية: أمره إياك بمعاملة أبي الحسين الأسدي لعلمه بموت حاجز.

الوجه الثاني:

أن نفهم - ولو احتمالاً -: أن الإمام المهدي عليه السلام له اهتمام خاص بالشخص الذي يقابله، بحيث يريد أن يقيم له حجة واضحة جداً. فيضم معجزة إلى معجزة، حتى يتحقق ذلك. ويكون ذلك واقعاً في طريق إقامة الحجة عليه، فينسجم مع قانون المعجزات.

الوجه الثالث:

أننا ذكرنا أنه قد يحتاج المهدي عليه السلام أحياناً إلى أكثر من معجزة واحدة، لكي تكون إحداها للدلالة على حقيقته وتكون الأخرى للاختفاء الإعجازي لدى الحاجة.

وهذا صحيح، لولا ما قلناه من أن الاختفاء يكون طبيعياً وغير ملفت للنظر على الأغلب، وما سوف نقوله من أن معجزة واحدة كافية لإيجاد كلا الأثرين:

أعني الدلالة على حقيقته والاختفاء.

وعلى أي حال، فلا بأس من تعدد المعجزة في الحادثة الواحدة، ولكن إن ثبت أنها مما لا مبرر لها بحسب القواعد العامة... فلا بد من طرحها عن مدلول الرواية، وإن لم يكن طرحها ملازماً لطرح كل المدلول.

القسم الثاني:

ما كان منها مكرساً على قضاء الحاجات الشخصية، وهو الأعم الأغلب

من أخبار المشاهدة. وأما ما كان منها لقضاء حاجة عامة أو هداية مجتمع كامل أو إنقاذه من الظلم ونحو ذلك... فهو قليل الوجود في هذه الروايات، على ما سوف نشير إليه.

ونحن في فسحة واسعة - بعد كل الذي عرفناه - من حيث إمكان ذلك، وتعقل صحته ومطابقته مع القواعد العامة. وذلك من أجل عدة وجوه:

الوجه الأول:

إن المهدي عليه السلام يكرس عمله الاجتماعي المثمر العام، بصفته مختفياً، أو بشخصيته الثانية. وقد سبق أن حملنا فكرة كافية عن أسلوبه في ذلك. لأنه عليه السلام يرى أن ذلك أضمن لسلامته، ومن ثم يكون أفسح فرصة لتعدده وكثرته وعمق تأثيره، بدون أن يعرف أحد أن التأثير وارد من قبل المهدي عليه السلام ليكون منقولاً عنه في أي رواية من الروايات.

الوجه الثاني:

أن نحتمل - والاحتمال كاف في أمثال هذه الموارد، كما برهنا عليه في المقدمة -: إن الإمام المهدي عليه السلام عمل أعمالاً عامة عديدة في خلال العصور بصفته الحقيقية. ولكنه لم ينقل خبره إلينا إلا بهذا المقدار القليل. وذلك: لأحد مانعين:

الأول: إن الإمام بنفسه يأمر الآخرين بالكتمان، أما لتوقف غيبته على ذلك، أو لتوقف نفس المخطط الإصلاحي عليه أحياناً. كما لو كان يتوقف على إقناع أشخاص من غير قواعده الشعبية.

الثاني: إن العمل الشخصي بطبيعته أكثر إلفاتاً للنظر وأجدر بالنقل والرواية

من العمل الاجتماعي العام، في نظر أولئك الرواة غير الواعين الذين ينظرون إلى الكون والحياة من زواياهم الخاصة ومصالحهم الضيقة. وقد كان البشر ولا يزالون محافظين على هذا المستوى الواطئ، وسيبقون كذلك إلى يوم ظهور المهدي عليه السلام وقيامه بالعدل التام.

ومن ثم كان العمل الاجتماعي مهملا في نظر الرواة، وكان العمل الشخصي مؤكداً عليه عندهم ومنقولاً بإسهاب في رواياتهم. ومن هنا لا نجد من الروايات الدالة على عمل المهدي عليه السلام في الحقل العام إلا القليل.

الوجه الثالث:

أن نفهم - كما فهمنا فيما سبق - إن عدداً من المظالم العامة والخاصة الموجودة في العالم على مر العصور، لا يتوفر فيها الشرط الأول من الشرطين اللذين ذكرناهما لعمل المهدي عليه السلام. وهو ان عمله فيها يستوجب انكشاف أمره وتعرضه للخطر. وقلنا أن كل شيء يكون على هذا المستوى يجب إهماله تنفيذاً للمخطط الإلهي في حفظ المهدي عليه السلام ليوم الظهور الموعود.

الوجه الرابع:

أن نفهم - كما فهمنا فيما سبق أيضاً -: إن عدداً من أنحاء الظلم العام الساري في المجتمع على مر التاريخ، لا يتوفر فيه الشرط الثاني من الشرطين السالفين... بمعنى كونه دخيلاً في تحقيق وعي الأمة وإدراكها لمسؤولياتها الإسلامية تجاه واقعها وتجاه نفسها وربها ومستقبلها. وهذا هو أحد الشروط الأساسية في تحقق ظهور المهدي عليه السلام على ما سنعرف. إذن فالمهدي، حرصاً على تحقق شرط الظهور، لا يعمل على إزالة هذا الظلم العام.

وهذا بخلاف الحال في المظالم الخاصة، فإنها لو لوحظت منفردة لا تكاد تؤثر في وعي الأمة.

وعلى أي حال، فما لا يكون دخيلاً في وعي الأمة أو الفرد، يمكن أن يسعى المهدي عليه السلام إلى إزالته مع توفر سائر الشرائط فيه. وحيث كان عدم التأثير متوفراً في الظلم الشخصي، وغير متوفر في الظلم العام، كان عمل المهدي عليه السلام في إزالة الظلم الشخصي أكثر منه في إزالة الظلم العام.

إذن، فمن المنطقي جدا، على أساس هذه الوجوه الأربعة، المتوفر واحداً منها أو أكثر في كل مقابلة، أن يصبح العمل العام للإمام المهدي عليه السلام أقل من العمل الخاص، أو أن تكون روايته أقل على أقل تقدير.

القسم الثالث:

من روايات المشاهدة، ما لا يظهر فيه الإمام المهدي عليه السلام على مسرح الحوادث بوضوح، وذلك بالنسبة إلى الراوي - على أقل تقدير -. بل يقوم الدليل القطعي عند الراوي المتحدث أن شخصاً آخر رآه وعرفه أو رآه ولم يعرفه إلا بعد ذهابه.

وهذا القسم يمثل بعض ما ذكره الحاج النوري من الأخبار المائة في «النجم الثاقب». وهو غير مضر بكونه من أخبار المشاهدة. فإننا لا نعني من المشاهدة: مشاهدة المتحدث عن نفسه والراوي عن رؤيته فقط... بل مشاهدة أي إنسان للمهدي عليه السلام. وهذا ما تضمن هذه الروايات الإعراب عنه.

القسم الرابع:

الروايات التي تدل على وجود المهدي عليه السلام من دون أن يراه أحد،

لا بمعنى اختفائه اختفاء شخصياً، بل بمعنى أن الناس قد يتوسلون إلى المهدي عليه السلام بالنداء والدعاء بأن يقضي حاجتهم ويتوسط إلى الله عز وجل في تذليل مشكلاتهم، فتقضى حاجتهم وتحل مشاكلهم، أما بشكل طبيعي اعتيادي، وأما بشكل لم يكن متوقعاً لصاحب المشكلة أساساً، بحيث يضطر إلى الإذعان والجزم بكونه حاصلاً نتيجة لدعاء المهدي عليه السلام. وبذلك يثبت وجوده عليه السلام، وعنايته بمن يتوسل إلى الله عز وجل في حل مشكلته.

وهذا القسم يمثل بعض أخبار المشاهدة، وهو موجود على مر التاريخ بالنسبة إلى الكثير من المضطرين والمحتاجين. فإن الإمام بقربه إلى الله تعالى وكماله لديه يكون مستجاب الدعوة، فيمكنه أن يستعمل دعاءه في قضاء حوائج الآخرين، حين يرى المصلحة في ذلك.

وهذا هو أبعد طريق عن الشبهة والخطر بالنسبة إليه، كما هو واضح. كما أنه يكون عملاً من الأعمال المنتجة بصفته ذو تأثير حقيقي في الخارج. وإنما يسقط الدعاء من كونه عملاً منتجاً فيما إذا كان بعيداً عن الإخلاص وعن إدراك حقيقة المسؤولية، ومن ثم يكون بعيداً عن الإجابة فلا يكون منتجاً.

القسم الخامس:

الأخبار التي تدل على أنه شارك في إقامة الحجة على الفرد، بعض ما رآه في المنام أيضاً، مضافاً إلى الحوادث التي عاشها في اليقظة.

وهذا الأمر ليس بالبعيد مع اقتران خصيصتين:

الأولى: إذا كانت إقامة الحجة على مستوى المعجزة.

الثانية: أن يكون لبعض ما رآه أثر في عالم اليقظة، ولم تكن الحادثة

مقتصرة على المنام وحده.

وكلا الخصيصتين مجتمعتان في الأخبار المندرجة في هذا القسم مما سطر في المصادر أو شوهد بالوجدان أو سمع بالنقل. ومعه تندرج هذه الأخبار فيما يدل بالدلالة القطعية على وجود المهدي عليه السلام ، وإن لم تندرج في أخبار المشاهدة.

وأود أن أشير في المقام إلى أنه ليس هناك أي دليل عقلاً ولا شرعاً على بطلان كل الأحلام جملة وتفصيلا. نعم، لا شك في ان أكثرها زائل ولا حقيقة له، وإنما هو ناشئ عن نوازع نفسية لا شعورية لدى الفرد. ولكن مما لا شك فيه وجود الأحلام المطابقة للواقع، والتي يجد الفرد تطبيقها في عالم اليقظة بنحو أو بآخر، وإنكار ذلك مكابرة واضحة على الوجدان، وأنت حر بإعطاء أي تفسير لذلك عدا الصدفة المحضة التي يقطع بعدمها نتيجة للكثرة الكاثرة من الأحلام الصادقة على مر التاريخ.

فإذا اقترن الحلم بأمر زائد على مجرد المطابقة للواقع، كان - ولا شك - من قبيل المعجزات، كما لو دعا لك شخص في المنام فشفيت في اليقظة أو وعدك بتحقق أمر فتحقق، أو أخبرك بشيء لم تكن تعلمه، وكان حاصلاً حقيقة.

ومع ذلك لا نريد أن نثمن تلك الروايات التي تقتصر على مجرد المنام، فإن مثل ذلك غير موجود في أخبار المشاهدة على الإطلاق. وإنما يوجد قسم منها تشارك اليقظة والنوم في إيجاد المعجزة للدلالة على حقيقة المهدي. وهو من أوضح الدلائل على صدق المنام.

وعلى أي حال، فهذا القسم قليل العدد في روايات المشاهدة. ولو قدر لنا

إسقاط المنام عن نظر الاعتبار، لكان لنا في ما حدث في اليقظة حجة وكفاية.

القسم السادس:

الأخبار الدالة على أن المهدي عليه السلام يراه الرائي كشخص معين معروف النسب.

وقد روى الحاج النوري في ذلك روايتين، كان المهدي عليه السلام في إحداهما بصورة «سيد» يعرفه الراوي ويعرف كونه جاهلاً واطئ الفهم والثقافة. وقد فهم كونه هو المهدي عليه السلام لما ذكر من أمور علمية مع إنكار ذلك الشخص أنه كان هو القائل لذلك[١]. وكان المهدي عليه السلام في الثانية في صورة «شيخ» يعرفه الراوي[٢].

وهاتان الروايتان، ونحوهما مما يثبت تَشَكُّل الإمام المهدي عليه السلام في سحنته وجسمه أشكالاً مختلفة، بحيث من الممكن انطباقها على أشخاص بعينهم... يختلف حسابهما بالنسبة إلى الأطروحتين الرئيسيتين السابقتين:

أما أطروحة خفاء الشخص، فهي وإن لم تقتض ذلك على وجه التعيين، لإمكان أن يراه الرائي عند ارتفاع خفائه بشكل موحد في كل المرات. ولكن قد يتخيل من يقول بهذه الأطروحة: بأن حال المهدي عليه السلام وغيبته، لما كانت مبتنية على المعجزات، كما هو مفروض هذه الأطروحة، فمن الممكن أن تتوسع في المعجزات إلى كثير من خصوصيات الإمام عليه السلام وأموره، حتى فيما يرتبط بشكله وسحنته... ما دام الله تعالى قادراً على كل شيء.

---

(١) النجم الثاقب، ص٣٦٨ وما بعدها.

(٢) المصدر ص٣٧٣. هذا ويراد بالسيد والشيخ من كان بزي رجال العلم الديني الإسلامي. غير ان السيد من كان من العلويين منهم والشيخ من لم يكن كذلك.

ولكن الواقع، أننا إذا سرنا في هذا التصور عدة خطوات، لواجهنا انحرافاً خطيراً وفهماً خاصاً باطلاً للتصورات والقواعد الإسلامية، لسنا بصدد تفصيله. والصحيح هو ما قلناه في تأسيس الأطروحة الثانية، من قانون المعجزات، وإن كون الله تعالى قادراً على كل شيء، لا يقتضي إيقاعه للمعجزات بعدد كبير وبدون مبرر واضح. بل لا بد من اقتصاره على مورد إقامة الحجة، وتربية البشر.

فإذا تمّ ذلك، عرفنا أننا نعترف بإمكان ما قيل من تغير شكل الإمام - موقتاً - عند انحصار إقامة الحجة على ذلك أو توقف مستقبله الموعود عليه. إلا ان ذلك مما لا يكاد يوجد له مصداق أو تطبيق في أي مورد لما سبق أن عرفناه من إمكان إيجاد المقابلة وإنهائها بشكل طبيعي، أو بإيجاد معجزة واحدة هي الاختفاء عند الضرورة، مع الحفاظ على شكله الذي هو قوام شخصيته بين الناس. وإذا أمكن ذلك، انتفت الحاجة إلى تغير الشكل بالمعجزة، وإذا انتفت إليها الحاجة لم يكن لوجودها سبيل، بحسب قانون المعجزات.

وينفي هذا المضمون أيضاً، ما سبق أن سمعناه من أن عدداً من الأفراد يعرفون الإمام المهدي عليه السلام في غيبته الصغرى وفي غيبته الكبرى، بشكل وسحنة موحدة بالرغم مما قد يتغير من زيه وملبوسه.

القسم السابع:

من أخبار المشاهدة ما دل على مشاهدة المهدي عليه السلام في العراق أو وسطه وجنوبه على وجه خاص. وهذا يشمل الأعم الأغلب من أخبار المشاهدة.

ومعه، فقد يخطر في الذهن: أن هذا الاختصاص بمنطقة معينة من العالم مما لا يناسب الوظيفة الإسلامية التي عرفناها للمهدي طبقاً للأطروحة الرئيسية

الثانية... من تنفيذ عدد من مصالح المسلمين وحل مشاكلهم، مما هو مستجمع للشرائط السابقة، وخاصة مما يمت إلى قواعده الشعبية ومواليه بصلة. ومن المعلوم أن عمله في خصوص العراق، يجعل هناك ضيقاً في نشاطه لا عن المسلمين فقط، بل عن قواعده الشعبية في غير العراق أيضاً، فكيف نستطيع أن نفسر هذه الأخبار.

والجواب عن ذلك يكون من عدة وجوه:

الوجه الأول:

إن الأخبار المثبتة لمشاهدته عليه السلام في غير العراق، لا قصور فيها من حيث الدلالة على قيام المهدي بوظيفته الإسلامية في تلك البلاد. على ما سنسمع فيما يلي من البحث مفصلاً.

الوجه الثاني:

أننا ينبغي أن نلتفت إلى ما قلناه من أن هناك عدداً ضخماً من المشاهدات غير المروية، قد يفوق العدد المروي منها.

إذن، فمن المحتمل أن يكون عدد مهم من المشاهدات واقع في خارج العراق، ولم تسنح الظروف - التي أشرنا إلى بعضها - بنقل أخبارها إلينا.

كما ينبغي أن لا ننسى ما قلناه من أن المهدي عليه السلام يعمل الأغلب من أعماله بشخصيته الثانية وبصفته فرداً عادياً في المجتمع، ومثل هذه الأعمال تحصل ولا يردنا خبرها بطبيعة الحال. أو قد يصلنا الخبر ولا نعرف انتسابها إلى المهدي عليه السلام بحقيقته.

ومعه فالمهدي يمكنه أن يعمل في سائر البلاد التي يصل إليها، سكناً أو سفراً، من دون أن يثير حوله أي استفهام أو أن يصل إلى الآخرين عنه أي خبر.

الوجه الثالث:

إن غاية ما تدل عليه هذه الأخبار، هو أن غالب سكنى المهدي عليه السلام هو في العراق. ومن المعلوم أن عمل الفرد يكثر في محل سكناه عنه في المناطق الأخرى. وخاصة فيما إذا كان يجد من بعض الأسفار صعوبة وخطراً على نفسه أو إثارة للاستفهام عن حقيقته.

واختياره عليه السلام العراق للسكنى، ممكن وقريب، ولا ينافي أياً من الأطروحتين الرئيسيتين. وخاصة بعد أن كان هو بلد سكناه غالباً في غيبته الصغرى - كما عرفنا-. وفيه مساكن ومدافن جملة من آبائه الطاهرين عليهم السلام. وكان مركزاً لعدد مهم من الأعمال الإسلامية الكبرى في صدر الإسلام كواقعة كربلاء وغيرها. وسنعرف أيضاً في الكتاب الثالث من هذه الموسوعة أن العراق والكوفة على الخصوص، ستكون هي المنطلق الأساسي، بعد ظهور المهدي عليه السلام لفتح العالم كله والعاصمة الرئيسية للدولة الإسلامية العالمية المهدوية.

وهنا يمكن أن يخطر في الذهن سؤالان، لا بد من عرضهما مع محاولة الجواب عليهما:

السؤال الأول:

أنه لماذا كان العراق هو مركز الثقل في كل هذه الأعمال الكبرى، ولم

يكن غيره بهذه الصفة. مع العلم أننا نؤمن بتساوي البشر عامة والمسلمين خاصة وبتساوي المناطق واللغات تجاه التشريع الإسلامي والعدالة الإلهية. فما هو الوجه في ذلك؟

والجواب عن ذلك: أن العراق لم يحتل هذا المركز المهم، من أجل عنصرية معينة، وإنما له من الصفات الواقعية التي تجعله المنطلق الوحيد في العالم لكل تلك الأعمال الكبرى.

ويمكن تلخيص خصائصه الرئيسية بما يلي:

الخصيصة الأولى:

إن العراق من الناحية الجغرافية، يعتبر في وسط البلاد الإسلامية في عصر الغيبة، ابتداءً بالهند وأندونيسيا وانتهاءً بمراكش وغرب أفريقيا عموماً.

الخصيصة الثانية:

إن العراق مسكن للقواعد الشعبية التي تؤمن بوجود المهدي عليه السلام وغيبته.

الخصيصة الثالثة:

إن العراق سيصبح الأرض التي تتمخض عن عدد غير قليل من القواد الرئيسيين للمهدي عليه السلام بعد ظهوره، كما سيتضح من الكتاب الثالث من هذه الموسوعة، بخلاف البلاد الإسلامية الأخرى، فإنها تتمخض عن عدد قليل.

والسر في ذلك: ليس هو أفضلية العراق ككل على غيره، وإنما ذلك

باعتبار ما يمر به الشعب هناك من مآسٍ ومظالم أكثر من غيره من الشعوب المسلمة، وسنعرف في ما يلي من هذا التاريخ أن زيادة الظلم يتمخض عن كثرة الإخلاص والمخلصين.

وبهذه الخصائص الثلاث، يكون العراق ذا موقع أهم من الناحية الإسلامية من كثير من البلاد الإسلامية الأخرى: نعم، ينبغي أن لا ننسى الجزء الأكبر من بلاد فارس فإنها أيضاً تتصف بنفس الخصائص. وحيث كانت مجاورة للعراق أمكن تعميم المنطقة بخصائصها إليها.

السؤال الثاني:

إن روايات المشاهدة وإن دلت على سكنى المهدي عليه السلام في العراق، إلا أن هناك أموراً أخرى تدل على خلاف ذلك، تكون معارضة مع هذه الروايات. فكيف نجمع بينهما.

الأمر الأول:

ما سبق أن ذكرناه طبقاً للأطروحة الرئيسية الثانية، من أن خير وجه متصور يخططه المهدي عليه السلام لكي يبعد الأنظار عن نفسه والالتفات إلى حقيقته، هو أن يسكن في كل جيل مدينة إسلامية غير التي كان يسكنها وقلنا أنه لعله يسكن في كل خمسين سنة في مدينة من العالم الإسلامي.

ولكن الواقع أن هذا لا يعارض سكناه الغالبة في العراق خلال التاريخ، وسكناه في عدد من مدن العراق أيضاً. فلا يكون معارضاً مع ما دلت عليه روايات المشاهدة.

الأمر الثاني:

الرواية السابقة التي دلت على اختياره المدينة المنورة للسكنى.

الأمر الثالث:

ما سمعناه من اختياره البراري والقفار وشعاب الجبال محلاً للسكن، كما دلت عليه رواية علي بن مهزيار.

والجواب على كلا هذين الأمرين، من وجهين:

الوجه الأول:

أننا سبق أن وجدنا المبررات الكافية لرفض الأخذ بكلا هاتين الروايتين، ومعه، فلا تكون معارضة ما دلت عليه روايات المشاهدة.

الوجه الثاني:

إن ما يدل عليه غالب روايات المشاهدة هو سكنى المهدي في غالب العصور المتأخرة في العراق، ومعه ففي الإمكان افتراض سكناه في البراري والقفار. وخاصة بعد أن علمنا أن الحاجة إلى الانعزال والحماية قد ارتفعت بالمرة عن شخص المهدي عليه السلام، في العصور المتأخرة.

* * *

فهذه هي جملة الأقسام في أخبار المشاهدة، مع تمحيصها. ونكرر تارة أخرى أن كل رواية بمفردها، قد تكون قابلة للمناقشة إلا أن العلم الحاصل من المجموع غير قابل للمناقشة، ويكون نافياً للكذب والخطأ والوهم . . . ولو في بعضها على أقل تقدير.

الأمر الثاني:

من الكلام عن أخبار المشاهدة.

إن هناك إيراداً عاماً يمكن أن يرد على هذه الأخبار لو لوحظت النظرة الإسلامية العامة إلى المجتمع.

وحاصل هذا الإيراد: أننا لا نكاد نجد في أخبار المشاهدة، في الغيبة الكبرى، توجيهاً عاماً واعياً يقوله الإمامعليه السلام لأحد ممن يقابله، سواء كان الغرض قضاء حاجة عامة أو قضاء حاجة خاصة.

مع أن يتبادر إلى التصور أن ما يفعله الإمامعليه السلام في أثناء المقابلة، هو أن يربي من يقابله ويثقفه بالثقافة العامة الإسلامية الصحيحة، ويلخص له في عدة كلمات القضايا الإسلامية المهمة التي تنير له الطريق وتحثه على السير القويم. والمشاركة في بناء المجتمع المسلم بناء صالحاً واسع الأثر بعيد النتيجة.

مع ان هذا لم يحدث، إذ لو كان قد حدث لنقل في الأخبار، مع أنها تكاد أن تكون خالية عنه، ولو كان قد حدث لأصبح الفرد من أفضل الصالحين، وأوسع العاملين، ولرأينا آثاراً اجتماعية مهمة مترتبة على أعمال الذين شاهدوا المهديعليه السلام، وتابعيهم بإحسان، مع أن ذلك لم يحدث!.

فلماذا لم يقل المهديعليه السلام مثل هذه التوجيهات، وإذا كان قاله، فلماذا

لم ينقل إلينا، أو لم يظهر أثره في المجتمع المسلم.

ونحن إذا استطعنا الجواب على ذلك، فقد سرنا قدماً جديدة في تحديد سياسة الإمام المهدي عليه السلام تجاه الآخرين ممن قابلوه، وممن لم يقابلوه أيضاً.

ويتم الجواب على ذلك ضمن عدة نقاط:

النقطة الأولى:

أننا عرفنا أن المهدي عليه السلام يعمل - مع اجتماع الشرائط - العمل النافع بصفته فرداً اعتيادياً في المجتمع. وفي مثل ذلك يكون له أن يقول ما يشاء ويفعل ما يريد ويمهد لتكميل الأفراد والمجتمعات، من دون أن تعرف هويته الحقيقية. وربما كان الكثير ممن برزوا في العالم الإسلامي علماً وعملاً، كانوا قد سمعوا التوجيه من المهدي عليه السلام بدون أن يعرفوه على الإطلاق.

النقطة الثانية:

إن المهدي عليه السلام قد يجتمع بالخاصة من المؤمنين به، وهو ما سبق أن تصورناه بصفته أطروحة محتملة، وتدل عليه بعض الأخبار أيضاً، على ما سنسمع، وباجتماعه معهم، بالشكل الذي يعرفوه بحقيقته، ينفتح لهم المجال الواسع لتلقي التعليمات منه عليه السلام، والخوض في مناقشة المسائل الاجتماعية والإسلامية على صعيد واسع وواعٍ. ثم هم يطبقونه في حياتهم العملية، من دون أن ينقلوا شيئاً من أخبار المقابلة والمناقشة. ولعل عدداً ممن برزوا في العالم الإسلامي في العلم والعمل كانوا أشخاصاً من هذا القبيل.

فإن كفى ذلك في قناعتنا في كفاية هذه التوجيهات، عما نتوقعه من أخبار

المشاهدة، فهو المطلوب. وإن تنزّلنا عن هذه النقطة، أمكننا الانتقال إلى ما يلي:

النقطة الثالثة:

إن المعهود من ديدن النبي ﷺ، والأئمة عليهم السلام، هو إعطاء كل مقام مقاله، وعدم المبادرة إلى البيان من دون سؤال. وإذا سألهم سائل عن بعض الحقائق العبادية أو الاجتماعية أو الكونية، نظروا إلى مقدار مستوى السائل من حيث الثقافة، وأعطوه من الجواب بمقدار ما يفهمه ويستطيع هضمه وتمثيله نفسيا وعقلياً. ولم يكونوا يحملونه جواباً يحوي من الحقائق ما لا يطيقه كاهله أو لا يسيغه عقله.

بل إن هذا الدين غير خاص بقادة الإسلام، بل عام لكل عالم عندما يسأله جاهل، وكل اختصاصي عندما يسأله عامي. فليس من المحتمل أن يجيب انشتاين بكل تفاصيل نظريته النسبية، أو ببعض دقائقها، لو سأله عنها شخص، وإنما يكتفي في الإعراب عنها، بإعطاء بعض العموميات.

وهذا هو المراد الجوهري، مما ورد شرعاً وعرفاً، من قولهم: خاطب الناس على قدر عقولهم. وهو أمر واضح في الأذهان في غاية الوضوح.

ومعه، فلا ينبغي أن نتوقع من المهدي عليه السلام أن يسير بغير هذا الديدن الذي سار عليه آباؤه عليهم السلام. فهو لا محالة يقدر المستوى العقلي والثقافي للفرد قبل أن يوجه توجيهه أو يذكر كلامه.

فإذا علمنا أنه عليه السلام كان يواجه الناس لأغراض حل مشاكلهم العامة والخاصة، بغض النظر عن مستوياتهم الثقافية، وعلمنا أن كثيراً من كان يواجههم

ذو مستوى في الوعي والثقافة الإسلامية العامة واطئ إلى حد كبير... لم نكن نتوقع - مع هذا - أن يذكر المهدي توجيهاً أو إرشاداً خارجاً عن حدود قضاء الحاجة وتذليل المشكلة، مما يكون له آثار أخرى في المجتمع والحياة.

وهذه هي القاعدة الأساسية التي تفسر هذا الجانب من سياسة الإمام عليه السلام، تجاه الآخرين.

النقطة الرابعة:

أننا لو غضضنا النظر عما قلناه في النقطة الثالثة، وفرضنا أن المهدي عليه السلام يوجه البيانات إلى من يراه بشكل واسع، بقطع النظر عن مستواه الثقافي والفكري... فنحن - مع ذلك - لا ينبغي أن نتوقع من هذه التوجيهات أن تصنع لنا الأبطال والمشاهير في العلم والعمل... كما تخيل السائل الذي نناقشه الآن.

فإننا نعرف سلفاً أن المقابلة تكون قصيرة دائماً، وغير مكررة على الأغلب، ومكرسة - بطبيعة الحال - لأجل حل مشكلة معينة. إذن، فماذا يبقى للتوجيهات العامة المتصورة للإمام المهدي عليه السلام من الزمان، إلا أقل القليل. فلو فرض أن الإمام عليه السلام اغتنم هذه الفرصة، وتكلم مع الفرد مقدار ربع ساعة أو نصف ساعة على أكبر التقادير، فإن هذا الكلام مهما كان مركزاً وكاملاً وعميقاً، لا يمكن أن يصنع من الفرد العادي بطلاً من الأبطال، أو شهيراً من المشاهير، من الزاوية الإسلامية الحقة. فإن الأمر لا يخلو من أحد فرضين لا ثالث لهما. وهما: أن المهدي عليه السلام إما أن يريد تربية من يقابله وتثقيفه بشكل المعجزة، وإما أن يريد ذلك بنحو طبيعي.

أما طريق المعجزة فهو منسد أساساً، لعدم كون هذه المعجزة واقعة في

طريق إقامة الحجة، بعد فرض إيمان الفرد بالإسلام، فلا يقتضي قانون المعجزات وجودها. على أنها لو وجدت للزم منها الجبر الباطل على ما هو مبرهن عليه في محله من بحوث العقائد في الإسلام.

وأما تربيته وتثقيفه بالطريق الطبيعي، فمثل هذه التربية مما لا يمكن وجوده في زمان يسير، وإنما يحتاج الإنسان في تكامله إلى زمان طويل وتجربة واسعة وتربية بطيئة حتى يتكامل وينضج نضجاً واقعياً. ولا يمكن أن يكون كلام الإمام عليه السلام - حتى لو فهمه واستوعب حقائقه - إلا خطوة واحدة في طريق تكامل الإنسان. ويبقى بينه وبين رفعته الحقيقية خطوات وخطوات.

على أن الكلام المركز القصير الذي فرضناه في السؤال، مما يتعذر على الفرد العادي فهمه ويحول تركيزه وعمقه دون استيعابه. وأما إذا لم يكن مركزاً وعميقاً لم يكن منتجاً للنتائج المتوقعة في السؤال.

إذن، فيتعين على المهدي عليه السلام - في حدود هذه النقطة الرابعة - أن يعرض عن التوجيهات صفحاً، لعدم جدواها إلا بطريق إعجازي، لا يمكن تحققه طبقاً لقانون المعجزات.

النقطة الخامسة:

أننا نحتمل - على الأقل - أن هذه التوجيهات العامة لو تكررت وأثرت لكان لها أبلغ الأثر في تغيير التاريخ الإسلامي بل التاريخ البشري، وفاقاً لما قاله السائل، بعد التنزل عن النقاط السابقة.

وهذا التغيير المتوقع، مما لا يحتوي على مصلحة، لأنه يؤخر يوم الظهور ويفوت شرطه الأساسي، وهو مرور الأمة بأزمنة الظلم والجور، حتى تتكامل

عن تجربة وحنكة وقوة إرادة، لا عن استخذال وتكاسل. ومعه فلا يمكن أن يقوم المهدي عليه السلام بذلك، وإنما يقتصر على التوجيهات الصغيرة التي لا تبلغ هذا المستوى.

إذن، فبلحاظ أي واحدة من هذه النقاط، فضلاً عن مجموعها، يكون من المنطقي أن نتصور خلو أخبار المشاهدة من التوجيهات العامة الواعية، واقتصارها على ما هو المقصود من المقابلة، ليس إلا.

مضافاً إلى أننا نعرف أن الرواة إذا كانوا من الخاصة المخلصين المتقبلين لتوجيهات المهدي عليه السلام، فإنهم يحذفونها عند نقل الواقعة احتراماً لها وصوناً لمدلولها عن الانتشار... كما يظهر من بعض روايات المشاهدة. وإذا لم يكونوا من أولئك الخاصة، فإنهم إما أن يحذفوا التوجيهات لعدم الاهتمام بها، وإما أنهم ينقلونها بالمعنى الذي فهموه، فتبدو لنا بشكل ممسوخ ذو طابع شخصي ضيق، ولا تكاد تكون من التوجيهات العامة، إذا عرضت بهذا الشكل.

هذا، فيما إذا سلمنا، ما افترضناه في السؤال من أن التوجيهات العامة لم ترد في روايات المشاهدة... هذا وإن كان صحيحاً بشكل عام. ولكننا لا نعدم سماع ذلك أحياناً، حين يجد المهدي عليه السلام مصلحة في التوجيه، في الحدود الممكنة. وقد نستطيع أن نحمل فكرة عن ذلك فيما يلي من هذا الفصل.

الأمر الثالث:

هل أن مشاهدات المهدي عليه السلام على حقيقته، في غيبته الكبرى، يحتاج إلى درجة عالية من الإيمان والوثاقة، كما يميل إليه بعض الباحثين، أو لا يحتاج.

لا شك أن تلك الدرجة العليا، كانت شرطاً في مشاهدة صاحب الأمر المهدي عليه السلام في غيبته الصغرى... كما عرفنا في تاريخها، حيث لم يكن أبوه الإمام العسكري عليه السلام يطلع أحداً عليه إلا من الموثوقين الخاصين، وكذلك كان ديدن المهدي عليه السلام بعد وفاة أبيه. ما عدا حوادث قليلة جداً ظهر عليه السلام للمنحرفين من أصحابه لمصالح معينة، وبشكل مأمون النتيجة[1].

وأما في عصر الغيبة الكبرى... فلا شك أن الأغلب هو اختصاص المقابلة بالخاصة الموثوقين. كما لا شك في أن الإمام المهدي عليه السلام قد يخص بعض الموثوقين، بأكثر من مقابلة واحدة، ولعلها تصل إلى عدد مهم من المقابلات لدى عدد منهم.

كما لا شك في أن المصالح الإسلامية، قد تقتضي ظهوراً للمنحرفين، إذا كان بنحو مأمون النتيجة.

ومعه، فينبغي أن يقال: أن نفس النسبة التي رأيناها في الغيبة الصغرى، تتكرر بشكل أو آخر، في الغبية الكبرى أيضاً، بين الموثوقين والمنحرفين. وهذا كله واضح لا غبار عليه... لا بحسب القواعد العامة، ولا بحسب أخبار المشاهدة، إذ أن المنقول من المقابلات مع غير الموثوقين، مشابه لهذه النسبة تقريباً.

(١) انظر تاريخ الغيبة الصغرى، ص٤٣٧ وص٤٧١ وما بعدها.

ولكن الذي ينبغي أن نلتفت إليه، هو وجود فرق أساسي ما بين حال المهدي عليه السلام في غيبته الصغرى وحاله في غيبته الكبرى، فهو في الكبرى أكثر أمناً وأبعد عن التفات الأذهان إليه فتنفتح له فرصة أكبر في مقابلات الناس، بما فيهم غير الموثوقين والمنحرفون أيضاً. مع الالتزام بتخطيط معين يضمن عدم الاطلاع على حقيقته إلا بعد الفراق.

وهذا واضح، بعد أن عرفنا من مطاردة السلطات له في الغيبة الصغرى، وهناك قسم من الناس يعرفونه ويعرفون والده، وخاصة في القسم الأول من تلك الفترة. وأما في الغيبة الكبرى، فقد ابتعدت الأنظار عنه، وخفي شكله بالمرة عن سائر البشر، وأيست السلطات عن مطاردته، بل أنكرت وجوده تماماً. وكل ذلك يكون في مصلحة حرية تنقلاته ومقابلاته، كما هو واضح.

ومن هنا نكاد نشخص بوضوح، أن نسبة مقابلاته مع غير الموثوقين، أكثر إلى حد واضح من نسبتها في الغيبة الصغرى. وأما المنحرفون، فالمقابلة معهم أقل من ذلك العدد بكثير، ولا تكون إلا فيما إذا توقف عليه غرض كبير، ولم يمكن تنفيذه عن طريق المقابلة مع أحد الموثوقين أو غير المنحرفين.

الأمر الرابع:

في التخطيطات التي يضعها المهدي عليه السلام لأجل ضمان عدم التفات الرائي إلى حقيقته في أثناء المقابلة.

فإن المقابلة، قد تقتضي، بحسب المصلحة، أن يكشف المهدي عن حقيقته في أثنائها. وقد يكون الرائي عارفاً له من مقابلة سابقة، كما قد يحصل للموثوقين الخاصين. وقد تقتضي المقابلة أن لا يعرفه الرائي إلا بعد المفارقة، فيما إذا لم يكن بتلك الدرجة العليا من الوثاقة، فضلاً عما إذا لم يكن موثوقاً

أو كان منحرفاً.

ففي مثل ذلك يحتاج المهدي عليه السلام إلى التخطيط بنحو يدع الرائي غافلاً عن حقيقته إلى حين الفراق، على أن يفهم بعد ذلك أن الذي كان قد رآه... هو المهدي عليه السلام.

وأساليب التخطيط الذي كان يضعها المهدي عليه السلام في سبيل ذلك، بحسب ما ورد في أخبار المشاهدة، عديدة، يمكن تلخيصها فيما يلي:

الأسلوب الأول: إبداله لزيه وواسطة نقله:

فنراه كثيراً ما يكون مرتدياً العقال العربي، على اختلاف الأشكال، فتارة نراه بزي البدو[١] وثانية بزي مهيب لطيف[٢] وثالثة بزي فلاح يحمل مسحاته[٣] ورابعة بزي سيد جليل من رجال الدين[٤].

كما أن واسطة نقله قد تكون هي الجمل في عدد من المرات[٥] كما قد تكون هي الفرس[٦] وقد يكون هو الحمار[٧]، كما قد يواكب الرائي ماشياً[٨] وقد لا تحتاج المقابلة إلى سير وانتقال[٩].

---

(١) النجم الثاقب، ص٢٤١.

(٢) المصدر نفسه، ص٣٥٩.

(٣) المصدر نفسه، ٣٤٣.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٧٣.

(٥) انظر - مثلا - المصدر السابق، ص٣٤٢

(٦) المصدر نفسه، ص٣٥٧.

(٧) المصدر نفسه، ص٣٤٣.

(٨) المصدر نفسه، ص٢٨٠.

(٩) المصدر نفسه، ص٢٢٨.

كما قد يأتي إلى المقابلة، فارساً حاملاً رمحاً عند الحاجة[١]، كما قد يبدو متكلماً بلهجة البدو مستعملاً نفس كلماتهم[٢]. وثالثة يبدو متكلماً بلهجة اللبنانيين[٣] ورابعة باللغة الفارسية[٤].

وقد نعرف، سيراً مع الأطروحة الثانية: أطروحة خفاء العنوان: أن الأزياء والهيئات التي يقابل بها المهدي عليه السلام من يريد إخفاء حقيقته عليه أثناء المقابلة... ليس شيء منها هو الذي يكون عليه في حياته الاعتيادية بشخصيته الثانية. لوضوح وجود احتمال كبير في انكشاف حقيقته، لو ظهر لأحدهم في نفس المجتمع الذي يعيش فيه. إذن فلا بد للمهدي عليه السلام أن يخطط للمقابلة بإبدال زيه لا محالة، قبلها، ضماناً على الحفاظ على سره وخفاء عنوانه.

الأسلوب الثاني:

إقامته للمعجزة التي تكون دالة على حقيقته، بنحو لا تكاد تكون ملفتة للنظر في أثناء المقابلة، بل لا يكاد يعرف الرائي أنها معجزة أصلاً إلا بعد الفراق... حين يستذكرها ويحسب حسابها فيعرف أن ذلك العمل لا يمكن أن يقام به إلا بنحو إعجازي.

ويتجلى ذلك بوضوح في عدد من الروايات، بقطع المسافة الطويلة بزمان قصير، المسمى بطيّ الأرض براً أحياناً وبحراً أخرى. ومن المعلوم أن حساب طول المسافة إنما يكون بعد قطعها. ولعل أوضح الروايات في ذلك، ما فهمه

(١) المصدر، ص٣٧٠.

(٢) المصدر، ص٣٥٨.

(٣) المصدر، ص٢٣٥.

(٤) المصدر، ص٣٤٤.

الراوي بعد فراق المهدي عليه السلام من أن الطريق الذي مشى فيه في زمان قصير نسبياً، لا يمكن لأحد أن يسير فيه إلا بأضعاف تلك المدة، ومن المتعذر أن ينجو أحد من السباع والوحوش في ذلك الطريق، ولكنه نجا منها ووصل في زمان قليل[١].

الأسلوب الثالث:

ابتعاده عن الرائي في أثناء الحادثة، وقبل انتهاء حاجته، وإيكال إنهائها إلى غيره... هو أما نفس صاحب الحاجة كما في بعض المقابلات[٢] وقد يكون هو خادم الإمام عليه السلام[٣]، وقد يكون هو شخص آخر عابر للطريق[٤].

الأسلوب الرابع:

تجنب كل ما من شأنه إلفات النظر إلى حقيقته، كالإشارة إلى عنوانه صراحة أو كناية، أو إقامته لمعجزة كبيرة واضحة ملفتة للنظر، كما هو واضح من عدد من روايات المقابلات. بل قد يتجنب الجواب لو سئل عن اسمه ومكانه، ولا يجيب بما يدل على حقيقته.

الأسلوب الخامس:

وقوع الرائي والرائين أو إيقاعهم، في ظروف وقتية خاصة، بحيث يرتج عليهم باب السؤال عن حقيقة المهدي واسمه وبلدته. وهذا واضح من عدد من

(١). المصدر، ص٢٣٩

(٢) المصدر، ص٢٣٨

(٣) المصدر، ص٣٠٦.

(٤) المصدر، ص٢٤١.

الروايات، فإن الرائي قد يكون مهتماً بحاجته جداً[١] أو مذهولاً نتيجة لالتفاته إلى معجزة واضحة أوجدها المهدي عليه السلام[٢]، أو مشغولاً بنفسه كالصلاة أو المرض أو ضيق البال ونحو ذلك.

ولا يخفى أن نفس تلك الغفلة التامة التي يكون بها الناس تجاه رؤية المهدي عليه السلام، تلك الغفلة التي لا يمكن ارتفاعها إلا تحت تأثير قوي... هي من أكبر الظروف، بل أكبرها على الإطلاق، مما يقتضي عدم معرفة الرائي بالمهدي عليه السلام في أثناء المقابلة... إلا بعد أن يحسب حسابه بعد الفراق.

فهذه هي الأساليب العامة للتخطيط الذي يتخذ المهدي عليه السلام بعضها. حينما لا يجد من المصلحة معرفته في أثناء مقابلته. وهناك بعض الأساليب الخاصة المبعثرة في الروايات، مما لا يمكن إدراجه تحت ضابط عام، ويطول بنا المقام في تعدادها.

الأمر الخامس:

في الأغراض والمقاصد العامة التي يقصدها المهدي عليه السلام من عمله خلال المقابلة. ونؤجل التعرض للمقاصد الخاصة إلى الأمر السادس الآتي.

والمقصود من الأغراض العامة، ما يكون مستهدفاً لأثر إسلامي اجتماعي أكبر من الأفراد وأوسع. وهو الذي قلنا أنه قليل التحقق بالنسبة إلى العمل الفردي الخاص، وذكرنا السبب في ذلك.

وستكون الفرصة خلال هذا الأمر الخامس وما بعده مفتوحة للاطلاع

(١) المصدر، ص٢٤٢.

(٢) المصدر، ص٢٨٢.

المختصر على تفاصيل بعض المقابلات، بالشكل الذي يناسب المقام. ولا نكون مسؤولين عن سرد القصص بتفاصيلها فليرجع فيها القارئ إلى مصادرها.

وتنقسم الأغراض والأهداف العامة في أعمال الإمام المهدي عليه السلام في غيبته الكبرى، إلى عدة أقسام:

الهدف الأول:

إنقاذ الشعب المسلم من براثن تعسف وظلم بعض حكامه المنحرفين، وخاصة فيما يعود إلى قواعده الشعبية من الخير والسلامة.

فمن ذلك ما قام به الإمام المهدي من إنقاذ شعبه في البحرين، من تعسف حاكميه الذين تنص الرواية على كونهم من عملاء الاستعمار ومن المنصوبين من قبل المستعمرين[1].

حيث كان للوزير في تلك البلاد، وهو بمنزلة رئيس الوزراء في عالم اليوم... مكيدة كبيرة كادت أن تؤدي إلى إرهاب القواعد الشعبية للإمام المهدي عليه السلام إرهاباً غريباً بمعاملتهم معاملة الكفار الحربيين من أهل الكتاب... أما بأن يدفعوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، أو أن تقتل رجالهم وتسبى نساؤهم وأطفالهم. وقد كان للإمام المهدي عليه السلام اليد الطولى في كشف هذه المكيدة ودفع هذا الشر المستطير.

الهدف الثاني:

إنقاذ الشعب المسلم من براثن الأشقياء والمعتدين، وعصابات اللصوص

(١) انظر تفاصيل هذه الحادثة في النجم الثاقب، ص٣١٤ وما بعدها. وفي البحار، ج١٣، ص١٤٩. وفي منتهى الآمال، ج٢، ص٣١٦ وما بعدها

المانعين عن الأعمال الإسلامية الخيِّرة.

فمن ذلك[1]: العمل الكبير الذي قام به المهدي عليه السلام من فتح الطريق إلى كربلاء المقدسة، أمام زوار جده الإمام الحسين عليه السلام، في النصف من شعبان.

وكانت عشيرة «عنيزة» تترصد لكل داخل إلى كربلاء وخارج منها، وتتعهده بالسلب والنهب، فكان الطريق إليها موصداً يخافه الناس. فلولا قيادة المهدي عليه السلام للزائرين في الطريق إلى كربلاء وتهديده لعشيرة عنيزة بالموت والدمار إذا حاولت الاعتداء، لامتنع الناس من الذهاب إلى زيارة الإمام سيد شباب أهل الجنة عليه السلام، ولتعطل هذا الشعار الإسلامي الكبيرة. فمرحى للألطاف الكبرى التي يسبغها المهدي عليه السلام على أمته.

وكان ذلك خلال حكم الدولة العثمانية للعراق. وكان من قوادهم يومئذ: كنج محمد آغا وصفر آغا... كما تنص الرواية على ذلك، ولكنها - مع الأسف - تهمل التعرض إلى التاريخ المحدد للحوادث.

الهدف الثالث:

إلفات نظر الآخرين إلى عدم تحقق شرط الظهور الموعود. والتأكيد على أن الأمة لم تبلغ إلى المستوى المطلوب من الوعي والشعور بالمسؤولية الذي تستطيع معه أن تحمل على عاتقها الآثار الكبرى في اليوم الموعود. ومعه فلا بد من أن يتأجل الظهور إلى اليوم الذي يتحقق فيه هذا الشرط مهما تمادى الزمن وطالت المدة. وليس لأحد أن يقترح تقديمه أو يعين تاريخه، سوى الله عز وجل.

---

(١) راجع تفصيل ذلك في النجم الثاقب، ص٣٧٠ ومنتهى الآمال، ج ٢، ص٣٢٦.

وقد حصل التأكيد على هذا المفهوم الصحيح الواعي من قبل المهدي عليه السلام، على ملأ من الناس في رواية أرويها عن أبي دام ظله، لم أجدها في المصادر المتوفرة. ومن هنا أجد من الضروري أن أروي تفاصيلها باختصار، لكي يتضح تماماً المعنى المقصود من هذه الرواية.

وذلك: إن الناس في البحرين، في بعض الأزمنة، لمقدار إحساسهم بالظلم وتعسف الظالمين... تمنوا ظهور إمامهم المهدي عليه السلام بالسيف ظهوراً عالمياً عاماً، لكي يجتث أساس الظلم لا من بلادهم فحسب بل من العالم كله.

فاتفقوا على اختيار جماعة من أعاظمهم زهداً وورعاً وعلماً ووثاقة، فاجتمع هؤلاء واختاروا ثلاثة منهم، واجتمع هؤلاء واختاروا واحداً هو أفضلهم على الإطلاق، ليكون هو واسطتهم في الطلب إلى المهدي بالظهور.

فخرج هذا الشخص المختار، إلى الضواحي والصحراء، وأخذ بالتعبد والتوسل إلى الله تعالى وإلى المهدي عليه السلام بأن يقوم بالسيف ويظهر فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً. وقضى في ذلك ثلاثة أيام بلياليها.

فلما كانت الليلة الأخيرة، أقبل شخص وعرفه بنفسه أنه هو المهدي المنتظر، وقد جاء إجابة لطلبه. وسأله عن حاجته، فأخبره الرجل بأن قواعده الشعبية ومواليه في أشد التلهف والانتظار إلى ظهوره وقيام نوره. فأوعز إليه المهدي عليه السلام أن يبكر في غد إلى مكان عام عينه له، ويأخذ معه عدداً من الغنم في الطابق الثاني على السطح، ويعلن في الناس أن المهدي عليه السلام سيأتي في ساعة معينة، عليهم أن يجتمعوا في أرض ذلك المكان. وقال له المهدي عليه السلام أيضاً: أنني سأكون على السطح في ذلك الحين.

وامتثل الرجل هذا الأمر، وحلت الساعة الموعودة، وكان الناس متجمهرين في المكان المعين على الأرض، وكان المهدي عليه السلام مع هذا الرجل وغنمه على السطح.

وهنا ذكر المهدي عليه السلام اسم شخص وطلب من الرجل أن يطل على الجماهير ويأمره بالحضور. فامتثل الأمر وأطل على الجمع ونادى باسم ذلك الرجل... فسمع الناس وصعد الرجل على السطح. وبمجرد وصوله أمر المهدي عليه السلام صاحبنا أن يذبح واحداً من غنمه قرب الميزاب، فما رأى الناس إلا الدم ينزل من الميزاب بغزارة. فاعتقدوا جازمين بأن المهدي عليه السلام أمر بذبح هذا الرجل الذي ناداه.

ثم نادى المهدي عليه السلام بنفس الطريقة رجلاً آخر، وكان أيضاً من الأخيار الورعين. فصعد مضحياً بنفسه واضعاً في ذهنه الذبح أمام الميزاب، وبعد أن وصل إلى السطح نزل الدم من الميزاب. ثم نادى شخصاً ثالثاً ورابعاً. وهنا أصبح الناس يرفضون الصعود، بعد أن تأكدوا أن كل من يصعد سيراق دمه من الميزاب. وأصبحوا يفضلون حياتهم على أمر إمامهم.

وهنا التفت المهدي عليه السلام إلى صاحبنا وأفهمه بأنه معذور في عدم الظهور ما دام الناس على هذا الحال.

فمن هنا نفهم بوضوح، كيف أن المهدي عليه السلام استهدف إفهام الأمة بشكل عملي غير قابل للشك، بأنها ليست على المستوى المطلوب من التضحية والشعور بالمسؤولية الإسلامية. وكشف أمامها واقعها بنحو أحسه كل فرد في نفسه وأنه على غير استعداد لإطاعة أمر إمامه عليه السلام إذا كان مستلزماً لإراقة دمه. وإذا كانت الأمة على هذا المستوى الوضيع لم يمكنها بحال أن تتكفل القيام بمهام اليوم الموعود بقيادة المهدي عليه السلام.

وستأتي البرهنة التامة على صحة هذا الشرط، من شرائط الظهور، في القسم الثالث من هذا الكتاب.

الهدف الرابع:

إرجاعه عليه السلام للحجر الأسود إلى مكانه من الكعبة.

فإن القرامطة بعد أن قلعوه أثناء هجومهم على مكة المكرمة عام ٣١٧ للهجرة[١]، ونقلوه إلى هجر، وكان ذلك إبان الغيبة الصغرى. كما عرفنا من تاريخها[٢] بقي الحجر لديهم ثلاثين عاماً[٣] أو يزيد. وأرجعوه إلى مكة عام ٣٣٩[٤] أو عام ٣٣٧[٥] فكان المهدي عليه السلام هو الذي وضعه في مكانه وأقره على وضعه السابق، كما ورد في أخبارنا[٦].

قال الراوي: لما وصلت إلى بغداد في سنة سبع وثلاثين وثلاثمائة عزمت على الحج وهي السنة التي رد القرامطة فيها الحجر في مكانه إلى البيت. كان أكثر همي الظفر بمن ينصب الحجر، لأنه يمضي في أنباء الكتب قصة أخذه، فإنه لا يضعه في مكانه إلا الحجة في الزمان. كما في زمان الحجاج وضعه زين العابدين عليه السلام في مكانه[٧].

---

(١) الكامل، جـ ٦، ص٢٠٤.

(٢) تاريخ الغيبة الصغرى، ص٣٤١.

(٣) تاريخ الشعوب الإسلامية، جـ ٢، ص٧٥.

(٤) الكامل، جـ ٦ ص٣٣٥.

(٥) الخرايج والجرايح، ص٧٢.

(٦) المصدر والصفحة وانظر منتخب الأثر، ص٤٠٦.

(٧) انظر قصة وضعه للحجر الأسود في الخرايج والجرايح، ص٢٩.

وأوضح الراوي بأن الناس فشلوا في وضعه في محله، وكلما وضعه إنسان اضطرب الحجر ولم يستقم. فأقبل غلام أسمر اللون حسن الوجه فتناوله فوضعه في مكانه، فاستقام كأنه لم يزل عنه. وعلت لذلك الأصوات.

ثم أن المهدي عليه السلام، خرج من المسجد ولاحقه الراوي طالباً منه حاجة، فقضاها له، وأقام الدلالة ساعتئذٍ على حقيقته.

وهذه حقيقة تمثل فجوة تاريخية، سكت عنها التاريخ العام، وقد ملأتها أخبارنا الخاصة بكل وضوح. وهو أمر لا يمكن نفيه إلا بنفي فكرة غيبة المهدي عليه السلام من أصلها. وهو خلاف ما هو المفروض في هذا التاريخ.

نعم، يبقى في الذهن سؤالان حول ذلك لا بد من عرضهما ومحاولة الجواب عليهما:

السؤال الأول:

أنه من أين ثبت أن الحجر الأسود لا يضعه في محله إلا الحجة في الزمان، كما ادعاه الراوي؟.

والواقع أننا لم نجد رواية تتكفل هذا المدلول الواسع. ولكننا إذا استعرضنا التاريخ المعروف، لم نجد واضعاً للحجر إلا من الأنبياء والأولياء. فإبراهيم عليه السلام هو الذي وضع الحجر حين بنى الكعبة ووضع أسس البيت العتيق. ورسول الله صلى الله عليه وآله هو الذي وضع الحجر قبل نبوته حين بنيت الكعبة في الجاهلية واختلفت القبائل فيمن يضع الحجر والحادثة معروفة، ومروية في التاريخ[1]. وحين أخرب الحجاج بن يوسف الكعبة المقدسة في صراعه مع

(١) انظر - مثلا - الكامل، جـ ٢، ص٢٩.

عبد الله بن الزبير. . . أعادوا بناءها من جديد، وكان واضع الحجر هو الإمام زين العابدين[1].

وهذا الراوي في الرواية التي نناقشها، ينسب وجود مثل هذه القاعدة العامة، أعني أن الحجر الأسود لا يضعه إلا الحجة في الزمان. . . ينسبها إلى الكتب، وظاهره كونها مسلمة الصحة، فلعله كانت هناك أدلة أكثر وأوثق قد بادت خلال التاريخ والله العالم بحقائق الأمور.

السؤال الثاني:

لو ثبتت هذه الفكرة كقاعدة عامة، وصادف أن زال الحجز الأسود من مكانه في بعض عصور الغيبة الكبرى، فكيف يتسنى للمهدي عليه السلام إرجاعه، وهو حجة الزمان، إلا بانكشاف أمره وارتفاع غيبته واطلاع الناس على شخصه.

والجواب على ذلك: أن أهم ما يمكن أن يكون ساتراً لشأنه وصائناً لسره حين وضعه الحجر، هو عدم معروفية هذه الفكرة لدى الناس وعدم اشتهارها بينهم، بل وعدم قيام دليل واضح عليها، كما سمعنا. ولعله من أجل ذلك لم يصدر في الشريعة الإسلامية مثل هذا الدليل الواضح على ذلك. ولعلك لاحظت من خلال هذه الرواية التي نناقشها أن الذي عرف هذه الفكرة هو واحد من الآلاف المحتشدة بما فيهم العلماء والكبراء. ومن هنا استطاع أن يشخص في واضع الحجر كونه هو المهدي عليه السلام.

ومعه، فانطلاقاً مع خط الأطروحة الثانية: أطروحة خفاء العنوان، يمكن أن نفترض أن الإمام عليه السلام في عصر غيبته، يضع الحجر الأسود مع عمال

(١) انظر الخرايج والجرايح، ص٢٩.

البناء، ويكون آخر من يثبته، ويبقى مجهول الحقيقة على طول الخط، بل قد يكون معروفاً بشخصيته الثانية باسم آخر كفرد عادي في المجتمع. فيرى الرائي أن هذه الفكرة العامة قد انخرمت، في حين أنه ليس واضع الحجر إلا (المهدي) لو انكشف الستر وظهرت الحقيقة.

الأمر السادس:

في الأهداف والمقاصد الخاصة، التي يقصدها الإمام عليه السلام خلال مقابلاته. مما يمت بالنفع - بشكل رئيسي ومباشر- إلى شخص معين أو أشخاص قلائل. سواء كان له - بشكل غير مباشر- نفع اجتماعي ملحوظ أو لم يكن.

والأهداف المندرجة تحت هذا العنوان متعددة وأمثلتها كثيرة، نكتفي لكل منها بمثال واحد.

الهدف الأول:

هداية الشخص وتقويمه، وضمه في النتيجة إلى الشعب المسلم الذي يؤمن بالمهدي عليه السلام . . . بعد إحراز نيته والعزم على إتباع الهدى إن ظهر لديه.

مثاله: ذلك الشخص الذي ذهب لشراء السمن من الاعراب في أطراف الحلة، فتخلف عن القافلة وتاه في الصحراء. فكان مما قال في نفسه: أنني كنت أسمع من أمي أنها تقول: إن لنا إماماً حياً يكنى بأبي صالح يرشد التائهين ويغيث الملهوفين ويعين الضعفاء.

ثم أنه عاهد الله تعالى أنه إن استغاث به وأنجاه، أن يتبع دين أمه. قال الراوي: ثم أنني ناديته واستغثت به. وفجأة رأيت شخصاً يسير معي وعلى

رأسه عمامة خضراء لونها كلون هذا - وأشار إلى الحشيش المزروع على النهر - . . . وأشار لي إلى الطريق. وقال لي: أنك ستصل بسرعة إلى قرية كل أهلها من الشيعة. فقلت له: يا سيدي ألا تأتي معي إلى هذه القرية. فقال: لا، لأن ألف شخص في أطراف البلاد يستغيثون بي، ولا بد أن أنجيهم[١].

الهدف الثاني:

انتصاره لأحد طرفي الجدل عند وقوع الجدل بين اثنين، واقتضاء المصلحة الانتصار لأحد الطرفين.

مثاله: أن صديقين مسلمين مختلفين في المذهب، وقع بينهما جدل مذهبي طويل، في أحد المساجد بهمدان. ولم يستطع أحدهما أن يقنع الآخر بمدعاه. فاقترح أحدهما أن يجعلا بينهما أول رجل يدخل المسجد حكماً. وخاف الآخر من هذا الاقتراح، لأن أهل همدان كانوا على مذهب صاحبه، لكنه قبل بالشرط تحت ضغط المجادلة والمباحثة.

وبمجرد أن قررا هذا الشرط، دخل المسجد شاب تظهر على سيماه آثار الجلالة والنجابة، وتظهر عليه معالم السفر. فتقدم إليه صاحب الاقتراح وأظهر له مذهبه، واستدل عليه بعدة أدلة. وأقسم عليه بقسم مؤكد أن يظهر عقيدته بالنحو الذي عليه الواقع. فقرأ هذا الشاب بيتين من الشعر أظهر فيهما عقيدته بنحو لا يقبل الشك، ثم غاب عن الأنظار. وكانت هذه هي المعجزة التي تثبت حقيقته وصحة مذهبه أيضاً. فاندهش الآخر من فصاحته وبلاغته، واعتنق المذهب الذي انتصر له المهدي عليه السلام[٢].

(١) انظر النجم الثاقب، ص٣٤٦.

(٢) المصدر، ص٣٣١.

الهدف الثالث:

حله لبعض المسائل المعضلة التي قد يشكل حلها على فطاحل العلماء.

مثاله: أن المحقق الأردبيلي، وهو من أعظم العلماء تحقيقاً وورعاً حتى لقب بالمقدس الأردبيلي أيضاً.. أشكلت عليه مسائل، فخرج في جوف الليل سائراً من النجف إلى مسجد الكوفة حيث لاقى المهدي عليه السلام في محراب أمير المؤمنين عليه السلام هناك، وسأله عن مسائله وعرف جوابها، وعاد[١].

الهدف الرابع:

إخباره ببعض الأخبار السياسية المهمة في زمانها، قبل أن يعرفها الناس، نتيجة لضعف وسائل الإعلام في ذلك العصر.

مثاله: أن المهدي عليه السلام دخل في مجلس درس السيد مهدي القزويني في الحلة، فلم يعرفوه، بالطبع، واستمع إلى درسه. وحين انتهى الدرس، سأله السيد المشار إليه: من أين جئت إلى الحلة. فقال: من بلد السليمانية. فقال السيد: منذ كم خرجت منها. فقال: في اليوم السابق. ولم أخرج منها حتى دخل فيها نجيب باشا فاتحاً، وقد أخذها بقوة السيف. وأزال عنها أحمد باشا الباباني الذي كان متمرداً. وأجلس محله أخاه عبد الله باشا. وكان أحمد باشا المذكور قد خرج على طاعة الدولة العثمانية، وادعى السلطنة لنفسه.

قال السيد: وكان والدي في السليمانية، فبقيت متفكراً. ولم يكن قد وصل خبر هذا الفتح إلى حكام الحلة. ولم يحل في خاطري أن أسأله أنك كيف قلت: أني وصلت إلى الحلة وخرجت بالأمس من السليمانية. على حين

(١) المصدر، ص٣٣٤ ومنتهى الآمال، جـ ٢، ص٣١٩.

أن بين السليمانية والحلة، أكثر من عشرة أيام للراكب المجد.

قال: ثم ضبطنا تاريخ ذلك اليوم الذي أخبر فيه بفتح السليمانية، ثم وصلت أنباء هذه البشارة إلى الحلة بعد عشرة أيام من ذلك اليوم وأعلنها حكام الحلة، وحيوا الخبر بضربات المدفع، كما كانوا يعملون عادة في أخبار الفتوحات[١].

أقول: من هنا نفهم أهمية هذا الخبر لدى سلطات العثمانيين في الحلة. ونعرف المصلحة المهمة التي تترتب على إيصال المهدي عليه السلام لهذا الخبر خلال مدة كانت في ذلك العصر إعجازية.

الهدف الخامس:

نصحه للآخرين ورفعه لمعنوياتهم، وتوجيههم التوجيه الصالح، بعد أن كانوا قد مروا في بعض الحالات الصعبة والمشكلات المحزنة بالنسبة إليهم.

مثاله: ما قاله بعض الرواة من مقابلته للمهدي عليه السلام في بعض طرقات الحلة - وقد عرف حقيقته بعد ذلك -، فسلم عليه فرد عليه السلام، وقال له فيما قال: لا تغتم بما ورد عليك من الخسران وذهاب المال في هذا العام. لأنك شخص يريد أن يمتحنك الله تعالى بالمال، فرآك تؤدي الحق، وما هو الواجب عليك من الحج. وأما المال هو عرض زائل يأتي ويذهب.

قال الراوي: وكنت قد خسرت في هذا العام خسراناً لم يطلع عليه أحد، وسترته خوفاً من شهرة الانكسار الموجبة لتلف التجارة. فاغتممت في نفسي، وقلت: سبحان الله، شاع خبر انكساري بين الناس حتى وصل إلى الغرباء.

---

(١) النجم الثاقب، ص٣٦٧ وما بعدها.

ولكنني قلت في جوابه: الحمد لله على كل حال.

فقال: إن ما فاتك من المال سوف يعود عليك بسرعة بعد مدة، وتعود إلى حالك الأول، وستؤدي ديونك. قال الراوي: فسكت مفكراً في كلامه[١].. إلى آخر الحديث.

الهدف السادس:

مساعدته المالية للآخرين:

مثاله: أن جماعة من أهل البحرين عزموا على ضيافة جماعة من المؤمنين، بشكل متسلسل في كل مرة عند واحد منهم. وساروا في الضيافة، حتى وصلت النوبة على أحدهم، ولم يكن لديه شيء. فركبه من ذلك حزن وغم شديد، فخرج من أحزانه إلى الصحراء في بعض الليالي، فرأى شخصاً... حتى ما إذا وصل إليه قال له: اذهب إلى التاجر الفلاني - وسماه -، وقل له: يقول لك محمد بن الحسن: ادفع لي الاثنا عشر اشرفياً التي كنت نذرتها لنا. ثم اقبض المال منه واصرفه في ضيافتك.

فذهب ذلك الرجل إلى ذلك التاجر، وبلغ الرسالة عن ذلك الشخص. فقال له التاجر: أقال لك محمد بن الحسن، بنفسه. فقال البحراني: نعم. فقال التاجر: وهل عرفته؟ قال: لا. فقال: ذاك صاحب الزمان عليه السلام، وكنت نذرت هذا المال له. ثم أنه أكرم هذا البحراني وأعطاه المبلغ وطلب منه الدعاء[٢] الخ الحديث.

---

(١) المصدر نفسه، ص٣٦٦ وما بعدها.

(٢) المصدر، ص٣٠٦ وما بعدها.

الهدف السابع:

شفاؤه لأمراض مزمنة بعد أن عجز عنها الأطباء، وأخذت من صاحبها مأخذها العظيم.

مثاله: ما روي[1] عن السيد باقي بن عطوة العلوي الحسني: أن أباه عطوة كان لا يعترف بوجود الإمام المهدي عليه السلام، ويقول: إذا جاء الإمام وأبرأني من هذا المرض أصدق قولكم. ويكرر هذا القول. فبينما نحن مجتمعون في وقت العشاء الأخيرة صاح أبونا فأتيناه سراعاً. فقال: الحقوا الإمام، في هذه الساعة خرج من عندي. فخرجنا فلم نر أحداً.

فجئنا إليه، وقال: أنه دخل إليّ شخص، وقال: يا عطوة! فقلت: لبيك، من أنت؟ قال: أنا المهدي قد جئت إليك أن أشفي مرضك. ثم مد يده المباركة وعصر وركي وراح. فصار مثل الغزال. قال علي بن عيسى: سألت عن هذه القصة غير ابنه فأقر بها.

فانظر إلى المهدي عليه السلام كيف يقرن شفاءه للمرضى بإقامة الحجة على وجوده وإمامته، بحيث لم يبق لمنكرها أي شك أو جدال.

الهدف الثامن:

هدايته للتائهين في الصحراء والمتخلفين عن الركب إلى مكان استقرارهم وأمنهم. وقد يقرن ذلك بإقامة الحجة على الرائي للتوصل إلى هدايته، كما سمعنا في الهدف الأول. وأمثلته كثيرة، نذكر الآن واحداً منها:

---

(١) انظر ينابيع المودة، ط النجف، ص٥٤٨ وكشف الغمة، جـ ٣، ص٢٨٧، وكتاب المهدي، ص١٤٥، ومنتهى الآمال جـ ٢، ص٣١٠.

هو أن شخصاً ذهب إلى الحج مع جماعة قليلة عن طريق الإحساء. وعند الرجوع كان يقضي بعض الطريق راكباً وبعضه ماشياً. فاتفق في بعض المنازل أن طال سيره ولم يجد مركوباً. فلما نزلوا للراحة والنوم، نام ذلك الرجل وطال به المنام من شدة التعب، حتى ارتحلت القافلة بدون أن تفحص عنه.

فلما لذعته حرارة الشمس استيقظ، فلم ير أحداً، فسار راجلاً، وكان على يقين من الهلاك، فاستغاث بالإمام المهدي عليه السلام، فرأى في ذلك الحال رجلاً على هيئة أهل البادية راكباً جملاً. وقال له: يا فلان، افترقت عن القافلة؟ فقال: نعم. فقال: هل تحب أو أوصلك برفاقك؟ قال فقلت: نعم، والله. هذا مطلوبي وليس هناك شيء سواه. فاقترب مني وأناخ راحلته، وجعلني رديفاً له، وسار. فلم نسر إلا قليلاً حتى وصلنا إلى القافلة.

فلما اقتربنا منها، قال: هؤلاء رفقاؤك. ووضعني، وذهب[1].

الهدف التاسع:

تعليمه الأدعية والأذكار ذات المضامين العالية الصحيحة، لعدد من الناس.

وأمثلة ذلك كثيرة، مما يفهم منه اهتمام الإمام عليه السلام بالأدعية، لا بصفتها تمتمات لا تسمن ولا تغني من جوع، بل بصفتها نصوصاً ذات معان توجيهية تربوية، ومسائل صالحة واعية، سائرة في طريق الله تعالى.

ومن المعلوم أن أسلوب الدعاء أقرب إلى جو التكتم والحذر، من أي شيء آخر، باعتبارها الوسيلة المعترف بمشروعيتها عموماً، في الاتصال بالله عز وجل، ولا يمكن لأي سلطة من السلطات المحاسبة على ذلك. ومن هنا رأينا

---

(١) انظر النجم الثاقب، ص٢٤١.

الإمام زين العابدين عليه السلام قد اتخذ في تربية الأمة أسلوب الدعاء، وضمن أدعيته أعلى المفاهيم وأجل الأساليب.

وكذلك سار الإمام المهدي عليه السلام في هذا الطريق، وانتهج نفس المنهج فيما انتهجه من أعمال. فكان أن علم عدداً من الأفراد عدداً من الأدعية. من أهمها «دعاء الفرج» الذي يطلع الفرد على واقعه السيئ في عصور الفتن والانحراف، ويفهمه أمله المنشود ويربطه بالله تعالى ارتباطاً عاطفياً إيمانياً وثيقاً، إذ يقول: اللهم عظم البلاء وبرح الخفاء وانقطع الرجاء وانكشف الغطاء وضاقت الأرض ومنعت السماء. وإليك يا رب المشتكى وعليك المعول في الشدة والرخاء. اللهم فصل على محمد وآل محمد، أولي الأمر الذين فرضت علينا طاعتهم فعرفتنا بذلك منزلتهم. ففرج عنا بحقهم فرجاً عاجلاً قريباً كلمح البصر، أو هو أقرب... الخ الدعاء[1].

الهدف العاشر:

حثه على تلاوة الأدعية الواردة عن آبائه المعصومين عليهم السلام، بما فيها من مضامين عالية وحقائق واعية تربوية وفكرية.

وأوضح أمثلته: ذلك الرجل الذي انقطع عن ركبه في ليل عاصف وماطر بالثلج، إذ رأى أمامه بستاناً وفيه فلاح بيده «مسحاة» يضرب بها الأشجار ليسقط عنها الثلج.

قال الراوي: فجاء نحوي ووقف قريباً مني، وقال: من أنت؟ فقلت: ذهب رفاقي وبقيت لا أعلم الطريق، وقد تهت فيه. فقال لي بالفارسية: صل

(١) المصدر السابق، ص٢٦٣.

النافلة حتى تجد الطريق. قال: فاشتغلت بالنافلة. وبعد أن فرغت من التهجد، جاء وقال: ألم تذهب؟ فقلت: والله لا أعرف الطريق. فقال: اقرأ الجامعة[١]. وأنا لم أكن حافظاً للجامعة، وإلى الآن لست حافظاً لها بالرغم من زياراتي المكررة للعتبات المشرفة. ولكنني قمت من مكاني وقرأت الجامعة بتمامها عن ظهر قلب.

ثم ظهر تارة أخرى، وقال: ألم تذهب، ألا زلت موجوداً. فلم أتمالك عن البكاء، وقلت: نعم.. لا أعرف الطريق. فقال: اقرأ عاشورا[٢]. قال الراوي: وأنا غير حافظ لعاشورا، وإلى الآن لست حافظاً لها. ولكنني وقفت واشتغلت بالزيارة، فقرأتها بتمامها عن حفظ.

قال: فجاء مرة أخرى، وقال: ألم تذهب؟ فقلت: كلا... لا زلت موجوداً هنا إلى الصباح. فقال: أنا الآن أوصلك بالقافلة. ثم ذهب وركب حماراً وحمل مسحاته على كتفه وجاء فأردفني به. قال الراوي: فوضع يده على ركبتي وقال: انتم لماذا لا تصلون النافلة؟ النافلة، النافلة، النافلة... كررها ثلاث مرات. ثم قال: أنتم لماذا لا تقرأون عاشورا؟... عاشورا، عاشورا، عاشورا... كررها ثلاث مرات. ثم قال: أنتم لماذا لا تقرأون الجامعة؟ الجامعة، الجامعة، الجامعة، ثلاث مرات. وكان يدور في مسلكه... وإذا به يلتفت إلى الوراء ويقول: أولئك أصحابك. إلى آخر الخبر[٣].

---

(١) وهو الدعاء الذي يبدأ بقوله: السلام عليكم يا أهل بيت النبوة.. يزار به الإمام الحسين بن علي عليه السلام. انظر مفاتيح الجنان، ص٥٤٤ وما بعدها.

(٢) وهو الدعاء الذي يبدأ بقوله: السلام عليك يا أبا عبد الله.. يزار به الإمام الحسين بن علي عليه السلام. انظر مفاتيح الجنان، ص٤٥٦.

(٣) انظر النجم الثاقب، ص٣٤٣، ومفاتيح الجنان، ص٥٥١.

أقول: المراد من النافلة، صلاة الليل، كما فهم الحاج النوري[1] فإن الراوي أتى بها في الليل. وهذه الصلاة من أفضل المستحبات في الشريعة. وكل ما أمر به في هذه الرواية فهو من أفضل المستحبات... على أن يفهم فهماً حقيقياً واعياً، بصفته كجزء من كل، مرتبط بالكيان العام للعمل الإسلامي في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته. ولهذا أمر المهدي عليه السلام بالالتزام بها أمراً مؤكداً، بعد أن رأى الناس قد تسامحوا بها وتهاونوا في امتثالها.

وقوله له بعد كل عمل يقوم به الراوي: ألم تذهب؟ إنما هو لاحتمال أن يكون الراوي التائه في خلال العمل يكون قد خطرت له فكرة للخلاص، وخاصة بعد أن يكون قد توجه إلى الله تعالى وتوسل إليه. ولما رأى المهدي عليه السلام أن طرق النجاة مسدودة أمام هذا الرجل، وأنه لا يفكر في إصابة الطريق... أوصله بنفسه إلى قافلته. واستطاع المهدي عليه السلام أن يثبت حقيقته بعدة معجزات «مخففة» غير ملفتة للنظر، ذكرنا بعضها وأحلنا الباقي على المصدر الذي اعتمدناه.

فهذه عشرة أهداف، مما يتوخاه الإمام المهدي عليه السلام في عمله من مقابلة الأفراد... مما قد يكون له - في المدى البعيد - أعمق الأثر على صعيد اجتماعي عام وعدد من الأفراد كبير. وللمهدي عليه السلام أهداف أخرى، تظهر لمن يراجع أخبار المشاهدة، نعرض عنها آسفين، توخياً للاختصار.

وباستعراض هذه الأهداف، نفهم بوضوح، مطابقتها لما ينبغي أن يكون هدفه طبقاً للقواعد العامة. حيث ذكرنا أن مقتضاها هو عمله في تطبيق جملة من التعاليم الإسلامية مما يمكنه تطبيقه في أثناء الغيبة، وكل هذه الأهداف التي

---

(١) انظر النجم الثاقب، ص٣٤٤.

استعرضناها لا شك كونها تطبيقات أمينة للتكاليف التي يمكنه تطبيقها في هذه الفترة. . . وقد عرفنا أقسامها في بحث سابق.

الأمر السابع:

في أنه هل هناك أشخاص يرون الإمام المهدي عليه السلام ويعرفونه على حقيقته، على مر الزمان، أو ما داموا في الحياة، أو ليس هناك أحد من هذا القبيل.

ويمكن أن نتحدث عن ذلك على ثلاثة مستويات:

المستوى الأول:

فيما هو مقتضى القواعد العامة من ذلك.

وفي هذا الصدد، يكون بالإمكان أن يقال: أنه بعد أن علمنا أن أحد الأسباب الرئيسية لاحتجاب المهدي عليه السلام هو الخوف على نفسه من القتل، بمعنى ضرورة بقائه إلى اليوم الموعود، فلو كان مكشوفاً معروفاً، لقتله الأعداء، كما قتلوا آباءه عليهم السلام، ولتعذر تنفيذ اليوم الموعود بنص القرآن الكريم، وقد دلت على ذلك بعض الروايات.

فمن ذلك ما رواه الصدوق في إكمال الدين[1] بسنده إلى زرارة بن أعين قال سمعت الصادق جعفر بن محمد عليه السلام يقول: إن للقائم غيبة قبل أن يقوم. قلت: ولم ذلك جعلت فداك؟ قال: يخاف. . . وأشار بيده إلى بطنه وعنقه.

(١) انظر إكمال الدين المخطوط.

وما رواه أيضاً بسنده إلى محمد بن مسلم الثقفي «الطحان» قال دخلت على أبي جعفر محمد بن علي الباقر عليه السلام وأنا أريد أن أسأله عن القائم من آل محمد صلوات الله عليه وآله. فقال لي مبتدئاً: يا محمد بن مسلم إن في القائم من آل محمد شبهاً من خمسة من الرسل... إلى أن قال: وأما شبهه من موسى فدوام خوفه وطول غيبته الخ الحديث[١].

وقال الشيخ الطوسي قدس سره: مما يقطع على أنه سبب لغيبة الإمام هو خوفه على نفسه من القتل بإخافة الظالمين إياه، ومنعهم إياه من التصرف فيما جعل إليه التدبير والتصرف فيه[٢].

إذا عرفنا ذلك، أمكن القول أن الغيبة والاحتجاب تدور مدار الخوف، على الدوام. فمتى كان الخوف موجوداً كانت الغيبة سارية المفعول، ومتى ارتفع الخوف، لم يكن ثمة موجب للغيبة.

وارتفاع الخوف أما أن يكون ارتفاعاً كاملاً مطلقاً، عند توفر العدة والعدد للمهدي عليه السلام، فيوجب ارتفاع الغيبة والظهور الكامل حين يملأ الأرض قسطاً وعدلاً. وأما أن يكون ارتفاعه بالنسبة إلى شخص أو إلى جماعة فيوجب ارتفاع الغيبة عنهم خاصة، ومن هنا يمكن للواحد منهم أن يرى المهدي عليه السلام ويعرفه بحقيقته على طول الخط.

وهذا ما يحدث للخاصة من الموثوقين الكاملين الناجحين في التمحيص الإلهي بالمعنى الذي سنسمعه في مستقبل هذا التاريخ. حيث لا يكون هناك احتمال القتل أو الوشاية أو التصريح أو التلميح على كل حال.

---

(١) المصدر نفسه.

(٢) الغيبة: للشيخ الطوسي، ص٦١.

وقد يكون ارتفاع الخوف، منحصراً في ساعة من الزمن، فترتفع الغيبة خلال هذه الساعة، وهذا ما يحدث في المقابلات التي سمعناها. ولكن قد يكون ارتفاع الغيبة مشروطاً بعدم اطلاع الرائي على الحقيقة إلا بعد الفراق، كما رأينا في أغلب المقابلات.

ومعه فمن الممكن القول أن أي فرد يبلغ مرتبة الكمال المطلوب في التمحيص الإلهي، فإنه يرى المهدي عليه السلام ويعرفه بحقيقته، كما يرى أي شخص آخر. وإن كان هذا مما لا يمكن الاطلاع عليه من قبل الآخرين، لمدى التزام هؤلاء الناس بالكتم المطلق والسرية التامة.

ويمكن الاستدلال في هذا الصدد، بما دل من الروايات بأن المهدي عليه السلام في تقية حتى يأذن الله تعالى له بالظهور التام. كالذي أخرجه الشيخ[١] بسنده عن علي بن إبراهيم بن مهزيار في مقابلته للمهدي عليه السلام أنه قال له فيما قال: والله مولاكم أظهر التقية فوكلها بي، فأنا في التقية إلى يوم يؤذن لي، فأخرج، الخبر.

فإن التقية معناها اتقاء الضرر، وهذا إنما يكون فيما إذا كان هناك خوف الضرر أو احتماله، وأما في الأشخاص الموثوقين الكاملين، فلا يوجد هذا الاحتمال، فيرتفع سبب التقية ويكون الاحتجاب بلا موجب.

كما يمكن الاستدلال في هذا الصدد بما دل على أن المهدي عليه السلام بعيد خلال غيبته عن دار الظالمين ومجاورة المنحرفين، كالذي ورد في نفس خبر علي بن إبراهيم ابن مهزيار السابق من قول الإمام المهدي عليه السلام: يا ابن المازيار، أبي أبو محمد عهد إليّ أن لا أجاور قوماً غضب الله عليهم ولعنهم

(١) الغيبة، ص١٦١.

ولهم الخزي في الدنيا والآخرة، ولهم عذاب أليم. الخبر.

حيث عرفنا فيما سبق أن مجاورة المنحرفين بالشخصية الثانية لا محذور فيها ولا خطر منها، وإنما تكون المجاورة معهم خطراً، فيما إذا كانوا عارفين بحقيقة المهدي عليه السلام مطلعين على صفته الواقعية، لأنهم حينئذ لا محالة يقتلونه على أي حال. إذن، فمن لا يوجد في حقه هذا الاحتمال، لا موجب للبعد عنه وترك مجاورته مع المعرفة بالحقيقة، فإنه إذا ارتفع السبب ارتفع موجبه لا محالة. وذلك لا يكون إلا في الخاصة الكاملين في الوثاقة والإيمان.

وهناك أشكال أخرى من الروايات، يمكن الاستدلال بها في هذا الصدد، نعرض عنها توخياً للاختصار.

وإذا تمّ لدينا أن مقتضى القاعدة هو عدم احتجاب المهدي عليه السلام عن خاصته، أمكن لنا أن نفهم المستويين الآتيين على هذا الضوء.

المستوى الثاني:

ما دل من أخبار المشاهدة خلال الغيبة الكبرى، على وجود مرافق أو عدد من المرافقين مع المهدي عليه السلام، كالقصة الثامنة والثلاثين[1] والقصة الثالثة والثمانين[2]، مما ذكره الحاج النوري في نجمه الثاقب، ورواية إسماعيل بن الحسن الهرقلي[3] التي دلت على أنه رأى ثلاثة فرسان كان أحدهم المهدي عليه السلام بدلالة أقامها له، وفيها دلالة على أن الفارسين الآخرين كانا

---

(١) ص ٣٠٥.

(٢) ص ٣٥٤.

(٣) انظر كشف الغمة، ص٢٨٣ وما بعدها. وينابيع المودة، ط النجف، ص٥٤٦. وكتاب المهدي، ص١٤٣.

يعرفان حقيقته بكل وضوح.

ومن ذلك ما دل على أن بعض الخاصة الموثوقين، كانوا يرون المهدي عليه السلام ويعرفونه أينما صادفوه، كالسيد مهدي بحر العلوم، كما يظهر من الحكاية الثالثة والسبعين[1] من النجم الثاقب، والقصتين اللتين يليانها.

ومن ذلك ما دل على أن المهدي عليه السلام يستصحب معه خاصته في أسفاره ويشركهم في أعماله. كالخبر الذي أرويه عن سيدنا الأستاذ آية الله السيد محمد باقر الصدر عن أستاذه وأستاذنا آية الله العظمى السيد أبو القاسم الخوئي، وهما من أعاظم علماء العصر ومحققيهم أدام الله ظلهما عن أحد المؤمنين يسميه السيد الخوئي ويوثقه ويصفه بأنه من الإيمان والورع على حد عظيم وهو صاحب القصة، وحيث أنها غير موجودة في المصادر فيحسن في هذا الصدد إعطاء نبذة كافية عنها.

كان هذا الرجل في أحد الأيام عصراً في مسجد الكوفة، وبينما هو يمشي محاذياً لغرفه المنتشرة في حائط سوره، رأى في إيوان كائن أمام أحد الغرف فراشاً مفروشاً وقد استلقى عليه شخص مهيب جليل، وجلس بإزائه رجل آخر. قال: فتعجبت من وجودهما وسألت الرجل الجالس عن هذا المستلقي فأجاب: سيد العالم. قال: فاستهونت بجوابه وحسبت أنه يريد كونه سيداً عالماً، لأن العامة هناك ينطقون العالم بفتح اللام.

ثم أن هذا الرجل مضى للوضوء والاشتغال بصلاة المغرب والعشاء والتهجد في محراب أمير المؤمنين عليه السلام، حتى أجهده التعب والنعس، فاستلقى ونام. وحينما استيقظ وجد المسجد مضيئاً يقول: حتى أني أستطيع أن أقرأ

(١) ص ٣٤٨.

الكتابة القرآنية المنقوشة في الطرف الآخر من المسجد. فظننت أن الفجر قد بزغ، بل مضى بعد الفجر زمان غير قليل، وأني تأخرت في النوم زائداً عن المعتاد.

فخرجت إلى الوضوء فوجدت في الدكة التي في وسط المسجد جماعة مقامة للصلاة، يؤمها «سيد العالم» ويأتم به أناس كثيرون بأزياء مختلفة وجنسيات متعددة، بما فيهم ذاك الرجل الذي رأيته جالسا إلى جنبه في عصر اليوم الماضي.

فعجبت من وجود هؤلاء في المسجد على خلاف العادة.

ثم أني أسبغت الوضوء والتحقت بالجماعة، وصليت الصبح معهم ركعتين، وحين انتهت الصلاة، قام ذلك الرجل المشار إليه وتقدم إلى إمام الجماعة: سيد العالم، وسأله عني قائلاً: هل نأخذ هذا الرجل معنا؟ فأجاب سيد العالم: كلا، فإن عليه تمحيصين لا بد أن يمر بهما.

وفجأة، اختفى هذا الجمع، وساد المسجد ظلام الليل، وإذا بالفجر لم يبزغ بعد، بل بقي إليه زمان ليس بالقليل.

وهذه القصة تدلنا على أمور عديدة، يهمنا فعلاً منها أن هؤلاء الخاصة الذين جمعهم المهدي عليه السلام من مختلف أنحاء المعمورة، استطاع أن يشركهم في أعماله وأسفاره، بعد أن نجح كل فرد منهم في التمحيص الإلهي نجاحاً كاملاً. وأما صاحبنا راوي القصة، فهو بالرغم من سمو كعبه في التقوى، فإنه لم يبلغ تلك المنزلة الرفيعة، التي بلغها هؤلاء، ومن ثم رفض المهدي عليه السلام إشراكه في أعماله، بل لعل الرجل لم يعرف حقيقة الأمر إلا بعد انتهائه.

وهذا مطابق لما قلناه على المستوى الأول، من أن الموثوق الكامل،

لا يكون المهدي عليه السلام محتجباً عنه، ولا غائباً بالنسبة إليه، وإن كان لا يمكن أن نلم بذلك إلماماً.

المستوى الثالث:

ما دل من الروايات على أن مع المهدي عليه السلام حال غيبته فرداً أو أكثر، ممن يقوم بخدمته ويؤدي بعض مهماته، ويندرج في ذلك عدة روايات سبق أن سمعنا بعضها: منها: رواية المفضل بن عمر السابقة عن أبي عبد الله عليه السلام حيث يقول عن المهدي عليه السلام فيما يقول: لا يطلع على موضعه أحد من ولد ولا غيره إلا المولى الذي يلي أمره[١].

وهذا واضح جداً في وجود خادم له يرعى شؤونه الخاصة، ويعرفه على حقيقته. ويمكننا أن نفهم، انطلاقاً من أطروحة خفاء العنوان، أن المهدي عليه السلام يعيش بشخصيته الثانية في المجتمع، وبشخصيته الحقيقية مع خادمه. فقوله: لا يطلع على موضعه يراد به موضعه بصفته الحقيقية. ولا بد أن نفترض حتماً إن هذا الخادم من الموثوقين الكاملين، الذين لا يمكن أن يصرحوا بذات نفوسهم مهما كلفهم الأمر.

ومنها: رواية أبي بصير السابقة عن أبي جعفر عليه السلام قال: لا بد لصاحب هذا الأمر من عزلة ولا بد من عزلته في قوة، وما بثلاثين من وحشة، ونعم المنزل طيبة[٢].

فإن ظاهرها كون هؤلاء الثلاثين من الخاصة المطلعين على حقيقته. وإن

(١) الغيبة للشيخ الطوسي، ص١٠٢.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

كانت مخالفة لأطروحة خفاء العنوان، من حيث دلالتها على عزلة المهدي عليه السلام عن المجتمع، بحيث لولا هؤلاء الثلاثين نفراً لكان ينبغي أن يستوحش من الانفراد. على حين تقول هذه الأطروحة أن المهدي عليه السلام يعيش في المجتمع كفرد عادي غير منعزل، ولا موجب للوحشة سواء عرفه البعض أو جهلوه. وليس هذا مهماً، بعد أن استدللنا على هذه الأطروحة بما فيه الكفاية بحيث لا يقوم ضدها مثل هذا الخبر.

* * *

هذا هو الكلام في الجهة الثانية من الفصل الرابع. وهي في الحديث عن الأخبار الخاصة الدالة على مشاهدة المهدي عليه السلام في غيبته الكبرى.

وبهذا ينتهي هذا الفصل الرابع، من هذا القسم من التاريخ.

الفصل الخامس

في مراسلة المهدي عليه السلام للشيخ محمد بن محمد بن النعمان المفيد البغدادي قدس سره

فقد تفرد الطبرسي في الاحتجاج بذكر كتابين أرسلهما الإمام المهدي عليه السلام إلى الشيخ المفيد، يتضمنان بعض المطالب الصحيحة الواعية، وبعض التنبؤات الرمزية على ما سنذكر.

وينبغي أن نتحدث عن هاتين الرسالتين ضمن عدة نواحٍ:

الناحية الأولى:

فيما ينبغي أن نعامل به هاتين الرسالتين، بحسب القواعد العامة، من حيث سندهما تارة ومن حيث مداليلهما أخرى. ومن هنا يقع الكلام في أمرين:

الأمر الأول:

في سند هاتين الرسالتين.

والملاحظ في هذا الصدد أن الطبرسي ذكرهما بدون سند، ولم نجدهما في المصادر المتأخرة عنه فضلاً عن المتقدمة عليه. فهما روايتان مرسلتان وغير

قابلتين للإثبات التاريخي من هذه الناحية.

إلا أن الذي يرجح الأخذ بهما عدة أسباب:

السبب الأول:

إرسال الطبرسي لهما إرسال المسلمات، مما يدل أنه كان معتقداً بصحة سندهما، وربما يكون قد حذفه لمدى شهرته ووضوحه، كما فعل في كثير من روايات كتابه، وإن كانت مصادر هذه الأسناد قد تلفت في العصور المتأخرة عنه. وهذا السبب يعطي ظناً كافياً بصحة السند، وإن كان لا يبلغ حد الإثبات التاريخي.

السبب الثاني:

تضمن الروايتين، على ما سنسمع لتوجيهات عالية وتنبؤات صادقة. بحيث لو كنا علمنا بها قبل وقوع الحوادث المذكورة فيها، لجزمنا بعدم إمكان صدورها إلا عن المهدي عليه السلام.

السبب الثالث:

إن المصلحة العامة تقتضي صدور هذه الرسائل، في أول زمان الغيبة الكبرى، وذلك لإحراز مصلحتين:

المصلحة الأولى:

إعطاء المهدي عليه السلام لقواعده الشعبية القواعد العامة والمفاهيم الأساسية التي ينبغي أن يعرفها الناس وتكون سارية المفعول خلال عصر الغيبة الكبرى.

بحيث لولاها لكان من المحتمل أن يُساء التصرف في الدين، وينغلق باب الوصول إلى الأهداف المطلوبة في الإسلام.

ومن الطبيعي أن يكون إبلاغ هذه القواعد والمفاهيم، موقوتاً في أول الغيبة الكبرى، لئلا يمر زمان كبير والناس غافلون عن مثل هذه التوجيهات.

المصلحة الثانية:

إعطاء المهدي عليه السلام القيادة الرئيسية من الناحية الإسلامية بيد العلماء الصالحين، بعد أن انسحب هو منها من الناحية العملية، وانتهى السفراء الخاصون أيضاً. فكان أهم العلماء الصالحين في ذلك العصر، هو الشيخ المفيد، ومن هنا وجّه الرسالة إليه، ليكون هو - بصفته عالماً صالحاً - المنطلق الأول لانتشار التعاليم العليا والتوجيهات الرئيسية.

وهذا خط كان قد بدأه الإمام العسكري عليه السلام حين أرسل لابن بابويه رسالة يعبر عنه بقوله: يا شيخي يا أبا الحسن. كما سبق أن سمعنا في تاريخ الغيبة الصغرى[1].

وحيث نعلم أن الأسلوب الطبيعي لإيجاد هاتين المصلحتين، منحصر بطريق المراسلة، كما كان عليه الحال خلال الغيبة الصغرى، يكون الظن عندئذ بصدور هاتين الرسالتين كبيراً، وخاصة بعد ضم السببين الأولين، إلى ذلك. ومعه فأكبر الظن أن هاتين الروايتين يصلحان للإثبات التاريخي، بالرغم من الإرسال الذي يتصفان به.

---

(١) انظر: ص٢٠١ منه.

الأمر الثاني: في مداليل هاتين الرسالتين:

ينقسم مدلولهما - بشكل رئيسي - إلى قسمين:

القسم الأول:

التوجيهات العامة التي يذكرها الإمام لقواعده الشعبية، وكلها صحيحة ومتينة، ما عدا أمور قليلة لا تخلو من المناقشة، على ما سوف نشير. ولا يضرنا ذلك حتى لو أنكرنا صحة هذه الأمور، فإن إنكار البعض لا يقتضي إنكار الكل، كما سبق أن أكدنا عليه.

القسم الثاني:

التنبؤات بوقوع حوادث قريبة أو بعيدة بالنسبة إلى زمن صدور الرسالة. ويغلب على عبارات هذه التنبؤات، شكل الرمزية والغموض والكلية في المدلول، بحيث يصعب تشخيصها علينا، ونحن بهذا البعد التاريخي الكبير، وقد يتعذر ذلك أحياناً. فما نستطيع ان نجده في التاريخ العام، فهو المطلوب، وما لم نجده فالواقع الذي نحسه هو أن من قرأه في ذلك الزمن فهمه حق فهمه، وخاصة وهو يعيش الحوادث، التي أشار إليها المهدي في كتابه.

والرسالتان، كما عرفنا، غير خاصة بالشيخ المفيد، وإن كان هو المرسل إليه، وإنما هي عامة لكل الخواص من المؤمنين بالمهدي عليه السلام. ومعه لا تكون الحوادث المذكورة في الخطاب خاصة بالسنين التي عاشها الشيخ المفيد، بل لعل عدداً من الحوادث كانت سوف تحصل بعد وفاته، وبذلك ينفتح لنا مجال واسع للتعيين التاريخي للحوادث.

الناحية الثانية:

في بيان تاريخ صدور هذين الخطابين من حيث الزمان والمكان، ونحو ذلك.

أما الرسالة الأولى فقد وصلت في أواخر شهر صفر عام ٤١٠، أي قبل ثلاثة أعوام تقريباً من وفاة المرسل إليه الشيخ المفيد الذي توفي عام ٤١٣[١].

والرسالة الأخرى مؤرخة في عام ٤١٢ أي قبل وفاته بعام واحد. ويكون قد مر ما يزيد على الثمانين عاماً بقليل على وفاة الشيخ علي بن محمد السمري، السفير الرابع.. أي على انتهاء الغيبة الصغرى وبدء الغيبة الكبرى عام ٣٢٩[٢].

وذكر موصل الكتاب الأول: أنه يحمله من ناحية متصلة بالحجاز[٣]. فنعرف من ذلك أن المهدي عليه السلام كان في ذلك الحين في نواحي الحجاز، وقد أرسل هذه الرسالة من هناك بيد بعض خاصته.

والرسالة الثانية مؤرخة في غرة شوال[٤] من العام المشار إليه. وقد وصلت يوم الخميس الثالث والعشرين من ذي الحجة في نفس العام[٥] أي أنها بقيت في الطريق، إلى المرسل إليه ثلاثة أشهر إلا سبعة أيام.

وكلا الخطابين مكتوبان بإملاء المهدي عليه السلام وخط غيره من بعض ثقاته،

(١) الكامل، جـ ٧، ص٣١٣.

(٢) انظر تاريخ الغيبة الصغرى، ص٣٨٩.

(٣) الاحتجاج، جـ ٢، ص٣١٨.

(٤) المصدر، ص٣٢٥.

(٥) المصدر، ص٣٢٤.

كما يظهر من الرسالة الأولى، وتنص عليه الرسالة الثانية. ولكنهما معاً مذيلان بأسطر قليلة بخط الإمام نفسه، يشهد فيها بصحة هذا الكتاب، ويأمر الشيخ المفيد بإخفاء الرسالة إخفاءاً تاماً عن كل أحد. ولكن عليه أن يكتب عنها نسخة ليطلع عليها الموثوقين من أصحابه أو يبلغه لهم شفاهاً ليعملوا بما فيه.

الناحية الثالثة:

في بيان نبذة عن الظروف التاريخية التي صدر في غضونها هذان الخطابان. بحسب ما دلنا عليه التاريخ الإسلامي العام. فإن ذلك مما سنحتاجه لدى الخوض في تفسير ما ذكره الخطاب من التنبؤات.

ويمكن تلخيص الكلام في هذه الظروف التاريخية في عدة نقاط:

النقطة الأولى:

كانت البلاد الإسلامية في ذلك الحين تعاني التفكك والتفسخ المؤسف، في أواخر عهد البويهيين في بلاد فارس، ورجوع أمرهم إلى القتال بين أمرائهم وقوادهم، وبينهم وبين الأتراك الحاكمين لخراسان وما وراء النهر، بعد الدولة السامانية.

وكان أمر الأندلس قد آل إلى التفرق والانحلال عام ٤٠٧[١]. وأما مصر فقد استقل بها العلويون «الفاطميون» أولاد المهدوي الإفريقي. وكان أن توفي الحاكم بأمر الله عام ٤١١ ووليّ بعده ابنه الظاهر[٢]. وتكاد مصر أن تكون أكثر

(١) الكامل، ج ٧، ص٢٩٠.

(٢) المصدر، ص٣٠٤.

البلاد استقراراً بأيديهم.

وأما الشمال الإفريقي، فقد آل إلى التفرق وتنابذ الأمراء بعد أن غادره المعز لدين الله إلى مصر عام ٣٤١[١] حيث أسس الدولة الفاطمية فيها. وكان في الشمال الإفريقي حرب عام ٤٠٦، تكشفت عن فوز أميرها باديس، وخلفه بعده موته في نفس العام ابنه المعز[٢] حتى مات عام ٤١٣[٣].

وأما بغداد، فلا زالت منذ عام ٣٨١ بيد القادر بالله العباسي. وكان قد رأى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في المنام قبل خلافته، وهو يقول له: هذا الأمر صائر إليك، ويطول عمرك فيه، فأحسن إلى ولدي وشيعتي[٤].

وكانت نقابة العلويين هناك قد صارت إلى الشريف المرتضى علم الهدى، بعد وفاة نقيبها محمد بن الحسين الشريف الرضي عام ٤٠٦[٥].

حتى مكة لم تنج من الاغتشاش، ففي عام ٤١٤ في النفر الأول يوم الجمعة، قام رجل من مصر بإحدى يديه سيف مسلول وفي الأخرى دبوس وضرب الحجر الأسود ثلاث ضربات بالدبوس. وقال: إلى متى يعبد الحجر الأسود ومحمد وعلي، فليمنعني مانع من هذا، فإني أريد أن أهدم البيت. فخاف أكثر الحاضرين وتراجعوا عنه، وكاد يفلت. فثار به رجل فضربه بخنجر فقتله وقطعه الناس واحرقوه. وقتل ممن اتهم بمصاحبته جماعة واحرقوا[٦].

---

(١) الكامل، جـ ٦، ص٣٤١.

(٢) المصدر، جـ ٧، ص٢٧٩.

(٣) المصدر، ص ٣١٣.

(٤) المصدر، ص١٤٩.

(٥) المصدر، ص٢٨١.

(٦) الكامل، جـ ٧، ص٣١٤.

ولم تنج بغداد من اختلاط الأمور، عام ٤١٦ بيد السراق والعيارين[١] وعام ٤١٧ بيد الأتراك حتى أحرقوا المنازل والدروب[٢].

النقطة الثانية:

كان أثر هذه الفتن سارياً إلى الحج نفسه، فقد كان يعاني الحجاج صعوبات جمة، إلى حد قد ينقطع الحج بالكلية، كما حدث عام ٤٠١[٣] وعامي ٤١٠ و ٤١١[٤] وعام ٤١٦[٥] وعام ٤١٧[٦] وعام ٤١٨[٧] على التوالي.

وكانت هناك سعايات حسنة عام ٤١٢ لأجل سلامة الحجاج[٨] من قبل صاحب خراسان محمد بن سبستكين الملقب بيمين الدولة.

النقطة الثالثة:

أنه كانت تقع حوادث مؤسفة بين أهل الإسلام من المذاهب المختلفة.

والسبب الرئيسي في ذلك: هو أن الحكم كان محسوباً على الشيعة منذ

(١) المصدر، ص٤٢٣.

(٢) المصدر، ص٣٢٥.

(٣) المصدر، ص٢٥٦.

(٤) المصدر، ص٣١٠.

(٥) المصدر، ص٣٢٤.

(٦) المصدر، ص٣٢٧.

(٧) المصدر، ص٣٣٠.

(٨) المصدر، ص٣١٠.

تأسيس الدولة البويهية في فارس والعراق والدولة الحمدانية في حلب. وكان البويهيون هم المسيطرون على استخلاف الخليفة واستيزار الوزير. وكانوا يعطون لأهل مذهبهم الحرية الكاملة في إقامة شعائرهم والقيام بأعيادهم ومآتمهم. وكان هذا يحدث أثراً سيئاً لدى ذوي المذاهب الإسلامية الأخرى، ولم يكن لديهم حكم مباشر ليتوقعوا من الحاكمين أن يحولوا دون هذه المظاهر.

فكان الشعب نفسه هو الذي يحاول أن يحول دون ذلك، وخاصة حين يجد من الشيعة اندفاعاً طائفياً مؤسفاً، اغتناماً لفرصة الحرية المعطاة لهم. فكانت أيام المناسبات العامة تشهد حرباً عامة بين أهل الإسلام. ولعمري لو كان كل فريق منهم يشعر بمسؤوليته الإسلامية وأخوَّته الدينية، لما عمل ما عمل، ولما صدر منه ما صدر، ولله في خلقه شؤون.

ولم يكن أهل المذاهب الأخرى، ليجدوا الفرصة المواتية، حال قوة الدولة البويهية وجبروتها. وإنما انفسح لهم المجال بشكل واضح في الفترة التي نؤرخ لها، باعتبار ما آل إليه أمر البويهيين من التفرق والانحلال.

ولسنا نريد أن نطيل في وصف الحوادث. وحسبنا أن نعرف، أنه قد حدث في بغداد في يوم عاشوراء عام ٤٠٦ حوادث مؤسفة[١]، وفي العام الذي يليه في واسط[٢] وفي شمال إفريقيا حيث قتلت جميع الشيعة، كما ذكر التاريخ[٣].

وكذلك في بغداد في عام ٤٠٨ أيضاً[٤] واشتد عام ٤٠٩ حتى أدى إلى

(١) الكامل، جـ ٧، ص٢٨١.

(٢) المصدر، ص٢٩٥.

(٣) المصدر، ص٢٩٤.

(٤) المصدر، ص٢٩٩.

نفي أبي عبد الله النعمان الشيخ المفيد من بغداد[١]. وتكرر مثل ذلك في الكوفة عام ٤١٥[٢] وفي بغداد أيضاً عام ٤٢٢[٣].

النقطة الرابعة:

كانت الطبيعة أيضاً تشارك في الحوادث، وكأنها تظهر الأسف على الظلم الساري على الأرض.

ففي عام ٤٠١ انقض كوكب كبير لم ير أكبر منه. وفيها زادت دجلة إحدى وعشرين ذراعاً، وغرق كثير من بغداد والعراق[٤].

وفي عام ٤٠٦ وقع بالبصرة وما جاورها وباء شديد، حتى عجز الحفارون عن حفر القبور[٥] وفيها نزل في حزيران مطر شديد في بلاد العراق وكثير من البلاد[٦].

وفي رمضان من عام ٤١٧ انقض كوكب عظيم استنارت له الأرض، فسمع له دوي عظيم[٧].

وفي العام الذي يليه سقط في العراق جميعه بَرَد يكون في الواحدة رطل أو

(١) المصدر، ص٣٠٠.
(٢) المصدر، ص٣١٦.
(٣) المصدر، ص٣٥٥.
(٤) المصدر، ص٢٥٦.
(٥) المصدر، ص٢٨١.
(٦) المصدر والصفحة
(٧) المصدر، ص٣٢٧.

رطلان، وأصغره كالبيضة، فأهلك الغلات، ولم يسلم منها إلا القليل[١].

وفي نفس العام في آخر تشرين الثاني، هبت ريح باردة في العراق جمد منها الماء والخل وبطل دوران الدواليب في دجلة[٢].

وفي عام ٤٢١ سقط في البلاد بَرَد عظيم، وكان أكثره في العراق فقلعت شجراً كباراً من الزيتون من شرقي النهروان وألقته على بعد من غربيها. وقلعت نخلة من أصلها وحملتها إلى دار بينها وبين موضع هذه الشجرة ثلاث دور، وقلعت سقف المسجد الجامع ببعض القرى[٣].

* * *

الناحية الرابعة:

في استعراض نص الرسالة الأولى:

«للأخ السديد والولي الرشيد الشيخ المفيد أبي عبد الله محمد بن محمد بن النعمان، أدام الله أعزازه، من مستودع العهد المأخوذ على العباد.

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، سلام عليك أيها الولي المخلص في الدين، المخصوص فينا باليقين. فإنا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ونسأل الصلاة على سيدنا

---

(١) المصدر، ص٣٣٠.

(٢) المصدر والصفحة.

(٣) المصدر، ص٣٤٣.

ومولانا ونبينا محمد وآله الطاهرين.

ونُعلمك - أدام الله توفيقك لنصرة الحق، وأجزل مثوبتك على نطقك عنا بالصدق -: أنه قد أذن لنا في تشريفك بالمكاتبة وتكليفك ما تؤديه عنا إلى موالينا قِبَلَك، أعزهم الله بطاعته، وكفاهم المهم برعايته لهم وحراسته. فقف - أيدك الله بعونه على أعدائه المارقين من دينه - على ما أذكره وأعمل على تأديته إلى من تسكن إليه بما نرسمه إن شاء الله.

نحن وإن كنا ناوين[١] بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين، حسب الذي أرانا الله تعالى لنا من الصلاح ولشيعتنا المؤمنين في ذلك، ما دامت دولة الدنيا للفاسقين. فإنا نحيط علماً بأنبائكم ولا يعزب عنا شيء من أخباركم، ومعرفتنا بالذل الذي أصابكم مذ جنح كثير منكم إلى ما كان السلف الصالح عنه شاسعاً، ونبذوا العهد المأخوذ وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.

إنا غير مهملين لمراعاتكم، ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء، وأصطلمكم الأعداء. فاتقوا الله جل جلاله، وظاهرونا على انتياشكم من فتنة قد أنافت عليكم، يهلك فيها من حم أجله ويحمى عنها من أدرك أمله. وهي إمارة لأزوف حركتنا ومبّاثتكم بأمرنا ونهينا. والله متم نوره ولو كره المشركون.

اعتصموا بالتقية، من شب نار الجاهلية، يحششها عصب أموية، يهول بها فرقة مهدية. أنا زعيم بنجاة من لم يرم فيها المواطن وسلك في الطعن منها السبل المرضية.

إذا حل جمادي الأولى من سنتكم هذه، فاعتبروا بما يحدث فيه، واستيقظوا من رقدتكم لما يكون في الذي يليه.

---

(١) في المصدر: ناوين بالنون الموحدة والظاهر كون ثاوين بالثاء المثلثة.

ستظهر لكم في السماء آية جلية، ومن الأرض مثلها بالسوية. ويحدث في أرض المشرق ما يحزن ويقلق. ويغلب من بعد على العراق طوائف عن الإسلام مرّاق، تضيق بسوء فعالهم على أهله الأرزاق. ثم تنفرج الغمة من بعد ببوار طاغوت من الأشرار، ثم يستر بهلاكه المتقون الأخيار.

ويتفق لمريدي الحج من الآفاق ما يأملونه منه على توفير عليه منهم واتفاق. ولنا في تيسير حجهم على الاختيار منهم والوفاق، شأن يظهر على نظام واتساق.

فليعمل كلُّ امرىءٍ منكم بما يقربه من محبتنا، ويتجنب ما يدنيه من كراهتنا وسخطنا، فإن أمرنا بغتة فجأة، حين لا تنفعه توبة ولا ينجيه من عقابه ندم على حوبة.

والله يلهمكم الرشد، ويلطف لكم في التوفيق برحمته».

وبعده يلي توقيع الإمام المهدي عليه السلام في ذيل الكتاب، كما أشرنا إليه في الجهة الثانية من هذا الفصل[١].

الناحية الخامسة:

في شرح المفاهيم والتنبؤات الرئيسية التي وردت في هذا الخطاب. ويمكن إعطاء تفاصيل ذلك، ضمن عدة نقاط:

النقطة الأولى:

قوله عليه السلام : قد أذن لنا في تشريفك بالمكاتبة.

---

(١) انظر الاحتجاج، جـ ٢، ص٣٢٣.

فإن المهدي عليه السلام لا يقوم بالعمل إلا بإذن الله تعالى، وحيث صدر الإذن بإرسال هذا الكتاب، فقد تصدى المهدي لإرساله.

ولفهم هذا الإذن أطروحتان:

الأولى: صدور الإذن المباشر من قبل الله عز وجل في كل واقعة واقعة. ذلك الإذن المستفاد بالإلهام ونحوه من مراتب العلوم التي يختص بها الإمام المعصوم عليه السلام كما دلت عليه بعض الأخبار.

الثانية: الإذن الإلهي المستفاد من بعض القواعد العامة التي يعرفها المهدي عليه السلام، ويستطيع تطبيقها في كل مورد. تلك القواعد التي نعبر عنها باقتضاء المصلحة الإسلامية لشيء من الأشياء. فإذا أحرز المهدي عليه السلام، وجود المصلحة في المراسلة مثلاً، فقد أحرز وجود الإذن الإلهي بالعمل على طبق تلك المصلحة. ومعه يكون سبب الإذن، هو وجود المصلحة ليس إلا، من دون إذن مباشر، كما قالت الأطروحة الأولى.

وترجيح إحدى الأطروحتين على الأخرى موكول إلى القارئ.

النقطة الثانية:

قوله عليه السلام: أعزهم الله بطاعته.

وهو تنبيه إلى استلزام الخروج عن طاعة الله تعالى للذل والصغار، واستلزام الالتزام بها للعز والشرف. فيجب الخروج من ذل معصية الله والدخول في عز طاعة الله تعالى.

وذلك واضح جداً بحسب مفاهيم الإسلام، فإن العزة لله ولرسوله

وللمؤمنين. والخضوع لله تعالى هو الخضوع للحق من ناحية، وخضوع مجانس لما خضع له الكون كله وهو القدرة الأزلية والحكمة اللانهائية، وكلا الأمرين عدل وحق، بمنطق العقل الصحيح.

على أن الخضوع لله عز وجل، بمعنى الالتزام بأوامره ونواهيه وقصر السلوك عليها، يغني الفرد عن إتباع سائر مصادر التشريع البشرية المنحرفة التي على الانزلاق إلى مهاوي الباطل، وعلى رأسها المصالح الشخصية والقوانين الوضعية. . . فيكون الفرد متعالياً عنها عزيزاً منيعاً من جهتها.

على حين أن البعد عن الالتزام بتعاليم الله العادلة، يستلزم - لا محالة - وجود فراغ في السلوك، يملؤه الفرد بأساليب الانحراف، فيكون خاضعاً لمقتضياته، وذليلاً أمامها. وهو معنى ذلة معصية الله عز وجل.

وهناك أكثر من معنى آخر، لمعنى العزة في طاعة الله عز وجل، لا حاجة إلى الإطالة، بسبب بيانه.

وعلى أي حال، فهذا هو المراد بقوله: أعزهم الله بطاعته. وبقوله: ومعرفتنا بالذل الذي أصابكم مُذ جنح كثير منكم إلى ما كان السلف الصالح عنه شاسعاً، ونبذوا العهد المأخوذ وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون.

فإن السلف الصالح كان عزيزاً بطاعة الله تعالى والالتزام بتعاليمه، وكان شاسعاً - أي بعيداً - عن معصية الله عز وجل. وكان ملتزماً بالعهد الذي قطعوه أمام ربهم بالطاعة، بصفتهم مسلمين إليه عارفين بأهمية تعاليمه.

فلما اتجه الخلف إلى ما كان السلف مبتعداً عنه، وهو المعصية ومخالفة التعاليم الإسلامية، أصبحوا أذلاء أمام مقتضيات الانحراف والمصالح الخاصة، وبالتالي أمام أعداء الحق والإسلام. فأصبحوا مقصرين تجاه دينهم وعهد ربهم

وأمتهم وأنفسهم.

ومن هنا نشعر - من وراء التعبير - بالمرارة والأسف الذي يعتلج في نفس الإمام المهدي عليه السلام من هذا الانحراف.

النقطة الثالثة:

قوله: نحن وإن كنا ناوين بمكاننا النائي عن مساكن الظالمين، حسب الذي أرانا الله تعالى لنا من الصلاح ولشيعتنا المؤمنين في ذلك، ما دامت دولة الدنيا للفاسقين.

وهذا البعد عن مساكن الظالمين، لا ينافي أياً من الأطروحتين الرئيسيتين، وكأن في هذا امتثالاً للأمر الذي ذكره المهدي لعلي بن مهزيار عن والده عليه السلام في أنه يسكن أقاصي الأرض وقفارها. وهو في ذلك المكان النائي يمكن أن يكون مختفي الشخص طبقاً لأطروحة خفاء الشخص، أو ظاهر الشخص، طبقاً لأطروحة خفاء العنوان.

وإذا كان مناسباً مع كلا الأطروحتين لم يكن نافياً لأي منهما، ولا معيناً لإحداهما. وإن كان لا يخلو - على كلا الأطروحتين - من بعض المناقشات، التي لا مجال للدخول في تفاصيلها.

وهذا الصلاح الذي يشير إليه في هذه العبارة، يمت في الحقيقة إلى أصل الغيبة بصلة، لا إلى مجرد النأي في المكان، وإنما أخذ ذلك في السياق استطراقاً إلى الإشارة إلى مفهوم الغيبة نفسه. ومعه فالصلاح الذي رآه الله تعالى للمهدي وللمؤمنين به، إنما هو في الغيبة نفسها. وهذا ما سيأتي تفصيله في القسم الثاني من هذا التاريخ.

النقطة الرابعة:

بيانه عليه السلام أنه يعيش على مستوى الأحداث، يحيط علماً بكل الأنباء وتصله جميع الأخبار. حين قال: فإنا نحيط علماً بأنبائكم، ولا يعزب عنا شيء من أخباركم.

وهناك لإمكان اطلاعه على الأخبار، عدة أطروحات:

الأطروحة الأولى:

أنه عليه السلام يعلم الأخبار ويطلع على أفعال الناس، عن طريق الإلهام الإلهي، أو الطريق الإعجازي الميتافيزيقي. ويؤيد ذلك ما دل على أن أعمال البشر أجمعين برّها وفاجرها تعرض على الإمام في كل يوم وليلة، ليرى فيها رأيه. وهو قوله تعالى: ﴿فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وهم الأئمة عليهم السلام، على ما نطقت به هذه الروايات[1].

ويمكن أن يؤيد ذلك بمفهوم اجتماعي إسلامي، وحاصله: ضرورة كون الإمام مؤيداً بالإلهام الإلهي، وذلك انطلاقاً من ثلاث مقدمات:

المقدمة الأولى:

إن الله تعالى حين ينيط مهمة معينة بشخص، لا بد أن يجعل فيه القابلية الشخصية لتنفيذها والقيام بمتطلباتها. ومن الواضح عدم إمكان إيكال المهمة إلى شخص قاصر عنها أو عاجز عن تنفيذها.

---

(١) انظر هذه الأخبار في الكافي لثقة الإسلام الكليني، باب: عرض الأعمال على النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام.

المقدمة الثانية:

إن الله تعالى أوكل إلى النبيﷺ أولاً وإلى خلفائه المعصومين ثانياً، قيادة العالم، بحيث لو سمحت الظروف لأي واحد منهم أن يقوم بالفتح العالمي الكامل لوجب عليه ذلك، ولباشر القيادة العالمية بنفسه.

إذن، فكل واحد من المعصومين قائد عالمي معد - من الناحية النظرية على الأقل - للقيام بمهمته الكبرى. ومعه لا بد - طبقاً للمقدمة الأولى - أن يكون لكل واحد منهم القابليات الكافية للقيادة العالمية، والقيام بمثل هذه المهمة العظيمة.

المقدمة الثالثة:

إن القيادة العالمية تتوقف على الإلهام، لا محالة. فإن قيادة العالم شيء في غاية الدقة والعمق والتعقيد. ونحن نرى أن الدول لا زالت تحكم جزءاً من العالم بهيئات كبيرة وأفراد كثيرة، وتنظيمات دقيقة وقوانين صارمة، ومع ذلك فهي كثيرة الفشل في أعمالها وأقوالها. فكيف من يحاول قيادة العالم بمجموعه، بحيث ترجع المقاليد العامة للحكم إلى شخصه فقط، من الناحية الفكرية والعملية معاً.

ومعه، فهذه المهمة لا يمكن تنفيذها، إلا بوجود الإلهام للقائد العالمي. وحيث أن المهديعليه السلام هو أحد الأئمة المعصومين، طبقاً للمذهب الإمامي، وقد ثبت بالضرورة كونه هو القائد العالمي في يوم العدل الموعود طبقاً لضرورة الدين الإسلامي، بل كل الأديان السماوية... إذن فيتعين كونه مؤيداً بالإلهام من قبل الله عز وجل. وإذا كان مؤيداً بالإلهام من قبل الله عز وجل. وإذا كان

مؤيداً بالإلهام، فلا غرابة من اطلاعه على أعمال العباد وكونه على مستوى الأحداث.

وهذه الأطروحة، منسجمة مع كلتا الأطروحتين الرئيسيتين السابقتين.

الأطروحة الثانية:

أننا إذا غضضنا النظر عن الأطروحة الأولى، وقلنا أن الإمام مؤهل طبيعياً لقيادة العالم من دون أي عنصر ميتافيزيقي. وكنا ملتزمين - كما هو الحق - بالأطروحة الرئيسية الثانية: أطروحة خفاء العنوان...

إذن يثبت أن المهدي عليه السلام يعيش في المجتمع بشخصيته الثانية، يتصل بالناس ويتكلم معهم ويفحص عن أخبارهم. من دون أن يخطر في بال أحد أنه هو المهدي المنتظر عليه السلام. بل قد يستطيع أن يخطط لاستقصاء تفاصيل الأخبار من سائر بلدان العالم وزواياه!.

الأطروحة الثالثة:

إذا غضضنا النظر عما في الأطروحة الأولى من ثبوت الإلهام للإمام، وعما في الأطروحة الثانية من معيشته وسكناه في صميم المجتمع. وأخذنا بما دل عليه هذا الخطاب، ودلت عليه رواية ابن مهزيار، من بُعد المهدي عليه السلام، عن المجتمعات، وانفراده في السكنى بعيداً عن الناس.

إذن، فمن الممكن للمهدي عليه السلام أن يعرف أخبار الناس عن طريق خاصته الذين يرونه ويعرفونه، وهم في كل جيل، ثلاثون أو أكثر، فيخطط عن طريقهم للاطلاع على أخبار أي مجتمع في العالم شاء.

وهذه الأطروحة تناسب مع كلا الأطروحتين الرئيسيتين. أما مناسبتها مع أطروحة خفاء العنوان فواضحة، إذ يفترض - بعد كل ما سلف - أن المهدي عليه السلام ظاهر بالشخص ولكنه غير معروف الحقيقة، وهو منعزل عن المجتمعات والجماعات، لا يعرفه ولا يتصل به إلا خاصته. ومعه فيمكن للمهدي عليه السلام الحصول على الأخبار عن طريق هؤلاء الخاصة، أو عن طريق وروده المجتمعات. أحياناً بدون أن يكون ملفتاً للنظر أو مثيراً للانتباه، ليستطلع من الأخبار ما يشاء أو يحادث من يريد كما يريد، ثم يرجع إلى مسكنه متى أراد.

وأما مناسبة هذه الأطروحة، مع أطروحة خفاء الشخص، فلعدم اختفائه الشخصي عن خاصته، وإن كان مختفياً عن سائر الناس. ومن الواضح أن خاصته غير مختفين عن الناس، فيكونون هم همزة الوصل بين الناس وبينه، في نقل أخبارهم إليه، ونقل أخباره إليهم إذا لزم الأمر.

وعلى أي حال، فكل واحدة من هذه الأطروحات الثلاث، تبرهن إمكان أن يكون المهدي عليه السلام حال غيبته على مستوى الأحداث الاجتماعية ومواكبتها خبراً خبراً. وللقارئ أن يختار أياً من هذه الأطروحات شاء، وإن كنت أعتقد بصعوبة التصديق بالأطروحة الثالثة باستقلالها، لابتنائها على تنازلات غير صحيحة، وغض النظر عن أمور واقعية.

النقطة الخامسة:

إن المهدي عليه السلام، لمدى لطفه بنا، وشعوره بالمسؤولية تجاهنا، هو غير مهمل لمراعاتنا ولا ناسٍ لذكرنا، ولولا ذلك لنزل بناء اللأواء - وهو الشر - واصطلمنا الأعداء، أي استأصلونا وأبادونا. فجزاه الله عنا خير جزاء

المحسنين.

فمن هنا يظهر بوضوح، ما للمهدي عليه السلام من تأثير كبير في صلاح حال قواعده الشعبية وراحتهم وأمانهم، بالمقدار الممكن له في غيبته. بل إنهم لمدينون له بالحياة، إذ لولا أياديه الفاضلة ومساعيه الكاملة، لما بقي لقواعده الشعبية وجود، ولأبيدوا عن آخرهم تحت ضربات الأعداء المهاجمين، وما أكثرهم في كل جيل.

وهذا التأثير من قبل المهدي عليه السلام يعتبر من أهم مسؤولياته الإسلامية حال غيبته، كما عرفنا.

وهذا التأثير يكون واضحاً جداً بناء على الأخذ بأطروحة خفاء العنوان، سواء قلنا بأن المهدي عليه السلام يعيش في المجتمعات أو قلنا أنه يعيش خارجاً عنها... إذ على أي حال يستطيع القيام بالعمل المناسب عند الحاجة، أما بنفسه أو بواسطة خاصته، بالشكل الذي يستطيع به أن يحول بين الشر وبين وقوعه.

وأما لو أخذنا بأطروحة خفاء الشخص، فيكون تأثيره في خير المجتمع المسلم - مع غض النظر عن الافتراضات الفلسفية أو العرفانية - محتاجاً إلى تفسير لمنافاة خفاء الشخص مع الاختلاط بين الناس، كما هو واضح. ويمكن الانطلاق إلى ذلك من أحد طرق:

الطريق الأول:

الدعاء. فإن الدعاء المستجاب عمل اجتماعي صحيح، كما سبق أن عرفنا.

الطريق الثاني:

العمل بواسطة خاصته الذين يرونه ويعرفونه، ويراهم الناس ويعرفونهم، وإن جهلوا حقيقة وساطتهم للمهدي عليه السلام.

الطريق الثالث:

عمله شخصياً بين الناس، مع افتراض ارتفاع خفاء الشخص عند الحاجة إلى العمل. فيعود خفي العنوان، إلى حين انتفاء العمل.

النقطة السادسة:

قوله: فاتقوا الله جل جلاله، وظاهرونا على انتياشكم من فتنة قد أنافت عليكم، يهلك فيها من حم أجله ويحمى عنها من أدرك أمله.

أمرهم بتقوى الله سبحانه، ومظاهرته - أي المهدي نفسه - بمعنى معاونته على انتياشهم أي إخراجهم وإنقاذهم من فتنة قد أنافت أي أشرفت عليهم. يهلك فيها من حم أجله، يعني حل وقت موته، ويحمى فيها من أدرك أمله، وهو البقاء في الحياة.

وليست هذه الفتنة التي توجب الهلاك، إلا ما كان يقع من حوادث دامية مؤسفة بين أهل المذاهب الإسلامية.

وإن من أهم المهام التي يستهدفها المهدي عليه السلام الحيلولة دون وقوع هذا الشر ودفع هذا العداء، ولذا نسمعه يأمر قواعده الشعبية بأن يعينوه في إنجاز عمله وإيصاله إلى نتيجته وأخذهم بزمام المبادرة إلى القيام بما توجبه عليهم مسؤوليتهم من سلوك وما تقتضيه التعاليم من أعمال، حتى ينجوا من الهلكة

ومن الدخول في هذه الفتنة.

النقطة السابعة:

قوله: اعتصموا بالتقية. من شب نار الجاهلية، يحششها عصب أموية، يهول بها فرقة مهدية[١].

وهذا هو المنهج الذي يخططه المهدي عليه السلام للتخلص من هذه الفتنة، وهو مكون من فقرتين:

الفقرة الأولى:

الالتزام بالتقية، بمعنى الاحتياط للأمر واتقاء وقوع الفتن والشر. ومن أهم أساليبه عدم مجابهة أهل المذاهب الإسلامية الأخرى بما يغيضهم ويثير حفيظتهم، حرصاً على جمع كلمة المسلمين، وسيادة الأمن في ربوع مجتمعهم.

وليس الأمر بالتقية جديداً أو مستحدثاً منه عليه السلام، بعد أن كان قد ورد عن آبائه المعصومين عليهم السلام التأكيد عليه. كقولهم عليهم السلام: التقية ديني ودين آبائي... ومن لا تقية له لا دين له... وغير ذلك[٢]. فمخالفة هذا الأمر بشكل يوجب الضرر، مع عدم وجود مصلحة إسلامية مهمة في إحداثه، يعتبر من أشد المحرمات في الإسلام.

ومن ثم نرى المهدي عليه السلام يعبر عن هذه الفتن بنار الجاهلية، بمعنى أنها

---

(١) الظاهر ان قوله: من شب نار الجاهلية، مبتدأ محذوف الخبر، أو شرط محذوف الجزاء لوضوحه، تقديره. فهو عاص أو معاند ونحوهما.

(٢) انظر اخبار التقية في وسائل الشيعة للشيخ الحر العاملي، ج ٢، ص٥٤٥ وما بعدها.

تمثل انحرافاً أساسياً عن الإسلام. ويكون من يثيرها من قواعده الشعبية، مساعداً على هلاك إخوانه المؤمنين.

الفقرة الثانية:

الالتزام بالهدوء، والخلود إلى السكينة وضبط الأعصاب، وعدم التعرض المباشر إلى القلاقل الحادثة. طبقاً لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾(١).

ولذا نراه يقول: أنا زعيم - أي كفيل وضامن - بنجاة من لم يرم فيها المواطن، يعنى مواطن الهلاك، وتجنب الاشتراك الفعلي في القلاقل. وسلك في الطعن منها، يعنى الفتن، والاحتجاج على وقوعها، السبل المرضية في الإسلام بالاعتراض الهادئ وإبداء الرأي الموضوعي الصحيح.

ومن هاتين الفقرتين، نفهم رأي الإمام عليه السلام، في هذه الفتن، ومرارته وأسفه منها، واعتراضه على مسببيها من أهل الإسلام، بما فيهم بعض قواعده الشعبية.

النقطة الثامنة:

قوله عن هذه الفتن: وهي إمارة لأزوف حركتنا، ومباثتكم بأمرنا ونهينا. والله متم نوره ولو كره المشركون.

ولا نستطيع أن نفهم من ذلك، بطبيعة الحال، أنه عليه السلام سوف يظهر بعد هذه الفتن فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً. لأن ذلك لم

(١) سورة الفرقان: ٧٢.

يحدث، فلا يمكن أن يكون الإعراب عن حدوثه مقصوداً للمهدي عليه السلام. على أن مقتضى القواعد العامة التي عرفناها، عدم إمكان الظهور في ذلك العصر لعدم توفر شرائطه ومن أهمها كون الأمة على مستوى التضحية الحقيقية في سبيل الإسلام وقيادة العالم كله بالعدل الكامل... وهو ما لم يكن متوفراً يومئذ بكل وضوح. وسيأتي في القسم الثاني من هذا التاريخ مزيد توضيح لذلك.

ومن هنا احتاجت هذه العبارة من الرسالة إلى تفسير.

وما يمكن أن يكون فهماً كافياً لها، طبقاً لأطروحة خفاء العنوان، أحد تفسيرين:

التفسير الأول:

أن يكون المراد من الحركة، انتقاله من العزلة إلى المجتمعات، ومن البراري والجبال إلى المدن. باعتبار ما دلت عليه الرسالة نفسها من الاعتزال، وما قلناه من أن ذلك - لو صح - فهو خاص ببعض الفترات الأولى من الغيبة دون الفترات المتأخرة. ومعه يكون من المحتمل أن يكون المهدي عليه السلام عازماً على رفع اليد عن الاعتزال في ذلك العصر.

وإذا ورد المجتمعات، عاش فيها بشخصيته الثانية لا محالة. وعلى أي حال، تكون فرص العمل بالنسبة إليه أوسع وأثر أعماله أعمق. ولعل هذا هو المراد من قوله: ومباثتكم بأمرنا ونهينا... يعني إعطاؤه التوجيهات، لكن لا بصفته الحقيقية، بل بشخصيته الثانية.

وهذا التفسير محتمل على أي حال، لولا ما قد يوجد في التفسير الآتي

من مرجحات.

التفسير الثاني:

أن يكون المراد من الحركة ظهوره وقيامه في اليوم الموعود. لكن بشكل لا يراد ظهوره في عصر إرسال هذا الكتاب، ليكون إخباراً غير مطابق للواقع.

بل يكون المراد ظهوره عليه السلام بعد تلك الفتن ولو بزمان طويل. وهو معنى جعل تلك الفتن من علامات الظهور، وسنعرف في القسم الثالث من هذا التاريخ، أنه لا ضرورة لافتراض أن تكون العلامة قبل الظهور مباشرة، بل من العلامات ما يكون سابقاً على الظهور بكثير. ويكون هذا من ذاك.

وقد يرد إلى الذهن في مناقشة ذلك: أن هذا مخالف لظاهر عبارة الرسالة، فإنه يقول: وهي إمارة لأزوف حركتنا، ولا يقال: أزف الشيء إلا قرب زمان حدوثه. فكيف يمكن افتراض زمان طويل.

والجواب على ذلك: أننا يمكن أن نفهم من الفتن المشار إليها كإمارة على أزوف الحركة، مفهوماً عاماً تشمل كل الانحرافات والمظالم في عصر الغيبة الكبرى، ومن المعلوم أن هذه المظالم لا تنتهي إلا عند الظهور، إذن فيكون انتهاؤها إمارة مباشرة للظهور. والله العالم بحقائق الأمور.

النقطة التاسعة:

قوله: إذا حل جمادي الأولى من سنتكم هذه، فاعتبروا بما يحدث فيه، واستيقظوا من رقدتكم لما يكون في الذي يليه. وهو شيء لم نستطع أن نتبينه من التاريخ، وهو لم يحص من الحوادث إلا القليل. نعم: سوى بعض الحوادث «الطبيعية» التي سنشير إليها في النقطة القادمة.

النقطة العاشرة:

قوله: ستظهر لكم في السماء آية جلية، ومن الأرض مثلها بالسوية.

وظاهر سياق التعبير، كون هذه الآيات تظهر في جمادي الأولى أيضاً من نفس العام، وهو سنة ٤٠١ للهجرة.

أما ما حدث في الأرض، فقد حدثنا التاريخ أنه في النصف من جمادي الأولى من هذا العام فاض البحر المالح وتدانى إلى الأيلة ودخل البصرة بعد يومين[١].

وأما ما حدث في السماء، فهو ما سمعناه من تتابع سقوط النيازك الضخمة، المعبر عنها في لغة المؤرخين بالكواكب... ويحدث عند سقوطها صوت شديد وضوء كثير، كالذي حدث عام ٤١٧، كما سمعنا فيما سبق.

وهو وإن لم يكن في نفس عام إرسال الخطاب، إلا أننا قلنا بأن هذا الخطاب، حيث أنه موجه لمجموع القواعد الشعبية المهدوية، إذن فمن الممكن أن يتأخر الحادث الموعود عدة سنوات لكونها قليلة بالنسبة إلى عمر الأمة الطويل.

فإن قال قائل: أن هذا مخالف لظهور العبارة الذي فهمناه من السياق وهو حدوث الآيات السماوية والأرضية في جمادي الأولى من نفس العام، وهو عام ٤١٠.

يكون الجواب عليه: أننا بين أحد أمرين: الأول: رفع اليد عن هذا الظهور، في حدود الآية السماوية، فإنه يكفي في صدق السياق كون الآية

(١) هامش الكامل، ج ٧، ص٣٠٣.

الأرضية واقعة في نفس الموعد. والثاني: أن نفترض أن جمادي الأول في نفس العام وقعت فيه آية سماوية غير منقولة في التاريخ.

النقطة الحادية عشر:

قوله: ويحدث في أرض المشرق ما يحزن ويقلق.

ولسنا نعاني كثيراً في فهم ذلك، إذا عرفنا أن هذا الكتاب ورد العراق، إلى الشيخ المفيد قدس الله روحه، فالمراد بالمشرق - إذن - ما كان في شرق العراق، وهو إيران نفسها... دولة البويهيين ومركز ثقلهم يومئذ. وكانت تعاني منذ زمن الحروب والحوادث الكثيرة المتكررة التي أوجبت شيئاً فشيئاً تفكك الدولة البويهية، وضعفها وسيطرة السلاجقة عليها في نهاية المطاف.

على أننا لو راقبنا التاريخ القريب من صدور هذا الكتاب، لرأينا أن همدان تعاني من الحروب عام ٤١١[1] وعام ٤١٤[2]. ومن المعلوم أن الحروب على الدوام مصدر للقلق والحزن، لأنها تكون على طول الخط على حساب الشعب البائس. فإذا لم تكن الحرب عادلة ولم يكن للشعب فيها نصيب حقيقي، كان ذلك ظلماً كبيراً وجوراً عظيماً.

النقطة الثانية عشرة:

قوله: ويغلب من بعد على العراق طوائف عن الإسلام مراق، تضيق بسوء فعالهم على أهله الأرزاق. ثم تنفرج الغمة ببوار طاغوت من الأشرار، ثم يستر بهلاكه المتقون الأخيار.

---

(١) الكامل، جـ ٧، ص٣٠٧.

(٢) المصدر، ص٣١٣.

يعني يسيطر بعد الحوادث السابقة من قلاقل طائفية وآيات سماوية وأرضية، يسيطر على العراق أقوام خارجين عن تعاليم الإسلام. وفي ذلك تعريض واضح بالسلطان طغرل بك أول ملوك السلاجقة، وتابعيه، فإنه بعد أن انتهى من تقويض دولة البويهيين في إيران بعد حروب مدمرة، قصد العراق فدخل بغداد عام ٤٤٧[١].

وترتب على دخوله فيها قلاقل وحروب مؤسفة وعم الخلق ضرر عسكره وضاقت عليهم مساكنهم، فإن العساكر نزلوا فيها، وغلبوهم على أقواتهم وارتكبوا فيها كل محذور[٢].

وأما قلة الأرزاق وغلاء الأسعار، فحدث عنها ولا حرج... إذ نسمع التاريخ يخبرنا أنه قد كثر الغلاء وتعذرت الأقوات وغيرها من كل شيء، وأكل الناس الميتة، ولحقهم وباء عظيم، فكثر الموتى بغير غسل ولا تكفين، فبيع رطل اللحم بقيراط وأربع دجاجات بدينار. وسفرجلة بدينار ورمانة بدينار، وكل شيء كذلك[٣].

وبقي هذا الغلاء عدة سنوات، بل استمر في التصاعد... ففي عام ٤٤٩ زاد الغلاء ببغداد والعراق... وأكل الناس الميتة والكلاب وغيرها، وكثر الوباء حتى عجز الناس عن دفن الموتى، فكانوا يجعلون الجماعة في الحفيرة[٤].

أما الخليفة في بغداد، فكان يعيش جواً آخر بعيداً عن الغلاء والوباء. فقد أكرم طغرل بك إكراماً عظيماً ومكنه من بلاده تمكيناً أسبغ عليه صفة الشرعية،

(١) الكامل، جـ ٨، ص٧٠.

(٢) المصدر، ص٧٧.

(٣) المصدر، ص٧٩.

(٤) المصدر، ص٨١.

حين قال له: إن أمير المؤمنين شاكر لسعيك حامد لفعلك مستأنس بقربك. وقد ولاك جميع ما ولاه الله من بلاده ورد عليك مراعاة عباده، فاتَّقِ الله فيما ولاك واعرف نعمته عليك في ذلك واجتهد في نشر العدل وكف الظلم وإصلاح الرعية.

فقبل الأرض، بين يدي الخليفة. وأمر الخليفة بإفاضة الخلع عليه. فقام إلى موضع لبسها فيه وعاد وقبل يد الخليفة ووضعها على عينيه وخاطبه الخليفة بملك المشرق والمغرب، وأعطي العهد وخرج.

وأرسل إلى الخليفة خدمة كثيرة منها خمسين ألف دينار وخمسين مملوكاً أتراك من أجود ما يكون ومعهم خيولهم وسلاحهم إلى غير ذلك من الثياب وغيرها[1] فانظر إلى ترف الحكام وبؤس المحكومين، وتسامح الخليفة بدماء المسلمين وأموالهم حين ولى عليهم هذا الظالم العنيد.

فقد كان طغرل بك - بحسب ما وصفه التاريخ -: ظلوماً غشوماً قاسياً، وكان عسكره يغصبون الناس أموالهم وأيديهم مطلقة في ذلك نهاراً وليلاً[2] حتى توفي عام ٤٥٥[3].

فمن هنا نرى بوضوح، انطباق الأوصاف على طغرل بك وعسكره وذويه. فإنهم «طوائف عن الإسلام مراق» باعتبار ما ارتكبوه من المحرمات الصريحة الموجبة للخزي والفضيحة. وقد ضاقت «بسوء فعالهم على أهله الأرزاق» كما سمعنا. إذ من المعلوم كيف تنحدر البلاد إلى وضع اقتصادي رديء، تحت

(١) المصدر، ص٨٠.

(٢) المصدر، ص٩٥.

(٣) المصدر، ص٩٤.

ظل الحروب والقلاقل.

وقد انكشفت الغمة من بعد، ببوار - يعني بموت - «طاغوت من الأشرار» وهو طغرل بك نفسه. وقد أدخل هلاكه السرور على قلوب المتقين الأخيار.

ونفهم معنى انكشاف الغمة بموته، إذا التفتنا إلى التاريخ وعلمنا أنه لم يحدث مثل هذا الغلاء والوباء بعد طغرل بك طيلة حكم الدولة السلجوقية.

النقطة الثالثة عشرة:

قوله: ويتفق لمريدي الحج من الآفاق ما يأملونه منه على توفير عليه منهم واتفاق. ولنا في تيسير حجهم على الاختيار منهم والوفاق، شأن يظهر على نظام واتساق.

وهذه نبوءة صادقة بتسهيل الحج بعد صعوباته التي سمعناها، وانحلال مشاكله. فيتحقق للحجاج من كل البلاد ما يأملونه من الأمن والسهولة.

وتصديق هذه النبوءة واضح جداً في التاريخ. فإنه بالرغم من أنه استمر منع الحج حقبة من السنين، إلا أنه لم ينقل بعد عام ٤١٩ أي منع للحج، مما يدل على أن الطرق قد توفرت للحجاج. فقد تحققت النبوءة بعد عشرة أعوام من صدورها.

وأما حدوث ذلك بمساعي المهدي عليه السلام وجهوده، فهو بمكان من الإمكان، طبقاً لما عرفناه من مسؤولية العمل الإسلامي للإمام المهدي خلال غيبته، بناء على أطروحة خفاء العنوان. فإذا دل الكتاب على تأثر عمل الإمام في سهولة الحج، فلا بد من تسجيل ذلك تاريخياً، لو صلح هذا الكتاب للإثبات التاريخي. ودلالة الكتاب على هذا واضحة حين يقول: ولنا في تيسير

حجهم... شأن يظهر على نظام واتساق.

النقطة الرابعة عشرة:

قوله: فليعمل كل امرئ منكم بما يقرب به من محبتنا، ويتجنب ما يدنيه من كراهتنا وسخطنا، فإن أمرنا بغتة فجأة، حين لا تنفعه توبة ولا ينجيه من عقابه ندم على حوبة.

أمر عليه السلام كل فرد من قواعده الشعبية، بأن يفعل ما يقربه من محبة إمامه ورضاه، ويترك ما يقربه من كراهته وسخطه. وهذا معنى واضح ولطيف، فإن رضى المهدي عليه السلام رضا الله تعالى، وكلما يقرب للمهدي عليه السلام فهو يقرب إلى الله... وذلك بالشعور بالمسؤولية تجاه أحكام الإسلام، والاستجابات الصالحة تجاه الأحداث... كما أن سخط المهدي سخط الله تعالى، وكلما يبعد عنه يبعد عن الله تعالى.

ويعطي المهدي عليه السلام لذلك تعليلاً مهماً حين يقول: فإن أمرنا بغتة فجأة، حين لا تنفعه توبة الخ.

والمضمون العام لذلك، هو: أن الفرد المؤمن بظهور المهدي عليه السلام المتوقع له في كل حين، بغتة وفجأة، يجب أن ينزه نفسه عن المعاصي ويقصر سلوكه على طاعة الله عز وجل، ليكون على المستوى المطلوب عند الظهور. وحيث كان الظهور محتملاً دائماً، فيجب أن يكون الفرد على هذه الصفة دائماً.

وأما إذا بقي الفرد عاصياً منحرفاً سلوكياً أو عقائدياً، ولم ينزه نفسه في أثناء الغيبة، ولم يتب إلى الله تعالى... فسوف لن تنفعه توبته أو ندمه بعد

ذلك. وسيعاقبه الإمام المهدي عليه السلام بعد ظهوره على ما اقترفه من ذنوب، على كل حال، وسيكون عقابه في ذلك المجتمع الإسلامي العظيم خزياً أبدياً له. وبما أن الظهور محتمل على الدوام، إذن فالبدء بعقاب المذنبين محتمل على الدوام، فإذا أراد الفرد أن يحول دون هذا الاحتمال، فما عليه إلا أن يرتدع عن الذنوب، ويكمل نفسه من العيوب.

الناحية السادسة:

في استعراض نص الرسالة الثانية التي رواها الطبرسي[1] مرسلاً عن الإمام المهدي عليه السلام. ولها من قيمة الإثبات التاريخي ما ذكرناه للرسالة الأولى.

بسم الله الرحمن الرحيم

سلام الله عليك أيها الناصر للحق الداعي إليه بكلمة الصدق. فإنا نحمد الله إليك الذي لا إله إلا هو، إلهنا وإله آبائنا الأولين. ونسأله الصلاة على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين، وعلى أهل بيته الطاهرين.

وبعد: فقد كنا نظرنا مناجاتك، عصمك الله بالسبب الذي وهبه الله لك من أوليائه وحرسك به من كيد أعدائه. وشفعنا ذلك الآن من مستقر لنا بنصب في شمراخ من بهماء صرنا إليه آنفاً من غماليل ألجأنا إليه السباريت من الإيمان. ويوشك أن يكون هبوطنا إلى صحصح من غير بعد من الدهر ولا تطاول من الزمان. ويأتيك نبأ منا بما يتجدد لنا من حال، فتعرف بذلك ما نعتمده من

(١) انظرها في الاحتجاج، جـ ٢، ص٣٢٤، ط النجف.

الزلفة إلينا بالأعمال. والله موفقك لذلك برحمته.

فلتكن حرسك الله بعينه التي لا تنام أن تقابل لذلك فتنة تسبل نفوس قوم حرثت باطلاً لاسترهاب المبطلين، يبتهج لذمارها المؤمنون، ويحزن لذلك المجرمون.

وآية حركتنا من هذه اللوثة، حادثة بالحرم المعظم من رجس منافق مذمم، مستحل للدم المحرم، يعمد بكيده أهل الإيمان، ولا يبلغ بذلك غرضه من الظلم والعدوان. لأننا من وراء حفظهم بالدعاء الذي لا يحجب عن ملك الأرض والسماء. فلتطمئن بذلك من أوليائنا القلوب وليثقوا بالكفاية منه، وإن راعتهم بهم الخطوب، والعاقبة بجميل صنع الله سبحانه تكون حميدة لهم ما اجتنبوا المنهي عنه من الذنوب.

ونحن نعهد إليك أيها الولي المخلص المجاهد فينا الظالمين، أيدك الله بنصره الذي أيد به السلف من أوليائنا الصالحين. أنه من اتقى ربه من إخوانك في الدين وأخرج مما عليه إلى مستحقه كان آمناً من الفتنة المبطلة ومحنها المظلمة المضلة. ومن بخل منهم بما أعاده الله من نعمته على من أمره بصلته، فإنه يكون خاسراً بذلك لأولاه وآخرته.

ولو أن أشياعنا - وفقهم الله لطاعته - على اجتماع من القلوب في الوفاء بالعهد عليهم، لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا، ولتعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا على حق المعرفة وصدقها منهم بنا. فما يحبسنا عنهم إلا ما يتصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره منهم. والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل، وصلاته على سيدنا البشير النذير محمد وآله الطاهرين وسلم.

وكتب في غرة شوال من سنة اثنتي عشرة وأربعمائة.

نسخة التوقيع باليد العليا صلوات الله على صاحبها: هذا كتابنا إليك أيها الولي الملهم للحق العلي، بإملائنا وخط ثقتنا. فاخفه عن كل أحد، واطوه، واجعل له نسخة يطلع عليها من تسكن إلى أمانته من أوليائنا شملهم الله ببركتنا إن شاء الله. الحمد لله والصلاة على سيدنا محمد النبي وآله الطاهرين.

الناحية السابعة:

في استعراض المهم مما تتكفل هذه الرسالة بيانه. ويمكن أن يتم ذلك في ضمن عدة نقاط.

النقطة الأولى:

إن الرسالة ذات سياق عام واضح متعمد، في الصدور من جهة عليا إلى جهة أدنى منها. وهي في ذلك أوضح من الرسالة الأولى إلى حد كبير.

وهي بهذا تنحو منحى القرآن الكريم الذي أكد على هذه الجهة بوضوح، في عدد من آياته كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ﴾[١]. وقوله: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾[٢]. وقوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾[٣]. إلى غير ذلك.

فالاثنينية بين المتكلم والسامع محفوظة بكل وضوح، وارتفاع المتكلم على السامع ملحوظ بكل جلاء. وهذا ثابت في هذه الرسالة أيضاً، مع بعض الفروق بين سياقها والسياق القرآني، لا تخفى على الأديب.

(١) الحاقة: ٤٤ - ٤٥.

(٢) الإسراء: ٧٥.

(٣) آل عمران: ١٤٤.

وهذا الإيحاء يعطي زخماً نفسياً معيناً، لا مناص منه حين يراد السيطرة على السامع من الناحية العاطفية والفكرية. كيف وإن السامع في كلا هذين الحالين، يعترف بارتفاع المتكلم عليه بكل خشوع.

النقطة الثانية:

في تعيين محل سكنه عليه السلام، عند إرسال هذه الرسالة.

حيث نرى المهدي عليه السلام - لو صحت الرواية - يعين مستقره أي مسكنه بنصب في شمراخ من بهماء. والنصب هو الشيء المنصوب. والشمراخ رأس مستدير طويل دقيق في أعلى الجبل. والبهماء مأخوذ من المبهم وهو المكان الغامض الذي لا يعرف الطريق إليه. ومعه يكون المراد - والله العالم - أنه عليه السلام يسكن في بيت منصوب على قمة جبل مجهولة الطريق.

ثم يقول: صرنا إليه آنفاً من غماليل، يعني أنه انتقل إلى هذا المسكن الجديد، منذ مدة، من غماليل يعني من منطقة كان يسكنها قبل ذلك، توصف بهذا الوصف. فإن الغماليل جمع غملول وهو بالضم الوادي ذو الشجر الطويل القليل العرض، الملتف، وكل مجتمع أظلم وتراكم من شجر أو غمام أو ظلمة أو زاوية[1]. وقد تلاحظ معي أن كلا الدارين ذات خفاء وغموض، وقابلة لاختفاء الفرد في أنحائها بشكل وآخر.

ثم يذكر سبب انتقاله إلى المسكن الجديد، بأنه «ألجأنا إليه» أي إلى المسكن الجديد «السباريت من الإيمان». والسباريت جمع سبرات وسبروت وسبريت: الأرض التي لا نبات فيها وقيل لا شيء فيها. ومنها سمي المعدم

(١) القاموس المحيط، ج ٤، ص٢٦.

سبروتاً[١]. ومعه يكون لهذه العبارة تفسيران محتملان.

التفسير الأول:

أن نقرأ «الإيمان» بكسر الهمزة، فيكون المراد أن الفقراء أو الفارغين من الإيمان هم الذين ألجأوه إلى اختيار مسكنه الجديد. حيث اقتضت المصلحة نتيجة لتصرفاتهم المنحرفة، أن يزداد المهدي عليه السلام بعداً عن الناس وخفاء في المسكن، فاختار جبلاً ذو قمة خفية ليجعله مسكناً.

التفسير الثاني:

أن نقرأ همزة «الأيمان» بالفتحة، فيكون جمع يمين - ضد اليسار - ويكون المراد بالسباريت: الأرض الخالية من الزرع الموجودة في يمين الطريق. ولعله طريق الحج أو طريق إحدى المدن. وقد ألجأه إلى تركها إلى المسكن الجديد قلة الزرع فيها وصعوبة العيش عليها.

ثم يخبر المهدي عليه السلام بأنه على وشك الانتقال إلى مسكن آخر ثالث. فإنه سيهبط من قمة الجبل إلى صحصح، وهي الأرض المستوية «من غير بعد من الدهر ولا تطاول من الزمان» بل في فترة قريبة وأمد قصير. وهنا لا يجب أن نفترض أن هذه الأرض خالية من النبات والزرع، كتلك الأرض.

ومن هذا السياق نعرف أن المهدي عليه السلام يختار مكانه بعيداً عن المجتمعات، على الدوام. ولعل في هذا امتثالاً للأمر الذي نقله المهدي عليه السلام عن أبيه عليه السلام في رواية ابن مهزيار، وقد سبقت الإشارة إليها أكثر من مرة.

---

(١) انظر المصدر، ج ١، ص١٤٩ وغيره

وهذا لا ينافي أطروحة خفاء العنوان إذ قد يكون المهدي عليه السلام ظاهراً بالشخص مختفياً بالعنوان ساكناً الأماكن المنعزلة في العالم. وقد سبق أن عرفنا أن هذا أكثر وضوحاً وإمكاناً في أول الغيبة، وأما ما بعد ذلك فالحاجة إليه منتفية، بل قد يكون مخالفاً لبعض تطبيقات تكاليفه عليه السلام.

وبالرغم من تصريحاته عن مكانه، إلا أننا لا نجد أنه قد ذكره على وجه التعيين، وإنما ذكر - في الحقيقة - عنواناً كلياً يمكن انطباقه على كل قمة وكل واد. ولم يصل في الوضوح إلى حد لو بحث الإنسان عن مكانه لوجده.

ونلاحظ بوضوح أن المهدي عليه السلام يعين مكانه بعبارات لغوية قديمة تكاد تكون مندرسة الاستعمال... لا يريد أن يسوقها مساقاً واضحاً، حتى لا يفهمها من يطلع عليها، إلا إذا كان من خاصة الناس في العلم والاطلاع. وهذه خطوة إلى تلافي بعض احتمالات الخطر المحتملة الوقوع على تقدير الاطلاع على هذا الخطاب.

وعلى أي حال نرى المهدي عليه السلام يعد الشيخ المرسل إليه، بأن يوصل إليه أنباءه فيما يتجدد له من حال. ولعل المراد المباشر لذلك، هو إخباره بانتقاله إلى المكان الجديد في الصحصح، ولكن العبارة أعم من ذلك، تشمل كل ما يريد الإمام المهدي عليه السلام تبلغيه إلى الشيخ المفيد، مما يتخذه من رأي أو يذهب إليه من مكان، بمقدار المصلحة والإمكان.

ومن هنا قال له: فتعرف بذلك ما نعتمده من الزلفة إلينا بالأعمال. يعني أن مواصلتك بالمراسلة ستطلعك على الأعمال نحمدها ونعتبرها صالحة ومقربة إلينا.

فهذه العبارة واضحة الدلالة على عزم الإمام المهدي عليه السلام على تكرار

المراسلة مع الشيخ المفيد، ولعل ذلك قد حدث ولم يصلنا خبره، ولعله لم يحدث لأن الشيخ توفى بعد هذه الرسالة بعام واحد.

النقطة الثالثة:

فلتكن حرسك الله بعينه التي لا تنام أن تقابل لذلك فتنة، تسبل نفوس قوم حرثت باطلاً لاسترهاب المبطلين، يبتهج لذمارها المؤمنون، ويحزن لذلك المجرمون.

وهو توجيه عام من المهدي عليه السلام إلى الشيخ المفيد وغيره من إخوانه في كل جيلٍ... بأن يقابل أي يقف ضد الفتنة التي تسبل أي تستبيح نفوس قوم حرثت باطلاً، أي خاضت غمار الباطل في أرض صالحة لذلك. وهي إنما تستبيح نفوسهم في انصهارهم فيها، وسيرهم مع تيارها.

وإنما يكون على المفيد أن يقف ضد الفتنة، من أجل استرهاب المبطلين وتخويفهم لأجل ردعهم عن الباطل وصرفهم إلى طريق الحق. وقوله: لذلك. أي باعتبار ما نعتمده من الزلفة إلينا من الأعمال.

فيكون المراد لزوم العمل لكفكفة الظلم وردع الفتن التي تؤسس الأراضي الصالحة لنمو المفسدين والمجتمعات المنحرفة التي تربي المنحرفين. ليكون ذلك من الأعمال الصالحة التي يعتبرها ويحمدها بصفتها من أعظم المقربات إلى الله، وأحسن التطبيقات للعدل الإسلامي.

وإنما سمي الظلم فتنة، باعتبار أنه محك الامتحان الإلهي لنفوس البشر وإيمانهم، لكي يمحصوا به ويميزوا، فيحيى من حيى عن بينة ويهلك من هلك عن بينة. وقد ذكرنا أن هذه الفتن والظلم، كما توجب قوة انحراف المنحرفين

توجب أيضاً قوة إيمان المؤمنين... فتوجد بذلك شرط الظهور. وقلنا ان الجهاد ضد الظلم مما يوجب تزايد قوة الإرادة والوعي لدى المؤمنين المخلصين ويصعد معنوياتهم، مما يعجل بتحقيق شرط الظهور. ومن هنا نرى المهدي عليه السلام يأمر الشيخ المفيد وسائر إخوانه من الأجيال، بهذا الجهاد الإيماني الكبير.

ومن هنا نفهم ان الفتنة المذكورة في هذا التعبير، ليست إشارة إلى حادثة تاريخية معينة حتى نبحث عنها في التاريخ العام... كما عملنا في الرسالة السابقة. وإنما هي عبارة عن الانحراف العام الذي يصيب المجتمع على مر الأجيال خلال عصر الغيبة الكبرى، ذلك الانحراف الذي يزيله المهدي عليه السلام بعد ظهوره.

ثم أن المهدي عليه السلام في رسالته يذكر: أن الجهاد ما يؤثره من استرهاب المبطلين وردعهم عن باطلهم... يبتهج لذمارها - أي لدفعها ومحاربتها -[1] المؤمنون ويحزن لذلك المجرمون.

النقطة الرابعة:

إعطاء المهدي عليه السلام علامة من علامات ظهوره وإمارة من إمارات حركته.

وهي: أنه ينتج من هذه اللوثة - وهو تعبير عن الفتنة - حادثة عظيمة مؤسفة وجرم كبير، من رجس منافق مذمم، مستحل للدم المحرم. يعمد - أي يتعمد - بكيد أهل الإيمان، ولا يبلغ بذلك غرضه من الظلم والعدوان.

(١) كما هو أحد معاني الذمار في اللغة، وهو الحث على الحرب والدعوة إليها وقد استعمل هنا مجازاً.

والمراد: أنه ينتج من هذه الفتنة التي يعيشها المجتمع، أن أحد المنحرفين المنافقين، يريد أن يتعمد إلى أهل الإيمان بالكيد والضرر، فيغتال أحد المؤمنين، بهذا القصد. وبالرغم من أن هذا المؤمن سوف يذهب إلى ربه، إلا أن القصد الأساسي لذلك المجرم سوف لن يتحقق، وسيبقى المؤمنون على أمنهم واستقرارهم نتيجة للطف المهدي عليه السلام ودعائه لهم بدفع الشر، ذلك الدعاء الذي لا يحجب عن ملك الأرض والسماء.

ونتيجة لذلك يقول المهدي عليه السلام في رسالته: فلتطمئن بذلك من أوليائنا القلوب، وليثقوا بالكفاية منه، وان راعتهم بهم الخطوب. . .

ولهذه الفقرة، معنى آخر محتمل، يختلف قليلاً عما ذكرناه، وهو أن لا تكون الحادثة الموعودة من قبل الظالمين، هي حادثة قتل، وإنما هو تخطيط اجتماعي، لإيقاع المؤمنين في الضرر والضيق، يقوم به شخص منافق مذمم، مستحل للدم المحرم. ولا يكون استحلاله للدم في هذه الحادثة بالتعيين، بل المراد أن من شأنه ذلك أو له فيه سوابق. إلا أن هذا التخطيط، سوف لن يصل إلى هدفه، نتيجة لدعاء المهدي عليه السلام.

وعلى أي من المعنيين، لم نستطع أن نتبين الحادثة المشار إليها في هذه الفقرة. . . من التاريخ العام أو الخاص. فإنه ما أكثر الشهداء المغتالين في سبيل الله تعالى كالشهيد محمد بن مكي الملقّب بالشهيد الأول والشهيد زين الدين العاملي الملقب بالشهيد الثاني والقاضي نور الله التستري الملقب بالشهيد الثالث في ألسنة البعض. . . وغيرهم. . . وما أكثر المؤامرات الفاجرة التي تحاك ضد المجتمع المؤمن، ولا يكون فشلها إلا بدعاء الإمام عليه السلام وعمله.

وقد سبق أن قلنا أن الدعاء النافذ المستجاب، يعتبر من أحسن الأعمال النافعة الخيرة على الصعيدين الفردي والاجتماعي، ومن أبعدها أثراً وأفضلها

نتيجة.

وبذلك ينجو المؤمنون من المكائد، فليطمئنوا وليثقوا بدعاء إمامهم - كما أمر إمامهم -، فإن عاقبتهم ستكون إلى خير... إذا التزموا بالسلوك الصالح والعمل الصحيح.

النقطة الخامسة:

إيصاؤه عليه السلام بالإصلاح الشخصي للنفس، الذي هو الحجر الأساس لإصلاح المجتمع، ولنجاة الفرد والمجتمع من الفتن المظلمة المضلة، ونجاحه المؤزر في الامتحان الإلهي الكبير. وبدون ذلك يكون الفرد قد خسر أساسه الإيماني الصحيح، وانحرف انحرافاً حاداً يخسر به دنياه وآخرته.

ومن هنا نرى المهدي عليه السلام يؤكد على وجوب دفع الحقوق المالية الإسلامية إلى مستحقيها، ومن أمر الله تعالى بصلته وهم الفقراء والمحتاجون. وإنما خصها بالذكر لعلمه عليه السلام بأن قواعده الشعبية تؤدي - عادة - الفرائض الإسلامية العملية كالصلاة والصوم والحج... فلم يبق لهم من الفرائض، إلا الحقوق المالية التي قد تشح بها بعض النفوس، وتحتاج في أدائها إلى تضحية أكبر.

قال عليه السلام : أنه من اتقى ربه من إخوانك في الدين وأخرج مما عليه إلى مستحقيه، كان آمناً من الفتنة المبطلة ومحنها المظلمة المضلة. ومن بخل منهم بما أعاده الله من نعمته على من أمره بصلته، فإنه يكون خاسراً بذلك أولاه وآخرته.

ومن هنا نفهم أن الأداء الكامل للفرائض الإسلامية، هو المحك في النجاة

عن الانحراف الجارف الذي يودي بالكثيرين خلال عصر الغيبة الكبرى. والسر الأساسي في ذلك: هو أن أداء الفرائض كاملة، مع الارتداع عن جميع المحرمات، مضافاً إلى أنه يمثل السلوك الشخصي الصالح، فإنه - بما يوجبه للفرد من صبر وتضحية على مستوى معين من المصاعب في سبيل الله عز وعلا - يحدث في الفرد قوة في الإرادة والتحمل في مجابهة التيار الظالم وما يستلزمه من إغراء ومخاوف. مما يوجب نجاته منها وبعده عنها، ومن ثم نجاحه في الامتحان الإلهي الكبير، وبذلك يحرز سعادته في الدنيا والآخرة. وبخلاف ذلك، سوف يكون فاشلاً في الامتحان الإلهي «خاسراً بذلك أولاه وآخرته».

مضافاً إلى نقطة أخرى في دفع الحقوق المالية، هي: أن خير ما ينقذ القواعد الشعبية المهدوية في المجتمع المنحرف، وأحسن تخطيط يمكن به كفكفة جماح ما يفرض عليهم من قبل الظالمين من حصار اقتصادي واجتماعي... هو أن يكفل بعضهم بعضاً ويحمل بعضهم همّ بعض، وذلك بالالتزام بدفع الحقوق الإسلامية المالية التي فرضها الله تعالى، فإنها كافية لتنفيذ هذه الكفالة ووافية بهذا الضمان. وبهذه الحقوق - أيضاً - يمكن وضع البرامج الاجتماعية الوقتية لدفع ظلم أو لتربية جيل أو لقضاء بعض الحاجات.

النقطة السادسة:

إيصاؤه بالإصلاح العام الذي هو أكبر وأهم من الإصلاح الشخصي، والذي به يتحقق شرط الظهور، ويجعل الأمة على مستوى المسؤولية التي يؤهلها للتيمن بلقاء الإمام المهدي عليه السلام، وتحمل مسؤوليات ظهوره.

وهذا الإصلاح العام، يعبر في حقيقته عن ضرورة اجتماع أشياعه - وهم

أتباعه - . . . عقلاً وقلباً. . . عقيدة وعاطفة وسلوكاً، في الوفاء بالعهد المأخوذ عليهم، في إطاعة أوامر الإسلام ونواهيه، وامتثال قادة الإسلام ومتابعتهم. ومن الواضح أن هذا الاجتماع على الطاعة هو أوسع وأهم من الطاعة الفردية، وأكثر إنتاجاً بشكل غير قابل للمقايسة. وهو الذي يمثل العمل المشترك لتبليغ الإسلام وتطبيقه، والجهاد المشترك ضد أنحاء الظلم والطغيان والعدوان.

وهذا الاشتراك والتضامن، لهو أقوى الأسباب لتحقق الإرادة لدى الأفراد، ولتربية الوعي والشعور بالمسؤولية فيهم. . . وهو الشرط الأساسي للظهور. . .

ومن ثم نرى المهدي عليه السلام يرتب على هذا الاجتماع أثره الحقيقي، ويستنتج منه نتيجته الطبيعية. . . فإنه لو كان متحققاً: «لما تأخر عنهم اليمن بلقائنا، ولتعجلت لهم السعادة بمشاهدتنا». تلك السعادة الناتجة من العدل الكامل الذي يتكفل المهدي عليه السلام تطبيقه على العالم كله.

«على حق المعرفة وصدقها منهم بنا». وهذه العبارة تدل على أطروحة خفاء العنوان، التي اخترناها، باعتبار أن المهدي عليه السلام خلال غيبته معروف بالشخص مجهول الهوية والحقيقة، وإنما هو معروف بشخصيته الثانية. وأما بعد الظهور فتصبح المعرفة حقاً وصدقاً، يعني سوف يعرف الناس شخصه وحقيقته وانطباع العنوان على الشخص بوضوح.

ولو كانت أطروحة خفاء الشخص صادقة، لكانت هذه العبارة في غير محلها، ولكفت البشارة بحدوث المشاهدة بعد انعدامها عند الظهور.

«فما يحبسنا عنهم» أي يؤخر الظهور «إلا ما يتصل بنا مما نكرهه ولا نؤثره عنهم» من المعاصي والتقصيرات وعدم الشعور بالمسؤولية الإسلامية.

وهذا يدل على أمرين مهمين، سبقت الإشارة إليهما، ولكن يكون في هذا الكلام من المهدي عليه السلام زيادة في الاستدلال عليهما:

الأمر الأول: كون المهدي عليه السلام مطلعاً على الأخبار مواكباً للأحداث يشعر بآلام وآمال أمته وقواعده الشعبية.

الأمر الثاني: إناطة الغيبة بذنوب الناس وعصيانهم. فمتى لم يكن هناك ذنب، لم يكن للغيبة سبب، فتتحول إلى الظهور. وهو معنى ما قلناه من أن الفرد إذا كان عالياً في الوثاقة كاملاً في تطبيق الإسلام، فإن المهدي عليه السلام لا يحتجب عنه مرة أو مراراً، بل قد يكون ذلك على الدوام، كما سبق أن فصلناه.

القسم الثاني
في تاريخ الإنسانية في عصر الغيبة الكبرى

فيما يرجع إلى الحوادث والصفات التي تكون للإنسانية عامة أو للمجتمع المسلم أو للقواعد الشعبية الإمامية خاصة. من حيث مقدار تمسكهم بالدين وما يترتب على ذلك من نتائج... وما هو تكليفهم الواعي الصحيح أثناء الغيبة الكبرى.

وينقسم الكلام في هذا القسم إلى ثلاثة فصول رئيسية:

أولها: في تمحيص الأخبار الواردة في هذا الصدد، وفرزها عما سواها من حيث المورد والمفهوم... وإعطاء القواعد العامة في فهمها.

وثانيها: فيما دلت عليه الأخبار من حوادث وصفات للناس، تخص مقدار تمسكهم بالدين وبتعاليم الإسلام.

وثالثها: فيما هو التكليف الواعي للناس خلال عصر الغيبة الكبرى.

الفصل الأول

في تمحيص الأخبار التي نريد الاستشهاد بها في هذا القسم، وتمييزها عما سواها من حيث المورد والمفهوم، وإعطاء القواعد العامة في فهمها. وذلك قبل الدخول في سر تفاصيلها في الفصل الآتي إن شاء الله تعالى

وينبغي أن يقع الكلام حول ذلك في عدة جهات:

الجهة الأولى:

في تمحيص هذه الأخبار، وتشخيص حاجتنا في الاستدلال بها.

فإننا إذ نريد أن نعرف المستوى الديني، لأي مجتمع، في أي عصر، نرجع - عادة - إلى تاريخ ذلك العصر لاستعراض ما فيه من حوادث وآثار تدل على ما كان عليه المجتمع من مستوى ديني وشعور بالمسؤولية الدينية. وهذا طريق صحيح، لو استطاع التاريخ أن يسعفنا بما نحتاجه من حقائق ومستمسكات.

ولكن ما نعرفه - عادة - من تأريخ، يتصف بالنقص - حتماً - بما لا يقل عن ثلاث جهات:

الجهة الأولى:

إسقاطه لبعض الحوادث التاريخية، وعدم التعرض لها، بأي دافع من الدوافع. . . وتاريخنا الإسلامي مليء بمثل هذه الفجوات.

الجهة الثانية:

عدم الموضوعية في شرح الحادثة. ووجود الاحتمال - على أقل تقدير - في أن يكون المؤرخ قد غير منها شيئاً لكونه يميل عقائدياً أو عاطفياً مع أحد الأشخاص التاريخيين دون الآخر.

الجهة الثالثة:

عدم التعرض لحوادث المستقبل. وهذا ضروري الوقوع في كل تاريخ، لأن المستقبل مجهول، إلا بنحو الحدس أو علم الغيب.

أما الجهتين الأولى والثانية، فيمكن دفع تأثيرهما والحد من ضررهما، إلى حد كبير، لدى المقارنة بين مصادر التواريخ وأقوال المؤرخين، حتى يحصل للفرد الباحث وثوق وقناعة بحصول الحادثة أو عدم حصولها. وخاصة بعد استيعاب سائر وجهات نظر المؤرخين ومذاهبهم.

وأما الجهة الثالثة: فيستحيل - عادة - مَلْؤُهَا في التاريخ الاعتيادي للبشر أياً كانوا. . . فيبقى المستقبل المجهول، فجوة تاريخية شاغرة أمام الناظر يحار في تشخيصها وترتيبها.

وهنا ينفتح وجه الحاجة إلى الروايات التي نحن بصددها، فإنها تتنبأ عن حوادث المستقبل مروية عمن لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، وعن

خلفائه المعصومين عليهم السلام . . . بطرق متواترة لا يقبل مجموعها التشكيك . . . وإن كانت كل رواية منها ظنية على أي حال، وقابلة للمناقشة أحياناً. كما سمعنا مثل ذلك في أخبار المشاهدة، مع فرق مهم هو أن الروايات الواردة في المقام أضعاف روايات المشاهدة، على ما سنعرف صورة منه في الفصل الآتي.

على أن جملة منها يحتوي على التنبؤ بحوادث قد حدثت فعلاً خلال الزمان، على ما سنعرف، وقد صدر التنبؤ بها قبل حدوثها بزمن طويل . . . وهو شاهد على صدقها وصدق قائلها وعلى ارتباط القائل بالله عز وجل بشكل وآخر، فإن كل علم غيب لا بد أن يكون مستقى من علام الغيوب.

ومعه فتكون هذه الروايات، صالحة لملء الفجوات التاريخية التي أهملها التاريخ، أو لم يكن موضوعياً تجاهها. ولكنها - على أي حال - تحتوي على بعض المصاعب، لا بد من استعراضها، واستعراض ما يمكن أن يكون منهجاً لتذليل تلكم المصاعب.

مصاعبها:

تتلخص المصاعب في نقطتين رئيسيتين، من حيث أن الطعن تارة يتوجه إلى السند أي إلى وثاقة الرواة وصدقهم. ويتوجه إلى الدلالة، أي إلى ما نفهمه من النص المروي تارة أخرى.

النقطة الأولى:

فميا يرجع إلى السند. ولئن كانت القاعدة العامة في الروايات هي التأكد من وثاقة الراوي والتزامه الصدق في المقال قبل قبول روايته . . . فإن الروايات التي نحن بصددها أشد خطراً في هذا المجال، من أشكال الروايات الأخرى.

من حيث أن احتمال الوضع والتحريف أكثر بكثير مما هو في سائر الروايات. وذلك باعتبار عدة أمور:

الأمر الأول:

احتمال الوضع. فإن الكاذب قد يخشى الوضع عندما يخاف الافتضاح، عند وضوح عدم مطابقة روايته للواقع. وخشية الافتضاح متوفرة - عادة - في سائر موارد الروايات، إلا أنها في روايات التنبؤ أقل منها في غيرها من عدة نواحٍ:

الناحية الأولى:

إن هذه الروايات تتنبأ عن حوادث مغرقة في المستقبل السحيق الذي لا يمكن أن تتأكد من صدقه الأجيال. ومعه تبقى الرواية محتملة الصدق دهراً طويلاً جداً، أكثر مما يطمع به الكاذب. وفي كل جيل إن لم تحدث الحادثة الموعودة يقال: لعلها في الأجيال القادمة، ومعه يبقى كذب الراوي سراً غير قابل للكشف.

الناحية الثانية:

إن جملة من هذه الروايات - على ما سنسمع - ذو بيان رمزي وعبارات ذات درجة كبيرة من السعة والإبهام، بحيث يمكن أن تنطبق العبارة على عدة حوادث محتملة. ومعه فيقول كل جيل: لعل المقصود هذه الحادثة ولعل المقصود حادثة أخرى آتية... ويبقى الكذب سراً غير قابل للكشف.

الناحية الثالثة:

إن جملة من هذه الروايات، يحتمل - على أقل تقدير - أن تكون قد وضعت بعد حدوث الحوادث، ونسبت إلى قائل سابق على الحدوث. ومعه

قد يجدها الفرد الباحث مطابقة للواقع، مع أنها مكذوبة. ومن الطبيعي أن يكون شعور الكاذب بمطابقة روايته للواقع ما يهوّن لديه خوف الافتضاح إلى حد كبير.

الأمر الثاني:

النقل بالمعنى. وهذا ليس محتملاً فحسب، بل هو معلوم التحقق في كثير من الأخبار.

والنقل بالمعنى، لا يكاد يكون مضراً في الروايات الاعتيادية، كالروايات المتعرضة إلى الفقه والفلسفة... فإن اللفظ أو مرادفه، والجملة ومثيلتها، يعطيان معنى متشابهاً إلى حد كبير... واحتمال اختلاف المعنى يكون ملغى ومدفوعاً إذا كان الراوي معلوم الضبط والوثاقة.

وأما في روايات التنبؤ بالمستقبل، فليس الأمر فيها على هذا الغرار. فإنها تصدر في الأعم الأغلب عن قائلها: النبي ﷺ أو غيره رمزية غير واضحة المعنى، بحيث يحتاج فهمها إلى تدقيق. ومن المعلوم أن التعبير عن اللفظ الرامز بلفظ آخر يمسخه مسخاً ويغير معناه تغييراً كلياً أو يكاد.

وهذا الاحتمال لا يدفعه العلم بالوثاقة والضبط في الراوي، بعد جواز النقل بالمعنى شرعاً، واحتمال عدم فهم الراوي للمعنى المرموز إليه، كي يختار المرادف الصحيح لألفاظ الرواية.

الأمر الثالث:

احتمال الإسقاط من ألفاظ الرواية في أثناء تناقلها من قبل الرواة.

فإن القواعد العامة في سائر الروايات، تقتضي إلغاء هذا الاحتمال، باستظهار كون الراوي ناقلاً لجميع الألفاظ، أو لجميع ما يتعلق بالمضمون الواحد من قرائن وخصوصيات. إذا كان الراوي ثقة، إذ لو كان قد أسقط بعض ذلك لكان قد أخل بنقله وبوثاقته في نهاية المطاف. ومعه تكون وثاقته دليلاً على أنه نقل إلينا كل ما يتعلق بالمضمون المعطى في الرواية.

إلا أن ذلك ليس بذي فائدة في روايات التنبؤ بالمستقبل، وذلك من ناحيتين:

الناحية الأولى:

إذا احتملنا وجود قرينة لفظية أو غيرها، لم يفهم الراوي كونها قرينة مغيرة للمعنى أو مؤثرة فيه، فحذفها. والراوي الثقة إنما يتعهد نقل ما يفهم تأثيره من القرائن بطبيعة الحال، دون غيرها. ومعه لا تكون وثاقة الراوي نافية لهذا الاحتمال.

ومثل هذا الاحتمال، لا يكاد يكون موجوداً في الروايات الاعتيادية ولكنه موجود بكل وضوح في الروايات الرمزية، التي قد تخفى معاني ألفاظها، فضلاً عن قرائنها الدقيقة.

الناحية الثانية:

إذا احتملنا أن الرواية كانت متضمنة لنقل أكثر من حادثة واحدة، واحتملنا أن نقل الحادثتين معاً، له تأثير في الفهم الدقيق والصحيح لإحداهما أو لكليهما. في حين لم تكن الرواية التي وصلتنا حاوية إلا لحادثة واحدة.

وهذا الاحتمال لا يمكن إلغاؤه بالعلم بوثاقة الراوي، فإن غاية ما يتعهد به

الراوي الثقة هو أن ينقل كل ما له ارتباط بالمضمون الواحد، وأما إذا كان الإمام عليه السلام أو النبي صلى الله عليه وآله قد أعرب عن مضمونين، فقد يختار الراوي نقل أحدهما دون الآخر، ولا يكون في ذلك اختلال في وثاقته.

واحتمال أن يكون لنقل المضمونين أو الحادثتين معاً دخلاً في المعنى... غير موجود عادة في سائر الروايات. ولكنه موجود في الروايات التي نحن بصددها... بل هو ليس احتمالاً فقط، وإنما نحن نعلم بذلك لعدة أسباب، أهمها: أننا نحتاج في بحثنا إلى الربط بين الحوادث وتشخيص تسلسلها الزمني، ومعرفة اتجاهات أصحابها، ومعرفة التخطيط الإلهي الذي يقتضي كلاً منها. فإذا اطلعنا على الحادثة وحدها لم يكن إلى فهم شيء من ذلك سبيل. وأما إذا اطلعنا عليها منضمة إلى غيرها، أمكننا أن نتوصل إلى ذلك.

إذن فلا بد لنا أن نضع منهجاً لتمحيص هذه الجهات السندية وتذليل مصاعبها، وذلك ما سنعرضه فيما يلي:

منهج التمحيص السندي:

وهو يتضمن جانبين: جانب إيجابي وجانب سلبي، فالجانب الإيجابي يقتضي الأخذ ببعض الروايات والجانب السلبي يقتضي رفض الأخذ بالبعض الآخر منها.

أما الجانب الإيجابي، فهو الأخذ من الروايات بكل مضمون متواتر لفظاً أو معنىً، بحيث يوجب العلم من تجمع الروايات بوقوع الحادثة وصحة النقل. وبكل مضمون مستفيض لفظاً أو معنىً، بحيث يوجب الاطمئنان من تجمع الروايات بصحة النقل ووقوع الحادثة. وبكل مضمون اقترنت به القرائن العامة أو الخاصة، التي توجب العلم أو الاطمئنان بالصدق. وهذا يستدعي - في كثير

من الأحيان - تجميع العديد من الروايات والقرائن على صحة مطلب أو وقوع واقعة.

وهذا ما سنعمله في ما يلي من هذا التاريخ.

وأما الجانب السلبي: فيتلخص بضرورة رفض كل رواية لم تكن من ذاك القبيل، وإن كانت مما يؤخذ بها عادة بحسب الموازين العامة في سائر الروايات، كما لو كانت الرواية ذات سند موثوق... فإننا لا نقبلها ما لم تقم القرائن على صحتها أو تؤيدها غيرها من الروايات.

وبهذا التشدد السندي نستطيع أن نتلافى كل الصعوبات السابقة. إذ مع العلم أو الاطمئنان بصدق المضمون، لا يبقى لاحتمال الوضع أثر، كما لا يبقى لاحتمال النقيصة في المعنى أو اللفظ أو لاحتمال تغير المعنى عند تغير اللفظ، أي أثر. فإن كل ذلك إنما هو حديث عن رواية واحدة لو لوحظت باستقلالها، وأما لو انضمت إلى غيرها فلا معنى لهذا الاحتمال.

كما أن هذا الانضمام يرفع الناحية الأخيرة التي أشرنا إليها، وهو الجهل بترابط الحوادث. فإن الانضمام يجعلنا عالمين بهذا الترابط كما هو واضح.

النقطة الثانية:

من مصاعب هذه الروايات: مصاعب الدلالة.

تتصف روايات التنبؤ بحوادث المستقبل، بشكل عام، بصعوبات في الدلالة والمضمون، بعد الغض عن السند... تلك الصعوبات الناشئة من عدة مناشئ رئيسية، يحتمل وجود واحد منها أو أكثر في كل رواية مروية في هذا الصدد، على ما سنرى.

وينبغي أن نتحدث أولاً، عن السبب الذي أوجب صدور هذه الروايات عن قائليها بشكل رمزي صعب الفهم إلى حد كبير. ثم نتحدث ثانياً عن أسباب الصعوبة بالنسبة إلى فهمنا الخاص بعد أن تكون الروايات قد وصلت إلينا. ومن هنا يقع الحديث في ناحيتين:

الناحية الأولى:

في التحدث عن الأسباب التي دعت النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام للتكلم عن حوادث المستقبل بشكل أقرب إلى الغموض والإبهام. وترك السير - بتعمد واضح - في طريق التوضيح والتفصيل.

وما يمكن أن نتصوره من أسباب ذلك، بحسب ما نستطيع تشخيصه الآن، يمكن إيراده ضمن عدة أمور:

الأمر الأول:

قانون: خاطب الناس على قدر عقولهم.. هذا القانون الذي سبق أن ذكرنا إنه عرفي وصحيح، وقد مشى عليه النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام في سائر كلماتهم.

فلئن كان النبي ﷺ أو الإمام عليه السلام على مستوى إدراك الواقع التاريخي المتحقق بعد ألف عام أو عدة آلاف من السنين، بحيث يرى المستقبل ببعد نظره وتوفيق ربه، كما يرى الحاضر.. فإن البشر لم يكونوا في أي عصر من العصور على هذا المستوى من الفهم على الإطلاق. وغاية ما نرى الحكومات الحاضرة على كثرة مفكريها ودقة سياساتها، إنها تستطيع أن تخطط لخمس سنوات أو عشر سنوات، على نحو محتمل غير مضمون التطبيق الكامل، في الأغلب.

وأما التخطيط وبعد النظر إلى مئات وآلاف السنين، فهو خاص بالله عز وجل ومن ارتضى من رسول ومن علمه الرسول ﷺ من هذا العلم. وهو علم ضروري للأئمة المعصومين عليهم السلام، كي يستطيعوا أن يأخذوا بالتخطيط الإلهي إلى حيز التنفيذ، كما سمعنا طرفاً منه، وسنسمع طرفه الآخر فيما يأتي وعلى أي حال، فالناس قاصرون دائماً عن إدراك مثل هذا العلم وتقبل مثل هذه الأخبار، إذن فلا بد للإمام أخذاً بقانون التفاهم العرفي أن يبرز للناس من الحقيقة ما لا ينافر أفهامهم وما يتناسب مع واقع حياتهم. وحيث أن الواقع المعبر عنه، أوسع وأعمق مما يستطيعون فهمه، إذن فلا بد من اللجوء إلى الرمز والغموض في التعبير، حفظاً لمستوى التفاهم العام.

الأمر الثاني:

إن هناك مصلحة مهمة في جعل الفرد المسلم منتظراً لظهور المهدي عليه السلام في كل حين، ومستعداً نفسياً لتلقي هذا النبأ الكبير... ومن المعلوم أن النبي ﷺ أو الإمام عليه السلام، لو أخبر عن الحوادث بشكل واضح ومفصل، فإن هذا الجو النفسي يتغير إلى حد كبير. فإن الناس سوف يصبحون عالمين بعدم قيام المهدي عليه السلام وظهوره ما دامت تلك الحوادث لم تحدث.

وتنحصر المحافظة على مستوى الانتظار المطلوب، إذا كان الإخبار بالحوادث مشوباً بالغموض والتعميم وإهمال تحديد التاريخ. بحيث يحتمل حدوث الحادثة الموعودة في أي عصر، فيحتمل حينئذٍ ظهور المهدي عليه السلام بعدها في ذلك العصر.

الأمر الثالث:

إننا نحتمل - على الأقل - أن الحوادث لو كانت قد عرضت مفصلة،

لأوجبت فشل التخطيط الإلهي للإعداد لظهور المهدي عليه السلام، لإمكان استغلال المستغلين لها قبل حدوثها، وإمكان تلافي ما يتوقع أن تنتجه من الظلم، واستدرار ما يمكن أن تدره من ربح. وهذا ليس فيه مصلحة. بل إنما يكون التخطيط ناجحاً إذا جاءت الحادثة عفوية وعلى طبق التطور الطبيعي للتاريخ.

إذن فالإغماض عند عرض الحوادث، يعتبر مشاركة فعلية من قبل النبي صلى الله عليه وآله والإمام عليه السلام في إنجاح المخطط الإلهي، لإيجاد شرائط الظهور.

الأمر الرابع:

إن النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام عليه السلام إنما يذكر بعض حوادث المستقبل لمحل استشهاد أو عبرة أو موعظة أو نحو ذلك. إذن فلا بد له أن يقتصر على المقدار الذي يوفي المطلوب، ويكون من المستهجن - عادة - الاستمرار في سرد تفاصيل الحوادث أكثر من ذلك. شأنه شأن القرآن الكريم نفسه، الذي اقتصر من تفاصيل القصص على موضع العبرة ومورد التربية للسامعين، وترك سائر التفاصيل. فكذلك الحال بالنسبة إلى النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام عليه السلام حين يعرب عن حادثة من حوادث المستقبل.

يستثنى من هذا الوجه، الروايات التي تكون بصدد بيان حوادث المستقبل مباشرة كذكر اشراط الساعة أو علامات الظهور. فإنه لا يكون من المستهجن في مثلها الاستمرار في بيان الحوادث. ومعه يكون الغموض مستنداً إلى الوجوه الأخرى.

الأمر الخامس:

أمر فلسفي عقائدي، يعود إلى النبي صلى الله عليه وآله أو الإمام عليه السلام بأن يخبر بما لا يدخله المحو والإثبات، ويهمل ما يحتمل أن يدخله ذلك، لاحتمال ظهور

عدم مطابقته للواقع . . على تفصيل وتحقيق ليس له مجال في المقام.

فإذا عرفنا هذه الأسباب الرئيسية للغموض والإجمال في مداليل الروايات التي نتكلم عنها . . نستطيع أن ندخل، ونحن على بينة من أمرنا، في البحث عن تشخيص المناشئ الرئيسية اللفظية أو المعنوية للغموض، لكي نعود بعدها إلى تشخيص ما يمكن أن يكون ميزاناً لتلافي هذه المناشئ، والخروج عن مصاعبها، وفهم الروايات فهماً مستقيماً صحيحاً.

مناشئ الغموض:

ويمكن عرض أهم هذه المناشئ، فيما يلي:

المنشا الأول:

الرمزية. والمراد بها استعمال المعنى التركيبي أو الجملي، وإرادة معنى آخر، غير ما يفصح عنه اللفظ بوضوح.

وهذا هو الذي يميز الرمز عن الكناية والمجاز، فإنها لا تكون إلا في مفردات الألفاظ أو النسب الكلامية، بخلاف الرمز فإنه يكون - عادة - في الجمل التركيبية.

ومن هنا يمكن أن يكتب الفرد صفحة أو عدة صفحات من الكلام ذات معانٍ معينة، ولكن لا يريد الكاتب أي واحد من المعاني على التحديد، وإنما يرمز بها إلى معان أخرى، لا يمكن التوصل إليها إلا عن طريق قرائن خاصة أو قرائن عامة متفق عليها.

وهذا النحو من الرمز وجد في الكلام العربي القديم. وهو شائع في هذا

العصر في الأدب، وخاصة في مدرسة (الشعر الحر). وهو الذي يفسر لنا عدداً من موارد الغموض في تلك الروايات.

مثاله: التعبير في الروايات بمثل قوله: تفقأ عين الدنيا أو قوله: تخرج من اليمن نار تضيء لها أعناق الأبل في بُصرى. فإن كل ذلك ليس على وجه الحقيقة، وإنما هو رمز عن حوادث أو حركات تاريخية معينة لإيراد التصريح بها أو عرضها بشكل تفصيلي.

ومن المؤسف أن الناس حين غفلوا عن هذا المنشأ، حملوا مثل هذه التعبيرات على معانيها المباشرة الحقيقية. وبعدها انقسموا إلى قسمين: فهناك من الناس من يصدق بما يسمعه ويفهمه من هذه الروايات، ويحملها على المعجزات وخوارق العادات وإن كان يجهل مناشئها ومصالحها. وهناك من الناس من هو مكذب لهذه المعاني ساخط عليها، بل على كل روايات التنبؤ بالمستقبل.

مع إن كلا المسلكين، مما لا حاجة إلى الالتزام به. إما المسلك الأول: فلأن المعجزات لا تكون إلا بقانون - كما سبق أن عرفنا - فلا بد من تطبيق الروايات عليه، قبل الالتزام بمضمونها جملة وتفصيلاً. على إننا لا يمكن أن نحمل مضمون الرواية على المعجزة ما لم نتأكد من فهمها أولاً. وقد عرفنا إنه من المحتمل - على أقل تقدير - أن يراد بها معان أخرى غير ما هو ظاهرها، وقد يكون ذلك معنى لا يمت إلى المعجزة بصلة. ولعل استبعاد الفهم الإعجازي في عدد من الحالات، يكون قرينة على الرمزية، وإمكان حملها على ذلك.

وأما المسلك الثاني: فهو باطل أيضاً، باعتباره منطلقاً من الاعتقاد بتشويش هذه الروايات وغرابة مضامينها، ونحن بعد أن نثبت تنظيمها وصحة مداليلها،

لا يكون لهذا المسلك أي موجب. مضافاً إلى أن كثرة هذه الروايات إلى حد تفوق حد التواتر، يمنع من إنكارها جملة وتفصيلاً كما هو واضح.

نعم، يبقى البحث عن الأمر المرموز إليه بهذا الرمز أو ذاك. ما هو؟ وكيف نعرفه؟ فهذا ما سنبحثه بعد قليل.

المنشأ الثاني:

استعمال مفاهيم معينة ذات مداليل ومصاديق خاصة، بحسب ما يعيشه الناس في عصر صدور الرواية. ومن المؤكد أنهم لم يفهموا منه إلا ذلك. إلا أن النبيﷺ أو الإمامعليه السلام أراد منها مصاديق أخرى، هي المصاديق والتطبيقات التي تكون لهذا المفهوم في عصر حدوث الحادثة التي يخبر عنها.

مثال ذلك: قولهمعليهم السلام: إن المهديعليه السلام يقوم بالسيف. والمراد به قوة السلاح المناسب لعصر الظهور. على حين لم يفهم المعاصرون للنبي أو الإمام إلا السيف نفسه.. ولعلهم أضافوا إليه في مخيلتهم الدرع والرمح أيضاً..!

ومثاله الآخر: إخبارهم عن جيش يخسف به في البيداء، فإنه من المؤكد أنه لم يفهم الناس، حين سماعهم هذا الخبر لأول وهلة، إلا كونه جيشاً محارباً بالسيف على الغرار القديم. مع أن مثل هذا التخيل مما لا موجب له، بل إن الجيش محارب بسلاح عصره لا محالة.

المنشأ الثالث:

الحذف وعدم التعرض إلى التاريخ المحدد تارة وإلى المكان أخرى وإلى أسماء الأشخاص ثالثة.. وإلى أهداف ومناهج وإيديولوجيات الحركات الموعودة في التاريخ، رابعة.. وغير ذلك من الأمور. مما يجعل العلم

المفصل بالحوادث متعذراً إلى حد كبير.

مثاله: التعبير بالنفس الزكية وبالسفياني، وعدم التعرض إلى أسمائهم صراحة. والأخبار بخروج رايات سود من خراسان، أو بوجود طائفتين متحاربتين ودعوتهما واحدة.. مع عدم التصريح بأن دعوة هؤلاء الناس قائمة على حق أو على باطل.. إلى غير ذلك من الأمثلة.

المنشأ الرابع:

سبب نفسي من المطلعين على هذه الروايات من الباحثين، يحمل الفرد على عدم الإذعان والتصديق أو صعوبته بتحقق الحادثة أو صدق الرواية، وإن توفرت فيها شرائط السند، وزالت المناشىء الثلاثة الأولى لغموض الدلالة.

وهذا الاتجاه النفسي له عدة مناشىء.. أهمها ما يلي:

أولاً: احتمال الحذف أو التغيير خلال النقل. فإن اختلال الحرف الواحد بل النقطة الواحدة، فضلاً عن الكلمة والأكثر، مما يخل بالمقصود ويغير المعنى.. وبخاصة في مثل هذا الحقل من المعرفة الإنسانية.

ثانياً: استبعاد وقوع كل الحوادث المخبر بها في مجموع الروايات. فإن كثرة هذه الروايات، كما تجعلها متواترة نعلم بصدق عدد مهم منها.. كذلك تجعلنا نعلم أو نظن - على الأقل - بكذب عدد آخر منها. ومن المعلوم أننا لا نستطيع أن نشخص المعلوم الصدق من معلوم الكذب. فإن كل رواية لو أخذناها لرأيناها محتملة الصدق والكذب.

ثالثاً: عدم التأكد من مطابقة عدد من المعجزات المروية في هذه الروايات، مع قانون المعجزات الذي ذكرناه.. أي عدم التأكد من أن هذه

المعجزات واقعة في طريق إقامة الحجة. ومن المعلوم أنها لو لم تكن واقعة في هذا الطريق، فمقتضى القاعدة نفيها وتكذيب راويها.

وعلى أي حال فهذه هي المناشئ المهمة للغموض والتشكيك في دلالة هذه الروايات. وهناك مناشئ أخرى تكون في مورد دون مورد... لا حاجة إلى التعرض لها.

منهج التمحيص الدلالي:

بعد أن عرفنا هذه المناشئ الرئيسية للغموض والإبهام في روايات التنبؤ عن المستقبل، لا بد لنا أن نعرض منهجاً يذللها وإسلوباً من الفهم يبسط محتواها ويربط بين أجزائها، لكي نتلافى تلك الصعوبات إلى أكبر حد ممكن.

ونبدأ أولاً بمناقشة المنشأ الرابع، لكونه خاصاً بالسامع، أي بأسلوب وصول تلك الروايات إلينا... لكي نتوفر بعدها، إلى مناقشة باقي المناشئ باعتبارها خاصة بالمتكلم الذي صدرت منه هذه الروايات.

والمنشأ الرابع، بعد أن حللناه إلى مصاعب ثلاثة، يزول بطبيعة الحال، بزوال هذه المصاعب وتذليلها، فيرتفع الاستبعاد النفسي عن هذه الروايات، ويكون الأخذ بها قريبا إلى النفس.

وننطلق إلى تذليل هذه المصاعب من التشدد السندي الذي أسسناه برفض كل رواية لا تعضدها القرائن والقواعد، وإنكار كل حادثة لم تتوفر فيها الروايات. فإننا عندئذ سوف لن نشعر بشيء من هذه المصاعب.

أما احتمال الحذف والتغيير، فيرتفع بكل وضوح، لأن المطلوب هو إثبات الحادثة من مجموع القرائن والروايات العديدة. وهذا ما لا يخل به احتمال

التغيير كما هو واضح. وان كان يؤدي بنا إلى خسارة من جهة أخرى، وهي احتمال ان تكون هذه الروايات - مثلا - من القرائن المؤيدة لو كانت مروية على شكلها الواقعي، ولكننا لا نجدها الآن مندرجة في هذه القرائن. وهذه خسارة لا بد منها نتيجة للأخذ بمنهج التشدد السندي. وسنستغني عن أمثال هذه الروايات بروايات أخرى.

واما العلم بعدم صدور بعض الروايات عن النبي ﷺ أو الأئمة المعصومين عليهم السلام. فهو لن يؤثر شيئا بعد تعاضد الروايات والقرائن على الحوادث التاريخية. فحتى لو فرض ان من جملة الروايات التي تشارك في إثبات هذه الحادثة التاريخية أو تلك، هي رواية موضوعة مكذوبة... فإن ذلك لا يضر أصلا باعتبار أمرين: أولهما الاعتماد على الروايات والقرائن الأخرى المثبتة للحادثة. وثانيهما: اننا لا نستطيع ان نشير إلى أي رواية بعينها لنقول انها مكذوبة، ما لم تبلغ إلى درجة الانحراف في الإسلام وتكون مخالفة للقواعد الإسلامية، والمفروض ان مثل هذه الرواية سوف لن تندرج في الاستدلال على وجود أي حادثة تاريخية. إذن، فكل رواية نستدل بها هي محتملة الصدق على أي حال، فتصلح ان تكون قرينة على الحادثة.

واما مسألة عدم مطابقة المعجزة المروية لقانون المعجزات، فلا بد وأن ننظر في كل رواية، فإن كانت مرفوضة عن طريق التشدد السندي... إذن، فهي ساقطة سلفاً، ولا حاجة إلى التعب في التفكير بشأنها.

وأما إذا كانت مروية بالطرق الثابتة بالتشدد السندي، فإن المعجزات المروية عن هذا الطريق، في الأعم الأغلب مطابقة لقانون المعجزات، ولا اقل من انها محتملة الانطباق عليه، بحيث لا يكون هناك يقين بالتنافي بين إثبات هذه الرواية وبين قانون المعجزات. وسنقدم لأمثال هذه الروايات فهما جديدا

يجعل معجزاتها مطابقة للقانون المطلوب.

وان فرض - نادرا - ان صدور الرواية وصدقها كان ثابتا بالتشدد السندي، وكان عدم انطباق المعجزة على القانون معلوما أيضاً... فهذا مما لا يمكن ان يحدث في الواقع. وإنما ينبئنا ذلك عن وجود غموض في الرواية أو نقص في الحادثة، يكون هو الكفيل - لو ارتفع - بإيضاح المطلوب. والله هو الموفق للسداد.

واما المناشئ الثلاثة الأولى، فالمنشأ الثالث منها، وهو احتمال الحذف والتغيير، يرتفع تماما بالتشدد السندي، كما هو واضح. لأن المطلوب الأساسي هو تحصيل القرائن على وقوع الحادثة، لا إثبات صحة رواية معينة يحتمل فيها الحذف أو التغيير.

واما المنشأين الأول والثاني، فقد عرفنا خلال مناقشتهما انهما يشكلان خطوة بنّاءة، لا سبباً من اسباب الفشل. اذ نستفيد من كليهما قاعدة عامة.

اما المنشأ الأول: فالقاعدة المستفادة منه: اننا ان وجدنا الرواية مما يمكن الأخذ بنصها وصراحتها، بمقتضى القواعد العامة والقرائن التاريخية والدينية، إذن، فهي ليست رواية رمزية على أي حال. واما إذا وجدنا الرواية مما لا يمكن الأخذ بنصها وصراحتها بمقتضى القواعد، إذن فهي رمزية، ولا بد ان نفهم من النص معنى منطقيا منظما منسجما مع سائر الأدلة والروايات والقواعد وان خالف هذا المعنى، ما تعطيه الرواية بحسب الظاهر.

ويتم تعيين المعنى طبقا لإحدى خطوات ثلاثة:

الخطوة الأولى:

ان الرواية لا يمكن ان تحمل على الرمز ما لم يثبت عدم أمكان حملها

على المجاز أو الكناية. لأن رفع اليد عن المعنى الظاهر من اللفظ المفرد أولى من رفع اليد عن المعنى الظاهر من الجملة التركيبية. فإن لم يمكن في الرواية هذا الحمل، تعين الحمل على الرمزية في المعنى التركيبي.

الخطوة الثانية:

ان الرمز أو المجاز، ان كان محتملا لأكثر من معنى، فلا بد من الحمل على اقرب المعاني المحتملة إلى المدلول المطابقي أو الظاهر. بحيث يكون منسجما معه على أي حال. ومعه فلا بد من الإعراض عن المعاني الأخرى وإهمالها.

الخطوة الثالثة:

يتعين المعنى - كما علمنا - طبقا لانسجامه مع القواعد العامة والقرائن المتجمعة، فإنها هي الفيصل النهائي في ذلك على كل تقدير.

واما المنشأ الثاني، فالقاعدة العامة المستفادة منه هي: عدم إمكان حمل الألفاظ على مصاديقها القديمة التي فهمت منها عند صدور النص. بل لا بد لنا من ان نفهم النص في حدود دلالته على الحادثة التي تقع في المستقبل. اذ من المعلوم ان الزمن كفيل بتطوير المصاديق جيلا بعد جيل.

كما لا ينبغي ان نفهم الروايات بمفاهيم جيلنا الحاضر، على وجه التحديد، بل لا بد لنا ان نتصور لها مفاهيمها الخاصة ومصاديقها حين حدوثها، متى تحقق وقته. ولعل وقتها لن يحصل إلا بعد مئات السنين.

فهذا تمام الكلام في المصاعب الدلالية. وبه تنتهي الجهة الأولى من هذا الفصل.

* * *

الجهة الثانية:

في أقسام روايات التنبؤ بالمستقبل بشكل عام، وتحديد ما يدل منها في محل البحث من هذا القسم الثاني من هذا التاريخ.

تنقسم هذه الروايات من نواحٍ ثلاث، تختلف باختلاف الاعتبارات الملحوظة فيها:

الناحية الأولى:

انقسامها من حيث توزيعها على الزمن، باعتبار ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا... إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

ما دل على التنبؤ بوقوع الحوادث قبل وقوعها، ولكن قد حصل وقتها وجاء زمانها خلال الأجيال الإسلامية. كالتنبؤ من قبل النبيﷺ وبعض الأئمة الأوائل، بقيام دولة الأمويين أو العباسيين وانقراضهما، أو خروج صاحب الزنج أو وقوع الحروب الصليبية، وغيرها مما ورد التنبؤ به، وحدث بالفعل خلال التاريخ الإسلامي.

القسم الثاني:

ما دل على التنبؤ بحوادث نجدها معاصرة لنا في جيلنا الحاضر. وهي تلك الروايات التي دلت على فساد الزمان وانحراف الاتجاهات العامة السائدة فيه، من وجهة نظر الإسلام الواقعي... وما يتبع ذلك ويتسبب عنه من النقاط التفصيلية والحوادث المعينة، على ما سنسمع.

القسم الثالث:

التنبؤ بحوادث لم تقع بعد، أو لم يدل الدليل على وقوعها، على اقل تقدير. كقتل النفس الزكية وخروج السفياني والدجال والصيحة والخسف بالجيش في البيداء. . . إلى غير ذلك.

وما هو داخل في هذا القسم الثاني من هذا التاريخ هو القسم الثاني من هذه الأقسام الثلاثة، بصفته دالا على مقدار تمسك الناس بالدين وتعاليم الإسلام في الغيبة الكبرى، بما يشمل العصر الحاضر وغيره من العصور. واما القسمين الأول والثالث فمجال الاطلاع عليهما سيكون هو القسم الثالث من هذا التاريخ ان شاء الله تعالى، بصفته مسوقا بشكل رئيسي لبيان علائم الظهور، على ما سنسمع.

الناحية الثانية:

انقسام هذه الاخبار من حيث الرواة الناقلين لهذه الاخبار بما يعتقدون من مذاهب إسلامية. وتشكل مجموع هذه الاخبار مسارا خاصا للعرض التاريخي لعصر الغيبة الكبرى، نستطيع ان نسميه بالتاريخ الخاص لهذه الفترة.

وينقسم الرواة من هذه الناحية إلى قسمين رئيسيين، لا بد من التعرف عليهما مع الإلماع إلى بعض الفروق الأساسية بينهما:

القسم الأول:

ما رواه المحدثون العامة من اخبار التنبؤ بالمستقبل، فإنهم نقلوا القسط الأوفى والقسم الأكبر منها. وشاعت في اخبارهم نصوص وحوادث معينة، لا تكاد توجد فيما رواه الرواة الإمامية من هذه الاخبار.

وقد وردت هذه الاخبار في مصادرهم بعنوان الملاحم والفتن أو اشراط الساعة، ولم تربط مداليلها، في الأعم الأغلب، بغيبة الإمام المهدي عليه السلام أو ظهوره، إلا ما كان من القسم الثالث من الناحية السابقة وهو تلك الحوادث القريبة من الظهور وامارة مباشرة عليه، كوجود السفياني والخسف. واما القسمين الأول والثاني منها، فقد ذكرت اخبارها مستقلة عن مسألة المهدي عليه السلام تماما. ومن هنا ذكرنا في المقدمة، ان الإشارة إلى تاريخ الإمام المهدي عليه السلام فيما يخص الفترة التي نعرض لها، قليل جدا في اخبار العامة. ولكننا سنرى فيما بعد امتناع الفصل بين الفكرتين بحسب فلسفة الغيبة والربط الفكري العام على الحوادث. وسنبرهن في القسم الثالث من هذا التاريخ، على ان كل اخبار التنبؤ بكل أقسامها، دالة على وجود المهدي عليه السلام بطريق مباشر وان ما يقع من حوادثها قبل ظهوره، هي من علامات الظهور.

القسم الثاني:

ما رواه محدثو الإمامية من هذه الأخبار، وهو على كثرته وضخامة عدده، لا يكاد يصل إلى المقدار الذي رواه العامة من ذلك.

وقد وردت هذه الأخبار في مصادرهم - على الأعم الأغلب -، مربوطة بغيبة المهدي عليه السلام وظهوره، وسميت بعلائم الظهور، بمعنى كونها حوادث لا بد ان تحدث قبل الظهور، ومن ثم يكون حدوثها دالا على حدوثه ومؤيدا لتوقع وجوده بشكل وآخر، وسنذكر فلسفة ذلك وارتباطه الفكري العام، في القسم الثالث من هذا التاريخ.

ولم يشذ عن الربط بالمهدي عليه السلام، إلا بعض ما يندرج في القسم الأول من الناحية السابقة، كالتحذير من قبل النبي صلى الله عليه وآله من دولة الأمويين أو العباسين.

فإنه ذكر مستقلا عن مسألة المهدي عليه السلام على الأغلب. ولكنه - على أي حال - مشمول لما قلناه من ارتباط كل التنبؤات بتلك المسألة ولو بشكل غير مباشر.

الناحية الثالثة:

انقسام هذه الاخبار من ناحية دلالتها على سوء الزمان تارة وحسنه تارة أخرى.

فإن الأعم الأغلب من روايات التنبؤ بالمستقبل، وخاصة فيما يدخل في محل الكلام من هذا القسم من التاريخ... تدل على سوء الزمان وتدهوره من الناحية العقائدية والاقتصادية والسلوكية وانحرافه عن الإسلام. وتتضمن هذه الأخبار في حقيقتها تحذيرا للمسلم عن أن ينحرف مع المنحرفين، وإعطائه الأساس العام للتوقف تجاه الانحراف وما يحدث من الفتن والمصاعب، بالنحو الذي سنوضح فلسفته في الفصل الآتي.

وهناك عدد مهم من الروايات، يدل على حسن الأفراد أو المجتمع من الناحية الاقتصادية أو العقائدية أو السلوكية. ويمكن الرجوع بهذه الروايات إلى عدة أقسام:

القسم الأول:

ما دل من الاخبار على حسن المجتمع بعد ظهور الإمام المهدي عليه السلام وهي روايات عديدة جدا يشترك في نقلها الفريقان، وهذا ما يخص تاريخ ما بعد الظهور، وهو الكتاب الثالث من هذه الموسوعة.

القسم الثاني:

ما دل من روايات على كثرة المال والطعام مع الدجال الأعور. وهي أخبار كثيرة وردت، في الأعم الأغلب، في مصادر الحديث العامة. ولم يخرجها من الإمامية إلا القليل. وهي تخص القسم الثالث من هذا التاريخ وسنعرض لتمحيصها هناك ان شاء الله تعالى.

القسم الثالث:

ما دل على تحقق نخبة مخلصة واعية قوية الإرادة، خلال الغيبة الكبرى. وهي اخبار غير قليلة وردت في مصادر الفريقين. وسيأتي التعرض إلى فلسفتها في الفصل الآتي حين نعرض إلى التخطيط الإلهي لليوم الموعود.

القسم الرابع:

ما دل من الاخبار على تحسن المجتمع أو الأفراد بشكل عام، مهمل عن ذكر التاريخ، وتحديد الزمان والمكان على الإطلاق. وقد وردت جملة من ذلك في مصادر الحديث العامة.

وهذا مما لا بد من ربطه بأحد الأقسام السابقة، وخاصة بعهد ما بعد الظهور حين تمتلئ الأرض قسطا وعدلا، كما ملئت ظلما وجورا، و يمكن ان نفهم حدوثه خلال عهد الغيبة الكبرى بعد قيام الدليل القطعي على فساد الزمان وتدهوره، بحسب الاخبار الواردة الفائقة عن حد التواتر، على ما سنسمع.

فهذه جملة الأقسام العامة للأخبار الواردة للتنبؤ بأحوال الزمان، ذكرناها لتكون على إحاطة بها إلى حين تمحيصها.

* * *

الجهة الثالثة:

في تأسيس القواعد العامة لفهم اخبار التنبؤ عامة وفساد الزمان خاصة. . . على ضوء المنهج السندي والدلالي السابق.

يمكن ان نطرح في فهم الارتباط العام بين الروايات أطروحتين. . . ترجع الأولى إلى التمسك بالألفاظ والمداليل المطابقية والمعاني المباشرة للروايات. وترجع الثانية إلى التجاوز عن الألفاظ إلى الأساس الجوهري والمطابق للقواعد الإسلامية الصحيحة.

الأطروحة الأولى:

ان تأتي الفكرة إلى الذهن كما يلي: اننا إذ نعيش في زمان معين ومكان محدد، تخفى علينا - بطبيعة الحال - المصالح العامة والتخطيطات الكبرى التي تؤخذ بنظر الاعتبار في التدبير الإلهي. فإنها ناتجة عن حكمة أزلية يقصر عن إدراكها الإنسان المتناهي القاصر.

إذن، فلا سبيل لنا إلى فهم الارتباط العام. أزيد مما دلت عليه ألفاظ الاخبار المتوفرة في هذا الصدد، فإنها المفتاح الأساسي للاطلاع على الأمور الغائبة عنا. ومعه نكون في حاجة على الدوام إلى التمسك بالمداليل اللفظية للاخبار، ما دام الخبر بحسب القواعد العامة قابلاً للإثبات التاريخي.

ومعه فقد نستنتج من ذلك عدة نقاط:

النقطة الأولى:

انه لا حاجة إلى التشدد السندي الذي ذكرناه، كما لا حاجة إلى الأخذ بالمنهج الدلالي السابق. . . فإننا إنما نحس بالحاجة إليهما فيما إذا فهمنا من

الروايات غموضا وإجمالا واستبعدنا صدق مداليلها اللفظية المطابقية. إلا ان هذا الغموض وهذا الاستبعاد ناتج - في الحقيقة - من جو نفسي معين ناتج من دعوى العلم بما نجهله من التدبير الإلهي والحكمة الأزلية. فإذا لم تكن الروايات مطابقة مع العلم الذي ندعيه، احتجنا إلى تمحيصها سندا ودلالة.

واما مع الاعتراف بالجهل أمام الله تعالى في تدابيره الكبرى، فلا يبقى أمامنا في معرفة تفاصيل هذه التدابير، إلا ما نطقت به هذه الاخبار، فإنها الطريق الوحيد للمقصود. ومعه فلا حاجة إلى التشدد في سند الروايات ولا الشك في معانيها الواضحة الظاهرة منها ولا حاجة إلى حملها على غير ذلك من المعاني.

النقطة الثانية:

انه لا حاجة إلى تصور أي ارتباط عام بين الحوادث الواردة في هذه الاخبار، بل ان الاطلاع على ذلك متعذر أساسا. فإن الارتباط الواقعي بيد الله عز وجل ولم يطلع عباده عليه إلا بالمقدار الذي وردت فيه الاخبار الدالة على التنبؤ بالمستقبل، وهي لا تعطينا الا الحوادث المتفرقة المبعثرة ليس إلا، واما الزائد على ذلك فلا بد من إيكال علمه إلى أهله.

النقطة الثالثة:

انه لا حاجة إلى الفحص عن أسباب الحوادث ودواعيها النفسية والخارجية، اذ من المتعذر البحث عن ذلك، أما لأن مثل هذه الدواعي غير موجودة أصلا عند غير الله تعالى. وإنما الموجد للحوادث هو الله عز وجل، فالدواعي منحصرة بالحكمة الأزلية المستحيل الاطلاع عليها. واما انه، على تقدير وجود الأسباب الواقعية للحوادث المروية، فإننا إنما نطلع عليها بالمقدار

الذي دلت عليه هذه الروايات... وهو نزر قليل، ونبقى مسلمين بالجهل تجاه الأسباب التفصيلية الواسعة لها.

النقطة الرابعة:

ان الاخبار التي برهنا على انه لا بد من الأخذ بمداليلها اللفظية، دلت على ان علائم الظهور تقوم في الأغلب على المعجزات وخوارق العادات. وهو أمر لا محيص عن الالتزام به، وإنما يمنع عن التسليم بذلك الحس المادي الذي نعيشه في هذا العصر المنحرف عن الإسلام الضال عن الاتجاه الإلهي الصحيح.

ومعه لا حاجة إلى التأويل في ظواهر الروايات، بعد ان كانت ممكنة الوقوع ومعتبرة السند. فلا باس ان نتصور وجود نار في اليمن تضيء لها أعناق الإبل في بصرى على وجه الحقيقة. أو ان نتصور طول اليوم الواحد حتى يصبح بمقدار عدة سنوات في أيام المهدي عليه السلام ونتصور صغره حتى يصبح كالومضة الواحدة، في عصر الدجال أو السفياني... كما نطقت بذاك وبهذا بعض الروايات.

بل قد يمكن حمل ما ظاهره الحدوث بسبب طبيعي على الحدوث بسبب إعجازي كالخسف في البيداء، وقتل النفس الزكية وخروج الدجال ونحو ذلك.

بل قد يمكن تعميم المعجزات، من طرف الحق إلى طرف الباطل. فالدجال عنده أكوام من الطعام بنحو إعجازي، ونهر يرى ان فيه ماء وإنما هو فيه النار، ونهر آخر يرى ان فيه النار وإنما هو فيه الماء الصافي اللذيذ. والسفياني يتم قتاله مع أنصار الحق بنحو إعجازي. وهكذا وكل ذلك مما ينبغي التسليم به لمجرد دلالة الروايات عليه.

النقطة الخامسة:

ان الحوادث المنقولة في الروايات، سواء منها الإعجازي أو الطبيعي، هي في واقعها، شرائط للظهور، بمعنى ان الله عز وجل أناط الظهور بها وجعله متوقفا عليها، بإرادة خاصة، بمعنى انه جعل لها سببية زائدة على أسبابها ومسبباتها الخاصة، فلا يتحقق الظهور بدون حدوثها. وان لم نفهم الوجه في فلسفة ذلك.

الأطروحة الثانية:

اننا وان كنا جهلاء أمام العلم الإلهي الأزلي اللامتناهي، ويستحيل اطلاعنا عليه بدون اخباره عز وجل لنا وإعلامه إيانا. إلا انه عز وجل جعل لنا طريقين أساسيين مشروعين لحصول العلم: أولهما: الحقل المتمثل بالقضايا الواضحة التي يحكم العقل السليم بصدقها بشكل لا يمكن ان يرقى إليه الشك. وثانيهما: النقل المتمثل بالكتاب الكريم والسنة الشريفة. ومن المستطاع اخذ القواعد العامة، بل الاطلاع على كثير من التفاصيل في هذين الطريقين بشكل مؤكد الصحة والمطابقة للواقع، ومرضٍ لله عز وعلا. ونحن إذا طبقنا هذه القواعد، لا نكون قد أخذنا بآرائنا الشخصية، وإنما نكون قد أخذنا بالرأي الإسلامي من زاوية القواعد العامة، في تمحيص خصائص الروايات وتفاصيلها، وتكون القواعد العامة العقلية والشرعية مقدمة على هذه الروايات ومحكاً لفهم صحتها وصدقها.

إذن، فالأخذ بما دلت عليه اخبار التنبؤ، من دون تمحيص وتحليل، باعتبار اننا جهلاء تجاه علم الله تعالى... يمثل جهلا بالقواعد الشرعية والعقلية الموضوعة لمعرفة الحق وتشخيص الصواب. ونحن لسنا جهلاء بهذه القواعد،

بعد ان وفقنا رب العالمين للاطلاع عليها بما هدانا إليه من العقل والنقل، وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله.

ومعه، لا بد من الأخذ بما يوصلنا إليه النظر في القواعد العامة. وفهم الترابط بين الحوادث والاخبار الدالة عليها. والأخذ من هذه الروايات بمقدار ما تثبت لنا صحته طبقا للقواعد أيضاً.

وإذا سرنا بهذا المسار، أمكننا ان نضع نقاطا خمس مقابلة للنقاط التي تتضمنها الأطروحة الأولى.

النقطة الأولى:

اننا نحتاج لا محالة إلى المنهج الدلالي والتشدد السندي الذي وضعناه لنستطيع ان ننطلق عن طريقهما إلى إزالة ما قد يبدو من التنافي بين بعض الاخبار وبعض من ناحية والتنافي بين بعض الاخبار والقواعد العامة من ناحية أخرى.

النقطة الثانية:

انه لا شك في وجود ترابط حقيقي واقعي بين كل حوادث الدهر، ابتداء بما يعيشه الإنسان من حوادث شخصية وعامة وانتهاء بعلامات الظهور والظهور نفسه... هذا الارتباط الذي يمثل التخطيط الإلهي لهداية البشر أجمعين في مستقبل الدهر، على ما سنوضحه ونبرهن عليه في الفصل الآتي.

إذن، فما قلناه في الأطروحة الأولى، من ان الارتباط الواقعي إنما هو بيد الله عز وجل... هو الصحيح بكل تأكيد. لكننا لسنا جاهلين به بالمرة بل يمكننا استخلاص معرفته من القواعد العامة والروايات الخاصة، بالشكل الذي

نعرضه في بحوثنا المقبلة من هذا التاريخ.

النقطة الثالثة:

ان للحوادث المروية في هذه الاخبار أسبابها الخاصة. ويمكن اقتناص عدد مهم منها من الاخبار والقواعد. وان حال الحذف والنقصان الذي تعانيه الروايات دون اقتناص البعض الآخر.

وليس صحيحا ما قلناه في الأطروحة الأولى من تعذر الاطلاع على أي سبب للحوادث. لأننا ربطنا هذا التعذر بتبريرين قابلين للمناقشة.

التبرير الأول:

ان الأسباب الكثيرة غير موجودة أساسا، وإنما السبب الوحيد المباشر للأشياء هو الله تعالى. وهذا ما ثبت في فلسفة بطلانه وتبرهن على احتياج الأشياء - بما فيها المعجزات أنفسها - إلى الأسباب[1]، تكون بها مستعدة ومستحقة للوجود، حتى يفيض الله تعالى عليها الوجود، ومجال تحقيق ذلك غير هذا المجال.

التبرير الثاني:

انه من المتعذر الاطلاع على الأسباب، لو كانت موجودة.

وقد عرفنا بطلان ذلك مما عرفناه من إمكان الاطلاع على كثير من الأسباب أخذاً بالقواعد العامة والاخبار الواردة. وسنرى في الأقسام الآتية من الحديث وفاء ما هو الوارد الينا بعدد ليس بالقليل من الأسباب، بحيث يعطينا

(١) يقصد بالأسباب ما يشمل الأسباب المادية والروحية، وأسباب المعجزات، من القسم الثاني، كما برهنا عليه في محله.

الفكرة الكافية عن الارتباط العام والتخطيط الإلهي الشامل.

النقطة الرابعة:

ان المعجزة، كما عرفنا مكررا، مساوقة مع إقامة الحجة، بنحو لا تكون اقل منها ولا أكثر. وقد برهنا على ذلك في رسالة خاصة بالمعجزات.

وهذا يشكل قاعدة عامة يمكن ان نفهم بها الروايات، وما ورد فيها من المعجزات. فما كان واقعا في سبيل إقامة الحجة قبلناه سواء كان واقعا من الشخص الممثل للحق أو الشخص الممثل للباطل... إذ قد تكون المعجزة الصادرة من المبطل دالة على فشل وسوء تصرفه ومؤدية إلى فضحه، فيشاء الله تعالى وقوعها للناس، لانجاز هذا الغرض، فيندرج ذلك في إقامة الحجة.

وهذا وان كان قليلا جدا في تاريخ المعجزات، إلا انه على أي حال، لا بد من التسليم بصحته لو وردنا منه شيء، فإنه مطابق لقانون المعجزات.

واما ما لم يكن واقعا في طريق إقامة الحجة من المعجزات، فنرفضه، سواء نقل في الأخبار وقوعها من الشخص الممثل للحق أو للشخص الممثل للباطل. وأولى بالبطلان والفساد صدور المعجزة بنحو ينتج تأييد الانحراف والدعوة إلى الباطل. فإن ذلك مستحيل الوقوع من الله عز وجل، الذي له دعوة الحق على كل حال.

فإذا دلت الرواية بظاهرها على مثل هذا الشكل الباطل من المعجزات... احتجنا إلى تأويلها وحملها على الكناية أو الرمز، لو أمكن. فان ذلك أولى من طرحها وتكذيبها جملة وتفصيلا.

على ان بعض أساليب هذه الروايات، لا يفهم منها المعجزة بشكل مباشر،

وان دل ظاهرها على ذلك. ولا يخطر في ذهن السامع الأخذ بالظهور رأسا. فمثلا: ان الخبر الدال على ظهور نار من اليمن أو من قعر عدن تضيء لها أعناق الإبل في بصرى - وهي بلد في سوريا - فإنه من أول الأمر لا يفهم منها السامع وجود نار حقيقية وجدت على شكل إعجازي. وإنما يفهم منها الرمز إلى شيء وراء ذلك مثل كونها حركة اجتماعية أو دعوة مذهبية واسعة، أو هي الإشعاع الذري المنتشر في الفضاء، أو غير ذلك.

النقطة الخامسة:

اننا سنبحث في القسم الثالث من هذا التاريخ معنى شرائط الظهور، ونرى بوضوح الفرق بينها وبين علائم الظهور. وسنعرف هناك ان كل ذلك يخطط الله تعالى لإيجاده بشكل طبيعي بدون ان يكون لها سببية زائدة على ما هو المعروف من تسلسل الأسباب في الكون، خلافا لما ادعيناه في الأطروحة الأولى السابقة.

وسنعرف طبقا للتعريف الذي سوف نعطيه للشرائط والعلامات، ان الجو العام الذي نتكلم عنه في هذا الفصل من انحراف البشرية وبعدها عن طاعة الله خلال عصر الغيبة الكبرى، يمكن ان يندرج في شرائط الظهور باعتباره سببا لإيجاد النخبة المختارة الرائدة للفتح العالمي بين يدي المهدي عليه السلام على ما سنعرف. كما يمكن ان يندرج في علامات الظهور بصفتها أمورا مربوطة بوجود الظهور في معطيات الروايات بشكل وآخر، على ما سنعرف تفصيله.

وعلى أي حال، فقد عرفنا بعد هذه الجولة، كيفية فهم الروايات والجمع بين مضامينها وتوحيد اتجاهاتها طبقا للقواعد العامة العقلية والنقلية. والحمد لله رب العالمين.

الفصل الثاني

فيما دلت عليه أخبار التنبؤ من حوادث وصفات للأفراد والمجتمع، فيما يخص مقدار تمسكهم بالدين وشعورهم بالمسؤولية الإسلامية عقائديا وسلوكيا

ونتكلم في هذا الفصل عن ناحيتين رئيسيتين، من حيث استفادة التفاصيل المطلوبة من القواعد العامة تارة ومن الاخبار الخاصة تارة أخرى.

الناحية الأولى: فيما تقتضيه القواعد العامة من شكل أوضاع المجتمع ومصيره إلى الانحراف، ومقدار حاجته إلى ظهور المهدي عليه السلام لنشر الحق والعدل فيه.

ويتم بيان ذلك بكشف القناع عن التخطيط الإلهي لليوم الموعود، مدعما بفلسفة ذلك ومناشئه وآثاره. ويتوقف بيان ذلك على عدة جهات:

الجهة الأولى:

في مناشئ التخطيط الإلهي:

ويمكننا ان نعرض ذلك ضمن عدة نقاط:

النقطة الأولى:

ان الله تبارك وتعالى خلق الخلق متفضلا، ولم يخلقهم عبثا ولم يتركهم

هملاً. بل خلقهم وهو غني عنهم، لأجل حصولهم على مصالحهم الكبرى ووصولهم إلى كمالهم المنشود، المتمثل بإخلاص العبادة لله تعالى. قال عز من قائل ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1].

إذن، فالغرض من الخليقة هو الحصول على هذا الكمال العظيم المتمثل بتوجيه العقيدة والمفهوم إلى الله عز وجل، وقصر السلوك على طاعته وعدله في كل حركة وسكون. وإذا نظرنا إلى حقيقة هذا الكمال من جوانبه المتعددة، واستطعنا تحصيل الفكرة المتكاملة عنه، عرفنا الهدف الإلهي المقصود الذي أصبح هدفا لإيجاد الخليقة:

الجانب الأول:

إيجاد الفرد الكامل. من حيث ان قصر الإنسان نفسه على التربية بيد الحكمة الإلهية الكبرى وتحت إشرافها وتدبيرها، يوجد فيه الإنسان العادل الكامل، الذي يعيش محض الحرية عن انحرافات العاطفة والمصالح الضيقة، والمساوق في انطلاقه مع انطلاقة الكون الكبرى إلى الله عز وجل.

الجانب الثاني:

إيجاد المجتمع الكامل، والبشرية الكاملة المتمثلة من مجموعة الأفراد الذين يعيشون على مستوى العدل والإخلاص، والتجرد من كل شيء سوى عبادة الله تعالى، تلك العبادة التي تتضمن تربية الفرد والمجتمع، والارتباط بكل شيء على مستوى العدل الإلهي.

الجانب الثالث:

إيجاد الدولة العادلة التي تحكم المجتمع بالحق والعدل، بشريعة الله الذي

(١) الذاريات: ٥٦.

لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء. وتكون هي المسؤولة الأساسية عن السير قدما بالمجتمع والبشرية نحو زيادة في التكامل في الطريق الطويل غير المتناهي الخطوات.

فهذا هو معنى العبادة المقصود في الآية، وكل ما كان على خلاف ذلك فهو تقصير في العبادة الحقيقية تجاه الله عز وجل. ولا يمكن ان نفهم من الآية هذا المعنى القاصر بطبيعة الحال.

النقطة الثانية:

ان الآية واضحة الظهور في ان الغاية الأساسية والغرض الأصلي من إيجاد البشرية هو إيجاد هذه العبادة الكاملة في ربوع البشرية، أو إيصالها إلى هذا المستوى الرفيع. وذلك بقرينة وجود التعليل في قوله تعالى: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾، مع الحصر المستفاد من الآية من وقوع أداة الاستثناء (إلا) بعد النفي حين قال عز من قائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

إذن، فهذا هو الهدف الوحيد المنحصر الذي لا شيء وراءه من خلقة البشرية، المعبر عنهم بالإنس. وهذا الهدف ملحوظ ومخطط بشكل خاص منذ بدء الخليقة، ويبقى - بطبيعة الحال - مواكبا لها ما دامت البشرية في الوجود.

وهذا بالضبط هو ما نعنيه حين نقول: ان الله تعالى لم يخلق البشرية لأجل مصلحته، فإنه غني عن العالمين، وإنما خلقهم لأجل مصلحتهم. وأي مصلحة يريدها الله لعباده غير كمالهم ورشدهم وصلاحهم المتمثل بالعبادة المخلصة والتوجه إليه بالخيرات نحوه عز وعلا.

النقطة الثالثة:

ان الغرض الإلهي من خلق البشرية، ما دام هو ذلك، إذن، فلا بد ان يشاء الله تعالى إيجاد كل ما يحققه والحيلولة دون كل ما يحول عنه... شأن كل غرض إلهي مهم... فإن الحكمة الأزلية حين تتعلق بوجود أي شيء، فإن تخلفه يكون مستحيلا، وتكون إرادة الله تعالى متعلقة بإيجاده لو كان شيئاً آنياً فورياً، أو التخطيط لوجوده لو كان شيئا مؤجلا ومحتاجا إلى مقدمات من الضروري ان توجد قبله.

وقد برهنا في رسالتنا الخاصة بالمفهوم الإسلامي للمعجزة ان الغرض الإلهي المهم إذا تعلق بهدف من الأهداف، فإنه لا بد من وجود ذلك الهدف، ولو استلزم بوجوده أو ببعض مقدماته خرق قوانين الطبيعة، وإيجاد المعجزات. فإن القوانين الطبيعية إنما أوجدها الله تعالى في كونه لأجل تنفيذ أغراضه من إيجاد الخلق. فإذا توقفت تلك الأغراض على انخرام تلك القوانين وحدوث المعجزات أحيانا أو في كثير من الأحيان... كانت تلك القوانين الطبيعية قاصرة عن الممانعة والتأثير.

وهذا هو الذي يلقي الضوء على الفكرة الأساسية التي يقوم عليها (قانون المعجزات) الذي اشرنا إليه... ونؤجل الغوص في تفاصيل ذلك إلى رسالتنا الخاصة بها.

النقطة الرابعة:

اننا نجد بالوجدان القطعي ان هذا الغرض الإلهي المهم الذي نطقت به الآية بالمعنى الذي فهمناه، لم يحدث في تاريخ البشرية على الإطلاق منذ

وجودها إلى العصر الحاضر. إذن فهو باليقين سوف يحدث في مستقبل عمر البشرية بمشيئة خالقها العظيم. وهذه هي الفكرة الأساسية التي ننطلق فيها إلى التسليم بالتخطيط الإلهي لليوم الموعود.

ولئن كان المنطق الأساسي في هذا البرهان هو قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾... فإنه يمكن الانطلاق إلى نفس النتيجة من آيات قرآنية أخرى نذكر منها آيتين، مع بيان الوجه في الاستدلال مختصرا، ونحيل التفصيل إلى الكتاب الخامس من هذه الموسوعة الخاص بإثبات وجود المهدي عليه السلام عن طريق القرآن الكريم.

الآية الأولى:

﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِى لَا يُشْرِكُونَ بِى شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾[(١)].

فهذا وعد صريح من الله عز وجل، و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾[(٢)] للبشرية المؤمنة الصالحة التي قاست الظلم والعذاب في عصور الانحراف وبذلت من التضحيات الشيء الكثير... بأن يستخلفهم في الأرض، بمعنى انه يوقفهم إلى السلطة الفعلية على البشرية وممارسة الولاية الحقيقية فيهم. فإذا استطعنا ان نفهم من (الأرض) كل القسم المسكون من البسيطة، كما هو الظاهر من الكلمة والمعنى الواضح منها حملا للام الجنس بعد عدم وجود أي

---

(١) النور: ٥٥.

(٢) آل عمران: ٩ والرعد: ٣١ وغيرهما بألفاظ مشابهة.

قرينة على انصرافها إلى ارض معينة. ومعنى حملها على الجنس: ان كل ارض على الإطلاق سوف تكون مشمولة لسلطة المؤمنين واستخلافهم وسيحكمون وجه البسيطة.

وهذا هو المناسب مع الجمل المتأخرة في الآية الكريمة، كقوله تعالى: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ﴾. فإن التمكين التام والاستقرار الحقيقي للدين، لا يكون إلا عند سيادته في العالم اجمع. وكقوله تعالى: ﴿وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾... بعد ان نعرف ان المؤمنين كانوا قبل الاستخلاف يعانون الخوف في كل مناطق العالم لسيادة الظلم والجور في العالم كله. فلا يكون الخوف قد تبدل إلى الأمن حقيقة إلا بعد ان تتم لهم السلطة على وجه البسيطة كلها.

فإذا تم لنا من الآية ذلك، ولاحظنا وجداننا الذي ذكرناه وهو ان هذا الوضع الاجتماعي العالمي الموعود، لم يتحقق على مدى التاريخ منذ فجر البشرية إلى عصرنا الحاضر، إذن فهو مما سيتحقق في مستقبل الدهر يقينا طبقا للوعد الإلهي القطعي غير القابل للتخلف أو التمييع.

الآية الثانية:

قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾[1].

وهي تعطينا بوضوح، الغاية والغرض الرئيسي من إرسال رسول الإسلامﷺ بالهدى ودين الحق. يدلنا على ذلك قوله تعالى ليظهره، حيث دلت لام التعليل على الغاية، والسبب في إنزال شريعة الإسلام وهو ان يظهره

(١) التوبة: ٣٣ والصف: ٩ وانظر سورة الفتح: ٢٨.

أي يجعله منتصرا ومسيطرا على غيره من الأديان والعقائد كلها. وذلك لا يكون إلا بسيطرة دين الحق على العالم كله.

وإذا كان هذا غاية من إرسال الإسلام، إذن، فهو يقيني الحدوث في مستقبل الدهر. لأن الغايات الإلهية غير قابلة للتخلف.

ولئن دلت هاتان الآيتان على نفس المطلوب... إلا ان قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، أهم في مقام الاستدلال على ذلك، لأنها تدلنا على الغرض الأسمى لخلق البشرية أساسا ذلك الغرض الذي كان موجودا منذ بدء الخلق. بخلاف الآيتين الأخيرتين، فإنهما مختصتان بمضامين محدودة نسبيا، كما يتضح لمن فكر في مدلوليهما.

وان هاتين الآيتين في الواقع، من تطبيقات ذلك الغرض الأسمى الذي نطقت به، الآية الكريمة الأولى، كما سيتضح بعد قليل عند معرفتنا بتفاصيل التخطيط الإلهي لليوم الموعود.

النقطة الخامسة:

ان تكامل الفرد، وبالتالي تكامل المجتمع البشري، يتوقف - بعد ان وهبه الله عز وعلا العقل والاختيار - على عاملين: عامل خارجي وعامل داخلي أو قل: عامل موضوعي وعامل ذاتي.

أما العامل الخارجي الموضوعي، فهو إفهام الفرد - وبالتالي المجتمع - معنى العدل والكمال الذي ينبغي ان يستهدفه والمنهج الذي يجب عليه ان يتبعه في حياته ويقصر عليه سلوكه.

وهذا الإفهام لا يمكن صدوره إلا عن الله عز وجل، بعد البرهنة على عدم

إمكان توصل البشرية إلى كمالها ومعرفتها بالعدل الحقيقي إذا عزلت فكريا عن الحكمة الأزلية الإلهية، كما صح البرهان عليه في بحوث العقائد الإسلامية. ومن ثم لا يمكن ان يتحقق الغرض الإلهي المهم في هداية البشرية وإيجاد العبادة الكاملة في ربوعها، إذا أوكلت البشرية إلى نفسها وفكرها القاصر، وأُلقِيَ حبلها على غاربها. إذن، فلا بد من اجل التوصل إلى ذلك الغرض الكبير من ان يُفهمها الله تعالى معنى العدل والكمال وتفاصيل السلوك الصالح الذي يجب اتخاذه.

وحيث ان إفهام البشرية من قبل الله تعالى بالمباشرة والمواجهة مستحيل، كما صح البرهان عليه في بحوث العقائد الإسلامية، احتاجت البشرية إلى ان يرسل الله تعالى إليها أنبياء مبشرين ومنذرين. وان يكون إرسالهم واثبات صدقهم طبقا لقانون المعجزات. لأن هذه المعجزات تقع في طريق هداية البشر والوصول إلى إيجاد الغرض المهم من إيجادهم.

ومنه نستطيع ان نلاحظ، كيف ان خط الأنبياء الطويل، والأعداد الكبيرة منهم، إنما كان باعتبار التقديم والتمهيد للغرض الكبير. باعتبار ان البشرية حين أول وجودها كانت قاصرة عن فهم تفاصيل العدل الكامل، فلم يكن في الإمكان إيجاد المجتمع العادل الكامل الموعود في ربوعها لأول وهلة. بل كان لا بد ان تتربى البشرية تدريجا إلى ان تصل إلى المستوى اللائق الذي يؤهلها لمجرد فهم العدل الكامل الذي يريد الله تعالى تطبيقه في اليوم الموعود.

ومن هنا نعرف ان الأنبياء انما تعددوا وتكثروا من اجل إعداد البشرية وتربيتها للوصول إلى هذا المستوى اللائق... لكي يتم لها هذا العامل الخارجي الأساسي وهو إفهامها العدل الكامل والأطروحة النظرية التامة للعدل التشريعي الذي يريد الله تعالى تطبيقها على وجه الأرض، والتي بها تتحقق

العبادة الكاملة التي يرضاها الله تعالى لخلقه، وبها يتحقق الهدف الأساسي لإيجاد الخليقة.

وأما العامل الداخلي الذاتي، فهو الشعور بالمسؤولية تجاه الأطروحة العادلة الكاملة، باعتبار انها إنما تضمن العدل فيما إذا أطاعها الأفراد وطبقت في حياتهم، وهي إنما تضمن الطاعة التامة، مع وجود الشعور بالمسؤولية، إذن، فلا بد من اجل وجود العدل ان يوجد هذا العامل الداخلي الذاتي في الإنسان.

وإنما يوجد الشعور بالمسؤولية وينمو، نتيجة لأسباب ثلاثة مقترنة:

السبب الأول:

أدراك العقل لأهمية طاعة الله والخضوع له والانصياع إلى أوامره ونواهيه، باعتباره مستحقا للعبادة مع غض النظر عن أي اعتبار آخر.

السبب الثاني:

الشعور بأهمية طاعة الله تعالى، باعتبارها الضامن الحقيقي للعدل المطلق، على المستويين الفردي والاجتماعي، أو بتعبير آخر: تربية الإخلاص الذاتي لطاعة الله باعتبار المعرفة الواضحة بضمانها للعدل المطلق.

السبب الثالث:

العامل الأخروي المتمثل بالطمع بالثواب الذي رصده الله تبارك وتعالى للمطيعين، والخوف من العقاب الذي توعد به العاصين والمذنبين.

وهناك فرق أساسي في طرق إيجاد هذه الأسباب. فالسببان الأول والأخير يوجدان بالتربية النظرية فقط، ويتحققان بمجرد إلفات الفرد إليهما وتصديقه

بصحتهما. وأما السبب الثاني، فالبرهنة النظرية عليه غير كافية بطبيعة الحال، بشكل ينتج الإخلاص والوعي الحقيقيين والاستعداد للتفاني في سبيل العدل المطلق... في سبيل الله تعالى. بل يحتاج ذلك إلى تمرين طويل الأمد وتجربة وممارسة.

ومن هنا تنبثق أهمية هذه التجربة والممارسة في تربية الإخلاص بشكل خاص، والتكامل بشكل عام... بصفة إحدى المقدمات الأساسية والأسباب الرئيسية لإيجاد المجتمع العادل، الذي يتحقق فيه الغرض الأساسي لإيجاد البشرية.

النقطة السادسة:

إن التجربة والممارسة التي عرفنا أهميتها في تربية الإخلاص والاندفاع إلى الطاعة، إذا لاحظناها على أساس فردي لم تكتسب أهمية أكثر من إنتاج الإخلاص والتكامل للفرد الواحد. وأما إذا لاحظناها على أساس عام، وقلنا أن المجتمع بصفته مكوناً من أفراد، والأمة بصفتها مكونة من مجتمعات، يجب أن تمر بدور التربية والتجربة التي تنمي فيها روح الإخلاص والطاعة تجاه تعاليم الله عز وجل.

إذن، تكتسب تربية الأمة والتجربة التي يجب أن تمر بها الأمة نفس الأهمية الكبرى، باعتبارها مقدمة حقيقية للغرض الإلهي الكبير من إيجاد الخليقة. فإذا علمنا - كما سبق - أن الله تعالى يفعل أي شيء يكون مقدمة لوجود غرضه الأساسي... إذن، فهو - بكل تأكيد - سوف يخطط لتربية الأمة على هذا الطريق.

وقد يخطر في الذهن هذا السؤال: ان هذه التربية حين تكون مقدمة

للغرض الإلهي، ويكون الغرض مهماً بحيث عرفنا أنه يمكن إقامة المعجزات في سبيل التمهيد إليه. فلماذا لا توجد هذه التربية في ربوع الأمة دفعة واحدة عن طريق المعجزة؟.

والجواب على هذا السؤال يكون من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول:

إن إيجاد الإيمان والإخلاص في أنفس الأفراد بطريق المعجزة، يؤدي بنا إلى القول بأن الله تعالى يجبر الأفراد على الطاعات وترك المعاصي وهذا مبرهن على بطلانه وفساده في بحوث العقائد الإسلامية.

الوجه الثاني:

إن هذا الأسلوب المقترح من المعجزة ينافي قانون المعجزات. إذن، فلا يمكن وجود مثل هذه المعجزة.

والسبب في ذلك هو ان قانون المعجزات، كما عرفناه، يقضي بعدم قيام المعجزة ما لم يكن قيامها طريقاً منحصراً لإقامة الحجة وهداية البشرية. وأما إذا كانت للنتيجة المطلوبة أساليب طبيعية غير إعجازية، كان عدم قيام المعجزة حتميا، وأوكل الله تعالى إيجاد النتيجة إلى أسبابها الطبيعية نفسها، مهما طال الزمن بهذه الأسباب والنتائج. فإن الله تعالى طويل الأناة ولا يفرق في ذاته مرور الزمان.

فإذا طبقنا ذلك على مورد حديثنا، وجدنا ان لتربية الأمة أسباب طبيعية، سوف نعرض لها في النقطة الآتية، يمكن ان تنتج نتائجها خلال زمان طويل. ومعه يكون عدم قيام المعجزة لإيجاد تلكم النتائج حتمياً.

الوجه الثالث:

أننا لو تنزلنا - جدلاً - عن الوجهين السابقين. وقلنا بإمكان تربية الأمة عن طريق المعجزات. فيكون الأمر دائراً ومردداً بين تربية الأمة عن هذا الطريق أو تربيتها عن الطريق الطبيعي. عندئذٍ يمكن القول: أن الأهداف التربوية التي يمكن إيجادها بالطرق الطبيعية أفضل بكثير من الأهداف التربوية التي يمكن إيجادها بالمعجزات. ولا تتحقق العبادة الكاملة المطلوبة لله عز وجل إلا باختيار أفضل الفردين. ومن هنا لا بد من الالتزام بعدم قيام المعجزات لأنها الطريق الأردأ في تربية الأمة.

والسبب في ذلك: هي أن التربية إن وجدت بطرقها الطبيعية، كانت متضمنة لمرتبة عالية من الرشد والنضج من الناحية السلوكية والعقائدية، لأن من الطرق الطبيعية للتربية - على ما سنعرف - التمحيص والاختبار، والمرور بالتجارب القاسية. فإذا خرج الفرد من التمحيص والتجربة ناجحاً منتصراً، كان إخلاصه قد اكتسب نضجاً ورشداً لم يكن في السابق باعتبار أن الفرد أصبح يعرف ما هي ردود الفعل المطلوبة تجاه المصاعب، وما هي قيمة العدل في حل مشاكل البشرية بإزاء الحلول الأخرى الفاشلة التي عرضها الآخرون. وكل ذلك لا يكون إلا خلال ردح طويل من الزمن.

بخلاف المعجزة، فإنها ان أحدثت المجتمع الصالح، فإنها لا يمكن ان توجد نضجه ورشده بأي حال، بل سوف يكون مجتمعا فجاً وعدلا صوريا بطبيعة الحال. ما لم تفترض أمور أخرى إضافية كنزول الوحي على كل أفراد الأمة... أو نحو ذلك مما لم تقم عليه الدعوة الإلهية على طول خط التاريخ الطويل.

النقطة السابعة:

في محاولة التعرف على الأسباب الطبيعية للتربية وإيجاد الإخلاص.

تتوقف التجربة والممارسة التي يجب أن تمر بها الأمة في تربيتها الطويلة... على احد عاملين:

العامل الأول:

التطبيق الفعلي الحي للمجتمع العادل المطلق، حتى يراه الناس ويحبوه ويقدموا مصالحه العامة على مصالحهم الخاصة. فإن شعور الناس بوجود العدل المطلق مطبقاً على وجه الأرض، يكفي بمجرده في توجيه عواطف الناس وصهر إخلاصهم إلى حد بعيد.

العامل الثاني:

مرور الأمة خلال تربيتها بعوامل صعبة وظروف ظالمة عسرة، تجعلها تتوفر شيئا فشيئا على التعمق الفكري والعاطفي، وتصوغ منها في نهاية المطاف أمة شاعرة بالمسؤولية قوية الإرادة والعزم على تطبيق الأطروحة العادلة الكاملة.

وذلك بعد أن تعيش الأمة الشعور بأمرين مقترنين:

أحدهما: الشعور بأفضلية الأطروحة العادلة، لا بشكل نظري فحسب، بل بشكل حسي معاش. بعد أن تمت المقارنة لدى الأمة بكل وضوح بين هذه الأطروحة وبين سائر النظم والقوانين والنظريات المخالفة لها. وثبت بالتجربة فشل سائر النظم والنظريات، وأدائها إلى أنواع مختلفة من الظلم والتعسف. باعتبار النقص الذاتي الموجود في سائر النظم، ذلك النقص الذي تبرأ منه وتعلو عليه الأطروحة الكاملة.

ثانيهما: الشعور بأهمية التضحية الحقيقية على مختلف المستويات في سبيل الأطروحة الكاملة التي يؤمنون بها... والإحساس المباشر بلزوم الصبر والمثابرة والصمود أمام القوى الظالمة تمسكاً بالحق.

وبالرغم من صحة العاملين كليهما وأثرهما الأكيد في تربية الأمة. إلا اننا إذا فرضنا كلا منهما معزولا عن الآخر، نجد أن العامل الثاني أهم من الأول من جهتين أساسيتين:

أولاً: إن محبة الأطروحة العادلة والإخلاص لها عند تطبيقها، أمر موافق للهوى والمصالح الشخصية، لأنها تضمن للإنسان سعادته ورفاهه الفردي والاجتماعي.

وأما محبة الأطروحة العادلة في ظروف الظلم والتضحية، فهي محبة واعية عميقة تدفع الإنسان إلى المكافحة والجهاد في سبيل إيجاد الواقع الاجتماعي العادل.

ومن المعلوم ان المحب المخلص على الشكل الأول، إذا لم يمر بتجارب التضحية، يكون مهدداً بالانحراف والارتداد عند مواجهة أول صعوبة يجابهها، يشعر خلالها بالتنافي بين مصالحه الخاصة والمصالح العامة. فإذا كانت هذه الظاهرة عامة بين الأفراد... لم يكن ذلك التطبيق قابلا للاستمرار والبقاء. ولا يمكن أن تكون هذه الظاهرة عامة بأي حال لو كان الإخلاص ناتجاً عن تضحية وصمود.

ثانياً: نعرف مما تقدم أن العامل الثاني يجب أن يكون متقدماً زماناً على العامل الأول، باعتبار توقف التطبيق الحقيقي عليه. فإن العدل لا يكون عميقاً وأساسياً في المجتمع، ما لم يكن كل الأفراد أو جلهم - على أقل

تقدير - ممن شحذت إخلاصه التجارب ورفعت إيمانه وإرادته التضحيات، فإنهم يكونون أقدر على العمل وأسرع إنتاجاً وأكثر تحملا للصعوبات، مما يجعل العدل أعمق أثراً واضمن للبقاء والاستمرار.

إذن، فالغرض الإلهي في إيجاد البشرية، يتوقف وجوده على الإخلاص المنصقل بالتجارب والتضحيات. ومن المعلوم ان هذا الصقل لا يمكن حصوله إلا بالمرور في تيار التجارب والتضحيات نفسه. وهذا التيار ليس إلا الظروف الصعبة والأزمنة المظلمة الظالمة التي تمر بها البشرية خلال الأجيال.

إذن، يتبرهن بكل وضوح توقف الغرض الإلهي في هداية البشر وإيجاد مجتمع العبادة الكاملة... على مرور البشرية في ظروف صعبة ظالمة، ليكونوا عند ابتداء التطبيق على مستوى المسؤولية المطلوبة للعدل. ويستطيعون بجدارة القيام به وبسهولة الانسجام معه.

النقطة الثامنة:

انه من هذا المنطلق بالذات نعرف أهمية التمحيص والاختبار الذي دلت عليه الأخبار، كما سوف نسمع، وارتباطه الأساسي بالتقديم للهدف الإلهي الكبير.

باعتبار ان ما تعيشه البشرية من ظروف ظالمة من ناحية وأمور مغرية من ناحية أخرى... وكم للخوف والإغراء من قوة في الاندفاع ومن تأثير على النفس... فيكون ذلك حاملا للفرد على الانحراف عن الله تعالى والخروج على تعاليمه العادلة. ويصبح تطبيق هذه التعاليم على نفسه وغيره من أصعب الأمور كما قد وصف في بعض الأخبار، بأنه كالقبض على الجمر.

ومن هنا تكون هذه الظروف ومحاولة هذا التطبيق محكاً أساسياً لمدى الإخلاص وقوة الإرادة لدى الأفراد. فينهار العدد الأغلب من البشر في أحضان الظلم والإغراء، تبعا لضعف إرادتهم وتقديم مصالحهم الشخصية وراحتهم القريبة على الأهداف الكبرى والغايات القصوى. ويبقى العدد الأقل صامدين مكافحين، تشتد إرادتهم وتقوى عزيمتهم، ويشعرون باللذة والفخر في مكافحة تيارات الانحراف والفساد. ولا يزالون في تكامل وصمود حتى يبلغوا مستوى المسؤولية الكبرى في مواجهة العالم بالعدل المطلق في اليوم الموعود.

ويكون العالم عند تمخض قانون التمحيص هذا عن نتائجه كما نطقت به الأخبار... متكوناً من فسطاطين أو معسكرين: فسطاط كفر لا إيمان فيه وفسطاط إيمان لا كفر فيه. على ما سنسمع في الناحية من هذا الفصل.

فإن قال قائل: كيف يمكن التوفيق بين ما قلناه قبل قليل من لزوم كون الأمة بشكل عام، المتمثلة في أكثر أفرادها، مخلصة إخلاصاً حقيقياً نتيجة للتجربة والتمحيص. وبين ما قلناه الآن من ان اغلب الناس سوف ينهارون تجاه الظلم والإغراء ولا يبقى من ذوي الإخلاص الحقيقي إلا القليل؟.

نقول في جواب ذلك: انه يمكن القول ان النتائج الصالحة للتمحيص لا تختص بالقليل من البشر، وان اختص هؤلاء بدرجات رفيعة من الإخلاص لا يضارعهم بها غيرهم من الناس.

فإننا يمكن ان نرتفع بنتائج التمحيص، من الزاوية التي نتوخاها الآن، إلى أربع درجات:

الدرجة الأولى:

الإخلاص التام والوعي الكامل. الذي يتمثل باستعداد الفرد بالتضحية بكل

غال ورخيص على الإطلاق في سبيل العدل الإلهي وتطبيق تعاليم الرب العظيم وأهدافه الكبرى.

ويكون مثل هذا الفرد مؤهلا لنيل بعض درجات القيادة والسلطة العسكرية أو المدنية في اليوم الموعود.

الدرجة الثانية:

الإخلاص الثابت المهم الذي يتمثل في قدرة الفرد على السيطرة بإرادته على كل صعوبة وإغراء مر به في حياته، من درجات الخوف والطمع المعروفة. بغض النظر عن انه لو مر في حياته بدرجة أعلى من التمحيص والمصاعب فهل يستطيع النجاح أيضاً أو لا. وهذا الذي يفرق هذه الدرجة عن سابقتها.

وهذه الدرجة هي التي تؤهل الفرد لأن يكون واحداً من القواعد الشعبية الصالحة لدولة الحق في اليوم الموعود. أو ان يكون جندياً محاربا خلال الفتح العالمي في ذلك اليوم.

الدرجة الثالثة:

الإخلاص الاقتضائي: وهو ان يكون الفرد محباً للحق والعدل الإلهي في دخيلة نفسه ومسايراً لظروف الظلم أو الإغراء إلى حد ما أيضاً.

فإننا نجد في كثير من الأفراد انفكاكا بين العقيدة والسلوك. فبينما نجد عقيدته صالحة نجد سلوكه منحرفاً نتيجة لاضطراره وظروفه الشاذة واحتياجه إلى لقمة العيش. وهو في ذات الوقت من الممكن ان يكون مدركا لمعنى الظلم وفظاعته، وللمسؤولية تجاه تعاليم الله العادلة. ولكنه يشعر بالقصور عن

تطبيقها نتيجة لظروف الضغط والظلم التي يعيشها. ومن ثم فهو يدفن عقيدته ووعيه في قلبه ويساير الظلم والإغراء إلى بعض الخطوات.

ويمكن في حق مثل هذا الفرد، انه بمجرد أن ترتفع ظروف الظلم ويبدأ التطبيق العادل... فإنه سوف ينطلق إخلاصه الاقتضائي الكامن، بعد ان ارتفع عنه المانع، ويكون له حركة فعالة في المشاركة والتعاون في ظروف التطبيق الجديد.

الدرجة الرابعة:

أن لا يوجد الإخلاص بأي درجة من درجاته السابقة. ولكن يكون الفرد قد شعر بوضوح نتيجة لظروف التمحيص العالمي، بفشل التجارب التي عاشتها المبادئ والفلسفات التي ادعت حل مشاكل العالم وتذليل مصاعبه ونشر العدالة والرفاه في ربوعه. فإن هذه المبادئ بعد ان تعيش التجربة والتطبيق، وتتمخض عن نتائجها الرئيسية، سوف يبدو بوضوح للأعم الأغلب من البشر انها لم تتمخض إلا عن الفساد والضياع نتيجة لقصورها الذاتي، كما سبق ان اشرنا، وقد أضافت إلى مشكلات العالم لا انها قد ذللت منها شيئا.

عندئذٍ ينبثق شعور خفي، في اللاشعور، بالحاجة العالمية الماسة إلى الحل الناجز الذي ينقذ العالم من ورطته ويخرجه من وهدته ويوقظه من رقدته.

وهذا الحل، وان لم يكن ملتفتا إليه بوضوح أو معروفا بتفاصيله. ولكنه على أي حال، توقع نفسي غامض يمكن انطباقه على أول دعوة رئيسية جديدة تدعي حل مشاكل العالم وتذليل مصاعبه. ومن هنا تفوز مثل هذه الدعوة بتأييد كل من يمثل هذه الدرجة من نتائج التمحيص ريثما كانت هذه الدعوة محتملة الصدق على أي حال.

فإذا كانت هذه الدعوة هي دعوة الحق، في يومها الموعود، فسيكون لهذا الجو النفسي العالمي أثره الكبير في دعم التطبيق العادل، في ذلك اليوم.

فهذه هي الدرجات الأربع التي يتمخض عنها التمحيص الإلهي الكبير في عصر ما قبل الظهور. والتي تشارك، بشكل وآخر في بناء العدل في اليوم الموعود.

ونحن نستطيع ان نلاحظ بوضوح ان هذه الدرجات كلما ارتفعت قل الأفراد المتصفون بها من البشر، وكلما نزلت كثر الأفراد المتصفون بها بطبيعة الحال. ومن هنا كان المتصفون بالدرجة الأولى من الإخلاص قليلين في البشر. وهم الذين سبق ان برهنا على ان الإمام المهدي عليه السلام يمكن ان لا يحتجب عنهم خلال غيبته الكبرى. كما كان المتصفون بالدرجة الرابعة، هم أكثر البشرية في العصر المباشر لما قبل الظهور. وتختلف الدرجتان الثانية والثالثة فيما بين هذين الحدين من العدد.

ومن هنا نستطيع ان نقول لمن يوجه السؤال السابق: ان الدرجات الصالحة الناتجة عن التمحيص الإلهي تمثل بمجموعها عدداً كبيراً من البشر، بل الأعم الأغلب منهم. وليس العدد قليلاً كما تخيله السائل. وإنما العدد القليل منحصر بالدرجة العليا من الإخلاص، وهو مما لا يؤثر على التطبيق العادل الموعود شيئاً، باعتبار ان الأفراد الذين يمثلون هذه الدرجة، سيكونون بالمقدار الكافي الذي يقومون خلاله بمسؤولية القيادة الناجحة في اليوم الموعود. وليس من المتوقع من كل البشر أن يكونوا قواداً، بطبيعة الحال!...

وعلى أي حال، فقد اتضحت من هذه النقاط الثمانِ، المناشئ الحقيقية للتخطيط الإلهي لهداية البشر وتحقيق العبادة التامة في ربوعهم. كما اتضح البرهان على وجود هذا التخطيط، حيث يحتاج الأمر إلى مقدمات طويلة طبيعية

غير إعجازية. كما اتضحت جملة من ملامح هذا التخطيط، وما يلعبه الظلم والانحراف الذي تعانيه البشرية على مدى التاريخ، من دور في هذا التخطيط الإلهي الكبير.

وبقي علينا ان نعرف تفاصيل أعمق وأكثر عن هذا التخطيط، خلال الجهات الآتية، شروعاً بما قبل الإسلام وانتهاء بالعصر الحاضر.

* * *

الجهة الثانية:

التخطيط الإلهي قبل الإسلام.

والمراد به الجزء الذي يعود إلى الفترة السابقة على الإسلام من عمر الخليقة، منذ دخلت عهد الفهم والإدراك إلى حين بعثة نبي الإسلامﷺ.

وذلك: ان التخطيط الإلهي الشامل لليوم الموعود، بدأ بوجود الخليقة نفسها، لأنه يعبر عن أسلوب تحقيق الغرض الأساسي من إيجادها. إذن، فقد كان هذا التخطيط مستمراً قبل الإسلام وبقي مستمرا بعد الإسلام، وسيبقى نافذاً إلى يوم يتحقق به اليوم الموعود بتطبيق الأطروحة العادلة الكاملة.

وينبغي ان ننطلق في الحديث عن ذلك ضمن عدة نقاط:

النقطة الأولى:

في مشاركة الأنبياء إجمالا في هذا التخطيط.

وهو ما سبق ان حملنا عن ذلك فكرة مختصرة، وينبغي لنا ان نحمل الآن فكرة تفصيلية عن السر الأساسي لذلك:

ان البشرية في مبدأ أمرها لم يكن يتوفر لديها، بطبيعة الحال، الشرط الأول والثاني، السابقين، من شرائط تطبيق العدل الكامل[١]. فهي لا تعرف ما هو العدل الكامل، ولا هي مخلصة له أو مستعدة للتضحية في سبيل تطبيقه لو عرفته.

فكان لا بد لها - كجزء من التخطيط - أن تمر بتربية طويلة الأمد من كلتا هاتين الناحيتين. فكان أن تكفل الأنبياء هذه المهمة، وهي تربية البشرية لتكون صالحة لفهم العدل الكامل. فكان كل نبي يشارك مشاركة جزئية قليلة أو كثيرة في ذلك، سواء علم الناس، بذلك في عصره أو جهلوه. لأن المهم هو تربيتهم الفكرية، وليس المهم إلفاتهم بوضوح إلى هذا التخطيط.

وهذه التربية قد انتهت، واستطاعت البشرية - في نهاية المطاف - أن توفر الشرط الأول، فأصبحت قابلة لفهم الأطروحة العادلة الكاملة، فأرسل الله تعالى إليها تلك الأطروحة متمثلة بالإسلام. وبذلك تحقق الشرط الأول.

ولم تستطع البشرية إلى حد الآن أن توفر الشرط الثاني وهو استعدادها للتضحية في سبيل تطبيق العدل، وهي على أي حال في طريق التربية على ذلك.

وكان كل نبي بطبيعة الحال، بما فيهم نبي الإسلامﷺ يقرن تربيته الفكرية للناس بالتربية على الشرط الثاني أيضاً بمعنى إيجاد الإخلاص والاستعداد للتضحية في نفوس البشر. فكانت مشاركة الأنبياء في التربية الأولى متمثلة بما بلغوا من أحكام، وكانت مشاركتهم في التربية الثانية متمثلة بما قدموا من

(١) أما الشرط الثالث وهو معرفة الثواب والعقاب الأخرويين فقد كان متوفراً بشكل وآخر في دعوات الأنبياء. فالمهم إذن هو الحديث عن الشرطين الأولين.

تضحيات ودماء.

إلا ان التربية الأولى أنتجت نتيجتها الكاملة، على حين لم تنتج التربية الثانية نتيجتها إلا في القليل من الناس. وذلك لمدى الضغط والإغراء الذي يواجهه الناس نحو الانحراف من داخل نفوسهم وخارجها، على طول خط التاريخ، مما يجعل الحق في أفواههم مراً وتحمل العدل عليهم صعباً... وينتج في نهاية المطاف بطء التربية على الإخلاص وصعوبتها.

النقطة الثانية:

لم يكن الأنبياء ليسكتوا عن تبليغ الناس، بشكل وآخر، بالغرض الأساسي من إيجاد البشرية. متمثلا بإعلامهم ان هناك يوماً يأتي في مستقبل الزمان يسود فيه العدل الإلهي المطلق ويرتفع فيه كل ظلم وجور. ولا زلنا نسمع صدى هذا التبليغ متمثلاً باعتقاد عدد من الديانات السماوية بذلك وإيمانها به، وإن اختلفت في تسمية القائد الذي يتولى ذلك التطبيق الكبير.

ولكن حيث لم يكن هذا اليوم الموعود بقريب، ولم يكن قد تحقق الشيء المهم من شروطه... لم يكن من اللازم إعطاء التفاصيل أكثر من هذا المقدار المجمل القليل. ومن هنا نرى ان التبليغات السابقة على الإسلام لم تكن واضحة وكافية لاجتثاث جذر الخلاف في ما تعتقده الديانات من تفاصيل اليوم الموعود.

ومعه فمن الممكن القول ان المقدار المشترك بين هذه الأديان من الاعتراف باليوم الموعود، أمر حق ناتج عن تبليغات الأنبياء عليهم السلام. واما التفاصيل المختلف بشأنها على مستوى هذه الديانات كتسمية القائد وغير ذلك، فهي أمور مضافة إلى تلك التعاليم من قبل الفكر البشري المنفصل عن إلهام

السماء.

ومن هنا نستطيع ان نفسر اتفاق الأديان على ذلك، منسجما مع الغرض الأصلي لإيجاد الخليقة. ونجيب بذلك على ما يذكره بعض المستشرقين المغرضين، من ان بعض هذه الأديان عيال على البعض الآخر في ذلك، وان الاعتقاد باليوم الموعود راجع إلى بعض الأديان القديمة الموروثة... وهو اعتقاد كاذب في رأي هؤلاء المغرضين.

بل هو اعتقاد صادق، اتفقت عليه الأديان باعتبار سبب واحد هو الوحي الإلهي. وكلها تشير إلى أمر واحد هو الغرض الأساسي من إيجاد الخليقة، الذي عرفنا ان يكون من الطبيعي وجوده منذ ولادة البشرية، وتبليغه إلى الناس من أول عهود النبوات.

كما نستطيع بذلك ان نجيب على كلام آخر يقوله بعض المرجفين، من ان الاعتقاد باليوم الموعود، ناشئ من شعور البشرية بالظلم وتوقانها إلى ارتفاعه وسيادة العدل على الأرض.

فإننا عرفنا السبب الحقيقي لوجود هذا الاعتقاد. ومن الواضح ان مجرد التوقان إلى العدل لا يصلح سببا له، لأن الفرد أو المجتمع إذا أمل ارتفاع الظلم عنه، فإنما يود ان يحدث ذلك في الزمن المعاصر القريب، لكي يستفيد منه بشكل وآخر. واما الاعتقاد بوجود اليوم الموعود في أجيال غير معاصرة فهذا مما لا يعود بالمصلحة إلى أي فرد معين، لكي نحتمل انه ناشئ من ظروف الظلم والمصاعب. فضلا عما إذا اقترن بهذا الاعتقاد كون التقديم إليه لا يكون إلا بمرور البشرية بالمشاكل والمظالم. كما نريد البرهنة عليه. فإنه في واقعه اعتقاد بزيادة الظلم والمشاكل على البشرية في أي جيل معاصر، وليس توقانا إلى العدل العاجل بأي شكل من الأشكال.

ومن هنا انحصر السبب في وجود الاعتقاد القديم باليوم الموعود، بتبليغ الأنبياء الناشئ من إلهام السماء.

وإذا طبقنا ذلك على عقيدتنا في المهدي، كما تم عليها البرهان الصحيح، استطعنا ان ندرك بسهولة ووضوح، كيف ان المهدي عليه السلام هو القائد المذخور من قبل الله عز وجل لتحقيق الغرض الأساسي من الخليقة... وان عدداً من الأنبياء السابقين قد اخبروا عن ظهوره، فضلاً عن نبي الإسلام صلى الله عليه وآله الذي تواتر عنه النقل في ذلك. وإنما كان الاختلاف في تسميته نتيجة لاختلاف اللغات، أو للانحراف الناشئ عند أهل الأديان بعد ذهاب أنبيائهم.

النقطة الثالثة:

لم يكن بالإمكان ان يتخذ أي نبي من الأنبياء موقف القائد للتطبيق الأساسي العام لهداية البشر، أو يتكفل إيجاد اليوم الموعود. ولم يكن ذلك داخلاً في التخطيط الإلهي أصلاً. لعدم توفر أي من الشرطين الأساسيين السابقين:

اما بالنسبة إلى اشتراط ان تكون الأمة على مستوى الإخلاص والاستعداد للتضحية في سبيل التطبيق العادل... فعدم توفره في الأمم السابقة على الإسلام واضح جداً. وحسبنا ان نستعرض النصوص الواردة في الأنبياء المشهورين، لنعرف حال البشرية في عصورهم وفي ما بين ذلك من الدهر. فانه إذا لم يستطع النبي منهم ان يرفع مستوى الإخلاص إلى الدرجة العليا في زمانه، فكيف سوف يحدث بعد وفاته؟.

اما آدم عليه السلام فقد ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ كما نص على ذلك التنزيل[1]

(١) طه: ١٢١.

وقال عنه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾[١]. وبدون هذا العزم المطلوب لا يمكن وجود اليوم الموعود.

واما نوح عليه السلام ، فقد قضى المئات من السنين مرشداً واعظاً، فلم يؤثر في الناس أثرا محسوساً حتى شكا إلى الله تعالى قائلاً: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ۝ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا﴾[٢]. حتى اضطر إلى ان يدعو عليهم بالهلاك، فاستجاب الله تعالى دعاءه وأغرقهم بالطوفان. وليس هناك وضوح في النصوص التاريخية في تحديد مقدار ما استطاع نوح عليه السلام اكتسابه من المؤمنين بعد الطوفان.

واما إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام، فقد كان أكثر من سابقيه تأثيراً في توجيه الناس واكتساب إيمانهم وثقتهم به. ولكنه مع ذلك لم يستطع الوصول بالأمة إلى المستوى المطلوب في العدل المطلق. حسبنا من ذلك انه في أول عهده أُلقِيَ في النار ولم يكن يوجد في المجتمع شخص معترض أو مستنكر ولو من الناحية الإنسانية المحضة!... ثم انه بعد فترة غير قليلة من نبوته، وضع زوجته وولده في واد غير ذي زرع، ولم يكن لديه شخص مخلص يضمه إليهما يدفع عنهما الم الجوع والعطش وخوف السباع والهوام. فاكتفى إبراهيم عليه السلام بالدعاء لهما وتركهما وذهب. فكان الله تعالى حافظاً لهذه الأمانة التي أودعت عنده، فجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم. ولولا ذلك لكانا من الهالكين.

واما الأمة التي بعث فيها موسى بن عمران عليه السلام ، فحدث عنها ولا حرج، من حيث التمرد على نبيها وعدم الشعور بالمسؤولية تجاه دينها. وكان المنطق

---

(١) نفس السورة: ١١٥.

(٢) نوح: ٥ ـ ٧.

القائل: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾[١]. هو المسيطر على أذهانهم ومعنوياتهم... فهم على غير استعداد ان يبذلوا أي شيء في سبيل نبيهم وعقيدتهم.

واما عبادتهم للعجل ردحاً من الزمن، ومطالبتهم برؤية الله تعالى جهرة، ومراجعتهم في شأن البقرة التي أمروا بذبحها، وغير ذلك من الحوادث... فهي أوضح من ان تذكر.

واما المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، فحسبنا شاهداً على حال أمته، ان الحواريين وهم طلابه وخاصته واجهوه بهذا الكلام: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تشكيك صريح في قدرة الله تعالى. ومن ثم أجابهم: ﴿قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[٢] إذن فهم لم يطمئنوا به بعد، ولم يعلموا بصدقه. فإذا كان هذا هو مستوى خاصته وطلابه، فكيف حال سائر أفراد الأمة والمجتمع.

إذن، فلم يكن يوجد في الناس على طول التاريخ، ذلك المستوى العظيم من الإخلاص الذي يمكن به بناء العدل المطلق في اليوم الموعود، وإذا كان هذا الشرط غير متوفر، فماذا ترى الأنبياء صانعين، حين يجدون أممهم على هذا المستوى المنخفض من الإخلاص؟.

كيف وقد عرفنا فيما سبق، ان هذا الشرط غير متوفر إلى حد الآن، وان البشرية لا زالت في طريق التربية، لكي يتوفر في ربوعها في يوم من الأيام.

---

(١) المائدة: ٢٤.

(٢) نفس السورة: ١١٢ ـ ١١٣.

واما بالنسبة إلى الشرط الآخر وهو علم الأمة أو البشرية بالأطروحة العادلة الكاملة المأمول تطبيقها في اليوم الموعود... فمن الواضح ان تلك الأطروحة لم تكن ناجزة، ولم يكن البشر على مستوى فهمها على الإطلاق. ويمكن ان يتم بيان ذلك، باستعراض فترات التاريخ إجمالا أيضاً.

اما الأنبياء السابقين على موسى بن عمران عليه السلام، فلم يكن هدفهم إلا ترسيخ العقيدة الإلهية، وتوضيحها بالتدريج، من دون ان يكون لهم تعاليم تشريعية كثيرة. حتى تكللت تلك الجهود بجهود إبراهيم الخليل عليه السلام الذي أوضح عقيدة التوحيد بشكل مبرهن وصحيح. إذن، فلم يكن هناك تشريع مهم فضلاً عن افتراض وجود الأطروحة العادلة الكاملة التي تتكفل التشريع لكل جوانب المجتمع.

واما الفترة التي تبدأ بموسى بن عمران عليه السلام وتنتهي ببعثة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله... فلا شك أنها كانت فترة شرائع تفصيلية، نزلت بها التوراة والإنجيل عن الله عز وجل. ولكنها كانت شرائع تربوية لأجل الوصول والإعداد إلى فهم البشرية للأطروحة الكاملة، ولم تكن ممثلة لتلك الأطروحة نفسها.

ويمكن الاستدلال على ذلك بثلاثة أدلة:

الدليل الأول:

اننا كمسلمين، نعلم بأن التشريعات السابقة على الإسلام ليست هي الأطروحة الكاملة، جزماً. لأن معنى الإيمان بالإسلام، هو كونه ناسخا للشرائع السابقة عليه وملغياً لأحكامها عن مسؤولية البشر. فلو كانت إحدى تلك الشرائع هي الأطروحة الكاملة المأمولة، لوجب إبقاءها سارية المفعول إلى

حين اليوم الموعود، لكي يتربى الناس على تقبلها والتضحية في سبيلها، على ما سوف نعرف بالنسبة إلى الأطروحة الكاملة • فلو نسخت تلك الشريعة المفروضة لكان ذلك مخالفا للغرض الإلهي المطلوب، فيكون مستحيلا. ولكنها نسخت فعلا، كما نعتقد نحن المسلمين بالبرهان. إذن، فتلك الشرائع المنسوخة ليست هي تلك الأطروحة العادلة الكاملة المأمولة.

الدليل الثاني:

أنه لا دليل على ان تلك الشرائع كاملة شاملة لكل جوانب المجتمع، بحيث تصلح لاستيعاب البشرية بالعدل الكامل. ولعل أوضح دليل على ذلك القول المشهور عن المسيح عليه السلام: دع ما لله لله وما لقيصر لقيصر. فإن إيكال ما لقيصر وهو الحاكم الدنيوي لكي يمارس فيه سلطته وحكمه، يعني ان الشريعة المسيحية لم تكن لتستوعب الجانب القضائي والجنائي والاقتصادي للحياة ونحو ذلك. مما يضطر المسيح إلى التصريح بلزوم إيكال ذلك إلى القانون الدنيوي الوضعي السائد، لئلا تتشتت أمور الناس وتتميع مصالحهم.

وهذا الدليل خاص بالمسيحيين وملزم لهم باعتبار اعتقادهم صحة نقل هذه العبارة عن المسيح، بعد ان وردت في الإنجيل الموجود في اليد[1] الذي هو الصحيح عندهم.

وأما نحن كمسلمين، فلا نؤمن بكل ما ورد في الإنجيل السائد، كما يبرهن عليه في بحوث العقائد عادة. كما اننا لا نستطيع ان نؤكد نقص الشريعة الواقعية النازلة على المسيح عيسى بن مريم عليه السلام، وان كان ذلك محتملا على أي حال، بحسب المصالح الزمنية التي توخاها الله تعالى لخلقه في تلك الفترة من الزمن.

---

(١) إنجيل متى، الإصحاح الثاني والعشرون / ٢٢.

الدليل الثالث:

انه لا دليل على ان تلك الشرائع عالمية وعامة لكل البشر. إذ من الممكن القول، من وجهة نظر أصحاب هذه الديانات: انها شرائع إقليمية خاصة ببني إسرائيل. ومن هنا نرى كتب العهدين تؤكد على أهمية هذا الشعب بالخصوص، وانه شعب الله المختار. ومن هنا نرى اليهود إلى الآن لا يقبلون يهودية شخص لا يكون من بني إسرائيل، لاعتقادهم الراسخ ان اليهودية دين إسرائيلي على التعيين.

فإذا كانت تلك الشرائع على هذا الغرار... فهي إذن ليست تلك الأطروحة الكاملة الشاملة للبشرية جمعاء. بل تكون قاصرة بطبيعتها عن ان تحقق الغرض الإلهي الكبير.

وهذا الدليل باطل عندنا، كمسلمين، باعتبار الاحتمال - على اقل تقدير- بتجدد الإقليمية في عصر منحرف متأخر عن عصور دعوتهم الأولى، حتى أصبحت بعد ذلك من العقائد الأساسية في دينهم. إلا ان هذا الدليل على أي حال، ملزم لمن يعتقد بالديانتين: اليهودية والنصرانية، وبخاصة اليهود، باعتبارهم اشد تطرفاً في الإقليمية من المسيحيين.

وعلى أي حال، فقد تبرهن عدم وجود الأطروحة الكاملة العادلة قبل الإسلام، وستأتي بعد قليل بعض الإيضاحات لذلك. إذن، فلم يكن كلا الشرطين الأساسيين لتحقق اليوم الموعود والعدل العالمي المطلق، موجودا. فكان من المتعذر ان يتصدى أي واحد من الأنبياء لتولي القيادة الرائدة لتحقيق ذلك الغرض الكبير.

* * *

الجهة الثالثة:

التخطيط الإلهي بعد الإسلام.

ونعني به ذلك الجزء من التخطيط الإلهي الذي يبدأ بظهور الإسلام، وينتهي باليوم الموعود، وينبغي ان نرى موقف الإسلام من هذا التخطيط، وموقف قادته منه، وأثرهم فيه.

النقطة الأولى:

الإسلام هو الأطروحة العادلة الكاملة، المذخورة للتطبيق في اليوم الموعود.

يدلنا على ذلك: الأدلة القطعية الدالة على ان الإسلام آخر الشرائع السماوية، وأنه لا نبي بعد نبي الإسلام وان (حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة). فلو كان ناقصا لما حقق الغرض الإلهي الكبير، ولوجب على الله تعالى تحقيق غرضه المهم بإيجاد أطروحة أخرى كاملة ينزل بها نبي آخر. وهو خلاف الدليل القطعي بأنه لا نبي بعد نبي الإسلام.

مضافا إلى الأدلة القطعية الدالة على عالمية الدعوة الإسلامية واستيعابها لكل المشاكل والأحكام، وانه (ما من واقعة إلا ولها حكم)، مما يجعل لها الصلاحية الكاملة، لتكون هي الأطروحة العادلة في اليوم الموعود.

ومن الملحوظ بوضوح ان هذه الأدلة القطعية، منطلقة من زاوية إسلامية، وأما إذا أردنا الانطلاق من زوايا أخرى، فيجب البدء بإثبات صحة الإسلام وصدقه أساسا، وهذا موكول إلى محله من بحوث العقائد.

وقد يقول قائل: فلماذا لم تنزل تعاليم الإسلام قبل عصر نزولها، لتكون

هي الأطروحة المتوفرة منذ العصر الأول؟.

وجواب ذلك متوفر فيما قلناه من قصور البشرية في الأزمنة السابقة على الإسلام عن فهم الأطروحة الكاملة. وان الأنبياء السابقين جاهدوا في تربية البشرية لجعلها قابلة لهذا الفهم. ولا يمكن ان يرسل الله تعالى تلك الأطروحة لمن لا يفهمها ولا يستطيع استيعابها، لأنها لا تنتج حينئذٍ أي أثر.

إذن، فلا بد لنا الآن من إيضاح معنى قصور البشرية عن تلقي تعاليم الإسلام في العصور السابقة عليه.

وفي الحق ان عدداً مما جاء به الإسلام من تعاليم، كان متعذراً جداً ان يستوعب البشر معناها يومئذٍ استيعاباً كافياً... إلى حد ستكون الدعوة إلى تلك الأحكام منشأ للغرابة في ذلك العصر، مما يجعل مجرد الإيمان بها صعباً فضلاً عن استيعابها الدقيق، فضلاً عن تطبيقها الشامل. وحسبنا في هذا الصدد استعراض جوانب أربعة:

الجانب الأول:

ان مستوى العقيدة الإلهية التي جاء بها الإسلام من التجريد والتوحيد الخالصين، لم يكن موجوداً بوضوح في الشرائع السابقة. وإنما كانت هذه العقيدة في تطور مستمر، في ألسنة الأنبياء على مرور الزمن، إذ يعطي كل نبي من تلك العقيدة ما يناسب المستوى الثقافي والفكري الذي وصلت إليه البشرية في خطها التربوي الطويل.

وهذا واضح جداً لمن استعرض دعوات الأنبياء المتسلسلين. فنرى الأنبياء السابقين على موسى بن عمران لا يكادون يذكرون من صفات الله تعالى إلا ما كان ظاهراً من آثاره وأفعاله عز وجل. من انه ﴿يُرۡسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيۡكُم مِّدۡرَارٗا ﴿١١﴾

وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[1].

إلا ما كان من محاولة إبراهيم الخليل عليه السلام من محاولة البرهنة على التوحيد، على شكل بسيط النتائج بالنسبة إلى ما جاء به الإسلام من صفات. ثم اننا نجد اليهود الآن يؤمنون ببعض أشكال التجسيم، ونجد المسيحيين يؤمنون ببعض أنحاء التعدد. وهذه بالرغم من انها عقائد باطلة نعلم باليقين انها لم ترد في شرائعهم وتعاليم أنبيائهم. إلا أنهم، على أي حال، لم يجدوا في ما بلغهم عن أنبيائهم ما ينافي ذلك، أو يكون دليلا صريحا على بطلانه. وإلا لم يكونوا ليلتزموا بهذه العقائد بطبيعة الحال. ومعنى ذلك ان موسى وعيسى عليهما السلام لم يوضحا بصراحة التجرد الكامل والتوحيد المحض لله عز وجل، مواكبة مع المستوى العقلي والثقافي للبشرية في تلك العصور.

الجانب الثاني:

ان فكرة الدعوة العالمية التي قام عليها الإسلام، لم يكن ليسيغها المجتمع الذي كان يرزح في عواطف قبلية وعنصرية وقومية، لمدة عدة مئات من السنين. ومن هنا جاءت فكرة (شعب الله المختار) واختصاص الدعوتين اليهودية والمسيحية في أنظار المؤمنين بها ببني إسرائيل دون سائر الناس.

الجانب الثالث:

ان فكرة الدولة النظامية التي جاء بها الإسلام ومارسها الرسول

---

(١) نوح: ١١ ـ ١٦.

الأعظمﷺ، وحاول تطبيقها من جاء بعده إلى الحكم من الخلفاء. ان هذه الفكرة لم يكن ليفهمها الناس قبل الإسلام، بأي حال، كيف وهم يعيشون الجو القبلي والعنصري، حتى ان الملوكية في تلك العصور كالسلطة الفرعونية أو القيصرية، لم تكن إلا توسيعا لفكرة السلطة القبلية والاقطاع الذي يدعي لنفسه ملكية الأراضي والفلاحين جميعاً، وهم يمثلون الأعم الأغلب من الشعب يومئذٍ.

ومن هنا لم يكن في الإمكان ان تتكفل الديانات السابقة بإيجاد النظام الإداري أو الحكومي، بأي حال. وإنما كان الأنبياء وأوصياؤهم يضطلعون بقيادة شعوبهم بشكل فردي مع الحفاظ على السلطة الدنيوية في عصورهم.

الجانب الرابع:

اننا نجد في الإسلام دقة في فهم الأحكام وفي تنظيمها، في العبادات والمعاملات والعقوبات والأخلاق، ما لا يكاد يفقهها الناس السابقون... كما يتجلى ذلك بوضوح لمن راجع الأحكام الإسلامية المعروضة في الكتاب الكريم والسنة الشريفة، واطَّلَع أيضاً على تفاصيل الأحكام المعروضة في التوراة والإنجيل، وتوفر للمقارنة بينهما.

إذن، فكيف تصلح الشرائع السابقة، لأن تكون هي الأطروحة العادلة الكاملة... وكيف يصلح أهل العصور الأولى لتعقل هذه الأطروحة المتمثلة بأحكام الإسلام. ومعه يتضح بجلاء انه لم يكن في الإمكان نزول أحكام الإسلام قبل العصر الذي نزل فيه.

النقطة الثانية:

بُعث نبي الإسلامﷺ بالأطروحة التشريعية العادلة الكاملة، بعد ان

أصبحت البشرية في مستواها العقلي والثقافي العام قابلة لفهمها واستيعاب أحكامها، لتكون هي الأطروحة المأمولة في اليوم الموعود.

ولكنه- مع شديد الأسف- لم يكن في الإمكان ان يتكفل التطبيق العالمي الموعود، لعدم توفر الشرط الثاني من الشرطين الأساسيين لوجود هذا التطبيق. . . ولا زال هذا الشرط غير متوفر إلى حد الآن.

فبينما كان المانع بالنسبة إلى الأنبياء السابقين عن هذا التطبيق، هو عدم توفر كلا الشرطين. . . نجد ان المانع بالنسبة إلى نبي الإسلام هو عدم توفر شرط واحد منهما، بعد ان تمت تربية البشرية على الشرط الآخر على أيدي الأنبياء السابقين.

ولسائل أن يقول: فلماذا تمت تربية البشرية على احد الشرطين ولم تتم تربيتها على الشرط الآخر؟ بالرغم من جهود الأنبياء في الخط التاريخي الطويل.

ويمكن الانطلاق إلى الجواب من زاويتين:

الزاوية الأولى:

ان توفير الشرط الأول، وهو إيجاد المستوى اللائق في البشرية من الناحية العقلية والثقافية لفهم العدل الكامل. . . أسهل بكثير من توفير الشرط الثاني وهو الوصول بالبشرية إلى المستوى العالي من الإخلاص والتضحية.

فإن تربية الفكر والثقافة لا تواجه عادة من الموانع والعقبات ما تواجهه التربية الوجدانية من ذلك، متمثلة في الشهوات والمصالح الخاصة، وظروف الظلم والإغراء، فمن الطبيعي ان تحتاج التربية الأولى إلى زمن اقصر بكثير من

الزمن الذي تحتاجه التربية الثانية. ومن الطبيعي ان يكون البشر لدى أول نضجهم الفكري في التربية الأولى غير ناضجين وجدانيا في التربية الثانية، لأن هذه التربية لم تكن قد آتت أكلها بعد، وإنما تحتاج إلى توفير زمان آخر طويل حتى تتوفر نتائجها بوضوح.

ومن هنا أمكن وصول البشر إلى الحد الثقافي المطلوب، فاستحقت عرض الأطروحة الكاملة عليها وإفهامها إياها... على حين لم تكن قد وصلت إلى الحد المطلوب من الناحية الوجدانية، لتستطيع تحمل القيادة العالمية بين يدي النبي ﷺ.

الزاوية الثانية:

ان البشرية مهما كانت قد تطورت من الناحية الوجدانية، على أيدي الأنبياء السابقين... فإنه على أي حال غير كاف لإيجاد الإخلاص المطلوب الذي به يكون تحمل مسؤولية العدل العالمي الكامل في اليوم الموعود. باعتبار ضرورة ان تتربى البشرية على الأطروحة بعد نزولها ومعرفتها، بما فيها من دقة وعمق. فإنه إذ يكون المطلوب هو تطبيق هذه الأطروحة، يكون الشعور بالإخلاص نحو الهدف ككل، ذلك الإخلاص الناتج من جهود الأنبياء السابقين.

فكان لا بد لأجل ضمان نجاح التطبيق في اليوم الموعود، ان تمر البشرية بظروف معينة، تكفل لها التربية على الإخلاص على الشكل الدقيق للأطروحة الكاملة المتمثلة بالإسلام. وقد قلنا ان الهدف الإلهي الأسمى، هو فوق كل الاعتبارات، فيتعين على الأمة الإسلامية ان تعيش الظروف التي تربيها وتمحصها من جديد.

وبدأت الظروف الطارئة بالحدوث والتواتر، متمثلة في عدة أمور:

الأمر الأول:

انقطاع الوحي بموت رسول الإسلامﷺ.

الأمر الثاني:

انقطاع التطبيق الناجح للشريعة الكاملة، بموت النبيﷺ أو بانتهاء الخلافة الأولى.

الأمر الثالث:

ابتناء الحكم في البلاد الإسلامية على أساس من المصالح السياسية الظالمة المنحرفة.

الأمر الرابع:

ضعف المستوى الأخلاقي لدى الناس بشكل عام، وتقديمهم مصالحهم الشخصية على إتباع تعاليم دينهم سواء على الصعيد الفردي أو الاجتماعي. ويكاد كل واحد من هذه الأمور، فضلا عن مجموعها، أن يكون موجبا ليأس الفرد العادي والشعور بالتحلل والابتعاد عن الإسلام.

ومن هنا كان الشخص محتاجا في استمراره على إخلاصه وإيمانه، إلى قوة الإرادة وشعور بالمسؤولية الإسلامية، أعلى من المستوى المطلوب. وكان الأشخاص الممثلين لهذا الإخلاص، قد نجحوا في عملية التمحيص والاختبار الإلهية، بهذا المقدار.

إلا ان هذا المقدار غير كاف في إيجاد الإخلاص الذي يتطلبه القيام بمسؤولية اليوم الموعود، فكان لا بد ان تمر الأمة بتمحيص ضخم وعملية غربلة حقيقية، حتى ينكشف كل فرد على حقيقته، فيفشل في هذا التمحيص

كل شخص قابل للانحراف، لأجل أي نقص في إيمانه أو عقيدته أو إخلاصه.

وكان هذا التمحيص الضخم متمثلا بظرفين مهمين تمر بهما الأمة الإسلامية، بل البشرية كلها إلى العصر الحاضر.

الظرف الأول:

غيبة الإمام المهدي عليه السلام، تلك الغيبة التي توجب للغافل عن البرهان الصحيح، الشك بل الإنكار.

الظرف الثاني:

تيار الردة عن الإسلام، واقصد به التيارات المعادية للإسلام، والتي تحمل بين طياتها معاني الخروج عنه والتبري من عقيدته. بما فيها تيار التبشير المسيحي الاستعماري، وتيار الحضارة الغربية المبني على التحلل الخلقي وإنكار المثل العليا. والتيارات المادية الصريحة كالشيوعية والوجودية وغيرها... تلك التيارات التي استطاعت ان تصطاد من امتنا الإسلامية ومن العالم كله، ملايين الأفراد.

وتحت هذين الظرفين، كان التمسك بالإخلاص العالي، عمل جهادي في غاية الصعوبة والتعقيد، ويحتاج إلى مضاعفة الجهود في سبيل المحافظة على مستواه فضلا عن الصعوبة وتكميله فكان (القابض على دينه كالقابض على جمرة من النار) وكان المخلصون على المستوى العالمي، في غاية القلة والندرة بالنسبة إلى مجموع سكان العالم... وان كنا لو لاحظنا مراتب الإخلاص الثلاثة أو الأربعة السابقة، فإن النسبة تتسع عن هذا المقدار الضيق بكثير.

ولا زالت البلايا والمحن تتضاعف، وظروف التمحيص والاختبار الإلهي

تتعقد وتزداد. . . حتى أصبح الفرد يقهر على ترك دينه والتمرد على تعاليم ربه، بمختلف أساليب الخوف والترغيب. ولعل المستقبل- ان لم يأذن الله تعالى بالفرج والظهور- كفيل بأن نواجه أشكالاً من الخطر والبلاء على ديننا ودنيانا هي أهم وأصعب مما حصل إلى حد الآن. فليفهم كل مسلم موقفه، وليتلمس درجة إيمانه ويشخص مقدار قابليته على الصمود، قبل ان يسقط في هاوية الانحراف. لكي يوطن نفسه على الصبر والجهاد على كل حال ليكون له فخر المشاركة في بناء العدل العالمي في اليوم الموعود.

وقد يخطر في الذهن: ان ما قلناه من ان ظروف الظلم دخيلة في التمحيص والاختبار الإلهي، يلزم منه ان يكون الله تعالى راضيا بوجود الظلم والانحراف، وهذا خلاف الأدلة القطعية في الإسلام.

ويمكن الجواب على ذلك من زاويتين نذكر إحداهما ونؤجل الأخرى إلى حين اتضاح مقدماتها في مستقبل البحث.

والزاوية التي نود الانطلاق إليها الآن هي ان الأدلة القطعية في الإسلام قامت على ان الله تعالى لا يريد الظلم، بمعنى انه لا يجيزه تشريعا، فليس في شريعة الإسلام حكم ظالم، وليس أي ظلم مما يقع يكون مجازا من قبل الشريعة، بل يتصف بالحرمة والشجب حتما. إذ من الواضح ان الإسلام إنما شرع ليخرج البشرية من ظلمات الظلم إلى نور العدل، بل هو - كما عرفنا- يمثل العدل الكامل من جميع الجهات، بشكل لم يتحقق في أي تشريع آخر على مدى التاريخ.

واما بحسب التدبير التكويني لله تعالى في مخلوقاته، فمن الواضح الضروري ان الله تعالى سمح بوجود الظلم، ولم يسبب الأسباب إلى قمعه قهراً وعلى كل حال، إذ لو كان الله تعالى لا يريد الظلم- بهذا المعنى- لما وجد

الظلم على سطح الأرض.

إلا ان سماحه بوجود الظلم، لا يعني قهر الظالمين على إيجاد الظلم، بل الظلم يوجد باختيار الظالمين وبمحض إرادتهم، بعد ان وفر الله تعالى لهم فرص الطاعة وهداهم النجدين وعرفهم حرمة الظلم من الناحية التشريعية. فانحرفوا باختيارهم وأوجدوا الظلم باختيارهم، من دون ان يكون لله عز وجل أي تسبيب إلى إيجاده.

إذن، فالظلم غير مراد لله تعالى، لا تشريعاً لأنه حرمه في شريعته ونهى الناس عنه، ولا تكوينا، لأنه عز وجل لم يقهر الناس عليه. وإنما غاية ما هناك انه سمح من الناحية التكوينية بوجود الظلم في خليقته ناشئا من اختيار الظالمين، وذلك للتوصل إلى هدفين مهمين:

الهدف الأول:

المحافظة على الاختيار ونفي الجبر الذي قام البرهان على استحالته على الله عز وجل. فإنه لو قهر عباده على ترك الظلم لم يكن الاختيار متوفراً كما هو واضح.

الهدف الثاني:

إجراء قانون التمحيص والاختبار. الذي يفيد من الناحية الفردية، بالنسبة إلى كل فرد من البشرية على الإطلاق ﴿لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾[1]. ويفيد من الناحية العامة باعتبار ان له اكبر الأثر في تحقق الهدف الأساسي من إيجاد الخليقة نفسها. فإن المجتمع

(١) الأنفال: ٤٢.

الموعود، لا يمكن ان يحدث ما لم تسبقه فترة من التمحيص لتوفير شرطه الثاني الذي عرفناه. وفي ما يلي من البحوث ما يزيد ذلك جلاء ووضوحاً.

النقطة الثالثة:

كما شارك الأنبياء السابقون عليهم السلام في التبشير باليوم الموعود، استمر نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وخلفاؤه المعصومون عليهم السلام وكثير من صحابته في هذا التبشير. وكان تبشيرهم أهم وأوسع، باعتبار انهم يحملون إلى العالم نفس الأطروحة العادلة التي سوف تأخذ طريقها إلى التطبيق في اليوم الموعود. فهم اقرب إلى ذلك اليوم وألصق به من الأنبياء السابقين... وأشد مسؤولية بالتمهيد له وإيجاد المقدمات المؤدية إليه.

فكان ان اضطلع النبي صلى الله عليه وآله ومن بعده بتهيئة الذهنية العامة للأجيال، عن ذلك بالتركيز على ثلاث قضايا مهمة:

القضية الأولى:

الأخبار بوجود الغرض الإلهي الكبير، والتبشير بتحقق اليوم الموعود الذي يأخذ فيه العدل الكامل طريقه فيه إلى التطبيق. ويكفينا من ذلك ان القرآن الكريم نفسه شارك في هذا التبشير حين قال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1] أو حين قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾... الخ الآية[2] أو حين قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات.

---

(١) الذاريات: ٥٦.

(٢) سورة النور: ٥٥.

(٣) التوبة: ٣٣ والفتح: ٢٨ والصف: ٩.

القضية الثانية:

التأكيد على ان القائد الرائد لإنجاز ذلك الغرض الكبير، هو الإمام المهدي عليه السلام كما ورد في النصوص المتواترة عن النبي صلى الله عليه وآله وهي أيضاً متواترة عمن بعده. ولإثبات هذا التواتر مجال آخر. وحسبنا انها أخبار مروية ومعترف بصدقها وتواترها من قبل الفريقين.

وإنما كان هذا التأكيد لكي وتكون الأمة على علم بمستقبل أمرها من ناحية، ومطلعة على اسم قائدها العظيم من ناحية أخرى. فإنه لا ينبغي ان تُفَاجَأ الأمة بالظهور من دون إخبار سابق. ولكي لا تكون هذه القيادة ممكنة الانتحال والتزوير، ولو في حدود ضيقة، من قبل أشخاص آخرين. على ما سنوضحه في الجهة الآتية إن شاء الله تعالى.

القضية الثالثة:

الإخبار بما سيقع في هذا العالم من ظلم وفساد، كما وردت بذلك الأعداد الضخمة من الأخبار، على ما سنسمع في الفصل الآتي. وكان هذا الإخبار مشفوعا بذكر التكليف الإسلامي وأسلوب العمل الواعي في هذه الظروف... حتى يكون الفرد على بصيرة من أمره عارفا بضرورة الصمود تجاه تيار الانحراف والفساد، لكي يكتب له النجاح في التمحيص الإلهي، فيكون من المخلصين الممحصين الذين يكون لهم شرف المشاركة في ترسيخ قواعد العدل العالمي في اليوم الموعود.

واما الذي يسير مع تيار الانحراف، فلا يهمه- بطبيعة الحال- ان يفهم التكليف الإسلامي الواعي، ومعه يكون من الفاشلين في التمحيص والاختبار.

ومن هنا نستطيع ان نفهم بوضوح، ارتباط كل هذه القضايا التي بُلغت إلى

الأمة، بالتخطيط الإلهي لليوم الموعود... لتشارك في إعداد أكبر عدد ممكن من المخلصين الممحصين على طول الخط، بتهيئة الذهنية العامة لهذه الحقائق وإقامة الحجة عليها، حتى يكون الفرد المسلم على بينة من أمره وبصيرة من دينه، فيختار سبيل الرشاد بين تيارات الانحراف، كما هو المطلوب.

النقطة الرابعة:

وقد رأينا المهدي عليه السلام نفسه في البحوث السابقة يشارك بتهيئة الذهنية العامة للأمة لليوم الموعود، تلك التهيئة التي توفر له شروطه الأساسية. وذلك باتخاذ خطوات ثلاث:

الخطوة الأولى:

إقامة الحجة على وجوده بتكرار المقابلات مع عدد من الناس كبير نسبياً، خلال الغيبة الصغرى والغيبة الكبرى معاً. وبذلك يؤسس للمسلمين أساس الصمود ضد واجهة كبرى للشك في وجوده.

الخطوة الثانية:

إعطاء الأطروحة التامة لفكرة غيبته وظهوره. كما سمعنا ذلك في عدد من مقابلاته وتوقيعاته، في غيبته الصغرى، كمقابلته مع علي بن مهزيار وتوقيعه للاسدي[1].

وبذلك يعطي الثقافة الكافية التي تعطي الدفع الأساسي للفرد المسلم للصمود والثبات عن بصيرة وتفهم حقيقي للهدف المنشود.

---

(١) انظر مثلا تاريخ الغيبة الصغرى، ص ٥٣٥ وغيرها.

الخطوة الثالثة:

العمل على إزالة الظلم والطغيان، في الحدود التي سبق ان ذكرناها في القسم الأول من هذا التاريخ.

وبذلك يعطي الفرد المسلم فرصة اكبر للنجاح في التخطيط والتمحيص الإلهيين، باعتبار قلة الموانع والتعسفات نسبياً، ضد الإيمان والإخلاص، حينئذ. مما يفسح مجالا أوسع للعمل على طبق الإخلاص وتبليغ مؤداه إلى الآخرين.

فالمهدي عليه السلام في كل هذه الخطوات، يسير في خط التخطيط الإلهي العام لليوم الموعود، كما سبق ان سار سلفه الصالح المتمثل بالأنبياء والأئمة عليهم السلام. وكيف لا يكون كذلك، وهو القائد العظيم المذخور لذلك اليوم العظيم.

* * *

الجهة الرابعة:

أهمية القيادة في التخطيط الإلهي.

ويمكن ان ننطلق إلى الحديث في هذه الجهة من عدة نقاط:

النقطة الأولى:

لا بد لكل حركة من قيادة ولكل دولة من رئيس. ولا شك انه كان على رأس كل حركة ناجحة في التاريخ قائد محنك مقدام استطاع ان يسير بها قدما إلى الأمام.

وهذا أساسا، مما لا بد منه، بحيث يستحيل عادة وجود حركة ما من دون قيادة وتوجيه مهما كانت الحركة ضئيلة والقيادة مبسطة. فإن الجماعة - أيا كانت- بصفتها مكونة من عدد من الأفراد مختلفين في التدبير ووجهات النظر، لا تكاد تستطيع ان تحفظ مصالحها في حاضرها ومستقبلها، إلا بشخص أو عدة أشخاص يأخذون فيها مركز القيادة والتوجيه. فكيف إذا تضمنت الحركة إصلاح العالم برمته وضمان تطبيق العدل الكامل على البشرية جمعاء. ومباشرة التطبيق من حكم مركزي واحد ودولة عالمية واحدة.

ونحن نرى ان الدول كبيرها وصغيرها، بالرغم من تضامن أفرادها وتدقيقهم في الأمور السياسية والاجتماعية والاقتصادية، لأجل قيادة جزء من العالم... فإنه يظهر على مر الزمن فشلها وسوء تصرفها، وأخذها بالمصالح الخاصة للقادة لا بالمصالح العامة للناس. فكيف بقيادة العالم كله.

إذن، فلا بد، من اجل ضمان تحقق الغرض الإلهي الكبير، من إيجاد شخص مؤهل من جميع الوجوه، لأجل الأخذ بزمام القيادة العالمية في اليوم الموعود. ولأجل هذا وجد المهدي عليه السلام.

النقطة الثانية:

لا شك ان النبي صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام بعده كان لهم القابلية الكاملة للقيادة العالمية. لضم مقدمتين نذكرهما هنا مختصرا ونحيل تفاصيلهما إلى موطنه من أبحاث العقائد الإسلامية.

المقدمة الأولى:

ان كل شخص يعينه الله تعالى للقيادة، لا بد ان تكون له القدرة على تلك

القيادة. اذ يقبح على الله تعالى ان يعين شخصاً لمهمة وهو قاصر عن أدائها. فمثلا إذا كان نبي مرسل إلى هداية مدينة واحدة كان لا بد ان يهبه القدرة على أداء مسؤوليته، وإذا كان مرسلا إلى هداية منطقة كبيرة من العالم فلا بد من ان يكون له القدرة على ذلك وهكذا. ولا يمكن ان يوكل الله تعالى شيئا من المهام إلى شخص غير قابل لأدائها. بل اما ان يكون الشخص قابلا لذلك قبل إيكال المهمة إليه، أو ان يهبه الله تعالى تلك القابلية بعد إيكال المهمة إليه. وعلى أي حال يكون حال تصديه لأداء مهمته على أتم القابلية والاستعداد.

المقدمة الثانية:

ان دعوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم عالمية، كما ان المسؤوليات التشريعية المنوطة بقيادته معقدة وكبيرة.

إذن، يتعين القول بأن الله تعالى أعطى النبي صلى الله عليه وآله وسلم القابلية الكاملة للدعوة والدولة العالميتين. وحيث ان الأئمة عليهم السلام منصوبون بتعين من الله تعالى، ليقوموا مقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأخذ بزمام مسؤولياته بعد وفاته، من وجهة النظر الإمامية، إذن، فلا بد ان يكون الله تعالى قد أعطاهم القابلية الكاملة للقيادة العالمية. وبهذا الدليل يتعين ان يكون للمهدي عليه السلام مثل هذه القابلية، والأهلية، بصفته احد الأئمة المعصومين الاثني عشر عليهم السلام من زاوية النظر الإمامية، أو بصفته خليفة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في آخر الزمان المنصوص عليه من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم. كما يعترف به كل المسلمون. وعلى أي حال، فالمهدي عليه السلام يوجد قابلا للقيادة العالمية، قابلية متناسبة مع سعة دعوته ومسؤولياته في انجاز العدل الكامل وتنفيذ الغرض الإلهي الكبير.

النقطة الثالثة:

وكان لا بد للغيبة ان تشارك في التخطيط الإلهي. لأن الإرادة الإلهية بعد ان تعلقت بأن يكون الإمام محمد بن الحسن العسكري عليه السلام مهدياً للأمة، كما يذهب إليه الإمامية وعدد من العامة... كان لا بد من الحفاظ عليه إلى ان يتحقق الشرط الأساسي لتنفيذ ذلك الغرض الكبير.

فإننا إن قلنا بأن المهدي يولد في زمانه، كان هذا خلاف هذا الاعتقاد. وان قلنا بوجوده متقدما كان لا بد من اختفائه حفاظاً على حياته، حتى يظهر الله أمره وينفذ وعده، وهو معنى الغيبة.

فإن قال قائل: يمكن ان نلتزم ان المهدي عليه السلام ولد في الزمان المتقدم، ثم يموت، ثم يحييه الله تعالى للقيام باليوم الموعود.

نقول في جوابه: ان هذا غير صحيح لعدة وجوه.

أولاً: انه افتراض لم يقل به احد. فهو على خلاف اعتقاد كل المسلمين. إذن، فهو باطل جزماً.

ثانيا: اننا ان فهمنا الغيبة طبقاً لأطروحة خفاء الشخص، فليس الحياة بعد الموت أولى منها، من الناحية الإعجازية. وان قلنا بالغيبة طبقا لأطروحة خفاء العنوان، كانت هذه الأطروحة أولى بالأخذ من ذلك الافتراض، لأنها اقرب إلى الأسلوب الطبيعي، كما عرفنا فيما سبق، وقد عرفنا أيضاً ان قانون المعجزات ينفي كل معجزة يمكن ان يوجد الغرض منها بشكل طبيعي.

ثالثاً: اننا مع هذا الافتراض سوف نخسر شيئا أساسيا سوف نشير إليه، وهو تكامل القائد خلال عصر الغيبة من تكامل ما بعد العصمة. إذ مع ذاك

الافتراض لا يكون هذا التكامل موجودا، فإنه لا محالة يحيى على نفس المرتبة التي مات عليها من الكمال.

إذن، فالحفاظ على القائد العظيم، هو المطلوب الأساسي من الغيبة. الذي تشارك فيه الغيبة في التخطيط الإلهي.

ويمكن ان نضيف عدة أمور أخرى يشارك فيها عصر الغيبة في هذا التخطيط:

الأمر الأول:

تكامل القائد، من تكامل ما بعد العصمة، ذلك الكمال الذي يؤهله إلى مرتبة أعلى وأعمق وأسهل في نفس الوقت من أساليب القيادة العالمية العادلة. وسنبحث ذلك مفصلاً في القسم الثالث من هذا التاريخ.

الأمر الثاني:

ما سمعناه في القسم الأول من قيام المهدي عليه السلام بالعمل الإسلامي المنقذ للأمة من الهلكات، والفاتح أمامها سبل الخير، والموفر- في نتيجته- اكبر مقدار من المخلصين الممحصين، المشاركين في بناء الغد الموعود.

الأمر الثالث:

مساهمة الحوادث التي تمر خلال عصر الغيبة الطويل، بإيجاد شرط الظهور، وهو كون الأمة على مستوى المسؤولية. كما سبق ان أوضحنا.

الأمر الرابع:

شعور الأمة، على طول الخط، بوجود القائد الفعلي لها الماسك بزمام

أمرها والمطلع على خصائص أعمالها. ذلك الشعور الذي يرفع من معنويات الأفراد ويقوي فيهم روح العزيمة والإخلاص، مما يساعد على زيادة إعداد المخلصين الممحصين.

الأمر الخامس:

تعمق الفكر الإسلامي من حيث الفهم من الكتاب والسنة، سواء في العقائد أو الأحكام، مما يجعل الأذهان مستعدة أكثر فأكثر لتقبل وفهم الأحكام التفصيلية التي يعلنها المهدي عليه السلام في دولته العالمية الموعودة.

ونحن لا زلنا نرى المفكرين الإسلاميين، يتحفون مجتمعهم ببحوث وتدقيقات جديدة، قائمة على التعمق والسعة في فهم الكتاب والسنة، من جوانبها المتعددة، فهذه البحوث كلها واقعة ضمن التخطيط الإلهي الكبير.

ونحن نشعر بما لتعقد الحياة وتضاعف الظلم البشري ووجود التيارات المعادية للإسلام. . . من إيجاد الدافع القوي للمفكرين الإسلاميين، في السير قدماً نحو التعمق والتدقيق. فيكون ذلك من هذه الجهة أيضاً، مندرجا في التخطيط الإلهي. وقد يخطر في الذهن: اننا سبق ان قلنا ان الأمة عند نزول الإسلام كانت على مستوى فهمه وقابلة لاستيعابه، بصفته الأطروحة العادلة الكاملة، إذن، فهم قد فهموه. فما هو الحاجة إلى هذه الزيادة في التدقيقات.

وجواب ذلك: اننا نحتمل- على اقل تقدير- ان الأطروحة العادلة المعلنة بين البشر ذات مستويين من الناحية الفكرية. فالمستوى الأدنى منها، كان البشر على مستوى فهمه واستيعابه عند بدء الإسلام. وهو الذي أصبح معلنا منذ ذلك الحين إلى عصر الظهور. وهو الذي يعيش التدقيقات والتعميق على طول الزمن. والمستوى الأعلى منها سوف يعلن بعد الظهور عند الابتداء بالتطبيق

العادل. وهو يحتاج في فهمه إلى مستوى فكري وثقافي في البشرية لا يحصل إلا بتلك التدقيقات. ولو كان قد أعلن في بدء الإسلام لما كان مفهوما على الإطلاق.

وهذا الأمر وان كنا نعرضه الآن معرض الاحتمال، إلا اننا سنسمع في الكتاب الآتي من هذه الموسوعة مثبتات ذلك.

إذن، فهذه الدقة المكتسبة في الفكر الإسلامي لها اكبر الأثر في فهم الأطروحة الكاملة على شكلها الجديد المعلن بعد الظهور.

بقي علينا ان نشير إلى انه ليست الدقة في الفكر الإسلامي فقط هي التي تشارك في تعميق المستوى الثقافي اللازم تحققه في اليوم الموعود... بل تشارك في ذلك سائر القطاعات والشعوب في العالم، بما تبذل من دقة وعمق في سائر العلوم.

لوضوح ان البشرية على العموم، وليس المجتمع المسلم وحده، هو الذي يجب ان يتقبل الأحكام المهدوية... فإن حكم المهدي عليه السلام يعم العالم كله، ولا يختص بالمجتمع الإسلامي.

مضافا إلى ان التقدم العلمي في سائر حقول المعرفة البشرية، سوف تشارك مشاركة فعالة في بناء الغد المنشود، ذلك الغد الذي يصعب تقدم البشرية بالسرعة المطلوبة بعد تحققه، لولا انها كانت قد تقدمت وتكاملت قبل ذلك.

إذن، فعصر الغيبة يشارك في التخطيط الإلهي من هذه الناحية أيضاً.

• • •

وبهذا نكون قد حملنا فكرة كافية عن التخطيط الإلهي والتمحيص الذي ينال البشر خلال عصر الغيبة الكبرى. وهو ما عنيناه في عنوان هذه الناحية الأولى من هذا الفصل من اقتضاء القواعد العامة في الإسلام لوجود الظلم والانحراف في المجتمع. وسيكون ما نسرده من النصوص في الناحية الآتية مؤيدات لفحوى القواعد العامة التي عرفناها.

* * *

الناحية الثانية:

في ذكر النصوص والاخبار الخاصة الدالة على التنبؤ بالمستقبل، من وصف الزمان وأهله، من حيث مقدار تمسكهم بالدين وشعورهم بالمسؤولية الإسلامية، وما يصير إليه الأمر من فسادهم وانحرافهم. وما يستلزم ذلك من قبل الله تعالى ومن قبل الناس.

ونحن في هذا التاريخ، وان كنا قصرنا همنا في التعرض إلى الاخبار المروية من قبل المعتقدين بغيبة الإمام المهدي عليه السلام، لنرى مقدار صدقها واتجاه تفكيرها. إلا ان وصف حوادث الزمان، حيث نجده منقولا من قبل الرواة من سائر مذاهب المسلمين، فمن هنا كان الأفضل الإحاطة بهذه الروايات أيضاً.

ونحن توخيا للاختصار والضبط في نفس الوقت، سوف نقتصر على ما أخرجه الصحيحان البخاري ومسلم من هذه الاخبار، فيما إذا كان لهما في الحادثة المعينة رواية، وإلا نقلنا عن الحفاظ الآخرين أيضاً. ونضم ذلك إلى الاخبار الإمامية المستقاة من المصادر القديمة.

ولولا هذا الاختصار لكان اللازم التعرض إلى عشرات الروايات في المعنى الواحد أو الحادثة الواحدة، لتكثر مثل هذه الاخبار، في المصادر بشكل واسع جدا. إلا ان الالتزام بذلك مما لا يلزم، كما هو واضح، بعد ان كان الصحيحان من ناحية والكتب الإمامية القديمة هي أوثق مصادر المسلمين المعروفة في العصر الحاضر.

ومن هذا المنطلق، يمكن ان نتحدث في عدة جهات:

الجهة الأولى:

في الاخبار الدالة على صعوبة الزمان وفساده، على شكل مطلق، ليس فيه إشارة إلى حوادث معينة. وهي على عدة أقسام:

القسم الأول:

ما دل من الاخبار على امتلاء الأرض ظلما وجورا. وهو مضمون مستفيض بل متواتر بين الفريقين، وإن امتنع الشيخان عن إخراجه.

أخرجه أبو داود مكررا، مرة بلفظ: يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا. وأخرى بلفظ: لو لم يبق من الدهر إلا يوم، لبعث الله رجلا من أهل بيتي يملؤها عدلا كما ملئت جورا. ومرة ثالثة بلفظ: المهدي مني... يملأ الأرض قسطا وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً[١].

واخرج في الصواعق المحرقة[٢] عن احمد وأبي داود والترمذي وابن ماجة

(١) انظر سنن أبي داود، ج٢ ص ٤٢٢.

(٢) انظر: ص ٩٧.

ما ذكرناه من اللفظ الثاني للحديث. وعن أبي داود والترمذي: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد... إلى أن قال: يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جورا وظلما. وعن الطبراني: فيبعث الله رجلا من عترتي أهل بيتي يملأ الأرض قسطاً وعدلا كما ملئت ظلما وجورا... الحديث. وعن الروياني والطبراني[1]: المهدي من ولدي... إلى ان يقول: يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا.

وغير ذلك كثير، موزع في المصادر، كالذي ذكره الشبلنجي في نور الأبصار والصبان في إسعاف الراغبين والشبراوي في الإتحاف وأبو نعيم الأصفهاني في اربعينه وسبط ابن الجوزي في تذكرته. وكمال الدين بن طلحة في مطالب السؤول. مضافا إلى ما أخرجه احمد في مسنده والحاكم في مستدركه والسيوطي في العرف الوردي... إلى غير ذلك من المصادر.

واما من روى هذا المضمون من علماء الإمامية ومصنفيهم، فأكثر من ان يحصر. تعرض له كل من روى في العقائد أو التاريخ، وتكلم عن الإمام المهدي عليه السلام.

والمراد بالظلم، الانحراف عن جادة العدل الإسلامي، ونحوه الجور وهو الميل، يقال: جار عن الطريق أي مال. وهذا الميل، من وجهة نظر نبي الإسلام صلى الله عليه وآله الذي رُوي عنه هذا الحديث الشريف، هو الميل عن تعاليم الإسلام والعدل الصحيح، على الصعيدين الفردي والاجتماعي.

والحديث نص واضح، بامتلاء الأرض جورا وظلما قبل ظهور المهدي عليه السلام في اليوم الموعود. وهو معنى ما قلناه طبقا للقواعد العامة، من

(١) نفس المصدر، ص ٩٨.

ان اغلب الناس نتيجة للتمحيص الإلهي، سوف يسودهم الانحراف عقيدة أو سلوكا، بحيث يكون الاتجاه الظاهر للبشرية هو قيام النظام الفردي والاجتماعي على أساس مناقض مع تعاليم الإسلام، من دون ان يكون للصالحين المخلصين -وإن كثروا- اثر مهم ونتائج ظاهرة.

وهذا لعمري ما كنا ولا زلنا نشاهده في عصور الفسق والضلالة التي نعيشها ونطلع عليها بالحس والعيان. فصلى الله تعالى عليك يا نبي الإسلام إذ تنبأت بذلك... وسلام الله تعالى عليك يا مهدي الإسلام إذ تزيل كل ذلك وتبدله إلى القسط والعدل الكاملين الشاملين، طبقا لإرادة الله وتخطيطه.

القسم الثاني:

ما دل من الاخبار على وجود الفتن وازدياد تيارها وتكاثرها إلى حد مروع. اخرج ذلك العديد من رواة الفريقين. منها: ما رواه البخاري[١] من قولهﷺ: يتقارب الزمان وينقص العمل ويلقى الشح وتظهر الفتن... الخ الحديث. وما رواه أيضاً[٢] من قولهﷺ: ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم... الخ الحديث. وأخرجه مسلم بألفاظ وأسانيد مختلفة[٣]. واخرج عنهﷺ أيضاً[٤]: إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع المطر. وذكر له أكثر من إسناد واحد.

ومنها: ما رواه النعماني[٥] عن أبي عبد الله الصادقعليه السلام، في حديث

---

(١) صحيح البخاري، ج ٩، ص ٦١.

(٢) المصدر، ص ٦٤.

(٣) صحيح مسلم، ج ٨، ص ١٦٨ و ١٦٩.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) انظر غيبة النعماني، ص ٧٧.

طويل يتحدث فيه عن (الفتن المضلة المهولة). وما رواه أيضاً[١] عن الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام انه قال: لا يقوم القائم عليه السلام إلا على خوف شديد من الناس وزلازل وفتنة وبلاء يصيب الناس... الخ الحديث.

وللفتنة عدة معانٍ في اللغة، يختلف معنى هذه الأحاديث الشريفة باختلافها، وان كان بالإمكان إرجاعها إلى معنى واحد شامل على ما سنذكر.

المعنى الأول:

الامتحان والابتلاء والاختبار. وأصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار لتميز الرديء من الجيد... والفَتْن الإحراق. ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾[٢].

ويؤيد كون المراد من الفتنة هو ذلك، ما رواه النعماني في الغيبة[٣] عن أبي الحسن عليه السلام في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ ... قال: يفتنون كما يفتن الذهب: ثم قال يخلصون كما يخلص الذهب.

فإذا تم هذا المعنى، تلتحق هذه الاخبار بأخبار التمحيص والامتحان، التي سوف نذكرها، فإنها تتحد معها في المدلول، باعتبار ان الفتنة بمعنى التمحيص والخلاص هو المشار في الحديث هو النجاح في التمحيص.

---

(١) المصدر، ص١٣٥.

(٢) لسان العرب، مادة فتن.

(٣) المصدر، ص ١٠٧.

المعنى الثاني:

الكفر والضلال والإثم. والفاتن المضل عن الحق. والفاتن الشيطان... وفتن الرجل أي أزاله عما كان عليه. ومنه قوله عزل وجل: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾. أي يميلوك ويزيلوك[١].

وإذا تم هذا المعنى، التقت هذه الاخبار مع الاخبار الناقلة لحدوث الظلم والجور، في المضمون... ونحوها مما نص على حدوث الكفر والضلال.

المعنى الثالث:

اختلاف الناس بالآراء[٢]. ويؤيد كون المراد هذا المعنى ما رواه النعماني[٣] في الحديث السابق عن الإمام محمد بن علي الجواد عليه السلام الذي قال فيه: وفتنة وبلاء يصيب الناس وطاعون وسيف قاطع بين العرب واختلاف شديد في الناس وتشتت في دينهم وتغير في حالهم.

وإذا كان هذا هو المعنى المراد، فسيلتقي مضمونه بالاخبار الدالة على حدوث التشتت والاختلاف، التي سوف نذكرها.

المعنى الرابع:

القتل، وما يقع بين الناس من القتال. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾[٤]. ومعه تندرج في اخبار حدوث الهرج والمرج والقتل الآتية.

---

(١) لسان العرب، مادة فتن.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) ص ١٣٥.

(٤) لسان العرب، مادة فتن.

والصحيح انه بالإمكان إرجاع هذه المعاني إلى معنى واحد، أو فهم الفتنة الواردة في الاخبار على أساس مجموع هذه المعاني. فإن التمحيص الإلهي، وهو المعنى الأول، ينتج عند الفاشلين فيه الكفر والضلال، وهو المعنى الثاني. وليس الكفر والضلال متمثلا في مذهب معين، بل في كثير من الآراء والمذاهب المتباينة في مدلولها المتناحرة في سلوكها. ومن هنا ينتج المعنى الرابع وهو القتل، نتيجة لهذه الفوضى المذهبية أو الفكرية. ومن هنا وردت كل هذه الحوادث في الاخبار كما اشرنا وستطلع عليها تدريجيا.

القسم الثالث:

ما دل على الجزع من صعوبة الزمن وضيق النفس الشديد منه.

فمن ذلك ما أخرجه البخاري[١] بإسناده عن النبيﷺ قال: لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه. وأخرجه مسلم بنصه[٢].

واخرج مسلم[٣] أيضاً عنهﷺ انه قال: والذي نفسي بيده، لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب القبر، وليس به الدين إلا البلاء.

وروى الصدوق في الإكمال[٤] عن أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادقعليه السلام انه يعاني المؤمنون في زمان الغيبة من (ضنك شديد وبلاء طويل وجزع وخوف).

---

(١) ج ٩، ص ٧٣.
(٢) ج ٨، ص ١٨٢.
(٣) ج ٨، ص ١٨٣.
(٤) انظر (المخطوط).

ومن الواضح ان الجزع وتمني الموت، يكون نتيجة للشعور بالمشاكل والمصاعب التي يمر بها الفرد في المجتمع المنحرف. ذلك الانحراف الناتج - في واقعه- من التخطيط الإلهي كما عرفنا. إذن، فهذه الحالة من نتائج هذا التخطيط، وهي المنتجة في نهاية المطاف لنتيجتين مهمتين:

إحداهما: اليأس من القوانين والنظريات السائدة في العالم، بعد ان أثبتت التجربة انها لا تؤدي إلا إلى هذه المشاكل والمصاعب.

ثانيتهما: تمني المستقبل العادل الذي يحل هذه المشاكل ويرفع هذه المصاعب، كما سبق ان ذكر في المرتبة الرابعة من مراتب الإخلاص فيما سبق. وسيكون هذا الشعور من أفضل الضمانات، للتأييد العام لليوم الموعود.

ونحن إذا نظرنا إلى الواقع، نجد ان الأمة الإسلامية عامة والقواعد الشعبية المهدوية خاصة، قد مرت في كثير من عصور تاريخها بالضنك والبلاء. حتى قيل في وصف عصور الحكم العباسي:

نحن والله في زمان بئيس لو رأيناه في المقام فزعنا
أصبح الناس فيه من سوء حال حق من مات منهم أن يُهَنَّا

وإن أعظم ضنك وبلاء يقع فيه البشر، هو ما يكون من بعضهم تجاه البعض، من الظلم والطغيان، وخوف الأكثرية الكاثرة من القوى الجبارة الظالمة الحاكمة في العالم. وان أعظم البلية بالنسبة إلى البشرية جمعاء في العصر الحاضر هو الخوف من اصطدام الأسلحة الفتاكة في العالم في حرب عالمية ثالثة لا تبقي ولا تذر. يكون الكل فيها هالكين مندحرين ليس فيها غالب أو منتصر. ولله في خلقه شؤون.

وعلى أي حال، فمن المحتمل ان يتزايد الضيق والفتك بأضعاف ما هو

عليه الآن، خاصة بالنسبة إلى المؤمنين المخلصين في المجتمع الإسلامي... بما يقابلون من تيارات التعسف والانحراف الظالمة المعادية للإسلام. ولهم في المهدي وبركاته العامة ومستقبله العظيم، أعظم السلوان والعزاء.

القسم الرابع:

ما دل على وجود الحيرة والبلبلة في الأفكار والاعتقاد.

كالخبر الذي روي عن الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام انه قال عن المهدي عليه السلام فيما قال: يكون له حيرة وغيبة تضل فيها أقوام ويهتدي فيها آخرون[1].

وإنما نسبت الحيرة إلى المهدي عليه السلام باعتبار كونها ناتجة من غيبته المستندة إليه. إذ لو كان ظاهراً بين الناس لما وقعت هذه الحيرة، كما هو معلوم.

ويمكن ان يراد بالحيرة عدة وجوه أو كل هذه الوجوه:

الوجه الأول:

الحيرة في العقائد الدينية، نتيجة للتيارات الباطلة التي تواجه جهلا وفراغا فكريا في الأمة، مما يحمل الفرد الاعتيادي على الانحراف.

الوجه الثاني:

الحيرة بالعقائد الدينية، بمعنى ان المؤمنين حين يحسون بالمطاردة والتعسف ضدهم وضد عقائدهم، يحيرون أين يذهبون لكي ينجوا بالحق الذي

(١) أنظر غيبة النعماني، ص١٠٤ وانظر إكمال الدين (المخطوط).

يعتقدونه وبالاتجاه الإسلامي الذي يتخذونه.

الوجه الثالث:

الحيرة في الإمام المهدي عليه السلام نفسه، بمعنى ان طول غيبته توجب وقوع الناس في الشك والاختلاف في شأنه. كما حدث في صفوف المسلمين فعلا، وقد أشارت إليه الاخبار التي سنسمعها فيما بعد.

الوجه الرابع:

الحيرة بالجهاد الواجب في زمن الغيبة من دون قائد وموجه ورائد. فإن المؤمنين بتكليفهم الإسلامي من ذلك، يشعرون في نفس الوقت بالأسف لعدم اتصالهم بالقائد العظيم الذي يوجههم إلى النصر.

وعلى أي حال، فكل ذلك مندرج في التخطيط الإلهي، ومما لا بد ان يحدث في الناس نتيجة للغيبة ليشارك في التمحيص والاختبار، فيرفع من إخلاص المخلصين ويعمق في كفر المنحرفين. وهو المراد بقوله: تضل فيها أقوام ويهتدي فيها آخرون.

القسم الخامس:

ما دل على وقوع الهرج والمرج.

وهي اخبار كثيرة استقل بإخراجها الرواة العامة فيما اعلم. روى البخاري[1] عددا منها، مرة بلفظ: ان بين يدي الساعة لأياماً ينزل فيها الجهل... إلى ان قال: ويكثر فيها الهرج. ذكر له أكثر من طريق. ومرة

---

(١) انظر ج٩، ص٦١.

أخرى بلفظ: بين يدي الساعة أيام الهرج.

واخرج مسلم[١]: فضل العبادة في الهرج كهجرةٍ إليّ. يعني إلى النبي ﷺ.

وروى الآخرون، كالترمذي وابن ماجة واحمد والحاكم، ما يدل على ذلك، ونحن نقتصر على ما في الصحيحين.

والمراد بالهرج بفتح الهاء وسكون الراء، احد أمرين:

الأول: الاختلاط والاضطراب المؤدي إلى القتل أو كثرته بين الناس. وتطبيقه في العالم في عصرنا الحاضر ما يسمى بحرب العصابات أو حرب الشوارع، مع ما تصاحبه من الاضطرابات والبلبلة. وهذا المعنى هو الذي تؤيده المصادر اللغوية.

الثاني: القتل نفسه، وان لم يصاحبه الاضطراب. كما هو ظاهر بعض الاخبار، فيما أخرجه البخاري[٢] حيث فسر الهرج بالقتل في عدة أحاديث، مع احتمال ان يكون التفسير من الراوي.

إلا ان الصحيح رجوع الاخبار إلى المعنى الأول، وان اندرج المعنى الثاني فيها بطبيعة الحال. فإنه قال: ويكثر فيها الهرج والهرج القتل. إذن فالقتل فيها كثير، وكثرة القتل لا تكون إلا مع البلبلة والاضطراب. واما انطباقه على القتل الفردي فلا دليل عليه.

واما إناطتها بالساعة وجعلها من علاماتها، فهو مما لا يخل بالمقصود لأن

---

(١) ج٨، ص٢٠٨.

(٢) ج٩، ص٦١.

المراد وقوع ذلك قبل قيام الساعة، ولو بزمان طويل. ومن المعلوم ان كل ما يقع في الغيبة الكبرى فهو واقع قبل قيام الساعة، فيكون من علاماتها واشراطها بطبيعة الحال. وقد سبق ان ذكر ان كل فساد وانحراف يذكر في الاخبار - عموما - فهو من أوصاف فترة الغيبة الكبرى، المربوطة بالمهدي عليه السلام. وقد مررنا على ذلك إجمالا، وحولنا برهانه على ما سيأتي:

وفي خبر مسلم قوله ﷺ: العبادة في الهرج كهجرة إليّ... زيادة على المعنى العام الذي كنا نتوخاه، زيادة واعية إسلامياً ومطابقة للقواعد العامة، يأتي التعرض لها في الناحية الثالثة من هذا الفصل.

فهذا هو المهم من الاخبار الدالة على فساد الزمان بنحو مطلق، من دون الإشارة إلى حوادث بعينها. وقد ثبت من ذلك في حدود التشدد السندي الذي ذكرناه... المعنى العام الذي يدل عليه المجموع وهو شيوع الفساد والانحراف وعصيان الأوامر الإسلامية. بل وتثبت التفاصيل أيضاً باعتبار كثرة الاخبار فيها وجعل بعضها قرينة على بعض وجعل القواعد العامة قرينة أيضاً لما عرفناه من ان كل هذه التفاصيل مما يترتب على التخطيط الإلهي.

الجهة الثانية:

في الاخبار الدالة على حدوث وقائع أو ظواهر معينة، ناتجة عن الضلال والانحراف.

القسم الأول:

في الاخبار الدالة على تحقيق الجهل وتفشيه في المجتمع الإسلامي.

فمن ذلك ما أخرجه البخاري[١] من الحديث النبوي القائل: ان من اشراط الساعة ان يرفع العلم ويثبت الجهل... الحديث. واخرج في حديث آخر[٢]: ان يقل العلم ويظهر الجهل.

واخرج في موضع آخر[٣]: ان بين يدي الساعة أياما يرفع فيها العلم وينزل فيها الجهل.

وفي موضع رابع اخرج البخاري[٤] من قولهﷺ: يقبض العلم ويظهر الجهل والفتن ويكثر الهرج... الحديث.

واخرج مسلم عدة متون بهذا المضمون، في باب خاص بذلك[٥] لا حاجة إلى الإطالة بذكرها. وأخرجها غيرهما، كابن ماجة والترمذي واحمد.

والمراد برفع العلم ارتفاعه من المجتمع وقلة العلماء والمتعلمين. والمراد به العلم بالأحكام الشرعية والعلوم الإسلامية. كما ان المراد بنزول الجهل وظهوره تفشيه في المجتمع المسلم من الناحية الفكرية الإسلامية، أيضاً بطبيعة الحال.

وفي التعبير برفع العلم وقبضه، إيضاح انه مستند إلى الله تبارك وتعالى، مع تنزيه الله تعالى عن إسناد وتحقيق الجهل إليه عز وعلا. تماما كما قال إبراهيم خليل الرحمنعليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[٦] ولم يقل: وهو

(١) ج١، ص٣٠.

(٢) نفس الجزء، ص٣١.

(٣) ج٩، ص٦١.

(٤) ج١، ص٣١.

(٥) انظر ج٨، ص٥٨.

(٦) الشعراء: ٨٠.

الذي يمرضني ويشفيني، كما قال: ﴿وَٱلَّذِى هُوَ يُطۡعِمُنِى وَيَسۡقِينِ﴾[١].

وعلى أي حال، فاستناده إلى الله تعالى، يكون- مرة- بتوسيط عباده، في ضغط المنحرفين على المؤمنين بالسكوت وعدم تبليغ الأحكام والمفاهيم الإسلامية إلى الأمة. ويكون- تارة أخرى- بفعل الله تعالى مباشرة بأن يموت العلماء تدريجا ويقل المتعلمون، فتصبح الأجيال القادمة خالية من العلماء فارغة فكريا من الثقافة الإسلامية.

ومن هنا اخرج البخاري[٢] عن النبي ﷺ انه قال: ان الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء. حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رؤوساً جهالا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا.

ومن هنا يكون هذا الأمر مما يحكم الوجدان بحدوثه، وموافقا للقاعدة ومندرجا في التخطيط الإلهي، وموحدا في المضمون مع ما سنذكره من بيان وجود علماء السوء في الاخبار. ويكون ترك تعلم المتعلمين ناتجا عن التيار العام للفساد والبعد عن التعاليم الإسلامية. وهو بدوره يسبب بعدا أكثر... وهكذا.

القسم الثاني:

ما دل من الاخبار على تشتت الآراء واختلاف النوازع والأهواء، وكثرة الدعوات المبطلة.

اخرج ابن ماجة في سننه: انها ستكون فتنة وفرقة واختلاف[٣].

---

(١) الشعراء: ٧٩.

(٢) ج ص٣٦.

(٣) السنن، ص١٣١٠.

واخرج أيضاً: يكون دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها[١] ونحوه اخرج مسلم في صحيحه[٢].

واخرج ابن ماجة أيضاً، قوله ﷺ: ومما أتخوف على أمتي أئمة مضلين[٣] وقوله ﷺ: تتنافسون ثم تتحاسدون ثم تتدابرون ثم تتباغضون أو نحو ذلك. الحديث[٤].

وروى النعماني[٥] عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام في حديث: وليرفعن اثنتا عشرة راية مشتبهة لا يدري أي من أي. وروى نحوه الصدوق في إكمال الدين[٦].

وروى النعماني[٧] أيضاً عن الإمام الباقر عليه السلام في حديث يصف به فساد المجتمع ويقول: واختلاف شديد بين الناس وتشتت في دينهم وتغير من حالهم.

وروى الشيخ الطوسي في الغيبة[٨] عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: أبشركم بالمهدي يبعث في أمتي على اختلاف من الناس وزلازل، يملأ الأرض عدلا وقسطا... الحديث. ونقله ابن حجر في الصواعق[٩] بلفظ

(١) انظر السنن، ص١٣١٧.
(٢) ج٦، ص٢٠.
(٣) السنن، ص١٣٠٤.
(٤) السنن، ص١٣٢٤.
(٥) انظر الغيبة، ص٧٧.
(٦) انظر المصدر المخطوط.
(٧) الغيبة، ص١٣٥.
(٨) ص١١١.
(٩) ص٩٩.

مقارب عن احمد والماوردي.

وهذا المضمون، مطابق للقاعدة العامة، كالقسم السابق، فإنه يعطي صورة أخرى للظلم والفساد. فإن اختلاف الآراء وتشتتها من أوضح صور الظلم ومستلزماته. وقد كان هذا وما زال موجودا بين الناس سواء على المستوى المذهبي الإسلامي أو على المستوى السياسي أو الاقتصادي أو غيره من حقول الحياة. فإن المجتمع المنحرف منقسم على نفسه دائماً ومتناحر في داخله على طول خط انحرافه.

واما دعاة السوء والأئمة المضلين، فما أكثرهم في التاريخ! فقد كانوا يتمثلون في عصر الخلافة بالعلماء المدعين للإسلام الضالعين مع الجهاز الحاكم، ولا زال أمثالهم موجودين إلى العصر الحاضر. كما كانوا يتمثلون بالقرامطة ونحوهم ممن يدعو إلى الإسلام وهم منه براء. ويتمثلون في عصرنا الحاضر، بعدد غير قليل من الأفكار والعقائد المنحرفة غير المعلنة في المجتمع المسلم، كالبهائية والقاديانية وأكثر مسالك التصوف... وغيرها.

ومن هنا يكون ما قيل في الرواية صحيحا جدا، من ان كل من تابعهم وأجاب دعواتهم، قذفوه في جهنم، بمعنى أنهم سببوا الخروج عن الإسلام الحق، بحيث يستحق العقاب الإلهي.

القسم الثالث:

الاخبار التي دلت على اختلاف الناس بشأن المهدي عليه السلام، خلال غيبته الكبرى. نتيجة لطول الغيبة واستبعاد الناس وجوده خلال الزمان الطويل، وما يقترن بذلك من الدعاوى والتزويرات.

والروايات في ذلك عن أئمة الهدى عليهم السلام كثيرة. واما العامة فلم يرووا فيه

شيئاً، لأنه مخالف لرأيهم القائل بإنكار وجود الغيبة الكبرى للمهديعليه السلام.

من ذلك ما أخرجه الصدوق في الإكمال[١] عن الإمام الباقرعليه السلام في حديث يشبه به المهديعليه السلام بعدد من الأنبياء... إلى ان قال: واما شبهه من عيسىعليه السلام فاختلاف من اختلف فيه. حتى قالت طائفة منهم: ما ولد. وقالت طائفة: مات. وقالت طائفة: قتل وصلب... الحديث.

وروي أيضاً[٢] عن الإمام زين العابدين علي بن الحسينعليه السلام في حديث قال فيه: واما من عيسى فاختلاف الناس فيه.

وروى النعماني[٣] عن أبي جعفر الباقرعليه السلام ان للقائم غيبتين يقال له في إحداهما: هلك، ولا يدري في أي واد سلك. وروي عن الإمام الصادقعليه السلام بلفظ: مات أو هلك في أي واد سلك[٤].

وفي الإكمال أيضاً[٥] عن الإمام الصادقعليه السلام: اما والله ليغيبن إمامكم شيئاً من دهركم، ولتمحصن[٦] حتى يقال: مات أو هلك أو بأي واد سلك. ولتدمعنَّ عليه عيون المؤمنين.

واخرج ثقة الإسلام الكليني في الكافي عددا من الاخبار الدالة على نفس هذا المضمون في باب عَقَدَه لذلك بعنوان: باب في الغيبة[٧].

(١) انظر إكمال الدين (مخطوط).
(٢) نفس المصدر.
(٣) انظر الغيبة، ص٩١.
(٤) المصدر، ص٨٠.
(٥) انظر المصدر (المخطوط).
(٦) في المخطوط: وليمحض وهو خطأ على الظاهر.
(٧) انظر المصدر المخطوط.

وهذا كله واضح الاندراج في التخطيط الإلهي المقتضي للتمحيص والامتحان. فإن طول الزمن وزيادته على عمر الإنسان الطبيعي، قد يورث الشك في بقاء الفرد واستمراره على اقل تقدير... لولا الدليل القطعي على بقاء المهدي عليه السلام وعلى التخطيط الإلهي لحفظه لليوم الموعود. ومن هنا كان المشكك في ثبوت ذلك أو المنساق وراء حسه المادي، مفكرا لبقاء المهدي عليه السلام وغيبته.

وعلى أي حال، فاختلاف الناس فيه، متحقق خلال التاريخ، فعلا. وان لم نستطع ان نعثر على القائلين بجميع ما ذكرت الروايات من الآراء ووجهات النظر. فإنها تعرضت إلى أربعة أقوال:

القول الأول:

انه لم يولد. والمراد ان الإمام الحسن العسكري عليه السلام مات ولم يعقب ولدا.

وقد عرفنا في تاريخ الغيبة الصغرى مناشئ هذا القول، وكيف كان هو الاعتقاد الرسمي للدولة بعد وفاة الإمام العسكري عليه السلام مما سبب استيلاء جعفر الكذاب على التركة.

واما القول بأن المهدي عليه السلام لم يولد، وإنما يولد في مستقبل الدهر ليملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا... فهو القول الذي يذهب إليه إخواننا أهل السنة والجماعة عموما، بعد ان تسالموا مع الإمامية على ظهور المهدي عليه السلام وقيامه بدولة الحق.

القول الثاني:

انه ولد ولكنه مات. والقائل بذلك على قسمين:

القسم الأول:

من يزعم ان محمد بن الحسن العسكري عليه السلام، مات.

وقد ذهب إلى ذلك بعض المتأخرين كالشيخ محمد بن احمد السفاريني الأثري الحنبلي في كتابه لوائح الأنوار البهية، حيث قال: واما زعم الشيعة ان اسمه (يعني المهدي) محمد بن الحسن وانه محمد بن الحسن العسكري، فهذيان. فإن محمد بن الحسن هذا قد مات، واخذ عمه جعفر ميراث أبيه الحسن[1].

وهذا زعم تتسالم كل المصادر التاريخية الأولى على نفيه، من سائر مذاهب المسلمين.

اما مؤرخو الإمامية كالشيخ النعماني والشيخ الصدوق والشيخ الطوسي والشيخ المفيد، وكذلك من يدور في فلكهم، كالمسعودي واليعقوبي، فأمرهم واضح، فانهم يثبتون ولادته وغيبته بالصراحة، شأنهم في ذلك شأن كل العلماء الإماميين... كيف لا وهو من ضروريات المذهب.

واما مؤرخو العامة المتقدمون كالطبري وابن الأثير وابن خلكان وابن الوردي وأبي الفداء، والمتأخرون كابن العماد والزركلي... وغيرهم. فانهم ينصون على ولادته ويذكرون اختفاءه وانه المهدي المنتظر صاحب السرداب بزعم الشيعة. وليس فيهم أي شخص يشير إلى موته. وكيف يستطيعون الأخذ بهذا الرأي، بعد الذي عرفناه مفصلا في تاريخ الغيبة الصغرى، من اختفاء المهدي عليه السلام عن أكثر قواعده الشعبية فضلا عن غيرها. ومن هنا تكون الاخبار عنه في مثل هذه التواريخ اخبارا منقطعة، بل مع اليأس من حصول أي اطلاع

(١) انظر ج٢، ص٦٨.

على شيء. . . فكيف يستطيعون ان يدعوا موته تاريخيا، إلا بنحو التزوير. ومن هنا كفوا عن التصريح بذلك، كما هو واضح لمن يراجع تلك المصادر.

واما المتأخرون، كالسفاريني المولود عام ١١١٤ هـ[1]، فهم عيال على المتقدمين، وليس لهم ان يأتوا بخبر جديد. ولا يؤخذ من قولهم ما عارض أقوال المتقدمين، كما هو واضح، بل تكون أقوال المتقدمين أولى بالترجيح. إذن، فالسفاريني أو أي شخص آخر مثله، يتحمل مسؤولية كلامه وحده.

واما استيلاء جعفر الكذاب على ارث الإمام العسكري عليه السلام فلم يكن عن استحقاق، بعد وجود الوارث الشرعي. وقد عرفنا تفاصيل ذلك في تاريخ الغيبة الصغرى أيضاً، فراجع.

القسم الثاني:

من القائلين بموت المهدي: من يدعي ظهور المهدي وانتهاء حركته. وهم أتباع مدعي المهدوية في التاريخ، الذين قاموا بالسيف وماتوا أو قتلوا، ولم يبق لأصحابهم مهدي منتظر، بعد ذلك.

إلا ان مثل هؤلاء الناس ينقرضون بعد موت صاحبهم بمدة غير طويلة، إذ يعجزون عن تزريق اعتقادهم إلى الأجيال اللاحقة لهم، بعد اتضاح أكذوبة ادعاء المهدوية بدليل وجداني صريح، وهو ان هذا المدعي مات ولم يستطع ان يفتح العالم ولا ان يقيم حكم الله العادل على البشر أجمعين. ونحن- وكل مسلم- لا نعني من المهدي إلا الشخص الذي يفعل ذلك. وحيث ان هذا المدعي لم يصل إلى هذه النتيجة طيلة حياته. إذن، فهو ليس مهديا بالقطع واليقين.

(١) انظر ملحق الجزء الأول من كتابه، ص١.

القول الثالث:

مما دلت عليه الروايات: هو القول بأنه قتل أو صلب. ولم نجد من يقول بذلك، غير ما يمكن ان يدعيه أصحاب مدعي المهدوية، فيما إذا قتل صاحبهم أو صلب، فيقولون: صلب المهدي أو انه قتل. يعنون بذلك صاحبهم.

القول الرابع:

التشكيك انه بأي واد سلك.

فإن كان المراد به الاختفاء وجهالة مكان المهدي عليه السلام حال غيبته، فهو أمر واضح في ذهن كل قائل بالغيبة. إلا ان هذا المعنى خلاف ظاهر الروايات السابقة التي تقول: مات أو هلك وبأي واد سلك. بحيث يكون المراد موته في بعض الوديان والبراري.

ولم نطلع على من يقول بهذا القول أو يحتمله. على انه قول في غاية الغرابة، فإن من يعتقد بغيبة المهدي عليه السلام انما يعتقد بها ناشئة بإرادة الله تعالى وحاصلة بقدرته وتخطيطه. فكما ان الله حفظه خلال المدة السابقة، أياً كان مقدارها، فهو كفيل بأن يحفظه خلال المدة الآتية، أياً كان مقدارها. وبصونه من كل العاهات والآفات والبليات، تمهيدا لقيامه في اليوم الموعود لتنفيذ الغرض الإلهي الكبير.

ولعل هذين القولين الأخيرين، مما سوف يظهر في مستقبل السنوات، وخاصة لو تطاولت الغيبة مئات أخرى أو آلاف أخرى من السنين.

القسم الرابع:

ما دل على انحراف الحكام وفسقهم وخروج تصرفاتهم وحكمهم عن

تعاليم الإسلام، في البلاد الإسلامية.

وأوضح ما ورد في ذلك وأكثرها صراحة، ما أخرجه مسلم في صحيحه[١] بإسناده إلى النبيﷺ انه قال: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي وسيقوم فيها رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان انس.

واخرج أيضاً[٢] انها ستكون بعدي أثرة وأمور تنكرونها... الحديث.

وروى الصدوق في الإكمال[٣] حديثا عن رسول اللهﷺ عن الله عز وجل في جواب عن سؤال وقت ظهور المهديعليه السلام قال: فأوحى الله عز وجل إلي يكون ذلك إذا رفع العلم وظهر الجهل... إلى ان قال: وصار الأمراء كفرة وأولياؤهم فجرة وأعوانهم ظلمة وذوي الرأي منهم فسقة.

وفي حديث آخر عن أمير المؤمنينعليه السلام[٤] في حديث كالذي سبقه يقول فيه: واتبعوا الأهواء واستخفوا الدماء وكان الحلم ضعفا والظلم فخرا، وكان الأمراء فجرة والوزراء ظلمة... الحديث.

وفي حديث آخر[٥] عن أبي عبد اللهعليه السلام: ورأيت الولاة يقربون أهل الكفر ويباعدون أهل الخير، ورأيت الولاة يرتشون في الحكم، ورأيت الولاية قبالة لمن زاد.

وهذا هو الموافق للوجدان، وللقواعد العامة، ولمقتضى التمحيص الإلهي.

---

(١) ج٦، ص٢٠.

(٢) نفس الجزء، ص١٧.

(٣) انظر المصدر المخطوط.

(٤) منتخب الأثر، ص٤٢٧ عن الخرايج والجرايح.

(٥) نفس المصدر، ص٤٢٩.

اما موافقته للقواعد العامة والتمحيص الإلهي، فباعتبار أمرين مقترنين:

الأمر الأول:

ان الحكام يكونون- في العادة- من أبناء المجتمع المنحرف، ومن نتائج تربيته. إذ يكونون منذ نعومة أظفارهم معتادين على الابتعاد عن الدين وعصيان أحكامه، كأي فرد ناشئ على هذه التربية. ومن ثم نجدهم يصدرون تلقائيا وباقتناع عما اعتادوه وألفوه، وان غيروا في أسلوب الانحراف وطوروه.

ومن ثم يكون من الصعب ان نتصور الفرد المنحرف ابن المجتمع المنحرف، حاكما بالحق والعدل، ومطبقا لأحكام الإسلام. بل يكون فسق الحكام والوزراء نتيجة طبيعية لانحراف المجتمع وفساده.

الأمر الثاني:

ان انحراف الحكام، يشارك- لا محالة- في زيادة الظلم والتعسف في الناس ومطاردة الحق وأهله، فيكون ذلك محكًا آخر لتمحيص اشد وامتحان أصعب... كما هو مقتضى التخطيط الإلهي.

واما موافقته للوجدان، فللوضوح التاريخي القطعي، بأن الحكم في البلاد الإسلامية، ساد بعد الخلافة الأولى ضمن مراحل ثلاث:

المرحلة الأولى:

الحكم الإسلامي المنحرف، المتمثل بـ (الملك العضوض) الذي اخبر به الرسولﷺ وسار عليه الخلفاء الأمويون والعباسيون والعثمانيون[١].

(١) وصيغته النظرية: ان يكون الحاكم مسلما فاسقا يدعي بظاهر حاله تطبيق الإسلام.

فانهم بالرغم من توليهم زمام الحكم بسبب ديني، ويكون المفروض فيهم تطبيق حكم الإسلام، إلا ان ما مارسوه من الحكم كان مبنيا على المصلحة الذاتية والطمع بكراسي الحكم وتناسي المبدأ الإسلامي المقدس، وقد استعرضنا صورة من ذلك، في تاريخ الغيبة الصغرى. ورأينا انه لم يختلف في ذلك شخص الخليفة والوزراء والقضاة والقواد، وسائر الضالعين بركابهم.

المرحلة الثانية:

الحكم الكافر مبدئيا، وان كان الحاكم مسلما بحسب الظاهر[١]. وهو الحكم الذي تعقب فترة الخلافة، ولا زلنا نعيشه إلى حد الآن في أكثر بلاد الإسلام. وقد أسس على الأسس المجلوبة من مبادئ الحضارة الأوروبية المادية، سواء منها الجانب الرأسمالي أم الجانب الإشتراكي، أو غيرهما. وبذلك نبذت أحكام الإسلام تماما، وقام الحكم على أسس القوانين الوضعية البشرية.

المرحلة الثالثة:

ان يكون الحكم كافراً في المبدأ والقانون والحاكم[٢].

وهو ما تحقق في فترات متقطعة في تاريخ المجتمع الإسلامي، نتيجة لحملات الكفر عليه من التتار والمغول والصليبيين والاستعمار الأوروبي المباشر الحديث.

وقد تحققت في المرحلة الأولى فضلا عن المراحل المتأخرة، جميع تلك

---

(١) وصيغته النظرية: ان يكون الحاكم مسلما فاسقا يتوخى تطبيق القوانين الوضعية بصراحة.

(٢) وصيغته النظرية: ان يكون الحاكم كافرا أساسا والقانون وضعيا.

التنبؤات التي يجمعها ويمثلها الانحراف عن الإسلام بقليل أو كثير. فكانت قلوبهم قلوب الشياطين تميل عواطفهم نحو الشر، قد اتبعوا الأهواء أي المصالح الضيقة واستخفوا بالدماء أي استهانوا بالقتل، فكان قتل الفرد بل المئات شيئا هينا بل مفخرة كبرى لفاعله. وأصبح الحلم و (العفو عند المقدرة) ضعفاً، والظلم والتنكيل فخراً... وأصبح الأمراء وهم الحكام خلفاء كانوا أو ملوكاً أو رؤساء أو سلاطين... أصبحوا فجرة ووزراؤهم ظلمة وذوي الرأي منهم فسقة.

وقد كان الحكام في كل هذه المراحل الثلاث، وخاصة الأخيرين منها، يقربون أهل الكفر، وهم المنحرفون المتزلفون للحكام، ويباعدون أهل الخير والصلاح، ممن يأنف عن ان يعطى الدنية من نفسه. واما الرشوة فحدث عنها ولا حرج كما هو واضح للعيان. ولله في خلقه شؤون.

هذا كله في المجتمع الإسلامي الذي أسسه الرسولﷺ وتعاهده بالرعاية، فأصبح - بعد ذلك- مبنيا على الخروج على كتابه وسنته وهداه. وهو المجتمع الذي تتحدث عنه هذه الروايات عادة. واما الحكم في غير المجتمع الإسلامي، فهو قائم على طول الخط على الكفر المحض وان كان ولا زال يتسافل تدريجا إلى المادية عقائديا والتسيب أخلاقيا، والضعف اقتصاديا، في كبار الدول فضلا عن صغارها. كما تشهد بذلك الآثار وتدل عليه الاخبار.

القسم الخامس:

اخبار التمحيص والامتحان.

فإننا بعد ان عرفنا فلسفته واندراجه كعنصر أساسي في التخطيط الإلهي... نريد ان يكون منا اطلاعة على عدد من الاخبار الدالة عليه.

أخرج أبو داود[١] وابن ماجة[٢] بلفظ مقارب جداً، عن رسول الله ﷺ: كيف بكم وبزمان يوشك ان يأتي، يغربل الناس فيه غربلة، وتبقى حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم، فاختلفوا، وكانوا هكذا (وشبك بين أصابعه)... الحديث.

وروى الصدوق في إكمال الدين[٣] والكليني في الكافي[٤] عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام: ان هذا الأمر لا يأتيكم إلا بعد يأس. ولا والله حتى تميزوا، ولا والله لا يأتيكم حتى تمحصوا. لا والله لا يأتيكم حتى يشقى من يشقى ويسعد من يسعد.

وروى الصدوق أيضاً[٥] عنه عليه السلام: كيف انتم إذا بقيتم بلا إمام هدى ولا علم. يبرأ بعضكم من بعض. فعند ذلك تمحصون وتميزون وتغربلون... الحديث.

وروى النعماني في الغيبة[٦] والكليني في الكافي[٧] عنه عليه السلام أيضاً انه قال: لا بد للناس من ان يمحصوا ويميزوا ويغربلوا. وسيخرج من الغربال خلق كثير.

---

(١) انظر السنن، ج٢، ص٢٣٧.

(٢) انظر السنن، ج٢، ص١٣٠٧.

(٣) انظر الإكمال (المخطوط).

(٤) انظر المصدر (المخطوط).

(٥) انظر الإكمال (المخطوط).

(٦) ص١٠٨.

(٧) انظر (المخطوط).

وروى النعماني[١] أيضاً عن الإمام الباقر عليه السلام انه قال: والله لتميزن والله لتمحصن، والله لتغربلن كما يغربل الزوان من القمح.

وفي الكافي[٢] عن أبي عبد الله عليه السلام: ان أمير المؤمنين عليه السلام لما بويع بعد مقتل عثمان صعد إلى المنبر وخطب بخطبة ذكرها، يقول فيها: إلا ان بليتكم قد عادت كهيئتها يوم بعث الله نبيه صلى الله عليه وآله. والذي بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ولتغربلن غربلة، حتى يعود أسفلكم أعلاكم وأعلاكم أسفلكم، وليسبقنّ سابقون كانوا قصروا. وليقصرنّ سباقون كانوا سبقوا.

وروى النعماني أيضاً[٣] بسنده عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث قال فيه: فو الذي نفسي بيده ما ترون ما تحبون حتى يتفل بعضكم في وجوه بعض، وحتى يسمي بعضكم بعضا كذابين، وحتى لا يبقى منكم (أو قال: من شيعتي) كالكحل في العين أو كالملح في الطعام. وسأضرب لكم مثلا، هو مثل رجل كان له طعام فنقاه وطيبه ثم ادخله بيتا وتركه فيه ما شاء الله. ثم عاد إليه فإذا هو قد أصابه السوس، فأخرجه ونقاه وطيبه، ثم أعاده إلى البيت فتركه ما شاء الله. ثم عاد إليه، فإذا هو قد إصابته طائفة من السوس فأخرجه ونقاه وطيبه وأعاده. ولم يزل كذلك حتى بقيت منه رزمة كرزمة الأندر لا يضره السوس شيئا. وكذلك انتم تميزون حتى لا يبقى منكم إلا عصابة لا يضرها الفتنة شيئا.

والتمحيص هو التنقية وإبعاد الرديء، والغربلة هي النخل بالغربال حتى تخرج الزوان، وهو الحب الغريب عن الحنطة يكون على شكلها وليس منها.

---

(١) ص١٠٩.

(٢) انظر (المخطوط).

(٣) ص١١٢.

وغربلة البشر تكون بقانون التمحيص الذي عرفناه. وغربالهم فيها هي الظروف الصعبة والظلم الذي يعيشه الفرد والمجتمع من ناحية والشهوات والمغريات والمصالح الضيقة، من ناحية أخرى. «وسيخرج من الغربال خلق كثير» بمعنى ان أكثر البشر يتبعون الباطل وينحرفون مع الشهوات والمصالح أو مع الظالمين المنحرفين. فيصبحون «حثالة قد مرجت[1] عهودهم وأماناتهم» والمراد بها الدين والالتزام بالإسلام وما تستتبعه من خلق كريم وسلوك مستقيم.

وتبقى في نتيجة التمحيص الطويل «عصابة لا تضرها الفتنة شيئا» لأنهم يمثلون الحق صرفا، وينتمون إلى فسطاط الحق الذي لا كفر فيه، كما سبق ان سمعنا من الاخبار.

وقد عرفنا ان قانون التمحيص عام للبشرية مرافق لها في عمرها الطويل. وقد نطق به التنزيل. قال الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[2] وقال عز وجل: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[3]. وقال: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ (١٤١) أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[4].

ولكن هذا القانون يكون اشد وآكد إذا اقترن بالإعداد لليوم الموعود، إعدادا يمكن به حمل التبعة والشعور بالمسؤولية تجاه العالم كله.

---

(١) أي اضطربت والتبست وفسدت، المنجد مادة مرج.

(٢) آل عمران: ١٧٩.

(٣) الأنفال: ٣٧.

(٤) آل عمران: ١٤١ - ١٤٢.

ولعلنا نستطيع ان نفهم من قوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَـٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّـٰبِرِينَ . . . ﴾. كيفية التمحيص وأسلوبه، وذلك: ان التمحيص ليس للكشف والإظهار فقط أمام الآخرين أو أمام التاريخ، وان كان هذا هو جانبه الظاهر المنظور. وإنما يتضمن- في الحقيقة- تغييراً حقيقياً وتأثيراً جوهرياً في ذات الفرد يعلمه الله تعالى منه بعد وجوده وتحققه.

ويتضح ذلك من بيان مقدمتين:

المقدمة الأولى:

ان للفرد العاقل المختار اتجاهات ووجهات نظر، وله مواقف وآراء تجاه كل حادثة مما يمر به في حياته. وهو على الدوام يحدد مواقفه فعلاً وتركاً وآراءه إيجاباً وسلباً، صادراً صدوراً تلقائياً عن اتجاهاته ووجهات نظره العقائدية والعقلية والثقافية. فتتحدد مواقفه بتحديد اتجاهاته، وتتغير بتغيرها، لا محالة، تجاه كل حادث من حوادث الحياة.

ويكون للحوادث المتغيرة المتطورة الأثر الكبير في تغيير وتطوير اتجاهات الفرد فضلا عن مواقفه... وبذلك يكتسب الصغير خبرة والكبير حنكة والجاهل علما، كما هو واضح جدا لكل فرد عاقل يعيش في هذه الحياة.

وقد يزداد الأثر في هذا المقدار الاعتيادي، فيما إذا كان الحادث أو مجموعة الحوادث، ذات صيغة أساسية في حياة الفرد. ولكل فرد من الحوادث ما تكون أساسية في حياته. فقد تعمق الحوادث اتجاهه وترسخه وقد تضعفه وتضعضعه، وقد تغير شكله وطريقه. وبتغير الاتجاه تتغير المواقف بالطبع. فيكاد يصبح الفرد فردا آخر، أو تسبغ على سلوكه تغيرات كبرى أو صغرى تختلف باختلاف أهمية الحوادث. فقد يصبح الفرد المنحرف معتدلا والمعتدل

واعيا، بل قد يصبح الواعي منحرفا والمنحرف واعيا. وقد يصبح الجبان شجاعا والشجاع جبانا والبخيل كريما والكريم بخيلا والكذاب صادقا والصادق كذابا. . . وهكذا وهكذا.

هذا كله في الحوادث الفردية التي يصادفها الناس في الحياة. ومتى كانت الحوادث أوسع من الوجود الفردي واكبر، كان أثرها أعمق واشمل على المجتمع كله، فضلا عن الفرد، كالاتجاه العام للحاكمين سياسياً أو المتنفذين اقتصادياً أو اجتماعياً أو غير ذلك. . . وكالغزو أو الاستعمار الذي تتعرض له البلاد، أو التدهور الاقتصادي التي يمر بها أو تمر به. فإن كل ذلك يؤثر في الأفراد بل في الشعب كله آثارا بليغة، قد يبلغ مدى تأثيره عمقا واسعا في الزمان والمكان.

ومن هنا بالذات، تنبثق فكره التمحيص والامتحان، فإننا بعد ان نعرف: ان لكل واقعة في الإسلام حكما معينا، ونعرف: ان لكل فرد موقفا معينا تجاه كل حادثة. إذن، فلا بد ان ينظر إلى مدى تطابق موقف الفرد مع حكم الإسلام. فإن كان منسجما معه، فهو ناجح في التمحيص، وان كان مختلفاً معه، فهو فاشل وراسب لا محالة.

والحوادث المتعاقبة، قد تصقل من عقيدة الفرد الدينية، وقد تضعضعها، بشكل متوقع أو غير متوقع، فإن لكل فرد اعتيادي نوازعه الخيرة ونوازعه الشريرة، واتجاهاته الخاصة. وقد تكون هذه الاتجاهات متميزة بسلوك اعتيادي معين، فإذا طرأت حادثة معينة اضطر إلى الاستجابة لها باتخاذ موقف من المواقف لا محالة. واضطر إلى التفكير في حال نفسه وفيما هو مقتنع به، ومن هنا قد يصل الفرد إلى لزوم اتخاذ موقف جديد، وإعادة النظر فيما كان مقتنعا به من تفكير، وما كان يتخذه من مواقف.

وليس لاستجابات الأفراد وقراراتهم تجاه الحوادث، ضابط معروف أو قاعدة عامة معينة... لكثرة العناصر والأسباب الداخلية والاجتماعية التي تؤثر فيه، والتي تختلف بين فرد وآخر في هذا العالم الواسع.

ومن هنا يكتسب التمحيص أهميته، فإنه قبل حدوث الحادثة - أية حادثة- تكون حالة الفرد من حيث اتجاهه ورد فعله وما سيتخذه من سلوك، مجملة ذاتاً، وليس لها أي تعين واقعي. والحوادث وحدها هي التي تعين واقع اتجاهه الجديد، ودرجة عقيدته وإيمانه، كما تكشف لنا ولنفسه أيضاً، هذا الاتجاه الجديد ومقتضياته المتمثلة في سلوكه الجديد الذي يتخذه.

فإذا كان للأفراد اتجاهات على الدوام وكانت الحوادث تحدث باستمرار، وكان لهم تجاهها ردود فعل وآراء ومواقف. إذن، يكون التمحيص والامتحان مستمرا باستمرار الحياة البشرية.

ومن هنا نرى ان التمحيص كلما اكتسب أهمية اكبر في التخطيط الإلهي، كما هو كذلك خلال عصر الغيبة الكبرى... شاء الله تعالى ان يعرض الأفراد لحوادث اعقد وأصعب، حتى يكون اتخاذهم للمواقف الجديدة حاسما وأكيدا، ليتضح ما إذا كانت مواقفهم منسجمة مع تعاليم الإسلام أو لا.

المقدمة الثانية:

وهي تتعلق بفهم الآية الكريمة... وذلك ان هناك فرقا في علم الله تعالى من حيث متعلقه لا من حيث ذاته بين حال ما قبل وجود الشيء في الخارج وبين ما بعد وجوده. فعلمه عز وجل بالشيء قبل وجوده: انه سيوجد وعلمه به بعده: انه قد وجد. وتحقيق ذلك والبرهنة عليه مفصلا موكول إلى مباحث الفلسفة الإسلامية.

إذا تمت هاتان المقدمتان استطعنا ان نعلم المراد من الآية الكريمة: ﴿ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

فإن الفرد -أي فرد- قبل حصول ظروف الجهاد، وقبل تشريعه، يكون ناقص التكوين حقيقة، لا مجاهداً ولا صابرا، وتكون حالته النفسية واتجاهاته مجملة من حيث كونه سيتخذ موقف الجهاد عند طرد ظروفه وسيصبر على مسؤولياته أو لا. بمعنى ان له درجة ما قبل الجهاد، وهي درجة واقعية، لا يكون الفرد مستحقا فيها لثواب القائمين بالجهاد، ولا لعقاب الخارجين على مسؤولياته. ومن ثم قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾.

وبعد طرد ظروف الجهاد، يتحدد الموقف الواقعي للفرد، بأنه مجاهد أو غير مجاهد، ذلك الموقف الذي يكسب به درجته الجديدة من الكمال أو التسافل. فإنه قد يكون رد فعله تجاه هذه الظروف منافياً مع تعاليم الإسلام العادلة فيكون فاشلا في التمحيص الإلهي متسافلا عن درجته الإيمانية التي كان عليها. وقد يكون رد فعله تجاه هذه الظروف منسجما مع تلك التعاليم، فيكون ناجحاً في هذا التمحيص، صاعداً فوق ما كان عليه من درجة الإيمان، في سلم الكمال. فإذا تحدد اتجاهه الجديد، بالجهاد والصبر، علم الله تعالى ذلك منه، كعلمه بالأشياء بعد وجودها، ويكون الفرد ساعتئذٍ مستحقا لثواب المجاهدين.

إذن، فليس المراد من نسبة العلم إلى الله في الآية مجرد الانكشاف لاستلزامه نسبة الجهل إليه قبل ذلك، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وإنما المراد تغير الواقع المتمثل في تغير اتجاهات المكلفين ومواقفهم، فيعلم الله تعالى بتجدد الوجود عليها وحصول مرتبة الكمال أو التسافل للفرد. وهذا العلم هو المتحقق بالنسبة إلى الله تعالى، وليس بمستحيل ولا مستلزم جهلاً، لأنه عز

وجل قبل وجود الشيء عالم بأنه سيوجد، وبعده عالم بأنه وجد، كما سبق ان عرفنا.

فإذا عرفنا هذه القاعدة العامة في كيفية التمحيص، وأثره الواقعي... فهمنا ما ذكر في الروايات السالفة... كيف يوجب التمحيص ان يسبق سابقون كانوا قد قصروا ويقصر سباقون كانوا قد سبقوا، وعرفنا لماذا يبقى بعد التمحيص حثالة من الناس قد مرجت عهودهم وأماناتهم، بعد ان تسالفوا في مواقفهم وردود فعلهم. ويبقى من جهة أخرى عصابة لا تضرهم الفتنة شيئا، لأنهم نجحوا في التمحيص وسيطروا على كل المصاعب، فلا يستطيع الظلم بكل كبريائه ولا الدنيا بكل مغرياتها حملهم على الانحراف. ورزمة كرزمة الأندر أو كالكحل في العين أو الملح في الطعام من القلة، بالنسبة إلى مجموع البشرية بل المسلمين. وهذا معنى انه: يشقى من يشقى ويسعد من يسعد.

وعرفنا ان سبب التمحيص والغربلة بالغربال الذي يغربل به الأفراد «كما يغربل الزوان من القمح»... هي الحوادث المستجدة على الدوام في ظروف الظلم والإغراء.

القسم السادس:

الاخبار الدالة على حدوث وقائع وظواهر معينة محددة من أشكال العصيان والانحراف في المجتمع المسلم.

اخرج البخاري[1] عن انس قال: قال رسول الله ﷺ: ان من اشراط الساعة ان يرفع العلم ويثبت الجهل ويشرب الخمر ويظهر الزنا. واخرج في حديث

(١) انظر الصحيح، ج١، ص٣٠.

آخر[١] بلفظ: ويظهر الجهل ويظهر الزنا.

واخرج ابن ماجة[٢]: ليشربن ناس من أمتي الخمر، يسمونها بغير اسمها، يعزف عن رؤوسهم بالمعازف والمغنيات.

وفي نور الابصار[٣]: وهذه علامات قيام القائم مروية عن أبي جعفر ﷺ: قال: إذا تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وركبت ذات الفروج السروج. وأمات الناس الصلوات واتبعوا الشهوات، واستخفوا بالدماء وتعاملوا بالربا وتظاهروا بالزنا، وشيدوا البناء واستحلوا الكذب، واخذوا الرشا، واتبعوا الهوى، وباعوا الدين بالدنيا، وقطعوا الأرحام وضنوا بالطعام.

فكان الحلم ضعفا، والظلم فخراً، والأمراء فجرة والوزراء كذبة والأمناء خونة والأعوان ظلمة والقراء فسقة. وظهر الجور وكثر الطلاق وبدأ الفجور، وقبلت شهادة الزور، وشربت الخمور، وركبت الذكور، واستغنت النساء بالنساء. واتخذ الفيء مغنماً والصدقة مغرماً، واتقي الأشرار مخافة ألسنتهم... الحديث.

وفي إكمال الدين[٤] عن رسول الله ﷺ في مخاطبته لله عز وجل ليلة المعراج، وفيه يقول: فقلت: إلهي وسيدي متى يكون ذلك - يعني ظهور المهدي عليه السلام -؟ فأوحى الله عز وجل إلي: يكون ذلك - إذا رفع العلم وظهر الجهل، وكثر القراء وقل العمل، وكثر القتل، وقل الفقهاء الهادون، وكثر فقهاء الضلالة والخؤونة. وكثر الشعراء، واتخذ أمتك قبورهم مساجد، وحليت

---

(١) المصدر، ص٣١.

(٢) انظر السنن، ص١٣٣٣.

(٣) ص١٧١.

(٤) انظر المصدر المخطوط.

المصاحف وزخرفت المساجد، وكثر الجور والفساد، وظهر المنكر وأمر أمتك به ونهي عن المعروف. واكتفى الرجال بالرجال والنساء بالنساء، صار الأمراء كفرة وأولياءهم فجرة وأعوانهم ظلمة، وذوي الرأي منهم فسقة... الحديث.

وروي في الخرايج والجرايح[١] بسنده عن البرك بن سبرة قال: خطبنا علي بن أبي طالب، فقال: سلوني قبل ان تفقدوني. فقام صعصعة بن صوحان فقال: يا أمير المؤمنين: متى يخرج الدجال؟ فقال: ما المسؤول عنه بأعلم من السائل. ولكن لذلك علامات وهيئات يتبع بعضهم بعضا. ان علامة ذلك: إذا فات الناس الصلوات وأضاعوا الأمانة واستحلوا الكذب وأكلوا الربا، وشيدوا البنيان، وباعوا الدين بالدنيا واستعملوا السفهاء وشاوروا النساء وقطعوا الأرحام، واتبعوا الأهواء، واستخفوا الدماء. وكان الحلم ضعفا والظلم فخرا، وكانت الأمراء فجرة والوزراء ظلمة والعلماء خونة والفقراء فسقة. وظهرت شهادة الزور واستعلن الفجور، وقيل البهتان والإثم والطغيان، وحليت المصاحف وزخرفت المساجد وطولت المنارة وأكرم الأشرار، وازدحمت الصفوف، واختلفت القلوب، ونقضت العهود، واقترب الموعود.

وشاركت النساء أزواجهن في التجارة حرصا على الدنيا، وعلت أصوات الفساق واستمع منهم، وكان زعيم القوم أرذلهم. واتُّقِيَ الفاجر مخافة شره، وصدق الكاذب وائتمن الخائن، واتخذت المغنيات، ونسبت[٢] الرجال بالنساء والنساء بالرجال، ويشهد الشاهد من غير ان يستشهد. وشهد الآخر[٣] قضاء

---

(١) ص١٩١.

(٢) كذا في المصدر، ولعلها: تشبهت.

(٣) هذه العبارة من رواية «منتخب الأثر»، ص٤٢٨ لهذا الحديث. واما الخرايج والجرايح ففيها خطأ مطبعي.

لذمام لغير حق تعرفه. وتفقه لغير الدين، واثروا عمل الدنيا على عمل الآخرة. لبسوا جلود الضأن على قلوب الذباب[1]، وقلوبهم انتن من الجيف وأمر من الصبر... الحديث.

والاخبار في ذلك مطولة وكثيرة. وأود ان اسرد الحديث الآتي على طوله، باعتباره وثيقة مهمة في التاريخ الذين نحن بصدده.

روي في منتخب الأثر[2] عن تفسير الصافي عن تفسير القمي عن ابن عباس. قال: حججنا مع رسول الله ﷺ حجة الوداع، فأخذ بحلقة باب الكعبة، ثم اقبل علينا بوجهه فقال: ألا أخبركم بأشراط الساعة!

فكان أدنى الناس منه يومئذٍ سلمان رحمه الله فقال: بلى يا رسول الله. فقال: ان من اشراط القيامة، إضاعة الصلوات وإتباع الشهوات، والميل مع الأهواء، وتعظيم أصحاب المال وبيع الدين بالدنيا. فعندها يذاب قلب المؤمن في جوفه، كما يذاب الملح في الماء، مما يرى من المنكر فلا يستطيع ان يغيره.

قال سلمان: وان هذا لكائن يا رسول الله؟.

قال: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان، ان عندها يليهم أُمراء جورة، ووزراء فسقة وعرفاء ظلمة وأمناء خونة.

فقال سلمان: وان هذا لكائن يا رسول الله؟.

قال: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان، ان عندها يكون المنكر معروفا،

---

(١) في منتخب الاثر - نفس الصفحة: على قلوب الذئاب.

(٢) ص٤٣٢.

والمعروف منكرا، ويؤتمن الخائن ويخون الأمين، ويصدق الكاذب ويكذب الصادق.

قال سلمان: ان هذا لكائن يا رسول الله؟.

قال: إي والذي نفسي بيده. فعندها امارة النساء، ومشاورة الإماء، وقعود الصبيان على المنابر. ويكون الكذب ظرفاً والزكاة مغرما والفيء مغنما، ويجفو الرجل والديه ويبر صديقه. ويطلع الكوكب المذنب.

قال سلمان: ان هذا لكائن يا رسول الله؟.

قال: إي والذي نفسي بيده. وعندها تشارك المرأة زوجها في التجارة، ويكون المطر فيضا[1] ويغيض الكرام غيضا. ويحتقر الرجل المعسر. فعندها تقارب الأسواق، إذ قال هذا: لم أبع شيئا، وقال هذا: لم اربح شيئا. فلا ترى إلا ذاما لله.

قال سلمان: ان هذا لكائن يا رسول الله؟.

قال: إي والذي نفسي بيده يا سلمان، فعندها تليهم أقوام ان تكلموا قتلوهم وان سكتوا استباحوهم. ليستأثرون بفيئهم، وليطأون حريتهم وليسفكن دماءهم، وليملؤن قلوبهم دغلا ورعبا، فلا تراهم إلا وجلين خائفين مرعوبين مرهوبين.

قال سلمان: وان هذا لكائن يا رسول الله؟.

قال: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان، ان عندها يؤتى بشيء من المشرق وبشيء من المغرب يلون أمتي، فالويل لضعفاء أمتي منهم. والويل لهم من

---

(١) وفي نسخة غيضاً.

الله، لا يرحمون صغيرا ولا يوقرون كبيرا ولا يتجافون عن مسيء. جثثهم جثث الآدميين وقلوبهم قلوب الشياطين.

قال سلمان: وان هذا لكائن يا رسول الله؟.

قال ﷺ: إي والذي نفسي بيده، يا سلمان. وعندها يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء، ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها. وتشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال، وتركبن ذوات الفروج السروج، فعليهن من أمتي لعنة الله.

قال سلمان: وان هذا لكائن يا رسول الله؟.

قال: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان، وعندها تحلى ذكور أمتي بالذهب ويلبسون الحرير والديباج ويتخذون جلود النمور صفافا[١].

قال سلمان: وان هذا لكائن يا رسول الله؟.

قال: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان، وعندها يظهر الربا، ويتعاملون بالعينة[٢] والرشا، ويوضع الدين وترفع الدنيا.

قال سلمان: وان ذلك لكائن يا رسول الله؟.

قال: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان، وعندها يكثر الطلاق، فلا يقام لله حد. ولن يضروا الله شيئا.

قال سلمان: وان هذا لكائن يا رسول الله؟.

---

(١) أي مستوية مطمئنة والمراد كونها ملساء. وفي نسخة أخرى: صفاقا، أي كثيفة ثخينة.

(٢) بيع العينة هو بيع الشيء إلى اجل بزيادة على ثمنه مقابلة انتظار الثمن (المنجد) أقول: وهو غير جائز في شرع الإسلام.

قال: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان، وعندها تظهر القينات والمعازف، وتليهم شرار أمتي.

قال سلمان: وان هذا لكائن يا رسول الله؟.

قالﷺ: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان، وعندها يحج أغنياء أمتي للنزهة ويحج أوساطها للتجارة، ويحج فقراؤهم للرياء والسمعة. فعندها يكون أقوام يتفقهون لغير الله ويكثر أولاد الزنا، ويتغنون بالقرآن، ويتهافتون بالدنيا.

قال سلمان: وان هذا لكائن يا رسول الله؟.

قالﷺ: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان، ذاك إذا انتهكت المحارم، واكتسبت المآثم وسلط الأشرار على الاخيار ويفشو الكذب، وتظهر اللجاجة، وتفشو الفاقة، ويتباهون في اللباس، ويمطرون في غير أوان المطر، ويستحسنون الكوبة والمعازف، وينكرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى يكون المؤمن في ذلك الزمان أذل من الأمَة. ويظهر قراؤهم وعبادهم فيما بينهم التلاوم، فأولئك يدعون في ملكوت السماوات: الارجاس الأنجاس.

قال سلمان: وان هذا لكائن يا رسول الله؟.

قال: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان، فعندها لا يخشى الغني على الفقير، حتى ان السائل يسأل في الناس فيما بين الجمعتين لا يصيب أحداً يضع في كفه شيئاً.

قال سلمان: وان هذا لكائن يا رسول الله؟.

فقال: إي والذي نفسي بيده. يا سلمان، فعندها يتكلم الرويبضة.

فقال سلمان: ما الرويبضة؟ يا رسول الله، فداك أبي وأمي.

قال ﷺ: يتكلم في أمر العامة من لم يكن يتكلم[١]. . . الحديث.

وروى الشيخ الصدوق فيمن لا يحضره الفقيه[٢] عن الاصبغ بن نباته عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: سمعته يقول: يظهر في آخر الزمان واقتراب الساعة، وهو شر الأزمنة، نسوة كاشفات عاريات، متبرجات من الدين، داخلات في الفتن، مائلات إلى الشهوات، مسرعات إلى اللذات، مستحلات للمحرمات، في جهنم داخلات.

إلى غير ذلك من الاخبار الكثيرة، وفيها المطول والمختصر. ويكفينا منها ما ذكرناه. . . وهي لعمري بمجموعها الوثيقة التاريخية المهمة، والوجه الصادق المخلص، المطابق للقواعد والوجدان، في الكشف عن تاريخ البشر خلال عصر الغيبة الكبرى.

ويتم الكلام في فهم هذه الاخبار وتحديد مداليلها في ضمن أمور:

الأمر الأول:

اننا لنشعر من سلمان الفارسي رضي الله عنه - في خبر ابن عباس- وهو يعيش المجتمع الفاضل العادل الذي يقوده النبي ﷺ ويرعاه. . . اننا لنشعر منه استغرابه وشدة عجبه من صفات الفسق والانحراف التي يعلن النبي ﷺ عن تحققها في آخر الزمان. ومن هنا نراه يكرر على النبي ﷺ القول: وان ذلك لكائن يا رسول الله. فيجيبه النبي ﷺ مؤكداً إي والذي نفسي بيده.

كما اننا لنحس بكل وضوح الأسى الشديد الذي يتضمنه كلام النبي ﷺ

---

(١) انظر أيضاً عن الرويبضة في سنن ابن ماجة، ج٢، ص١٣٤٠ وغيره.

(٢) ص٢٤٧، ج٣. وانظر منتخب الأثر، ص٤٢٦.

وهو يصف خروج الناس عن شريعته وعصيانهم لتعاليمه، وتركهم للعدل الصحيح، مما يسبب لديهم أسوأ الآثار. كيف لا، والله تعالى يقول ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾[1].

والنبيﷺ إذ يخاطب الناس بذلك، ويطلعهم عليه، لا يخص به صحابته وأهل عصره باجتنابهم الخصال السيئة والانحرافات المقيتة التي ذكرها رسول اللهﷺ في بيانه.

إلا ان غرضه الأساسي والأهم هو مخاطبته الأجيال القادمة، وعلى الأخص تلك الأجيال التي تتصف بهذه الصفات، وتنحرف مثل هذه الانحرافات، حتى ينبهها عن غفلتها ويشعرها بواقعها، ويتم الحجة عليها. ذلك التنبيه الذي يؤثر في وجدان عدد من الناس المخلصين، التأثير الصالح المطلوب، فيتأكد إخلاصهم وتقوى إرادتهم ويزداد شعورهم بالمسؤولية للتمهيد لليوم الموعود، طبقا للتخطيط الإلهي الكبير.

الأمر الثاني:

اننا نفهم مما قلناه الآن: ان رواية ابن عباس بل جميع هذه الروايات تشارك في التخطيط الإلهي من ناحية أسبابها ومن ناحية نتائجها.

اما من ناحية أسباب صدور هذه الروايات، فباعتبار علم النبيﷺ والأئمةعليهم السلام بالتخطيط الإلهي، وما سوف يقتضيه على طول الخط التاريخي الطويل. ومن ثم نراهم يخبرون بهذا الجانب من التخطيط، كما اخبروا بجوانب أخرى، في الاخبار السابقة كروايات التمحيص... وغيرها.

---

(١) يس: ٣٠.

واما من ناحية نتائجها، فلما تتوخاه هذه الاخبار من إتمام الحجة، والتنبيه من الغفلة، وإيجاد شرط الظهور بإعلاء درجة الإخلاص في الأجيال المعاصرة للانحراف.

الأمر الثالث:

ان بعض هذه الاخبار، تكون قرينة مبينة بالنسبة إلى البعض الآخر. إذ بالرغم من ان جملة منها لا يتضح منها كون الانحراف المخبر به حاصلا في عصر الغيبة الكبرى على التعيين. إلا ان خبر نور الأبصار وخبر إكمال الدين، قرن تلك الحوادث بما قبل ظهور المهدي(ع) ومع اتحاد الحوادث نعرف ان المراد من جميع الاخبار هو ذلك.

كما انه قرنت هذه الحوادث في خبر (الخرايج والجرايح) بما قبل ظهور الدجال، فإذا علمنا بالقطع واليقين بأن ظهوره سابق على ظهور المهدي(ع)، كما تدل عليه الروايات الآتية المروية من قبل الفريقين. إذن، نفهم بوضوح ان هذه الحوادث سابقة أساسا على ظهور المهدي(ع). وهو معنى حصولها في فترة الغيبة الكبرى، كما هو واضح.

واقترانها بما قبل قيام الساعة، في بعض هذه الاخبار، لا يكون مضرا بما فهمناه، باعتبار ما قلناه فيما سبق، من ان السابق على الظهور سابق على قيام الساعة. وليس من الضروري ان تكون اشراط الساعة واقعة قبلها مباشرة. وسيأتي التعرض إلى تفصيل ذلك في القسم الثالث من هذا التاريخ.

الأمر الرابع:

مقصود النبي(ص) والأئمة(ع) هو اطلاع الأمة على الانحراف الأساسي الذي يستفحل في المجتمع، فيبتعد به عن العدل الإسلامي، بكل تفاصيله، بما

فيه التعاليم الإلزامية والتوجيهات الاستحبابية والأخلاقية. فإن العدل الكامل لا يتحقق إلا بإتباع كل التعاليم واجبها ومستحبها وعباديها وأخلاقيها. ويتحقق الانحراف بالخروج على أي منها.

ومن ثم نسمع من هذه الاخبار، وقوع الانحراف عن المستحبات، كترك الصدقة المستحبة وتحلية المصاحف وزخرفة المساجد، وإطالة المنارة فيها، ونحو ذلك.

الأمر الخامس:

ان عددا من الحوادث الواردة في هذه الروايات، تتضمن أمورا يمكن ان تقع على وجه إسلامي صحيح، كما يمكن ان تقع على وجه باطل منحرف. ونعرف بالطبع من وقوعها في كلام النبيﷺ أو الإمامعليه السلام وهو بصدد تعداد الحوادث المنحرفة، انها منحرفة، وواقعة على شكلها الباطل.

مثال ذلك: تشييد البناء، فإنه ان وقع من الفرد بعد تطبيق كل الأنظمة المالية في الإسلام، وعلى الوجه الشرعي الصحيح، لم يكن فيه حزازة. بل قد يتضمن مصلحة عامة في كثير من الأحيان. ولكنه ان وقع على خلاف ذلك كان عصيانا وانحرافا في نظر الإسلام.

ومثل ذلك: ما ورد من مشاركة المرأة زوجها في التجارة. وقد يتصور ان تقع على الوجه الإسلامي الصحيح، وان كان لا تقع في المجتمع المنحرف إلا مقترنة بالتبرج والخروج على تعاليم الإسلام.

الأمر السادس:

ان ما تتضمنه هذه الاخبار، أمور راجحة وصحيحة شرعاً، إلا انها إذا

اقترنت بسلوك منحرف أو اتجاه فاسد، اكتسبت معنى منحرفا سيئاً، بمعنى ان مجموع فعل الفرد لا يكون محمودا، بل يكون ممثلا لخط الانحراف لا محالة. مثال ذلك قوله: إذا ازدحمت الصفوف واختلفت القلوب. فإن ازدحام الصفوف للصلاة الجامعة أو لغرض آخر كالوعظ أو تشييع جنازة أو نحو ذلك، أمر مطلوب وراجح في الإسلام... ولكنه إذا اقترن بتفرق القلوب وتشتت الأهواء والنوازع، لم يكن دالا على قوة ولا على وعي وإرادة، ومن ثم يكون مذموما مقيتا.

ومثاله الآخر: ان الرجل يجفو والديه ويبر صديقه. فإن بر الصديق وان كان أمرا عادلا راجحا على الأغلب، إلا انه إذا اقترن بجفاء الوالدين دل على خبث النية وانحراف الاتجاه. ويدل على ان الصداقة لم تنعقد على أساس الإسلام بل على أساس المصالح الضيقة والأعمال المنحرفة، إذ لو لم يكن كذلك، لما جفا الفرد والديه.

وهكذا... قس على هذه الأمثلة ما سواها.

الأمر السابع:

يراد ببعض التعابير في هذه الاخبار معناها الكنائي أو الرمزي، لا المعنى الحقيقي المفهوم من اللفظ لأول وهلة. ومعه لا حاجة إلى تخيل حدوث هذه الأمور بطريق إعجازي، بل يمكن ان يكون حدوثها طبيعيا اعتياديا.

فمن ذلك قوله: لبسوا جلود الضأن على قلوب الذئاب. فإن المراد هو التعبير عن دماثة الظاهر وخبث الباطن وشراسة الطبع. وهذا واضح.

ومن ذلك قوله: يذاب قلب المؤمن في جوفه، كما يذاب الملح في الماء، لما يرى من المنكر، فلا يستطيع ان يغيره.

فإن المراد التعبير من شدة أسفه ووجده لما يرى من العصيان ومخالفة العدل الإلهي، وهو غير قادر على رفعه أو تغييره، بسبب عمق ظروف الانحراف. ومن ذلك قوله: ان عندها يؤتى بشيء من المشرق وبشيء من المغرب يلون (أي يحكمون) أمتي.

فإن أفضل تفسير لذلك: هو المبادئ المادية التي جلبت إلى بلاد الإسلام من الغرب تارة ومن الشرق أخرى. ويمارس الحكام المنحرفون الحكم طبقا لأحدهما أو لكليهما في بعض الأحيان.

والظاهر من التعبير الوارد في الرواية: اشتراك كلا الشيئين في ولاية الأمة. ولم يحدث ذلك في التاريخ إلا في السنوات المتأخرة التي عشناها ونعيشها، حين أصبح الحكام في شرقنا الإسلامي يمثلون الشرق الملحد والغرب المشرك معا، ويعتبرونهما معا مثلا أعلى وقدوة تحتذى، لو قيست بمبادئ الإسلام وتعاليمه، في رأيهم الخاطئ.

ومن ذلك قوله: يتكلم الرويبضة. فإن المراد به - كما فسرهﷺ في نفس الحديث -: كل رجل يتكلم في أمر العامة، لم يكن يتكلم قبل ذلك.

وان أفضل فهم لهذه العبارة، هو ان يقال: انه عاش المجتمع المسلم عدة قرون، لا يتكلم باسم العامة ولا يدير شؤونهم إلا أشخاص صادرون عن الدين بشكل وآخر، كالخلفاء والقضاة والفقهاء. حتى ما إذا ورد تيار الحضارة الحديثة إلى العالم الإسلامي، أباح جماعة من المنحرفين لأنفسهم ان ينطقوا باسم العامة أو باسم الشعب وينظروا في أمره ويديروا شؤونه، من دون ان يكون لهم أي حق حقيقي سوى السيطرة التي اكتسبوها بالقوة والحديد والنار على الناس. وأصبح التكلم باسم الشعب شعاراً راسخاً يقتنع به الكثيرون، بالرغم من انه يمثل انحرافا حقيقيا عن الإسلام الذي يوجب تكلم الحاكم باسم

الله لا باسم الشعب.

ولعل التعبير بالرويبضة يشعرنا بوجود تيار رابض أو كامن بين أبناء الإسلام دهرا من الزمن، أنتج في نهايته هذه النتيجة.

وهذا أمر صحيح، بعد الذي نعرفه من التاريخ الحديث، من ان الاستعمار استطاع أولاً السيطرة الثقافية والعقائدية على عقول عدد كبير من أبناء هذه البلاد، مما أنتج في نهاية الخط، سيطرتهم على الحكم وممارستهم الأساليب الكافرة في إدارة بلاد الإسلام. فكانت تلك السيطرة إعداداً كامنا لإيجاد هذا الحكم في نهاية المطاف.

وهذا يبرهن أيضاً على صحة ما في هذه الاخبار، مما قد تكلمنا عنه فيما سبق، من ان الأمراء يصبحون كفرة والوزراء فجرة وذوي الرأي فيهم فسقة.

الأمر الثامن:

اشرنا في منهج الفهم الدلالي للروايات، إلى انه قد يرد فيها تعابير يختلف مصداقها ويتطور على مر العصور، وان فهم الناس المعاصرون لصدور النص، مصداقا معينا، بل وان صرح لهم بمصداق معين جرياً على قانون مخاطبتهم على قدر عقولهم، كما سبق. وقلنا انه لا بد من التوسع في الفهم، وتطبيق التعبير على كل مصداق متطور، خاصة بعد اليقين بأن النبيﷺ أو الإمامعليه السلام يقصد المصداق الذي يحدث في الزمان الذي يتكلم عنه، لا الذي يحدث في الزمان الذي يتكلم فيه. ومن المعلوم اختلاف المصداقين إلى حد بعيد، طبقاً لتطور الزمان وتغير الأحوال.

فإذا استوعبنا ذلك استطعنا ان نطبقه في كثير من تعابير هذه الاخبار.

فمن ذلك قوله: وتركب ذوات الفروج السروج. فإن السرج وان كان هو ما وضع على الفرس، وقد ركبته النساء في التاريخ أحياناً، وتحققت النبوءة. وهو ما فيه الكفاية للمكتفي.

إلا اننا يمكن ان نجد مصاديق أخرى لذلك على مر العصور... فيما إذا فهمنا من السروج كل مركوب يختص بالرجل في نظر الإسلام. بمعنى ان استعماله بالنسبة إلى المرأة ملازم عادة مع التبرج والخروج على الآداب الإسلامية، تماما كما هو الحال في ركوب الفرس... فكذلك ركوب الدراجة الهوائية أو البخارية أو سياقة السيارة أو الطائرة أو الباخرة... ونحو ذلك.

ومن ذلك قوله: وتظهر القينات والمعازف. وقوله: واتخذت المغنيات. فإنه بالرغم من ان ذلك قد حدث فعلاً منذ عصر الأمويين إلى ما بعده بعدة قرون. إلا اننا يمكن ان نفهم منه ما هو الأعم والاشمل لينطبق على ما تذيعه وسائل الإعلام الحديثة من حفلات غنائية وما تبثه من أساليب خلاعية لا أخلاقية على شاشة السينما والتلفزيون وعلى أمواج الراديو، فإنها لا تختلف في مضمونها وحقيقتها عن تلك الحفلات القديمة إلا في اجتماع السامعين والمشاهدين مع المغنين في مجلس واحد. كما لا تختلف في مقدار انحرافها عن الإسلام وعصيانها لتعاليمه.

الأمر التاسع:

ان هناك أموراً وردت في كلام النبيﷺ -في الخبر الطويل لإبن عباس- لم يكن يفهم منها معاصروه إلا معنى غامضاً غائماً، بمقدار ما ترشد إليه قواميس اللغة. ولكن قد أثبتت العصور الأخيرة، بما عاشت من تجارب، مدى أهميتها الكبرى وأثرها البالغ في المجتمع.

فمن ذلك: ما يصفهﷺ من موقف الحكام المنحرفين تجاه الشعب المسلم بقوله: ان تكلموا قتلوهم وان سكتوا استباحوهم. فإن مثل هؤلاء الحكام يستغلون نقاط الضعف في الأمة على طول الخط، ويختطون معهم خطة العسف والقهر، لا يختلف في ذلك الحكم الفردي الدكتاتوري عن الحكم المبدئي المنحرف القائم على غير الإسلام.

فأول ما يواجهون به الأمة: منعها عن الحرية الفكرية والسياسية وصراحة الرأي، فإن «تكلموا قتلوهم» أو هددوهم بالعقاب الأليم. فإن استسلم الناس وسكتوا «استباحوهم» واستغلوهم واستحلوا خيراتهم وسيطروا على مواردهم ومصادرهم.

ومن ذلك: ما ذكرهﷺ من حصول كثرة الطلاق. على حين لم يكن يحدث في دولته من الطلاق إلا النزر القليل بنسبة ضئيلة جدا. لما كان الزوجان يلتزمانه فيما بينهما من تطبيق العدل الإسلامي، ونبذ الأنانية.

واما حين يبتعد المجتمع عن أحكام الله عز وجل، وتتعقد حياته تعقيدا منحرفا، تبدأ الأسر بالتفسخ والبيوت بالانفصام، وتكثر حوادث الطلاق حتى بعد وجود الذرية.

وقد اثبت العلم الاجتماعي الحديث، ان كثرة الطلاق تدل على حدوث عنصر أو عناصر، غير مرغوبة في الحياة الاجتماعية، وأنه يؤدي بدوره إلى عدة آثار سيئة مما يضطر الحكومات على طول الخط إلى رصد المبالغ الضخمة للملاجئ ونحوها لكي تحوي الأطفال المتسيبين الفاقدين للمربي والكفيل.

ومن ذلك قوله: وتفشو الفاقة. فإن انتشار الفقر يكون بأحد سببين، كلاهما ناتج عن سوء التنظيم الاقتصادي:

السبب الأول:

الرأسمالية أو الاستقطاب المالي عند عدد قليل من الناس، وبقاء الآخرين على حالة الضعف والفاقة، محكومين من قبل أرباب المال من حيث أوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية... بل حتى من حيث النواحي الأخلاقية العقائدية في كثير من الأحيان. فإن المتمولين هم المسيطرون على تربية الناشئة وتثقيف الشعب، مضافا إلى نفوذهم في البلاد.

السبب الثاني:

انخفاض المستوى الاقتصادي لدى جميع أفراد المجتمع، بقلة الدخل العام والواردات الشخصية. وقد تواجه الأمة مثل هذا الضعف الاقتصادي نتيجة لبعض الأزمات، أو سوء التصرف من قبل الحاكمين.

والسبب الأول هو الأغلب في المجتمعات، والأشد ضرراً عليها في المدى البعيد. وخاصة إذا عممنا مفهوم الطبقية المالية إلى المجتمع الزراعي والصناعي معا. وقد نشأ هذا الوضع في المجتمعات الإسلامية، نتيجة لتناسي العدل الإسلامي وانحساره عن عالم التطبيق الاجتماعي. وكان من أوضح نتائجه ان تفشو الفاقة وينتشر الفقر.

الأمر العاشر:

ليس شيء مما ذكر في كل هذه الروايات، لم يتحقق في خلال التاريخ الإسلامي. ومن المستطاع القول بأن كل الصفات المعطاة فيها، موجودة بشكل وآخر، على طول تاريخ الانحراف إلى العصر الحاضر، وستبقى نافذة المفعول، ما دام مجتمع الظلم والفتن موجوداً، إلى حين قيام الإمام المهدي عليه السلام بدولة الحق.

ولا نستطيع الدخول في تفاصيلها وتكرار مداليلها بأكثر مما قلناه وإنما ذلك موكول إلى القارئ، ان شاء ان يراجع النصوص فاهماً لها انطلاقا من الأساس الإسلامي الصحيح.

وبهذا ينتهي الكلام في الجهة الثانية من الناحية الثانية من هذا الفصل.

* * *

عرض على المنهج السندي:

وإذا عرضنا هذه الأخبار على المنهج السندي الذي التزمناه، من رفض الأخذ بخبر الواحد في هذا المجال، ما لم تقم على صحته قرائن خاصة أو تحصل فيه استفاضة أو تواتر... فإنه ينتج صحة الأعم الأغلب من هذه الاخبار. وان كان كل واحد منها بمفرده خبر واحد، قد يوسم بالضعف.

فإن عددا من هذه الاخبار قامت القرائن القطعية على صحته... يمكن ان نحمل فكرة عنها فيما يلي:

القرينة الأولى:

تحقق الحوادث التي أعربت عنها في التاريخ كما سمعنا، فإننا ذكرنا ان ذلك من القرائن على صدق الخبر.

القرينة الثانية:

ان بعضها وارد في مورد معارضة الجهاز الحاكم، الذي كان مسيطرا في عصر صدور هذه الاخبار أو عصر تسجيلها. كقولهﷺ: يكون أقوام من أمتي يشربون الخمر ويسمونها بغير اسمها. فإنه كان على هذا ديدن عدد من الخلفاء

الأمويين والعباسيين. . . يسمونها: الطلي أو البختج أو الفقاع. . . ويفتون بجواز الشرب ما لم يصل إلى حد الاسكار.

القرينة الثالثة:

ان عددا منها مسجل في المصادر، قبل ان يشعر مؤلفوها أو رواتها بحدوث تلك الأحداث أساساً. وإنما حدثت بعد ذلك نتيجة لتزايد ابتعاد المجتمع عن الإسلام. كما هو واضح لمن استقرأ عددا من الحوادث المنقولة، وقد استعرضنا بعضها عند محاولة فهمنا لهذه الاخبار.

يضاف إلى هذه القرائن: ان جملة من مضامين هذه الاخبار دل عليه عدد منها، ولم تختص بخبر واحد أو خبرين. وقد اعتبرنا في المنهج السندي ذلك من المرجحات.

ولعلك لاحظت معي تكرار الحوادث في الاخبار التي سمعناها. ان هذه الحوادث المكررة هي مقصودنا في المقام.

كما ان بعضها مستفيض أو متواتر لفظا، وهو الخبر القائل بأن المهدي عليه السلام: يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا. فإنه مروي من قبل الفريقين بأعداد كبيرة، منها ما ذكرناه ومنها ما لم نذكره. وقد ذكر الشيخ الصافي في منتخب الأثر انه مروي بما يزيد على المائة والعشرين طريقا.

واما ما لم يكن محتويا على هذه القرائن والصفات من الاخبار، فمقتضى التشدد السندي الذي سرنا عليه. . . رفضه، وإيكال علمه إلى أهله.

كالخبر الذي رواه النعماني في الغيبة[1] المعرب عن حصول اثنتي عشرة

---

(١) انظر ص٢٤٧ وما بعدها.

رواية مشتبهة. وقد سبق. أو ما رواه ابن ماجة[١] من (ان بين يدي الساعة دجالين كذابين قريباً من ثلاثين، كلهم يزعم انه نبي). لو حملنا النبوة على معناها الاصطلاحي وهو الرسالة عن السماء. وفي البخاري[٢] يقول: كلهم يزعم انه رسول الله. فإن هذه الأرقام لا تثبت. وان وجد في التاريخ حقا عدد ممن يدعي الإمامة أو النبوة.

* * *

الجهة الثالثة:

في الاخبار الدالة على صلاح الزمان وتحسن الوضع العام فيه... بشكل يشمل بإطلاقه تحسن المجتمع خلال عصر الغيبة الكبرى.

وقد ذكرنا بعد (منهج التمحيص الدلالي) أقسام الاخبار الدالة على صلاح الزمان وحسنه، وقلنا انه لا بد من حمل مطلقاتها على مقيداتها، على النحو الذي سبق.

وأود في هذا الصدد، ان أورد عدة من هذه النصوص وأذكر الوجه الحق في تمحيصها.

ولم نجد من الرواة الاماميين من روى مثل ذلك، بل ان اخبارهم مطبقة على تدهور الزمان وفساده خلال عصر الغيبة الكبرى. وإنما هي اخبار قليلة وردت في مصادر العامة.

(١) انظر السنن، ج٢، ص١٣٠٤.

(٢) انظر الصحيح، ج٩، ص٧٤.

فمنها: ما أخرجه البخاري[١] عن رسول الله ﷺ انه قال: تصدقوا! فسيأتي على الناس زمان يمشي الرجل بصدقته، فلا يجد من يقبلها.

وفي حديث آخر[٢] يعد به عدداً من أشراط الساعة، ويقول فيه:

وحتى يكثر فيكم المال، فيفيض، حتى يهم رب المال من يقبل صدقته، وحتى يعرضه فيقول الذي يعرضه عليه: لا ارب لي به.

واخرج مسلم[٣] عن رسول الله ﷺ: تصدقوا، فيوشك الرجل يمشي بصدقته، فيقول الذي أعطيها: لو جئتنا بالأمس قبلتها، فأما الآن فلا حاجة لي بها. من يقبلها.

واخرج أيضا[٤]: لا تقوم الساعة حتى يكثر فيكم المال، فيفيض، حتى يهم رب المال من يقبل صدقته. ويدعى إليه الرجل، فيقول: لا ارب لي فيه.

إلا ان مثل هذه الاخبار، لها محامل ممكنة، وعليها اعتراضات. فإن صحت المحامل فهو المطلوب، وإلا وردت عليها الاعتراضات.

اما المحامل، فهي عدة تقييدات يمكن ان نوردها عليها:

التقييد الأول:

ان نخص هذه الاخبار، بما بعد ظهور المهدي عليه السلام، فيكون مدلولها طبيعيا وصحيحا، وموافقا مع الاخبار الكثيرة المتواترة الدالة على تزايد الخير

(١) انظر الصحيح، ج٩، ص٧٣ - ٧٤.

(٢) المصدر، ص٧٤.

(٣) انظر الصحيح، ج٣، ص٨٤.

(٤) المصدر والصفحة.

والرفاه في زمن ظهور المهدي عليه السلام، على ما سنسمع في التاريخ القادم[١].

وربما يصلح قرينة على هذا التقييد، قوله: لو جئتنا بالأمس قبلتها، يعني قبل الظهور، واما الآن - يعني بعد الظهور- فلا حاجة لي بها.

ومعه، لا بد من رفع اليد عن ظهور قوله: يوشك الرجل... في قرب حدوث ذلك، بجعل الاخبار الثلاثة الأخرى قرينة عليه.

وهذا التقييد وان كان حملاً، يمكن ان يصح في سائر هذه الاخبار، إلا ان واحداً منها يأباه- بظاهره-، وهو الحديث الثاني الذي نقلناه عن البخاري، فإنه اقترنت فيه الاخبار بكثرة المال بالاخبار عن حدوث حوادث عديدة سيئة كالفتن والهرج، وغيرهما على ما سنسمع. مما عرفنا اختصاص حدوثه في عصر الغيبة الكبرى دون عصر الظهور. إلا ان هذا الإيراد، يمكن ان يتوجه كإشكال على هذا الخبر نفسه، لا على هذا التقييد الأول.

التقييد الثاني:

ان نخص هذه الاخبار، في صورة الاستقطاب الرأسمالي عند الدجال أو عند آخرين. فيكون المراد كثرة المال عند رجل واحد، أو عند عدد قليل من الناس.

إلا ان هذا مما لا يمكن انطباقه على شيء من هذه الاخبار، لأنها جميعاً دلت على انه ليس هناك من يقبل الصدقة، وهو يدل على كثرة المال عند الجميع، لا عند البعض فحسب.

---

(١) وهو الكتاب الثالث من هذه الموسوعة.

التقييد الثالث:

ان نقول: ان أقصى ما تدل عليه هذه الاخبار، هو ان الناس لا يقبلون الصدقة. وأما ان منشأ ذلك هو كثرة المال فلا دليل عليه. فقد تكون له مناشئ أخرى كالتعفف أو التنفر من الصدقة الإسلامية بسبب الانحراف، أو غير ذلك من الأسباب.

إلا ان هذا التقييد، وان أمكن انطباقه على الرواية الأولى، ولكن من المتعذر انطباقه على الباقي. للتصريح فيها بأنه: لا حاجة لي فيه أو لا ارب لي فيه... وهو ظاهر بوضوح بأن رفض الصدقة ناشئ من الغنى وكثرة المال. وخاصة مثل قوله: لو جئتنا بالأمس قبلتها، اما الآن فلا حاجة لي بها... باعتبار انه كان بالأمس فقيرا واما اليوم، فهو غني.

وحيث نفترض بطلان كل هذه المحامل، يتعين كون المراد كثرة المال عند جميع أفراد المجتمع المسلم خلال عصور الغيبة الكبرى. ومعه ترد الاعتراضات التالية:

الاعتراض الأول:

ان هذه الاخبار معارضة بما دل على تفاقم الخطب وزيادة الشر كلما تقدم الزمان.

فمن ذلك: ما أخرجه البخاري[1] عن رسول الله ﷺ انه قال: اصبروا! فإنه لا يأتي عليكم زمان إلا الذي بعده شر منه. حتى تلقوا ربكم. والمراد بلقاء الله تعالى موت الأفراد، لا حصول القيامة، لكي لا يشمل عصر ما بعد الظهور.

---

(١) انظر الصحيح، ج٩، ص٦١ - ٦٢.

ولو شمله الإطلاق، كان مقيدا بالأدلة القطعية الدالة على حصول الرفاه الحقيقي العادل يومئذ.

وعلى أي حال، فتفاقم الخطب، المستمر خلال عصر الغيبة الكبرى، ينافي حصول الرفاه فيه.

الاعتراض الثاني:

ان هذه الاخبار- بشكل عام- منافية مع طبيعة الأشياء، وفلسفة تسلسل الأمور من أسبابها.

فإنه بعد الوضوح وكثرة الاخبار الدالة على وجود الانحراف والفتن والأمراء الكفرة والوزراء الفسقة، وغير ذلك من الظواهر والحوادث التي سمعناها... كيف يمكن ان يكثر المال ويعم الرفاه ويتعدد الأغنياء، إلى حد يصبح كل أفراد المجتمع المسلم من الموسرين. فإن هذا مما لا يمكن ان يتمخض عنه الانحراف، وما لم تصل إليه أي من النظم والقوانين الوضعية، ولا يمكن وصولها إليه في المستقبل... ما لم ينزل القانون الإسلامي العادل الكامل إلى حيز التنفيذ.

ومن الطريف الذي لم نفهم له وجهاً: ان رواية واحدة للبخاري تقرن بين عدد من الحوادث السيئة المنحرفة وبين كثرة المال، حيث نراه يقول فيما يقول: وحتى يقبض العلم وتكثر الزلازل ويتقارب الزمان وتظهر الفتن، ويكثر الهرج وهو القتل. وحتى يكثر المال... إلى ان يقول: وحتى يتطاول الناس في البنيان. وحتى يمر الرجل بقبر الرجل، فيقول: يا ليتني مكانه... الحديث[١].

---

(١) انظر الصحيح، ج٩، ص٧٤.

واحتمال: ان ذلك باعتبار اختلاف الأزمنة، لا باعتبار زمان واحد، مناف لظاهر الخبر باقتران الحوادث، ومناف مع ظاهر الاخبار الأخرى الدالة على بقاء الانحراف طيلة زمان الغيبة الكبرى.

الاعتراض الثالث:

ان هذه الاخبار منافية ومعارضة مع ما دل على شيوع الفاقة وازدياد الفقر، كما سمعنا في حديث ابن عباس... وهو الأنسب مع طبيعة تطور الحوادث، والاوفق مع سائر الروايات.

وعلى أي حال، فمع اخذ هذه الاعتراضات بنظر الاعتبار، تسقط هذه الروايات عن إمكان الأخذ بها، وخاصة بعدما التزمناه من التشدد السندي، حيث دلت القرائن على نفيها وعدم حدوث ما دلت عليه. ومعه لا يبقى دليل على تحسن الوضع خلال عصر الغيبة الكبرى. بل نبقى آخذين بالأقسام السابقة من الاخبار الدالة على حدوث الانحراف وتزايده خلال هذا العصر. وهو الموافق للوجدان وطبائع الأشياء.

نعم، حمل هذا القسم من الاخبار، على انها تتحدث عن عصر ما بعد الظهور... أمر ممكن. وبه تخرج عن محل الاستدلال.

وبهذا ينتهي الكلام في الناحية الثانية من هذا الفصل الثاني من القسم الثاني من هذا التاريخ. وبه ينتهي هذا الفصل كله.

الفصل الثالث
في التكليف الإسلامي الصحيح خلال عصر الغيبة الكبرى

وما يقتضيه هذا التكليف من سلوك على المستوى الفردي والاجتماعي، وما يقتضيه من استعداد نفسي وثقافي على كلا المستويين. وفضل من يتبع هذا التكليف الإسلامي، وحال من يعصيه ويخرج عليه. وعرض ذلك انطلاقا من القواعد العامة في الإسلام من ناحية ومن الاخبار الخاصة الواردة في هذا الصدد من ناحية أخرى.

ويقع الكلام في هذا الفصل، ضمن عدة جهات، بمقدار ما هو المطلوب من التكاليف في الإسلام، وما قد يترتب على ذلك من نتائج.

الجهة الأولى:

من التكاليف المطلوبة إسلامياً حال الغيبة: الاعتراف بالمهدي عليه السلام كإمام مفترض الطاعة وقائد فعلي للأمة، وان لم يكن عمله ظاهراً للعيان، ولا شخصه معروفاً.

وهذا من الضروريات الواضحات، على المستوى الإمامي، للعقيدة الإسلامية، الذي اخذناه في هذا التاريخ أصلاً مسلماً وأجلنا البرهان عليه إلى حلقات قادمة من هذه الموسوعة.

فإنه الإمام الثاني عشر لقواعده الشعبية، وهو المعصوم المفترض الطاعة الحي منذ ولادته إلى زمان ظهوره. وقد عرفنا في تاريخ الغيبتين الصغرى والكبرى، الأعداد الكبيرة من الاخبار الدالة على ذلك، وفلسفة دخله في التخطيط الإلهي، ومقدار تأثير الإمام عليه السلام في العمل في صالح الأمة الإسلامية عموما، وقواعده الشعبية خصوصا. كما عرفنا مقدار تأثير وجوده في رفع معنويات قواعده وتمحيص إخلاصهم وتحسين أعمالهم.

وحسب الفرد المسلم ان يعلم ان إمامه وقائده مطلع على أعماله وملم بأقواله، يفرح للتصرف الصالح ويأسف للسلوك المنحرف، ويعضد الفرد عند الملمات... حسب الفرد ذلك لكي يعي موقفه ويحدد سلوكه تجاه إمامه، وهو يعلم انه يمثل العدل المحض وان رضاه رضاء الله ورسوله، وان غضبه غضب الله ورسوله.

كما ان حسب الفرد ان يعرف ان عمله الصالح، وتصعيد درجة إخلاصه، وتعميق شعوره بالمسؤولية تجاه الإسلام والمسلمين، يشارك في تأسيس شرط الظهور ويقرب اليوم الموعود. إذن ف(الجهاد الأكبر) لكل فرد تجاه نفسه يحمل المسؤولية الكبرى تجاه العالم كله، وملئه قسطا وعدلا كما ملئ ظلما وجورا. فكيف لا ينطلق الفرد مجاهدا مضحيا عاملا في سبيل إصلاح نفسه وإرضاء ربه.

ومن ثم نرى النبي صلى الله عليه وآله يؤسس أساس هذا الشعور في الفرد المسلم ويقرن طاعة المهدي عليه السلام بطاعته ومعرفته - على المستوى العملي التطبيقي- بمعرفته. فإن معرفة النبي صلى الله عليه وآله بصفته حامل مشعل العدل إلى العالم، لا يكون بالاعتراف التاريخي المجرد بوجوده ووجود شريعته، بل بالمواظبة التامة على الالتزام بتطبيق تعاليمه والأخذ بإرشاداته وتوجيهاته، وإلا كان الفرد منكراً

للنبي ﷺ على الحقيقة، وان كان معترفا بوجوده التاريخي.

وحيث ان أفضل السلوك الإسلامي وأعدله انما يتحقق تحت إشراف القائد الكبير المهدي عليه السلام إذن، تكون أحسن الطاعة لنبي الإسلام وأفضل تطبيقات شريعته، هو ما كان بقيادة المهدي عليه السلام وما بين سمعه وبصره. إذن، صح ان معرفة المهدي عليه السلام - على المستوى السلوكي التطبيقي - معرفة للنبي ﷺ. وإنكاره على نفس المستوى إنكار له.

ومن ثم نسمع النبي ﷺ يقول: من أنكر القائم من ولدي فقد انكرني[١]. ونراه يقول: القائم من ولدي اسمه اسمي وكنيته كنيتي، وشمائله شمائلي، وسنته سنتي. يقيم الناس على ملتي وشريعتي، ويدعوهم إلى كتاب ربي عز وجل. من أطاعه فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني، ومن أنكره في غيبته فقد أنكرني، ومن كذبه فقد كذبني، ومن صدقه فقد صدقني... الحديث[٢]. إلى غير ذلك من الأخبار الواردة بهذا المضمون عنه ﷺ وعن أئمة الهدى عليهم السلام.

وهذا الكلام من النبي ﷺ وان كان منطبقا على المعتقد الإمامي في المهدي عليه السلام، إلا انه بنفسه قابل للتطبيق على المعتقد العام لأهل السنة والجماعة في المهدي إذا استطعنا إلغاء فكرة الغيبة عن كلامه ﷺ. فإنهم عندئذ يتفقون مع الإمامية في مضمون الحديث جملة وتفصيلا. إذ من المقطوع به والمتسالم عليه بين سائر المسلمين ان المهدي عليه السلام هو الرائد الأكبر في عصره لتطبيق الإسلام، فهو يقيم الناس على ملة رسول الله ﷺ ويدعوهم إلى كتاب

(١) انظر الإكمال المخطوط. ومنتخب الأثر ص٤٩٢.

(٢) انظر الإكمال المخطوط: باب من أنكر القائم.

الله عز وجل. ومن الطبيعي مع اتحاد الاتجاه والأطروحة، ان تكون طاعة المهدي عليه السلام طاعة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وعصيانه عصيانا له، وتكذيبه تكذيبا له، وتصديقه تصديقا له.

كما انه من الحتم ان يكون إنكار ظهور المهدي عليه السلام وقيامه بالسيف لإصلاح العالم، إنكاراً لرسالة النبي صلى الله عليه وآله وسلم ورفضا لجهوده الجبارة في بناء الإسلام، كيف لا... وظهور المهدي عليه السلام هو الأمل الكبير لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في ان تسود شريعته في العالم، وتتكلل مساعيه وتضحياته بالنصر المبين. بعد ان لم تكن الشروط وافية والظروف مواتية لحصول هذا النصر في عصره، كما أوضحناه فيما سبق.

بل يكون إنكار المهدي عليه السلام في الحقيقة إنكارا للغرض الأساسي من خلق البشرية والحكمة الإلهية من وراء ذلك، مما قد يؤدي إلى التعطيل الباطل في الإسلام.

فإنه بعد ان برهنّا ان الغرض من خلق البشرية هو إيجاد العبادة الكاملة في ربوع المجتمع البشري بقيادة الإمام المهدي عليه السلام في اليوم الموعود... إذن، يكون إنكار المهدي مؤدياً إلى نتيجة من عدة نتائج كلها باطلة كما يلي:

النتيجة الأولى:

ان خلق البشرية ليس وراءه هدف ولا غاية. وهذا منفي بنص القرآن القائل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[1]. وبالبرهان العقلي الفلسفي القائل بضرورة وجود العلة الغائية والهدف، من وراء كل فعل اختياري،

(١) الذاريات: ٥٦.

وبخاصة إذا كان الفاعل حكيما لا نهائيا... رب العالمين.

النتيجة الثانية:

ان الغرض من الخليقة وان كان موجوداً، إلا انه ليس هو إيجاد المجتمع الصالح العابد، بل هو أمر آخر لا نعلمه!!. وهذا مخالف لنص القرآن وصريحه في الآية السابقة. وخلاف ما تسالمت عليه الأديان السماوية من الإيمان بمصير البشرية إلى الخير والعدل في نهاية المطاف.

النتيجة الثالثة:

ان هذا الغرض الإلهي وان كان ثابتاً، إلا انه ليس من الضروري نزوله إلى حيز التطبيق، بل يمكن ان يبقى نظرياً على طول الخط.

وهذا من غرائب الكلام، فإن معنى ذلك تخلف الحكيم عن مقتضى حكمته، ونقضه لغرضه، وهو مستحيل عقلاً، كما ثبت في الفلسفة. وليس معنى تنفيذ هذا الغرض إلا إيجاده في الخارج.

النتيجة الرابعة:

ان هذا الغرض، يحدث في الخارج، إلا انه لا يحتاج إلى قائد، بل يمكن ان يتسبب الله تعالى إلى إيجاده تلقائياً، ومعه لا حاجة إلى افتراض وجود المهدي عليه السلام.

وهذا لا معنى له، لأنه يتضمن إنكاراً لما اعترفت به الأديان كلها وتسالمت عليه من وجود القائد في اليوم الموعود. مضافاً إلى انه يتضمن أيضاً إنكاراً لطبيعة الأشياء، فإن الأمة بدون القائد ليست إلا أفراداً مشتتين مبعثرين، لا

يمكنهم ان يحفظوا أي مصلحة تتعلق بالمجموع، ما لم يرجع الأمر إلى الاستقطاب القيادي والتوجيه العام المركزي... وهذا واضح في كل أمة على مدى التاريخ.

واحتمال: قيام المعجزة لإيجاد هذا الغرض الأقصى، بدون قائد، فقد سبق ان عرضنا فكرته وناقشناها.

النتيجة الخامسة:

ان تنفيذ هذا الغرض يحتاج إلى قائد، ولكنه غير منحصر بالمهدي عليه السلام، بل يستطيع ان يقوم به الكثيرون.

وهذا زعم عجيب، إذ لا نقصد بالمهدي عليه السلام إلا القائد المطبق للغرض الإلهي. بعد ان غضضنا النظر عن الاعتقاد الإمامي بشخصه. إذن، فيكون إنكاره إنكاراً لتنفيذ ذلك الغرض الأساسي كلياً. وأما من حيث قابلية القيادة، وانها هل تختص بشخص واحد أو هي ممكنة للعديدين. فهذا ما سنعرض له في الكتاب الآتي من هذه الموسوعة.

إذن، فيتعين الاعتراف بوجود المهدي عليه السلام منفذاً للغرض الإلهي الكبير. ولا تختص نتيجة هذا البرهان بالمسلمين، فضلا عن الإمامية منهم. وإنما هي واضحة على مستوى كل الأديان السماوية.

• • •

الجهة الثانية:

ان من التكاليف المطلوبة في عصر الغيبة: الانتظار.

وننطلق إلى الحديث عن ذلك ضمن عدة نقاط:

النقطة الأولى:

في مفهوم الانتظار.

ان المفهوم الإسلامي الواعي الصحيح للانتظار، هو التوقع الدائم لتنفيذ الغرض الإلهي الكبير، وحصول اليوم الموعود الذي تعيش فيه البشرية العدل الكامل بقيادة وإشراف الإمام المهدي عليه السلام.

وهذا المعنى مفهوم إسلامي عام تشترك فيه المذاهب الكبرى في الإسلام، إذ بعد إحراز هذا الغرض الكبير وتواتر اخبار المهدي عن رسول الإسلام صلى الله عليه وآله بنحو يحصل اليقين بمدلولها وينقطع العذر عن إنكاره أمام الله عز وجل. وبعد العلم بإناطة تنفيذ ذلك الغرض بإرادة الله تعالى وحده، من دون ان يكون لغيره رأي في ذلك، كما سبق. إذن، فمن المحتمل في كل يوم ان يقوم المهدي عليه السلام بحركته الكبرى لتطبيق ذلك الغرض، لوضوح احتمال تعلق إرادة الله تعالى به في أي وقت.

لا ينبغي ان تختلف في ذلك الأطروحة الإمامية لفهم المهدي عليه السلام عن غيرها... إذ على تلك الأطروحة، يأذن الله تعالى له بالظهور بعد الاختفاء، واما بناء على الأطروحة الأخرى القائلة: بأن المهدي عليه السلام يولد في مستقبل الدهر ويقوم بالسيف، فلاحتمال ان يكون الآن مولوداً، ويوشك ان يأمره الله تعالى بالظهور. وهذا الاحتمال قائم في كل وقت. بل ان لمعنى الانتظار

مفهوما اعم من الإسلام وأقدم. اما قدمه فلما ذكرناه من تبشير الأنبياء باليوم الموعود، فالبشرية كانت ولا زالت تنتظره، وان تحرفت شخصية القائد وعنوانه على ما ذكرناه. وستبقى تنتظره ما دام في الدنيا ظلم وجور. واما عمومه، فباعتبار التزام سائر أهل الأديان السماوية به، مع غض النظر عن الاسم.

وهذا بنفسه، ما يجعل المسؤولية في عهدة كل مؤمن بهذه الأديان، وخاصة المسلم منهم. في ان يهذب نفسه ويكملها ويصعد درجة إخلاصه وقوة إرادته، لكي يوفر لنفسه ولإخوانه في البشرية شرط الظهور في اليوم الموعود.

النقطة الثانية:

لا يكون الفرد على مستوى الانتظار المطلوب، إلا بتوفر عناصر ثلاثة مقترنة: عقائدية ونفسية وسلوكية. ولولاها لا يبقى للانتظار أي معنى إيماني صحيح، سوى التعسف النفسي المبني على المنطق القائل: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ...﴾ المنتج لتمني الخير للبشرية من دون أي عمل ايجابي في سبيل ذلك.

العنصر الأول:

الجانب العقائدي... ويتكون برهانياً من ثلاثة أمور:

الأمر الأول:

الاعتقاد بتعلق الغرض الإلهي بإصلاح البشرية جميعاً، وتنفيذ العدل المطلق فيها في مستقبل الدهر. وان ما تعلق به الغرض الإلهي والوعد الرباني في القرآن لا يمكن ان يتخلف. وقد سبق ان عرفنا برهانه.

الأمر الثاني:

الاعتقاد بأن القائد المظفر الرائد في ذلك اليوم الموعود، هو الإمام المهدي عليه السلام، كما تواترت بذلك الأخبار عند الفريقين، بل بلغت ما فوق حد التواتر. وقد علمنا ان ذلك ضروري الثبوت.

الأمر الثالث:

الاعتقاد بأن المهدي القائد هو محمد بن الحسن العسكري عليه السلام... الأمر الذي قامت ضرورة المذهب الإمامي. وقامت عليه الأعداد الضخمة من اخبارهم... ووافقهم عليه جملة من مفكري العامة وعلمائهم كابن عربي في الفتوحات المكية. والقندوزي في ينابيع المودة والحمويني في فرائد السمطين، والكنجي في البيان... وغيرهم.

والمعتقدون بهذه الأمور، وان كانوا على بعض الاختلاف، إلا اننا ذكرنا في فصل (التخطيط الإلهي) ان الأمرين الأولين يرجعان إلى الثالث في نتائجهما وتطبيقاتهما، فيمكن الاعتقاد بها جميعا بدون أي تناف أو اختلاف.

العنصر الثاني:

الجانب النفسي للانتظار. ويتكون من أمرين رئيسيين:

الأمر الأول:

الاستعداد الكامل لتطبيق الأطروحة العادلة الكاملة عليه، كواحد من البشر، على أقل تقدير، ان لم يكن من الدعاة إليها والمضحين في سبيلها.

الأمر الثاني:

توقع البدء بتطبيق الأطروحة العادلة الكاملة أو بزوغ فجر الظهور في أي

وقت. . . لما قلناه من انه منوط بإرادة الله تعالى، بشكل لا يمكن لغيره التعيين أو التوقيت. ومن المحتمل ان يشاء الله تعالى ذلك في أي وقت. مضافا إلى الأخبار الدالة على حصوله فجأة بغتة، وسنروي طرفاً منها فيما يأتي.

وهذا الشعور يمكن ان يوجد في نفس الفرد المؤمن باليوم الموعود، طبقاً لأي من الأمور الثلاثة في العنصر الأول، وطبقا لمجموعها أيضاً. ويكون شعوراً طيباً على نفسه مرضياً لضميره، باعتبار ما يتضمنه من شعور بالإخلاص تجاه نفسه ومجتمعه وأمته. . . وهي الجهات التي سوف ينتشلها اليوم الموعود من المشاكل والظلم.

وإذا تم لدى الفرد الشعور بهذين الأمرين في نفسه، فقد تم لديه العنصر الثاني، واستطاع ان يتقبل بسهولة ورحابة صدر العنصر الآتي.

العنصر الثالث:

الجانب السلوكي للانتظار.

ويتمثل بالالتزام الكامل بتطبيق الأحكام الإلهية السارية في كل عصر، على سائر علاقات الفرد وأفعاله وأقواله، حتى يكون متبعا للحق الكامل والهدى الصحيح، فيكتسب الإرادة القوية والإخلاص الحقيقي الذي يؤهله للتشرف بتحمل طرف من مسؤوليات اليوم الموعود.

وهذا السلوك ضروري وملزم لكل من يؤمن باليوم الموعود، على أي من المستويات السابقة، فضلاً عن مجموعها. وبخاصة المسلمين الذين قام البرهان لديهم بأن المهدي عليه السلام يطبق أطروحته العادلة الكاملة متمثلة في أحكام دينهم الحنيف.

واما المسلم الإمامي الذي يعلم بأن قائده معاصر معه، يراقب أعماله ويعرف أقواله، ويأسف لسوء تصرفه. . . فهو مضافا إلى وجوب إعداد نفسه لليوم الموعود، يجب ان يكون على مستوى المسؤولية في حاضره أيضاً، وفي كل أيام حياته، لكي لا يكون عاصياً لقائده متمرداً على تعاليمه. وهذا الإحساس نفسه، يسرع بالفرد إلى النتيجة المطلوبة، وهو النجاح في التمحيص، والإعداد لليوم الموعود.

وإذا كان الفرد على هذا المستوى الرفيع، استطاع ان يحرز الخير، على مستويات أربعة.

المستوى الأول:

إحراز الخير لنفسه في دنياه وآخرته. اما في آخرته، فباعتبار رضاء الله عز وجل. واما في دنياه، فباعتبار أمرين: احدهما: السلوك العادل الذي يتخذه الفرد والمعاملة الصالحة والعلاقات الجيدة التي يعامل بها الآخرين. وثانيهما: انه يصبح على مستوى المسؤولية لتحمل مواجهة القيادة في اليوم الموعود، إذا بزغ فجره.

المستوى الثاني:

إحراز الخير لأمته، باعتبار انه إذ يعد نفسه الإعداد الصالح، فإنه يشارك في تهيئة شرط اليوم الموعود، بمقدار تكليفه وقدرته، فيكون قد تسبب إلى الخير كل الخير لأمته.

المستوى الثالث:

إحراز الخير، لا لأمته فحسب، بل للبشرية جمعاء. فإن الخير الناتج من

إيجاد شرط الظهور، عام لكل البشر، والمشاركة في إيجاده مشاركة في إيجاد العدل الكامل السائد في اليوم الموعود.

وهذه المستويات الثلاثة، مما تقتضيه العقائد الإسلامية العامة المشتركة بين سائر المذاهب... بل مما يقتضيه الاعتراف باليوم الموعود، في أي دين من الأديان.

المستوى الرابع:

ان الفرد بمساهمته في إيجاد شرط الظهور، يساهم في إرضاء إمامه المهدي عليه السلام وجلب الراحة إليه... بالنسبة إلى الشعور بزيادة المؤمنين وقلة العاصين، والمشاركة الحقيقية في الإعداد للهدف الكبير.

وهذا المستوى خاص بالأطروحة الإمامية لفهم المهدي عليه السلام.

فهذه هي الجهات الأساسية التي يجب ان يتخذها الفرد، لكي يكون على المستوى الإسلامي المطلوب للانتظار.

* * *

النقطة الثالثة:

في حث فكرة المهدي عليه السلام على العمل.

اتضح مما ذكرناه في النقطتين السابقتين، وغيرهما، ما هو الحق في الجواب على الشبهة القائلة: بأن انتظار الإمام المهدي عليه السلام سبب للتكاسل عن الإصلاح وترك العمل الاجتماعي، وعدم معارضة الظلم والظالمين، اعتمادا على اليوم الموعود والإصلاح المنشود.

أو انطلاقاً من الاعتقاد بأن المهدي عليه السلام لا يظهر حتى تمتلئ الأرض ظلما وجورا، إذن فيجب توفير الظلم والجور وترك العمل استعجالاً لظهور المهدي عليه السلام.

ويتم النظر في جواب هذه الشبهة على مستويات ثلاثة، باعتبار ان الأوساط التي تمر هذه الفكرة بين ظهرانيهم على ثلاثة أقسام رئيسية، تتخذ عند كل واحد منهم طابعاً معيناً، ونتيجة خاصة تختلف عن الآخرين.

المستوى الأول:

أوساط المنكرين للمهدي عليه السلام على الأساس المادي، أو ما يمت إليه بصلة. أولئك الذين لا يجدون دليلاً على مدعاهم إلا بمجرد الاستبعاد والتشكيك، فهم يحاولون ان يقنعوا أنفسهم بما يدعون ولعلهم يستطيعون إبعاد المهدويين عن مهدويتهم وتشكيكهم في معتقدهم!!.

وليت شعري: ان المادية سبق ان قالت: بأن الدين أفيون الشعوب ومخدرها. فكيف بالاعتقاد بالمهدي الذي هو بعض فروعه.

وقد أجاب الإلهيون:- ومعهم الحق - بأن الدين كان ولا يزال أساس الثورات والمعارضات والمطالبة بإقامة الحق والعدل على مدى التاريخ، واكبر مثير للعواطف الإنسانية على طول الخط. ونظرة واحدة إلى تاريخ البشرية مع شيء من الموضوعية والتجرد تثبت ذلك. وقد قلنا وسنقول في العقيدة المهدوية مثل ذلك على ما سيأتي عن قريب.

المستوى الثاني:

أوساط المؤمنين بالمهدي عليه السلام الذين يتصفون بصفتين مهمتين:

الأولى: التقاعس عن العمل أساساً، وتقديم المصلحة الخاصة على المصالح العامة عموماً.

الثانية: ان المفاهيم الإسلامية تنطبع في أذهانهم بشكل ناقص وخاطئ، بشكل تصلح تبريراً للواقع الفاسد، أكثر من أي شيء آخر.

وتنطلق الشبهة في هذه الأوساط من الاعتقاد الذي ذكرناه بأن المهدي عليه السلام لا يظهر حتى تمتلئ الأرض جوراً وظلماً، كما ورد في الحديث المتواتر عن النبي صلى الله عليه وآله، إذن، يفهمون من ذلك: انه يجب توفير الظلم والجور، وترك العمل ضده، استعجالاً لظهور المهدي عليه السلام.

المستوى الثالث:

مستوى الأوساط التي تعتقد بأن العمل الإسلامي ضد الظلم والظالمين، غير مؤثر بأي حال.

وهؤلاء هم اليائسون الذين سيطرت هيبة الانحراف وهيمنة الظلم السائد في البشرية على نفوسهم، فاعتقدوا بعدم جدوى أي شيء من الإصلاح أو الأمر بالمعروف في هذا المجتمع الفاسد. ومن ثم اضطروا إلى السكون وترك العمل، انتظاراً لظهور المهدي عليه السلام ليكون هو الرائد الأول في إصلاح العالم.

فهذه هي أهم الشبه التي تعيش في أذهان بعض المستويات، ويمكن ان نعتمد على معارفنا السابقة في مناقشة هذه الأفكار. وذلك انطلاقاً من وجوه ثلاثة:

الوجه الأول:

ان مشاركة الفرد والمجتمع في إيجاد شرط الظهور، لا يكون إلا بالعمل

الجاد المنتج لرفع درجة الإخلاص والشعور بالمسؤولية، ليكون في إمكان المخلصين المشاركة في مهام هداية العالم عند الظهور.

وقد عرفنا كيف وقع ذلك كقضية رئيسية في التخطيط الإلهي لليوم الموعود، وان عنصر التمحيص والاختبار في ظروف الظلم والانحراف، هو العنصر الأكبر في إيجاده.

الوجه الثاني:

ما عرفناه من انه يجب على الفرد ان يجعل نفسه على مستوى رضاء الإمام المهدي عليه السلام قبل ظهوره وبعده. ولن يكون كذلك إلا إذا كان متمثلا للأحكام الإسلامية بدقة، سواء ما كان منها على المستوى الشخصي أو على المستوى الاجتماعي. ولن يحرز رضاء الإمام بطبيعة الحال، بالاقتصار على الجانب الشخصي من أحكام الإسلام، لأن في ذلك عصياناً للأحكام الاجتماعية والإصلاحية. وهو ما لا يرضاه الله تعالى ولا رسوله ولا المهدي.

إذن، فالاعتقاد بوجود القائد الرائد، باعث أي باعث على العمل الاجتماعي والإصلاحي. ولا يكاد يوجد هذا الباعث بدون هذا الاعتقاد إلا بشكل ضئيل. وإنما انصرف عموم الناس عن العمل نتيجة لتناسيهم قائدهم وتغافلهم عن مسؤولياتهم تجاهه.

الوجه الثالث:

اننا لو غضضنا النظر- جدلاً- عن الوجهين السابقين، وفرضنا ان الاعتقاد بوجود المهدي عليه السلام ليس له أي اثر في الحث على العمل الاجتماعي المثمر. فهو- على أي حال- ليس موجباً للمنع عنه والحث على تركه. فلو وجد هناك دافع آخر للعمل، أمكن ان يؤثر أثره بكل وضوح، ويعمل عمله في العقول

والقلوب المخلصة.

والسر في ذلك واضح على الصعيد الإسلامي، كل الوضوح. باعتبار ان الأحكام الإسلامية الموجودة في الكتاب والسنة، كانت ولا زالت معروفة وسارية المفعول، ولا زال الناس مسؤولين عن تطبيقها وامتثالها بكل تفاصيلها. ومن الواضح ان الاعتقاد بوجود المهدي عليه السلام لا يرفعها ولا يخصصها لضرورة الدين وإجماع المسلمين. وليس على الفرد المسلم الذي يريد الإطاعة والامتثال، إلا ان يراجع الأحكام الإسلامية ليعرف ما فيها من جوانب شخصية وجوانب عامة... لكي يطبقها على حياته الخاصة والعامة، ويباشر العمل الاجتماعي العام طبقا للتكليف الإسلامي بالجهاد أو الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر أو مكافحة الظلم. وهذا لا ينافي بحال، عمل الفرد على صعيد عام، تارة أخرى فيما بعد الظهور، لو حدث اليوم الموعود خلال حياته.

واما الفرد الذي يسير في طريق الانحراف، ويبيع دينه بدنياه، ويقدم مصلحته الخاصة وشهواته على كل اعتبار، فهو من الطبيعي ان لا يكون الاعتقاد بالمهدي عليه السلام دافعاً له على العمل، بعد ان لم يكن الاعتقاد بالإسلام نفسه دافعاً له. وهذا تقصير في الفرد وليس قصوراً في الفكرة كما هو واضح.

* * *

وأود ان أشير في هذا الصدد إلى ملاحظات ثلاث، لعلها تلقي بعض الضوء على أهمية العمل الإسلامي، في عصر ما قبل الظهور:

الملاحظة الأولى:

اننا برهنا خلال عرضنا للتخطيط الإلهي: ان ما يرفع درجة الإخلاص في

الأمة ويوجد شرط الظهور، هو العمل ضد الظلم فعلا. ومعه ينبغي ان يمر الفرد فعلا في ظروف الظلم والانحراف، لكي يعمل ضده، حتى يتصاعد إخلاصه وتقوى إرادته.

ومن هنا نعرف ان الفرد الذي يهرب بنفسه من ظروف الظلم، أو ان المجتمع الذي يعيش في الرفاه النسبي بعيدا عن هذه الظروف. فإنه لن يعمل ولن يستطيع الوصول إلى حد الوعي والإخلاص المطلوب. ولو وصل إلى شيء، فإنما يصل إليه ببطء شديد، ويكون ضحلاً وقليلاً.

كما إن الأمة إذا شاع بين ظهرانيها الظلم والتعسف، وكانت راضية به مستخذية تجاهه، لا يوجد العمل فيها ضده، ولا التفكير لرفعه أو التخفيف منه. إذن فسوف تكون أمة خائنة يتسافل إخلاصها وينمحي شعورها بالمسؤولية، وتحتاج في ولادة ذلك عندها من جديد إلى زمان مضاعف ودهر طويل و ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾[1]. وليت شعري كيف يكون هؤلاء على مستوى إصلاح البشرية كلها في اليوم الموعود، وهم قاصرون عن إصلاح مجتمعهم الصغير؟!!.

إذن فالتفكير الجدي والعمل هو الأساس لتصعيد درجة الإخلاص والشعور بالمسؤولية والمران على الصمود والتضحية هو الشرط الأساسي لتكفل مهمة اليوم الموعود. فمن السخف ما قيل: بأن الاعتقاد بوجود المهدي عليه السلام دافع على الاستخذاء وترك العمل.

الملاحظة الثانية:

ان تصعيد درجة الإخلاص، قد يكون قائما على أساس الاضطرار وقد

---

(١) الرعد: ١١.

يكون بالاختيار.

اما قيامه على أساس الاضطرار[1]، فهو الأمر العام الذي يقتضيه التمحيص الإلهي، بشكل رئيسي. فإن الأفراد في حبهم لذاتهم وتفضيلهم للراحة، لا يميلون - عادة- إلى العمل الاجتماعي العام، لما فيه من شعور بالجهد والمسؤولية. ومن ثم فهم لا ينطلقون نحوه إلا تحت وطأة من الاضطرار والشعور بالضغط والإحراج. ومن ثم كان لا بد في حملهم على العمل العام من إيكالهم إلى الظروف الصعبة الظالمة. ومن ثم انعقد التخطيط الإلهي على حمل الأمة على العمل الاضطراري بهذا المعنى، لأجل تحقيق مصالحها الكبرى في يوم الظهور.

واما قيام الإخلاص والوعي على أساس الاختيار، فباندفاع المكلف إلى العمل أزيد من مقدار الاضطرار والإحراج، بمجرد شعوره بالمطلوبية الإسلامية له، إلزاما أو استحبابا... بأن يكون على الدوام معارضا للظلم داعيا إلى الحق، هاديا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة.

صحيح، ان الاندفاع إلى ذلك، يحتاج إلى درجة كبيرة من الوعي والإخلاص وقوة الإرادة، لا يتوفر إلا للقليل... إلا انه - على أي حال- ليس هو المستوى المطلوب توفره في المشاركة في قيادة العالم كله في يوم الظهور. وإنما يكون العمل الاختياري أو ما نسميه بالتمحيص الاختياري مضافا إلى التمحيص الاضطراري، سببا لإيجاد مثل هذا المستوى الرفيع.

ومن الواضح ما لهذا التمحيص الاختياري، من اثر بليغ في التصعيد

---

(١) لا ينبغي الخلط بين الاضطرار وبين الإكراه. فإن الاضطرار يمثل حاجة شديدة مع انحفاظ الإرادة معها، كمن يبيع داره من اجل دين كبير عليه. والإكراه لا تنحفظ معه إرادة كمن باع داره تحت وطأة التهديد بالقتل، أو تحت الضرب الشديد مثلاً. ولكل منهما (اختيار) يقابله.

السريع، بشكل أعظم بكثير مما ينتجه التمحيص الاضطراري... وفي التعجيل بإيجاد شرط الظهور، بمقدار ما تقتضيه الظروف الثقافية والفكرية التي يعيشها الفكر الإسلامي، في أي عصر.

إذن، فما قيمة هذه الشبهة التي تقول بأن الاعتقاد بالمهدي عليه السلام يمنع عن العمل الاجتماعي الإصلاحي، ولله في خلقه شؤون.

الملاحظة الثالثة:

في فهم الحديث النبوي.

أننا بعد ان عرفنا التخطيط الإلهي لليوم الموعود، نستطيع ان نفهم قوله صلى الله عليه وآله : يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

فالظلم والجور، في عصر ما قبل الظهور، جزء من هذا التخطيط، لإيجاد الشرط الثاني للظهور، وهو توفير قوة الإرادة والإخلاص في الأمة بشكل عام. وقد عرفنا ان هذا يحدث في نسبة ضئيلة من البشر، ويكون الباقي على مستوى الانحراف والفساد.

إذن، فالأرض تمتلئ ظلماً وجوراً، لكن لا بالجبر والإكراه، من قبل الله تعالى أو من غيره، وإنما باعتبار انصراف الأعم الأغلب من الناس إلى مصالحهم واندحارهم تجاه تيار الخوف والإغراء. وهو لا ينافي توفر شرط الظهور وترسخه في الناس، متمثلا في تلك النسبة الضئيلة عدداً الضخمة أهمية وإيماناً وإرادة.

وامتلاء الأرض ظلماً، أمر خارج عن اختيار الفرد بوجوده الشخصي، وإنما هو ناتج عن الطبيعة البشرية بشكل عام، المتوفرة في المجتمع الناقص.

ويكون تكليف الفرد إسلامياً منحصراً شرعاً في تصعيد درجة إخلاصه وقوة إرادته، عن طريق مكافحة الظلم والعمل على كفكفته ورفعه. لكي يتوفر تدريجاً شرط الظهور.

وليت شعري، ان شرط الظهور هو هذا المستوى الإيماني، وليس هو كثرة الظلم وامتلاء الأرض جوراً، كما يريد البعض ان يفكروا. لوضوح أن الأرض لو امتلأت تماماً بالظلم وانعدم منها عنصر الإيمان، لما أمكن إصلاحها عن طريق القيادة العامة. بل يكون منحصراً بالمعجزة التي برهنا على عدم وقوعها، أو إرسال نبوة جديدة، وهو خلاف ضرورة الدين من أنه لا نبي بعد رسول الإسلام.

وإنما تتضمن فكرة اليوم الموعود، سيطرة الإيمان على الكفر، بعد سيطرة الكفر على الإيمان... مع وجود كلا الجانبين. وهو قول الله تعالى بالنسبة إلى المؤمنين: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ وقوله ﷺ: يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، كما ملئت ظلماً وجوراً.

* * *

النقطة الرابعة:

للبحث عن الانتظار: في اختلاف مفهومه باختلاف عصور الدعوة الإلهية.

سبق ان برهنا ان إيجاد اليوم الموعود، هو الغرض الأساسي من إيجاد البشرية... وقد خطط الله تعالى لإيجاده منذ فجر الخليقة، ولا زال هذا التخطيط سارياً إلى حين تحقق نتيجته النهائية وغرضه الأصيل.

وقد كان انتظار البشرية لليوم الموعود، موجوداً، منذ بلّغ الأنبياء السابقون عليهم السلام البشرية عن وجوده... إلا ان الانتظار اكتسب صيغا متعددة بتعدد أزمنة تطور البشرية نحو ذلك الغد المنشود. فإن البشرية قد مرت - بهذا الاعتبار- بأربعة عهود أو مراحل:

المرحلة الأولى:

فترة ما قبل الإسلام. وقد كان الناس خلالها يفهمون من كل نبي يبلغهم عن اليوم الموعود، أمرين مقترنين: أولهما: الإهمال من التاريخ وإيكاله إلى إرادة الله تعالى محضا. وثانيهما: ان هذا النبي الذي يبلغهم عنه، ليس هو القائد المذخور لهذه المهمة، وإنما سيوجد في المستقبل البعيد شخص آخر يكون مضطلعا بها، وقائداً للبشرية من خلالها.

إذن، فالانتظار لم يكن حاملاً لنفس المفهوم الذي يحمله في عصر الغيبة الكبرى... فبينما نرى ان صيغته الأخيرة هي: توقع حدوث اليوم الموعود في كل حين، على ما سبق... نرى ان صيغته يومئذ كانت تتضمن العلم بعدم حدوثه السريع، والاكتفاء بالاعتقاد بأن هذا مما سيحدث جزماً في المستقبل البعيد. والناس في تلك العهود، وان لم يكونوا ملتفتين إلى سر ذلك، إلا اننا عرفنا باطلاعنا على تفاصيل التخطيط الإلهي. حيث عرفنا ان كلا شرطي اليوم الموعود، لم يكونا متوفرين في تلك الفترة. فلم تكن البشرية على مستوى فهم الأطروحة العادلة الكاملة من ناحية، ولم تكن على مستوى الإخلاص وقوة الإرادة المطلوب توفرها في قيادة اليوم الموعود.

المرحلة الثانية:

فترة ما بعد الإسلام إلى بدء الغيبة الصغرى... حيث كانت البشرية قد

تلقت عن الله عز وجل أطروحتها العادلة الكاملة. وبذلك توفر احد الشرطين السابقين.

إلا ان معنى الانتظار لم يكن يختلف - مع ذلك- اختلافا جوهريا عما سبق. بمعنى ان الأمل في ذلك الحين لم يكن منعقدا على حدوث اليوم الموعود بغتة وفي أي وقت. بل كان المفهوم هو تحققه في المستقبل البعيد أيضاً. غاية الفرق عن المرحلة السابقة، هو إحراز المسلمين: ان اليوم الموعود سوف يكون طبقاً لأطروحتهم ودينهم، دون غيره.

وهذا واضح جداً، لو لاحظنا طرق التبليغ عن ذلك اليوم من قبل النبي ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام بعده. اما بالنسبة إلى النبي ﷺ فيكفينا اخباراته عن المهدي عليه السلام وأنه من ولده وعترته وأنه من ذرية فاطمة عليها السلام، وأنه يوجد فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً، وانه من ولد الحسين عليه السلام وان صفته كذا وكذا... إذن، فقائد اليوم الموعود ليس هو شخص النبي ﷺ، ولن يقوم النبي ﷺ بهذه المهمة الكبرى، خلال حياته. كما عرفنا فلسفة ذلك فيما سبق.

إذن، فالانتظار في عهد النبي ﷺ كان مقترنا باليقين بعدم حدوثه الفوري في ذلك الحين.

ويبقى الانتظار في عصر الأئمة عليهم السلام، حاملاً لنفس هذا المفهوم. ويمكن ان نستفيد ذلك من عدة أشكال من الأحاديث التي كانوا عليهم السلام يعلنون بها فكرة المهدي عليه السلام أمام الناس.

كقولهم عليهم السلام: ان المهدي هو السابع من ولد الخامس منهم[1] أو قول الإمام الباقر عليه السلام: والله ما انا بصاحبكم. قال الراوي: فمن صاحبنا؟ قال:

---

(١) انظر مثلا منتخب الأثر ص٢١٢.

انظروا من تخفى على الناس ولادته فهو صاحبكم[١]. فهو إذ ينفي عن نفسه انه المهدي عليه السلام نعرف ان اليوم الموعود لن يتحقق ما دام في الحياة على اقل تقدير.

وكقولهم: كيف انتم إذا بقيتم بلا إمام هدى ولا علم، يبرأ بعضكم من بعض... الحديث[٢]. إذن، فما دام أئمة الهدى عليهم السلام معروفين ومتصلين بالناس، فالمهدي غير موجود، ومن ثم فهو لن يقوم بالسيف لإنجاز اليوم الموعود. وكذلك إذا لاحظنا اخبار التمحيص، التي تنفي الظهور قبل مرور الناس بهذا القانون. كقوله عليه السلام: ان هذا الأمر لا يأتيكم إلا بعد يأس. ولا والله حتى تميزوا. ولا والله حتى تمحصوا، ولا والله لا يأتيكم حتى يشقى من يشقى ويسعد من يسعد. وقد سبق. إذن فاليوم الموعود لن يتحقق ما دام الناس غير ممحصين.

وكذلك إذا لاحظنا الاخبار الدالة على حدوث علامات الظهور، مما لم يتحقق في عصر الأئمة عليهم السلام السابقين، كالصيحة والخسف، وغيرها مما سيأتي. فإنه ما لم توجد هذه العلامات، لا يظهر المهدي عليه السلام، على ما سوف نوضحه في القسم الثالث من هذا التاريخ.

إذن، فالمسلمون في زمن النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام لم يكونوا ينتظرون ظهور المهدي عليه السلام على الفور. وإن كانوا قد بلّغوا بشكل أكيد وشديد عن ظهوره في مستقبل الزمان.

أقول: هذا من الناحية النظرية صحيح. إلا اننا نجد من الناحية العملية، ان

(١) انظر إكمال الدين المخطوط.

(٢) نفس المصدر.

هذه الفكرة صادقة في زمن النبي ﷺ. واما في زمن الأئمة عليهم السلام، فلا تخلو هذه الفكرة من إشكال.

فإننا نجد ان توقع ظهور المهدي عليه السلام في ذلك الزمن كان كبيرا. سواء في ذلك القواعد الشعبية الإمامية، أو غيرهم. اما غير الاماميين فواضح طبقاً لفهمهم لفكرة المهدي عليه السلام. إذ إنَّ ولادته وقيامه بدولة الحق، ممكن بعد النبي ﷺ مباشرة فصاعداً.

واما الإماميون، فقد دلت الاخبار على وجود هذا التوقع فيهم... بما فيها اخبار التمحيص نفسها حيث يقول الإمام عليه السلام فيها: ان هذا الأمر لا يأتيكم إلا بعد يأس... أو يقول:

هيهات هيهات... لا يكون الذي تمدون إليه أعناقكم حتى تمحصوا[1].

وروي عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام انه قال: ما تستعجلون بخروج القائم، فو الله ما لباسه إلا الغليظ ولا طعامه إلا الجشب... الحديث[2].

وروي عن إبراهيم بن هليل قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: جعلت فداك، مات أبي على هذا الأمر، وقد بلغت من السنين ما قد ترى. أموت ولا تخبرني بشيء؟! فقال: يا أبا إسحاق، أنت تعجل! فقلت: أي والله أعجل وما لي لا أعجل، وقد بلغت من السن ما قد ترى؟ فقال: يا أبا إسحاق ما يكون ذلك حتى تميزوا وتمحصوا وحتى لا يبقى فيكم إلا الأقل... الحديث[3].

وهذه الاخبار واضحة جداً في التوقع والانتظار الفوري، حتى ان أبا

---

(١) أنظر غيبة النعماني ص١١١.

(٢) غيبة النعماني ص١٢٢.

(٣) نفس المصدر ص١١١.

إسحاق لم يتصور ان يكبر سنه ولما يظهر المهدي بعد.

وكذلك إذا نظرنا إلى الاخبار الدالة على وجود توقعات من الأئمة عليهم السلام بأشخاصهم بأن يقوموا بدور المهدي عليه السلام. كالخبر السابق عن الإمام الباقر عليه السلام: والله ما انا بصاحبكم... الحديث. وما روي عن حمران بن أعين قال سألت أبا جعفر عليه السلام فقلت له: أنت القائم؟... الحديث[1]. وفي حديث آخر عنه قال: قلت لأبي جعفر الباقر عليه السلام: جعلت فداك إني قد دخلت المدينة وفي حقوي هميان فيه ألف دينار، وقد أعطيت الله عهدا ان أنفقها ببابك ديناراً ديناراً أو تجيبني فيما أسألك عنه. فقال: يا حمران سل تُجبَ ولا تبعض دنانيرك. فقلت: سألتك بقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وآله، أنت صاحب هذا الأمر والقائم به. قال: لا. قلت: فمن هو بأبي أنت وأمي. فقال: ذاك المشرب حمرة... الحديث[2]. وفي حديث آخر[3] عن الريان بن الصلت قال: قلت للرضا عليه السلام: أنت صاحب هذا الأمر؟ فقال: انا صاحب هذا الأمر ولكني لست بالذي أملؤها عدلا كما ملئت جوراً. وكيف أكون ذلك على ما ترى من ضعف بدني. وان القائم هو الذي إذا خرج كان في سن الشيوخ ومنظر الشبان... الحديث. إلى أحاديث أخرى من هذا القبيل.

وكذلك إذا نظرنا إلى الخبر القائل: سُئِلَ أبو عبد الله عليه السلام: هل ولد القائم؟ فقال: لا. ولو أدركته لخدمته أيام حياتي[4].

إذا نظرنا إلى هذه الاخبار، نجد مفهوم الانتظار، ومزيد الاهتمام بظهور

---

(١) غيبة النعماني ص١١٥.

(٢) المصدر ص١١٤ - ١١٥.

(٣) اعلام الورى ص٤٠٧.

(٤) المصدر ص١٢٩.

المهدي عليه السلام . . . ناشئاً من سبب رئيسي واحد، وهو إبهام فكرة المهدي في أذهانهم والجهل بتفاصيلها، حتى ان حمران بن أعين والريان بن صلت، وهما من أجِلّة أصحاب الأئمة عليهم السلام كانا لا يزالان لا يعرفان من هو القائم على التعيين، وقد مضى من صدر الإسلام أكثر من مائة سنة.

وقد كانت لهذه الأحاديث وغيرها مما صدر من الإيضاحات والتفاصيل عن هذه الفكرة، من الأئمة المعصومين عليهم السلام، اكبر الأثر في جلاء الفكرة لدى قواعدهم الشعبية وارتفاع إبهامها تدريجاً، حتى إننا نرى الآن بوضوح طبقا للتخطيط الإلهي انه لم يكن بالإمكان القيام بدور المهدي عليه السلام في ذلك العصر، لعدم توفر احد شرائط الظهور. ومن ثم لم يكن المهدي عليه السلام مولوداً، ولم يكن احد من الأئمة السابقين هو المهدي القائم بالأمر بأي حال.

وقد كان لهذا الإبهام، في غير الأوساط الإمامية، أثراً سيئاً أحياناً، إذ فسح المجال للعديدين في ان يستغلوا تبشير النبي صلى الله عليه وآله بالمهدي عليه السلام فيدعون المهدوية لأنفسهم. ولا ننسى بهذا الصدد ان الرشيد العباسي لقب ولده بالمهدي، عسى ان يتوهم الناس انه المهدي المنتظر.

وقد سمعنا في تاريخ الغيبة الصغرى(١)، كيف ان جماعة القرامطة في الشرق الأدنى وجمعاً غفيراً في الشمال الإفريقي قد آمنوا بمهدوية محمد بن عبيد الله العلوي جد الفاطميين، الذين حكموا مصر بعد ذلك.

المرحلة الثالثة:

ـ لعصور الانتظار ـ: عصر الغيبة الصغرى، لمن يؤمن بها، وهم القواعد الشعبية الإمامية.

---

(١) انظر ص٣٣٩ وما بعدها.

وفيها - كما عرفنا في تاريخها- كان الإمام المهدي عليه السلام موجوداً يقود قواعده الشعبية في الخفاء. ولا شك ان الناس كانوا ينتظرون ظهوره في أي وقت. باعتبار ما يحسونه من ظلم ومطاردة وتعسف من قبل الحاكمين. وهم يعلمون علم اليقين بوجوده واطلاعه على الأوضاع الشاذة التي يعيشها المجتمع، ويعلمون انه المذخور لإزالة الظلم من العالم كله، غافلين- بطبيعة الحال- عن اقتضاء التخطيط الإلهي تأجيل ذلك، لعدم توفر أحد شرائط اليوم الموعود.

ولو دققنا النظر، لم نجد في رفع هذا الجو الفكري من الناس، مصلحة. بل كانت المصلحة تقتضي إيكالهم إلى انتظارهم التلقائي الارتكازي، وعدم التعرض إلى تصحيحه أو تكذيبه. لأنه على أي حال، يزيد من الربط العاطفي للقواعد الشعبية المهدوية، بإمامها وقائدها. لوضوح أن الأمل فيه كلما كان أقوى كان هذا الارتباط أبلغ وأكبر.

بل إن هناك من الاخبار ما يدل على أن الإمام المهدي عليه السلام نفسه كان يذكي هذه العاطفة ويؤكد قرب الظهور. وقد ذكرناها في تاريخ الغيبة الصغرى، وناقشناها[١].

وقد يخطر في الذهن: انه كان يمكن للناس في تلك الفترة، ان يطلعوا على الأخبار الدالة على توقف ظهور المهدي عليه السلام على التمحيص، أو الاخبار الدالة على حدوث علامات الظهور... لكي يعرفوا ان الظهور لم يكن ليقع في تلك الفترة، بعد وضوح ان التمحيص لم يكن حاصلا، والعلامات لم تكن حادثة.

---

(١) انظر ص٥٤١ وما بعدها.

ويمكن ان يناقش ذلك بعدة أجوبة، أوضحها: ان الفرد الاعتيادي يحتمل تحقق التمحيص المطلوب، في عصره، كما يحتمل حدوث علامات الظهور في المستقبل القريب. ومن ثم يحتمل انه لم يبق بينه وبين الظهور إلا زمن قصير. وهذا الاحتمال كاف في إذكاء أوار الجو النفسي والفكري للانتظار.

المرحلة الرابعة:

فترة الغيبة الكبرى، التي لا زلنا نعيشها.

وقد قلنا ان الانتظار فيها يحمل معنى توقع الظهور، وقيام اليوم الموعود في أي وقت وفي كل يوم. لكونه منوطاً بإرادة الله تعالى لا غير. كما ورد في بيان المهدي عليه السلام الذي أعلن به انتهاء السفارة وبدء الغيبة الكبرى، حيث قال: فلا ظهور إلا بإذن الله تعالى ذكره[١]. ولما ورد من ان يوم الظهور يحدث فجأة أو بغتة، كما سمعنا من مكاتبة المهدي عليه السلام للشيخ المفيد. وغيرها من الروايات التي سوف نذكرها.

نعم، يمكن ان نلاحظ انه في فترة بدء الغيبة الكبرى، كان هناك من الدلائل على عدم فورية الظهور، حيث نسمع من بيان انتهاء السفارة نفسه قوله عليه السلام: فقد وقعت الغيبة التامة، فلا ظهور إلا بإذن الله تعالى ذكره. وذلك بعد طول الأمد وقسوة القلوب... الحديث[٢]. وطول الأمد يستدعي مضي عدة سنوات، بل عدة عشرات، لا بد من انتظار انتهائها، قبل توقع الظهور الفوري. إلا ان مفهوم طول الأمد، يختلف باختلاف تصور الأفراد، ومقدار وعيهم العقلي والثقافي والإيماني. فقد لا يحتاج حين يسمعه الفرد العادي

---

(١) أنظر تاريخ الغيبة الصغرى ص٥٨٥، وغيبة الشيخ الطوسي ص٢٤٣.

(٢) نفس المصدرين والصفحتين.

لأول مرة أكثر من عدة سنوات، وبخاصة مع إناطة الظهور بإذن الله تعالى مع ما يراه الفرد من قسوة القلوب فعلا وامتلاء الأرض جورا. فكان في الإمكان - بحسب الجو النفسي السائد يومئذ- ان يبدأ مفهوم الانتظار الفوري بعد عدة سنوات من تاريخ هذا البيان. ولم يكن أهل ذلك العصر بحاجة إلى ان يدركوا ان المراد من طول الأمد ما يزيد على الألف عام بقليل أو بكثير، كما ندركه الآن.

فإن قال قائل: ان الانتظار للظهور الفوري، ينافي ما جعل من علامات وشرائط لليوم الموعود، فإنه لا يكون إلا عند حصول تلك الأمور. فالانتظار للظهور الفوري انما يصح بعد حصولها، واما قبل ذلك فينبغي ان يعود مفهوم الانتظار إلى الشكل الذي قلناه في صدر الإسلام من العلم بحصول اليوم الموعود مع اليقين بعدم الظهور الفوري.

وهذا الإشكال مشابه لما أوردناه في المرحلة الثالثة: عصر الغيبة الصغرى. وجوابه نفس الجواب، وملخصه: ان العلامات يحتمل وقوعها في أي وقت ويحتمل أن يتبعها ظهور المهدي عليه السلام بزمان قصير. وأما شرائط الظهور، فيحتمل اكتمالها ونجازها في أي وقت أيضاً. وقلنا بأن وجود هذا الاحتمال في نفس الفرد كاف في إيجاد الجو النفسي للانتظار الفوري.

فإن قال قائل: بأن ما عرفناه شرطا رئيسيا للظهور، مما هو غير متحقق لحد الآن، هو حصول التمحيص والامتحان للناس، ونحن نجد بالوجدان ان عددا كبيراً من الناس ان لم يكن جميعهم أو أكثرهم، غير ممحصين، ولا تصل نتائج اختباراتهم إلى نهايتها.

قلنا: انه يمكن الجواب على ذلك بوجهين:

الوجه الأول:

ان هذا الكلام يتضمن جهلاً بمعنى التمحيص والاختبار، فإن المراد منه ليس هو تمحيص الأفراد كأفراد خلال أعمارهم القصيرة، لكي نتوقع ان يصل كل فرد خلال حياته إلى النتائج النهائية للتمحيص.

بل المراد تمحيص الأمة أو البشرية في أمد طويل، بشكل منتج لتمحيص الأفراد، في نهاية المطاف. ويتم ذلك عن طريق ما نسميه بـ(قانون الترابط بين الأجيال) فإن كل جيل سابق يوصل ما يحمله من مستوى فكري وثقافي إلى الجيل الذي يليه. ويكون على الجيل الآخر، ان يأخذ بهذا المستوى قدماً إلى الامام. ثم انه يعطي نتائجه إلى الجيل الذي بعده وهكذا...

وكذلك الحال بالنسبة إلى نتائج التمحيص، فإن كل جيل يوصل إلى الجيل الذي يليه، ما يحمله من مستوى في الإيمان والإخلاص... فيصبح الجيل الجديد، قد وصل بالتلقين إلى نفس الدرجة - تقريبا- من التمحيص التي وصلها الجيل السابق. ثم ان الجيل الآخر بدوره سيمر بتجارب وسيقوم بأعمال معينة وسيصادف ظروف الظلم والإغراء، فيتقدم في سلم التمحيص درجة أخرى، وهكذا.

وبقانون تلازم الأجيال، سيأتي على الأمة زمان، يكون الجيل الذي فيها، قد أنتج التمحيص الإلهي فيه نتيجته المطلوبة. حيث ينقسم المجتمع إلى قسمين منفصلين: إلى من فشل في التمحيص فاختار طريق الضلال محضاً. وهم الأكثر الذين يملئون الأرض جورا وظلما... والى من نجح فيه فاختار طريق الهداية والإخلاص محضا. وبوجود هذه المجموعة يتحقق شرط الظهور.

إذن، فكيف يمكننا ان ندعي العلم بعدم تمحيص أكثر الناس، كما قلناه في السؤال. مع ان النتيجة المطلوبة حاصلة في الأعم الأغلب منهم. وهذا واضح بالنسبة إلى كل البشر الكفرة والمنحرفين، فإن التمحيص قد أنتج تطرفهم إلى جهة الضلال. كما انه واضح بالنسبة إلى عدد من المؤمنين المخلصين، حيث تطرفوا إلى جهة الهدى والإيمان. وهذه هي نتيجة التمحيص.

نعم، قد تتعلق الإرادة الإلهية، بتأكيد التمحيص وتشديده أكثر مما هو عليه الآن، متوخية تعميق إخلاص المخلصين، لكي يكونوا بحق على المستوى المطلوب لقياده العالم في اليوم الموعود.

وعلى أي حال، فيبقى شرط الظهور محتمل الانجاز في أي وقت، فلا يكون منافياً مع مفهوم الانتظار الفوري.

الوجه الثاني:

ان التمحيص الدقيق المأخوذ في التخطيط الإلهي، لا يجب ان ينتج نتيجة واضحة فعلية كاملة، بالنسبة إلى كل البشر وإنما اللازم هو ان يصل إلى هدفه، وهو إيجاد شرط الظهور.

بيان ذلك: ان التمحيص يكون على مستويين:

المستوى الأول:

ما يكون من موقف كل فرد تجاه مصالحه وشهواته. وهذا التمحيص موجود بوجود البشرية ووجود مفاهيم الحق والعدل المعلنة بين الناس. ولا ينقطع إلا بانتهاء البشرية. لا يختلف في ذلك عصر الغيبة عن عصر

الظهور. فإن عصر الظهور ينتج إيضاح الحق وسيطرته على العالم. ولكنه لا يقوم بتبديل الغرائز والشهوات.

المستوى الثاني:

ما يكون من موقف الفرد تجاه تيارات الظلم واضطهاد الظالمين. وهو تمحيص خاص بما قبل الظهور، لعدم وجود الظلم والظالمين بعده. وهذا هو العنصر المهم الذي أسسه التخطيط الإلهي لتحقيق شرط الظهور.

وشرط الظهور لو كان هو حصول النتيجة في كل البشر، لكان حصولها ضرورياً قبل الظهور، كما قال السائل... ولكن شرط الظهور ليس بهذه السعة، وإنما هو حصول عدد من ذوي الإخلاص القوي والإرادة الماضية، بمقدار كافٍ لغزو العالم والسيطرة على البشرية بأطروحة الحق.

وحينما يحصل هذا المقدار من الناس، تكون نتيجة التمحيص الكاملة، قد تمخضت بالنسبة إليهم، بإحرازهم درجة الإخلاص العليا. كما تكون قد تمخضت بالنسبة إلى آخرين في التطرف نحو الانحراف والفساد.

وأما البشر الآخرون، فلا مانع ان يصلوا إلى بعض درجات التمحيص ويقفوا. وتبقى الدرجات العليا من مواقفهم وردود فعلهم غامضة غير ممحصة. وهذا كما هو ثابت بالنسبة إلى اغلب البشر قبل نهايات الغيبة، كذلك يمكن ان يكون ثابتاً بالنسبة إلى بعضهم عند أول الظهور أيضاً.

ولكننا - بهذا الصدد- يجب ان نتذكر الدرجات الثلاث، للإخلاص، التي قلناها... وكلها نتيجة للتمحيص وان اختلفت مراتبها ومداليلها. وما قلناه قبل أسطر وإن كان صحيحا في درجة الإخلاص العليا، فإنه لا يحصل إلا في عدد

معين من البشر. ولكن الدرجة الثانية والثالثة من الإخلاص، تحصل في أعداد ضخمة من الناس، قد تشكل أكثر البشر في الجيل المعاصر للظهور. ويكون الظهور بنفسه ظرفاً جديداً تتفتح فيه مواهب العديد من الناس على النحو الموجه المطلوب. على ما سوف نسمع في التاريخ القادم.

وعلى أي حال، فمن المحتمل على الدوام وفي أي وقت، ان يكون العدد الكافي لغزو العالم قد تحقق، وان شرط الظهور قد توفر. فيكون الظهور - على هذا التقدير- فوريا أو قريبا جدا. واحتمال تحقق الشرط كاف في احتمال فورية الظهور. ومعه يكون مفهوم الانتظار الفوري، موجودا خلال عصر الغيبة الكبرى.

* * *

الجهة الثالثة:

من التكاليف المطلوبة في عصر الغيبة الكبرى: الالتزام بالتعاليم الإسلامية الحقة النافذة المفعول فيما قبل الظهور.

وهذا من واضحات الشريعة، فإن مقتضى شمول تعاليمها وعمومها لكل الأجيال، وجوب إطاعتها وتطبيقها على واقع الحياة في كل الأجيال. سواء ما كان على مستوى العقائد والمفاهيم، أو ما كان على مستوى الأحكام.

ويقابل هذا الوضوح احتمالان رئيسيان:

الاحتمال الأول:

ان ينجرف الفرد مع التيارات المعادية للإسلام، ويتبع عقائدها وأحكامها، ويعتبرها نافذة عليه، ويدع أوامر الإسلام ونواهيه، بل وعقائده في سبيلها.

وهذا النحو من السلوك واضح الفساد من وجهة نظر الإسلام. وحسبنا منه انه مستلزم للعصيان الإسلامي والرسوب في التمحيص الإلهي.

ومعنى فساد هذا الوجه، هو ان العقائد الوحيدة الصحيحة والأحكام الوحيدة النافذة في كل العصور، هي عقائد الإسلام وأحكامه. واما ما يغزو المجتمع المسلم من عقائد غريبة وأحكام وضعية، فلا تعتبر حقاً ولا واجبة الامتثال.

الاحتمال الثاني:

ان المهدي بعد ظهوره- على ما سنعرف في التأريخ القادم- سوف يصدر قوانين جديدة، ويعطي للإسلام تفاصيل وتطبيقات جديدة. فقد يكون من المحتمل ان تكون تلك الأحكام والقوانين سارية المفعول خلال الغيبة الكبرى أيضاً. مما ينتج ان يكون الاقتصار على امتثال الأحكام السابقة على الظهور، غير كافية.

إلا ان هذا الاحتمال غير موجود البتة: لليقين بأمرين:

الأمر الأول:

إن أحكام ما بعد الظهور لن تكون ذات اثر (رجعي) بحيث تشمل الزمن السابق عليها.

فإن الإمام المهدي عليه السلام انما يصدر قوانينه الجديدة بناء على مصالح وأسباب تتحقق بعد الظهور، وليس لها في عصر الغيبة الكبرى عين ولا اثر.

الأمر الثاني:

اننا - على أي حال- نجهل تلك الأحكام بالمرة، والجهل بالحكم بهذا

الشكل، سبب كاف للمعذورية عن امتثاله أمام الله تعالى ورسوله ﷺ، بحسب قواعد الإسلام.

إذن، فتكون الأحكام الإسلامية الصادرة المعلنة، منذ عصر الرسالة، نافذة المفعول، بكل تفاصيلها وخصائصها، من دون معارض ولا ناسخ، ويجب على الفرد إطاعتها وامتثالها. وهو واضح من وجهة النظر الإسلامية.

وهذا هو المراد من عدد من الاخبار على اختلاف مضامينها، تأمر المسلم بالبقاء على ما كان عليه من عقيدة وتشريع... بالرغم من تيار الفتن وشبهات الانحراف.

اخرج ابن ماجة[1] عن رسول الله ﷺ انه ذكر التكليف في عصر الفتن فقال: تأخذون بما تعرفون وتدعون ما تنكرون. وتقبلون على خاصتكم وتذرون أمر عامتكم.

والمراد بهذا الحديث الشريف، بعد فهمه على أساس القواعد الإسلامية العامة... هو وجوب الأخذ بما قامت عليه الحجة من أحكام الإسلام أو عقائده. بمعنى انه متى دل الدليل الصحيح على كون شيء معين هو حكم إسلامي أو عقيدة إسلامية، وجب الأخذ به، بمعنى لزوم العمل عليه ان كان حكماً ووجوب الاعتقاد ان كان عقيدة. واما ما كان مخالفا لذلك، فيجب رفضه واعتباره انحرافاً وفساداً.

واما الذين يشخصون ذلك، ويفهمون ما هو الحكم الإسلامي من غيره، وما هو الدليل الصحيح وما هو الفاسد، فليس هم العامة أو الجمهور الذين ينعقون مع كل ناعق يميلون مع كل ريح... فإنهم- لا محالة - تؤثر فيهم

(١) أنظر السنن ص١٣٠٨ ج٢.

موجات الانحراف وتغريهم المصالح والشهوات. فيجب الإعراض عنهم كموجهين وقادة وأصحاب رأي. وإنما توكل هذه المهمة إلى المختصين بالنظر إلى الأدلة الإسلامية واستنتاج الأحكام، والمفكرين الذين اتعبوا انفسهم في تحقيق وتدقيق العقائد والمفاهيم والأحكام.

وبهذا يريد النبي ﷺ ان يلفت نظر الفرد المسلم إلى وجوب الالتفاف حول هؤلاء الخاصة من العلماء الذين يطلعونه على الحق ويبعدونه عن الباطل، وينقذونه من تيار الفتن، ويحرزون له النجاح في التمحيص الإلهي الكبير.

ومثل هذا الحديث عدة اخبار، رواها الصدوق في إكمال الدين[1] عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام. ففي احد الاخبار يقول عليه السلام: إذا أصبحت وأمسيت لا ترى اماماً تأتم به (يعني عصر الغيبة الكبرى) فأحبب من كنت تحب وأبغض من كنت تبغض، حتى يظهره الله عز وجل.

وفي حديث آخر: تمسكوا بالأمر الأول حتى تستبين لكم. وفي حديث ثالث: فتمسكوا بما في أيديكم حتى يتضح لكم الأمر. وفي حديث رابع: كونوا على ما انتم عليه حتى يطلع عليكم نجمكم (يشير إلى ظهور المهدي عليه السلام).

والأمر الأول الذي في اليد، هو أحكام الإسلام وعقائده الصحيحة النافذة المفعول في هذه العصور. ومعنى التمسك به تطبيقه في واقع الحياة، سلوكاً وعقيدة ونظاماً.

وكل هذه الاخبار، تعم العقيدة والأحكام... ما عدا الخبر الأول منها، فإنه خاص. بالعقيدة. فإنه أمر الفرد المسلم بحب من كان يحب وبغض من

(١) انظر المصدر المخطوط.

كان يبغض. والحب والبغض بالمعنى الإسلامي الواعي الدقيق، يتضمنان نقطتين رئيسيتين:

النقطة الأولى:

ويعتبر الفرد من يحبه مثالاً ومقتدى، بصفته ممثلاً كاملاً للسلوك الإسلامي والكمال البشري. فيحاول الفرد جهد إمكانه ان يحذو حذوه ويقتفي خطاه. حيث لا يمكن ان يصل إلى الكمال بدون ذلك.

وفي مقابلة من يبغضه الفرد المسلم من المنحرفين والمنافقين. فإنهم مثال للسوء والظلم، يجب الابتعاد عنهم ومغايرة سلوكهم، لكي يمكن للفرد الحصول على الكمال والسلوك الصحيح.

النقطة الثانية:

إذ يعتبر الفرد المسلم من يحبه مطاعا في أقواله، واجب الامتثال في أحكامه. لأن أحكامه هي أحكام الإسلام وأقواله تطبيقات لما يرضي الله عز وجل. إذن، فلا يمكن ان يتحقق السلوك الصالح بدون ذلك.

فانظر إلى الجانب العقائدي، كيف يعيش في الحياة متمثلا في السلوك الصالح... وإنما حصل التعرض إلى الجانب العقائدي في الاخبار، لا باعتبار اختلاف العقيدة الإسلامية في زمن المهدي عليه السلام. إذ من المعلوم انه عليه السلام لا يغير العقائد والأحكام الرئيسية في الإسلام. وإنما يتصرف فيما دون ذلك. وعلى أي حال، فنحن الآن غير مسؤولين عن أحكام المهدي عليه السلام بل يكفينا الاعتقاد بما عرفناه من الإسلام. وإيكال ما يحدث بعد الظهور إلى وقته.

ومن هنا نعرف انه لماذا عبر في الخبر عن الأحكام الحالية بالأمر الأول أو

ما في اليد، وذلك: بمقايستها إلى أحكام ما بعد الظهور. وكذلك التعبير: بمن كنت تحب ومن كنت تبغض. فإنه بمقايسة من يجب ان يحبه ويطيعه من أولي الأمر الموجودين بعد الظهور.

واخرج الكليني في الكافي[١] والصدوق في إكمال الدين[٢] والنعماني في الغيبة[٣]. عن المفضل بن عمر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، حين يسأله الراوي عن تكليفه في زمان الغيبة حين تكثر الفتن ودعاوى الضلال وتنتشر الشبهات. قال الراوي: فكيف نصنع. قال: فنظر إلى شمس داخلة في الصفة. فقال: يا ابا عبد الله ترى هذه الشمس؟ قلت: نعم. قال: والله لأمرنا أبين من هذه الشمس.

فالمطلوب إسلامياً، هو متابعة خط الأئمة عليهم السلام الذين هم البقاء الأمثل للنبوة والإسلام... باعتبار وضوح ما هم عليه من الحق، كوضوح الشمس المشرقة، وقيام الحجة فيه على الخلق. فلا بد من التمسك به والسير عليه خلال الغيبة الكبرى، لكي ينجو به المسلم من الفتن ويبتعد عن مزالق الانحراف.

ولئن كان هذا الحديث مما لا يؤمن به إلا القواعد الشعبية الإمامية، فإن الاخبار المتقدمة تعمهم وغيرهم من أبناء الإسلام.

• • •

(١) انظر المصدر المخطوط.

(٢) انظر المصدر المخطوط.

(٣) انظر ص٧٧.

الجهة الرابعة:

هل المطلوب خلال الغيبة الكبرى، اتخاذ مسلك السلبية والعزلة، أو المبادرة إلى الجهاد.

ويتم الكلام في هذه الجهة ضمن عدة نقاط:

النقطة الأولى: في محاولة فهم العنوان:

دلنا الوجدان والاخبار الخاصة والقواعد العامة، على ما سمعنا، على ان زمان الغيبة الكبرى، مستغرق بموجات الظلم والانحراف والفساد. فهل من وظيفة الفرد المسلم هو السلبية والانعزال عن الأحداث، وعدم وجوب إعلان المعارضة ومحاولة تقويم المعوج من الأفراد والأوضاع. أو ان وظيفة الفرد في نظر الإسلام هو العمل الاجتماعي الفعال، والجهاد الناجز في سبيل الله ضد الظلم والطغيان.

دلت الآيات الكريمة بعمومها على وجوب الجهاد كقوله عز من قائل: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[1]. وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَـٰلِحٌ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[2].

ودلت الغالبية العظمى من اخبار التنبؤ بالمستقبل على وجوب السلبية والانعزال. بحيث استغرقت كل اخبار العامة تقريبا، واغلب اخبار الخاصة.

(١) الأنفال: ٦٠.

(٢) التوبة: ١٢٠.

ولم يكد يوجد من الروايات الآمرة بالمبادرة إلى الجهاد والأخذ بزمام الإصلاح، إلا النزر القليل. وسنعرض لهذه الاخبار فيما يلي من البحث.

فأي الوظيفتين تقتضيها القواعد الإسلامية العامة. وهل تقتضي إحداهما على التعيين، أو تقتضي كلا الأمرين، باختلاف الحالات. وكيف يمكن فهم هذه الاخبار على ضوء ذلك. هذا لا بد من بحثه ابتداء بالقواعد العامة، وانتهاء بالاخبار.

النقطة الثانية: فيما تقتضيه القواعد العامة:

ويمكن ان نعرض ذلك، ضمن جانبين:

الجانب الأول:

في الأحكام الإسلامية، على المستوى الفقهي للعمل الاجتماعي أو العزلة.

ينقسم العمل الاجتماعي الإسلامي المقصود به الهداية والإصلاح إلى وجهتين رئيسيتين: أولاهما: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وثانيتهما: الجهاد أو الدعوة الإسلامية. ولكل منهما مجاله الخاص وشرائطهما المعينة.

فالجهاد يتضمن في مفهومه الواعي، العمل على ترسيخ أصل العقيدة الإسلامية، اما بنشرها ابتداءً أو الوقوف إلى جانبها دفاعاً... بأي عمل حاول الفرد أو المجتمع الوصول إلى هذه النتائج... سواء كان عملاً سلمياً أو حربياً. وان كان أوضح أفراده وأكثرها عمقاً، هو الصدام المسلح بين المسلمين والآخرين.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فمجاله هو الإطار الإصلاحي

للمجتمع المسلم، مع انحفاظ أصل عقيدته. ومحاولة حفظه عن الانحراف والتفكك وشيوع الفاحشة ونحو ذلك.

شرائطهما:

وشرائط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، عديدة، فيما ذكر الفقهاء، تندرج في أمرين رئيسيين:

الأمر الأول:

العلم بالمعروف والمنكر، فلو لم يكن الفرد عالماً بالحكم الشرعي الإسلامي، أو لم يكن محرزاً بأن فعل الشخص الآخر معصية للحكم... لم تكن هذه الوظيفة الإسلامية واجبة.

الأمر الثاني:

احتمال التأثير في الفرد الآخر. فلو لم يكن يحتمل ان يكون لقوله أثر، لم يجب القيام بالأمر والنهي، فضلاً عما إذا احتمل قيام الآخر بالمعارضة والمجابهة أو إيقاع الضرر البليغ.

ولذلك ورد عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام انه سئل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أواجب هو على الأمة جميعاً. فقال: لا. فقيل له: ولم؟ قال: انما هو على القوي المطاع العالم بالمعروف من المنكر. لا على الضعيف الذي لا يهتدي إلى أي من أي. يقول من الحق إلى الباطل. والدليل على ذلك كتاب الله عز وجل. قوله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾. فهذا خاص غير عام[1].

(١) وسائل الشيعة ج٢ ص٥٣٣.

وكذلك قوله عليه السلام: انما يُؤمر بالمعروف وينهى عن المنكر، مؤمن فيتعظ أو جاهل فيتعلم، فاما صاحب سوط أو سيف، فلا[١].

واما الجهاد فغير مشروط بهذه الشرائط. كيف وان المفروض فيه التضحية ببذل النفس والنفيس في سبيل الله تعالى ومن اجل المصالح الإسلامية العليا. وقد أكد القرآن على ذلك في العديد من آياته، على ما سمعنا قبل قليل... وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ ٱلْـَٔامِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَـٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[٢].

إذن، فالجهاد فريضة كبرى لنشر الدعوة الإلهية، داخلة في التخطيط الإلهي لهداية الناس، فيما قبل الإسلام وفي الإسلام. (في التوراة والإنجيل والقرآن). وإنما يقوم به على طول الخط، أولئك الصفوة ذوي الإخلاص الممحص والإيمان الرفيع... ﴿ٱلتَّـٰٓئِبُونَ ٱلْعَـٰبِدُونَ ٱلْحَـٰمِدُونَ ٱلسَّـٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّـٰجِدُونَ...﴾.

وقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله[٣] انه قال في كلام له: فمن ترك الجهاد ألبسَهُ الله ذلاً وفقراً في معيشته ومحقاً في دينه. ان الله أغنى أمتي بسنابك خيلها

(١) المصدر ص٥٣٤.

(٢) التوبة: ١١١ - ١١٢.

(٣) أنظر هذا الحديث وما بعده في الوسائل ج٢ ص٤٦٩.

ومراكز رماحها (أي بأسلحتها).

وعن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، أنه قال: أما بعد فإن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه... إلى أن قال: هو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجُنته الوثيقة. فمن تركه البسه الله ثوب الذل وشمله البلاء، وديِّث بالصغار والقَماءة، وضرب على قلبه بالاسداد، واديل الحق منه بتضييع الجهاد، وسيم الخسف ومنع النصف... الحديث.

وعن الصادق أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: إن الله عز وجل بعث رسوله بالإسلام إلى الناس عشر سنين، فأبوا أن يقبلوا، حتى أمره بالقتال. فالخير في السيف وتحت السيف. والأمر يعود كما بدأ (يعني عند ظهور المهدي عليه السلام).

إلا أن الجهاد على أهميته الكبرى في الإسلام، مشروط بشرطين: الأول: خاص بجهاد الدعوة المتعلق بنشر الإسلام في غير المسلمين. وهو تعلق أمر الولي المعصوم به، كالنبي صلى الله عليه وآله أو أحد المعصومين بعده ومنهم المهدي عليه السلام نفسه. بخلاف جهاد الدفاع فإنه غير مشروط بذلك. بل يجب عند الحاجة على كل حال. ولا يفرق في هذا الحكم بين أن يكون الجهاد دموياً أو لم يكن... بل كان من قبيل الجهاد التثقيفي الإسلامي.

الشرط الثاني: احتمال التأثير، والوصول إلى النتيجة، ولو في المدى البعيد. فلو لم يحتمل الفرد أو المجتمع المجاهد الوصول إلى أي نتيجة أصلاً... لم يجب الجهاد.

وهذا الشرط واضح في الجهاد الدموي، فإنه لا يكون واجباً مع قصور العدة والعدد. قال الله تعالى: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ

ضَعۡفٗاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٞ صَابِرَةٞ يَغۡلِبُواْ مِاْئَتَيۡنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمۡ أَلۡفٞ يَغۡلِبُوٓاْ أَلۡفَيۡنِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(١). وأما إذا كان الجيش المعادي أكثر من ضعف أفراد الجيش المسلم فلا يجب الجهاد، باعتبار ان احتمال النصر يكون ضئيلاً.

وأما الجهاد العقائدي التثقيفي، فهو وإن كان مشروطاً باحتمال التأثير أيضاً، فإنه إن لم يكن التأثير محتملاً لم يكن هذا الجهاد واجباً، إلا أن هذا إنما يتصور في الفرد الواحد، وأما في التثقيف العام للمجتمع، فهو يقيني التأثير في الجملة، على عدد من الأفراد قليل أو كثير. فيكون واجباً، مع توفر شرطه الأول.

فهذه هي وظائف العمل الاجتماعي في الإسلام من الناحية التشريعية الفقهية.

نتائجها:

نستطيع الوصول على ضوء ذلك، إلى عدة فوائد ونتائج كبيرة. متمثلة في عدة أمور:

الأمر الأول:

إن الجهاد على طول الخط، في تأريخ البشرية، مقترن في منطق الدعوة الإلهية، بذوي الإخلاص العالي الممحص، فإنه (باب فتحه الله لأوليائه). لا بمعنى اختصاص وجوبه بهم، بل بمعنى ان الله تعالى لا يوجد شرائطه في العالم، إلا في ظرف وجودهم، بحسب تخطيطه الكبير. فإن مهمة غزو العالم

(١) الأنفال: ٦٦.

كله، ونشر العدل المحض فيه، مهمة كبرى لا تقوم على أكتاف أحد سواهم، وإلا كان مهدداً بخطر الفشل والدمار.

ولذا حارب النبيﷺ أعداءه وانتصر، واستطاع أن يبلغ بالفتح الإسلامي مدى بعيدا في الأرض. ولهذا ـ أيضاً ـ فشل الفتح الإسلامي حين فقد خصائصه الرئيسية وتجرد الشعب المسلم عما يجب أن يتحلى به من صفات. وبتلك الخصائص سوف يحارب المهديعليه السلام وينتصر على كل العالم.

ولكن ينبغي أن نحتفظ بفرق بين أصحاب النبيﷺ وأصحاب المهديعليه السلام، وقد أشرنا إليه فيما سبق. وهو: أن النبيﷺ بعث في شعب خام غير ممحص الإخلاص قبل ذلك على الإطلاق ولا مر بأي تجربة لنشر العدل ولم يكن همه غير السلب والنهب من القبائل المجاورة. ومن ثم كان المندفعون إلى الجهاد بين يديهﷺ - فيما عدا النوادر- يمثلون الوهج العاطفي الإيماني وهيمنة القيادة النبوية عليهم، أكثر مما يمثلون استيعاب القضية الإسلامية من جميع أطرافها وخصائصها.

فلم يكونوا في الأعم الأغلب، ممحصين ولا واعين، بالدرجة المطلوبة لغزو العالم كله... ولو كانوا على هذا المستوى لما بقي العالم إلى الآن يرزح تحت نير الاستعباد. ولكان النبيﷺ بنفسه هو المهدي الموعود... كما أشرنا إليه في التخطيط الإلهي.

ومن ثم رأينا ان هيمنة القيادة النبوية، حين انحسرت عن المجتمع، بدأ الوهج العاطفي بالخمود التدريجي. وإن كان قد بقي له من الزخم الثوري ما يبقيه مائتي عام أخرى، ينطلق من خلاله إلى منطقة ضخمة من العالم. إلا أن الفتح الإسلامي تحول تدريجياً إلى مكسب تجاري[1]، وفشل عن التقدم في

---

(١) فصلنا القول في ذلك في تاريخ الغيبة الصغرى ص١١٧ وما بعدها.

نهاية المطاف. وهذه النتائج المؤسفة، يستحيل التوصل إليها - عادة- لو كان الجيش النبوي ممحصاً وواعياً، بحسب اتجاهات النفس البشرية وقوانين ترابط الأجيال.

والسر في ذلك ما سبق ان عرفناه، من أن البشرية عند نزول الإسلام، كانت مهيئة للشرط الأول من شروط عالمية الدعوة الإلهية... دون الشرط الثاني، وهو وجود العدد الكافي من ذوي الإخلاص الممحص.

وأما المهدي عليه السلام فسوف يوجد الله تعالى هذا الشرط في أصحابه، بعد أن تكون البشرية قد مرت بالظروف القاسية التي تشارك في إيجاد هذا الشرط الكبير. ومن ثم سوف يستطيع تطبيق الأطروحة العادلة الكاملة على العالم بأسره.

فإن قال قائل: يلزم من ذلك بأن أصحاب المهدي عليه السلام أفضل من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله.

قلنا: نعم، الأمر كذلك على الأعم الأغلب. ولا حرج في ذلك. فإن أصحاب المهدي عليه السلام هم أصحاب للنبي صلى الله عليه وآله ومحاربين في سبيل دين النبي صلى الله عليه وآله وعدله. وإنما القصور في البشرية التي لم تكن مهيئة لنشر العدل العالمي قبل أن ينتج التخطيط الإلهي نتيجته المطلوبة، وهو إيجاد الشرط الأخير من شرائط الظهور.

الأمر الثاني:

إن الجهاد منوط على طول الخط... بوجود القائد الكبير الذي له قابلية غزو العالم ونشر العدل فيه. فما لم يتحقق ذلك لا يكون الجهاد واجباً. إلا فيما يكون من جهاد الدفاع الذي لا يكون واجبا على الأمة وإن لم تكن

ممحصة ولم تكن لها قيادة. إلا أن هذا من قبيل الاستثناء لأجل الحفاظ على بيضة الإسلام وأصل وجوده. وقد أثبتت غالب حوادث التاريخ فشل الأمة الإسلامية في حروب الدفاع حال فقدانها للقيادة والوعي. ومن هنا وصل الأمر بنا إلى ما وصل إليه من سيطرة الأعداء، حتى غزينا في عقر دارنا وأخذ منا طعامنا وشرابنا، وفقد منا استقرارنا وأمننا.

وعلى إي حال، ففيما عدا ذلك، يكون مقتضى القاعدة العامة، هو إناطة وجوب الجهاد بوجود القائد الذي له أهلية غزو العالم ونشر العدل فيه. ومن هنا كان وجوب الجهاد حاصلاً في عصر النبيﷺ، وكان مهدداً بالانقطاع التام بعده، لولا أن القواد المسلمين كانوا يحاربون بالوهج العاطفي الذي زرعه النبيﷺ. ومن ثم لم يكن للفتح الإسلامي قابلية الاستمرار أكثر من زمان الوهج، مع انعدام التمحيص والقيادة.

وهذه القيادة الكبرى، هي التي سوف تتجسد في شخص المهديعليه السلام، فيبدأ نشر أطروحته في العالم عن طريق الجهاد، حتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً.

الأمر الثالث:

ان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، غير منوط بوجود القيادة الكبرى ولا الإخلاص الممحَّص... بل هو مشروع بشكل يشمل الحالات الأخرى.

حيث نرى انه لا يحتاج القيام بهذه المهمة الإسلامية إلا إلى معرفة الحكم الإسلامي مع احتمال إطاعة العاصي وتأثره بالقول. وأما حاجته إلى تضحية مضاعفة أو وعي عال أو إخلاص ممحص، فغير موجودة... وهذا واضح.

بل اننا نستطيع أن نفهم من الشرط الذي أنيط به، وهو توقف وجوبه على عدم الخوف واحتمال الضرر... وقد سمعنا قول الإمام الصادقعليه السلام : واما

صاحب سوط أو سيف فلا. أن توقفه على ذلك مأخوذ خصيصاً بنظر الاعتبار لكي يواكب النفوس غير الواعية وغير الممحصة ويكون شاملاً لها، حتى إذا ما خافت الضرر ولم تستطع الصمود، كان لها في الشريعة المبرر الكافي للانسحاب.

وبهذا يحرز التشريع الإسلامي نتيجتين متساندتين:

النتيجة الأولى:

ان عدداً مهماً من أفراد الأمة، في عصر التمحيص والامتحان، يجب عليهم القيام بهذه الوظيفة الاجتماعية الكبرى: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. سواء كان التمحيص قد أنتج فيهم الإخلاص العالي أم لم يكن. وبذلك يحرز الإسلام - على الصعيد التشريعي على الأقل- حفظ المجتمع المسلم من الانحدار إلى مهاوي الرذيلة والضلال.

النتيجة الثانية:

إن هذا العدد من أفراد الأمة يكونون - بمقتضى قانون التمحيص نفسه- واقفين على المحك الأساسي للتمحيص، من خلال قيامهم بهذه المهمة الإسلامية. فإن تركوها وأحجموا عنها، فقد فشلوا في الامتحان. وإن قاموا بها اوجب ذلك لهم تكامل الخبرة والتدريب والتربية، مما يسبب بدوره تحمل المسؤوليات الأكبر والأوسع، ويضعهم على طريق الإخلاص الممحص والوعي، في نهاية المطاف.

الأمر الرابع:

ان نتائج ترك الجهاد أهم وأوسع من نتائج ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ويكفينا في هذا الصدد، أن نعرف الأمر على مستويين:

المستوى الأول:

إن الجهاد... حيث انه الوظيفة الإسلامية المشرَّعة لغزو العالم غير الإسلامي، وإرجاع الأراضي الإسلامية السليبة، فهو أوسع تطبيقاً من الأمر بالمعروف الذي لا حدود له إلا ما كان داخل المجتمع الإسلامي من انحراف وعصيان.

ومن هنا يكون ترك الجهاد موجباً لسلب الأمة نتائج أضخم ومكاسب أكبر من النتائج والمكاسب المترتبة على الأمر بالمعروف، كما هو واضح.

المستوى الثاني:

ان الأمر بالمعروف بمنزلة الفرع أو النتيجة أو المسبَّب عن الجهاد... وتركه بمنزلة السبب لوجوبه.

وذلك: انه لا يجب الأمر بالمعروف في منطقة من العالم، إلا إذا كانت داخلة ضمن حدود البلاد الإسلامية، فلا بد أن تكون المنطقة قد دخلت في ضمن هذه الحدود أولاً، ليجب فيها القيام بتلك الوظيفة ثانياً. والغالب أن يكون دخول البلاد إلى حوزة الإسلام، بالجهاد المسلح. فيكون الجهاد مقدمة لوجوب الأمر بالمعروف ويكون الأمر بالمعروف نتيجة له. حيث تكفلت الوظيفة الإسلامية، الأولى اتساع بلاد الإسلام. وتكفلت الوظيفة الثانية المحافظة على هذه السعة وضمان تطبيق العدل في البلاد المفتوحة الإسلامية.

وأما إذا ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في البلاد الإسلامية... فستبدأ بالانحدار من حيث الإخلاص والشعور بالمسؤولية، حتى ينتهي بها الحال أن تغزى في عقر دارها وتكون لقمة سائغة لكل طامع وغاصب. كما قال

الإمام الرضا عليه السلام فيما روي عنه[١]: لتأمرون بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم[٢]. فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم. ويتسبب ذلك أحياناً إلى المنطقة الإسلامية بيد القوات الكافرة المستعمرة، كما حصل في الأندلس وفلسطين... فيعود الجهاد واجباً لاسترجاعها. فقد أصبح ترك الأمر بالمعروف سبباً لوجوب الجهاد.

الأمر الخامس:

نعرف من ذلك كله، متى تكون العزلة والسلبية واجبة، ومتى تكون جائزة ومتى تكون محرمة، بحسب المستوى الفقهي الإسلامي.

فإن العزلة والسلبية، مفهوم يحمل معنى عدم القيام بالفعاليات الاجتماعية الإسلامية من الجهاد أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. فمن هنا تكون العزلة محرمة حين يكون ذلك واجباً، وتكون واجبة حين يكون ذلك حراماً على بعض الوجوه التي نذكرها فيما يلي. وتكون العزلة جائزة إن لم يكن في العمل الإسلامي موجب الوجوب والتحريم.

حرمة السلبية:

فحرمة السلبية، إنما تتأتى، من وجوب المبادرة إلى ميادين العمل الإسلامي... إما بالقيام بالجهاد على مستوييه: المسلح وغير المسلح، مع اجتماع شرائطه. وإما بالقيام بالأمر بالمعروف ومحاولاً الإصلاح في المجتمع الإسلامي، على مستوييه المسلح وغيره، عند اجتماع شرائطه... وخاصة غير

(١) أنظر الوسائل ج٢ ص٥٣٢ وأنظر نحوه في الترمذي ج٣ ص٣١٧، مروياً عن النبي صلى الله عليه وآله.

(٢) يعني يباشر الحكم فيكم.

المسلح منه، الذي هو الأعم الأغلب منه.

وعلى أي حال، فإذا وجب العمل الإسلامي حرمت العزلة، وكانت عصياناً وانحرافاً إسلامياً خطيراً. وتكتسب أهميتها المضادة للإسلام، بمقدار أهمية العمل الإسلامي المتروك.

ومن ثم كان ترك الجهاد عند وجوبه، والفرار من الزحف من أكبر المحرمات في الإسلام... طبقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾[1]. كما ان ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند وجوبه حرام إسلامياً، مؤذن بالعقاب، كما ورد عن النبيﷺ: إذا أمتي تواكلت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فليأذنوا بوقاع من الله. وعنهﷺ أنه قال: لا تزال أمتي بخير ما أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وتعاونوا على البر، فإذا لم يفعلوا ذلك، نزعت منهم البركات وسلط بعضهم على بعض، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء. ومعنى انه لا ناصر لهم في السماء: ان الله تعالى لا يرضى بفعلهم ولا يقره.

وجوب السلبية:

وتكون العزلة والسلبية واجبة، عندما يكون ترك العمل الإسلامي واجباً، والمبادرة إليه حراماً. وذلك في عدة حالات:

الحالة الأولى:

القيام بالجهاد الإسلامي بدون إذن الإمام أو القائد الإسلامي أو رئيس

---

(١) الأنفال: ١٦.

الدولة الإسلامية . . . فإن ذلك غير مشروع في الإسلام، كما ينص عليه الفقهاء، سواء كان القائد غافلاً أو ملتفتاً . . . فضلاً عما إذا كان العمل موجهاً ضد الإمام أو الدولة، سواء كان عسكرياً أو غيره.

ونحن نفهم بكل وضوح، المصلحة المتعلقة بهذا الاشتراط. فإن القائد الإسلامي أبصر بمواضع المصلحة وموارد الحاجة إلى الجهاد من الفرد الاعتيادي، بطبيعة الحال. وبذلك يكون عمله أدخل في التخطيط الإلهي العام لهداية البشر، من عمل غيره. بل قد يكون عمل غيره هداماً مخرباً، كما سيأتي في الجانب الثاني من هذه النقطة الثانية.

الحالة الثانية:

القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيما إذا لم يكن يحتمل التأثير، وكان مستلزماً مع الضرر البليغ أو إلقاء النفس في التهلكة. فإن هذا الأمر والنهي يكون محرماً وحرمته مطابقة مع القواعد العامة، فإن معنى الاشتراط بعدم الضرر، هو سقوط الوجوب معه، فلا تكون هذه الوظيفة الإسلامية بلازمة. فإن كان الضرر بليغاً، كان المورد مندرجاً في حرمة إلقاء النفس في التهلكة أو حرمة التنكيل. فيكون محرماً. وإذا حرم الأمر بالمعروف، كانت العزلة والسلبية المقابلة له واجبة.

وهذا التشريع واضح المصلحة بالنسبة إلى الممحصين وغيرهم. أما الممحصين فباعتبار ان التضحية وتحمل الضرر في مورد يعلم بعدم ترتب الأمر أو تغيير الواقع، تذهب هذه التضحية هدراً، بحيث يمكن صرفها في مورد أهم من خدمات الإسلام. وأما بالنسبة إلى غير الممحصين فلنفس الفكرة، مع الأخذ بنظر الاعتبار ضحالتهم في قوة الإرادة وضعفهم في درجة الإيمان.

الحالة الثالثة:

فيما إذا كانت العزلة أو السلبية، تتضمن مفهوم المقاومة أو المعارضة أو الجهاد ضد وضع ظالم أو أساس منحرف... فانها تكون واجبة بوجوب الجهاد نفسه. وتكون في واقعها عملاً اجتماعياً متكاملاً... ولكن أن تكون مخططاً مدروساً وطويل الأمد، يختلف باختلاف الظروف والأهداف المتوخاة من وراء هذه العزلة.

وتندرج هذه السلبية، بالرغم من مفهومها السالب الخالي عن الحركة، تحت أهم أعمال الجهاد. قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾[1]. إذن، فالمراد في صدق مفهوم الجهاد والعمل الصالح، هو إغاضة الكفار والنيل من أعداء الحق، سواء كان ذلك بعمل ايجابي حركي أو بعمل سلبي ساكن.

كما قد تندرج السلبية في مفهوم الأمر بالمعروف أو النهي عن المنكر... إذا كانت مما يترتب عليها الإصلاح في داخل المجتمع الإسلامي أو تقويم المعوج من أفراده، فتكون واجبة بوجوب هذا الأمر والنهي.

ولعل من أهم أمثلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ﴾[2]. فإن هذا الهجران نوع من السلبية لأجل نهي الزوجة العاصية الناشز عن ما هي عليه من العمل المنكر ضد زوجها.

---

(١) التوبة: ١٢٠.

(٢) النساء: ٣٤.

وكم قد عملت السلبية في التاريخ أعمالاً كبيرة وبعيدة الأثر، قد تعدل الأعمال الايجابية، بل قد تفوق بعضها بكثير.

الحالة الرابعة:

ما إذا خاف الفرد على نفسه الانحراف، واحتمل اضطراره إلى الانزلاق تحت إغراء مصلحي أو ضغط ظالم أو اتجاه عقائدي لا إسلامي.

فإنه يجب على الفرد - في مثل ذلك - أن يجتنب السبب الموجب للانحراف، ويعتزل عنه، لكي يحرز حسن عقيدته وسلوكه. وتكون الحالة إلى هذه العزلة ملحة، فيما إذا لم يجد الفرد في نفسه القوة الكافية لمكافحة التيار المنحرف أو التضحية في سبيل العقيدة.

إلا أن هذه العزلة لا يجب أن تكون كلية ومطلقة، بل الواجب هو اعتزال التيار الذي يخاف المكلف منه على نفسه أو دينه. وأما اعتزال المجتمع بالكلية، فهذا غير لازم بل غير جائز إسلامياً، إذا كانت هناك فرص للعمل الإسلامي الواجب، من جهات أخرى.

جواز السلبية:

وأما موارد اتصاف السلبية بالجواز، فهو كل مورد كان العمل الاجتماعي الإسلامي جائزاً أو كان تركه جائزاً أيضاً. فيكون للمكلف أن يقوم به، أو أن يكون معتزلاً له وسلبياً تجاهه.

إلا أن الغالب هو عدم اتصاف العمل الإسلامي بالجواز، بل يكون- عند عدم اتصافه بالوجوب- راجحاً أو مستحباً. فتكون العزلة المقابلة له مرجوحة ومخالفة للأدب الإسلامي العادل.

وعلى أي حال، فقد استطعنا أن نحمل فكرة كافية على صعيد الفقه الاجتماعي، عن العمل والعزلة في نظر الإسلام، من حيث الوجوب والحرمة والجواز. وبذلك ينتهي الكلام في الجانب الأول.

* * *

الجانب الثاني:

من الحديث عن العزلة أو الجهاد، في ارتباط هذه الأحكام الإسلامية بالتخطيط الإلهي العام للبشرية، وبقانون التمحيص الإلهي.

عرفنا فيما سبق، ما للظلم ولظروف التعسف التي يعيشها الأفراد، من اثر كبير في تمحيصهم وبلورة عقيدتهم، ووضعها على مفترق طريق الهداية والضلال.

وينبغي ان نعرف الآن، ان الظلم لا يحدث ذلك مباشرة... كيف وأن مدلوله المباشر ومقصوده الأساسي، هو سحق الحق وأهله. وإنما يوجب ذلك باعتبار الصورة التي يحملها الفرد المسلم في ذهنه عنه ورد الفعل الذي يقوم به تجاهه نفسياً أو عملياً. ويكون ذلك على عدة مستويات:

المستوى الأول:

أخذ العبرة من الظلم عقائدياً وتطبيقياً. والنظر إليه كمثال سيء يجب التجنب عنه والتحرز عن مجانسته.

فإن الظلم بما فيه من فلسفات وواجهات، وبما له من أخلاقية خاصة وسلوك معين، سوف لن يخفي نفسه ولن يستطيع ستر معايبه ونقائصه. بل

سوف تظهر متتالية نتيجة للتمحيص... أساليب الظلم وألاعيبه وما يبتني عليه من خداع ونقاط ضعف.

وحسبنا من واقعنا المعاصر أن نرى ان صانعي هذه المبادئ، يحاولون تطويرها وتغييرها، وإدخال التحسينات والترميمات عليها بين حين وآخر، حتى لا تنكشف نقائصها، ولا تفتضح على رؤوس الأشهاد. إذن، فأي مستوى معين من الفكر المنحرف لو بقي بدون ترميم لكانت التجربة والتمحيص، أو تطور الحضارة البشرية - على حد قولهم - كفيلاً في فضح نقائصه واثبات فشله.

المستوى الثاني:

اتضاح فساد الأطروحات المتعددة التي تدعي لنفسها قابلية قيادة العالم وإصلاحه... اتضاحاً حسياً مباشراً. ولا زالت البشرية تتربى - تحت التخطيط الإلهي- وتتدرج في هذا الإدراك، وأن بوادره في هذا العصر لأوضح من أن تنكر... بعد أن أصبح الفرد الاعتيادي يائساً من كل هذه المبادئ من أن تعطيه الحل العادل الكامل لمشاكل البشرية.

وقد أشير إلى ذلك في الاخبار بكل وضوح. روى النعماني[1] بسنده عن هشام بن سالم عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ما يكون هذا الأمر (يعني دولة المهدي عليه السلام) حتى لا يبقى صنف من الناس إلا وقد ولوا من الناس (يعني باشروا الحكم فيهم) حتى لا يقول قائل: إنا لو ولينا لعدلنا. ثم يقوم القائم بالحق والعدل.

---

(١) الغيبة ص١٤٦.

وفي رواية أخرى[1]: ان دولتنا آخر الدول. ولم يبق أهل بيت لهم دولة إلا ملكوا قبلنا، لئلا يقولوا إذا رأوا سيرتنا، لو ملكنا سرنا مثل سيرة هؤلاء. وهو قول الله عز وجل: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾.

وسنشبع هذه الجهة بحثاً في الكتاب الثالث من هذه الموسوعة.

المستوى الثالث:

ما يترتب على هذا اليأس من إدراك وجداني متزايد، للحاجة الملحة العالمية الكبرى للحل الجديد والعدل الذي يكفل راحة البشرية وحل مشاكلها.

وهذا شعور موجود بالفعل، بين الغالبية الكبرى من البشر على وجه الأرض، بمختلف أديانهم ولغاتهم وتباعد اقطارهم. فانظر إلى التخطيط الإلهي الرصين الذي ينتج الانتظار للحل الجديد، من حيث يعلم الأفراد أو لا يعلمون.

المستوى الرابع:

إدراك مميزات العدل الإسلامي والعمل الإسلامي والقيادة الإسلامية، عند مقارنة نقائه وخلوصه وشموله بالمبادئ المنحرفة والاتجاهات المادية. فيتعين أن يكون هو الحل العالمي المرتقب.

ويزداد هذا الإدراك وضوحاً، كلما تعلق الفرد بالمقارنة والتدقيق والنقد العلمي. فيتبرهن لديه بوضوح ان الأطروحة العادلة الكاملة الضامنة لامتلاء الأرض قسطاً وعدلاً، هي الإسلام وحده. وللتوسع في هذه البرهنة مجالات

---

(١) إعلام الورى ص٤٣٢.

أخرى غير هذا الحديث.

المستوى الخامس

الدربة والتربية على الإقدام على التضحية في سبيل الحق... ذلك الذي ينتجه العمل الإسلامي، كما سبق ان اشرنا، عن طريق التمحيص الاختياري والاضطراري للأفراد، وانتقال التمحيص عن طريق قانون تلازم الأجيال.

إذا عرفنا ذلك، فيحسن بنا أن نرى أن أحكام العزلة والجهاد والأمر بالمعروف التي عرفناها، ماذا تؤثر في هذا التخطيط، على تقدير إطاعتها، وعلى فرض عصيانها. وهذا ما نعرض له فيما يلي:

أما الفرد المسلم الذي له من الإخلاص والإيمان ما يدفعه إلى إطاعة أحكام الإسلام وتطبيقها في واقعه العملي، فيندفع حين يريد منه الإسلام الاندفاع إلى العمل ويعتزل حين يريد منه الإسلام السلبية والاعتزال.

... فهذا هو الفرد الذي سيفوز، بالقدح الأعلى والكأس الأوفى من النجاح في التمحيص الإلهي، ويشارك في إيجاد شرط الظهور في نفسه وغيره.

فإن هو اتصل بالمجتمع، فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وحاول الإصلاح في أمة الإسلام... فإنه سيشعر عن كثب بفداحة الظلم الذي تعيشه هذه الأمة خاصة والبشرية عامة. وسينقل هذا الشعور إلى غيره، ويطلع الآخرين بأن أفضل حل لذلك هو تطبيق الأطروحة العادلة الكاملة المتمثلة بالإسلام.

وإن هو جاهد، عند وجوب الجهاد أو مشروعيته... فهذه الوظيفة الإسلامية الكبرى، تحتوي - كما عرفنا- على جانبين رئيسيين: جانب تثقيفي

وجانب عسكري.

فإذا عرفنا ان الجانب التثقيفي، ليس هو مجرد طلب التلفظ بالشهادتين، من غير المسلمين. بل هو متضمن - على ما ينص عليه الفقهاء - عرض محاسن الإسلام، بمعنى إظهار جوانب العدل فيه واثبات أفضليته من النظم الأخرى سياسياً وعسكرياً واقتصادياً وعقائدياً واجتماعياً وأخلاقياً... ونحو ذلك... إذا عرفنا ذلك، استطعنا أن نفهم كيف ان الفرد المخلص لدى الجهاد التثقيفي وان المفكر الإسلامي لدى البحث عن بعض جوانب الإسلام... يندفع في تطبيق التخطيط الإلهي من حيث يعلم أو لا يعلم.

فإن المفكرين الإسلاميين، يسيرون بأنفسهم نحو الكمال... أولاً. ويثقفون غيرهم من أبناء أمتهم الإسلامية... ثانياً. ويطلعون غير المسلمين على الواقع العادل للإسلام... ثالثاً. وينفون الشبهات الملصقة بالإسلام... رابعاً. وكل ذلك مشاركة فعالة فعلية في التخطيط الإلهي وفي إيجاد شرط الظهور. فإن لهذا الجو الثقافي الإسلامي الأثر الكبير في فهم المسلمين لأطروحتهم العادلة الكاملة، واستعدادهم للدفاع عنها، ونجاحهم في الصمود تجاه التيارات المنحرفة وحصولهم على الإخلاص الممحص في نهاية المطاف.

وأما العمل العسكري، فقد ذكرنا ان ما يمت إلى جهاد الدعوة بصلة لا يشرع وجوده في أيام التمحيص وفقدان الإمام. كيف وهو لا يقوم به إلا الأفراد الممحصون، كما عرفنا. إذن، فهذا الجهاد لا يكون إلا نتيجة للتمحيص، فلا يمكن أن يكون مقدمة له وسبباً لوجوده.

وأما العمل العسكري الدفاعي، فهو بوجوبه على غير الممحصين الواعين، يعطيهم درساً قاسياً في تحمل الضرر من اجل الإسلام، والتضحية في سبيل الله... ويربيهم عن طريق هذه التجربة تربية صالحة. من حيث ان فكرة

وجوب حفظ بيضة الإسلام واصل كيانه، واضحة في أذهانهم.

كما انه يكون محكاً لامتحان الآخرين الذين يتخاذلون عن الدفاع عن الإسلام ويعطون الدنية من أنفسهم للمستعمر الدخيل، أو يحاربون تحت شعارات لا إسلامية... فيفشلون في التمحيص الإلهي فشلاً مؤسفاً ذريعاً.

فإن أفاد الدفاع وانحسر المد الكافر، فقد انتصرت التضحية في سبيل الله تعالى، وتكلل العمل الإسلامي الكبير بالنجاح. وإن خسرت الأمة ذلك وسقطت بيد المستعمر الدخيل، بدأت سلسلة جديدة من حوادث التمحيص والاختبار الإلهي، التي تتمثل بما يقوم به المستعمر من ظلم وتعسف وما يدسه من تيار فكري ونظام اقتصادي غريب عن الإسلام. وما يكون لأفراد الأمة من ردود فعل تجاه هذا الظلم الجديد. فقد ينجح في التمحيص أقوام وقد يفشل آخرون. طبقاً للقانون العام...

وعلى أي حال، فالعمل الاجتماعي الإسلامي بقسميه الرئيسيين: الجهاد والأمر بالمعروف، مشاركة فعالة في التخطيط والتمحيص الإلهيين. وهما المحك لفشل أعداد كثيرة من المسلمين يتخلفون عن هذا الواجب المقدس وتتقاعس عنه، فتفشل في الامتحان وتخرج عن غربال التمحيص... فتبوء بالذل والخسران.

وأما العزلة، فإن كانت تتضمن تركاً للعمل الاجتماعي الواجب في الإسلام، فهي العصيان والانحراف بعينه. وبها يثبت فشل الفرد في الامتحان الإلهي.

وأما إذا كانت العزلة، منسجمة مع التعاليم الإسلامية، واجبة أو جائزة... فتكون داخلة ضمن التخطيط الإلهي لا محالة، باعتبار ان إدخالها في التشريع

يراد به جعلها مشاركة في تنفيذ هذا التخطيط الكبير. وتكون مشاركة الفرد فيها منتجة لعدة نتائج مقترنة مترابطة.

النتيجة الأولى:

انسجام عمل الفرد مع متطلبات التخطيط الإلهي ومصالحه. فإن العزلة إنما شرعت لمصالح تعود إلى هذا التخطيط، فيكون امتثال المكلف لوجوبها مشاركة حقيقية، فيما يراد إنتاجه من المصالح في إيجاد شرط الظهور.

بخلاف ما لو لم يعتزل، كما لو جاهد بغير إذن الإمام أو أمر بالمعروف مع احتمال الهلاك، فإنه يكون من الفاشلين في التمحيص، فيسقط رقمه من المخلصين الممحصين. . . من حيث أراد العمل الإسلامي.

النتيجة الثانية:

النجاح في التمحيص، فإن المعتزل للعمل حين يراد منه الاعتزال، يكون قائماً بوظيفته العادلة الكاملة، ويكون ذلك سبباً لنجاحه في التمحيص، من حيث كونه صابراً على البلاء محتسباً عظيم العناء.

لكننا يجب أن نلاحظ في هذا الصدد نقطتين مقترنتين:

الملاحظة الأولى:

ان العزلة وإن كانت مطابقة للتعاليم والتخطيطات الإلهية عند مطلوبيتها، إلا أن أثرها في إيجاد الإخلاص العالي والوعي العميق في نفس الفرد، لا ينبغي أن يكون مبالغاً فيه. فإن العزلة، على أي حال، تعني السلبية والانسحاب، والسلبية - في الأعم الأغلب- تعني الراحة والاستقرار. ومن الواضح جداً أن الفرد لا يتكامل إخلاصه ووعيه الإسلامي، إلا بالعمل

والتضحية ومواجهة الصعوبات، لا بالراحة والاستقرار. أو على الأقل، سيكون تكامل الفرد في حال السلبية أبطأ منه في حال العمل... في الأعم الأغلب.

ومن هنا نرى الإسلام يمزج في تشريعه بين العزلة حيناً والعمل أحياناً. لكي تكون إطاعة المكلف على طول الخط سبباً لتمحيصه... عاملاً أو معتزلاً. فإن العزلة مع استشعار كونها طاعة لله ومع استعداد الفرد في أي وقت للتضحية والفداء... تشارك مشاركة فعالة في نجاح الفرد في التمحيص.

الملاحظة الثانية:

ان العزلة عند مطلوبيتها، تكون منتجة للتمحيص بالنسبة إلى الفرد المنعزل خاصة دون غيره. بخلاف العمل، حين يكون مطلوباً، فإنه ينتج تمحيص الفرد القائم بالعمل وغيره.

ومن هذا - الفرق إلى الفرق بين المفهومين، في أنفسهما، فإن العمل حيث يعني الاتصال بالغير بنحو أو بآخر، فإنه يجعل كلا الطرفين تحت التمحيص، ليرى من يحسن السلوك فينجح ومن يسيئوه فيفشل.

وأما العزلة، فحيث أنها لا تتضمن طرفا آخر، بل تقتضي الابتعاد عن الغير، في حدودها، فلا تكون منتجة للتمحيص إلا للفرد المعتزل نفسه.

النتيجة الثالثة:

حفظ النفس عن القتل من دون مبرر مشروع. كالذي يحدث فيما لو جاهد في مورد النهي الشرعي عن الجهاد، أو أمر بالمعروف في مورد الضرر البليغ... أو تابع المنحرفين فادى به انحرافه إلى القتل... أو غير ذلك.

ومن المعلوم ما في حفظ النفس من الأهمية، لا باعتبار أصل تشريعه،

وإن كان مهماً جداً، بل باعتبار دخله في التخطيط الإلهي لليوم الموعود. فإن قوانين التمحيص إنما تكون مطبقة في العالم عند وجود الأفراد وقيامهم بالسلوك المعين الذي يربيهم ويحملهم على التكامل. وأما إذا أهلك الفرد أو عدد من الأفراد أنفسهم في غير الطريق الصحيح، فمضافاً إلى انهم سيبوءون بالفشل في التمحيص، فانهم يتسببون إلى قلة الأفراد الممحصين، ومن ثم الناجحين في التمحيص منهم.

إذن، فلا بد من الحفاظ على النفس، لكي تتعرض للتمحيص، فلعلها تكون من الناجحين، وتشارك في إيجاد شرط الظهور.

وهذا هو المفهوم الواعي والغرض الأعمق للتقية الواجبة، المنصوص عليها في القرآن وفي اخبار أهل البيت عليهم السلام. وسنعرف عنها بعض التفصيل في النقطة الثالثة الآتية.

* * *

وبهذا استطعنا أن نلم بمفهوم العزلة ونتائجه. وعرفنا ان المراد منها ليس هو الانصراف التام عن المجتمع والاعتكاف في الزوايا... كيف وان العمل الاجتماعي قد يكون واجباً في الإسلام، فتكون هذه العزلة من المحرمات.

بل المراد منها اعتزال العمل الاجتماعي غير الواجب أو العمل المحرم. والعزلة في موارد مطلوبيتها تشارك في المنهج العام للتخطيط الإلهي لإيجاد شرط الظهور. كما سبق أن فصلنا.

وعلى أي حال، فالاندفاع في أي من المسلكين: العمل والعزلة، إلى نهاية الشوط غير صحيح، وإنما الصحيح هو قصر السلوك على مقتضيات العدل ومتطلبات الإسلام فإن كان العمل واجباً كان على الفرد أن يعمل وإن

كانت العزلة واجبة كان على الفرد أن يعتزل، ليكون بهذا السلوك ناجحاً في التمحيص محققاً في نفسه شرط الظهور.

وبهذا انتهى الكلام في النقطة الثانية، فيما تقتضيه القواعد العامة من الالتزام بالجهاد أو بالعزلة.

النقطة الثالثة:

فيما دلت عليه الاخبار الخاصة من التكليف خلال الغيبة الكبرى، تجاه ما يكون فيها من الانحرافات وأنواع الظلم والفساد. وأكثرها - كما اشرنا فيما سبق- دال على لزوم العزلة والابتعاد عن الناس وترك الأقوال والنشاط على المستوى الاجتماعي. وسنرى فيما يلي مقدار مطابقتها للقواعد العامة التي عرفناها. فإن استطعنا ان نفهم لها وجهاً صحيحاً منسجماً مع ما سبق أخذنا بها، وإلا اضطررنا إلى ترك الرواية المخالفة للقواعد، وخاصة بعد التشدد السندي الذي التزمناه.

وهذه الاخبار ذات مضامين ومداليل مختلفة، فنقسمها بهذا الاعتبار إلى أقسام:

القسم الأول:

في الفتنة التي فيها القاعد خير من القائم.

اخرج الصحيحان[(١)] بلفظ واحد عن رسول اللهﷺ أنه قال: ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي. من تشرف لها تستشرفه. ومن وجد فيها ملجأً فليعذ به. وذكر كل من

(١) انظر البخاري، ج ٩، ص٩٤. ومسلم، ج ٨، ص١٦٨.

الشيخين لها أكثر من سند واحد.

واخرج مسلم[١] عنه ﷺ: انها ستكون فتن. ألا ثم تكون فتنة القاعد فيها خير من الماشي فيها والماشي فيها خير من الساعي إليها. ألا فإذا نزلت أو وقعت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كان له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه... الحديث. وذكر له سندين.

وقد اخرج غيرهما من أصحاب الصحاح، هذا المضمون، غير اننا ذكرنا اننا نقتصر عليهما فيما اخرجاه. وهو مضمون اقتصر إخراجه على مصادر اخواننا أهل السنة، ولم نجد في المصادر الإمامية له ذكراً.

ولفهم هذه الأخبار أطروحتان، بعد العلم ان الفتن قد يراد بها التمحيص والاختيار، وقد يراد بها النتيجة السيئة للتمحيص اعني الكفر والانحراف. وكلاهما من معانيها اللغوية. وقد جاء طبقاً للمعنى الأول قوله تعالى: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾[٢] وقوله: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾[٣]. وطبقاً للمعنى الثاني قوله تعالى: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[٤]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾[٥].

ولكن المعنى الأول، غير مراد من هذه الروايات جزماً، إذ لا معنى للتخلص والانعزال عن التمحيص، بعد كونه قانوناً منطبقاً على كل البشر، في التخطيط الإلهي. فيتعين ان يراد بالفتن المعنى الثاني، وهو الكفر والانحراف.

---

(١) ج ٨، ص١٦٩.

(٢) طه: ٤٠

(٣) ص: ٢٤.

(٤) المائدة: ٤٩.

(٥) البروج: ١٠.

وطبقاً لهذا المعنى يكون في فهم هذه الروايات أطروحتان:

الأطروحة الأولى:

ان النبيﷺ يشير إلى زمان مستقبل بالنسبة إلى عصره، تحدث فيه الفتن. وينصح المسلمين بالانصراف عنها والانعزال عن تيارها والقعود عن العمل معها أو ضدها... بل اللازم هو اللجوء إلى ملجأ أو الخروج إلى البوادي والأطراف هرباً من التدخل في الفتنة.

وإذا صحت هذه الأطروحة، تكون هذه الأخبار، موافقة للقواعد العامة التي عرفناها عند وجوب العزلة، ومخالفة لها عند وجوب العمل والجهاد، حيث نرى هذه الأخبار تأمر بالعزلة على كل حال.

الأطروحة الثانية:

ان النبيﷺ يشير إلى الفتن نفسها، بقوله: ستكون فتن. لا انه يشير إلى الزمان الذي تقع فيه، كما هو الوجه في الأطروحة الأولى. فإنه لا ذكر للزمان في هذه الروايات أصلاً. فيكون المراد: ان القاعد عن تأجيج الفتن وإثارتها والمشاركة فيها خير من القائم والقائم خير من الساعي. فإن المشاركة فيها، كلما كانت اقل، كان أفضل.

ومعه يكون مضمونها صحيحاً ومطابقاً للقواعد. فإن المشاركة في الفتنة مستلزم للانحراف والفساد لا محالة، وهو مما لا يرضاه النبيﷺ لأمته، وينصح بالتجنب عنه. وهذه في غاية الوضوح. ومعه تخرج هذه الروايات عن كونها آمرة بالعزلة. وإنما هي تأمر بالانعزال عن الفتن لا عن العمل ضدها. بل قد يقال: أن فيها دلالة على جواز العمل ضد الفتن بل على وجوبه. فإن هذا العمل قد يكون هو الملجأ الوحيد للتخلص من الفتن. وقد أمرﷺ أن: (من وجد فيها ملجأ فليعذ به).

وعلى هذه الأطروحة عدة قرائن مرجحة لها من عبائر هذه الأحاديث الشريفة:

القرينة الأولى:

قوله ﷺ: من تشرف لها تستشرفه.

فإن المراد ان من تعرض للفتن أثرت الفتن عليه وجرفته بتيارها. يقال: تشرف للشيء إذا تطلع إليه. واستشرف: انتصب. ومن المعلوم ان الغالب من أفراد الأمة، ممن لا عمق له في التفكير، ولا دقة في النظر، بمجرد اطلاعهم على المذاهب والفلسفات اللاإسلامية، تنتصب هذه المذاهب في أذهانهم، بمعنى أنهم يرون لها هيبة وهيمنة، ويكونون في طريق الاعتراف بها والتصديق بمضمونها... فيؤدي ذلك بهم إلى الانحراف عن الإسلام.

وأما العمل الذي يعطي للفرد والآخرين المناعة عن الفتن والفرصة الكافية للاضطهاد ومناقشتها، فهو من أعظم الأعمال الإسلامية، ومما لا تنفيه هذه الروايات، طبقا لهذه الأطروحة.

القرينة الثانية:

قوله: الساعي إليها.

فإن السعي إليها متضمن للتعرض لها والسير في ركابها. ومنه نعرف ان المراد مما سبقه من القيام في الفتنة والمشي فيها هو ذلك أيضاً. ومعه لا يكون لها إي تعرض للنهي عن العمل ضدها أصلاً.

القرينة الثالثة:

قوله: من وجد فيها ملجأ فليعذ به، بعد أن تفهم أن (في) بمعنى (من)

فكأنه قال: من وجد منها. ولا شك ان المراد هو ذلك على أي حال.

والوجه في هذه القرينة: ان الملجأ لا ينبغي أن نفهم منه خصوص المكان المنزوي أو البعيد، بل نفهم منه كل منقذ من الفتنة وما هو مبعد عنها. ومن المعلوم ان الارتباط بأهل الحق، واتخاذ العمل الإسلامي، خير ملجأ ضد تيارات الفتن والانحراف.

نعم، لو انحصر حال الفرد في النجاة من الفتنة أن يفر عنها ويبتعد منها، وجب عليه ذلك، بأن يلحق بالأرياف إذا كان له فيها غنم أو إبل! بتعبير الرواية.

ولعل سبب التركيز على هذا الشكل من السلوك، في هذه الأحاديث. هو ان اغلب أفراد الأمة الإسلامية في اغلب عصور الغيبة الكبرى، جاهلون بتفاصيل الشرع الإسلامي وعدم العمق فيه عمقاً يعطي المناعة الكافية عن الانحراف والتأثر بالمبادئ الغريبة والآراء المريبة. إذن، يكون الواجب على الفرد إذ يشعر بمسؤولية صيانة نفسه من ذلك كله... أن يعتزل المجتمع ويضحي بالغالي والنفيس في سبيل دينه... وإن ألقى به الاعتزال في الريف. وهذا حكم صحيح على القاعدة، كما ذكرنا في الصورة الرابعة للعزلة.

وهذا لا يعني، ان الفرد المسلم الذي يجد من نفسه قوة في الصمود وقابلية على مجابهة التيار الظالم، يجب عليه أيضاً أن يعتزل. كلا. بل يجب عليه أن يعمل وأن يخطط لأجل إعلاء كلمة الله وترسيخ الفهم الإسلامي في نفوس الآخرين.

القسم الثاني:

ما دل من الأخبار على عدم المشاركة في القتل، بل تحمله من الغير، وإن

كان قاتلاً ظالماً.

اخرج ابن ماجة[١] وأبو داود[٢] عن أبي ذر، بلفظ متقارب واللفظ لابن ماجة في حديث قال: قلت: يا رسول الله، أفلا آخذ بسيفي فاضرب به من فعل ذلك؟ قال: شاركت القوم إذن! ولكن ادخل بيتك. قلت يا رسول الله، فإن دخل بيتي؟ قال: إن خشيت أن يبهرك شعاع السيف فألق طرف ردائك على وجهك، فيبوء بإثمه وإثمك، فيكون من أصحاب النار.

واخرجا[٣] أيضاً بلفظ متقارب واللفظ لابن ماجة، قوله في حديث عن الفتن: فكسروا قسيكم وقطعوا أوتاركم واضربوا بسيوفكم الحجارة. فإن دخل على أحدكم، فليكن كخير ابني آدم.

واخرج الترمذي[٤] في حديث بنفس المضمون قال: افرأيت ان دخل على بيتي وبسط يده ليقتلني؟ قال: كن كابن آدم.

وفي هذه الأحاديث إشارة واضحة إلى قوله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥].

لم نجد هذا المضمون، في الصحيحين، ولا في اخبار المصادر الإمامية.

---

(١) ج ٢، ص١٣٠٨.

(٢) ج ٢، ص٤١٧.

(٣) ابن ماجة، ج ٢، ص١٣١٠، وأبو داود، ج ٢، ص٤١٦.

(٤) ج ٣، ص٣٢٩.

(٥) المائدة: ٢٧ - ٢٩.

والمدلول العام لهذه الروايات، هو وقوع القتال في داخل المجتمع المسلم بعد رسول الله ﷺ نتيجة للفتن والانحراف. فيكون من وظيفة الفرد المسلم يومئذ، عدم المشاركة في القتال إلى جنب أي من الفريقين. بل يجب عليه أن يعتزل ويدخل بيته. فإن دخل عليه المقاتلون في جوف بيته، وجب عليه أن يستسلم للقتل من دون مقاومة. ويكون حاله حال المقتول من ابني آدم الذي لم يبسط يده لقتل أخيه. وقد مدحه الله تعالى في محكم الكتاب.

إلا أنه لا بد لنا من رفض هذا المضمون جملة وتفصيلاً، لمعارضته لضرورة الشرع والعقل.

فإن الفرد المسلم إذا رأى الحرب قائمة في المجتمع المسلم بين فئتين مسلمتين... فإن حاله من حيث الاقتناع الوجداني النابع مما يعرفه من قواعد الإسلام العامة، لا يخلو عن احد أمرين لا ثالث لهما:

الأمر الأول:

أن يعلم ان أحد الفريقين إلى جانب الحق والآخر إلى جانب الباطل. كما لو كان الرئيس الشرعي للدولة الإسلامية، يحارب فئة باغية عليه منحرفة عنه... ففي مثل ذلك يجب على المكلف الانضمام إلى طرف الحق ضد الباطل. طبقا لقوله عز من قائل: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾[1]. وإنما يتحقق البغي فيما إذا كان أحد الطرفين المتحاربين يستهدف هدفاً باطلاً. ومن ضرورة الشرع والعقل وجوب محاربة الباطل وحرمة نصرته.

(١) الحجرات: ٩.

الأمر الثاني:

أن يعلم الفرد ان الحق مجانباً لكلا الفريقين، وأن كليهما ينصر مذهباً باطلاً ويدافع عن هدف منحرف، أو - على الأقل- يشك في ذلك ويحتمله احتمالا. وفي مثل ذلك لا يجوز له نصرة أي من الفريقين، كما هو واضح. فإن نصرة أي منهما نصرة للانحراف والضلال، يقيناً أو احتمالاً... وكلاهما محرم في الإسلام.

ومدلول هذه الروايات، من حيث وجوب الاعتزال عن كلا الفريقين، لو حمل على ذلك بالخصوص، لكان أمراً صحيحاً. ولعل هذا هو مراد النبي ﷺ من قوله: شاركت القوم إذن. يعني في الباطل والانحراف. إلا ان شمول الرواية لصورة الأمر الأول يبقى نافذ المفعول، وهو أمر غير صحيح.

كما ان الأمر بتحمل القتل لو دخل عليه في بيته، أمر لا يمكن قبوله، لأنه مخالف لضرورة العقل والشرع معاً في وجوب الدفاع عن النفس، وفي كون المستسلم للقتل قاتل لنفسه، في الحقيقة، فيبوء بإثم نفسه، لا ان القاتل يبوء بالاثمين معاً. ويكون كلاهما مشمولاً لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[1]. أما إثم القاتل لمباشرته القتل. وأما المقتول فلأنه سبب إلى قتل نفسه.

وقد يخطر في الذهن: ان الفرد إذا كان أعزل عن الأسلحة تماماً، يكون الدفاع متعذراً عليه. ومعه يكون الأمر بتحمل القتل منطقياً بالنسبة إليه.

وجوابه: ان هذا صحيح بالنسبة إلى الأعزل، لكنه غير صحيح بالنسبة إلى

(١) النساء: ٩٣.

هذه الروايات، فإنها واردة في غير العزّل، تأمرهم أن يكسروا قسيهم ويقطعوا أوتارهم وأن يضربوا بسيوفهم الحجارة. فإذا تلفت أسلحتهم وجب عليهم تحمل القتل طواعية... وهذا مضمون مستنكر في العقل والشرع... تعلم بعدم صدوره عن النبيﷺ.

وأما ما ورد في اخبار الفريقين من انه إذا التقى المسلمان بسيفيهما، فالقاتل والمقتول في النار، فهو خاص بغير الدفاع عن النفس جزماً. فإنه إذا كان الفرد مدافعاً عن نفسه يكون محقاً وبحربه عادلا بضرورة العقل والشرع.

ومن هنا نعلم سلامة موقف (ابن آدم) المقتول. فإنه لا دلالة في الآية على انه لم يدافع عن نفسه، وإن لم يكن في نيته ان يقتل أخاه. وإنما سيطر عليه أخوه بقوته فقتله. بخلاف ما تدل عليه هذه الروايات، من السلبية المطلقة حتى عن الدفاع عن النفس.

إذن، فلا سبيل إلى الأخذ بهذا القسم الثاني من الروايات. وخاصة طبقاً للتشدد السندي الذي مشينا عليه.

ويكفينا أن نعرف أن كثيراً من الأخبار وضعت ودست في أخبار الإسلام، نصرة للجهاز الحاكم المنحرف، الذي كان يحاول أن يسبغ صفة الشرعية على تصرفاته، فيمنع من مجابهة ظلمه ومقابلته بالسيف، لكي تستقيم له الحال، ويهدأ منه البال، منطلقاً من أمثال هذه الأخبار.

القسم الثالث: في الأمر بلزوم البيت.

لم نجد هذا المضمون في الصحيحين، ولكن اخرج أبو داود[1] - في

---

(١) ج ٢، ص ٤١٧.

حديث عن الفتنة- عن رسول الله ﷺ. . . قالوا: فما تأمرنا؟ قال: كونوا احلاس بيوتكم.

واخرج ابن ماجة[1] عنه ﷺ أنه قال: انها ستكون فتنة وفرقة واختلاف، فإذا كان كذلك، فأت بسيفك أحداً، فاضربه حتى ينقطع. ثم اجلس في بيتك حتى تأتيك يد خاطئة أو منية قاضية. وصحح سنده.

واخرج الصدوق في إكمال الدين[2] عن الإمام الباقر عليه السلام حين يسأله الراوي: فما أفضل ما يستعمله المؤمن في ذلك الزمان - يعني زمان الغيبة- قال: حفظ اللسان ولزوم البيت.

واخرج النعماني[3] في الغيبة عن الإمام الباقر عليه السلام - في حديث- قال: وإذا كان ذلك، فكونوا احلاس بيوتكم.

واخرج الشيخ في غيبته[4] عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: فإذا كان ذلك فألزموا احلاس بيوتكم، حتى يظهر الطاهر بن الطاهر المطهر ذو الغيبة.

والمراد من هذه الرواية، كسابقاتها، لزوم البيت، يقال حلس وتحلس بالمكان لزق. ويقال: فلان حلس بيته أي ملازق لا يبرحه. وأُحُد وهو الجبل المعروف قرب المدينة المنورة. والمراد يضرب السيف بعد إتلاف السلاح وكسره.

فيكون المراد الانعزال والابتعاد عن المجتمع الذي تسوده الفتنة، فيشمل

---

(١) ج ٢، ص١٣١٠.

(٢) انظر المخطوط.

(٣) ص١٠٢.

(٤) ص١٠٣.

ما إذا اتصل الفرد به لأجل إصلاحه وتقويمه. ويكون ذلك منهياً عنه في هذه الروايات، خلافاً للحكم الشرعي الإسلامي وقواعده العامة، إلا أن تُحمل على خصوص بعض مبررات العزلة التي ذكرناها، كما لو خاف على نفسه من الانحراف أو غير ذلك.

القسم الرابع: الفرار من الفتن:

اخرج البخاري في موضعين من صحيحه[١] عن أبي سعيد الخدري عن النبيﷺ يقول: يأتي على الناس زمان خير مال الرجل المسلم الغنم يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر، يفر بدينه من الفتن. وأخرجه أبو داود[٢] وابن ماجة[٣] بنصه.

واخرج ابن ماجة[٤]: تكون فتن، على أبوابها دعاة إلى النار. فأن تموت وأنت عاض على جذع شجرة خير لك من ان تتبع واحداً منهم.

وشعف الجبال رؤوسها، وجذع الشجرة أصلها. والمراد من العض عليه زيادة ملازمته والالتصاق به... وفيه دلالة على الخروج إلى الأرياف والأطراف... يسكن الفرد البساتين ويجاور الأشجار أو قمم الجبال، لينجو من مجاورة الفتن وإتباع دعاة الباطل.

وهذه الروايات، وإن كانت بسعة مدلولها، مخالفة للقواعد العامة التي عرفناها، إلا أنه بالإمكان تقييدها كما عملنا في سابقاتها، فتبقى خاصة بصورة وجوب العزلة والسلبية شرعاً... وأما مع حرمتها، يكون الواجب هو العمل

(١) انظر ج ٨، ص١٢٩، وج ٩، ص٦٦.

(٢) ج ٢، ص٤١٨.

(٣) ج٢، ص١٣١٧.

(٤) ج٢، ص١٣١٨، وانظر نحوه في صحيح مسلم، ج ٦، ص٢٠.

الإسلامي الاجتماعي المنتج. وفي هذا القسم من الاخبار ما يؤيد هذا التقييد، حيث نجدها تحث على الجهاد إلى جنب النصح بالفرار من الفتن. بل تخص وجوب الفرار بالعاجز عن الجهاد، ويكون للجهاد الرتبة المقدمة على غيره، كما هو الصحيح في قواعد الإسلام العامة.

اخرج ابن ماجة[١]: ان النبي ﷺ قال: خير معايش الناس لهم، رجل ممسك بعنان فرسه في سبيل الله، ويطير على متنه، كلما سمع هيعة أو قزعة طار عليه إليها، يبتغي الموت أو القتل، مظانه. ورجل في غنيمة في رأس شعفة من هذه الشعاف، أو بطن واد من هذه الأودية، يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعبد ربه، حتى يأتيه اليقين. ليس من الناس إلا في خير.

واخرج أيضاً[٢] عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: أي الناس أفضل؟ قال: رجل مجاهد في سبيل الله بنفسه وماله. قال: ثم من؟ قال: ثم امرؤ في شعب من الشعاب، يعبد الله عز وجل، ويدع الناس من شره.

وللترمذي[٣] حديث آخر بهذا المضمون.

إذن، فالتكليف الإسلامي في عهد الفتن والانحراف، منقسم إلى قسمين، لا ثالث لهما. فإن المسلم الشاعر بالمسؤولية تجاه دينه... أما أن يكون قادراً على الجهاد أو العمل المنتج لتقويم المعوج والكفكفة من التيارات الكافرة. وأما أن لا يكون قادراً على ذلك. فإن كان قادراً على العمل وجب عليه ذلك لا محالة. وإن كان عاجزاً عنه فخير له أن يعتزل الفتنة وأهلها. وأما معايشة

---

(١) ج ٢، ص١٣١٦.

(٢) ج ٢، ص١٣١٧.

(٣) ج ٣، ص٣٢٠.

المنحرفين مع الضعف في الإيمان والإرادة، فتؤدي إلى ما لا يحمد عقباه في الدين والدنيا... كما هو واضح ومعاش للناس يومياً.

القسم الخامس:

الأمر بالصبر، مع بيان صعوبة تحققه للمسلم المخلص، في مجتمع الفتن والانحراف.

اخرج الشيخان[١] عن ابن عباس عن النبيﷺ قال: من رأى من أميره شيئاً يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبراً، فمات إلا مات ميتة جاهلية. وفي نسخة مسلم: فميتة جاهلية.

واخرجا[٢] عن رسول اللهﷺ: إنكم ستلقون بعدي أَثرة فاصبروا حتى تلقوني- وزاد مسلم -: على الحوض.

واخرج مسلم[٣] عن حذيفة بن اليمان في حديث له مع رسول اللهﷺ قالﷺ: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي. وسيقوم فيهم رجال قلوبهم قلوب الشياطين في جثمان إنس. قال: قلت: كيف اصنع يا رسول الله إن أدركت ذلك؟. قال: تسمع وتطيع للأمير، وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك. فاسمع وأطع.

وأخرجت جملة من الصحاح الأخرى مثل هذا المضمون، ولكننا نقتصر على ما أخرجه الشيخان، فيما أخرجاه.

---

(١) البخاري، ج ٩، ص٥٩، ومسلم، ج ٦، ص٢١.
(٢) البخاري، ج ٩، ص٦٠، ومسلم، ج ٦، ص١٩.
(٣) ج ٦، ص٢٠.

فهذه هي الأخبار التي تأمر بالصبر. واما الأخبار الدالة على صعوبة الصبر:

فما أخرجه أبو داود[١] عن المقداد بن الأسود، قال: ايم الله لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول: ان السعيد لمن جنب الفتن. وان السعيد لمن جنب الفتن. ان السعيد لمن جنب الفتن. ولمن ابتلي فصبر فواها.

وما رواه النعماني في الغيبة[٢] عن الإمام الباقر عليه السلام في حديث: ولا والله لا يكون الذي تمدون إليه أعناقكم إلا بعد إياس.

وعنه عليه السلام في حديث[٣] عما يصيب الناس الشر قبل خروج المهدي عليه السلام، قال: فخروجه إذا خرج يكون عند اليأس والقنوط.

وروى الصدوق[٤] عن منصور قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا منصور ان هذا الأمر، لا يأتيكم إلا بعد يأس... الرواية.

وأخرج ابن ماجة[٥] عن النبي ﷺ قوله: حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأي برأيه، ورأيت أمراً لا يدان لك به، فعليك خويصة نفسك. فإن من ورائكم أيام الصبر فيهن على مثل قبض على الجمر... الحديث.

واخرج الترمذي[٦] عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: يأتي

---

(١) ج ٢، ص٤١٧.
(٢) ص١١١.
(٣) غيبة النعماني، ص١٣٥.
(٤) إكمال الدين المخطوط.
(٥) ج ٢، ص١٣٣١.
(٦) ج ٣، ص ٣٥٩.

على الناس زمان الصابر على دينه، كالقابض على الجمر.

ويقع الكلام في هذا القسم من الأخبار، ضمن أمرين:

الأمر الأول:

ان الأمر بالصبر مع الحاكم المنحرف وتحمل ظلمه وتعسفه بالسكوت، غير مطابق للقاعدة الإسلامية، والأخبار الدالة عليه لا يمكن قبولها بحال. وذلك: لأنها تعاني من الطعن في صدورها عن النبيﷺ وفي دلالتها على المطلوب أيضاً.

أما الطعن في الصدور، فهو وضوح ان هذه الأحاديث تتم في مصلحة الحكام الذين تزعموا على الأمة الإسلامية باسم الإسلام واستبزوا منها دماءها وخيراتها... فقد أرادوا بوضع هذه الأحاديث أن يأمروا المسلمين بالرضوخ لهم والصبر على جورهم، وينسبوا ذلك إلى رسول اللهﷺ.

فإن قال قائل: كيف تكون هذه الاخبار موضوعة، مع انها تندد بهؤلاء الحكام، وتصفهم بالفضائح.

أقول: لا تنافي بين الأمرين، انطلاقاً من إحدى زوايا ثلاث:

الزاوية الأولى:

أن يكون وصف الحكام صحيحاً صادراً عن النبيﷺ، وهو لشهرته، لم يستطيعوا مكابرته وإنكاره. وإنما أضافوا عليه وجوب الطاعة للحاكم المنحرف. فأصبح بعض الرواية صحيحاً وبعضها مدسوساً. وهذا هو المظنون بالظن الغالب.

الزاوية الثانية:

ان الحكام استطاعوا في هذه الروايات أن يعرضوا أضخم صورة للظلم

(وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك) وزعموا ان الطاعة تكون واجبة بالرغم من ذلك. إذن، فكيف الحال في الظلم الأخف من ذلك؟... ان الطاعة ستكون ألزم على الفرد بطبيعة الحال. إذن، فليس هناك صورة من صور الظلم إلا وتجب فيه الطاعة، للحاكم المنحرف.

الزاوية الثالثة:

ان الظلم في العصور المتأخرة عن صدر الإسلام كان واضحاً جداً لا يمكن مكابرته، ومن هنا لم يكن هناك أي غضاضة أو كشف لسر غامض حين صرح الحكام بذلك. وإنما صرحوا به استطراقاً إلى غرضهم من ذلك وهو إثبات الأمر بالطاعة منسوباً إلى رسول الله ﷺ.

وأما الطعن في دلالة هذه الأخبار، فهو معارضتها بأخبار أخرى رواها الشيخان في الصحيحين، تدل خلاف مضامينها، وتكون اقرب إلى القواعد الإسلامية العامة.

اخرج الشيخان حديثا[1] بلفظ متقارب واللفظ للبخاري عن عبد الله بن عمر عن النبي ﷺ أنه قال: السمع والطاعة على المرء المسلم، فيما أحب وكره، ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية، فلا سمع ولا طاعة.

واخرج مسلم[2] عنه ﷺ: إنما الطاعة في المعروف.

واخرج أيضاً[3] عن عبد الله بن عمرو بن العاص في حديث عن معاوية. قال: فسكت ساعة... ثم قال: أطعه في طاعة الله واعصه في معصية الله. إلى

(١) البخاري، ج ٩، ص٧٨. ومسلم، ج ٦، ص١٥.
(٢) ج ٦، ص١٦.
(٣) ج ٦، ص١٨.

غير ذلك من الأخبار.

إذن، فتكون هذه الأخبار قرينة على تقييد تلك الأخبار بما إذا لم يأمر الحاكم بمعصية الله أو يشرع قانوناً منحرفاً، أو يؤسس عقيدة باطلة، فإن فعل شيئاً من ذلك فلا طاعة له. ومن المعلوم ان تقديم الخاص على العام من أوضح ما تقتضيه القواعد العامة.

غير ان هذا التقييد، ينتج وجوب طاعة الحاكم المنحرف، إذا أمر بطاعة الله عز وجل. وهو حكم غير صحيح في شريعة الإسلام، فإن وجوب الطاعة خاص بالحاكم الشرعي العادل. وعلى ذلك يمكن حمل بعض هذه الأخبار السابقة... مع طرح ما خالف القواعد العامة منها.

هذا. وأما الأخبار الدالة على صعوبة الصبر في مجتمع الفتن والانحراف، فهو أمر صحيح واضح... إذ ما ظنك بفرد صادق بين كاذبين وأمين بين خائنين، ومسالم بين معتدين.. كذلك يكون حال المؤمن بين المنحرفين. وهذا هو طبع التمحيص والتخطيط الإلهي على طول خط الغيبة الكبرى.

الأمر الثاني:

إن الأخبار الدالة على وجود اليأس والقنوط، ذات مضمون صحيح، ومطابق للتمحيص.

فإن طول عصر الغيبة بنفسه حلقة من حلقات التمحيص الإلهي. إذ يزداد فيها الظلم، حتى يكتسب الهيبة النفسية على ضعاف النفوس والإرادة، فيظنون قدراً حتمياً ووضعاً أبدياً.. فيحصل لديهم اليأس والقنوط.

كما ان امتداد غيبة الإمام المهدي عليه السلام سوف تنكشف في الضمائر المهلهلة والعقائد المادية عن الشك أو الإنكار.

وحيث يكون ضعف النفوس، هو الغالب في كل جيل إذن، فسيكون الاتجاه العام للمجتمع، لدى الفاشلين في التمحيص الإلهي، وهم الأغلب من البشر، كما عرفنا، سيكون هو اليأس والقنوط، كما نطقت به هذه الروايات.

القسم السادس:

الأمر بكف اللسان في الفتنة.

سمعنا ما أخرجه الصدوق في إكمال الدين عن الإمام الباقر(عليه السلام) في أفضل ما يستعمله المؤمن في ذلك الزمان - يعني زمان الغيبة- قال: حفظ اللسان ولزوم البيت.

واخرج أبو داود[١] عن رسول الله(صلى الله عليه وآله) قال: ستكون فتنة صماء بكماء عمياء[٢] من اشرف لها استشرفت له. وإشراف اللسان فيها كوقوع السيف.

واخرج الترمذي: تكون فتنة... اللسان فيها أشد من السيف[٣] وأخرجه ابن ماجة أيضاً[٤] كلاهما عن عبد الله بن عمرو عن رسول الله(صلى الله عليه وآله).

واخرج ابن ماجة[٥] عنه(صلى الله عليه وآله): إياكم والفتن. فإن اللسان فيها مثل وقع السيف.

---

(١) ج ٢، ص٤١٧.

(٢) وصف الفتنة بهذه الأوصاف بأوصاف أصحابها، أي لا يسمع فيها الحق ولا ينطق به ولا يتضح الباطل عن الحق. هامش السنن.

(٣) ج ٣، ص٣٢٠.

(٤) ج ٢، ص١٣١٢.

(٥) المصدر والصفحة.

ولفهم هذا القسم من الأخبار أطروحتان:

الأطروحة الأولى:

ان المراد كف اللسان والاجتناب عن الكلام، في عصر الفتنة، سواء فيما يذكي أوار الفتنة أو فيما يضادها، ويكفكف من جماحها ويخفف من ضررها. وهذا هو المفهوم من الإطلاق وسعة المدلول في هذه الأخبار، وخاصة الخبر الأول منها.

وإذا كان هذا هو المفهوم، فلا بد من تقييده، بمقتضى القواعد العامة، التي تبرر العزلة والسكوت أحياناً وتوجب العمل الاجتماعي تارة أخرى. فيختص وجوب السكوت، بترك الكلام الذي يكون مشاركة في الفتنة وإذكاء لأوارها. ويبقى الكلام المضاد للفتنة مسكوتاً عنه في هذه الروايات، نعرف أحكامه من الأدلة الأخرى في الإسلام.

الأطروحة الثانية:

أن يكون المراد: وجوب كف اللسان عن المشاركة في الفتنة نفسها. فإن هذه المشاركة من أشد أشكال الانحراف، ومستلزم للفشل في التمحيص الإلهي لا محالة. ومعه تبقى المشاركة بالقول والعمل في إزالة الفتنة أو تخفيف شرها، أو مناقشة اتجاهاتها، واجبة في الإسلام، طبقاً للقواعد العامة التي عرفناها. من دون أن تدل هذه الروايات على نفيه.

وتؤكد هذه الأطروحة قرينتان:

القرينة الأولى:

تشبيه اللسان بالسيف، في الروايات. ومن المعلوم ان استعمال السيف

بالشكل المستنكر المحرم في عصر الفتنة. انما هو فيما يوجب تأييدها وتشديدها، لا فيما يكون ضدها، مع اجتماع الشرائط. ومعه يكون استعمال اللسان بالشكل المحرم خاصاً بذلك أيضاً.

ولعل المراد من هذا التشبيه: هو استعمال اللسان في خضم الفتنة موجب - في نهاية الشوط - لهلاك الكثيرين عقائدياً أو حياتياً، فيكون فعل اللسان كفعل السيف من هذه الجهة. ومن المعلوم إسلامياً: ان الكلام الذي يوجب الهلاك هو الكلام الذي يتضمن تأييد الفتنة والسير مع ركب الانحراف. واما الكلام الذي يراد به إطفاء الفتنة ومناقشة الآراء المنحرفة، ونحو ذلك، ففيه سعادة الدارين وعز النشأتين ومواكبة العدل الإسلامي الصحيح، فلا يمكن ان يقال عنه: انه موجب للهلاك.

فنعرف من قرينة التشبيه في هذه الأخبار، أن المراد هو السكوت عن الكلام الذي يكون إلى جانب الفتنة.

القرينة الثانية:

الأخبار الأخرى الواردة في هذا الباب، الدالة على ان المراد من حفظ اللسان ترك الكلام السيء الموجب لعصيان الله تعالى وغضبه... وهو معنى ما قلناه من انه يوجب المشاركة في تأييد الفتنة والانحراف. ومعه يبقى الكلام ضد الفتنة جائزاً بل واجباً في الإسلام.

اخرج ابن ماجة[1] عن رسول الله ﷺ أنه قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيراً أو ليسكت. وعنه ﷺ أيضاً: ان الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يرى بها بأساً. فيهوى بها في نار جهنم سبعين خريفاً. وفي

(١) ج ٢، ص١٣١٣.

حديث آخر أيضاً: وان أحدكم ليتكلم بالكلمة من سخط الله، ما يظن تبلغ ما بلغت، فيكتب الله عز وجل عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه.

• • •

القسم السابع:

الأمر بالتقية في عصر الغيبة الكبرى.

وهذا المضمون مما اقتصرت عليه اخبار الإمامية، دون غيرهم.

فقد اخرج الصدوق في إكمال الدين[١] والشيخ الحر في وسائل الشيعة[٢] والطبرسي في إعلام الورى[٣] عن الإمام الرضا عليه السلام، أنه قال: لا دين لمن لا ورع له، ولا إيمان لمن لا تقية له. وان أكرمكم عند الله أعلمكم بالتقية قيل: يا ابن رسول الله، إلى متى؟. قال: إلى قيام القائم، فمن ترك التقية قبل خروج قائمنا، فليس منا... الحديث.

وفي الوسائل[٤] عن معمر بن قلاد، قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن القيام للولاة. فقال: قال أبو جعفر عليه السلام: التقية ديني ودين أبائي، ولا إيمان لمن لا تقية له.

وعن أبي عمر الأعجمي قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: يا أبا عمر، إن تسعة أعشار الدين في التقية، ولا دين لمن لا تقية له.

---

(١) انظر المصدر المخطوط.

(٢) ج ٢، ص٥٤٥.

(٣) ص٤٠٨.

(٤) انظر الاخبار، الثلاثة الآتية في الوسائل، ج٢، ص٥٤٤.

وعن أبي عبد الله أنه قال: كان أبي يقول: وأي شيء اقر لعيني من التقية؟ ان التقية جُنَّةُ المؤمن!.

ومن طرائف ما ورد في التفسير[١] ما روي عن جابر عن أبي عبد الله عليه السلام. قال: اجعل بيننا وبينهم سداً، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً. قال هو التقية.

وعن المفضل[٢] قال سألت الصادق عليه السلام عن قوله تعالى: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾. قال: التقية. ﴿فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾. قال: إذا عملت بالتقية لم يقدروا لك على حيلة، وهو الحصن الحصين. وصار بينك وبين أعداء الله سد لا يستطيعون له نقباً. قال: وسألته عن قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾. قال: رفع التقية عند الكشف، فانتقم من أعداء الله.

أقول: المراد بالكشف ظهور المهدي عليه السلام في اليوم الموعود.

إلى غير ذلك من الأخبار، وهي من الكثرة إلى حد الاستفاضة بل التواتر.

ومدلولها الإسلامي الصحيح أمران مستشرفان:

الأمر الأول:

المحافظة على النفس من الاضرار التي لا مبرر لتحملها شرعاً... ابتداء بالقتل وانتهاء بما دونه. لا حرصاً على الحياة، بل لأجل الحفاظ على المعتقدين بالحق الواقعي من المسلمين. والحد من نقصان عددهم بالقتل الذي

---

(١) المصدر السابق، ص٥٤٥.

(٢) المصدر السابق، ص٥٤٥.

قد يقع عليهم من قبل المنحرفين الظالمين. . . لو واصلوا الأعمال المثيرة لهم وأعلنوا الجهاد ضدهم.

الأمر الثاني:

إخفاء الأعمال الاجتماعية الصالحة، التي يكون في كشفها نقصان لنتائجها أو اجتثاث لجذورها.

وعن هذا الطريق استطاع الأئمة المعصومون عليهم السلام أن يسندوا الثورات الحاصلة في عصرهم والداعية إلى الرضا من آل محمد صلى الله عليه وآله . . . من دون ان يدعوا أي مجال للآخرين للاطلاع على مستندات هذا الإسناد. كما أشرنا إلى ذلك في التاريخ السابق.

وكلا هذين الأمرين منطلق من منطق عقلائي عام. وهو واضح لدى كل من يعمل عملاً سياسياً أو عقائدياً، أو غيره. اما الأمر الأول: فباعتبار وضوح ان الفرد- مهما كانت عقيدته وعمله- ليس على استعداد أن يضحي بحياته أو بأمنه بلا موجب. أو بموجب ضئيل لا يستحق التضحية. وأما الأمر الثاني: فباعتبار وضوح قيام العقائد في العصر الحديث على الحياة الحزبية، التي يغلب عليها طابع السرية والتكتم. طبقاً لما قلناه من ان كشف حقائقها وتفاصيلها قد يكون سبباً لنقصان نتائجها أو اجتثاث جذورها.

ومن ثم يكون عدم الأخذ بالتقية، مؤدياً - على اقل تقدير- إلى بطء وجود العدد الكافي من المخلصين الممحصين، الذين يشكل وجودهم أحد الشرائط الأساسية للظهور، ليتكفلوا مسؤولية نشر القسط والعدل في العالم تحت قيادة المهدي عليه السلام . فإن من يقوم بالجهاد - عادة- في كل عصر، ليس إلا النخبة من المخلصين الذين يؤمل فيهم وصول التمحيص إلى نتائجه النهائية

الصالحة. فإذا لم يكن الأمر بالتقية موجوداً، لوجبت المبادرة إلى الجهاد، وكان أول المطيعين لهذا الوجوب والمطبقين له، هم المخلصون في كل عصر، ومعه، يتسبب الجهاد إلى استئصالهم أو أكثرهم، مما يؤدي إلى بطء وجود شرط الظهور أو تعذره، فيمتنع تحقق الغرض الإلهي الكبير في هداية العالم.

ولا داعي للاستعجال بالجهاد، فإنه مضافاً إلى عدم تأثيره العاجل بالنحو المطلوب، يكون معيقاً عن إصلاح العالم في اليوم الموعود. وإذا دار الأمر بين الجهاد المستعجل في جزء من العالم وبين الجهاد المؤجل في كل العالم... يكون الثاني هو النافذ طبقاً للتخطيط الإلهي، باعتباره منسجماً مع الهدف الأسمى من خلق البشرية، الذي عرفناه.

فإن قال قائل: إذا جاهد البعض يبقى البعض الآخر من المخلصين، مذخوراً لتحقيق شرط الظهور.

قلنا له: لو لم يكن الأمر بالتقية موجوداً، وكان الأمر بالجهاد نافذاً، لوجب الجهاد على كل المسلمين... ولكان تركه عصياناً منافياً للإخلاص، فيجب على كل المخلصين في العالم التصدي له والقيام به، فيؤدي ذلك - تدريجاً- إلى استئصالهم جميعاً في كل جيل. لما عرفناه من كونهم قلة بإزاء الكثرة الكاثرة من المنحرفين والكافرين. فينتج تعذر وجود شرط الظهور.

إذن، فالمفهوم الواعي الصحيح للتقية، وهو بعينه المفهوم الصحيح الذي استخلصناه من الأمر بالعزلة وكف اللسان الذي استفاضت به أخبار المصادر العامة. وليس أمراً زائداً ولا جديداً بالنسبة إليه ليكون مثاراً للاستنكار والاستغراب من قبل العامة وأهل السنة. فإن الأمر بالعزلة وكف اللسان، مع جعله منسجماً مع القواعد العامة، يكون مؤدياً إلى عين النتيجة التي يؤديها الأمر بالتقية، وهو الحفاظ على المخلصين، لتحقيق شرط الظهور... الحفاظ

عليهم عقائدياً وحياتياً.

فإن قال قائل: ان أهل السنة والجماعة، لا يؤمنون بغيبة المهدي عليه السلام. فكيف يؤمنون بشرط الظهور؟.

قلنا: ان شرط الظهور، إنما خطط الله تعالى لوجوده، باعتبار استهداف نشر القسط والعدل في العالم في اليوم الموعود. سواء كان القائد المهدي عليه السلام غائباً قبل ظهوره أو لم يكن. وتكون فكرة شرط الظهور، من الزاوية غير الإمامية لفهم المهدي، ان الله تعالى قد خطط لليوم الموعود، قبل ولادة المهدي عليه السلام. ثم انه عز وجل سوف يوجد المهدي عليه السلام عند علمه بنجاز الشرائط المطلوبة. إذن، فبقاء المخلصين ذخراً، أمر صحيح من كلتا الزاويتين الإمامية وغيرها، لفهم المهدي عليه السلام.

بل اننا لو تأملنا قليلاً، لوجدنا ان القعود والعزلة وكف اللسان، مساوق مع التقية، من الناحية العملية على طول الخط. فإنه لا يراد من التقية، إلا اتقاء شر الأشرار وتجنب إثارتهم ضد المخلصين وما قد يقومون به من أعمال. إذن، فالتقية لا تتحقق إلا بالقعود عن المجابهة وكف اللسان عن المنحرفين. كما ان القعود وكف اللسان محقق للتقية... إذن، فقد اتفقت أخبار العامة والخاصة على شيء واحد، أو متشابه.

* * *

ومن هذا الذي قلناه، نفهم عدة أمور:

الأمر الأول:

ان العمل الإسلامي الاجتماعي، لكي يكون مواكباً مع التخطيط الإلهي،

يجب أن يتحدد بحدود التعاليم الإسلامية... بدون أن يزيد عليها أو ينقص عنها. ويمثل كل من الزيادة والنقصان انحرافاً عن الشريعة الإسلامية.

أما الزيادة، بمعنى إيجاد العمل الاجتماعي في موارد عدم وجوبه أو عند النهي عنه. فباعتبار كونه موجباً لاستئصال المخلصين، ومعيقاً عن إيجاد شرط الظهور، كما عرفنا. وأما النقصان: بمعنى ترك العمل مع الأمر به في الشريعة، فباعتبار كونه عصياناً وانحرافاً.

ومن ثم يبدو بوضوح: ان الاحتجاج بأخبار التقية وغيرها مما سبق، لإهمال العمل الاجتماعي الإسلامي، وتركه في موارد وجوبه... حجة باطلة، ووجه غير وجيه. حيث عرفنا ان هذه الأخبار، وإن كانت ذات مدلول واسع بطبيعته، إلا أنها مقيدة لا محالة، بقيد موارد وجوب العمل مع اجتماع شرائطه التي عرفناها. إذ مع وجوبه، تكون التقية والعزلة وكف اللسان عصياناً وانحرافاً.

الأمر الثاني:

ان الأمر بالتقية وترك العمل الإسلامي، بالشكل الذي فهمناه... خاص بعصر الغيبة، أو بعصر ما قبل الظهور. لما عرفناه من كونه دخيلاً في تحقيق شرط الظهور. وقد حدد في الخبر السابق عن الإمام الرضا عليه السلام بذلك، حيث قال: إلى قيام القائم، فمن ترك التقية، قبل خروج قائمنا فليس منا.

وأما في عصر ما بعد الظهور، فمن المعلوم لدى كل من يؤمن بالمهدي وباليوم الموعود من المسلمين، بل من سائر الأديان، أن تطبيق العدل في العالم، لا يكون إلا باستعمال السلاح والجهاد وترك مجاملة الكافرين والمنحرفين. ويكون حكم التقية وكف اللسان مرتفعاً. ومن هنا سمعنا

المهدي عليه السلام نفسه، خلال عصر غيبته الصغرى يقول- فيما روي عنه-: والله مولاكم اظهر التقية، فوكلها بي. فأنا في التقية إلى يوم يؤذن لي بالخروج[(١)].

ومن هنا أيضاً عُبِّر في بعض الأخبار عن العصر السابق على الظهور، بعصر الهدنة... كالذي روي عن مسعدة بن صدقة عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، قال: سمعته يقول، وسئل عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أواجب هو على الأمة جميعاً؟ فقال: لا. فقيل له: ولم؟ قال: إنما هو على القوي المطاع العالم بالمعروف من المنكر. إلى أن قال: وليس على من يعلم ذلك في الهدنة من حرج، إذا كان لا قوة له ولا عدد ولا طاعة[(٢)].

وفي خبر آخر: عن حبيب بن بشير عنه عليه السلام، قال: سمعت أبي يقول: لا والله، ما على وجه الأرض شيء أحب إلي من التقية... إلى أن يقول: يا حبيب، ان الناس إنما هم في هدنة... الخبر[(٣)].

وسترتفع هذه الهدنة، مع الكافرين والمنحرفين، مع بزوغ فجر الظهور. ويكون بينهم وبين الإيمان بالحق، حد السيف ووقع السلاح، ومناجزة القتال. وسنسمع تفاصيل ذلك في التاريخ القادم إن شاء الله تعالى.

الأمر الثالث:

ان ما يعتقده الكثيرون من الإمامية وغيرهم، من اختصاص حكم التقية، في اتقائهم أهل المذاهب الإسلامية الأخرى... باطل غاية البطلان. بل الحكم مشترك بين سائر المسلمين، في اتقاء بعضهم شر بعض، وفي اتقائهم

(١) انظر تاريخ الغيبة الصغرى، ص٥٤٠ وغيبة الشيخ الطوسي، ص١٦١.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٢، ص٥٣٤.

(٣) المصدر السابق، ص٥٤٤.

من غير المسلمين، عند عدم وجوب العمل. فإن المحافظة على المخلصين تكون بترك التعرض للقتال، على كلا المستويين، كما هو معلوم. بل ان القتال بين المسلمين لأعظم شراً وأفدح أثراً من القتال مع غيرهم. وحسبنا منه أن نفهم أن وقوعه بين المسلمين، يصدع جمعهم ويشتت شملهم ويطمع بهم عدوهم ويسهل دخول المستعمر إلى بلادهم، كما حدث بالفعل خلال القرون المتأخرة.

فإن قال قائل: إذن، فلماذا ورد الأمر بالتقية في أخبار الإمامية دون غيرهم. قلنا: ان المضمون الواعي الصحيح متحصل من أخبار كلا الفريقين. وإنما هو اختلاف في الاصطلاح، فقد اصطلح عليه كل فريق باسم مستقل، فسمي في أخبار الإمامية بالتقية، وسمي في مصادر أهل السنة بالعزلة. إذن، فلم يختص الإمامية برواية المضمون، وإن اختصوا بالاصطلاح.

فإن قال قائل: إن بعض الأخبار طبقت وجوب التقية، على اتقاء الإمامية من غيرهم من المسلمين. وهو يدل على اختصاص هذا الحكم بخصوص هذا المورد، ويكون قرينة على ان المراد من كل أخبار التقية هو ذلك؟.

قلنا له: صحيح، ان هذا التطبيق موجود في اخبار الإمامية ووارد عن الأئمة عليهم السلام. ولكنه من باب تطبيق الحكم العام على بعض موارده... باعتبار اقتضاء المصلحة له في عصر الأئمة عليهم السلام. لأجل ما كانت تعيشه قواعدهم الشعبية من اضطهاد وتعسف من قبل الحكام في ذلك الحين. فكان الأئمة عليهم السلام، لأجل أن يضمنوا من أصحابهم عدم التسرع والتطرف في رد الفعل تجاه ذلك، مما قد يسبب الوصول إلى نتائج وخيمة هم في غنى عنها... فكان الأئمة عليهم السلام يذكرون حكم التقية مطبقاً على هذا المورد المشار إليه. ومعه لا تكون هذه الأخبار قرينة على الاختصاص.

وإن أوضح دليل، على شمول حكم التقية لجميع المسلمين من ناحية، وان الطرف المتقى منه قد يكون من غير المسلمين أيضاً، من ناحية أخرى... قوله عز من قائل: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً﴾[1]. حيث دلت على جواز تقية المسلمين من الكافرين. وقصة عمار بن ياسر رضوان الله عليه، مع المشركين في ذلك معروفة مشهورة، وإنما كانوا يحملونه على البراءة من الإسلام، لا من مذهب معين!!. هذا، وشمول الحكم القرآني، لجميع المسلمين، يعتبر من ضروريات الدين.

الأمر الرابع:

في فهم اخبار التقية، بمفرداتها وتفاصيلها. على ضوء ما أسلفناه من الفهم العام. ويكون ذلك ضمن فقرات:

الفقرة الأولى:

(ان التقية جُنَّة المؤمن) بمعنى انها تستره وتحرسه. والمجن هو الترس الذي يجن صاحبه.

قال عز وجل: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً﴾. وفي الحديث: الصوم جنة[2]. وكله من الحماية والحراسة من الشر باعتبار اللجوء والتستر تحت السبب الموجب للحماية، وهو الترس أو الإيمان أو الصوم.

ومن المعلوم ما للتقية في موارد جوازها أو وجوبها، من اثر بالغ في حماية الفرد عن كيد الأعداء، وانحراف المنحرفين، في العقيدة والحياة

(١) آل عمران: ٢٨.

(٢) مفردات الراغب الاصفهاني، ص٩٨.

والعمل. وليس على الفرد - في سبيل نيل ذلك- إلا أن يسكت عن القول والعمل الذي لا يكون مشروعاً في الإسلام. ومن هنا قال الصادق عليه السلام، فيما سمعناه من الرواية، في تشبيه التقية بالسد الذي بناه ذو القرنين، قال: إذا عملت بالتقية لم يقدروا لك على حيلة. وهو الحصن الحصين. وصار بينك وبين أعداء الله سد لا يستطيعون له نقباً... لأن الفرد إذا اتقاهم لم يستطيعوا أن يجدوا ضده مستمسكاً أو ذريعة لإنزال الشر عليه.

الفقرة الثانية:

(ان من لا تقية له لا دين له) أو لا إيمان له. وان (تسعة أعشار الدين في التقية).

وهذا واضح المقصود بعد الذي عرفناه، من استلزم ترك التقية استئصال المخلصين، من دون مبرر شرعي. فأي دين يمكن أن يبقى لتارك التقية بعد ذلك؟!.

وذلك: اننا لم نفهم من التقية، فيما سبق، إلا ترك المقدار غير المشروع من الجهاد والأمر بالمعروف، مما يؤدي إلى إيقاع الخطر الكبير على المخلصين. وليس لأدلة التقية مؤدى أكثر من ذلك. إذن، فترك التقية يعني ارتكاب العمل غير المشروع. فإذا كان هذا العمل موجباً لهلاك بعض المخلصين، كان محرماً، بل من أشد المحرمات في الشريعة، فيكون فاعله، بعيداً عن الدين والإيمان كل البعد. كما نطقت به الروايات.

وهذا واضح على مستوى سائر الأخبار، سواء منها الواردة عن طريق العامة، أو الواردة عن طريق الخاصة، بعد إعطاء الفهم الموحد السابق لها الذي سمعناه.

الفقرة الثالثة:

قول الإمام الرضا(عليه السلام) - في الرواية-: ان أكرمكم عند الله أعملكم بالتقية. فقد فسر(عليه السلام) قوله تعالى: اتقاكم. بمعنى أعملكم بالتقية وأشدكم تمسكاً بها.

وهذا أيضاً مما لا غبار عليه، بعد الذي عرفناه، وما دلت عليه اللغة من ان اتقاه بمعنى حذره وخافه وتجنبه، أي وقى نفسه وحماها عن شره. ومن هنا كان المتجنب عن عذاب الله تعالى متقياً، والعمل المؤدي إلى النجاة منه تقوى. وكذلك المتجنب من شر الأشرار وكيد المنحرفين يكون متقياً، والفعل المؤدي إلى النجاة منه (تقية).

ومن هنا، يمكن أن نفهم من الآية، الشمول لكلا المعنيين... بعد ان وافقت اللغة على ذلك. فيكون المراد: ان أكرمكم عند الله اتقاكم من الله ومن الناس. وتفسير الإمام الرضا(عليه السلام) لها بأحد القسمين، وهو اتقاء شر الناس، لا يعني اختصاصها به، ليكون أمراً مستغرباً. وإنما ذكر احد القسمين لمصلحة اقتضت ذلك، كمصلحة التوضيح باعتباره معنى خفياً... مع إبقاء القسم الآخر على فهم السامع وحكم اللغة... وهو تقوى الله تعالى.

لكن لا يخفى ان المتقي للناس، العامل بالتقية، انما يكون كريماً عند الله عز وجل، فيما إذا كانت التقية واجبة أو جائزة شرعاً. إذ تكون تقية الناس من تقوى الله عز وجل، وأما في موارد حرمتها، وهي موارد وجوب العمل الإسلامي العام، فالتقية، تكون معصية مبعدة عن الله عز وجل، منافية مع التقوى، بكل تأكيد.

* * *

القسم الثامن:

من الأخبار الدالة على التكليف في عصر الغيبة: ما دل على وجوب الانتظار الفوري، وتوقع الظهور في كل وقت، بالمعنى الذي سبق ان حققناه.

اخرج الطبرسي في الإعلام[١] والكليني في الكافي والصدوق في الإكمال[٢] عن الإمام الصادقعليه السلام في حديث عن الغيبة أنه قال: فعندها توقعوا الفرج صباحاً ومساء.

وقد سبق ان سمعنا ما قاله المهديعليه السلام للشيخ المفيد في رسالته إليه - برواية الطبرسي في الاحتجاج[٣] - من قوله: فليعمل كل إمرء منكم بما يقرب به من محبتنا، ويتجنب ما يدنيه من كراهتنا، وسخطنا، فإن أمرنا بغتة فجأة. الخ الرسالة.

وروي عن الإمام الصادقعليه السلام[٤] أنه قال: وهو يعدد الدين الحق: الورع والعفة والصلاح... إلى قوله: وانتظار الفرج بالصبر.

وعن أمير المؤمنين[٥]: انتظروا الفرج، ولا تيأسوا من روح الله، فإن أحب الأعمال إلى الله عز وجل، انتظار الفرج.

وفي الإكمال[٦] عن النبيصلى الله عليه وآله، قيل له: يا رسول الله، متى يخرج القائم

---

(١) إعلام الورى ، ص٤٠٤.

(٢) انظر المصدرين المخطوطين.

(٣) ج٢، ص ٣٢٤.

(٤) منتخب الأثر، ص٤٩٨.

(٥) نفس المصدر والصفحة.

(٦) انظر المصدر المخطوط.

من ذريتك. فقال: مثله مثل الساعة لا يجليها لوقتها إلا الله عز وجل. لا تأتيكم إلا بغتة.

وفي منتخب الأثر[١] عن إكمال الدين انه اخرج عن الإمام الرضا عليه السلام قوله: ما أحسن الصبر وانتظار الفرج. أما سمعت قول الله عز وجل: ﴿وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ﴾ ﴿فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ فعليكم بالصبر، فإنما يجيء الفرج على اليأس.

واخرج الترمذي[٢] عن أبي الاحوص عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: سلوا الله من فضله، فإن الله يحب أن يُسأل. وأفضل العبادة انتظار الفرج.

وفي الكافي[٣] عن أبي الجارود قال: قلت لأبي جعفر: يا ابن رسول الله، هل تعرف مودتي لكم وانقطاعي إليكم وموالاتي إياكم. قال: فقال: نعم... إلى أن يقول: والله لأعطينك ديني ودين آبائي الذي ندين الله عز وجل به: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله... إلى أن يقول: وانتظار قائمنا والاجتهاد والورع.

وفيه أيضاً عن الإمام الباقر عليه السلام، في ذكر الدين الذي يقبل فيه العمل. قال: شهادة أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له... إلى أن يقول: والورع والتواضع، وانتظار قائمنا. فإن لنا دولة، إذا شاء الله جاء بها.

إلى غير ذلك من الأخبار، وسيأتي فيما سنسمعه من الأخبار الناطقة بفضل

(١) ص٤٩٦.
(٢) ج٥، ص٢٢٥.
(٣) انظر المصدر المخطوط.

الانتظار والمنتظرين، خلال عصر الغيبة، ما يدل على ذلك أيضاً.

وقد سبق أن تكلمنا عن المفهوم الصحيح للانتظار، وها قد سردنا الأخبار الدالة على ذلك. وأما السؤال عن منافاة مفهوم الانتظار مع العلامات المجعولة للظهور، أو عدم منافاتها معه، فقد سبق أن ناقشناه. وسيأتي تفصيل ذلك، في القسم الثالث من هذا التأريخ.

وقد يقول قائل: إن اغلب هذه الأخبار، لم تنص على أن المراد هو انتظار ظهور المهدي عليه السلام أو اليوم الموعود. فلعل المراد هو انتظار الفرج بعد أي شدة.

فنقول في جوابه: انه يمكن الانطلاق إلى إثبات اختصاص هذه الأخبار بانتظار ظهور المهدي عليه السلام من زاويتين:

الزاوية الأولى:

الاستفادة من الأخبار المصرحة بذلك، مما ذكرناه... وجعلها قرينة على أن المراد من الأخبار الأخرى هو ذلك أيضاً.

وليس في ذلك ما ينافي كلا الأطروحتين: الإمامية وغيرها في فهم المهدي عليه السلام. فإن انتظاره على كل حال من أفضل العبادة... سواء كان المهدي عليه السلام موجوداً غائباً أو لم يكن.

الزاوية الثانية:

إن انتظار الفرج الذي يكون مهماً إلى هذا الحد، ومشدداً عليه في لسان المعصومين عليهم السلام بهذا المقدار... حيث نسمع انه أحب الأعمال إلى الله عز وجل، وانه أفضل العبادة، وانه أساس من أسس الدين... هذا لا يمكن ان

يكون انتظار الفرج من مشكلة معينة أو صعوبة فردية. فإن غاية ما يطلب من الفرد إسلامياً خلال المصاعب هو الصبر، وعدم الاعتراض على الله في ذلك. وأما انتظار ارتفاع الصعوبة، فلا يعطي مزية زائدة بحسب ما هو المفهوم من القواعد العامة في الإسلام.

وإنما هذا الانتظار الكبير ليس إلا انتظار اليوم الموعود، باعتبار ما يستتبعه من الشعور بالمسؤولية والنجاح في التمحيص الإلهي، والمشاركة في إيجاد شرط الظهور، في نهاية المطاف... كل ذلك لمن يشعر بهذا الانتظار ويكون على مستوى مسؤوليته، بخلاف من لا يشعر به، بل يبقى على مستوى المصلحة والأنانية... فإنه لن ينال من هذه العبادة الفضلى شيئاً.

ونستطيع بكل وضوح ان نعرف انه لماذا أصبح هذا الانتظار أساساً من أسس الدين... لأنه مشاركة في الغرض الأساسي لإيجاد البشرية، ذلك الغرض الذي شارك فيه ركب الأنبياء والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً.

إذن، فهذه الأخبار، لا يمكن أن يكون لها معنى، إلا المشاركة في هذا الهدف الكبير.

* * *

الجهة الخامسة:

في فضل الانتظار والمنتظرين، خلال عصر الغيبة الكبرى... والصابرين على البأساء والضراء في عهد الفتن والانحراف.

ونتطلق إلى الكلام في ذلك من ناحيتين:

الناحية الأولى:

فيما تقتضيه القواعد العامة الإسلامية من ذلك:

يقوم الفرد المسلم المخلص في عصر الغيبة الكبرى بعدة مهام إسلامية، لها أكبر الفضل وأعظم الأثر في تربية الفرد وتكامله، وقربه من تعاليم ربه ورضاه. ويفضل في ذلك -أحياناً- حتى على عصر النبوة وعصر الظهور. وتتلخص تلك المهام في عدة أمور:

الأمر الأول:

الإيمان بالغيب. فإن الفرد المسلم في هذا العصر، يختلف حاله عن المسلمين في عهد النبي ﷺ من حيث وضوح الاعتقاد بالعقائد الإسلامية، وقربها إلى الحس، طبقاً لما يميل إليه البشر من ميلهم إلى شهادة الحس وانشدادهم إلى الزمان والمكان.

وقد كان هذا موفراً في عهد النبي ﷺ، حين كان هو ﷺ الذي يمارس الدعوة الإسلامية بيده، فتتوفر على يده العديد من المزايا التي لا يمكن أن يوجد مجموعها في أي عصر آخر.

المزية الأولى:

قوة الإقناع الناتجة مما له من الثقافة الإلهية العالية... وما له من الهيبة في نفوس المسلمين.

المزية الثانية:

تلقي الوحي من الله عز وجل، في القرآن وغيره. حتى لكأن الفرد

الاعتيادي آنذاك، يحس بأثر تعاليم الوحي في حياته العملية، وتطبيقها في مجتمعه الذي يعيشه، ويحس بما يستجد من تعاليم وتوجيهات... وبما ينزل من قرآن مبشراً ومنذراً ومعلماً ومهدداً.

المزية الثالثة:

العدل الشامل الذي ساد الدولة الإسلامية في عصرهﷺ... ذلك العدل الذي أعطى الدليل التاريخي الحاسم على مر العصور، والى يوم الظهور الموعود... على نجاح التجربة الإسلامية في مجال التطبيق.

المزية الرابعة:

النصر المؤزر المستمر الذي كان يناله الجيش الإسلامي بقيادتهﷺ، مما لا يمكن أن يخطر على بال، بحسب التخطيطات العسكرية المعروفة يومئذ... بل في كل عصر، مع حفظ النسبة بين الجيشين المتحاربين عدة وعدداً. وذلك نتيجة للتوفيق الإلهي الذي كان يحالفه في غزواته، كما نطق به التنزيل، ودلت عَليه التجربة التاريخية.

المزية الخامسة:

شخصيتهﷺ من حيث كونه المثل الأعلى للخلق الإسلامي الرفيع. فقد طبق على نفسه التعاليم التي جاء بها بدقة وإخلاص، فكان مثلاً يحتذى وقدوة للورى وكمالاً إنسانياً عالياً، حتى نطق التنزيل بالإعجاب به وتأييده بقوله عز من قائل: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾[1].

إلى غير ذلك من المميزات التي لا شك ان لها الأثر البالغ العميق في

---

(١) القلم: ٤.

تقريب الفرد من الإيمان وإيضاحه له وترسيخه في نفسه... حتى انه ليكاد يرى جميع العقائد والمفاهيم التي يبشر بها النبيﷺ حسية جلية واضحة للعيان، بالرغم من كونها أموراً فكرية أو ميتافيزيقية.

ورغم هذا الوضوح، فقد مدح الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[(١)] و﴿ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾[(٢)]، وأثنى عليهم في عدد من مواضيع كتابه الكبير.

وسيتوفر مثل هذا الوضوح، في تطبيق آخر لهذه المميزات العديدة، ما عدا الوحي، في القائد الإسلامي العالمي الجديد، المهديعليه السلام الذي سيتكفل إيضاح الدعوة الإسلامية وتطبيقها على البشر أجمعين.

إلا أن شيئاً من هذه المميزات، لا يكاد يوجد في عصر الغيبة الكبرى، عصر الفتن والانحراف. ومن هنا، كان الإيمان بالعقائد الإسلامية بالنسبة إلى الفرد الاعتيادي، ابعد عن الحس، يحتاج إلى صدر أرحب ووجدان أخصب وتعب في الفحص والتفكير أكثر... خاصة بعد الحكم الإسلامي، وتأكيد القرآن على عدم جواز التقليد في العقيدة، وشجب إتباع الآباء والمربين بدون برهان، بل لا بد للفرد أن يأخذ بزمام عقيدته بنفسه ويؤمن بها عن وعي واقتناع.

ومن المعلوم انه كلما حصل العناء في سبيل العقيدة الإلهية، أكثر، واستلزم الإيمان تضحية أكبر... وكانت النتائج صحيحة صالحة... كان ذلك موجباً للكمال البشري والقرب الإلهي بشكل أكبر وأعظم.

وهذا المعنى بالذات، من جملة حلقات التخطيط الإلهي لتربية الأفراد

---

(١) البقرة: ٣.

(٢) الأنبياء: ٤٩. والملك: ١٢، وفاطر: ١٨.

المخلصين الممحصين في عصر الفتن والانحراف. وسنوضح ذلك بعد قليل.

الأمر الثاني:

مما يقوم به الفرد المخلص في عصر الغيبة: تحمل التضحيات والمشاق في سبيل إيمانه وتمسكه بإسلامه... تلك المشاق التي لم تكن موجودة في عصر النبوة ولن تكون موجودة في عصر الظهور.

فإن المشاق التي تبذل عادة في سبيل العقيدة على قسمين:

القسم الأول:

ما يبذله الفرد عن طواعية واختيار، من خدمات وأتعاب. وهو ما سميناه بالتمحيص الاختياري. وعرفنا أثره الكبير في تكامل الفرد طبقاً لقانون التمحيص العام.

القسم الثاني:

ما يقع على الفرد من الآخرين في المجتمع، من قهر ومطاردة وإيلام، ضد إيمانه وأعماله وعقيدته.

ويختلف هذان القسمان في ثلاثة مستويات رئيسية:

المستوى الأول:

إن القسم الأول مشترك بين عصر النبوة وعصر الغيبة وعصر الظهور. فإن لكل عصر من هذه العصور مشاكله التي تحتاج من المخلصين المبادرة إلى حلها. وحسبنا من ذلك، ان الفرد في عصر النبوة كان يخرج طواعية لينال الشهادة في سبيل الحق والواجب.

ولكن القسم الثاني: غير موجود في المجتمع الذي يحكمه الإسلام، سواء في عصر النبوة أو عصر الظهور... وإنما هو خاص بعصر الفتن والانحراف... هذه العصور التي نعيشها، حيث أصبح المعروف منكراً والمنكر معروفاً، وطورد المخلصون على إخلاصهم وحسن تصرفهم.

المستوى الثاني:

ان القسم الأول من التضحية منسجم مع العقيدة، لا يجد الفرد فيه أي مجابهة لها أو مناقضة لمقتضياتها. باعتبار كون، القيام به مطابقاً مع تعاليمها وفي مصلحة الدعوة إليها والتركيز عليها.

واما القسم الثاني، فهو يتضمن -بشكل مباشر وصريح- مجابهة للعقيدة، وإيقاعاً للظلم على الفرد باعتبار ما يحمله من إيمان وما يقوم من عمل في سبيل الحق.

المستوى الثالث:

إن القسم الثاني أكثر إيلاماً للنفس وأصعب تحملاً للفرد من الأول.

فإن القسم الأول من التضحية، مهما جرَّ من مصاعب والآم، فإنه أمر اختياري للفرد لا يجد فيه أسفاً. وإنما يجد فيه المخلص حلاوة الإيمان ونور العمل الصالح.

وأما القسم الثاني، فيجد فيه الفرد ضغط الاضطرار وقسوة المرارة وضيق الألم... ولولا ثقة الفرد بربه وعقيدته، وقائده المهدي عليه السلام، لكان من الهالكين. وعلى أي حال، فمن الجلي أن تحمل التضحية من كلا القسمين، كما عليه حال العمل العام خلال الغيبة، أصعب منه واعقد من تحمل قسم واحد من العمل. وهذا أيضاً أحد عناصر التمحيص الإلهي وأسبابه، على ما سنذكر.

الأمر الثالث:

صمود الفرد ضد الإغراء، بشكل غير موجود، لا في عصر النبوة ولا في عصر الظهور.

فإن الإغراء الذي قد يواجهه الفرد على قسمين:

القسم الأول:

الإغراء الناتج من مصالحه الشخصية وشهواته النفسية، باعتبار ما للشهوات الغريزية من اندفاع الإشباع، من دون أن تنظر إلى الطرق والوسائل. وقد قيل صدقاً: ان الغرائز لا عقل لها.

القسم الثاني:

الإغراء الناتج من قبل الآخرين، حين يرى الفرد ما لعصر الفتن والانحراف من جمال وحضارة وتنظيم... وما لإتباع تياراته وحكامه من ضمان للمال والشهرة والراحة في الحياة. فيأتي كل ذلك إلى نظر الفرد بهيجاً عظيماً يغويه بالاتجاه نحوه والحصول عليه والعمل على الوصول إليه.

والقسم الأول، مواكب للبشرية على طول وجودها الطويل، ما دام في الإنسان شهوات وما دامت له مصالح خاصة. لا يختلف فيه عصر الغيبة الكبرى عما قبله أو ما بعده. وهذا هو المحك الأساسي للتمحيص العام للبشرية أجمعين.

إلا أن القسم الثاني خاص بعصر الغيبة الكبرى، بصفتها عصر الفتن والانحراف. لوضوح ان المصالح الشخصية التي تقتضي الإغراء بالحصول على القوة والمال، كلها موجهة إلى دولة الحق، عند وجودها في عصر النبوة أو عصر الظهور... بخلافه في عصر الغيبة، فإنها موجهة للحضارة المادية والحكام المنحرفين.

الأمر الرابع:

إيمان الفرد بالمهدي عليه السلام، ويتجلى ما يستلزمه من تضحيات ومصاعب، في مستويات ثلاث:

المستوى الأول:

كونه إيماناً بالغيب... فيلاقي من العقبات ما قلناه في الأمر الأول، سواء كان باعتبار الإيمان باليوم الموعود، الذي يطبق الله تعالى أطروحته الكاملة على البشر. أو باعتبار الإيمان بالمهدي عليه السلام على الخصوص كقائد لذلك اليوم الموعود. أو باعتبار الإيمان فعلاً بوجود المهدي عليه السلام وغيبته... على الاختلاف بين الناس في هذه العقائد الثلاث. فإن الإيمان بأي واحدة منها إيمان بالغيب، فضلاً عن الإيمان بها جميعاً، طبقاً للفهم الإمامي للمهدي عليه السلام. فإنها جميعاً خارجة عن الحس الاعتيادي. إلا لأولئك الخاصة الذين شاهدوا المهدي عليه السلام على وجه التعيين. وقليل ما هم.

المستوى الثاني:

استلزام طول مدة الغيبة وتماديها، بحسب الذهنية الاعتيادية للبشر، فيما شاهدوا من مقادير عمر الإنسان، استلزامه لاستبعاد وجود المهدي عليه السلام خلال هذه المدة، وترجيح موته أو عدم ولادته. كيف وهو المذخور لنشر العدل ورفع الظلم، فلماذا لا يخرج لنشره وهو يرى الظلم المتفاقم على وجه الأرض. وقد أسلفنا الجواب على مثل هذه الأسئلة، فلا نعيد.

المستوى الثالث:

ما يستلزمه الإيمان بوجود المهدي عليه السلام وعلمه بأعمال الناس ومشاهدته للمجتمع عن كثب حال غيبته... من شعور الفرد بالمسؤولية المضاعفة،

بالتركيز على العمل الصالح على الصعيدين الشخصي والاجتماعي، ليكون عند حسن ظن قائده به وثقة إمامه.

ومن الواضح، ان الإيمان بالغيبة، وما تتضمنه من مصاعب، غير موجود، لا في عصر النبوة، ولا في عصر الظهور.

إذن، فهذه أمور أربعة، تمثل المسؤوليات المهمة والتضحيات الكبرى التي يجب على الفرد المسلم القيام بها خلال الغيبة الكبرى. وهي التي -بمجموعها- جعلت هذه الفترة من عمر البشرية الطويل، أصعب الفترات، من حيث تأكد التمحيص وعمق الامتحان. والتي جعلت الفوز فيه بالشكل الكامل الشامل، قليلاً ومحتاجاً إلى زمان طويل وتربية مستمرة، سواء على مستوى الفرد، أو على مستوى الأمة جميعاً.

كل ذلك، ليتحقق الضمان الأكيد في الحصول على جماعة من الصامدين ضد كل هذه المصاعب، الناذرين أنفسهم في سبيل ربهم وعقيدتهم على كل حال، لا تأخذهم في الله لومة لائم... ليكونوا هم أعوان المهدي عليه السلام في نشر القسط والعدل على وجه البسيطة في اليوم الموعود... وبغير هذا المستوى من الإخلاص، لن يمكن تحقيق الحكم العالمي العادل، بأي حال من الأحوال.

فهذا هو الكلام في الناحية الأولى، في ما تقتضيه القواعد العامة من فضل الإخلاص والمخلصين خلال عصر الفتن والانحراف، بشكل يفوق غيره من العصور.

الناحية الثانية:

فيما نطقت به الأخبار من فضل المؤمنين المخلصين المضحين في سبيل الله في عصر الفتن والانحراف... المنتظرين لليوم الموعود،

فيما قبل الظهور.

اخرج مسلم[١] والترمذي[٢] وابن ماجة[٣] عن النبي ﷺ أنه قال: العبادة في الهرج كهجرة اليَّ.

والفهم الواعي الصحيح لهذا الحديث الشريف، يتوقف على تقديم عدة مقدمات:

المقدمة الأولى:

إن المراد بالهرج، وهو الفتن والانحراف الذي يقع في عصر الغيبة الكبرى. باعتبار ما نطقت به أخبار الفريقين ومصادر العامة على وجه الخصوص، من وقوع الهرج والقتل والفتن خلال هذا العصر. فإن هذه الأخبار، تكون قرينة تدلنا على ان المراد بالهرج في هذا الحديث هو عصر الهرج والفتن، لا نفس الهرج، وهو القتل.

المقدمة الثانية:

يراد بالهجرة إلى النبي ﷺ: الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام. وهو في واقعه أساس الأعمال الإسلامية جميعاً ومبدؤها الذي تنطلق منه، لأنه تعبير آخر عن اعتناق الإسلام نفسه.

المقدمة الثالثة:

قد عرفنا ما تقتضيه القواعد من ان الإيمان والعمل الإسلامي، كلما واجه

---

(١) جـ ٨، ص٢٠٨.

(٢) جـ ٣، ص٣٣٢.

(٣) جـ ٢، ص١٣١٩.

من العقبات أكثر واحتاج من التضحيات إلى عدد أكبر، كان مقرباً إلى الله تعالى بشكل أعمق وموجباً لتكامل الفرد بنحو أسرع.

المقدمة الرابعة:

يراد بالعبادة، معناها العام، لا خصوص الصلاة والصوم، وإن كانت هذه من أقدس أشكال العبادات، بل يراد كل عمل مطلوب في الإسلام يحققه الفرد امتثالاً للأمر الإلهي، وتطبيقاً لتعاليم الإسلام. فتشمل العبادة بهذا المفهوم سائر الأعمال الإسلامية، الفردية منها والاجتماعية، كما سبق ان حملنا عن ذلك فكرة كافية... وحققناه مفصلاً في بحث متكامل عن المفهوم الواعي للعبادة في الإسلام.

إذن ينتج من هذه المقدمات الأربع: ان مراد النبيﷺ من حديثه هذا هو:

إن العمل الإسلامي في سبيل الله بمختلف مستوياته، مما يقع في عصر الهرج والفتن والانحراف له من الفضل عند الله وعند رسوله، كفضل اعتناق الإسلام نفسه.

وليس ذلك بالعجيب، بعد الذي سمعناه من الأخبار ورأيناه بالعيان، من مجابهة الفتن والانحراف، للعقيدة والمعتقدين، وقهرهم على ترك الإيمان والخروج عن طاعة الله عز وجل، بمختلف وسائل الظلم والإغراء... إذن، فتكون المحافظة على العقيدة والبقاء على السلوك الصالح، من الأهمية كالدخول في الإسلام لأول مرة، وليت شعري، قد يكون البقاء على العمل الصالح مستلزماً للتضحية والمتاعب أكثر مما يستلزمه اعتناق الإسلام لأول مرة.

واخرج ابن ماجة[١] والترمذي[٢] في حديث عن رسول الله ﷺ قد سبق ان سمعنا قسما منه، أنه قال: فإن من ورائكم أيام الصبر. الصبر فيهن على مثل قبض على الجمر. للعامل فيهن اجر خمسين رجلاً يعملون بعمله.

فالعمل الواحد المتشابه، يتضاعف فضله وأجره، بتضاعف التضحية في سبيل تحقيقه. حتى إذا ما وصلت التضحية إلى أوجها، وكان التمسك بالدين كالقبض على الجمر في الشدة والبلاء، وصل الفضل والأجر إلى أوجه أيضاً... وكان العمل الواحد، من الرجل الواحد، في مثل هذا الظرف، معادلاً لعمل خمسين عامل مثله، في حال الرخاء والدعة.

ورقم الخمسين، بطبيعة الحال، لا يراد به التحديد، بل هو لمجرد المبالغة والتكثير، كقوله تعالى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾[٣]. فلا ينافي القول بأن فضل الفرد الصابر المجاهد قد يفوق عمل غيره بأضعاف هذا المقدار، بازدياد ما يتحمل من المحن والآلام.

وروى الكليني في الكافي[٤] بسنده إلى عمار الساباطي. قال قلت لأبي عبد الله عليه السلام: أيما أفضل العبادة في السر مع الإمام منكم المستتر في دولة الباطل، أو العبادة في ظهور الحق ودولته[٥] مع الإمام منكم الظاهر.

فقال: يا عمار: الصدقة في السر أفضل من الصدقة في العلانية. وكذلك - والله- عبادتكم في السر مع إمامكم المستتر في دولة الباطل وحال الهدنة،

---

(١) جـ ٢، ص١٣٣١.

(٢) جـ ٢، ص٤٣٧.

(٣) التوبة ٨٠.

(٤) انظر المصدر المخطوط.

(٥) في المصدر المخطوط: ودولة. والظاهر انه تحريف.

أفضل ممن يعبد الله عز ذكره، في ظهور الحق مع إمام الحق الظاهر في دولة الحق. وليست العبادة مع الخوف في دولة الباطل مثل العبادة والأمن في دولة الحق...

إلى أن يقول: قلت: قدر الله رغبتي في العمل وحثتني عليه. ولكن أحب أن اعلم كيف صرنا نحن اليوم أفضل أعمالاً من أصحاب الإمام الظاهر منكم في دولة الحق، ونحن على دين واحد.

فقال: إنكم سبقتموهم إلى الدخول في دين الله عز وجل، والى الصلاة والصوم والحج، وإلى كل خير وفقه، وإلى عبادة الله عز ذكره سراً من عدوكم مع إمامكم المستتر، مطيعين له صابرين معه منتظرين لدولة الحق، خائفين على إمامكم وأنفسكم من الملوك الظلمة... مع الصبر على دينكم وعبادتكم وطاعة إمامكم والخوف من عدوكم. فبذلك ضاعف الله عز وجل الأعمال، فهنيئاً لكم.

قلت: جعلت فداك، فما ترى إذن أن نكون من أصحاب القائم، ويظهر الحق. ونحن اليوم في إمامتك وطاعتك، أفضل أعمالاً من أصحاب دولة الحق والعدل.

فقال: سبحان الله. أما تحبون أن يظهر الله تبارك وتعالى الحق والعدل في البلاد، ويجمع الكلمة ويؤلف الله بين قلوب مختلفة، ولا يعصون الله عز وجل في أرضه وتقام حدوده في خلقه، ويرد الله الحق إلى أهله، فيظهر حتى لا يختفي شيء من الحق، مخافة أحد من الخلق[1]. أما والله يا عمار، لا يموت منكم ميت على الحال التي أنتم عليها، إلا كان أفضل عند الله من كثير من

(١) في المصدر المخطوط : مخافة أحد من أحد من الحق. وهو تحريف، يرجح أن يكون صحيحة ما أثبتناه.

شهداء بدر وأُحُد. فأبشروا.

ودلالة هذه الرواية على تفضيل العبادة والعابدين والصبر والصابرين، خلال عهود الظلم والانحراف، على العبادة في عهود الراحة والرخاء، ذلك الرخاء الناتج عن حصول دولة الحق بقيادة الإمام المهدي عليه السلام وتطبيقه للأطروحة العادلة الكاملة على العالم. دلالة هذه الرواية على ذلك، أوضح من أن يخفى أو أن يكون محلاً للمناقشة.

ولكننا من اجل تجلية الموقف، نود التعرض إلى نقطتين:

النقطة الأولى:

انه قد اشترط الإمام الصادق عليه السلام، في هذه الرواية، في تحديد فضل الصابرين... بأن يكونوا مع إمامهم المستتر. يعني: المستتر بإمامته، لا يباشر الحكم. فقد يقول قائل: اننا الآن في عصر الغيبة الكبرى لسنا مع إمام ظاهر، ولا مع إمام مستتر- بذلك المعنى- فلا يكون لمخلصنا من الفضل ما وصف في هذه الرواية.

ويجاب عن ذلك، على مستويين:

المستوى الأول:

اننا بالفعل مع إمام مستتر، طبقاً للمفهوم الإمامي، الذي انطلقت منه هذه الرواية... ولسنا محرومين من هذه المزية لكي لا يشملنا الفضل الموصوف في الرواية. فإن المهم هو كون الفرد موافقاً مع الإمام إيماناً وعقيدة. وتستطيع أنت أن تضيف إلى ذلك - إن رغبت-: كونه معاصراً له في الزمان. وكلا هذين الأمرين متوافران لدى من يعتقد بالغيبة. فإنه يعتقد أنه على طول الخط

معاصراً زماناً مع إمامه المهدي عليه السلام، ومتفق معه في العقيدة والإيمان. وأما كون الإمام معروفاً بالشخص فهذا ليس له أي دخل في صدق كون الفرد معه، كما هو واضح.

وبتعبير أدق: ان المهم الذي أكدت عليه الرواية، هو كون الإمام مستتر بإمامته خوفاً من الظالمين. وكون الفرد مطيعاً له عقيدة وسلوكاً. وهذا بنفسه متوفر في عصر الغيبة، بالنسبة إلى الفرد المخلص، كما كان متوفراً في عصر الأئمة عليهم السلام. فإن كلا العصرين، هما من عصور الفتن والانحراف وانحسار الحق واستتار الإمام. ولا يبقى لمعروفية الإمام بشخصه دخل مهم من هذه الجهة.

المستوى الثاني:

اننا نفترض- جدلاً- ان وجود الغيبة يمنع من كوننا مع الإمام. أو نجر الكلام إلى من لا يقول بالغيبة أصلاً. ولكن مع ذلك نقول بشمول الفضل الموصوف في الرواية، للمخلصين الموجودين خلال عصر الفتن والانحراف.

فإن ما هو المدار في ثبوت الفضل، وما هو الأساس في التمحيص الإلهي، على ما عرفنا، إنما هو الخوف، من الظلم والصمود ضد كيد الأعداء وضد مطاردة المنحرفين... فإن العمل والعبادة خلال الخوف، أفضل وأعلى في درجات الكمال، من العمل في عصور الاطمئنان والرخاء. وهذا الجو العاصف موجود في القرون المتأخرة، كما هو موجود في عصر الأئمة المعصومين عليهم السلام بدون فرق. فإن كلا العصرين، من عصور الفتن والانحراف.

ويزداد الخوف وتكاثر المصاعب ضد المخلصين، في العصور المتأخرة عن عصر الأئمة عليهم السلام من عدة نواحٍ:

الأولى: ان الحكم في ذلك العصر، مهما كان مصلحياً ومنحرفاً، كان

يقوم باسم الإسلام، وعلى أساس تطبيقه. على حين لا نجد اليوم على وجه الأرض حاكماً على الإطلاق يمثل هذا الاتجاه. بعد ان اتجهت أساليب الحكم إلى المادية والعلمانية.

الثانية: ان التنظيم العام الذي تقوم عليه الدولة في ذلك العصر، كان ابسط بكثير مما تقوم عليه الدول الآن. من جهات عديدة جداً. في الجهاز العسكري وجهاز الشرطة ونوع الأسلحة وشكل الحكم وأسلوب التجسس والمطاردة، وتنظيم الدولة، والأحزاب والتكتلات... إلى غير ذلك.

الثالثة: انه في ذلك العصر، كانت تغزو المجتمع تيارات الحادية وأساليب هدامة، إلا انها كانت ضعيفة، مرفوضة من قبل الرأي العام المسلم ومطاردة من قبل السلطات الحاكمة. وأما التيارات الإلحادية ونحوها، اليوم، فهي مدعمة بتفكير المفكرين وتأليف المؤلفين، ووسائل الإعلام العالمية، ومدعمة أيضاً بالتأييد المطلق من قبل كثير من الدول، تبذل عليها الميزانيات الطائلة والأساليب الهائلة. وتطارد من يعارضها ويدعو الناس إلى رفضها والتوجه إلى الحق، المتمثل بالإسلام وتعاليم الله عز وجل.

ومن هنا نفهم ان الظلم فيما بعد عصر الأئمة عليهم السلام أشد وأوكد، والتمحيص الإلهي اعقد. فإذا كان لأصحاب الأئمة عليهم السلام، من الفضل ما ذكرته الرواية، فهو أوكد وأعمق في حق المخلصين المتأخرين عن ذلك العصر. وكلما تعقد التمحيص وصعب، كان الفضل عند الله أكثر والكمال المحرز في الإيمان والإخلاص أكبر.

النقطة الثانية:

قول الإمام الصادق عليه السلام - بحسب الرواية-: لا يموت منكم ميت على

الحال الذي أنتم عليها، إلا كان أفضل عند الله من كثير من شهداء بدر وأُحُد. فأبشروا.

وهذا واضح وصحيح، بعد أن نلاحظ أمرين مما قلناه:

الأمر الأول:

ما قلناه، من أفضلية الممحصين الكاملين الصالحين لقيادة العالم بين يدي المهدي عليه السلام. من الأعم الأغلب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. كما سبق أن برهنا عليه.

الأمر الثاني:

ما قلناه قبل قليل، من أفضلية من يعيش في عصر الغيبة عمن يعيش في غيره من العصور، ولو اثبت الفرد الجدارة والصمود ضد الظلم والانحراف.

فإن قال قائل: انهم قد استشهدوا في سبيل الله تعالى دوننا، فيجب أن يكونوا أفضل منا.

قلنا: كلا. فإن الشهادة التي نالها الأغلب في بدر وأُحُد، كانت باعتبار الاندفاع الثوري والوهج العاطفي الحراري الذي أوجده رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في مجتمعه. كما سبق ان عرفنا. ومثل هذا العمل وإن كان يمثل نجاحاً كبيراً في التمحيص الاختياري، إلا أنه لا يمكن أن يكون سبباً لتربية الفرد وتكامله، ودقة تمحيصه... فإن ذلك ما يحتاج إلى زمان طويل وتسلسل تدريجي بطيء، وتكامل متواصل... ولا يمكن للفرد أن يقفز دفعة واحدة إلى الكمال، مهما كانت الظروف التي عاشها صعبة ومتعبة.

ومثل هذه التربية البطيئة، يمر بها الفرد المسلم بل الأجيال المسلمة في

عصر الغيبة الكبرى، بشكل أطول وآكد بكثير مما مر به أصحاب رسول الله ﷺ خلال عقدين من الزمن. وستنتج نتائج أوسع وأعمق وذات مستويات أكبر مما نتج بالنسبة إلى الأغلب ممن عاصر النبي ﷺ. كما استطعنا أن نبين خطوطه العريضة فيما سبق من البحوث.

وبذلك نستطيع أن نفهم سائر الروايات الواردة في فضل الصامدين على الحق المنتظرين لليوم الموعود.

منها: ما رواه الصدوق في الإكمال[1] عن الإمام الحسين بن علي عليه السلام، أنه قال- في كلام له عن المهدي عليه السلام-: له غيبة يرتد فيها أقوام، ويثبت على الدين فيها آخرون. ويقال لهم: متى هذا الوعد إن كنتم صادقين. أما إن الصابر في غيبته على الأذى والتكذيب بمنزلة المجاهد بالسيف بين يدي رسول الله وآله الطاهرين الأخيار.

وما أخرجه البرقي في المحاسن[2] عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: من مات منكم على أمرنا هذا فهو بمنزلة من ضرب فسطاطه إلى رواق القائم، بل بمنزلة من يضرب معه بالسيف، بل بمنزلة من استشهد معه، بل بمنزلة من استشهد مع رسول الله ﷺ.

واخرج أيضاً[3]: من مات منكم على هذا الأمر منتظراً له، كان كمن كان في فسطاط القائم عليه السلام. وعن الإمام الباقر عليه السلام - في ضمن حديث - أنه قال: القائل منكم: إن أدركت القائم من آل محمد نصرته، كالمقارع معه بسيفه... الحديث.

---

(١) انظر المصدر المخطوط.

(٢) جـ ٢، ص١٧٢.

(٣) المصدر والصفحة وكذلك الخبر الذي يليه.

بل ان الممحصين الكاملين لأعظم حتى من هذه الدرجة كما تدل عليه روايات أخرى:

منها: ما رواه الصدوق في إكمال الدين[١] أيضاً عن الإمام علي بن الحسين عليه السلام في حديث له عن المهدي عليه السلام: ان أهل زمان غيبته القائلين بإمامته المنتظرين لظهوره، أفضل من أهل كل زمان، لأن الله تبارك وتعالى أعطاهم من العقول والإفهام والمعرفة ما صارت به الغيبة عندهم بمنزلة العيان، وجعلهم في ذلك الزمان بمنزلة المجاهدين بين يدي رسول الله بالسيف. أولئك المخلصون حقاً... والدعاة إلى دين الله سراً وجهراً.

وما رواه الشيخ في الغيبة[٢] عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: سيأتي قوم من بعدكم، الرجل الواحد منهم له أجر خمسين منكم. قالوا: يا رسول الله، نحن كنا معك ببدر وأُحُد وحنين وانزل فينا القرآن. فقال: إنكم لو تحملون لما حملوا لم تصبروا صبرهم.

إذن، فهؤلاء الممحصون الكاملون، أفضل من عامة المعاصرين للنبي صلى الله عليه وآله. والسر فيه ما قلناه من فجاجة أولئك من حيث التمحيص، وعمق هؤلاء. والشخص الفج لا يتحمل التمحيص العميق بطبيعته، وهو معنى قوله: إنكم لو تحملون لما حملوا، لم تصبروا صبرهم.

ونود أن نعلق على هذه الأخبار الأخيرة بنقطتين:

النقطة الأولى:

أن التعبير بالفسطاط وبالسيف، إنما جاء في هذه الروايات، مماشاة مع ما

(١) انظر المصدر المخطوط.

(٢) انظر ص٢٧٥ وأخرجه في الخرايج، ص١٩٥.

يعرفه الناس في عصر صدور هذه الروايات. وقد سبق ان قلنا في أول القسم الثاني من هذا التاريخ، اننا يجب ان نبحث عن مصاديق جديدة لمثل هذه التعبيرات، مناسبة للعصر الذي تتحدث عنه. فيكون المراد بالسيف سلاح الإمام المهدي عليه السلام وبالفسطاط مقره أو عاصمته أو نحوها.

ومن المحتمل أن يكون المراد بالفسطاط المدرسة الفكرية، بحسب ما نصطلح عليه اليوم أو المبدأ المستلزم لاتجاه فكري وسلوكي خاص في الحياة.

والقرينة على ذلك، ما رواه أبو داود[1] عن رسول الله صلى الله عليه وآله في حديث له عن الفتنة، قال: يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافراً، حتى يصير الناس إلى فسطاطين: فسطاط إيمان لا نفاق فيه. وفسطاط نفاق لا إيمان فيه... الحديث. فإن المراد منه - بكل وضوح - المدرستين الفكريتين أو المبدأين العقائديين، شبههما بفسطاطين لجيشين متحاربين كما كان عليه أهل ذلك الزمان.

النقطة الثانية:

عرفنا في الجانب الأول من الحديث عن الانتظار والمنتظرين، نفس ما أفادتنا إياه هذه الروايات من كون الفرد الممحص الكامل أفضل من كثير من المستشهدين بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله. كما عرفنا انه بمنزلة المعاصرين مع المهدي عليه السلام العاملين في سبيل نصرته.

وذلك التجاور المكاني والزماني، ليس له حساب في العقيدة والعمل، وإنما الذي يؤخذ بنظر الاعتبار هو درجة الإخلاص، والإيمان. وقد عرفنا ان

(١) جـ ٢، ص٤١١.

أصحاب المهدي عليه السلام على درجة عليا من الإخلاص الممحص وقوة الإيمان. . . فإذا كان الفرد في عصر الغيبة ممحصاً بنفس الدرجة كان مثل أصحاب المهدي عليه السلام بطبيعة الحال.

إلا أن ما ورد في بعض هذه الروايات، من ان الفرد المخلص في زمان الغيبة، كالمستشهد بين يدي المهدي عليه السلام، مما لا يكاد ينسجم مع القواعد إذ المفروض تماثل الفردين في الإخلاص الممحص، مع زيادة الآخر بفضل الشهادة في سبيل الله عز وجل. إلا ان ينال هذا الفرد في عصر الغيبة الشهادة في سبيل الله أيضاً.

* * *

الجهة السادسة:

في المنزلة السيئة والقيمة المنحطة لأعداء المهدي عليه السلام في عصر الهدنة، عصر الغيبة الكبرى وما قبله.

روى النعماني في الغيبة[١] والصدوق في الإكمال[٢] والطبرسي في الإعلام[٣] عن أبي عبد الله عليه السلام قال: اقرب ما يكون العباد إلى الله عز وجل، وأرضى ما يكون عنهم إذا فقدوا حجة الله، فلم يظهر لهم، ولم يعلموا بمكانه. وهم في ذلك يعلمون انه لم تبطل حجج الله عنهم ولا تبطل بيناته. فعندها فتوقعوا الفرج صباحاً ومساء.

---

(١) ص٨٣ وما بعدها.

(٢) انظر المصدر المخطوط.

(٣) ص٤٠٤.

وإن أشد ما يكون غضب الله على أعدائه، إذا افتقدوا حجته، فلم يظهر لهم. وقد علم ان أولياءه لا يرتابون. ولو علم انهم يرتابون لما غيب عنهم حجته طرفة عين. ولا يكون ذلك إلا على رأس شرار الخلق.

ويقع الكلام في هذه الرواية، ضمن عدة نقاط:

النقطة الأولى:

فيما هو مقتضى القاعدة لتحديد درجة مسؤولية الفرد تجاه العصيان لأحكام الإسلام في عصر الغيبة الكبرى.

الصحيح هو تضاؤل المسؤولية إلى حد ما في العصيان أثناء عهد الفتن والانحراف والإغراء، عنها في الزمن المعاصر لعصر التشريع... لكن لا بدرجة يلزم منها انعدام الاختيار وسقوط التكليف.

ويتم البرهان على ذلك بمعرفة عدة مقدمات:

المقدمة الأولى:

في إيضاح مراتب الجبر والاختيار.

فإن الفرد لا تكون إرادته في كل الأفعال على حد سواء، بل تختلف على مراتب متعددة، تضعف في بعضها حتى تنعدم وتوجد في بعضها حتى تتضح... كما يبدو من المراتب الآتية:

المرتبة الأولى:

الجبر الفلسفي، بمعنى ان الإنسان يقوم بأعماله، كما يصدر النور من الشمس والرائحة من الزهر، أو كالقلم بيد الكاتب والعصا في يد الضارب.

وهو أعلى درجات الجبر وانعدام الإرادة وفقدان الاختيار.

ويقوم هذا الجبر على أحد أساسين:

الأساس الأول:

الأساس المادي... كالقول بالمادية التاريخية، الذي يربط التطورات التاريخية، وجميع تصرفات الأفراد بتطور وسائل الإنتاج. فالفاعل المؤثر- في الحقيقة - هي هذه الوسائل، وليس للإنسان أي يد في تغيير ما يقوم به من أعمال.

وهذا واضح من اتجاه الماديين التاريخيين، إذ لو كان للأفراد اختيار في أفعالهم، لكانوا هم صانعي التاريخ والمشاركين في تطويره، ولم يكن تطويره مستنداً تماماً إلى وسائل الإنتاج، كما قد أكدوا عليه.

والظاهر ان كل المذاهب المادية، تقول بالجبر الفلسفي هذا، باعتبار ان القول بالاختيار اعتراف بأمر ميتافيزيقي لا يمكنهم الإيمان به. على انه يتضمن المنافاة للعلل المادية الضرورية التأثير في الإنسان... تلك العلل التي تقدمها هذه المذاهب.

الأساس الثاني:

الأساس الإلهي، بمعنى ان الله تبارك وتعالى هو الفاعل المؤثر في إيجاد أفعال الإنسان، إيجاداً قهرياً. وأشهر من يقول بذلك هم الاشاعرة من المسلمين واليهود من أهل الكتاب.

وكلا الأساسين باطلان في الإسلام: اما الأساس الأول، فباعتبار مناقضة المادية مع الإسلام في النظر إلى الكون والحياة أساساً كما هو المبرهن عليه في

كتب العقائد. وأما الأساس الثاني، فلاستلزامه بطلان الثواب والعقاب، وسقوط الفرد عن استحقاقه. كما هو المبرهن عليه في كتب العقائد أيضاً.

المرتبة الثانية:

القسر على فعل معين، بعد الاعتراف ببطلان الجبر في المرتبة الأولى... كما لو شد وثاق شخص بحبل - مثلا- والقي في فمه الماء أو الطعام، أو نقل من مكان إلى آخر محمولاً.

ولا يسمى ذلك بالاضطرار اصطلاحاً، وإن كان يمكن أن يسمى به.

المرتبة الثالثة:

الإكراه، مع افتراض توفر الاختيار في المرتبتين السابقتين.

وأوضح أشكاله هو التهديد بالقتل أو بالشر المستطير، لشخص على أن يعمل عملاً ما، تهديداً قابلاً للتطبيق... فيضطر الفرد لإيقاع الفعل قهراً عليه. ولهذا الإكراه أشكال أخرى، كما لو كان التهديد متوجهاً إلى شخص والأمر متوجهاً إلى شخص آخر. كما لو أمرك شخص بفعل، مهدداً إياك بقتل ولدك مثلاً. وكما لو كان الأمر متعلقاً بإيقاع أحد أمور متعددة، لا بإيقاع شيء واحد. مثل ما إذا قال ذلك الشخص: اعمل كذا أو كذا وإلا قتلتك.

المرتبة الرابعة:

الاضطرار، وهو الالتجاء إلى فعل معين تجنباً لأمر آخر وشيك الوقوع عليه. كما لو باع داره التي يسكنها لسداد دينه أو الصرف على صحته... وغير ذلك.

وهاتان المرتبتان غير منافيتين للاختيار بالدقة، فإن الفرد يوقع الفعل بإرادته على أي حال، وإن كان فعله قد يكون مخالفاً لهوى النفس أو للعقيدة التي

يحملها مخالفة شديدة. على حين كانت المرتبتان الأوليتان، منافيتين مع الاختيار مباشرة، إذ لا معنى للاختيار الفعلي مع أي منهما.

المرتبة الخامسة:

ما نستطيع أن نسميه بالاضطرار غير المباشر. وهو عبارة عن ردود فعل معينة تجاه مؤثرات عامة أو خاصة، يقوم بها الإنسان بإرادته واختياره. لكن لا يكاد يوجد له منها مناص عرفاً وعادة... وإن وجد المناص منها عقلاً.

يندرج في ذلك الكثير من الأفعال، كاضطرار التاجر إلى بيع سلعته بأرخص مما اشتراها أحياناً. وكاستمرار المعتاد أو المدمن على شيء، وعدم استطاعته ترك عادته، كالإدمان على الخمر أو التدخين مثلاً. وكاستمرار المختص بحقل من حقول المعرفة في التدقيق وزيادة البحوث في حقله، دون الحقول الأخرى. فالطبيب المتمرس -مثلاً- لا يمكن له أن يكون فيزياوياً أو مهندساً معمارياً. وكالتزام الشخص الاعتيادي بتقاليد مجتمعه وعقائد آبائه. وكاضطرار الجوعان إلى الطعام في موعده، ما لم يصل إلى حد الخوف من الهلاك، فيكون مندرجاً في المرتبة السابقة.

ولهذه المرتبة مستويان يختلفان في درجة انحفاظ الاختيار.

المستوى الأول:

أن تكون ظروف الفرد وملابساته تعين عليه الفعل، بحيث يكون قاصراً عن تركه، ولا مناص له عرفاً عنه.

المستوى الثاني:

أن لا يبلغ التسبيب إلى درجة القصور، بل تكون له فرصة الاختيار عرفاً،

وإن كان الدافع إلى الفعل والحافز عليه شديداً.

وأمثلة هذين المستويين، نسبية تختلف بين فرد وآخر وفعل آخر، بحسب اختلاف الظروف النفسية والعقلية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية وغيرها، مما يمر به هذا الفرد أو ذاك. فقد يكون الفرد قاصراً عن ترك شيء، ولا يكون فرد آخر قاصراً عن ترك نفس الشيء. أو يكون فرد قاصراً عن شيء دون شيء آخر. فمثلا قد يكون أحد الأطباء قادراً بحسب ظروفه على أن يختص بالفيزياء أيضاً. ويكون طبيب آخر غير قادر على ذلك، بحسب ظروفه وهكذا.

المرتبة السادسة:

الاختيار المطلق، بمعنى أن يكون للفرد حرية الفعل والترك معاً، بمقدار خمسين بالمائة على السواء.

وهذا أمر نسبي أيضاً، فقد تكون أطراف التخيير كلها ممكنة، وليس في أحدها حافز أكثر من الآخر... وقد يكون في بعضها حافز أكثر، وقد يكون في بعضها مثبط أو مبعد. وقد يكون بعضها مضطراً إلى فعله بالمرتبة الثانية أو الثالثة، ويكون الاختيار باعتبار الأطراف الأخرى، وهكذا.

المقدمة الثانية:

إذا عرفنا هذه المراتب الست، أمكننا أن نعرف بوضوح اختلافها في درجة الاختيار، وأن نلاحظ اختلافها في درجة المسؤولية القانونية المترتبة عليها.

فإن كل فعل له أثر قانوني، تتناسب درجة مسؤولية طاعته وعصيانه مع درجة الاختيار تناسباً طردياً. ويدور التشريع مدار الاختيار تماماً، سواء كان التشريع عقلياً أو شرعياً دينياً أو قانوناً وضعياً. بل ان كل من يتصدى لوضع أي

تشريع فإنه يفترض سلفاً ان من يأمره وينهاه ويعاقبه شخص له اختيار الفعل والترك... وإلا فلا معنى للأمر والنهي ولا للنصح والتوجيه... ويكون العقاب ظلماً والثواب لغواً. فإنه إذا انعدم الاختيار، انعدمت المسؤولية، إذ يكون للفرد العاصي عندئذ بأنه كان مقهوراً ومجبوراً على العصيان.. ولا معنى لعقابه حينئذ.

فإن قال قائل: فإن هناك الكثيرون ممن يؤمنون بالوجود القانوني للتشريع ويعملون عليه. مع انهم يؤمنون بالجبر وانعدام الاختيار بالمرة. كالماديين والأشاعرة.

قلنا له: العمل على التشريع من قبل هؤلاء، ناشئ من أن وجدانهم الارتكازي قائم على الاختيار، وحياتهم العملية قائمة على الإيمان به، من حيث ان تحمل مسؤولية العصيان أمر عقلاني عام... فهم مؤمنون بالاختيار عملياً وإن اعتقدوا من الناحية الفلسفية بخلافه، وغفلوا عن المنافاة بين ثبوت المسؤولية وبطلان الاختيار؟.

وعلى أي حال، فالمسؤولية القانونية، تزداد بازدياد الاختيار وتقل بقلته، كما انها توجد بوجوده وتنعدم بانعدامه. فهي موجودة في المرتبة الثالثة وما بعدها بوجود الاختيار في هذه المراتب جميعاً. نعم، قد يكون الفرد العادي معذوراً في بعض مراتب الإكراه أو الاضطرار الشديدة، بالرغم من انه يعتبر عاصياً بالدقة العقلية. كما انه مع سعة الوعي وعمق الأثر، قد لا يكون الفرد معذوراً حتى في هذه المرتبة، بل يجب عليه تحمل الشدائد في سبيل أهدافه.

خذ مثلاً ان فرداً عادياً إذا اضطر إلى سرقة شيء من المتاع أو أكره عليه كان معذوراً... ولكن لو أكره الرئيس الأعلى للدولة أو أحد علماء الإسلام على مثل هذه السرقة، لا يكون معذوراً البتة، لأن في ذلك افتضاح دولته أو

دينه، بل يجب عليه تحمل ما يكره والصبر عليه. حتى لو كان هو القتل -أحياناً- إذا كان الهدف من العمق والشمول، بحيث تبذل في سبيله النفوس.

وتتضاءل المسؤولية، بنقصان الاختيار، ففي مورد القصور -مثلاً- تكون المسؤولية منتفية إلى حد كبير. لكنها في مورد الاضطرار غير المباشر تكون ثابتة على شكل ناقص، لإمكان أن يتصرف الفرد بشكل يختلف عما قام به من عمل، ويكون رد فعله تجاه الحافز بشكل آخر. وتكون المسؤولية كاملة في صورة الاختيار المطلق، بطبيعة الحال.

وليس تفاوت درجات المسؤولية، بدعاً من القول. بل له أمثلة كثيرة في القوانين. فمثلاً: قسموا القتل إلى عمد وشبه العمد والخطأ. ووجدوا من الظلم إيقاع عقاب المتعمد على شبه العمد أو الخاطئ. كما انهم قسموه إلى ما كان عن سبق إصرار وما لم يكن. ووجدوا من الظلم إيقاع العقاب الذي يستحقه الأول على الثاني. ووجدوا من الظلم -أيضاً- إيقاع عقاب السارق الاعتيادي على السارق في المجاعة.

ونجد في الإسلام ان عقاب الزاني المحصن أشد من عقوبة غير المحصن. إلى غير ذلك من الأمثلة. كل ذلك لأن درجة الاختيار أخذت بالتضاؤل، فتضاءلت معها المسؤولية، ومن ثم درجة استحقاق العقاب.

ولك من المثالين الأخيرين خير إيضاح، فإن درجة اختيار السارق العادي في ترك السرقة اكبر منها في السارق الجائع الذي لا يجد قوتاً... وإن كان الأخير مذنباً أيضاً. كما ان درجة اختيار المحصن المتزوج في التعفف عن الزنا اكبر من درجة الأعزب. وإن كان هذا مذنباً أيضاً... وهكذا.

وليت شعري، لا أعلم ماذا يقول الماديون وغيرهم من القائلين بالجبر

الفلسفي في مثل هذه الموارد الواضحة قانونياً. فانها مما لا يمكن تفسير الفرق بين مراتبها بناء على رأيهم، إذ يكون كل العصاة مجبورين على مستوى واحد على العصيان. بل يكون هؤلاء القائلين بالجبر، مجبورين على اتخاذ هذا الرأي أيضاً!!.

المقدمة الثالثة:

انه كلما توفرت وازدادت أسباب الإيمان بالإسلام بالنسبة إلى الفرد، ازدادت درجة إمكان اختياره له واعتناقه إياه وإطاعته لتعاليمه. حتى ليصبح متساوي الأطراف، كالمرتبة السادسة، بل في طرف اعتناقه حفز قوي ودافع شديد، لا يوجد مثله في طرف تركه. كما كان عليه الحال، فيما بعد الفتح في عصر النبي ﷺ، حتى اننا سبق ان قلنا أن الإيمان بالغيب كاد أن يكون حسياً، وهو ما سوف يكون عليه الحال بعد الظهور. وفي مثل ذلك يكون العصيان ذا مسؤولية كبرى واستحقاق كبير للعقاب.

وكلما صعب طريق الإيمان وازدادت عقباته ومزالقه، وتكثرت التضحيات التي يتطلبها ومقاومة أشكال الظلم والإغراء التي يواجهها... كانت درجة الاختيار والمسؤولية أقل، لا محالة، حتى تصبح من مرتبة الاضطرار غير المباشر بأحد المستويين السابقين. بل قد تنقص عن ذلك في بعض الأحيان.

ومن الممكن القول: ان أكثر حالات العصيان والانحراف في عصر الفتن والانحراف، حيث تتركز المصالح الخاصة ويقل الوازع الأخلاقي والديني، ويدرك الفرد ان كثيراً من الأعمال المنحرفة تعتبر ضرورة من ضروريات حياته، ويتوقف أمنه وراحته عليها... ان أكثر هذه الحالات هي من قبيل الاضطرار غير المباشر بالمستوى الثاني على أقل تقدير.

وأما القصور الحقيقي، فيمثل الجزء الأقل، من أسباب الانحراف في العالم... باعتبار وضوح القضايا الدينية الأولية، كالتساؤل عن مبدأ العالم والغاية من خلقه. فإذا استطاع الفرد أن يسير سيراً حسناً في استنتاجه، استطاع الوصول إلى الحق لا محالة. ومن هنا، شجب القرآن تقليد الآباء لمنافاته الصريحة مع تلك القضايا الأولية الواضحة.

ولئن كان القصور، وهو الجزء الأقل من أسباب الانحراف في العالم، موجب للعذر عقلاً وشرعاً، فإن الاضطرار غير المباشر، وهو الجزء الأغلب من الأسباب، غير موجب للعذر أساساً. لوجود الاختيار والمسؤولية فيه إلى درجة كافية. وخاصة بعد اتضاح معالم الحق، وقيام الحجة والبرهان عليه وإمكان التضحية في سبيله إلى درجة معقولة، من قبل الفرد العادي.

إذن، ينتج من هذه المقدمات الثلاث: ان المسؤولية القانونية، وإن كانت متوفرة للمنحرفين في عصر الغيبة الكبرى، ولم يكن البشر معذورين في عقائدهم وأعمالهم الباطلة. إلا ان الظروف التي يعيشونها تكفكف من عمق المسؤولية وتقلل من درجتها، بمقدار ما تقلل من درجة الاختيار، وتجعل الحافز على الانحراف، قوياً فعالاً.

والى مثل ذلك، وما يشبهه تشير الرواية التي أخرجها الشيخ في الغيبة[١] بطريق صحيح عن زرارة عن جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: حقيق على الله أن يدخل الضلّال الجنة. فقال زرارة: كيف ذلك جعلت فداك؟ قال: يموت الناطق ولا ينطق الصامت، فيموت المرء بينهما، فيدخله الله الجنة.

والشرح الأولي لهذه الرواية: ان المراد من الضلّال بالتشديد: المنحرفين

---

(١) ص٢٧٧.

من المسلمين، وإدخالهم الجنة إنما يكون بسبب قلة المسؤولية التي أشرنا إليها، حتى تكاد تنعدم فينعدم العقاب بالمرة. وذلك في ظرف معقد خال من التبليغ الإسلامي، عند موت الناطق بالحق، وصمت الموجود.

وقد يراد بالناطق والصامت، الأئمة المعصومين عليهم السلام. فيراد بالصامت الإمام المهدي عليه السلام وبالناطق من قبله منهم عليهم السلام. وتكون الفترة المشار إليها، هو عصر الغيبة الكبرى الذي نؤرخ له. كما قد يراد بالناطق والصامت أي مفكر ومبلغ إسلامي وداعية إلى الحق سواء كان معصوماً أو لا. فيكون المراد فترة أو عدة فترات صعبة من عصر الغيبة، مع افتراض وجود الإرشاد إلى الحق في غير هذه الفترات.

هذا، وأما الفهم الدقيق لهذه الرواية، فله مجال آخر، ويكفينا في هذا الصدد ان الفرق بين ما قلناه وبين مؤدى هذه الرواية: هو ان قلة المسؤولية التي أشرنا إليها، ناتج من ظروف الظلم والإغراء. وأما قلة المسؤولية التي تشير إليها الرواية، فناتجة من ضعف التبليغ الإسلامي، وما يسببه من الجهل والفراغ العقائدي بشكل عام.

وكلا الأمرين صحيح، وموجب لضعف المسؤولية، فضلاً عما إذا اجتمعا، كما هو الموجود في عدد من عصور عصر الغيبة الكبرى. ومرادنا من الاستشهاد بهذه الرواية، رفع الاستغراب من قلة المسؤولية مع الانحراف.

النقطة الثانية:

انه بالرغم مما قلناه من قلة المسؤولية إلى حد ما في عصر الفتن والانحراف. ان ذلك لا ينافي قانون التمحيص. ولا ينافي صدق الرواية التي سبقت ودلت على اشتداد غضب الله تعالى على أعدائه إذا غيب حجته.

ويمكن أن نطلع على ذلك من خلال جانبين:

الجانب الأول:

في ان قلة المسؤولية لا تنافي التمحيص.

وذلك: لأننا لم نقل بانتفاء المسؤولية، كيف... وان عصيان الله من أشد الأمور مسؤولية وإجراماً. ولكننا قلنا بقلتها في صورة الاضطرار غير المباشر عن صورة الاختيار المطلق. أو بتعبير آخر، قلتها في عصر الفتن والانحراف عن عصر التشريع ومجاورة قواد الإسلام، سواء السابقين منهم أم المهدي عليه السلام بعد ظهوره.

... فكل ما ينتج لدينا هو ان الفرد الفاشل في التمحيص في عصر الغيبة اخف جرماً من شخص فاشل في عصر الظهور. تماماً كما ينتج لدينا ان الشخص الناجح في التمحيص في عصر الغيبة أفضل وأحسن من الشخص (الناجح في عصر الظهور)[1] لأن مضاعفة التمحيص وشدته، يلازم كله هذين الأمرين. ومعه يبقى التمحيص على حاله، من حيث أساليبه ونتائجه:

اما أساليبه، فباعتبار ان قلة المسؤولية النسبية، لا تعني تغير الواقع الذي يعيشه الفرد من الظلم والتعسف والانحراف. كما لا تعني انعدام مسؤوليته تجاهه.

وأما نتائجه: فباعتبار ان التمحيص ينتج المطلوب الذي خططه الله تعالى من اجله، وهو وجود العدد الكافي من المخلصين الممحصين لنصرة المهدي عليه السلام بعد ظهوره والتشرف بحمل مسؤولية الفتح العالمي. بل ان نتيجة

(١) لكن هناك بعد الظهور تمحيصاً إضافياً يمنع من صدق هذه النتيجة صدقاً مطلقاً. على ما سوف يأتي في التاريخ القادم.

التمحيص تكون بالنسبة إلى الناجحين أفضل كما عرفنا، وإن كانت بالنسبة إلى الفاشلين فيه قليلة.

الجانب الثاني:

في ان قلة المسؤولية لا تنافي صدق الرواية. وذلك بناء على الإيمان بغيبة الإمام المهدي عليه السلام وخط آبائه عليهم السلام، الذي صدرت هذه الرواية على أساسه.

وذلك: لأن ما قلناه من قلة المسؤولية يشارك فيها، إلى حد كبير، البعد عن عصر التشريع وصعوبة الوصول إلى تفاصيل الإسلام إلا للاختصاصيين والمدققين الإسلاميين. وأما في عصر التشريع فهذه الصعوبة غير موجودة. لإمكان الرجوع إلى النبي صلى الله عليه وآله أو إلى الأئمة عليهم السلام كل في عصره عند الحاجة. ووجوب ذلك في نظر الإسلام.

ونحن في تاريخ الغيبة الصغرى[1] اقمنا القرائن الكافية التي تثبت ان عدداً من الخلفاء، كانوا يعرفون حق الأئمة عليهم السلام وصدقهم... وكانوا- مع ذلك- يناجزونهم المطاردة والتعسف والتنكيل.

ومن هذا المنطلق بالتعيين، نعرف المراد من الرواية، إذ تقول: وان أشد ما يكون غضب الله على أعدائه إذا افتقدوا حجته، فلم يظهر لهم... الخ. وذلك بعد الالتفات إلى مقدمتين:

المقدمة الأولى:

ما عرفناه الآن، من تضاعف المسؤولية في ذلك العصر، عنه في عصر الغيبة الكبرى، وهذا في العصيان الاعتيادي، فكيف بمطاردة الأئمة عليهم السلام

(١) انظر ص٤١٨ وما بعدها إلى عدة صفحات.

وقواعدهم الشعبية، مع علم الحكام بأن الحق إلى جانبهم.

المقدمة الثانية:

ان المراد من قوله – في الرواية–: إذا افتقدوا حجته. . . النظر إلى أول الغيبة، فقط. لأن الافتقاد أو الغيبة انما حصل في ذلك الحين، وأما ما بعده من الزمان، فهو استمرار لذلك المعنى، وليس افتقاداً آخر.

فينتج من المقدمتين: ان المراد هو اشتداد غضب الله تعالى على الحكام، في مبدأ الغيبة الصغرى، حيث كانوا يطاردون أُولئك الذين يعرفون ان الحق إلى جانبهم. ويعصون ما يفهمونه من الحكم الإسلامي الصحيح.

فإن ناقشنا في المقدمة الثانية، وقلنا بشمول التجيس لكل عصر الغيبة الكبرى. باعتبار المقابلة بين الفقرتين في الرواية. فإنه عليه السلام يقول: أقرب ما يكون العباد إلى الله عز وجل. . . إذا فقدوا حجته. . . وأشد ما يكون غضب الله على أعدائه إذا افتقدوا حجته. . . الحديث. وحيث علمنا ان جانب الرضا شامل لكل عصر الغيبة، وغير خاص بأولها، نعلم ان جانب الغضب شامل لجميعها أيضاً.

وهذا الكلام وجيه إلى حد كبير، ومطابق مع التخطيط الإلهي. لما عرفناه من ان التمحيص حين ينتج نتائجه النهائية في آخر عصر الغيبة الكبرى. يكون الناس على طرفين متناقضين: قلة شديدة الإيمان قوية الإرادة إلى درجة عظيمة، وكثرة شديدة الانحراف والعصيان إلى درجة كبيرة. فهذا هو ما تشير إليه هذه الرواية. إذ يكون القرب الإلهي والرضا عن أولئك القلة، ويكون الغضب الشديد على المتطرفين، من هؤلاء الكثرة.

وأما من خلال هذا العصر، فمن الواضح، ان التمحيص كلما سار قدماً

وتصاعد درجة، ازداد إيمان المؤمنين وانحراف المنحرفين معاً. وتصاعد الرضا والغضب المشار إليه في الرواية، بشكل متدرج مقترن.

النقطة الثالثة:

قوله عليه السلام - في تلك الرواية -: وقد علم الله تعالى ان أولياءه لا يرتابون. ولو علم انهم يرتابون لما غيب عنهم حجته طرفة عين. وهو تعبير ورد في عدة روايات(١).

نفهم من ذلك: ان الارتياب والشك بوجود المهدي عليه السلام أثناء غيبته ناشئ في واقعه من الانحراف والفساد الموجود في هذا العصر، وأما لو خلي الفكر الإنساني المستقيم ونفسه لما رقى إليه الشك.

ونحن وإن كنا قلنا ان طول الغيبة سبب للشك بحسب طبيعة البشر لكونها من الأمور غير المعهودة في ربوعهم. إلا ان الشخص الذي يربط الأمور بمصدرها الحقيقي الأول، تبارك وتعالى، ويعرف قدرته الواسعة وحكمته اللانهائية، لا يستبعد عليه التصدي لحفظ شخص معين أمداً طويلاً، لأجل تنفيذ العدل في اليوم الموعود. بل يرى ان ذلك لازم ومتعين بعد قيام البرهان على وجود الغرض الأصلي من الخليقة، وعلى حقيقته. وانحصار تحقق هذا الغرض بهذا الأسلوب. بحيث لو لم تكن هناك أي رواية تدلنا على وجود المهدي، لكان اللازم على الفكر الإنساني أن يعترف به.

وإنما الذي يمنع من ذلك، ويزرع في طريقه المصاعب والمتاعب، هو الانحراف الفكري، وخاصة إذا وجد لدى بعض القواعد الشعبية الذين بني

(١) انظر إكمال الدين المخطوط وغيبة النعماني، ص٨٣ - ٨٤.

مذهبهم على الاعتزاز بوجوده والتسليم بإمامته.

ومن هنا نرى ان أولياء الله الممحصين الذين ليس للفتن طريق إلى قلوبهم ولا للضغط والظلم طريق إلى قوة إرادتهم... لا يرقى إليهم الشك في المهدي عليه السلام. لأن العوامل النفسية والموانع المنحرفة لذلك غير موجودة لديهم. فيبقون على الفطرة التي فطر الله الناس عليها، من الإيمان بقدرته وحكمته، فيسلمون بنتيجة الدليل القطعي الدال على وجود المهدي.

ومن هذا المنطلق نعرف، انه لو لم يكن الفكر الإنساني مدركاً لذلك، بحيث أمكن سراية الشك إلى أولياء الله تعالى... لما غيب الله عنهم حجته طرفة عين.

لاستلزامه نقصان الحجة أو بطلانها بالنسبة إلى البشر، وهو مما لا يمكن أن يصدر من قبل الله تعالى، فإنه ملازم مع أحد أمرين غير ممكنين: إما إلغاء إمامته أو تكليف البشر بالاعتقاد بها بدون دليل، وكلاهما مما لا يكون... فيتعين المحافظة على ظهوره بالمقدار الذي يثبت وجوده وتقوم به الحجة في الإسلام.

فإن قيل: انه إذا لم يغب يكون الفرض الإلهي الذي عرفناه منحرفاً، لأنه يودي إلى عدم تنفيذ اليوم الموعود. وهو محال، بعد تعلق الحكمة والمصلحة به لدى الله عز وجل.

قلنا: هذا صحيح، إلا أن غيبته في الحقيقة ناتجة عما ذكر في الرواية من ان أولياء الله لا يرتابون... وهو الذي يعلمه الله تعالى منذ الأزل، فأسس تخطيطه منذ خلق الخليقة عليه. وأما القول: بأن الغيبة توجب الارتياب ونقصان الحجة على إثبات وجود المهدي عليه السلام، فهو قول باطل، كما ذكرنا.

ولو فرض هذا القول تاماً صحيحاً احتاج الأمر إلى ان إدخال تغييرات أساسية في التخطيط الإلهي لليوم الموعود، وأدى بنا إلى افتراضات غير واقعة في الخارج، مما نحن في غنى عن افتراضها، بعد قيام الدليل القطعي على خلافها.

هذا هو تمام الكلام في هذه النقطة الثالثة.

وبه ينتهي الكلام في الجهة السادسة والأخيرة من الفصل الثالث من هذا القسم الثاني من هذا التاريخ.

وبذلك ينتهي هذا الفصل أيضاً. وبه ختام هذا القسم الثاني من التاريخ. والحمد لله رب العالمين.

القسم الثالث
في شرائط الظهور وعلاماته

وينقسم الكلام في هذا القسم، بلحاظ الحديث عن شرائط الظهور تارة وعلاماته تارة أخرى... إلى فصلين رئيسيين.

الفصل الأول
في شرائط الظهور

وتعرض فيه هذا المفهوم، ضمن عدة جهات:

الجهة الأولى:

في الفرق بين شرائط الظهور وعلاماته:

عرفنا من شرائط الظهور: وجود العدد الكافي من المخلصين الممحصين لغزو العالم بالحق والهدى. وسنعرف من علائم الظهور وجود الدجال والخسف وغيرهما.

ويشترك هذان المفهومان: الشرائط والعلائم، بانهما معاً مما يجب تحققه قبل الظهور، ولا يمكن أن يوجد الظهور قبل تحقق كل الشرائط والعلامات. فإن تحققه قبل ذلك، مستلزم لتحقق المشروط قبل وجود شرطه أو الغاية قبل الوسيلة... كما انه مستلزم لكذب العلامات التي أحرز صدقها وتوافرها.

إذن، فلا بد أن يوجدا معاً قبل الظهور، خلال عصر الغيبة الكبرى، أو ما قبل ذلك، على ما سنعرف. ويتدرج وجودها بشكل متساوق حتى يتم، فيتحقق الظهور عند ذلك. ولا يمكن تأخره عن تمامية الشرائط ولا عن تمامية العلامات. فإن تخلف الظهور عن شرائطه يلزم منه تخلف المعلول عن العلة.

أو بعبارة أدق: يلزم عدم قيام المهدي عليه السلام بوظيفته الإسلامية وحاشاه... وفشل التخطيط الإلهي في نهاية المطاف. على ما سنوضح تفصيلاً فيما يلي من البحث. وان تخلف الظهور عن مجموع العلامات المحرزة الصحة لزم كذبها، بصفتها علامات، وهو خلاف إحراز صحتها، على أقل تقدير.

وبالرغم من نقاط الاشتراك هذه، فإن بينهما من نقاط الاختلاف، والفروق، لا بد لنا من بيانها بشكل يتضح الفرق بين المفهومين بشكل أساسي:

الفرق الأول:

ان إناطة الظهور بالشرائط إناطة واقعية، وإناطته بالعلامات إناطة كشف وإعلام.

وهذا هو الفرق الأساسي المستفاد من نفس مفهوم اللفظين: الشرط والعلامة. فإن معنى الشرط في الفلسفة، ما كان له بالنتيجة علاقة علية وسببية لزومية. بحيث يستحيل وجوده بدونه.

وهذا هو الذي نجده على وجه التعيين في شرائط الظهور. فإننا سنرى ان انعدام بعض الشرائط يقتضي انعدام الظهور أساساً بحيث لا يعقل تحققه. وانعدام بعضها الآخر يقتضي فشله ومن ثم عدم إمكان نشر العدل الكامل المستهدف في التخطيط الإلهي الكبير. إذن فلا بد أولاً من اجتماع الشرائط، لكي يمكن تحقق الظهور ونجاحه.

أما العلامة، فليس لها من دخل سوى الدلالة والإعلام والكشف عن وقوع الظهور بعدها، مثالها مثال هيجان الطيور الدال على وقوع المطر أو العاصفة بعده. من دون إمكان أن يقال: ان العاصفة لا يمكن أن تقع بدون هيجان

الطيور. بل يمكن وقوعها، بطبيعة الحال. وإن كان قد لا تنفك عن ذلك في كل عاصفة.

وهذا هو الذي نجده في علامات الظهور، فإنه يمكن تصور حدوثه بدونها. ولا يلزم من تخلفها انخرام سبب أو مسبب... غير ما أشرنا إليه من كذب الدليل الدال على كونها من العلامات. وهو مما لا يمكن الاعتراف به بعد فرض استحالة الكذب على النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام، وكفاية الدليل للإثبات التاريخي.

ومعه، فتنبثق ضرورة وجودها قبل الظهور، بصفتها دليلاً كاشفاً عن وقوعه، لا بصفتها ذات ارتباط واقعي لزومي، كما كان الحال في شرائط الظهور.

نعم، ينبغي أن نأخذ بنظر الاعتبار، نقطة واحدة، وهي ان بعض العلامات، كوجود الدجال وقتل النفس الزكية، مربوطة ارتباطاً عضوياً بالشرائط. بمعنى ان هذه العلامات من مسببات ونتائج عصر الفتن والانحراف الذي هو سبب التمحيص الذي هو سبب إيجاد أحد شرائط الظهور، على ما سنوضح. إذن، يكون بين هذا القسم من العلامات وبين بعض الشرائط علاقة سببية لزومية... فيكون لها في نهاية الشوط، نفس المفهوم الذي للشرائط.

إلا أن هذا لا ينافي ما قلناه، باعتبار أمرين مقترنين:

الأمر الأول:

عدم وقوع العلامة في سلسلة علل الظهور. بل هي من معلومات ونتائج بعض علل الظهور فلا تكون بذلك من العلل، وإن كان وجودها لزومياً قبل الظهور.

الأمر الثاني:

ورودها في الأخبار كعلامة ملفتة للنظر إلى وجود الظهور. وهي -بلحاظ هذه الزاوية بالتعيين- لم يلحظ فيها سوى الكشف والدلالة على الظهور... سواء كانت من علله أو لم تكن. وليس كذلك حال الشرائط، فانها، غير معروفة النتائج للناس وغير ملفتة لنظرهم على الإطلاق، على ما سنذكر.

إذن، فكل ما ينتج من هذا التسلسل في التفكير، هو ضرورة وجود العلامات قبل الظهور، وهو أمر صحيح ومشترك بين العلامات والشرائط. وأما انه ينتج تحويل هذه الأمور من كونها علامات إلى كونها شرائط فلا.

الفرق الثاني:

ان علامات الظهور، عبارة عن عدة حوادث، قد تكون مبعثرة، وليس من بد من وجود ترابط واقعي بينهما، سوى كونها سابقة على الظهور... الأمر الذي برر جعلها علامة للظهور، في الأدلة الإسلامية.

وأما شرائط الظهور، فإن لها -باعتبار التخطيط الإلهي الطويل- ترابط سببي ومسببي واقعي، سواء نظرنا إلى ظرف وجودها قبل الظهور، أو نظرنا إلى ظرف إنتاجها بعد الظهور. على ما سنوضح فيما يلي، بعد هذا الفصل.

الفرق الثالث:

ان العلامات ليس من بد ان تجتمع أصلاً في أي زمان. بل يحدث أحدها وينتهي، ثم يبدأ الآخر في زمان متأخر... وهكذا. كما انها قد تجتمع صدفة أحياناً. فهي حوادث مبعثرة في الزمان كما انها مبعثرة بحسب الربط الواقعي.

وأما الشرائط، فلا بد أن تجتمع في نهاية المطاف، فانها توجد تدريجاً، إلا ان الشرط الذي يحدث يستمر في البقاء، ولا يمكن - في منطق التخطيط الإلهي- أن يزول. فعندما يحدث الشرط الآخر، يبقى مواكباً للشرط الأول، وهكذا تتجمع الشرائط وتجتمع في نهاية المطاف. . . في اللحظة الأخيرة من عصر الغيبة الكبرى.

ومن هنا نعرف الفرق الآتي.

الفرق الرابع:

ان علامة الظهور، حادثة طارئة، لا يمكن - بطبعها- أن تدوم، مهما طال زمانها. بخلاف شرائط الظهور، وبعض أسبابها، فانها بطبعها قابلة للبقاء، وهي باقية فعلاً، بحسب التخطيط الإلهي، حتى تجتمع كلها في يوم الظهور.

الفرق الخامس:

ان العلامات تحدث وتنفذ بأجمعها قبل الظهور. في حين أن الشرائط لا توجد بشكل متكامل إلا قبيل الظهور أو عند الظهور. ولا يمكن أن تنفذ، وإلا لزم انفصال الشرط عن مشروطه والنتائج عن المقدمات. . . وهو مستحيل.

والسر في ذلك كامن في الفرق بين النتائج المتوخاة من وراء كلا المفهومين. فإن العلامات بصفتها دلالات وكواشف عن الظهور، فإن وظيفتها سوف تنتهي عند حدوثه، ولا يبقى لها أي معنى بعده. وأما الشرائط فحيث انها دخيلة في التسبب إلى وجود يوم الظهور، وإلى تحقق النصر فيه. . . فلا بد أن تجتمع في نفس ذلك العهد، حتى تكوّن بمجموعها الشرط الكامل للنجاح. إذ مع تخلف بعضها تتخلف النتائج المطلوبة، لا محالة.

الفرق السادس:

ان شرائط الظهور دخيلة في التخطيط الإلهي، ومأخوذة بنظر الاعتبار فيه... باعتبار توقف اليوم الموعود عليه. بل اننا عرفنا: ان البشرية كلها من أول ولادتها والى يوم الظهور، كرسها التخطيط الإلهي، لإيجاد يوم الظهور.

وأما العلامات، فليس لها أي دخل من هذا القبيل... بل كل إنتاجها، هو إعلام المسلمين وتهيئة الذهنية عندهم لاستقبال يوم الظهور. وجعلهم مسبوقين بحدوثه في المستقبل أو بقرب حدوثه.

الفرق السابع:

ان علامات الظهور، يمكن بالانتباه أو بالفحص والتدقيق، التأكد مما وجد منها وما لم يوجد... باعتبارها حوادث يمكن تحديدها والإشارة إليها. ومن هنا انبثقت دلالتها للمسلمين على قرب الظهور.

وأما الشرائط، فقد قلنا إجمالا انه من المتعذر تماماً التأكد من اجتماعها.

وذلك، لأن منها: حصول العدد الكافي من المخلصين الممحصين في العالم. وهذا مما لا يكاد يمكن التأكد منه لأحد من الناس الاعتياديين. لأنه لا يمكن أن نعلم في الأشخاص المخلصين انهم وصلوا إلى الدرجة المطلوبة من التمحيص أو لا. ونشك في حدوث العدد الكافي في العالم منهم على استمرار. فيبقى العالم بحصول هذا الشرط منغلقاً تماماً. وإنما نعرف حصوله بحصول الظهور نفسه، فإن حصوله يكشف عن وجود سببه وشرطه قبله لا محالة.

فهذه هي الفروق بين علامات الظهور وشرائطه. ويمكن اعتبار الفرق

الأول فرقاً في المفهوم والمعنى. واعتبار الفروق الأخرى فروقاً في الخصائص والصفات.

الجهة الثانية:

ما هي وكم هي شرائط الظهور؟!:

ونحن إذ نتكلم عن شرائط الظهور، إنما نريد بها الشرائط التي يتوقف عليها تنفيذ اليوم الموعود، ونشر العدل الكامل في العالم كله فيه... ذلك اليوم الذي يعتبر ظهور المهدي عليه السلام الركن الأساسي لوجوده، ومن ثم يتحدد ظهوره عليه السلام بنفس تلك الشرائط. بالرغم من ان فكرة الغيبة والظهور، إذا لاحظناها مجردة، لن نجدها منوطة بغير إرادة الله عز وجل مباشرة. ولكن الله تعالى أراد أن يتحدد الظهور بنفس هذه الشرائط، لأجل إنجاح اليوم الموعود. لأن المهدي عليه السلام مذخور لذلك، فيكون بين الأمرين ترابط عضوي وثيق.

وإذا نظرنا إلى هذا المستوى الشامل ارتفعت الشرائط إلى ثلاثة:

الشرط الأول:

وجود الأطروحة العادلة الكاملة التي تمثل العدل المحض الواقعي، والقابلة التطبيق في كل الأمكنة والأزمنة، والتي تضمن للبشرية جمعاء السعادة والرفاه في العاجل، والكمال البشري المنشود في الآجل.

إذن، بدون مثل هذه الأطروحة يكون العدل الكامل منتفياً، وغير ممكن التطبيق. والعدل الجزئي الناقص، لا يمكن أن يكون مجدياً أو مؤثراً في سعادة البشرية لوجود جوانب النقص المفروضة فيه، تلك الجوانب التي يمكن ان تتأكد وتبرز، فتقضي على مثل هذا العدل في يوم من الأيام.

كما ان العدل الناقص، لا يمكن أن يكون مستهدفاً لله عز وجل، ومخططاً

له من قبله تعالى . . . فإن خطط له، هو الغبادة الكاملة التي لا تتحقق إلا بالعدل الكامل. وخاصة بعد ان عرفنا ان البشرية كلها قد عملت في التمهيد لذلك الهدف الإلهي، فهل من الممكن أن يخطط الله تعالى استغلال جهود البشرية ومآسيها لإيجاد العدل الناقص؟ وهل ذلك إلا الظلم الشنيع للبشر، جل الله تعالى عنه علواً كبيراً.

إذن، ينتج من هذا الشرط ثلاثة أمور:

الأمر الأول:

ان الهدف في الحقيقة هو تطبيق الأطروحة العادلة الكاملة التي لا تحتوي على ظلم أو نقص.

الأمر الثاني:

أن تكون هذه الأطروحة ناجزة عند الظهور. إذ مع عدمها يومئذ، ينتفي التطبيق بانتفائها، ويتعذر العدل المنشود في اليوم الموعود.

الأمر الثالث:

أن تكون هذه الأطروحة معروفة ولو بمعالمها الرئيسية، قبل البدء بتطبيقها. لما عرفنا في الحديث عن التخطيط الإلهي من أن تطبيقها يتوقف على مرور الناس بخط طويل من التجربة والتمحيص عليها، ليكونوا ممرنين على تقبلها وتطبيقها، ولا يفجؤهم أمرها ويهولهم مضمونها ويصعب عليهم امتثالها، فيفسد أمرها ويتعذر نجاحها، كما هو واضح.

الشرط الثاني:

وجود القائد المحنك الكبير الذي له القابلية الكاملة لقيادة العالم كله.

ويتم الكلام حول هذا الشرط ضمن نقطتين:

النقطة الأولى:

يرجع هذا الشرط بالتحليل إلى شرطين:

أحدهما: اشتراط وجود القائد للثورة العالمية. حيث لا يمكن تحققها من دون قائد.

ثانيهما: أن يكون لهذا القائد قابلية القيادة العالمية.

أما اشتراط وجود القائد، فقد برهنا عليه في بحث سابق عن أهمية القيادة في التخطيط الإلهي. وكل ما نريد إضافته هنا، هو التعرض إلى:

قيادة الجماعة:

فإن البديل المعقول الوحيد لقيادة الفرد، هو قيادة الجماعة. فإذا استطعنا مناقشة قيادة الجماعة وإبطاله، يعني الأخذ بقيادة الفرد، والإيمان بها كسبب وحيد رئيسي لنجاح اليوم الموعود.

فإن حال الجماعة لا يخلو من أحد ثلاثة أشكال:

الشكل الأول:

أن يكون كل فرد قابل للقيادة منفرداً فضلاً عن الاجتماع.

الشكل الثاني:

أن يكون كل فرد ناقصاً غير قابل لهذه القيادة، ولكن الرأي العام المتفق عليه بينهم، قابل لهذه القيادة.

الشكل الثالث:

أن يكون كل فرد ناقصاً ورأيهم العام ناقصاً أيضاً.

أما الشكل الأول، فلا شك أنه لا بد من إسقاطه عن نظر الاعتبار، لعدم تحققه في أي ظرف من ظروف التاريخ وعدم تحققه في المستقبل أيضاً ما دامت البشرية. ولم يدّعه أحد من المقننين أو المتفلسفين أو الاجتماعيين أصلاً.

فإذا توقف اليوم الموعود على مثل هذا الشكل، كان غير ممكن التطبيق إلى الأبد، وهو خلاف إجماع أهل الأديان السماوية المعترفة باليوم الموعود.

على أن افتراض: أن مجموع الأفراد إذا كانوا قابلين للقيادة منفردين، كانوا قابلين لها مجموعين... افتراض غير صحيح، لأن ممارسة القيادة الجماعية تصطدم بتنافي الآراء وتضادها، بخلاف القيادة الفردية. وتنازل البعض أو الأقلية عن آرائهم بازاء الآخرين، طبقاً للمفهوم الديمقراطي الحديث... يعني التنازل عن عدد من الآراء الكبيرة القابلة لقيادة العالم - كما هو المفروض في هذا الشكل الأول - وهو خسارة عظيمة وظلم مجحف.

وأما الشكل الثالث: فلا شك من ضرورة إسقاطه عن الاعتبار أيضاً، فإن اجتماع الناقصين لا يمكن أن يحقق كمالاً. فإذا كان رأيهم المتفق عليه ناقصاً، كانت قيادتهم ناقصة، وتعذر عليهم تطبيق الأطروحة العادلة الكاملة، بطبيعة الحال.

فإن قال قائل: إن هذا النقصان نسبي وغير محدد المقدار. فلعله يكون بمقدار، لا يكون مانعاً من المقصود.

قلنا له: كلا. فإن النقصان بالنسبة إلى كل مبدأ حياتي، راجع إلى الإخلال

بمتطلباته. فالنقص المقصود هنا، هو النقص المؤدي إلى الإخلال بمتطلبات الأطروحة الكاملة. ومعه يكون فرض النقصان مساوقاً مع عدم تطبيق تلك الأطروحة لا محالة.

وأما الشكل الثاني: فهو ممكن بحسب التصور. بأن يكون رأي الفرد ناقصاً غير قابل للإدارة والقيادة. ولكن يكون الرأي العام المتفق عليه قابلاً لها.

إلا أننا يجب أن نلاحظ أن قيادة العالم وتطبيق الأطروحة الكاملة من الدقة والأهمية، تفوق بأضعاف مضاعفة قيادة أي دولة في العالم مهما كانت واسعة وكبيرة. ومن هنا كان للرأي العام لأجل أن يكون كاملاً وقابلاً لهذه القيادة، أن يكون كل فرد من مكوِّنيه بالرغم مما عليه من نقصان، ذو درجة عليا من الوعي والشعور بالسمؤولية والتدقيق في الأمور، بحيث يتحصل بانضمامه إلى غيره ذلك الرأي العام المتفق عليه، القابل للقيادة. وهذه الصفة لم تصبح غالبة في الأفراد على طول الخط التاريخي الطويل لعمر البشرية تجاه أي مبدأ من المبادئ فضلاً عن العدل الكامل. وفي دولة محدودة، فضلاً عن أفراد البشرية في دولة عالمية.

وهذا أمر وجداني يعيشه كل فرد منا بالنسبة إلى ملاحظة أنحاء الفشل والاضطرار إلى التعديلات المتوالية في الدول والسياسات العامة، مهما كانت قيادتها شخصية أو جماعية. ولم تنجح أي ديمقراطية جماعية لحد الآن من الخطأ والزلل، بل العمد في أكثر الأحيان.

وإنما نقول بإمكان ذلك: في مورد واحد، وهو أهم الموارد وأعظمها، وهو أن هؤلاء الأفراد المخلصين الممحصين الذين عرفنا بعض صفاتهم وأساليب تمحيصهم وتربيتهم، إذا قاموا بمهمة يوم الظهور وتمرنوا على الحكم واطلعوا اطلاعاً واسعاً ومباشراً على دقائق وحقائق الأوضاع في العالم...

فيومئذ يكون ما يتفقون عليه رأياً كاملاً ناضجاً قابلاً للمشاركة في قيادة العالم على وجود الحقيقة. . . ومع استمرار التربية بين يدي المهدي عليه السلام يكون هذا الرأي العام (معصوماً) عن الخطأ لا محالة.

وهذا المستوى هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾. وهو الذي يعتمد عليه المهدي عليه السلام ويدخل في التخطيط الإلهي في قيادة العالم بعد وفاة المهدي عليه السلام.

وهذه الشورى ليست في الإسلام للمجتمع الناقص أو المنحرف أو الكافر.

وإنما تكون للمؤمنين الكاملين ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾[١].

فإذا استطاعت الأمة بالتربية الموسعة المتواصلة، تحت القيادة الحكيمة، أن يصل كل أفرادها أو جلهم إلى مثل هذه المرتبة العليا من الكمال، كان الرأي العام المتفق عليه، للأمة الإسلامية كلها (معصوماً) لا محالة، ويكون إجماعها سهل الإيجاد إلى حد كبير، ورأيها قابلاً لقيادة العالم بنفسه. ويومئذ يكون للديمقراطية القائمة على أساس العدل المحض وجه وجيه إن كان ثمة حاجة للاستغناء عن الحكم الفردي يومئذ.

وهذا هو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وآله وسلم فيما روي عنه: لا تجتمع أمتي على خطأ أو على ضلالة. فإن الأمة لا تكون كذلك إلا إذا كان رأيها العام معصوماً. لا ما يكون رأياً عاماً في عصر الفتن والانحراف وانقسام الأمة الإسلامية إلى مذاهب ومبادئ مختلفة.

---

(١) الشورى: ٣٧- ٣٨.

كما أنه هو المشار إليه بقوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ باعتبار أن التشريع الذي أنزل إليهم قابل لتربيتهم حتى يكونوا خير أمة أخرجت للناس.

ولن يكونوا على هذا المستوى فعلاً إلا مع الطاعة الكاملة، والوصول إلى مستوى (العصمة) في الآراء العامة. وأما في عصر الفتن والانحراف، فلعمري أنهم ليسوا بالفعل خير أمة أخرجت للناس.

ولذا قال الله تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1] ولن تكون الأمة آمرة وناهية ومؤمنة إلا في ذلك العصر.

وعلى أي حال، يستحيل على عصر الفتن والانحراف، أن يوجد رأياً عاماً كاملاً عادلاً، يمكنه أن يقود العالم قيادة جماعية في اليوم الموعود.

ومعه تبطل الأشكال الثلاثة للقيادة الجماعية، ومعه يتعين أن تكون القيادة منوطة بفرد واحد يكون على المستوى الكامل من قابلية قيادة العالم قيادة عادلة.

وهذا هو المقصود، فاننا لا نعني من القائد الواحد إلا ذلك.

الشرط الثالث:

وجود الناصرين المؤازرين المنفذين بين يدي ذلك القائد الواحد. وتتعين البرهنة على ذلك والقول به، بعد نفي فرضيتين:

---

(١) آل عمران: ١١٠.

الفرضية الأولى:

أن يفترض أن هذا الفرد الواحد، يغزو العالم بمفرده.

وهو واضح الامتناع والبطلان، مهما أوتي الفرد من كمال عقلي وجسمي... بعد التجاوز عن الفرضية الآتية، وهو إيجاد المعجزة من أجل تحقيق النصر.

فإن قال قائل: بأن هذا القائد يبدأ العمل منفرداً ويستمر به، حتى يحصل على عدد من الأصحاب والمؤيدين... كما فعل النبي ﷺ.

قلنا: هذا معناه أنه لا يغزو العالم إلا بعد تحصيل المؤيدين والمناصرين... لا أن يغزو العالم منفرداً.

الفرضية الثانية:

إن هذا القائد يغزو العالم عن طريق المعجزة. وقد سبق أن ناقشنا ذلك مختصراً. وحاصل المناقشة تتلخص في جوابين:

الجواب الأول:

أنه لو كانت الدعوة الإلهية على طول التاريخ، قائمة على إيجاد المعجزات من أجل النصر. لما وجد على وجه الأرض منذ خلقت أي انحراف أو ضلال، ولما احتاج الأمر إلى قتل وجهاد. في حين قدمت الدعوة الإلهية آلاف الأنبياء والعالمين كشهداء في طريق الحق، بما فيهم الأئمة المعصومين عليهم السلام، وأوضحهم الإمام الحسين عليه السلام في فاجعة كربلاء.

ولو كان الأمر كذلك، لما احتاج اليوم الموعود إلى أي تأجيل أو تخطيط، إذ يمكن إيجاده في أي يوم منذ ولدت البشرية إلى أن تنتهي. ولعل الأولى

والأحسن في مثل ذلك، أن يكون نبي الإسلام وهو خير البشر هو القائد العالمي المنفذ لليوم الموعود والهدف الأساسي من خلق البشر. مع أنه لم يشأ الله له ذلك.

الجواب الثاني:

إن الدعوة الإلهية على طول الخط، على التربية الاختيارية للفرد والأمة، على السواء.

وذلك: أنه بعد أن وهب الله تعالى للإنسان: السمع والبصر، والفؤاد يعني العقل والاختيار، وهداه النجدين: طريق الحق وطريق الباطل، وحمَّله مسؤولية أعماله والأمانة الكبرى التي رفضت السموات والأرض أن يحملنها، وحملها الإنسان... انه في هذا الجو تبدأ فكرة التمحيص.

ومن المعلوم أن الإيمان الممحص، ولو بشكله البسيط يكون أثمن وأرسخ من الإيمان القهري... فانه يتصف بالفحالة والضيق، وفي قلة الاستجابات الصالحة المطلوبة من قبل الإنسان. وهذا الإيمان القهري هو الذي يمكن أن ينتج من جو المعجزات.

إذن، فحيث تنتفي هاتين الفرضيتين، يتعين ما المطلوب، وهو احتياج القائد في تطبيق العدل على العالم إلى الناصرين والمؤيدين، لكي ينتشر بالجهاد انتشاراً طبيعياً.

وتندرج في هذا الشرط، الصفات الأساسية التي يجب أن يتصف بها هؤلاء المريدون. ليكون هذا الشرط في واقعه: وجود المؤيدين على النحو المعين لا المؤيدين كيف كان.

إذ من المعلوم أن المؤيدين المصلحين، لا يمكن أن يقوموا بالمهمة

المطلوبة، باعتبار ما تحتاجه من التضحيات الجسام التي تنبو مصالحهم عنها من أول الطريق.

وأهم ما يشترط في هؤلاء المؤيدين، شرطان متعاضدان، يكمل أحدهما الآخر، ويندرج تحتهما سائر الأوصاف:

أحدهما: الوعي والشعور الحقيقي بأهمية وعدالة الهدف الذي يسعى إليه، والأطروحة التي يسعى إلى تطبيقها.

ثانيهما: الاستعداد للتضحية في سبيل هدفه على أي مستوى اقتضته مصلحة ذلك الهدف.

وبمقدار ما يوجد في نفس الفرد من هاتين الصفتين، يكون الفرد، قابلاً للعمل الاجتماعي العام والجهاد في سبيل الحق. والتكامل فيهما هو الذي ينتج عن التمحيص الإلهي. ووجودهما في العدد من الناس الكافي لغزو العالم وتطبيق الأطروحة العادلة الكاملة فيه... الذي هو الشرط الثالث للظهور... هو النتيجة التي تحصل عن التخطيط الإلهي لليوم الموعود. كما سبق أن عرفنا.

وبمقدار ما يفقد الفرد من هاتين الصفتين، يكون عاجزاً عن العمل والجهاد.

مهما كان مخلصاً في تدينه على الأساس الانعزالي المتقشف المتحنث. وبمقدار ما تفقد الأمة من هاتين الصفتين تكون عاجزة عن تطبيق العدل في ربوعها، حتى لو اجتمعت كل أفراد الأمة بل جميع البشرية لإنجاحه، ما دام اجتماعهم مصلحياً غير مخلص ولا واع ولا ممحص.

ومن هنا، استهدف التخطيط الإلهي، إيجاد التمحيص الذي يربي الأمة التربية التدريجية البطيئة نحو إيجاد هذين الشرطين، وتكاملهما في نفوس الأفراد، بحيث يكونون قابلين لقيادة العالم. فيحققون هذا الشرط الثالث. وقد سبق أن حملنا فكرة كافية عن أسلوب ذلك.

* * *

يبقى علينا بعد الاطلاع على الشروط الأساسية للظهور، التعرض إلى ملاحظتين:

الملاحظة الأولى:

أنه قد يقال بلزوم شرط رابع لتطبيق الأطروحة العادلة الكاملة في اليوم الموعود، وهو وجود قواعد شعبية كافية ذات مستوى في الوعي والتضحية كاف، من أجل هذا التطبيق، لتكون هي رائده الأول في اليوم الموعود.

فإن المخلصين الممحصين الذين يتوفر فيهم الشرط الثالث، يمثلون الطليعة الواعية لغزو العالم، وأما تطبيق الأطروحة فيحتاج إلى عدد أكبر من القواعد الشعبية الكافية ليكونوا هم المثل الصالحة لتطبيق الأطروحة العادلة الكاملة في العالم، حين يبدأ انتشاره يومئذ.

وهذا الأمر، لا يخلو من صحة، وقد وفر الله تعالى له في تخطيطه، نتيجة للتمحيص، مستويين من الشعور:

المستوى الأول:

الإخلاص الاقتضائي الذي عرفنا أنه عبارة عن استعداد جماعة للتجاوب

مع تجربة يوم الظهور وتطبيقاته، وقلنا أن هذا الشعور يوجد عند كثير من البشر، وإن كانوا يمارسون قبل الظهور شيئاً من العصيان والانحراف.

المستوى الثاني:

الشعور باليأس من كل التجارب السابقة التي ادعت لنفسها حل مشاكل العالم، ثم افتضح أمرها وانكشف زيفها، نتيجة للتمحيص والتجربة.

وينعكس هذا الشعور في النفس، على شكل توقع غامض لأطروحة عادلة جديدة تكفل الحل الحقيقي للمشاكل والمظالم البشرية. وسيتمثل هذا الشعور بالارتباط نفسياً، بأول أطروحة شاملة تدعي لنفسها ذلك.

وسيكون كلا المستويين من أفضل الأرضيات الممكنة لتلقي يوم الظهور، على ما سنشرح في التاريخ القادم.

وأما وجود قواعد شعبية موسعة في العالم، لها شعور واضح بالرضا بتطبيقات اليوم الموعود، فهو مما لا ينبغي أن نتوقعه، بعد الذي عرفناه من التخطيط الإلهي والحديث النبوي المتواتر، من أنه لا بد أن تمتلئ الأرض ظلماً وجوراً... إلى حين الظهور.

وهو - أيضاً - مما لا حاجة إليه، بعد وجود هذين المستويين من الشعور، لدى الناس... وابتداء المهدي عليه السلام بغزو العالم، من زاوية في غاية الشدة والقوة، على ما سنعرف في التاريخ القادم أيضاً... وسنعرف الضمانات المتوفرة لانتصاره يومئذ... بدون أن يؤخذ وجود هذه القواعد الشعبية بنظر الاعتبار.

الملاحظة الثانية:

إن هذه الشرائط الأربعة من شرائط تطبيق العدل المحض

في اليوم الموعود.

وإن قلنا: شرائط الظهور، فتصبح الشرائط ثلاثة، لأن معنى الظهور مستلزم لوجود قائد معد في التخطيط الإلهي لتكفل مسؤولية اليوم الموعود، وهو يعني التسليم المسبق بتحقق الشرط الثاني. فلا تبقى لدينا إلا شرائط ثلاثة.

ولو غيرنا وقلنا: شرائط الظهور في الإسلام، فقد أخذنا الشرط الأول مسلّماً مفروض التحقق، فلم يبق سوى الشرطين الأخيرين.

ولو أننا مشينا خطوة أخرى، فقلنا بقلة أهمية الشرط الرابع بازاء الثالث، بحيث حذفنا الرابع واعتبرناه من الصفات لا من الشرائط، أو أدرجناه في الثالث، باعتبار أنهما يعودان إلى فكرة واحدة من نتائج التمحيص، يتكفل الثالث وجودها المعقد القليل ويتكفل الرابع وجودها المبسط العريض... لو مشينا هذه الخطوة، لم يبق لدينا إلا الشرط الثالث، وهو وجود العدد الكافي من المخلصين لغزو العالم. وهو الشرط الأساسي الذي قلنا أن التخطيط الإلهي، بعد الإسلام قد استهدفه.

إلا أن الإعراض عن الشرطين الأولين، لا يعني إسقاطهما عن الشرطية، وإنما يعني ذينك الشرطين، ويكون التركيز - بطبيعة الحال- على الشرط المتبقي.

ولا بد لنا في نهاية المطاف أن نشير أن هناك فرقاً أساسياً بين الشرطين الأولين، والشرطين الأخيرين. فالأولان يتوقف عليهما أصل وجود اليوم الموعود. إذ بدون الأطروحة العادلة والقائد الرائد لها، لا معنى لوجوده أصلاً. والشرطان الأخيران، مما يتوقف عليه نجاح اليوم الموعود وتحقيق أهدافه.

وبخاصة الثالث الذي هو وجود العدد الكافي من المخلصين لغزو العالم، إذ لولا وجودهم لما أمكن النجاح إلا بالمعجزة، التي عرفنا أن ديدن الدعوة الإلهية على عدم إيجادها.

• • •

الجهة الثالثة:

في ارتباط شرائط الظهور بالتخطيط الإلهي.

حملنا - إلى الآن - فكرة مهمة عن هذا الارتباط. ينبغي لنا في هذه الجهة أن نركز الكلام ونفصله، مع تحاشي التكرار جهد الإمكان... وذلك ضمن نقطتين:

النقطة الأولى:

عرفنا في الفصل الذي عقدناه لبيان التخطيط الإلهي لليوم الموعود: ان هذا التخطيط مكرس خصيصاً لأجل إنجاح اليوم الموعود وضمان وجود العدل فيه.

ولو لم يكن لذلك شيء من الشروط، لأمكن إيجاده في أي وقت. ولأمكن الاستغناء عن التخطيط أيضاً. وإنما تبرهن وجود هذا التخطيط، باعتبار البرهنة على وجود هذه الشرائط من ناحية، والبرهان بشكل طبيعي غير إعجازي، فيما لا ينحصر توقفه على المعجزة.

والتخطيط الإلهي يقوم بتربية البشرية بأسلوب معين لأجل إيجاد هذه الشرائط تدريجاً خلال عمر البشرية الطويل.

فأول هذه الشرائط وجوداً هو حصول الأطروحة الكاملة العادلة المتمثلة بالإسلام، باعتبار أن البشرية قبله كانت في مرحلة التربية التدريجية للإعداد لفهم هذه الأطروحة، كما سبق أن أوضحنا.

ولم يكن في الإمكان أن تسود العالم أطروحة سماوية سابقة، باعتبار كونها (عدلاً مرحلياً) يقصد به التربية إلى تقبل العدل الكامل أكثر مما يقصد به التطبيق الشامل. مضافاً إلى ما قلناه من أن تمحيص البشرية لم يكن كاملاً، وكان لا بد لها أن تمر بالتمحيص على الأطروحة الكاملة نفسها.

ومن ثم يكون لهذا الشرط السبق المنطقي في التربية على سائر الشرائط الأخرى... إذ لا معنى لوجود القائد قبل وجود القانون الذي يوكل إليه تطبيقه... كما لا معنى للتمحيص الكامل المنتج للشرطين الأخيرين، إلا التمحيص على الأطروحة الكاملة.

فإن قيل: فلماذا لا يمكن وجود القائد قبل وجود الأطروحة أو معها.

قلنا في جوابه: إن أردتم من وجود القائد، وجوده وممارسته للقيادة فعلاً... فهذا مما لا يمكن نجاحه قبل وجود الأطروحة العادلة والتمحيص الكامل. وإن أردتم وجوده، ولو في الغيبة، بمعنى وجوده قبل الإسلام غائباً حتى يأذن الله تعالى له بالظهور.

فهذا الاحتمال، يحتوي على إسفاف في التفكير. إذ لا موجب لوجوده في ذلك الحين. وإذا كان خالياً عن ـ الحكمة ـ لم يكن الله تعالى ليفعله. بل ان الحكمة في تأخره عن الإسلام، لعدة نواحٍ مهمة: منها طول الغيبة طولاً مفرطاً لو وجد قبل الإسلام. مما يسبب فتح أفواه الشكاكين أكثر. ومنها: عدم وجود إرهاصات كافية واردة لنا من قبل الإسلام لإثبات وجوده لو كان موجوداً. إذن

فوجوده يومئذ معناه ضياعه على الناس وانتفاء البرهان على وجوده أصلاً. وهو محذور مهم خطط الله تعالى لرفعه رفعاً باتاً. إلى غير ذلك من النواحي. ومعه فيتعين أن يكون القائد موجوداً ومولوداً بعد نزول الأطروحة العادلة الكاملة، المتمثلة بالإسلام.

وكان ثاني الشروط تحققاً هو وجود القائد المذخور لليوم الموعود، انطلاقاً من زاوية الاعتقاد بغيبته عليه السلام.

وقد عرفنا لذلك آثاراً مهمة تمت إلى التمحيص بصلة... كالتربية على طاعته واحترام رأيه وامتثاله. ولولا الغيبة لم يمكن تحقق ذلك. مضافاً إلى مصالح أخرى سنذكرها في الجهة الآتية إن شاء الله تعالى.

ومعه يكون لهذا الشرط التقدم المنطقي في الرتبة على الشرطين الأخيرين، باعتبار كونهما منبثقين عن التمحيص... ذلك التمحيص الذي يقوم - بالنسبة إلى جزئه المهم - على تقدم وجود القائد وغيبته، بحيث لولا ذلك لكان التمحيص ناقصاً نقصاً مهماً. إلى حد يكاد يتعذر إيجاد اليوم الموعود وإنجاحه، على ما سنسمع في التاريخ القادم.

وأما الشرطان الأخيران: أعني وجود الناصرين الممحصين بالعدد الكافي لغزو العالم، ووجود القواعد الشعبية المطبقة... فهما آخر الشرائط تحققاً... وهما يوجدان مقترنين نتيجة للتمحيص الطويل، في عصر الفتن والانحراف، خلال عصر الغيبة الكبرى، كما سبق أن أوضحنا.

النقطة الثانية:

إن هذه الشرائط التي ذكرناها لليوم الموعود، مع التحفظ على روحها،

والتوسع في مدلولها، هي شرائط الدعوة الإلهية في كل حين. وبمقدار ما تتضمنه دعوة أي نبي أو إمام من نقاط قوة وتركيز لهذه الشروط، فانها تستطيع التوسع والانتشار، وبمقدار ما تفقده منها تأخذ بالضيق والضمور وتضطر إلى الانسحاب الجزئي، أو الأخذ بالعزلة والتقية.

بل نستطيع القول بأن هذه الشرائط، بصيغها الموسعة، تكون هي الشروط الأساسية لنجاح أي دعوة كانت مما يتوقع لها التوسع والانتشار، أو أنها تطمع بذلك بشكل وآخر. فبمقدار ما تحرزه من هذه الشروط تستطيع التقدم والسيطرة، بمقدار ما تخسره منها، تضطر إلى الانسحاب والعزلة ومجاملة الناس.

ولا يلزمنا في تصور ذلك، إلا تعميم معنى الشرائط وتوسيعها إلى حد ما، فيصبح الشرط الأول: هو وجود الفكرة المنظمة القانونية التي تدعي لنفسها إصلاح العالم... وهو ما يصطلح عليه بالمبدأ في لغة العقائديين، أياً كانت وجهته.

فإذا كان للمبدأ قائد محنك قدير، وكان له من المؤيدين والمخلصين، المقدار الكافي لنشر دعوته، ومن القواعد الشعبية المناصرة له المقدار الكافي أيضاً... كتب لدعوته النجاح والتقدم لا محالة.

وأقصى ما تحاول الدعوات في العالم جاهدة لإيجاده، هو إيجاد هذين الشرطين الأخيرين، بعد فرض كونها دعوات مبدأية ذات قيادة. وقد كُرس التخطيط الإلهي على تحقيقها أيضاً، بعد أن أصبحت الأطروحة العادلة الكاملة بميلاد المهدي عليه السلام دعوة ذات قيادة.

وإن لم تستطع الدعوات إحراز هذه الشرائط، وبخاصة الشرطين

الأخيرين... كان ذلك سبباً لتقهقرها وتقدم خصومها ومناوئيها. فأما أن تبقى في ميدان الجهاد والمجابهة حتى تفنى عن آخرها وتنقطع دعوتها بالمرة. وأما أن تأخذ بمسلك السرية والتكتم ومجاملة الناس. لأجل المحافظة على مبدئها وقواده... وهو المعنى الرئيسي للتقية، كما أوضحنا فيما سبق.

إذن فالتقية تقترن على طول الخط، وفي جميع الدعوات في العالم، مع قصور هذه الشرائط عن ضمان النجاح... كالمسلك الذي تطبقه الأحزاب المبدأية في العصور المتأخرة، من السرية والكتمان... وكما أمر به الإسلام في العصر الذي لم تتحقق فيه هذه الشرائط بالنسبة إلى الأطروحة العادلة الكاملة، وهو عصر ما قبل الظهور.

وعلى أي حال، فالدعوة الإلهية، على طول الخط، كانت تدور مدار وجود هذه الشرائط وعدمها. ويتجلى ذلك بكل وضوح، في التاريخ الإسلامي. حيث نرى النبي ﷺ كان ملتزماً في أول دعوته بالسرية والتكتم أو (التقية) حينما لم يكن الشرطان الأخيران: الأنصار والمؤيدين متوفرين لديه. ولم يبدأ دعوته إلا بعد أن أحرز من محتوى الشرطين ما يكفي لضمان البقاء. ولم يبدأ بالحرب مع الأعداء، في أول غزواته في بدر، إلا عندما حصل على العدد الكافي من الناصرين المندفعين بالحرارة العاطفية الثورية، التي قلنا أنها البديل عندهم عن الوعي والإخلاص الممحص، لعدم توفر التمحيص الكافي بالنسبة إليهم.

واستمر الفتح الإسلامي مبنياً على هذا الأساس... وإنما بدأ الانحطاط والضمور، مع الانحراف وقلة إخلاص المخلصين وعدم اندفاع المندفعين.

ونرى الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام، إنما يأخذ بزمام الإصلاح في الأمة الإسلامية، حين يجد الناصرين المؤيدين، فيناجز الناكثين

والقاسطين والمارقين من القتال. ولولا ذلك، لم يكن الجهاد لازماً عليه. كما نفهمه من قوله عليه السلام: أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر، وقيام الحجة بوجود الناصر، وما أخذ الله على العلماء أن لا يقاروا على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبلها على غاربها ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهد عندي من عفطة عنز[1].

وإنما أخذ الله تعالى على العلماء ذلك، عند قيام الحجة بوجود الناصر، وهو عبارة عن توفر الشرط الثالث، الذي لولاه لما وجب على القائد الإسلامي تكفل القيادة، ولاعتزل علي عليه السلام هذا المركز الهام، ولم يغرّه ما فيه من منزلة وشهرة ومال.

وإنما أكد على توفر الشرط الثالث، باعتبار وضوح توفر سائر الشروط في دعوته عليه السلام. وعدم وجود بوادر انخرامها إلا فيما يعود إلى هذا الشرط. فإن دعوته مبدئية ذات قيادة، وهو بشخصه القائد... وإنما كان عليه السلام يعاني من توفر الشرط الثالث... حيث نراه في العهد الأخير من خلافته يخاطب أصحابه بأنهم ملئوا قلبه قيحاً ويتمنى إبدالهم بخير من صرف الدينار بالدرهم. وهذا راجع في حقيقته والتأسف من ضعف الشرط الثالث يومئذ وعدم توفره بالنحو المطلوب... للظروف التي كان يعيشها المجتمع يومئذ، مما لا مجال للإفاضة فيه.

وحينما يتولى ابنه الإمام الحسن عليه السلام مركز الخلافة، والقيادة، ويحاول مناجزة القتال للجهاز المنحرف الحاكم... يتفرق عنه جيشه، ويستطيع معاوية شراء ضمائر قادته واحداً بعد واحد. حتى لم يبق للإمام عليه السلام من جيشه

(١) أنظر نهج البلاغة شرح محمد عبدة، ط. مصر، ص٣١ وما بعدها.

ناصر... اضطر إلى الصلح مع معاوية... وهذا في واقعه، رجوع إلى المحافظة على الدعوة المبدئية بعد انخرام الشرط الثالث... أو الرجوع إلى التقية، بالمعنى الذي قلناه بعد عدم وجود الناصرين المؤيدين. ولتفصيل ظروف هذا القائد الممتحن الصابر مجال آخر.

ويأتي دور الإمام الحسين بن علي عليه السلام بعد ذلك... فتأتيه مئات الكتب من العراق من الناصرين المؤيدين الثائرين على الحكم الأموي المنحرف... فتتوفر له (الحجة بوجود الناصر)... أعني الشرط الثالث، بعد توفر الشرائط الأخرى. فيشعر بوجوب قيامه بالدعوة الإلهية والثورة لطلب الإصلاح في أمة جده رسول الله صلى الله عليه وآله، كما قال هو عليه السلام[1].

وإذ ينحرف عنه هؤلاء الناصرون، وينخرم الشرط الثالث، نجد ما يترتب عليه من مأساة دموية كبرى في كربلاء... عليه وعلى آله وأصحابه السلام. فعيطي بذلك درساً خالداً من التضحية والجهاد في سبيل الأطروحة العادلة الكاملة، ليكون موقفه محكاً مقتدىً، لمن يريد أن يكون من الناجحين في التمحيص الإلهي الكبير.

ويأتي دور الأئمة المعصومين عليهم السلام المتأخرين عن الإمام الحسين عليه السلام... فيبدأ عصر الهدنة، كما سمعنا تسميته بذلك من قبلهم عليهم السلام... وذلك: باعتبار عدم توفر الشرط الثالث وانعدام الناصرين المخلصين، أو قلتهم عن المقدار الكافي للثورة.

ويتضح ذلك بجلاء من موقف الإمام الصادق عليه السلام تجاه مبعوث الثورة الخراسانية إليه. الذي كان يقول له بأن الثائرين هناك أصحابه مؤيدوه، فلماذا

---

(١) مقتل الحسين، ص١٣٩.

لا يقوم بالجهاد والمطالبة بحقه في الحكم المباشر. . . قائلاً: يا ابن رسول الله لكم الرأفة والرحمة، وانتم أهل بيت الإمامة. ما الذي يمنعك أن يكون لك حق تقعد عنه، وأنت تجد من شيعتك مائة ألف يضربون بين يديك بالسيف.

فقال له عليه السلام: اجلس يا خراساني رعى الله حقك. ثم قال: يا حنيفة، اسجري التنور، فسجرته حتى صار كالجمرة وأبيض علوه. ثم قال: يا خراساني قم فاجلس في التنور. فقال الخراساني: يا سيدي يا ابن رسول الله لا تعذبني بالنار، أقلني أقالك الله. قال: قد أقتلك.

قال الرواي - وهو حاضر ذلك المجلس -: فبينما نحن كذلك، إذ أقبل هارون المكي، ونعله في سبابته. فقال: السلام عليك يا ابن رسول الله. فقال له الصادق عليه السلام: ألق نعلك من يدك واجلس في التنور. قال: فألقى النعل من سبابته، ثم جلس في التنور. وبعد هنيهة التفت إليه الإمام عليه السلام، وقال: كم تجد بخراسان مثل هذا. فقال: والله ولا واحداً. فقال: أما إنّا لا نخرج في زمان نجد فيه خمسة معاضدين لنا، نحن أعلم بالوقت[1].

يتضح لنا من هذه الرواية أمران مقترنان:

أحدهما: الصفة التي يجب أن يتحلى بها الناصر للدعوة الإلهية، نتيجة للإخلاص. الممحص الذي عاش تجربته واقتطف ثمرته. وهي الإيمان المطلق بالقيادة، بحيث لا يصرفه عن امتثال تعاليمها صارف، ولا تأخذه فيها لومة لائم، وإن جر عليه الوبال، وإن لم يفهم وجه الحكمة من التعاليم، بعد أن كان لديه الإيمان المطلق بالتعاليم.

---

(١) البحار، ج١١، ص١٣٩، عن المناقب لابن شهر آشوب.

ثانيهما: إن هذه الصفة غير موجودة في عصر التمحيص والامتحان، أو عصر الهدنة، في العدد الكافي للقيام بالدعوة الإلهية. ومن ثم يكون الشرط الثالث منخرماً. فلا يكون القيام بهذه الدعوة واجباً ولا يوجد أي ضمان لنجاحها على تقدير القيام بها... كما كان عليه الحال، في ثورات الثائرين في عصر الأمويين والعباسيين، فانها جميعاً كانت تفقد الضمان للنجاح، فكان يكتب عليها الفشل، مهما قويت واتسعت برهة من الزمن.

وبهذا نستطيع أن نبين بوضوح، الأهمية البالغة للشرط الثالث الذي يريد الله تعالى بتخطيطه العام إيجاده في البشرية من خلال التمحيص، وما هي النتيجة الكبرى التي سوف ينتجها، وما هي الصفة التي يتحلى بها المخلص الممحص الذي يستطيع المشاركة في تطبيق العدل الكامل على العالم كله، بين يدي القائد المهدي عليه السلام. إذن، فهذه الشرائط في واقعها، هي شرائط الدعوة الإلهية في كل حين.

وحيث لم تتوفر على مر العصور، لم تستطع هذه الدعوة شق طريقها المأمول في العالم بالرغم من أن الله تعالى انزل دينه ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾. وستشق هذه الدعوة طريقها، ويتحقق مدلول هذه الآية الكريمة، في أول فرصة تتوفر فيها هذه الشروط. وليس ذلك إلا عند ظهور الإمام المهدي عليه السلام.

ولولا التخطيط الإلهي لإيجاد الشروط، باعتبار استهدافه لليوم الموعود، لأمكن عدم تحقق شيء من هذه الشروط في أي وقت من عمر البشرية الطويل.

ولكن الله تعالى، وهو اللطيف الخبير بعباده، شاء أن يتفضل على البشرية

باليوم الموعود، وأن يربيها لأجل أن يزرع فيها بذور المسؤولية تجاهه وإيجاد الشروط التي بها تستطيع تكفل مسؤوليته.

• • •

الجهة الرابعة:

التخطيط الإلهي الخاص بإيجاد القائد وكان للشرط الثاني حصته من التخطيط الإلهي لليوم الموعود، وهو وجود القائد العظيم الذي يتكفل بعلمه وتعاليمه تطبيق العدل المحض الكامل على العالم كله.

ويكون ذلك على مستويين، الأول: بلحاظ إيجاد قابلية هذه القيادة في شخص القائد. والثاني: باعتبار تكامل هذه القابلية لديه، باعتبار أطروحة محتملة سنذكرها ونحاول فهمها من الأدلة الإسلامية.

ومن هنا يقع الكلام في تفاصيل هذين المستويين.

المستوى الأول:

في إيجاد القائد العظيم، بمعنى إيجاد الشخص القابل للقيادة العالمية أساساً.

ينحصر السبب لإيجاد هذه القابلية في أي شخص، بعد وجود القابلية الذاتية فيه من ناحية نفسية وعقلية لذلك،.. ينحصر إيجادها بالتعليم والتثقيف من قبل شخص مطلع على أساليب هذه القيادة وقواعدها العامة.

فإن لم يكن على وجه الأرض قائد تام المواصفات، ليتكفل تربية من بعده من الأفراد ليصبحوا قواداً. واقتضت المصلحة إقامة الحجة على البشر بإيجاد

مثل هذا القائد... سمح (قانون المعجزات) الذي سبق أن ذكرناه، بوجود معجزة الوحي لإيجاد النبي القائد. فيكون المعلم والموجه والمربي الذي يوجد من شخص النبي قائداً عالمياً هو الله تعالى. فيوجد النبي حاملاً إلى البشر أطروحته المبدئية، وقابلاً للقيادة بمقدار من يدعوهم إلى الإيمان به وأتباعه من البشر. فإن كانت دعوته عالمية وجب أن تكون قابليته عالمية، كما سبق أن برهنا عليه... وهكذا كان نبي الإسلام ﷺ.

وأما إذا كان مثل هذا القائد موجوداً على وجه الأرض، واحتاجت الدعوة الإلهية إلى قائد جديد. فلا حاجة لإقامة المعجزة في مثل ذلك لتربية عنصر القيادة في القائد الجديد. لإمكان حصول التعليم على هذا المستوى الرفيع من قبل القائد الموجود، بعد اختيار الشخص القابل ذاتاً لتلقي هذا التعليم.

وقد يخطر في الذهن، التساؤل عن الحاجة إلى التعليم، في حين نجد الكثير من القادة المعروفين كنابليون مثلاً، قد قاموا بالقيادة حسب المنهج الذي رسموه، بدون تعليم مسبق.

والجواب عن ذلك: إن تعليم القائد يمكن أن يكون على أحد مستويات ثلاثة:

المستوى الأول:

تلقيه للثقافة العامة الموجودة لدى الفكر البشري، في فرع واحد أو عدة فروع.

والتعليم على هذا المستوى موجود بالنسبة إلى كل قائد، ممن يخطر على ذهن السائل. يشترك في ذلك القادة على المستوى الإلهي والقادة على

المستوى المادي.

بل من الممكن أن نقول: أن القيادة لا تتوقف على هذا التعليم أصلاً. بحيث لو كان القائد جاهلاً بفروع المعرفة أمكن أن ينجح في قيادته، كما حدث أحياناً في التاريخ، في بعض القيادات القديمة. نعم، لو كان القائد هاوياً على مثل هذه المعرفة كان - بلا شك - أفضل.

المستوى الثاني:

معرفته قيادة الحروب، وتحريك القطاعات العسكرية. وهو وإن كان ضرورياً للقائد، إلا أن القواعد العامة لذلك، مما يتلقاه القادة بالتعليم، وبدونها يكون فاشلاً لا محالة. وليس كما ظن السائل من تولي القيادة بدون تعليم.

وأما تطبيق ذلك في الحروب، فهو تابع إلى ذكاء القائد وعمق خبرته، وليس مما يتلقاه بالتعليم من كل القادة.

المستوى الثالث:

معرفته للايديولوجية العامة التي يستهدف نصرها ويحاول إنجاحها وتطبيقها.

وهذا هو الجانب المهم الذي يعطي للقيادة مغزاها وللحروب معناها. وهو المحك الذي تختلف به القيادة الإلهية عن غيرها. فإن القادة الاعتياديين يعرفون ذلك من الاتجاهات العامة التي يستوحونها من المصالح الخاصة أو المجتمع المنحرف أو الكافر. فتكون فكرة السيطرة أو الوطنية أو القومية أو غيرها عناصر كافية لتغطية هذه الحاجة، من دون حاجة إلى التلقي بالتعليم.

وأما القيادة القائمة على الأساس الإلهي، فهي تنطلق من عدة زوايا كل واحدة منها تحتاج إلى تعليم أولاً وإلى مران وتمحيص ثانياً وإلى تكامل وتعميق ثالثاً.

الزاوية الأولى:

استيعاب الهدف الذي من أجله وجدت البشرية واستهدفت هدايتهم، ومن أجلها بعث الأنبياء ووجب الجهاد، وأقيمت الدولة الإسلامية.

الزاوية الثانية:

استيعاب دقائق القانون الذي يطبق في المجتمع البشري، سواء على مستوى الدولة، أو قبلها.

الزاوية الثالثة:

طرق الارتباط بالناس وممارسة هدايتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر والقواعد العامة التي تمت إلى ذلك بصلة.

الزاوية الرابعة:

الغيرية المطلقة: ورفض الأنانية، بحيث يمكن الفرد في أية لحظة أن يضحي بكامل كيانه في سبيل الهدف الذي عمل من أجله.

إلى غير ذلك من الزوايا، التي يكون التعبير عنها باختصار سهلاً، وأما تعميقها وتطبيقها في عالم الحياة، في غاية الصعوبة، مضافاً إلى المستويين الأول والثاني، العاملين لكل قائد. ومن هنا احتاجت القيادة الإلهية إلى تعليم.

وهذا هو الذي حصل، بعدما قام التخطيط الإلهي، على إيجاد السبب

المزدوج في القائد: القابلية الذاتية والقابلية التربوية، ومنه نستطيع اقتناص عدة نتائج مهمة:

النتيجة الأولى:

حين يكون السبب في التربية هو التعليم المباشر من قبل الله تعالى أو المتصل به بالواسطة... يكون من المستحيل عادة وجود قائد عالمي يقوم في قيادته على أساس مادي. وهو - أيضاً - مما لم يحدث في أي فترة من التاريخ. فإن القيادة العالمية لا تكون إلا من التعليم الإلهي، ذلك التعليم المنافي للأساس المادي. وكل القواد الدنيويين أو الماديين ليسوا عالميين على أي حال، وإن قادوا دولاً كبيرة.

النتيجة الثانية:

إذا كان هذا هو سبب وجود القائد، أمكننا دحض كل خلافة يدعيها صاحبها ويقوم بها عن طريق (السيف) في أي عهد متأخر عن صدر الإسلام، مما يكون قبل الظهور. كخلافة العباسيين والعثمانيين أو كل من كان على وتيرتهم، ممن نعلم بعدم توفر هذا السبب لديه ولدى أعقابه من الخلفاء.

النتيجة الثالثة:

أننا نقول نفس الشيء بالنسبة إلى المهدي الذي يولد في آخر الزمان، طبقاً للفهم غير الإمامي.

فإنه بعد وضوح انتفاء الوحي بالنسبة إليه، لا يكون قابلاً للقيادة العالمية التي يجب أن يتكفلها بعد انفصاله عن التربية الإلهية المباشرة وبالواسطة أيضاً. فإنه لا يوجد في عصره قائد عالمي سابق عليه ليباشر تعليمه وتكميله.

فإن قال قائل: إن التمحيص الساري المفعول خلال عصر الغيبة الكبرى، كفيل بإيجاد مثل هذا الشخص.

قلنا له: كلا، فإن غاية ما للتمحيص من مقدرة هو إيجاد الأفراد المخلصين إلى درجة عالية، بحيث يستطيعون المشاركة في قيادة العالم، تحت إشراف القائد الأكبر. وأما أن يخلق التمحيص شخصاً له قابلية قيادة العالم، من خلال عدد محدود من السنوات... فلا.

فإن قال قائل: فإن التمحيص يمكن أن يفرض مضاعفة بالنسبة وإليه وتشديده عليه، ليصنع منه قائداً عالمياً.

قلنا في جوابه: إن التمحيص قاصر أساساً على إيجاد القائد العالمي. فإن التمحيص شيء والقيادة شيء آخر. ولولا التعليمات الموسعة التي يتلقاها الممحصون من قبل المهدي عليه السلام لقيادة العالم بعد ظهوره... لما أمكنهم ممارسة القيادة لمجرد كونهم ممحصين. فإن ما يفعله التمحيص هو تقوية الإيمان والإخلاص وقوة الإرادة، وهذا مما لا يكفي وحده لقيادة أياً كانت، فضلاً عن قيادة العالم. وإن كان يكفي لأن يصبح الفرد جندياً فدائياً في جيش عقائدي ثوري. وليس للمخلصين الممحصين من وضعية في غزو العالم أكثر من ذلك.

ونحن، وإن كنا لا ننكر ما للتمحيص من أثر بالغ في تثقيف الفرد من النواحي الأخلاقية والدينية، واطلاعه على المناقشات المناسبة لتيارات الانحراف في عصره من وجهة نظر الإسلام. إلا أنها - على أي تقدير - لا يمكن أن تفي بالقيادة العالمية.

إذن، فلا يمكن للتمحيص أن يوجد المهدي على المستوى المطلوب.

وكل شخص وجد متأخراً في الزمان منفصلاً عن التعليم الإلهي ولو بالواسطة... فإنه لا يمكن أن يقوم بمهمة اليوم الموعود.

فإن قال قائل: إن المهدي متصل بالله تعالى مباشرة عن طريق الإلهام، كما يقول به ابن عربي في الفتوحات المكية[١] وغيره. ومعه فالإلهام هو الذي يباشر تربيته ولا حاجة له إلى تلقي التعليم بالواسطة.

قلنا له: ان هذا صحيح، بالنسبة إلى زمن توليه القيادة فعلاً، ولا كلام لنا في ذلك. وإنما الكلام في جعله قائداً لكي يمارس مهمته بعد ذلك. ولم يدع ابن عربي تلقي المهدي للإلهام قبل توليه القيادة، كذلك وكل من يفهم المهدي بغير الفهم الإمامي.

ومعه يتعذر القول بوجود المهدي وولادته في آخر الزمان، طبقاً لذلك الفهم... لأن كل من يوجد في العصر المتأخر عن عصر التشريع، لا يمكن أن يكون قائداً عالمياً لانقطاعه عن الوحي ولو بالواسطة. لا يستثنى من ذلك أحد.

ومعه فلو قصرنا النظر على ذلك، لزم القول بفشل التخطيط الإلهي، وعدم تنفيذ اليوم الموعود. إذن فلا بد من تصور التخطيط الإلهي بالنحو المنسجم مع الإيمان بغيبة المهدي، ومشاركة الغيبة نفسها بقسط وافر من هذا التخطيط.

فإن الأسلوب الوحيد الذي يمكن به ربط الإمام المهدي عليه السلام في تربيته القيادية بالوحي، ولو بالواسطة هو أنه ابن الإمام الحسن العسكري عليه السلام، ليكون قد تلقى الحقائق الكبرى عن طريق آبائه عن

(١) أنظر الباب السادس والستين والثلاثمائة من المجلد الثالث، ص٣٢٧ وما بعدها.

النبيﷺ عن الوحي الإلهي.

فإذا تم ذلك، تعين كونه مولوداً في زمان أبيه وباقياً إلى الآن، محفوظاً بعناية الله تعالى، من أجل أن يقوم بالقيادة الكبرى في اليوم الموعود. إذن فقد اصبحت الغيبة الكبرى من الأسباب الضرورية لنجاح الدعوة الإلهية في ذلك اليوم.

نعم، يمكن أن نفترض بعض الافتراضات لتصوير ارتباط المهدي بالوحي، بدون الغيبة. كتسلسل وراثة قابلية القيادة العالمية طيلة هذه المدة بدون انقطاع، إلى أن تتم شرائط اليوم الموعود، ويكون القائد الموجود في ذلك الحين هو المهدي.

أو يفترض انفصال ولادته عن وفاة أبيه بزمن طويل!! بطريق إعجازي، وتلقيه التعليم عنه بنحو إعجازي أيضاً. وغير ذلك من الافتراضات. إلا أن شيئاً منها لم يقل به أحد من المسلمين، فهو منفي بضرورة الدين وإجماع المسلمين. فيتعين القول بالغيبة أعني بقاءه الطويل من زمان أبيه إلى حين ظهوره.

النتيجة الرابعة:

اننا بعد أن عرفنا ان السبب الوحيد الموجود لقابلية قيادة العالم، استطعنا أن نبرهن به على بطلان كل مهدوية مدعاة على طول التاريخ أو تدعى في المستقبل مما لا يكون متصلاً بالوحي ولو بوسائط... فإن الشخص الذي لا تتوفر لديه هذه الصفة يتعذر عليه بالمرة القيام بالمهام الكبرى المنوطة بالمهديعليه السلام. ومن ثم لم نرَ شخصاً مدعياً للمهدوية استطاع السيطرة على العالم كله، مضافاً إلى غفلة المدعي عن عدم تمامية إنتاج التخطيط الإلهي

للعدد الكافي من المخلصين الممحصين.

ومن هنا يكون لنا مستمسك برهاني، ضد مدعي المهدوية، اسبق في الرتبة من الدليل الذي أشرنا إليه في التاريخ السابق[١] من اننا نستكشف من فشل الدعوة المهدوية المدعاة انها دعوة كاذبة، وان قائدها ليس هو المهدي المنتظر. لأننا لا نعني بالمهدي، إلا القائد العالمي القائم بأطروحة الحق العادلة الكاملة.

* * *

المستوى الثاني:

في تكامل قابلية القيادة العالمية من الكامل إلى الأكمل، بلحاظ أطروحة نطرحها ونحاول البرهنة عليها. ويقع الكلام في ذلك في جوانب ثلاثة:

الجانب الأول:

في تحديد الأطروحة التي نقصدها، والمفهوم الذي نريده... يعرض معنى التكامل بالنسبة إلى الكامل العظيم الذي له قابلية قيادة العالم، وأسباب ذلك.

إن درجات التكامل المتصورة للعقل لانهائية العدد، كلما وصل الفرد إلى مرتبة منها، استحق أن يرقى إلى درجة بعدها. تبدأ بأول درجات الإيمان وتنتهي بالوجود اللانهائي الجامع لكل صفات الكمال، الله عز وجل.

وحصول الإنسان على الكمال اللانهائي، غير ممكن، كما ثبت في الفلسفة

(١) أنظر تاريخ الغيبة الصغرى، ص٣٤١.

الإسلامية، إلا أن تصاعده من الكامل إلى الأكمل فالأكمل، في غاية الإمكان والوضوح. وكل درجة يصل إليها الفرد، فهي درجة محدودة ليست لا متناهية بطبيعة الحال.

ومن هنا يسير الناس المؤمنون في درجات الكمال، من القليل إلى الكثير ومن الكثير إلى الأكثر. ومن هنا ينبثق إمكان القول بتكامل ما بعد العصمة... وإمكان تربية المعصوم وإن كان خير البشر، فإنه إن كانت الدرجة الدنيا من تكامله هي أعلى من كل البشر، فالدرجة العليا كذلك لا محالة.

وإذا كان هذا التكامل ممكناً، كان ضرورياً، لما أشرنا إليه من أن الفرد كلما وصل إلى درجة من الكمال استحق الدرجة التي بعدها، لا يختلف في ذلك المعصوم عن غيره... بحسب البرهان المقام في الفلسفة.

ويمكن لقائد عالمي، ممن يوجد عنده المستوى الأول من قابلية القيادة العالمية، كالمهدي عليه السلام أن يتكامل بأسباب معينة، يمكن إرجاعها إلى ثلاثة أسباب:

السبب الأول:

الإلهام. فإنه ثابت للقائد العالمي الذي وجد المستوى الأول بالنسبة إليه.

ويمكن إثبات ذلك بعدة أدلة نذكر منها اثنين:

الدليل الأول:

ما ورد في الأخبار، من أن الإمام إذا أراد أن يعلم شيئاً أعلمه الله تعالى ذلك. وقد خصص الشيخ الكليني في الكافي باباً كاملاً لنقل هذه الأخبار.

والإمام، هو القائد العالمي بلغتنا الحديثة، فإذا خطر في ذهنه شيء لم

يستطع التوصل إلى جوابه أو حله، أسعفه الله تعالى بالإلهام في ذهنه ذلك الجواب المطلوب.

الدليل الثاني:

ان القيادة العالمية لمدى صعوبتها وتعدد مشاكلها، لا يمكن القيام بها إلا من قبل قائد ملهم، يستوحي عدداً من الأخبار ويتلقى التعاليم من هذا المصدر الجليل. فإذا توقف القيام بها على الإلهام، وجب على الله إيجاد هذه المعجزة، طبقاً لقانون المعجزات، إزجاء لحاجات الدولة الإسلامية العالمية، التي هي الهدف الأساسي من إيجاد البشرية.

وسنعرض لذلك تفصيلاً في تاريخ ما بعد الظهور.

السبب الثاني:

ما يمر به القائد من مصاعب ومحن. فإنها توجب تصاعد كماله وترسخه، بنفس التفسير الذي ذكرناه للتكامل الناتج عن التمحيص، مع حفظ الفرق في المرتبة فقط. حيث يفوق هذا الكمال ذلك الكمال الثابت للفرد العادي بما لا يقاس من المراتب. تبعاً للفرق بين الكمال المسبق للإمام والكمال المسبق للفرد العادي.

ولا يمكن أن نسمي هذا التكامل بالتمحيص، بالرغم من أنه يحمل نفس فكرته وقاعدته العامة، من حيث كونه سبباً لتصاعد الكمال. إلا أن المعنى الأساسي للتمحيص هو اختبار الجيد من الرديء، والمعنى الذي اصطلحناه هو السبب الذي يحول الفرد من القصور والضعة إلى الكمال والرفعة. وكلا هذين الأمرين غير موجودين سلفاً في القائد العالمي بل هو في أول مراتبه القيادية، في درجة عالية من الكمال بحيث لا يقاس إليه أي فرد من البشر.

السبب الثالث:

ما يقوم به القائد من أعمال وتضحيات في سبيل دعوته وخدمة دينه وربه، فإنه يتكامل بذلك ويزداد في أفق وجوده العظيم ترسخاً وعمقاً.

ومن أمثلته عن التاريخ تقبُّل النبي إبراهيم الخليل عليه السلام الأمر بقتل ولده بكل رحابة صدر. وقيام الإمام الحسين عليه السلام بثورته الدامية بالرغم من عظيم التضحيات. ومن هنا قال له جده نبي الإسلام صلى الله عليه وآله وسلم: بأن لك مقامات لن تنالها إلا بالشهادة على ما روى عنه.

وهذا يحمل نفس المعنى الذي قلناه للتمحيص الاختياري، بالنسبة إلى الفرد الاعتيادي الممحص. مع اختلاف المرتبة، بطبيعة الحال. وأيضاً من الصعب تسميته بالتمحيص، بل هو من التكامل الاختياري من الدرجات العليا.

وكلما تكامل القائد بأحد هذه الأسباب الثلاثة، أو بأي سبب آخر... ازدادت قيادته حسناً وكمالاً وسهُل عليه التطبيق للأطروحة الكاملة واستطاع بقابلياته العليا وتفكيره المعمق الملهم، تذليل المصاعب العالمية عن درب الدعوة الإلهية.

فإن قيل: إن هذا متوفر لدى القائد العالمي، في أول مراتب قابليته للقيادة، فما الحاجة إلى الزائد.

قلنا: أن قابلية قيادة العالم، تتضمن ذلك بلا شك. ولكن هذه القابلية قابلة للزيادة والتكامل. ومن الواضح أن الثمر يتحسن بتحسن الأصل، والنتائج تتعمق بتعمق السبب.. فكذلك هذا القائد، عند حصوله على تكامل ما بعد العصمة، فإن تطبيقاته وأعماله سوف تسهل وتتعمق عما كانت عليه أكثر وأكثر، بطبيعة الحال.

وسيأتي في الجانب الثالث، ما يلقي ضوءاً أكثر على هذه الأطروحة.

الجانب الثاني:

في محاولة استفادة هذه الأطروحة من الأدلة الإسلامية: الكتاب الكريم والسنة الشريفة:

وأشد هذه الأدلة صراحة ما أخرجه الكليني في الكافي[١] بسند صحيح عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: لولا أنّا نزداد، لأنفدنا. ومثله أخبار أخرى عن الإمام الصادق والهادي عليهما السلام بسندين آخرين.

وفي خبر آخر عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: لولا أنّا نزداد لأنفدنا. قال الراوي: قلت: تزدادون شيئاً لا يعلمه رسول الله صلى الله عليه وآله. قال: أما إنه إذا كان ذلك عرض على رسول الله صلى الله عليه وآله ثم على الأئمة ثم انتهى الأمر إلينا.

وعقد الكليني[٢] أيضاً باب بعنوان: ان الأئمة عليهم السلام يزدادون في كل ليلة جمعة.

وأورد فيها ثلاثة أحاديث، مما يدل على ذلك. وفيها التصريح باستفادة علم جديد عن طريق الإلهام، وهو السبب الأول للتكامل الذي ذكرناه. وفيه التعبير بقوله: ولولا ذلك لأنفدنا. وبقوله: ولولا ذلك لأنفدنا ما عندي.

ولفهم هذا النفاد المشار إليه في هذه الأخبار أطروحتان:

الأطروحة الأولى:

ان هذا النفاد ناشئ من الأعمال العظام والتضحيات الجسام التي يقوم بها الإمام طبقاً لمسؤولياته العظمى. فانها توجب تضاؤل الطاقة المختزنة فيه، لولا التوفيق الإلهي للتكامل.

---

(١) أنظر باب لولا أن الائمة يزدادون لنفد ما عندهم (المخطوط).

(٢) انظر المصدر المخطوط.

الأطروحة الثانية:

ان هذا النفاد ناشئ من مواجهة المشاكل المستجدة التي لا تكفي القابليات السابقة للإمام لتغطية حلولها وتذليل مشاكلها، مما يجعل الدعوة الإلهية متوقفة على ازدياد الإمام وتلقيه للإلهام.

ويمكن أن تصبح هاتان الأطروحتان، بعد تدقيقهما، وجهاً واحداً مشتركاً لتفسير هذا الأمر، لا حاجة إلى الدخول في تفاصيله.

وعلى أي حال، فقد دلت هذه الأخبار، بكل صراحة، على تكامل الإمام وتزايده المستمر، من تكامل ما بعد العصمة. لوضوح ان المراتب المسبقة لهذا الكمال، تمثل درجة العصمة بأحسن صورها، طبقاً للفهم الإمامي الذي انطلقت منه هذه الأخبار... فكيف بالتكامل الجديد الذي يحصلون عليه.

ويمكن ان يستفاد ذلك من القرآن الكريم، من عدد من مواضعه.

منها: قوله تعالى مخاطباً نبيه العظيم: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[١]. وهو صريح بما نريد التوصل إليه، من حيث أن النبيﷺ خير البشر وأعلمهم، ولكنه مع ذلك قابل للزيادة في العلم.

منها: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[٢].

فإن إبراهيمعليه السلام، ازداد بعد هذه الحادثة اطمئناناً ويقيناً، وتزايد في

(١) طه: ١١٤.

(٢) البقرة: ٢٦٠.

مراتب التكامل العليا، بكل وضوح. فإن الهدف منها لم يكن سوى حصول الاطمئنان. وقد تحقق الهدف بعد وقوعها.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[1]. فقد أوجب تسبيحه في بطن الحوت له كمالاً استحق به النجاة من هذا السجن الذي كان يقدر له التأبيد لو لم ينل هذا الكمال بالتضرع إلى الله تعالى والعمل الاختياري في التقرب إليه عز وجل.

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ ۖ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ۖ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2].

فإنه لا شك ان نوح عليه السلام ازداد بعد وعظ الله عز وجل إياه وتعليمه له، ازداد كمالاً عما كان عليه قبل ذلك، وإذ تنتج هذه الزيادة الجديدة، فانها تسير مع سائر التضحيات في سبيل الدعوة الإلهية، بما فيها الاستغناء عن الولد، إذا كان عملاً غير صالح، وعضواً فاسداً في التخطيط الإلهي. ومن هنا نسمعه يقول: (رب أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم).

ومنها قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ

---

(١) الصافات: ١٣٩ - ١٤٤.

(٢) هود: ٤٥ - ٤٧.

شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ (١).

فإن الآية، وإن كانت دالة على ان النبيﷺ لم يركن، إلى الكفار، ولم يقارب الركون أصلاً، باعتبار جعل ذلك في جواب لولا الامتناعية... إلا انها تدل - بكل وضوح -: ان عدم الركون ناشئ من التثبيت الإلهي، ذلك التثبيت الذي ازداد به النبيﷺ كمالاً إلى كماله العظيم. ولولا ذلك لكان الكمال السابق على التثبيت غير مانع من مقاربة الركون. ومن هنا اقتضت مصلحة الدعوة الإلهية، إفاضة هذا التثبيت عليهﷺ.

إلى غير ذلك من الموارد والآيات في القرآن الكريم.

وبذلك نستطيع - بكل وضوح - أن ننفي نقاط الضعف والذنوب عن الأنبياء، كما يريد المنحرفون أن يفهموه من القرآن الكريم. فإنه بعيد كل البعد عن ذلك، وإنما هو من التسامي من كمالٍ عظيمٍ إلى أعظم، من تكامل ما بعد العصمة. مع توفر قابلية القيادة الكبرى، في الدرجة السابقة من الكمال، فضلاً عن المراتب العليا منها. وللتوسع في الكمال عن هذا الموضوع مجال آخر في العقائد الإسلامية.

وعلى أي حال، فقد ثبت بالكتاب الكريم والسنة الشريفة، وجود التكامل، بل ضرورته للدعوة الإلهية، بالنسبة إلى كل من أُوْكِلَ إليه قيادة العالم من الأنبياء والمرسلين والأئمةعليهم السلام أجمعين.

الجانب الثالث:

في تطبيق هذه القاعدة على المهديعليه السلام بعد ثبوتها بالأدلة الإسلامية..

---

(١) الإسراء: ٧٣-٧٥.

وبه نتبين دخالة الغيبة في التخطيط الإلهي، بشكل أكيد وشديد، لا يمكن التخلي عن افتراضه في طريق كمال التطبيق في اليوم الموعود.

والمتحصل مما سبق، هو انه عليه السلام يتكامل - بعد العصمة - خلال غيبته، بعدة أسباب:

السبب الأول:

الإلهام بالمعنى الذي قلنا بصحته، ودلت الأخبار على وجوده. فلئن كان آباؤه عليهم السلام يتكاملون في كل ليلة جمعة، خلال عدد محدود من السنين، فهو يتكامل خلال عدد غير محدود، يصل إلى عدة مئات، بل قد يصل إلى الآلاف من السنين... من يدري؟... ومعه تكون النتيجة أكبر وأضخم من النتائج التي وصل إليها آباؤه عليهم السلام في أثناء حياتهم.

فإن قيل: بأنه يلزم من ذلك كون الإمام المهدي عليه السلام خيراً من آبائه، وهو خلاف الأدلة الدالة على ان الأئمة المعصومين من نور واحد، وانهم متساوون في الفضل ليس فيهم أفضل سوى أمير المؤمنين عليه السلام وصي رسول الله صلى الله عليه وآله.

قلنا: يمكن الجواب على ذلك بجوابين:

الجواب الأول:

أنه لا خير في ذلك. فليكن المهدي عليه السلام أفضل من آبائه، باعتبار أن التخطيط الإلهي منعقد بإيكال اليوم الإلهي الموعود دونهم.

وقد دلت على ذلك الروايات، ولعل أوضحها الخبر السابق الذي أخرجه النعماني في الغيبة[1] عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام حين سئل: هل ولد القائم؟

---

(١) ص١٢٩.

فقال: لا ولو أدركته لخدمته أيام حياتي.

وفي حديث آخر[١] عن الريان بن الصلت قال: للرضا عليه السلام: أنت صاحب هذا الأمر؟ فقال: أنا صاحب هذا الأمر، ولكني لست بالذي أملؤها عدلاً كما ملئت جوراً. وكيف أكون ذلك على ما ترى من ضعف بدني. وان القائم هو الذي إذا خرج كان في سن الشيوخ ومنظر الشبان... الحديث.

وأما الأدلة المشار إليها الدالة على تساوي الأئمة عليهم السلام فيمكن ان تحمل على تساويهم في الإمامة، أو في قابليتهم للقيادة العالمية بغض النظر عن تكامل ما بعد العصمة. كما يمكن أن يستثنى منها المهدي عليه السلام بالخصوص نظراً إلى هذه الأدلة الأخرى.

الجواب الثاني:

انه لا يلزم مما قلناه أفضلية المهدي عليه السلام على آبائه، خلافاً لما تخيله السائل، ولما قلناه في الجواب الأول.

وذلك: لأن نفس تلك الروايات دلت على ان كل ما يحصل عليه إمام متأخر من الكمال، يعطيه الله تعالى لكل الأئمة المتقدمين عليه ولرسول الله صلى الله عليه وآله أيضاً وقد سبق أن سمعنا قول الإمام الباقر عليه السلام - في حديث-: أما أنه إذا كان ذلك عرض على رسول الله صلى الله عليه وآله ثم على الأئمة ثم انتهى الأمر إلينا.

وفي خبر آخر للكُليني في الكافي[٢] عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: ليس يخرج شيء من عند الله عز وجل، حتى يبدأ برسول الله صلى الله عليه وآله، ثم بأمير المؤمنين صلوات الله عليه. ثم بواحد بعد واحد، لكي لا يكن آخرنا أعلم من أولنا.

(١) أنظر الكافي (نسخةمخطوطة).

(٢) المصدر نفسه.

السبب الثاني:

لتكامل الإمام المهدي عليه السلام ، ما يحدث في عصر الغيبة من الانحراف والفتن.

فإنه موجب لتكامله من جهتين:

الجهة الأولى:

ما يواجهه عليه السلام شخصياً من الظلم والانحراف، انطلاقاً من الأطروحة الثانية التي ذكرناها في القسم الأول من هذا التاريخ، وهي أطروحة خفاء العنوان، التي تقول: ان المهدي عليه السلام خلال غيبته يعيش كفرد عادي في المجتمع... إذن فهو يواجه ما يواجهه الآخرون من أنحاء الظلم والانحراف... فيفضل على الأفراد الممحصين الناجحين من ناحيتين رئيسيتين:

الناحية الأولى:

الرصيد العظيم الذي يملكه عليه السلام ، في التفسير الصحيح وردّ الفعل الصائب تجاهه، على حين لا يصل الفرد الاعتيادي إلى ما يقارب ذلك في أقصى تكامله خلال حياته. وإذا كان هذا الرصيد موجوداً من أول الأمر، كان التكامل بالنسبة إليه أسرع وأعمق إنتاجاً، بشكل لا يقاس بالآخرين بطبيعة الحال.

الناحية الثانية:

طول الزمن، وانحاء الظلم الكثيرة التي يواجهها المهدي عليه السلام خلال عمره الطويل. فلئن كان الفرد الاعتيادي يمكن أن يكون ممحصاً خلال العشرات القليلة من السنين، فكيف بمن يعيش في عالم التكامل عشرات العشرات من السنين.

وقد يخطر في الذهن: إننا ذكرنا فيما سبق ان تمحيص الفرد يؤثر فيه نتائج التمحيص للأجيال السابقة، عن طريق قانون تلازم الأجيال، فيغني ذلك عن الحياة الطويلة السابقة.

فنقول في جواب ذلك: إننا ذكرنا إلى جنب ذلك: ان قانون تلازم الأجيال لا يقتضي انتقال تجارب الأجيال السابقة إلى اللاحقة مائة بالمائة، وإن كان يشارك في ذلك مشاركة فعالة. فكيف يقاس ذلك بالتجارب التي ينالها الشخص نفسه، والتكامل الذي يحرزه.

على ان الفرد يرد إلى عالم التمحيص فجاً تماما، يحتاج إلى تلقي تجارب السابقين أولاً، والزيادة عليها من تجارب نفسه ثانياً. وهذا ملغى لدى الشخص الذي أحرز الكمال بنفسه سلفاً والتفسير الصحيح للحياة، مما يغنيه عن تجشم تلك المتاعب وقضاء الوقت الطويل فيها. . . بل هو يقضي الوقت المتبقي في التصاعد في درجات جديدة عليا من الكمال.

الجهة الثانية:

أنه يمكن أن يقال على شكل الأطروحة المحتملة: إن معاصرة المهدي عليه السلام التاريخية الطويلة، للأجيال، توجب له الإطلاع المباشر على قوانين تطور التاريخ وتسلسل حوادثه وما يؤثر في المجتمعات البشرية ونفوس الأفراد من مؤثرات سلبية وإيجابية، مما لا يمكن التوصل إليه عن طريق آخر أصلاً، كمراجعة التواريخ المسجلة أو معاصرة الحقبة الزمانية خلال حياة قصيرة.

فإن التاريخ أضيق وأعجز من أن ينقل إلينا تفاصيل الحوادث بشكل دقيق وعميق، ولا يمكن أن نعيش من خلاله نفس الحوادث المؤرخة بشكل

موضوعي خالص... وقد سبق أن برهنا على ذلك في مقدمة تاريخ الغيبة الصغرى[١].

وأما الحقبة الزمانية المعاصرة لحياة الفرد الاعتيادي، فهي أيضاً أضيق وأعجز من أن تطلعه على التاريخ البشري العام... وإنما يستنتج الفرد منها أموراً بمقدار قابليته ومستوى تفكيره وحدود الزمان والمكان التي يعيشها.

فلا يقاس كل ذلك، بمن عاصر التاريخ كله وعاش خلال تقلباته وانطلاقاته خلال عصر الفتن والإنحراف، واستطاع أن يربط الأسباب بمسبباتها... فإنه يستطيع أن يلم بقوانين التاريخ بنظرة أوسع واشمل، مما ييسر له إلى حد بعيد وضع المخططات ذات التأثير الفعال في أي ميدان من ميادين الحياة، بعد ظهوره، بل وحتى في عصر غيبته، بعد الذي عرفناه، طبقاً لأطروحة خفاء العنوان، من أن المهدي يعمل _ في بعض الحدود _ خلال غيبته، في مصلحة الإسلام والمسلمين.

ولا يبقى تجاه هذه الأطروحة من تساؤل، إلا ما دل من الأخبار على أن الإمام متى أراد أن يعلم أعلمه الله تعالى ذلك[٢]. فإنه قد يقال: أنه لا حاجة إلى هذه الأطروحة بعد أن كان في إمكان الإمام المهدي عليه السلام أن يعلم بقوانين التاريخ تفصيلاً، بل بحوادثه أيضاً بمجرد أن يريد ذلك.

ويمكن الجواب على هذا التساؤل على عدة مستويات، نذكر منها مستويين:

المستوى الأول:

أنه ورد في الأخبار أن الله تعالى قد يحجب الإلهام عن الإمام عليه السلام متى

(١) أنظر ص٥٨ وما بعدها إلى عدة صفحات.

(٢) أخرج الكليني في الكافي عدداً منها في باب بعنوان: أن الأئمة إذا شاءوا أن يعلموا علموا.

شاء. فمن ذلك: ما أخرجه الكُليني في الكافي[1] بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: يبسط لنا العلم فنعلم، ويقبض عنا فلا نعلم. ومعه فمن المحتمل - على أقل تقدير - أن تكون بعض القوانين العليا أو الكلية للتاريخ، يحجب الإلهام بها عن الإمام المهدي عليه السلام لكي يعيشها في الحياة، ويستنتجها عن طريق التجارب الحسية المباشرة لتطورات التاريخ.

وإذا كان الإطلاع المباشر أكثر رسوخاً في النفس، من العلم النظري، كانت المصلحة متعلقة لا محالة، بتحويل المهدي عليه السلام على حوادث التاريخ مباشرة، وحجب الإلهام عنه، بهذا الخصوص، لكي يكون أكثر كمالاً، وأسهل تطبيقاً لليوم الموعود.

المستوى الثاني:

إن هذه القاعدة: إذا أراد الإمام أن يعلم أعلمه الله ذلك، التي نطقت بها الأخبار، بالرغم من عمقها وسعتها، وأفضلية الواجد لها على كل الآخرين. إلا أنه - مع ذلك - لا ينبغي المبالغة في نتائجها.

فإن فيها نقطة ضعف رئيسية، وهي تعليقها على الإرادة، فإن الإمام إذا أراد أن يعلم أعلمه الله تعالى، وأما إذا لم يرد أن يعلم فإن إعلام الله تعالى له لا يتحقق. فإذا استطعنا أن نضم إلى هذه القاعدة أمرين آخرين استطعنا أن نعرف كيف أنه لا ينبغي المبالغة في نتائجها.

الأمر الأول:

إن الإمام عليه السلام، بالرغم مما يستدل عليه في الفلسفة من استحالة الغفلة عليه... لا يمكن الالتزام بكونه ملتفتاً إلى كل الأمور في الكون دفعة واحدة.

---

(١) انظر في الكافي، باب: أن الأئمة إذا شاءوا أن يعلموا علموا.

فإن ذلك من خصائص الله عز وجل وحده. ولا يقوم ذلك البرهان بإثباته.

إذن فالغفلة، بهذا المعنى ضرورية الثبوت للإمام بلا إشكال. ومع الغفلة لا يمكن أن يريد أن يعلم. فإن إرادة العلم تتوقف على الالتفات لا محالة، وبدونه لا معنى لهذه الإرادة.

فإذا لم يرد الإمام أن يعلم، لا تنطبق هذه القاعدة بطبيعة الحال، وإعلام الله تعالى إياه لا يتحقق.

الأمر الثاني:

المظنون جداً، ارتباط هذه القاعدة بالموارد الجزئية، والحوادث المتجددة، ففي كل حادث معين إذا لم يجد الإمامعليه السلام حلاً لمشكلته وأراد أن يعلم ذلك أعلمه الله تعالى إياه. وأما شمول هذه القاعدة لعمومات واسعة، كالعلم بكل شيء أو بكل الحوادث في الأرض أو بكل التاريخ البشري مثلاً، فمن المستبعد جداً أن الإمام يطلب من الله تعالى العلم بذلك دفعة واحدة. والمدلول العام للقاعدة الذي يعطيه سياقها، يأبى شمولها لمثل ذلك.

فإذا تمّ هذان الأمران، كان من المتعين للمهديعليه السلام حين تتعلق المصلحة بإطلاعه على القوانين العامة للتاريخ، أن يعيش هذا التاريخ، وينظر تفاصيل حوادثه وترابطها وتسلسلها، لكي يستنتج، هو بفكره الثاقب وبالإلهامات المتتابعة في كل واقعة، ما يمكن التوصل إليه من هذه القوانين.

السبب الثالث:

من أسباب تكامل الإمام المهديعليه السلام ، في تكامل ما بعد العصمة... خلال غيبته: ما يقوم بهعليه السلام من أعمال وتضحيات اختيارية في سبيل الإسلام والمسلمين.

ويتم الاطلاع على ذلك بعد ثبوت مقدمتين سبق أن عرفناهما:

المقدمة الأولى:

إن الفعل الاختياري للفرد يسعى به إلى الكمال والأكمل، حسب مرتبته السابقة من الكمال. وقد سبق أن سميناه في تكامل ما قبل العصمة بالتمحيص الاختياري. فإن كان قائداً عالمياً، معصوماً، كان الكمال الذي يحوزه بتضحياته التي تكبر وتتسع تبعاً لاتساع مسؤولياته... عظيماً وجليلاً.

المقدمة الثانية:

إن الإمام المهدي عليه السلام كما قلنا في أطروحة خفاء العنوان السابقة، يقوم بالعمل في مصلحة الإسلام والمسلمين، ضمن شرائط عرفناها.

ينتج من هاتين المقدمتين، إن ما يقدمه المهدي عليه السلام من أعمال في سبيل الله والإسلام، يكون سبباً في تكامله المستمر، من الكامل إلى الأكمل، وخاصة فيما يعود إلى القرب الإلهي والرقيّ المعنوي.

فإن قال قائل: إن ما يقوم به من هذه الأعمال، هينة وقليلة بالنسبة إلى منزلته العليا... بحيث لا تكاد تسبب له التكامل.

قلنا في جوابه:

أولاً: أننا لو سلمنا ضآلة هذه الأعمال، بالنسبة إليه، لا نستطيع أن ننفي تكامله بمقدارها... وإن أوجبت له تصاعداً قليلاً في درجات الكمال... بعد أن عرفنا أن التضحيات الاختيارية سبب للتكامل على أي حال.

ثانياً: إن الأعمال التي يقوم بها المهدي عليه السلام ليست بالقليلة ولا الهينة، كيف وقد يتوقف عليها حفظ المجتمع الإسلامي، ودفع البلاء عن المسلمين.

وقد سبق أن سمعنا في رسالته التي أرسلها إلى الشيخ المفيد، برواية الطبرسي في الاحتجاج[1]: أنّا غير مهملين لمراعاتكم ولا ناسين لذكركم، ولولا ذلك لنزل بكم اللأواء واصطلمكم الأعداء.

فهذه الأعمال، بالرغم من ضآلتها النسبية لو قيست بأعمال يوم الظهور... إلا أنها ذات أثر عظيم في نفس الوقت، في إيجاد التكامل. وما يناله من الكمال تابع للنتائج التي يصل إليها، لا الأسلوب الذي يقوم به. كما هو الحال في كل فرد عامل في سبيل الحق، بل في كل عمل على الإطلاق، فإنه تقاس الأعمال بالنتائج لا بالمقدمات.

* * *

فهذه هي الأسباب الثلاثة التي تسبب تصاعد المهدي عليه السلام في درجات الكمال خلال غيبته الكبرى، بحسب معرفتنا لا بنحو الحصر الكامل. وإذا كان مبدأ التكامل وأقل مراتبه هو قابلية قيادة العالم، فكيف بالتكامل المضاعف الكبير الجليل الذي يحرزه... مما يكون له أهم الأثر في تعميق التطبيقات الحكيمة التي يقوم بها المهدي عليه السلام في اليوم الموعود.

ملحوظة:

تختص بهذه الأسباب الثلاثة، الأطروحة الإمامية لفهم المهدي عليه السلام القائمة على الإيمان بوجوده وغيبته.

وأما الفهم الآخر، القائم على ولادته في آخر الزمان، فكما لم يستطع أن يستوعب قابليته لقيادة العالم، كما عرفنا... لا يستطيع هذا الفهم أيضاً أن

---

(١) ص٣٢٣، ج٢

يقول بتكامله إلا بالمقدار القليل الذي يتكامل به الفرد المؤمن الاعتيادي خلال حياته.

فإذا ضممنا كلا الأمرين: انفصال المهدي عن الوحي حتى بالواسطة، مما يحجب عنه قابلية القيادة العالمية، وعدم تكامله الطويل خلال الزمان... لزمنا افتراض أن المهدي عليه السلام حين يولد في آخر الزمان ليس أكثر من فرد من المخلصين الممحصين الذين عرفنا عدداً من خصائصهم. وإذا كان القائد كذلك فكيف بالجنود؟! ومعه يستحيل عليه - عادة - القيام بالمهمة الكبرى لليوم الموعود وتنفيذ الغرض الإلهي الأكبر فيه.

إذن فهذا الفهم للمهدي عليه السلام مساوق مع إنكار اليوم الموعود من الناحية العملية... وينحصر تنفيذ التخطيط الإلهي لإيجاده، بوجود الغيبة الطويلة لا محالة. ومن هنا تدخل الغيبة كجزء رئيسي في التخطيط الإلهي الكبير.

هذه نهاية الكلام في الجانب الثالث. وبه ينتهي الكلام عن المستوى الثاني في تكامل قابلية القيادة العالمية. وهو نهاية الكلام عن الجهة الرابعة في التخطيط الإلهي الخاصة بإيجاد القائد.

وهو نهاية الفصل الأول عن شرائط الظهور.

الفصل الثاني
في علامات الظهور

ونتكلم في هذا الفصل ضمن عدة جهات:

الجهة الأولى:

في تحديد المنهج العام الذي نسير عليه تجاه الروايات الدالة على تعداد علامات الظهور.

ويقع الكلام في ذلك ضمن عدة نقاط:

النقطة الأولى:

سبق أن ذكرنا تفصيلاً في القسم الثاني من هذا التاريخ، المنهج العام الذي نسير عليه تجاه روايات التنبؤ بمستقبل الزمان بشكل عام سواء منها ما دل على علامات الظهور أو على أشراط الساعة أو على انحراف الزمان، ونحوها من الروايات. فيكون ذلك المنهج شاملاً لهذا الفصل جملة وتفصيلاً. وقد سبق ذلك، ولا حاجة إلى التكرار.

وعلينا الآن أن نضيف إلى ذلك أمرين نلخصهما في النقطتين التاليتين:

النقطة الثانية:

إن الروايات التي تدل على حدوث حوادث معينة في مستقبل الزمان، على

ثلاثة أقسام:

القسم الأول:

ما ورد مربوطاً بظهور المهدي عليه السلام بنص الرواية. كما هو الحال في الأعم الأغلب من أخبار المصادر الإمامية. حيث كرست كلها تقريباً لذلك وقلَّ فيها التعرض لامارات الساعة التي تحدث بعد الظهور.

القسم الثاني:

ما ورد مربوطاً بالساعة وقيام يوم القيامة... وهو الأعم الأغلب من أخبار المصادر العامة، حيث لم يربط بظهور المهدي عليه السلام منها إلا القليل نسبياً.

القسم الثالث:

ما ورد مهملاً من الناحيتين السابقتين... بمعنى تكفل الرواية لبيان حدوث الحادثة من دون أن يفهم منها ارتباطها بالظهور وبقيام الساعة.

ولكل القسمين الأولين، قسمان متشابهان:

أحدهما: ما دل على وقوع الحادثة قبل الظهور أو قبل قيام الساعة مباشرة.... بمعنى الفصل بينهما بأيام قليلة أو زمن قصير. كالذي ورد أن بين قتل النفس الزكية وبين ظهور المهدي عليه السلام خمسة عشر يوماً... على ما سيأتي. أو ما ورد من أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق... إذن فوجود شرار الخلق، قبل قيامها بقليل.

ثانيهما: ما دل على وقوع الحادثة قبل الظهور أو قبل قيام الساعة، بشكل يناسب وقوعها بفاصل زماني طويل. وليس في الرواية ما يدل على التقارب

بينهما. كما ورد في بعض الروايات من قوله: لا تقوم الساعة حتى يحدث كذا وكذا. ومن قوله: لا يكون الذي تمدون إليه أعناقكم (يعني الظهور) حتى يحدث كذا وكذا. . . ونحو هذا من الكلام.

فما كان مؤقتاً ومضبوطاً من العلامات، كما لو دل الخبر على وقوع الحادثة قبل الظهور أو قبل الساعة مباشرة. . . فلا كلام في ذلك. فإنه يمكن العمل بها واعتبارها إثباتاً تاريخياً كافياً لو انطبق عليها التشدد السَّندي الذي سرنا عليه.

وما لم يكن موقتاً بمثل هذا التوقيت، كان الظاهر انفصال الحادثة بزمان كبير عن الوقت المحدد: الظهور أو الساعة. . . قد يبلغ مئات السنين أو الآلاف.

حتى أن عدداً من الحوادث التي نسمع التنبؤ بها، قد حدثت بالفعل، وقد حدث بعضها قبل عدة قرون. . . ولم يحدث إلى الآن الظهور فضلاً عن الساعة. فما ورد مربوطاً بالمهدي عليه السلام، بشكل مباشر أو غير مباشر، مما حدث أو لم يحدث، هو في حقيقته من علامات قيام الساعة أيضاً. . . باعتبار ما قلناه من أن مفهوم العلامة ليس إلا الحادثة التي جعلت منبهاً للناس عند حدوثها إلى حدوث ما يليها، وكاشفة عنه. ومن المعلوم أن الحادثة المتقدمة على الظهور والكاشفة عنه، كاشفة عن قيام الساعة أيضاً. إذن فمن الصحيح أن تنسب علامات الظهور إلى الساعة، وتجعل علامات عليها. كما ورد بالفعل في العديد من الروايات.

وما ورد مربوطاً بالساعة بشكل غير مباشر ولا قريب، يمكن لنا جعله علامة على الظهور، بنفس اعتبار التقابل السابق. وكذلك ما ورد مهملاً من الارتباط بالظهور والساعة، أن نجعله من علامات الظهور أيضاً. ولا يبقى من

علامات الساعة الخاصة بها، إلا ما يقع قبل قيامها بقليل، بحسب الخبر الدال عليه. وفي مثله يتعين أن يكون واقعاً بعد الظهور أيضاً.

فإن قال قائل: فإن هذه الحوادث التي جعلناها علامة على الظهور، لا يتعين فيها ذلك. فإنها كما يحتمل حدوثها قبل الظهور لتكون علامة عليه، يحتمل حدوثها بعده، فلا تكون علامة عليه.

نقول: هناك عدة قرائن تدلنا على تقديم الأعم الأغلب من الحوادث الواردة في الأخبار، متقدمة على الظهور، وتصلح أن تكون علامة عليه. وإن ورد في الأخبار مربوطاً بقيام الساعة، أو مهملاً عن الربط.

القرينة الأولى:

وجود الدليل التاريخي على وقوع الحادثة التي تنبأت بها الرواية. فإن معنى ذلك تقدمها على العصر الحاضر وهو دليل على تقدمها على الظهور أيضاً. ومثاله التنبؤ بهلاك الدولة العباسية، ووجود الحروب الصليبية... على ما سنذكر.

القرينة الثانية:

ارتباط الحادثة بعصر الفتن والانحراف، كوجود الكذابين أو الدجال أو الحروب المنحرفة. وقد علمنا تقدم عصر الفتن على الظهور... فيكون كل ما هو مرتبط بهذا العصر، متقدم على الظهور أيضاً.

فإن قال قائل: فكيف علمنا بتقدم عصر الفتن على الظهور... مع أن عدداً من الروايات السابقة الدالة على انحراف الزمان، لم يكن مربوطاً بظهور المهدي عليه السلام بحسب صراحته ومدلوله المباشر... وهو الأعم الأغلب من روايات العامة. فكيف نثبت تقدم عصر الفتن على الظهور بشكل مطلق.

قلنا: يمكن الجواب على ذلك، في مستويين:

المستوى الأول:

إن تقدم عصر الفتن على الظهور، أو عصر الظلم على العدل، من واضحات الإسلام بل من واضحات كل من يؤمن باليوم الموعود والقاطع للظلم، من أهل الأديان. إذن فكل ما دل على وجود الإنحراف، فهو خاص بما قبل الظهور.

المستوى الثاني:

وجود عدد ضخم من الروايات تربط الفتن والإنحراف بما قبل الظهور، بالصراحة، والدلالة المباشرة، فتكون هذه الروايات قرينة على أن المراد من الروايات الأخرى، نفس هذا المضمون أيضاً. وقد سبق أن روينا كلا هذين الشكلين من الروايات في القسم الثاني من هذا التاريخ.

فإن قال قائل: فكيف نكون على يقين بأن مثل هذه الحوادث ناشئة من الإنحراف السابق على الظهور... إذ لعلها من الحوادث الناشئة من الإنحراف السابق على قيام الساعة، كما ورد في الأخبار، بأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق[1].

قلنا له: إن مثل هذا الاحتمال فاقد الأهمية بالمرة، وذلك لإمكان الجواب على عدة مستويات.

المستوى الأول:

إن ما دل على قيام الساعة على شرار الخلق. لا يثبت طبقاً للتشدد

---

(١) انظر الصواعق المحرقة، ص٩٨، وغيبة الشيخ الطوسي، ص٢١٨.

السندي، ولا يكفي للإثبات التاريخي. على ما سنذكر في التاريخ القادم[1].

المستوى الثاني:

إن هذه الاخبارات الموسعة الكثيرة عن الفتن والإنحراف، لا يحتمل أبداً أن تكون عائدة إلى ما قبل قيام الساعة. وإن السياق العام لهذه الروايات يأبى عن هذا الفهم تماماً، كما هو واضح لمن راجعها.

مضافاً إلى أن الاتجاه العام لروايات التنبؤ بالمستقبل هو زيادة سرد الحوادث كلما كان الزمان المستقبل اقرب نسبياً وقلتها كان ذلك أبعد. ومن المعلوم أن عصر ما قبل الظهور أقرب بكثير من عصر ما قبل يوم القيامة. ومعه فمن غير المحتمل أن ترجع كل هذه الحوادث المروية إلى ذلك الزمان السحيق في البعد. بل يتعين رجوعه إلى عصر ما قبل الظهور بطبيعة الحال. وهو المطلوب. ويكفي لعصر ما قبل القيامة، رواية واحدة أو اثنتان مثلاً، تعربان عن أنها لا تقوم إلا على شرار الخلق.

المستوى الثالث:

إن هناك عدداً كبيراً من الروايات، تربط حوادث الفتن والانحراف ربطاً مباشراً بما قبل الظهور. فتكون هذه الروايات قرينة على حمل الروايات الأخرى على ذلك أيضاً.

القرينة الثالثة:

إن الحادثة الواحدة، كالخسف بالبيداء، مثلاً، يتكرر ذكرها في عدة روايات. منها ما هو مربوط بالساعة ومنها ما هو مربوط بالمهدي، ومنها ما هو

---

(١) وهو الكتاب الثالث من هذه الموسوعة.

مهمل. فيكون ما دل على ارتباطه بالمهدي عليه السلام أي على تقدمه على ظهوره، قرينة على باقي الروايات.

أما الروايات التي تذكر الحادثة مهملة عن الربط، فحملها واضح، لأنه من باب حمل المطلق على المقيد، فكأن هذه الأخبار المهملة ذكرت الحادثة مربوطة بعصر ما قبل الظهور أيضاً.

وأما الروايات التي تربط نفس الحادثة بقيام الساعة، وتجعلها من إماراتها. فباعتبار أن هذا الارتباط يناسب مع البعد الزمني الكبير كما عرفنا، فيكون شاملاً لعصر ما قبل الظهور وما بعده. فيكون حدوث الحادثة - من زاوية هذه الروايات - في أي من العصرين محتملاً. فبدلالة ما دل على ارتباط الحادثة بعصر ما قبل الظهور، يتعين الالتزام بوقوعها في العصر السابق على الظهور، وينتفي احتمال وقوعها في العصر المتأخر عنه.

وبشكل برهاني آخر نقول: أننا إذا قلنا بتأخر مثل هذه الحادثة عن عصر الظهور، فقد كذبنا بالروايات، الدالة على تقدمها عليه، وأخذنا بالروايات الدالة على تقدمها يوم القيامة. وإن قلنا بتقدم الحادثة على الظهور، فقد أخذنا بكلا القسمين من الروايات، فإن ما هو متقدم على الظهور متقدم على يوم القيامة بطبيعة الحال. والأخذ بقسم من الروايات أولى من تكذيب قسم منها. فيتعين القول بتقدم الحادثة على عصر الظهور، أي الالتزام بوقوعها خلال عصر الغيبة الكبرى.

القرينة الرابعة:

قيام الدليل في كثير من الأحيان على تقدم الحادثة المعينة على بعض الحوادث المتقدمة على الظهور أو المعاصرة له، فيكون ذلك الدليل بنفسه كافياً

لإثبات وقوع تلك الحادثة المعينة قبل الظهور.

مثاله: ما ثبت في الروايات من تقدم وجود الدجال، على نزول المسيح، الذي هو بدوره معاصر مع الظهور. فيتعين أن يكون وجود الدجال متقدماً على الظهور... إلى غير ذلك من الأمثلة.

فبهذه القرائن ونحوها يثبت أن الأعم الأغلب مما رواه العامة من الحوادث منسوبة ومربوطة بقيام الساعة، هي في واقعها من علامات الظهور.

نعم لا يمكن تأسيس قاعدة عامة في ذلك، بل لا بد من وجود إحدى هذه القرائن في كل مورد مورد وكل حادثة حادثة. وما لم تقم القرائن على تعيينه يبقى عصر وقوع الحادثة مجهولاً لا محالة.

النقطة الثالثة:

إن هذه القرائن التي ذكرناها لا تختص بتعيين زمن حدوث الحوادث، بل تشمل، بشكل وآخر، سائر الخصائص والتفاصيل المعطاة في الروايات. إذ يمكن على الدوام جعل بعض الروايات قرينة على بعض، لإثبات شيء أو نفيه... وخاصة بعد الالتزام بالتشدد السندي الذي سرنا عليه.

الجهة الثانية:

في مفهوم العلامة وانقساماتها.

تتضمن العلامة، كما سبق، معنى الكشف والدلالة والإراءة بالنسبة إلى ما هي علامة عليه... وهو الظهور فيما يهمنا الآن. وسنتكلم بعد قليل في سبب وجود هذا الكشف.

وتنقسم العلامات بهذا المفهوم، إلى تقسمين:

التقسيم الأول:

تقسيمها باعتبار ارتباطها بالتخطيط الإلهي إلى قسمين:

أحدهما: الحوادث التي تكون مندرجة ضمن التخطيط الإلهي. كحوادث الانحراف التي أصبحت علامات للظهور.

ثانيهما: الحوادث التي لا تكون مندرجة في هذا التخطيط... بل تكتسب صبغة تكوينية مستقلة في وجودها عن الإنسان. كخسوف القمر في آخر الشهر، وكسوف الشمس في وسطه، ونحو ذلك مما ورد جعله علامة للظهور في الأخبار.

التقسيم الثاني:

تقسيمها من حيث القرب والبعد عن الظهور، إلى قسمين:

أحدهما: ما كان قريباً إلى الظهور، بحيث يمكن أن يعد من مقدماته الأخيرة. كقتل النفس الزكية، كما ورد في الأخبار.

ثانيهما: ما يناسب، بحسب دلالة الخبر الدال عليه، مع الفاصل الزمني الطويل بينه وبين الظهور.

وإذا لاحظنا كلا التقسيمين، كانت الأقسام أربعة:

الأول: ما كان مندرجاً في التخطيط الإلهي وقريباً من الظهور كقتل النفس الزكية، لو ثبت دليل نقله.

الثاني: ما كان مندرجاً في هذا التخطيط وبعيداً عن عصر الظهور. كوجود دولة العباسيين والحروب الصليبية.

الثالث: ما كان أمراً تكوينياً قريباً من الظهور، كالكسوف والخسوف المشار إليه.

الرابع: ما كان أمراً تكوينياً بعيداً عن عصر الظهور، كالذي ورد في الأخبار من حصول الفيضانات ووجود أسراب الجراد وشحة الأمطار في عصر الغيبة الكبرى.

ومن هنا يقع الكلام في هذه الأقسام لأجل التدقيق فيها من ناحية، وبيان معنى سببيتها للكشف عن الظهور، وأنها كيف ولماذا أصبحت علامة عليه. من ناحية ثانية.

أما العلامات المربوطة بالتخطيط الإلهي بشكل عام، فمن الواضح أن هذا التخطيط حيث كان مكرساً لأجل التقديم والتهيئة لليوم الموعود، يوم ظهور المهدي عليه السلام . . . فالفرد حين يعرف ذلك وحين يعرف أسلوب هذا التخطيط، بالنحو الذي أسلفناه، يستطيع أن يشخص من الحوادث ما هو مربوط به وما هو غير مربوط. وتكون الحوادث المندرجة فيه حاملة معنى التقديم والتهيئة ليوم الظهور، بحسب معرفة الفرد المفكر، فتكون كلها كاشفة عنه ومن علاماته لا محالة.

وتكون هذه العلامة مطابقة للقواعد الأولية، لا بد من الإلتزام بها سواء ورد ذكرها في الروايات أو لا . . . بعد أن تم البرهان على وجود التخطيط الإلهي وصحته. وهذه هي المزية الرئيسية لهذا الشكل من الروايات عن غيرها.

على أنها قد وردت في الروايات بالفعل . . . ويندرج في ذلك جميع ما أسلفناه

من أخبار انحراف الزمان وأهله، سواء منها ما ورد مربوطاً بالمهدي أو مربوطاً بالساعة، أو مهملاً عن الارتباط... كما برهنا عليه في الجهة السابقة.

وأما بالنسبة إلى الحوادث التكوينية التي بشرت الروايات بوقوعها قبل الظهور ولو بزمن طويل... فالسر الأساسي في كاشفيتها عن الظهور وكونها علامة عليه، هو أن النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام يختارون بعض الحوادث الكبرى الملفتة للنظر مما يعلمون وقوعه في المستقبل، بالوحي أو بالإلهام، فيخبرون به مرتبطاً بالظهور، حتى إذا ما وقعت الحادثة في الأزمان ثبت عند الجيل المعاصر لها والأجيال المتأخرة عنها صدق هذه الأخبار، بالحس والوجدان، فيثبت بالقطع واليقين صدق الأخبار بالظهور. وهذا هو معنى كاشفيتها عن الظهور، وكونها علامة عليه.

ومن هنا لا معنى لكون بعض هذه الحوادث علامة، إلا إذا ورد في الروايات ذكره، وجعل منها علامة على الظهور. وأما بدون ذلك، فلا تكاد تصلح الحوادث الكونية المبعثرة خلال العصور، للكشف عن الظهور.

وأما بالنسبة إلى الحوادث الكونية القريبة من الظهور، بحسب دلالة الأخبار، فالسر الأساسي في دلالتها على الظهور هو أن الله تعالى يوجد بعض الحوادث الكونية، خصيصاً لأجل أن تصبح علامة على الظهور، لأجل إلفات نظر الناس إليه، وخاصة أولئك المخلصين الممحصين الذين كانوا ولا زالوا ينتظرون الظهور.

إذن فهذا القسم من الروايات يكتسب علاميته من التخطيط الإلهي الخاص لأجل إلفات النظر إلى الظهور.

إلا أن هذا القسم، كسابقه، لا يعرف كونه علامة على الظهور ما لم يرد

ذكره في الروايات. لوضوح أن حدوث الحادثة مهما كان غريباً وملفتاً للنظر، لا يكون علامة على الظهور، بدون المعرفة المسبقة بذلك... بواسطة نقلها في الأخبار.

فهذه هي جملة الأقسام لعلامات الظهور بما فيها من اختلاف في سببيتها في الكشف عن الظهور.

الجهة الثالثة:

في مناقشة بعض الأسئلة والإشكالات التي قد ترد على علامات الظهور:

الإشكال الأول:

إن بعض العلامات المذكورة في الاخبار متضمنة للمعجزات وخوارق الطبيعة... وهي مما لا يمكن حدوثها، ومعه لا بد من الاقتصار على ما يقع بشكل طبيعي من العلامات.

والجواب عن ذلك: إن قانون المعجزات هو الحكم الفصل في ذلك، وقد سبق أن لخصنا مضمونه. وبتطبيقه على العلامات نعرف أن كل علامة كانت واردة بشكل منحصر في مقام إقامة الحجة من قبل الله تعالى على البشر، فهي ممكنة الوقوع بل ضرورية لا محالة... ومطابقة للقواعد العامة المبرهن على صحتها في الإسلام.

وإن لم تكن العلامة المنقولة واقعة في هذا السبيل، لم تكن مطابقة للقاعدة ولزم رفض دليلها ما لم يكن قطعياً. وليس في الإسلام دليل قطعي يدل على ذلك.

وإذا تصفحنا العلامات، لم نجد منها ما هو قائم على أساس إعجازي، غير بعض الحوادث الكونية السابقة على الظهور، كالخسوف والكسوف في غير أوانه والصيحة... وسوف يأتي عند التعرض إلى تفاصيل العلامات ما هو متفق منها مع قانون المعجزات، وما هو مخالف.

الإشكال الثاني:

إن كل علامات الظهور تتضمن أخباراً بالمستقبل... فكيف يمكن أن نتأكد من صحتها، مع أنه لا يمكن للبشر الاطلاع على المستقبل.

والجواب على ذلك: أنه لا يمكن الإخبار بالمستقبل إلا عن طريق التعليم من قبل علام الغيوب جل شأنه، إما بالوحي أو بما يمت إليه بصلة بواسطة أو بوسائط، كما كانت عليه صفة النبيﷺ والأئمة المعصومين من بعده، على ما هو الثابت في عقيدة الإسلام. وأما المناقشة في ذلك، فهي تحتاج في جوابها إلى الاستدلال من جديد على أصل العقيدة، وهو مما لا مجال له في هذا التاريخ.

إذن، فما دام المعصومعليه السلام عارفاً بحدوث المستقبل، أمكنه الإخبار بها بطبيعة الحال وهناك من المصالح ما يدعو إلى ذلك وهي أن تكتسب العلامات كاشفيتها المطلوبة على الظهور. فإننا قلنا بأن جملة منها يتوقف على الاخبار به وروده في الأخبار. ويكون في هذه الإخبارات مشاركة حقيقية في التخطيط الإلهي لليوم الموعود.

ومعه، فليس علينا إلا أن ننظر إلى ما وصلنا من هذه الأخبار، فإن كانت إثباتاً تاريخياً كافياً للعلامة المعينة، أمكن الأخذ به بطبيعة الحال. وإلا لزم رفضه، لأنه غير كاف للإثبات، لا لكونه موضعاً للمناقشة في أساسه النظري.

الإشكال الثالث:

إن علامات الظهور، كما تكون منبهة للمخلصين الممحصين المؤيدين للمهدي عليه السلام، فتعدهم نفسياً لاستقباله ومؤازرته. كذلك تكون العلامات منبهة لأعداء المهدي عليه السلام الذين من المحتمل أن يعدوا العدة ضده. وخاصة إذا حدثت العلامات القريبة من الظهور، في يوم من الأيام. فيكون هذا التنبيه ضد مصلحة اليوم الموعود، كما هو واضح. فكيف كان ذلك؟!

والجواب على هذا الإشكال يتم على عدة مستويات:

المستوى الأول:

أننا إذا لاحظنا ما عليه البشر اليوم، بل على الخط التاريخي وجدنا أن هذا الإشكال غير ذي موضوع بالنسبة إلى أي فرد منهم.

أما منكرو اليوم الموعود ووجود المهدي أساساً، باعتبار الاتجاه المادي أو غيره. فهم بطبيعة الحال ينكرون علائم الظهور جملة وتفصيلاً، ولا يعتبرون شيئاً من الحوادث كاشفاً عنه أو دالاً عليه. وهم في نهاية الشوط لا يتوقعون الظهور لكي يستعدوا ضده بعدة أو عدد.

وأما المعترفون باليوم الموعود من أهل الأديان المختلفة، فليس عندهم علامات له ولم يلتفتوا إلى أي تقديمات إليه أو كواشف عنه. ومعه يكون حالهم في عدم توقع الظهور حال منكريه.

ومثلهم من هذه الجهة، المسلمون المنحرفون الذين ساروا على أساس مادي أو مصلحي في انحرافاتهم، في عصر الفتن والانحراف.

ولا يبقى - بعد ذلك - إلا المسلمون المخلصون الذين يعتقدون

بالمهدي عليه السلام وينتظرون ظهوره، وهم على إحاطة ذهنية كاملة بالعلامات، فهم الذين تلفتهم الحوادث إلى يوم الظهور، وتعدهم نفسياً وإيمانياً واجتماعياً لاستقباله ومؤازرته... بعد أن يكون التمحيص الإلهي قد أثر أثره فيهم وأنتج نتيجته، على أحد المستويات الأربعة السابقة.

المستوى الثاني:

إن هؤلاء المنحرفين أو الكافرين الذي يخشى من التفاتهم إلى علائم الظهور... لن يلتفتوا إليها، وإن عرفوا مجملاً أن هناك أخباراً تدل على ذلك.

وتعود غفلتهم عن ذلك إلى عدة أسباب. أهمها ما يلي:

السبب الأول:

إن الإنحراف بنفسه يحمل الفرد على التشاغل بما تقتضيه مصالحه وانحرافه... ويبتعد به عن الالتفات إلى النقاط المنبهة إلى الحق في الكون. ومن هنا قد تمر بعض العلائم أو كلها وهو في غفلة عن هذا، قد جعل انحرافه من بين يديه سداً ومن خلفه سداً عن إدراك الحق والتفاعل معه.

السبب الثاني:

أنهم بعيدون نفسياً وفكرياً عن الفحص عن أخبار هذه العلامات في بطون الكتب والمصادر القديمة، وعن الفحص عن وجودها الكوني أو الاجتماعي حين تحققها. بعد أن كانت الحياة قد أخذت بتلابيبهم واستغرقت أوقاتهم وجهودهم.

السبب الثالث:

إن هؤلاء حتى لو صادف أن اطلعوا على بعض الأخبار الناقلة لعلامات

الظهور أو سمعوها على الأفواه... فسوف لن يأخذوا منها محصلاً واضحاً أو دليلاً موثوقاً، بعدما عرفنا من اكتنافها بالرمزية وسيرها طبقاً لفهم الناس المعاصرين لعصر الصدور. مضافاً إلى تحقيق السند وتذليل سائر المشكلات التي يحتاج تذليها إلى فهم مترابط متكامل، وهو مما يفقده الأعم الأغلب من البشر.

وحيث لا يفهم الفرد المراد، لم يستطع تطبيق العلامة المخبر عنها. على هذه الحادثة أو تلك، بل يبقى مردداً لديه على طول الخط... وتبقى العلامات مشتبهة التطبيق في نظره.

السبب الرابع:

إن هؤلاء لو صادف أن رأوا علامة من علائم الظهور، مهما كانت واضحة، كالكسوف والخسوف في غير أوانه... فإنهم سوف يفهمونها فهماً مادياً (علمياً)!! بحتاً، فإن لم يجدوا حاولوا أن يفكروا في إيجاده. فإن لم يستطيعوا انتظروا أن يأتي العلم بجديد في هذا المضمار! وأمامنا الآن محاولاتهم عن فهم وجود الحياة على الأرض، ولم يصلوا إلى الآن إلى نتيجة حاسمة، ولم يقنعوا بعد، بإسنادها إلى غير المادة... مع أن صراحتها الميتافيزيقية أضعاف الصراحة في علامات الظهور.

المستوى الثالث:

أنه لو فرضنا أن أعداء المهدي عليه السلام ضبطوا علامات الظهور ورأوها عند تحققها وفهموا مغزاها، واستعدوا ضد المهدي عليه السلام. فإن الظهور، ليس أمراً أتوماتيكياً قهرياً بعد حدوث العلامات مباشرة. بل هو أمر اختياري مخطط من قبل الله تعالى عز وجل. ومعه فمن الممكن تأجيل الظهور ولو لعدة سنوات،

حتى ينقطع الاستعداد. ولا يظهر المهدي عليه السلام إلا على حين غرة من أعدائه.

فإن قال قائل: فكيف بالعلامات التي دل الدليل على قربها من الظهور. فإن تخلفه عنها وتأجيله بعدها، خلاف المفروض.

قلنا: يجاب على ذلك بوجهين:

الوجه الأول:

إن معنى القرب من الظهور، ليس هو الفصل الزماني بعدة أيام فقط... وما دل على ذلك يمكن طرحه بالتشدد السندي الذي نمشي عليه، كما سيأتي في قتل النفس الزكية... بل القرب الزماني ما يكون مقابلاً للتأخر لقرن أو عدة قرون... ومعه تكون العشر أعوام والأقل والأكثر قريباً من الظهور. ومن المعلوم أن الاستعداد العسكري لا يبقى مركزاً طيلة هذه المدة.

الوجه الثاني:

إن الدلالات العديدة، على ما سنذكر في التاريخ القادم، تدلنا على حصول الظهور في وقت يصعب جداً على أعداء المهدي عليه السلام مقابلته بالسلاح. ولو قابلوه فإن ظروفهم الإجتماعية والإقتصادية والطبيعية، توجب لهم الهزيمة لا محالة.

ومعه فمن الممكن أن نفترض، أو لا بد لنا أن ندرك أن هذه العلامات القريبة من الظهور، لا تحدث إلا في زمان يعجز أعداء المهدي عليه السلام عن مقابلته بالسلاح... وبعد أن تحدث يمكن أن يتبعها الظهور مباشرة... وهم لا يستطيعون المقاومة، ولو استطاعوا شيئاً، فانهم سيفشلون حتماً.

هذا، على أن كل من يؤمن بالله تعالى وباليوم الموعود، يؤمن لا محالة

بأن الله تعالى هو الضامن لتطبيق العدل المطلق في الأرض كلها في ذلك الحين، تطبيقاً لغرضه الأساسي من إيجاد البشرية. وإذا كان الله هو الضامن، فهو القادر على تنفيذه على كل حال، ولن يحول دونه حائل.

* * *

الجهة الرابعة:

في تقسيمات عامة لهذه الروايات:

لنرى ما الذي يمكن الاستفادة منه والاستدلال به وما الذي لا يمكن.

والذي يمكن أن نلاحظه هو انقسام هذه الروايات، الناقلة للعلامات، إلى تقسيمين رئيسيين: الأول: من جهة ترتيبها الزماني. والثاني: من جهة اعتماده على المعجزة.

ومن هنا ينبغي أن ينطلق الكلام من خلال ناحيتين:

الناحية الأولى: في الترتيب الزمني للحوادث.

ونتكلم في ذلك ضمن عدة نقاط:

النقطة الأولى:

في الحوادث التي دلنا التاريخ على حدوثها.

وذلك: أن النبي ﷺ أو أحد الأئمة عليهم السلام يخبر بوقوع بعض الحوادث قبل وقوعها، مربوطة بالمهدي عليه السلام أو غير مربوطة، فتحدث هذه الحوادث فعلاً.

فنجدها ونحن في العصر المتأخر، قد حدثت وانتهت ونسمع التنبؤ

بوقوعها أيضاً. وإن أكبر القرائن على صدق هذه الروايات هو حدوث الأمور التي أخبرت بحدوثها... ما لم يقم دليل خارجي على عدم صحتها في بعض الأحيان، كما سنشير إليه.

ومن الطريف أن بعض التنبوءات قد قالها النبيﷺ وسجلها أهل الحديث في مصادرهم، قبل حدوث الحادثة المطلوبة. ثم حدثت الحادثة فعلاً باليقين في التاريخ. بحيث نعلم جزماً أنها لم تسجل في المصادر بعد حدوثها. وهو لعمري لإحدى المعجزات التي تشارك في الدلالة على صدق العقيدة نفسها فضلاً عن إثبات المهديعليه السلام. وأوضح أمثلة ذلك التنبؤ بالحروب الصليبية على ما سنذكره.

وما دل الدليل على حدوثه في التاريخ مما ورد التنبؤ بحدوثه، عدة أمور:

الأمر الأول:

أخبار النبيﷺ بانحراف القيادة الإسلامية في المجتمع بعده.

فمن ذلك: ما أخرجه مسلم في صحيحه[١] عن النبيﷺ أنه قال: أنه ستكون هنات وهنات. وأنه[٢] قال: ستكون أمراء، فتعرفون وتنكرون، فمن عرف فقد برئ ومن أنكر فقد سلم. وأنه قال[٣] أنه يستعمل عليكم أمراء فتعرفون وتنكرون... الحديث.

وعن حذيفة بن اليمان، في حديث... فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن. قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يستنون بغير سنتي، ويهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. فقلت: هل بعد ذلك الخير من شر.

(١) جـ٢ ص٢٢.

(٢) المصدر، ص٢٣.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

قال: نعم. دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها[١].

وعنه ﷺ[٢]: يكون بعدي أئمة لا يهتدون بهداي ولا يستنون بسنتي، وسيقوم فيهم رجال، قلوبهم قلوب الشياطين، في جثمان إنس.

وأخرجت الصحاح الأخرى كالترمذي وابن ماجة والمصادر الأخرى كأحمد والحاكم، مثل ذلك. غير أننا لا نذكر فيما أخرجه الصحيحان أو أحدهما، إلا عنهما كما سبق.

وهذا ما حدث بالفعل بعد النبي ﷺ حين قام الحكم في المجتمع المسلم على المصلحة والأثرة. وتفاصيل ذلك أشهر من أن يذكر. واستعمال المقاصف والخمور في بلاط الخلفاء يكاد أن يكون من الواضحات، يذكر في الكثير من المصادر[٣]. وما ذكرناه في تاريخ الغيبة الصغرى من ذلك كفاية لمن اكتفى[٤].

الأمر الثاني:

أخبار النبي ﷺ أو أحد الأئمة عليهم السلام عن شؤون دولة بني العباس.

وقد اتخذ ذلك في المصادر المتوفرة لدينا، عدة أساليب:

الأسلوب الأول:

في التنديد ببني العباس والطعن فيهم من حيث انحرافهم وفسادهم وخروجهم عن جادة الحق. وقد اختصت المصادر الإمامية بذلك، فيما نعلم:

---

(١) المصدر ص٢٠.

(٢) المصدر والصفحة.

(٣) أنظر ابن خلكان جـ٢ ص٢٣٤ وأبو الفداء جـ١ ص٣٥٤ وابن الوردي جـ١ ص٢٣٢ والمسعودي جـ٤ ص١١ والكامل جـ٦ ص٢٢١ وغيرها.

(٤) أنظر مثلاً ص١٣٩ وص٣٣٣.

فمن ذلك: ما رواه النعماني في غيبته[١] عن النبي ﷺ، أنه التفت إلى العباس فقال: يا عم ألا أخبرك بما خبرني به جبرئيل؟ فقال: بلى، يا رسول الله. قال: قال لي: ويل لذريتك من ولد العباس. فقال: يا رسول الله، أفلا أجتنب النساء. فقال: قد فرغ الله مما هو كائن.

وفي حديث آخر[٢]: عن عبد الله بن عباس: قال: قال رسول الله ﷺ لأبي: يا عباس، ويل لولدي من ولدك، وويل لولدك من ولدي. فقال: يا رسول الله، أفلا أجتنب النساء أو قال: أفلا أجب النساء. قال: إن علم الله قد مضى والأمور بيده. وإن الأمر سيكون في ولدي.

ودولة بني العباس، واضحة للعيان في التاريخ. وما وقع بينها وبين أولاد علي وفاطمة: أولاد النبي عليه وعليهم الصلاة والسلام، من الخلاف، وما ذاقوه من بني العباس من التشريد والمطاردة والتعسف، أوضح من أن يذكر وأشهر من أن يسطر. كما أن ما تكبده العباسيون من ثورات العلويين التي تعد بالعشرات خلال تاريخهم الطويل، معروف وموصوف. وحسبك أنه قد أشغل الجزء المهم من مقاتل الطالبيين لأبي الفرج الأصبهاني والكثير من فصول التاريخ الإسلامي. وقد حاولنا أن نستعرض بعضه في تاريخ الغيبة الصغرى، في حدود ما يعود إلى تلك الفترة[٣].

وهذا التقابل، هو المصداق الواضح لقوله ﷺ: ويل لولدي من ولدك وويل لولدك من ولدي.

وأما قوله ﷺ: قد فرغ الله مما هو كائن، أو أن علم الله قد مضى، فأوضح ما يراد به هو الإشارة بطرف خفي إلى التخطيط الإلهي لليوم الموعود،

---

(١) ص١٣١.

(٢) المصدر والصفحة.

(٣) أنظر ص١٠٤ وما بعدها إلى عدة صفحات

باعتباره مستلزماً لوجود الإنحراف في المجتمع، وليس من مصلحة التمحيص رفعه وتبديله قبل يوم الظهور. إذن فهذا التقابل ينبغي أن يكون قائماً ليشارك والتمحيص والتخطيط الإلهيين.

وإنما لم يشر إلى ذلك صريحاً باعتبار عدم تحمل المستوى الثقافي لذلك العصر، التصريح بمثل هذه القوانين العامة الإلهية. وإنما زرقت هذه المفاهيم من خلال الكتاب والسنة تدريجاً.

وأوضح دليل على كون المراد هو ذلك، قوله ﷺ: وإن الأمر سيكون في ولدي. وذلك في يوم الظهور، فإن أول من يحكم حكماً عاماً نافذاً على العالم من ولد فاطمة وعلي عليهما السلام، إنما هو الإمام المهدي عليه السلام. وبحكمه ينتهي ذلك التقابل بين الفريقين.

الأسلوب الثاني:

الأخبار بهلاك بني العباس وزوال ملكهم.

كالخبر الذي ورد عن الإمام الباقر عليه السلام في حديث أنه قال: ثم يملك بنو العباس فلا يزالون في عنفوان من الملك وغضارة من العيش، حتى يختلفوا فيما بينهم فإذا اختلفوا ذهب ملكهم[١].

ودولة العباسيين أسست بعد وفاة الإمام الباقر عليه السلام بثمانية عشر عاماً، حيث توفى عليه السلام عام ١١٤[٢] وتولى أبو العباس السفاح، أول خلفاء بني العباس خلافته عام ١٣٢[٣].

---

(١) غيبة النعماني ص١٣٩.

(٢) الإرشاد للمفيد ص٢٤٥.

(٣) مروج الذهب ج٣ ص٢٥١.

وقد بدأ نجمهم بالأفول عند سيطرة الأتراك على الحكم. ثم انعزلوا تماماً عن المشاركة الفعلية في الحكم في عصر البويهيين وعصر السلاجقة. حتى إذا لم يبق للخلافة أي هيبة أو قيادة، وتضارب المجتمع المسلم في داخله، أصبح طعمة سائغة لهجمات التتار بقيادة هولاكو المغولي. حيث سقط آخر خلفائهم عبد الله المستعصم بالله عام ٦٥٦[١].

الأسلوب الثالث:

مدح العباسيين والثناء عليهم وتمجيد بعض خلفائهم. وقد اختصت برواية هذه الأخبار المصادر العامة. وليس في المصادر الإمامية منها أثر.

فمن ذلك ما أخرجه الترمذي[٢] عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ للعباس: إذا كان غداة الاثنين فأتني أنت وولدك حتى أدعو لهم بدعوة ينفعك الله بها وولدك. فغدا وغدونا معه. فألبسنا كساء ثم قال: اللهم اغفر للعباس وولده مغفرة ظاهرة وباطنة لا تغادر ذنباً. اللهم أحفظه في ولده.

قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

وقال في الصواعق[٣]: وصح عن الحاكم ابن عباس رضي الله عنهما: منا أهل البيت أربعة: منا السفاح ومنا المنذر ومنا المنصور ومنا المهدي.

وعقب ابن حجر على ذلك بقوله: فإن أراد بأهل البيت ما يشمل جميع بني هاشم، ويكون الثلاثة الأول من نسل العباس والأخير من نسل فاطمة، فلا إشكال فيه. وإن أراد هؤلاء الأربعة من نسل العباس أمكن حمل المهدي في

---

(١) دليل خارطة بغداد ص٢٧٧.

(٢) جـ٥ ص١٣١٩.

(٣) ص٩٩.

كلامه على ثالث خلفاء بني العباس، لأنه فيهم كعمر بن عبد العزيز في بني أمية، لما أوتيه من العدل والسيرة الحسنة.

ولأنه جاء في الصحيح أن اسم المهدي يوافق اسم النبيﷺ واسم أبيه اسم أبيه، والمهدي هذا كذلك لأنه محمد بن عبد الله المنصور. ويؤيد ذلك خبر ابن عدي: المهدي من ولد العباس عمي. لكن قال الذهبي: تفرد به محمد بن الوليد مولى بني هاشم، وكان يضع الحديث[1] ونحن لنا ثلاثة تعليقات على هذه الأخبار.

التعليق الأول:

إن الحديث الثاني غير مروي عن النبيﷺ، بل عن ابن عباس، فلا يكون حجة أساساً، ولا يصلح للإثبات العقائدي ولا التاريخي.

التعليق الثاني:

إن كل هذه الأخبار، مما لا يمكن أن تثبت أمام التشدد السندي، حتى مع وثاقة رواتها. لأن هناك قرينة عامة واضحة تدل على الوضع فيها جملة وتفصيلاً. وهي ممالأتها لجهاز حاكم وإطراؤه والثناء عليه... وكل ما كان هكذا لا يمكن قبوله، بعد التشدد. فإنه ما أكثر الأحاديث التي وضعت لتأييد الملك وتشييد أركانه وإسباغ صفة الشرعية عليه... مع شديد الأسف.

التعليق الثالث:

إن واضعي الحديثين الأخيرين، يريدان القول: بأن المهدي الذي بشر به رسول اللهﷺ هو المهدي بن المنصور العباسي، ونرى ابن حجر يوافق على

(١) المصدر والصفحة.

ذلك ويدافع عنه بالأدلة.

وحقيقة الأمر هو أن كثرة ما ورد عن النبي ﷺ في المهدي من أحاديث وشهرتها بين الناس وانتظارهم للمهدي عليه السلام كمصلح للعالم... انعكست على ذوي النفوس المنحرفة على شكل الطمع في أن ينال هو أو ولده هذا المنصب الإلهي الكبير، وان ينطبق عليه ثناء رسول الله ﷺ وبشارته، فمن هنا كثرت دعاوى المهدوية في التاريخ الإسلامي. ومن هنا أيضاً تصدى المنصور إلى تلقيب ولده بالمهدي إيهاماً لذلك، وخاصة وهو يحتمل أنه سينال الخلافة في يوم من الأيام.

ثم أن كل هؤلاء تهاووا على صخرة الواقع، حين لم يستطيعوا أن يقوموا بالمهمة الأساسية التي يؤمن بها للمهدي المنتظر كل من يؤمن به، وهو إصلاح العالم بشكل شامل كامل. وقد سبق أن قلنا: إن عدم قيامهم بهذه المهمة وانقراضهم قبل ذلك، أول دليل على كذب دعوى الفرد منهم أنه هو المهدي المنتظر.

وأما ما احتج به ابن حجر من أنه صح أن اسم أبيه اسم أبيه. فهو مما لم يصح ولم يثبت. وسوف نبحث عن ذلك في كتاب قادم من هذه الموسوعة.

ولعل من أوضح عدم صحة ذلك: إمكان ابتداع ذلك من قبل الكثيرين، فإن بإمكان كل شخص اسمه عبد الله أن يسمي ولده محمد ويلقبه بالمهدي، لكي تكون له أطماع في نيل القيادة أو الرئاسة العامة في المجتمع.

فاللازم ليس هو النظر إلى هذه الصفة بالتعيين، مما ورد من صفات المهدي، لكن نطبقها على الأشخاص. بل اللازم هو توخي مجموع الصفات والخصائص المتعلقة بالمهدي وتطبيقها على الفرد المدعي للمهدوية، بما فيها

من كونه من ولد فاطمة عليها السلام وبما فيها السيطرة على العالم خلال حياته. ولا شك أن هذه الأوصاف لا تنطبق على أي واحد من مدعي المهدوية إلى الآن في التاريخ.

الأسلوب الرابع:

أخبار النبي صلى الله عليه وآله عن خروج الرايات السود من خراسان، وجعلها إحدى علائم الظهور. والأخبار في ذلك كثيرة متظافرة بين الفريقين. وسيأتي نقلها وتمحيصها في جهة آتية من هذا الفصل.

والمهم الآن، هو تمحيص وتحقيق هذا الاحتمال وهو أن يكون المراد بهذه الرايات ثورة أبي مسلم الخراساني على الأمويين، تلك الثورة التي مهدت لقيام الدولة العباسية. ومعه فتكون هذه العلامة مما قد تحققت في الخارج، وإن فصل بينها وبين الظهور زمان طويل. فإن ذلك لا ينافي كونها علامة عليه، كما سبق.

ويرجح هذا الاحتمال: ان شعار هذه الثورة كان هو السواد وبقي شعاراً للعباسيين بعدها.

ويرجحه أيضاً ما ورد في البحار[1] عن ركاز بن أبي ركاز الواسطي، قال: قبل رجل رأس أبي عبد الله (الإمام الصادق عليه السلام)، فمس أبو عبد الله ثيابه وقال: ما رأيت كاليوم أشد بياضاً ولا أحسن منها. فقال: جعلت فداك هذه ثياب بلادنا، وجئتك بخير من هذه. قال: فقال: يا معتب أقبضها منه. ثم خرج الرجل. فقال أبو عبد الله عليه السلام: صدق الوصف وقرب الوقت. هذا

(١) ج١١ ص١٤٢.

صاحب الرايات السود الذي يأتي بها من خراسان. ثم قال: يا معتب الحقه فسله ما اسمه. ثم قال: إن كان عبد الرحمن فهو والله هو. قال: فرجع معتب. فقال: قال اسمي عبد الرحمن. قال: فلما ولي ولد العباس، نظر إليه، فإذا هو عبد الرحمن أبو مسلم.

ومن الصحيح تاريخياً أن اسم أبي مسلم عبد الرحمن، وان الإمام الصادق معاصر لثورته. وظاهر قوله: هذا صاحب الرايات السود... كونه إشارة إلى ما ورد عن النبي ﷺ بهذا المعنى، وخاصة مع قوله عليه السلام: صدق الوصف وقرب الوقت. والمراد به قرب خروج الرايات السود أو قرب ثورة أبي مسلم الخراساني، لا قرب ظهور المهدي عليه السلام وإن اقترن إخبار النبي ﷺ بالبشارة بالمهدي عليه السلام .

إذن، فهذا الاحتمال يكون راجحاً جداً، لولا مناقشتين:

المناقشة الأولى:

إن رواة هذا الخبر مجاهيل، فلا يثبت مؤداه، فضلاً عن التشدد السندي الذي التزمناه.

المناقشة الثانية:

معارضته بما ورد عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا رأيتم الرايات السود قد خرجت من خراسان فأتوها ولو حبواً على الثلج، فإن فيها خليفة الله المهدي). وفي حديث آخر أنه ﷺ قال: (إنّا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وان أهل بيتي سيلقون بعدي بلاء شديداً وتطريداً حتى يأتي قوم معهم رايات سود... حتى يدفعونها إلى رجلٍ من أهل بيتي فيملؤها قسطاً كما ملئوها جوراً. فمن أدرك ذلك فليأتهم ولو حبواً على الثلج، فإن فيها

خليفة الله المهدي)[١].

وكلا هذين الخبرين، واضحان في ارتباط ظهور المهدي عليه السلام بخروج الرايات السود، حتى أن الخبر الأول يصرح أنه موجود ضمن حاملي هذه الرايات. مع أنه من المقطوع به في التاريخ، وجود ما يزيد على ألف عام بين ثورة أبي مسلم وبين الظهور، ولعله سيزيد على ذلك بكثير.

إلا أن كلا هاتين المناقشتين لا تصحان:

أما المناقشة الأولى: فلا تصح لأن التشدد السندي الذي التزمناه خاص بأخبار التنبؤ عن المستقبل، وليس عاماً لكل الأخبار. ومعه فهذا الخبر الذي نقلناه عن البحار لا يندرج ضمن هذا المنهج، لأنه ليس من أخبار التنبؤ بالمستقبل. إذن فهو قابل إلى حد ما للإثبات التاريخي. وكونه مجهول الرواة لا يضر بذلك، كما برهنا عليه في المنهج الذي أسسناه في أول تاريخ الغيبة الصغرى[٢].

وأما المناقشة الثانية: فالمعارضة بين الخبرين، في الواقع، تنتج فشل الخبرين الأخيرين وسقوطهما عن قابلية الإثبات التاريخي، وسيكتب البقاء، عندئذ للخبر الذي نقلناه عن البحار.

فإننا عند دوران الأمر بين صدق هذين الخبرين أو ذلك الخبر، بحيث يتعين الالتزام بكذب أحدهما... لا بد وأن نحسب حساب القرائن المؤيدة لأحد الخبرين.

والشيء الذي نريد أن نقوله، بهذا الصدد هو: إن الجهاز العباسي الحاكم

(١) أنظر الخبرين في الصواعق المحرقة، ص٩٨.

(٢) أنظر ص٧٥.

حين وجد أن هناك ارتباطاً بين خروج الرايات السود وبين ظهور المهدي عليه السلام على لسان رسول الله صلى الله عليه وآله، كما استفاضت الأخبار عنه صلى الله عليه وآله على ما سوف نسمع... أحبوا جعل هذا الارتباط وثيقاً وقريباً، فجعلوا هذه الأخبار الدالة على ذلك، لتكون موحية بأن المهدي المقصود هو المهدي العباسي، لأنه هو المرتبط والقريب من ثورة أبي مسلم الخراساني ورايات السود، بل هو مندرج في ضمنها بشكل وآخر، كما جعلوا الحديث دالاً على ذلك.

والذي يدلنا على وضع هذين الحديثين، ما قاله صاحب الصواعق نفسه حين أوردهما. فقد أورد أولاً قوله: (إنا أهل بيت اختار الله لنا)... الخ... وعلق عليه بقوله: (وفي سنده من هو سيِّىء الحفظ مع اختلاطه في آخر عمره). ثم أورد قوله: (إذا رأيتم الرايات السود...) الخ. ثم قال: (وفي سنده ضعيف له مناكير. وإنما أخرج له مسلم متابعة، ولا حجة في هذا والذي قبله، لو فرض أنهما صحيحان لمن زعم أن المهدي ثالث خلفاء بني العباس)[1].

ولم يطعن ابن حجر في هذين الحديثين، من رواية كونهما دالين على وجود المهدي المنتظر عليه السلام، فإنه أورد الكثير من هذه الأخبار مؤيداً غير طاعن فيها. وإنما طعن فيهما لكونهما ضعيفين حفظاً لموضوعية البحث.

وأما طبقاً للتشدد السندي، وقيام القرائن على عدم صحة هذين الحديثين، باعتبار ما فيهما من تأييد للجهاز الحاكم آنذاك، فينبغي إسقاطهما على كل حال، كما عرفنا.

وعليه فالمظنون أن المراد بالرايات السود، رايات أبي مسلم الخراساني،

---

(١) الصواعق ص٩٨.

فإن ثورته بدأت من خراسان، واتجهت إلى بغداد بأعلامها السود الخفاقة. وقد جعلت علامة على الظهور، باعتبار أهميتها في التاريخ وإلفاتها نظر الجيل المعاصر والأجيال التي بعدها. ولا يضر بذلك الفعل الزماني الطويل بينها وبين الظهور، كما أسلفنا، شأنها في ذلك شأن العديد من العلائم التي ذكرت للظهور، مما سبقت أو سيأتي الكلام عنها.

ولا يبقى في مقابل هذا الظن إلا احتمال أن يكون المراد بالرايات السود، رايات أخرى تخرج من خراسان في مستقبل الدهر، لا يكون بينها وبين الظهور إلا القليل. إلا أن هذا الاحتمال مما لا يمكن إثباته بدليل.

وعلى أي حال، فقد أصبحت أحاديث الرايات السود من أخبار علائم الظهور، وفيها إشارة لدولة العباسيين، وإن انتفى القرب الزمني بينهما. ومن هنا جعلنا هذه الأخبار أسلوباً رابعاً من أساليب التنبؤ بدولة بني العباس.

الأمر الثالث:

ما ورد من التنبؤ بزوال دولة بني أمية، قبل زوالها، بطبيعة الحال.

كالخبر الذي ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال: (يقوم القائم في وتر من السنين: تسع، واحدة، ثلاث، خمس). وقال: (إذا اختلف بنو أمية وذهب ملكهم). الحديث[1]. وقد عرفنا أن الإمام الباقر عليه السلام قد توفي قبل زوال ملكهم وقيام دولة العباسيين، بثمانية عشر عاماً.

الأمر الرابع:

ما ورد من التنبؤ باختلاف أهل المشرق والمغرب.

كالذي ورد عن الإمام الباقر عليه السلام أيضاً، في نفس الحديث الأخير ،حيث

(١) غيبة النعماني ص١٣٩.

قال: (واختلف أهل المشرق والمغرب)[١].

ولهذا الاختلاف أطروحتان، قد يكون المراد أحدهما، وقد يكون المراد كلاهما:

الأطروحة الأولى:

اختلاف أهل المشرق والمغرب في حدود البلاد الإسلامية، وعلى الأساس الإسلامي بشكل عام.

وهذا ما حدث في التاريخ طويلاً، حيث كان الشرق يحكمه العباسيون والغرب - بمعنى الأندلس الإسلامية - يحكمه الأمويون. كما أن المغرب - بمعنى الشَّمال الافريقي - حكمه المهدي الافريقي محمد بن عبيد الله، حتى انتقلت ذريته إلى مصر، وأسسوا الدولة الفاطمية. وفي كلا الحالين، كانوا منفصلين عن خلافة الشرق العباسية، ومناوئين لها.

الأطروحة الثانية:

ما حدث في العصر الحديث، وهو ما زلنا نعيشه منذ الحرب العالمية الثانية إلى الآن... من وجود الدولتين الكبيرتين في العالم، التي تمثل إحداهما زعامة ما يسمى بالشرق أو الكتلة الشرقية، وتمثل الأخرى زعامة ما يسمى بالغرب.

وإذا نظرنا إلى جذور هاتين الدولتين، وجدنا للفكرتين اللتين تقومان عليهما: الرأسمالية والشيوعية، جذوراً تاريخية تمتد حوالي قرنين من الزمن. وعلى أي حال فهما معاً وليدتا المد الحضاري الأوروبي الحديث، القائم على

---

(١) المصدر نفسه.

الأساس المادي المحض المناقض للأديان جميعاً، كما هو معروف من بحوث العقائد الفكرية عادة. وعلى أي حال، فقد جعل هذا الاختلاف بإحدى هاتين الأطروحتين، من علائم الظهور، بصفته ملفتاً للنظر من ناحية، ومشاركاً في الانحراف المنتج للتمحيص، كما عرفنا من ناحية أخرى.

الأمر الخامس:

التنبؤ بثورة صاحب الزِّنْج.

فمن ذلك: ما أخرجه الصدوق في الإكمال[1] عن ابن عباس عن رسول الله عن الله عز وجل في بعض كلامه مع رسوله في المعراج، حيث جعل ذلك من علامات الظهور فقال: (وخراب البصرة على يد رجل من ذريتك يتبعه الزنوج).

وقال في الإرشاد[2]: (قد جاءت الآثار بذكر علامات لزمان قيام القائم المهدي عليه السلام)، وعدد عدداً كبيراً منها، إلى أن قال: (وخروج العبيد عن طاعة ساداتهم وقتلهم مواليهم).

وكل ذلك مما حدث بالفعل على يد صاحب الزنج، كما سبق أن عرفنا في تاريخ الغيبة الصغرى[3]، وكيف انه عاث في المجتمع المسلم فساداً وكلف الدولة العباسية كثيراً، وكبد البصرة وكثيراً من المدن الأعاجيب من القتل والنهب والتشريد.

اسمه علي بن محمد، زعم انه علوي. ولم يكن – على ما يذكر التاريخ–

(١) أنظر إكمال الدين المخطوط.

(٢) أنظر ص٣٣٧.

(٣) أنظر ص٩٦ وما بعدها.

كذلك. فإن نسبه في عبد قيس و أمه من بني أسد بن خزيمة[١]. وعلى أي حال فرواية الصدوق تؤيد كونه علوياً. على حين نجد الإمام العسكري عليه السلام برواية ابن شهر آشوب[٢] ينفي ذلك ويقول: (وصاحب الزنج ليس منا أهل البيت). وقد سبق أن بحثنا ذلك في التاريخ السابق[٣].

وعلى أي حال، فمن المحتمل، أن يكون مراد الإمام العسكري عليه السلام نفيه عن أهل البيت عقائدياً و فكرياً. كابن نوح الذي لم يكن من أهله لأنه عمل غير صالح، وان ارتبط به نسبياً. والله العالم بحقائق الأمور.

الأمر السادس:

أخبار النبي صلى الله عليه وآله بوقوع الحروب الصليبية.

وذلك: فيما أخرجه أبو داود و ابن ماجة في صحيحيهما[٤] بألفاظ متقاربة عن النبي صلى الله عليه وآله، واللفظ لأبي داود: (ستصالحون الروم صلحاً آمناً، فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم، فتنصرون وتغنمون وتسلمون. ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج ذي تلول. فيرفع رجل من أهل النصرانية[٥] الصليب. فيقول: غلب الصليب. فيغضب رجل من المسلمين[٦] فيدقه. فعند ذلك تعذر الروم وتجتمع للملحمة).

---

(١) أنظر الكامل جـ٥ ص٣٤٦.

(٢) جـ٣ ص٥٢٩.

(٣) أنظر تاريخ الغيبة الصغرى ص١٨٩ وما بعدها.

(٤) أبو داود جـ٢ ص٤٢٥ وابن ماجة ص١٣٦٩.

(٥) ابن ماجة: من أهل الصليب.

(٦) ابن ماجة: فيقوم اليه.

وأضاف أبو داود[١] بسند آخر: (ويثور المسلمون إلى أسلحتهم، فيقتتلون، فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة).

وأما ابن ماجة[٢] فأضاف إلى الحديث الأول بسند ثان: (فيأتون تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفا).

وهذا الحديث الشريف مطابق كل المطابقة مع فترة التاريخ الإسلامي. وقد قلنا أن أول دليل على صحة الأخبار وقوع ما أخبر به. وهذا الحديث من أوضح مصاديق ذلك، لأن مضمونه واقع في التاريخ بالقطع و اليقين.

ولئن كانت الأخبار التي أسلفناها في هذا الفصل، قد سجلت في كتب الأخبار بعد وقوع حوادثها. فكان يمكن لبعض الماديين أن يطعنوا بصحة نسبتها إلى النبيﷺ ويزعموا أنها وضعت بعد حدوث الحادثة... إلا أن هذا الحديث الشريف لا يحتمل فيه ذلك على الإطلاق. لأنه صدر عن النبي في صدر الإسلام، قبل الحروب الصليبية بمئات السنين، وسجل الحديث في المصادر قبل حدوثها بأكثر من قرنين من الزمن.

فإن أبا داود توفي عام ٢٧٥[٣] وابن ماجة توفي عام ٢٧٣[٤]. على حين سقطت القدس بيد الإفرنج الصليبيين عام ٤٩٢[٥].

وهذه المصادر الحديثة متواترة عن أصحابها، لا يحتمل الزيادة فيها فوق ما سجله مؤلفوها. وما زال أهل السنة من المسلمين يعتمدون عليها في الفقه والعقائد والتاريخ.

---

(١) المصدر والصفحة.

(٢) المصدر والصفحة.

(٣) ابن خلكان جـ٢ ص١٣٨.

(٤) المصدر ص٤٠٧.

(٥) الكامل جـ٨ ص٨٩.

ومن هنا يمكن أن يعتبر ذلك من المعجزات التي تؤيد عقيدة الإسلام، وصدق كلام النبيﷺ وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى... فضلاً عن إسنادها لفكرة وجود المهدي، كما سبق أن أشرنا.

ونحن إذا لاحظنا المائة سنة أو الأكثر السابقة على الحروب الصليبية، نجدها خالية عن الفتوحات الإسلامية تقريباً، وهادئة من جانب الروم تماماً... ما عدا حركة الفتح تجاه الهند[١]. وما عدا بعض المناوشات المتقطعة التي تحدث بين المسلمين والروم، والتي تكون فيها المبادءة من الروم عادة، كالذي حدث عام ٣٦١[٢] وعام ٤٢١[٣]. وفيما سوى ذلك يمكن القول أن السلام أو الهدنة، كانت سارية المفعول بين المعسكرين.

وهذا هو المصداق الواضح لقول النبيﷺ - في الحديث -: (ستصالحون الروم صلحاً آمناً). وليس المراد به، ظاهراً، المصالحة المتفق عليها بين المعسكرين.

ومعه لا يكون هذا الصلح أو الهدنة، قائماً على أساس الموادة للذين كفروا أو الرضوخ لهم ليكون محرماً في الإسلام. وإنما السر في ذلك: هو أن جذوة الثورة الحرارية التي أوجدها النبيﷺ في المجتمع الإسلامي، كما أشرنا إليها، قد بدأت بالتنازل والخمود في تلك العصور. فكان انحراف المسلمين وتناسيهم لتعاليم دينهم، وتفضيلهم لمصالحهم الضيقة، قد أوجب إعراضهم عن الجهاد وتغافلهم عن أحكامه والاكتفاء بواقعهم المرير الذي كان في ذلك الحين يعاني من أشد الأزمات والانقسامات في داخل الدولة الإسلامية

---

(١) انظر الفتوحات الإسلامية جـ١ ص......

(٢) الكامل جـ٧ ص٤٤.

(٣) المصدر ص٢٤١.

الممزقة. وكانت الخلافة العباسية قد بدأت تلفظ أنفاسها الأخيرة.

وقد أدت هذه الهدنة المنحرفة مع الروم إلى تبادل بعض الثقة وحسن الظن بين المعسكرين. مما أوجب لهما معاً أن لا يجدا مانعاً عن الاتفاق أحياناً، بل الاشتراك في عمل عسكري موحد. وهو ما حدث مرة أو أكثر في القرن السابق على الحروب الصليبية. وهو المصداق الواضح لقول النبيﷺ: (فتغزون أنتم وهم عدواً من ورائكم، فتنصرون وتغنمون وتسلمون).

ولعل أوضح الحوادث صراحة في ذلك، ما حدث عام ٣٧٥ على ما يحدثنا التاريخ[١] من أنه وقع اختلاف بين ملوك الروم مع بعضهم، فاستنجد بعض منهم بملوك الإسلام، وذلك البعض هو (ورد) الرومي. وكان من أكابر رؤوسهم وقواد جيوشهم وعظماء بطارقتهم. فطمع في الملك ولا قدرة له على قتال المتنازعين. فكاتب أبا تغلب بن حمدان أمير حلب والموصل نيابة عن الخليفة، واستنجد به وصاهره. فأجابه ابن حمدان واستجاش بالمسلمين من الثغور فحصل له جيش ضخم، فقصد قتال الروم بذلك الجيش. فأخرجوا له جيشاً بعد جيش وهو يهزمهم، فقوى جنانه فقصد القسطنطينية، ومع تلك الجيوش (ورد) الرومي الطالب لتملك القسطنطينية.

فانظر كيف اتفق هذا الحمداني والرومي على حرب بقية الروم وانتصرا عليهم. كما قال النبيﷺ. وإن لم يدم هذا النصر طويلاً، فإنه حين أراد فتح مدينة القسطنطينية، جمعوا له جيوشاً كثيرة وقاتلوه قتالاً شديداً حتى انهزم[٢].

ومما يدلنا على تبادل بعض الثقة بين المعسكرين حوادث أخرى:

منها: ان ورداً الرومي المذكور حين انهزم عن القسطنطينية، فكر بأن يستند

(١) الفتوحات الإسلامية جا ص٣٤٧.

(٢) المصدر والصفحة.

إلى عضد الدولة بالعراق، فكاتبه ووعده ببذل الطاعة. فأجابه بجواب حسن ووعده بأن ينصره. فبلغ ذلك ملوك الروم. وكان ملكان منهما أخوين مشتركين في ملك القسطنطينية، فكاتبا عضد الدولة وبعثا له بهدايا واستمالاه. فقوى في نفسه ترجيح جانبهما، وأعرض عن نصر ورد الرومي... إلى آخر الحوادث[١].

وهناك حوادث أخرى تدل على وجود هذه الثقة المتبادلة، لا تخفى على المتتبع.

فإن قال قائل: إن ظاهر الحديث النبوي الشريف، ان النصر المشترك الذي يحرزه الروم والمسلمون نصر حقيقي وأكيد، على حين عرفناه ان هذه الحروب التي ذكرناها، كانت نهايتها الفرار.

قلنا: ان كل ما يدل عليه الحديث الشريف، هو أنهم ينتصرون ويغنمون ويسلمون. ولا شك أن هذا قد حدث في الحروب السابقة على هجومهم على القسطنطينية، وان انهزموا بعد هذا الهجوم.

وأما قوله ﷺ: ثم ترجعون حتى تنزلوا بمرج ذي تلول. فليس فيه دلالة على أنهم راجعون بالنصر. والمرج المشار إليه، كأنه كناية عن المنطقة التي صار إليها الجيش المهزوم.

وبعد فترة من ذلك قامت الحروب الصليبية، من قبل أناس جدد غير أولئك المتعاهدين مع المسلمين. ومن هنا نجد الحديث النبوي الشريف يقول: (فيرفع رجل من أهل النصرانية الصليب). ولم يقل رجل منهم أي الروم. لأن رادة الحروب الصليبية كانوا غير أولئك الأسبقين، بحوالي قرن وإن كان الجيل

---

(١) المصدر جـ١ ص٣٤٧.

المتأخر من الروم البزنطيين قد اشترك فعلاً في تلك الحروب. ولا يكون بين رفع الصليب والانتصار المشترك أية علاقة مباشرة، وإنما هو مجرد الترتيب الزمني.

ويكون معنى رفع الصليب من قبل أهل النصرانية، وهم الأوروبيون الإفرنج. معناه اتخاذ الصليب شعاراً لهم ورمزاً لانتصارهم، واستغلالهم الدين المسيحي لاستعمار المسلمين والتوصل إلى قتلهم واستغلال مواردهم واقتصادياتهم. ويكون قوله: (غلب الصليب)، عبارة رمزية عن هذا الشعار، متضمناً للتفاؤل بالنصر رفعاً لمعنويات الجيش المهاجم.

وهذا بالضبط هو الذي أعلن في ابتداء الهجوم الصليبي. إذ قالوا عند العزم عليه:

(وحق الإنجيل هذا جيّد لنا ولهم - يعني الأوروبيين والصقالبة - وتصبح البلاد نصرانية)[١]. وقال أحد زعمائهم: (إذا عزمتم على جهاد المسلمين فأفضل ذلك فتح بيت المقدس، تخلصونه من أيديهم ويكون لكم الفخر)[٢].

وكان ذلك عام ٤٩١، وقد استطاعوا أن يحققوا هدفهم هذا في العام المقبل. فقد احتلوا بيت المقدس بعد سلسلة من المذابح فيها وفي كل مدينة إسلامية مروا بها في طريقهم. حيث لم يكن مرادهم الفتح فقط، بل التشفي من المسلمين، وإبادتهم والانتقام من فتوحهم المظفرة.

ففي بلدة البيت المقدس نفسها كما يقول لنا التاريخ[٣]: (ركب الناس

---

(١) الكامل جـ٨ ص١٨٥.

(٢) المصدر والصفحة وانظر الفتوحات الإسلامية جـ١ ص٥٠٠.

(٣) الكامل جـ٨ ص١٨٩ والفتوحات جـ١ ص٥٠٤

السيف ولبث الفرنج في البلدة أسبوعاً يقتلون فيه المسلمين. . . وقتل الفرنج بالمسجد الأقصى ما يزيد على سبعين ألفاً منهم جماعة كثيرة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبادهم وزهادهم، ممن فارق الأوطان وجاور بذلك الموضع الشريف. وأخذوا من عند الصخرة نيفاً وأربعين قنديلاً من الفضة وزن كل قنديل ثلاثة آلاف وستمائة درهم. وأخذوا تنوراً من فضة وزنه أربعون رطلاً بالشامي. وأخذوا من القناديل الصغار مائة وخمسين قنديلاً نقرة، ومن الذهب نيفاً وعشرين قنديلاً، وغنموا منه ما لا يقع عليه الإحصاء).

وبقي البيت المقدس تحت الاحتلال المباشر للصليبيين ما يقرب من مائة عام، توسعوا من خلالها إلى دمشق وبيروت وعكا ويافا وصيدا وصور وغيرها من المدن المسلمة. حتى سلط الله تعالى عليهم جماعة من عباده الشجعان بقيادة صلاح الدين الأيوبي. فأذاقوهم طعم الفرار والاندحار، ونصر الله تعالى دينه وأعلى كلمته، بعد دهر من المحنة والتمحيص.

وقد بدأ صلاح الدين بالأطراف، فاسترجعها منهم، في حروب قاسية، حتى استطاع فتح البيت المقدس عام ٥٨٣[1]. بالصلح، بعد حصار طويل ومناوشات طويلة، أظهر فيها كل من المسلمين والإفرنج غاية الاستبسال والصمود.

وهذا هو المصداق الحقيقي القطعي لقول النبي ﷺ - في الحديث الشريف -: (فيغضب رجل من المسلمين، فيقوم إليه فيدقه). يعني يقوم إلى الصليب فيدقه. وهذا الرجل هو صلاح الدين الأيوبي نفسه، وغضبه المشار إليه في الحديث إنما هو لأجل احتلال الصليبيين بلاد الإسلام، وبغاية تنظيفها منهم وإعلاء كلمة الإسلام فيها. والفكرة في أساسها من أعظم الأفكار الإسلامية شموخاً وإخلاصاً ومشروعية، وإن كان التطبيق أحياناً ينطلق من زوايا

---

(١) الكامل جـ٩ ص١٧٥ وص١٨٢والفتوحات ج١ ص٥٢٠.

منحرفة حادة.

وقوله: (يقوم إليه)، يعني يتصدى لمعارضته ومقاومته ومنازلته. وقوله: (يدقه)، أي يكسر الصليب ويبيده ويفنيه. وهو معنى إخراج الصليبيين من بلاد الإسلام، وإزالة حكمهم واحتلالهم عنها.

ولنا في تفسير هذه الحملات الظافرة، بعد أن كانت جذوة الثورة الحرارية لدى المسلمين قد خمدت منذ قرنين من الزمن، لنا فيها تفسيرات وبيانات، يطول المقام بعرضها.

وقولهﷺ: (فعند ذلك تغدر الروم وتجتمع للملحمة). كناية عن بدء عصر النهضة الحديثة في أوروبا. تلك النهضة التي بدأت جذور حرارتها والتحسس إليها من خلال الحروب الصليبية نفسها. فبينما كنا نجد الإفرنج يستجيرون بالمسلمين ويتعاهدون معهم ويشتركون معاً في حروب ذات هدف موحد. وهذا معناه أن فكرة الاستعمار الأوروبي لم يكن لها وجود، بل كانت أوروبا تنظر إلى المجتمع المسلم نظرة الند للند على أقل تقدير.

ولكن نهضة الحروب الصليبية هي التي أوجبت التحسس الأوروبي وإذاقتها طعم الانتصار والاثراء على حساب الشعوب الضعيفة، وكل ما فعلته أوروبا بعد ذلك أنها جردت نهضتها عن العنصر الديني وأبدلته بالمفهوم المادي العلماني للعالم، وهذا هو الفرق الأساسي بين النهضة الأوروبية الحديثة والنهضة الصليبية.

يشير إلى مثل هذا المفهوم بعض المؤرخين[١] ويقول: (إن تلك الحروب وإن هلك فيها كثير من النفوس، وذهب فيها كثير من الأموال، من غير حصول

(١) الفتوحات الإسلامية جـ ١ ص ٣٦٦.

على المقصود، - باعتبار فشل الإفرنج واندحارهم في تلك الحروب -. لكنه أعقب نتائج نافعة لهم.

منها: انهم من ذلك الوقت شرعوا في ترتيب العساكر وتعلموا بمواصلتهم المسلمين صناعة التجارة والزراعة وكثيراً من العلوم العقلية والفلكية. وألفوا التواريخ النافعة وتوسعوا في معرفة علم الفلك وألّفوا فيه، وتخلقوا بأخلاق الحضر. وتعودوا الاسفار براً وبحراً لاكتشاف أحوال الأقطار، واكتشفوا أمريكا في أسفارهم سنة ٨٩٠ هجرية، ولم تكن معلومة لأحد قط.

واكتسبوا أنواع الفروسية واللعب بالخيل والرماح... وتعلموا أيضاً المشورة في الأحكام وعلموا أن الملك يفسد بالاستبداد وعدم المشورة فدونوا لهم أحكاماً وقوانين يرجعون إليها. واستكثروا من جمع كتب الإسلام وترجمتها بلسانهم ليعلموا معانيها، فاخذوا منها ما يكون به صلاح الملك. واتخذوا مدارسهم لتعليم أنواع الفنون، وعرفوا أن الملك لا ينتظم إلا بذلك كله). انتهى كلامه.

إذن فالأساس الذي أيقظ عندهم النهضة الحديثة على ضخامتها وجبروتها، هو ما أوجبته الحروب الصليبية من الانفتاح على العالم والشعور بالمسؤولية تجاه الرقي والتقدم، في الاتجاه الذي فهموه وطبقوه.

ونسبة الغدر إلى الروم، باعتبار نقضهم لعهد الهدنة وإقرارهم لفكرة الحروب الصليبية.

ومعنى اجتماعها هو محاولة زرع الاتفاق بين شعوبها والشعور بالمسؤولية والهدف المشترك بينهم علمياً واقتصادياً وسياسياً، كما سمعنا.

ولعل أوضح وألطف عبارة رمزية يمكن أن يعبر بها على هذا الغدر

والاستعمار بما يحمل من تخطيطات فكرية وعقائدية وعسكرية واقتصادية. . . ما قاله النبيﷺ: - برواية ابن ماجة - (فيأتون تحت ثمانين غاية، تحت كل غاية اثنا عشر ألفاً). وهذه الأرقام ليست للتحديد بل للتعبير عن مجرد الكثرة، مع بيان اختلاف مراتبها، فعدد الأفراد الذي يعملون تحت كل غاية أكثر عدداً من مجموع الغايات.

وهذا هو الذي حصل فعلاً، فقد جاءت أوروبا إلى الشرق المغلوب على أمره، تحت عشرات الشعارات والمصالح بل المئات منها. وأما المؤيدين المغرورين بكل غاية من هذه الغايات، والمتحمسين لها على اعتبارها الغاية القصوى في الكون بزعمهم. . . فأفرادهم يعدون بالآلاف بل بالملايين.

ولكن النبيﷺ لم يكن يمكنه التصريح قبل أكثر من ألف عام لا بعشرين ألف. حفظاً لقانون: (كلم الناس على قدر عقولهم). ولم يكن المجتمع يومئذ بقادر على تفهم شيء مما وقع بعد ذلك، بأكثر مما صرح به الحديث الشريف. فإن مجموع الممالئين لأوروبا بنص الحديث الشريف مائة وستون ألفاً من الناس.

وأما ما أضافه أبو داود إلى الحديث، وهو قوله: (ويثور المسلمون إلى أسلحتهم، فيقتتلون، فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة. . .) فهو عبارة عن الثورات التي يقوم بها المسلمون خلال التاريخ، ضد الملحمة الكبرى: الاستعمار والتعبير بالثورة أوضح قرينة على ذلك.

قوله: (فيقتتلون)، يعني معسكر المسلمين ومعسكر الروم، أو المستعمرين.

إلا أن الاستعمار سيكون أقوى من أن يقهر، والمسلمون الثائرون بالرغم من اندفاعهم وإخلاصهم أقل عدداً وعدة من أن يستطيعوا الدفاع الحقيقي

البليغ. بل هم لا محالة - على أفضل تقدير - سيتهاوون في ميدان الشهادة واحداً بعد الآخر (فيكرم الله تلك العصابة بالشهادة).

ونحن إذا لاحظنا تاريخ الثورات التي قامت في بلاد الإسلام منذ تاريخ الاستعمار إلى ما بعد بداية القرن العشرين الميلادي... نجدها قائمة على أساس إسلامي، بشكل وآخر: كثورة الجزائر في بدايتها بقيادة الشيخ عبد القادر الجزائري، وثورة العشرين في العراق بقيادة الشيخ محمد تقي الشيرازي.

وإنما أصبحت الثورات في العالم تقوم على أساس مادي صرف في العقدين الأخيرين تقريباً. وذلك تحت التأثير الأوروبي المادي الذي غزانا في عقر دارنا وسيطر على أفكارنا وحياتنا، حين لم تجد بلاد الإسلام مقاومة حقيقية وجواباً عسكرياً حاسماً، على المد المادي الجارف.

الأمر السابع: من العلامات التي تحققت في التاريخ، مقاتلة الترك.

أخرج البخاري في كتاب الجهاد من صحيحه[1] عن رسول الله ﷺ أنه قال: (لا تقوم الساعة حتى تقاتلوا الترك، صغار الأعين حمر الوجوه ذلف الأنوف، كأن وجوههم المجان المطرقة...) الحديث. وقد عقد الترمذي وأبو داود وابن ماجة في صحاحهم أبواباً بهذا العنوان، فراجع.

وهذا منه ﷺ في الأرجح إشارة إلى وصول الفتح الإسلامي إلى بلاد الترك. وقد تحقق ذلك بعد وفاة النبي ﷺ عام اثنين وعشرين للهجرة، بقيادة عبد الرحمن بن ربيعة.

وذُلْف الأنوف: صغارها. يقال: ذَلِف الأنف إذا صغر واستوت أرنبته، فصاحبه أذلف، والمؤنث ذلفاء والجمع ذُلف بضم فسكون. والمجان جمع

(١) الفتوحات جـ١ ص١٥٢.

مجن وهو الترس. والمطرقة بضم الميم وتشديد الراء، مأخوذ من الطرق، يقال: طَرَقَ الحديد إذا مدده ورققه. وهو كناية عن سعة الوجه.

ومن هنا ورد في بعض الأحاديث وصفهم بكونهم عراض الوجوه، كالذي أخرجه ابن ماجة[١]: (لا تقوم الساعة حتى تقاتلون قوماً صغار الأعين عراض الوجوه) الحديث.

وأخرج مسلم عدة أحاديث بهذا المضمون[٢] ولم يذكر فيها اسم الترك، غير أنه يمكن أن يكون ما أخرجه البخاري قرينة عليه. فيكون ذلك مما تحقق في التاريخ الإسلامي.

الأمر الثامن: فتح القسطنطينية:

أخرج مسلم: أن رسول اللهﷺ قال: (لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق أو بدابق، فيخرج إليهم جيش من المدينة من خيار أهل الأرض يومئذ)... إلى أن يقول: (فيفتحون قسطنطينية)... الخ. الحديث.

وهذا ما تحقق فعلاً، بعد عدة قرون من تسجيله في المصادر الحديثة، فضلاً عن زمن التنبؤ به من قِبَل النبيﷺ. فيكون من هذه الناحية، كما قلنا في التنبؤ بالحروب الصليبية، على مستوى المعجزات.

وفاتح القسطنطينية هو السلطان محمد الثاني بن السلطان مراد، من أوائل الملوك العثمانيين، الذين حكموا البلاد الإسلامية باسم الدين ردحاً طويلاً من الزمن. وقد تم الفتح ودخول المسلمين فيها عام ٨٥٧ للهجرة[٣] وسميت

(١) أنظر جـ٨، ص١٧٥ وما بعدها.

(٢) أنظر جـ٨ ص١٧٥ وما بعدها.

(٣) الفتوحات، جـ ٢ ص١٢٤ وما بعدها.

بعدئذ باسلامبول نسبة لها إلى الإسلام بعد النصرانية، وأصبحت العاصمة الرئيسية للدولة العثمانية.

ونكرر هنا القول الذي ذكرناه في موقف صلاح الدين الأيوبي... من أن فكرة الفتح أساساً مجيدة وعظيمة في الإسلام، ومن هنا أعتبر النبيﷺ الجيش الفاتح (من خيار أهل الأرض يومئذ). وهذا لا ينافي وجود نقاط ضعف في العقيدة أو السلوك من الجهات الأخرى.

لا يبقى بعد هذا الاحتمال أن يكون المقصود من الحديث النبوي هو أن فاتح القسطنطينية هو الإمام المهدي(ع) بعد ظهوره، كما ورد في بعض الأخبار[١]. وقد يستدل على ذلك بإطراء النبيﷺ على الفاتحين، كما سمعنا، فانه أشد انطباقاً على أصحاب المهدي(ع) منه على الجيش العثماني بطبيعة الحال.

هذا الاحتمال غير صحيح، لصراحة الحديث النبوي، بأن القسطنطينية تؤخذ من الروم، وهو ما حدث في الفتح العثماني. وأما المهدي(ع) فسوف يفتحها تارة أخرى، إلا أنه سوف يأخذها من المسلمين المنحرفين، كما يأخذ سائر البلاد الإسلامية غيرها. وإنما ذكرت في الأخبار لأهميتها الجغرافية واستراتيجيتها العسكرية.

ويؤيد ذلك، قوله في الحديث النبوي عن الجيش الفاتح: (فيقاتلونهم فينهزم ثلث لا يتوب الله عليهم أبداً. ويقتل ثلثهم أفضل الشهداء. ويفتح الثلث...) الحديث[٢]. وهذا الانقسام مما لا يمكن حدوثه في جيش المهدي

---

(١) أنظر كشف الغمة، جـ ٣، ص٢٦٤.

(٢) ص٣٣٦ وما بعدها.

الفاتح للعالم كله، بطبيعة الحال.

وأما وصفهم بكونهم من خيار أهل الأرض، وإن شهداءهم أفضل الشهداء... فقد عرفنا تفسيره الصحيح.

وعلى أي حال، فهذه الأمور الثمانية، هي أهم ما ورد في الأخبار من العلامات التي تحققت في التاريخ.

• • •

علامات أخرى متحققة:

بقيت هناك عدة علامات ذكرها الشيخ المفيد في الإرشاد مختصراً، وقال أنها وردت في الآثار وجاءت بها الأخبار. منها عدد قد تحقق في التاريخ ؛ أو يمكن حمله على مصاديق مفهومة متيقنة. وإنما عزلناها عن العلامات السابقة لأننا لم نجدها في الأخبار، فيما عدا رواية المفيد لها مرسلاً بدون سند.

وتكون القاعدة العامة، في التشدد السندي، رفضها ما لم تقم قرائن واضحة على صدقها. وقد سبق أن قلنا أن أدل دليل على صدق الرواية تحقق مضمونها في الخارج على مدى التاريخ. وسنختار ما يمكن القول بتحققه فنذكره فيما يلي:

أولاً: مقتل الحسني:

ولا شك أن العشرات من ذرية الإمام الحسن الزكي عليه السلام، ثاروا في أيام الدولة الأموية والعباسية، وواجهوا من القتل والتشريد من قبل السلطات الشيء الكثير... كما هو أوضح من أن تدخل في تفاصيله. ولمن يراجع مقاتل

الطالبيين لأبي الفرج خير المعرفة بذلك.

وإن في دولة طبرستان التي أسسها الحسن بن زيد الحسني العلوي عام ٢٥٠، والتي استطاعت الصمود ردحاً طويلاً من الدهر، بالرغم من كيد الأعداء، خير دليل على صمود هذه الذرية الطاهرة واستبسالهم ضد الظلم والطغيان.

نعم، هناك احتمال أن يراد بالحسني: النفس الزكية التي ورد أنها تقتل قبل الظهور بخمس عشرة ليلة. إلا أنه ليس باحتمال وجيه، لأن الخبر الدال على مقتل النفس الزكية في مثل ذلك الموعد، غير مقبول بالتشدد السندي على ما سيأتي. كما أن كون النفس الزكية التي تقتل في ذلك الحين - لو صح - من أولاد الحسن عليه السلام، أمر لا دليل عليه.

ثانياً: اختلاف بني العباس في الملك الدنيوي:

وحقيقته التاريخية أوضح أيضاً من أن يفاض في تفاصيلها وقد سبق في هذا التاريخ والذي قبله عن ذلك الشيء الكثير.

ثالثاً: إقبال رايات سود من قبل خراسان:

وقد عرفنا انطباق ذلك على ثورة أبي مسلم الخراساني. وفي هذه العلامة اخبار مسندة سوف نرويها فيما بعد.

رابعاً: ظهور المغربي بمصر وتملكه الشامات:

ولعمري أن مصر قد غزت الشام واستولت عليها، عدة مرات في التاريخ الإسلامي. كالذي فعله ابن طولون ثم المعز الفاطمي ثم إبراهيم باشا. ثم كان

آخرها تلك المحاولة التي سميت باسم الجمهورية العربية المتحدة.

إلا أن المغربي من هؤلاء هو المعز الفاطمي، لأنه من ذرية المهدي العلوي الافريقي الذي نشر دعوته عام ٣٩٦[١] في الشمال الافريقي. وبقيت دولته قائمة، حتى انتقل عنها المعز معد بن إسماعيل إلى مصر عام ٣٥٨[٢]. وأزال عنها كافورا الأخشيدي.

وفي نفس العام سارت جيوشه إلى طبرية ومنها إلى دمشق. واستولى عليها قائده ابن فلاح عام ٣٥٩. وخطب فيها المعز واستقر فيها ملكه[٣] .

فانظر كيف ظهر المغربي بمصر، وملك الشامات، طبقاً لهذه النبوءة.

خامساً: نزول الترك الجزيرة:

وأرض الجزيرة هي أرض العراق فيما بين النهرين، وهو اصطلاح قديم ومعروف.

وقد بقيت هذه الأرض تحت الحكم العثماني التركي ردحاً طويلاً من الزمن، يبدأ من عام ٩٤١ هجرية، ويستمر بقية القرن العاشر والقرون التي تليه حتى القرن الرابع عشر الحالي، حيث سقط حكمهم عام ١٣٣٥ هجرية، بالاحتلال البريطاني للعراق[٤] أثناء الحرب العالمية الأولى.

وهذه من التنبؤات التي حدثت بعد صدور الحديث وكتابته في المصادر

---

(١) الكامل، جـ ٦، ص١٣٣.

(٢) ابن الوردي، جـ١، ص٣٠٨.

(٣) المصدر، ص٤٠٩.

(٤) دليل خارطة بغداد، ص٢٨٦ إلى ص٢٩٥.

بعدة قرون. حيث توفي الشيخ المفيد صاحب الإرشاد عام ٤١٣[١]. وحصل الاحتلال التركي للعراق بعده بخمسمائة وثمانية وعشرين عاماً. إذن فهو من هذه الناحية، كعدد مما سبق، تنبؤاً بالغيب على مستوى المعجزات.

سادساً: نزول الروم الرملة:

والروم في لغة عصر المعصومين عليهم السلام، هم الأوروبيون بشكل عام، كما سبق أن ذكر في تاريخ الغيبة الصغرى[٢]. والرملة منطقة في مصر ومنطقة في الشام. وعلى كلا الحالين يكون هذا التنبؤ اخباراً عن الاستعمار الفرنسي، أما إلى مصر بقيادة نابليون بونابرت في حملته المشهورة، أو إلى سوريا حيث بدأ الاحتلال الفرنسي فيها بإخراج العثمانيين عنها بعد الحرب العالمية الأولى.

وعلى أي حال، فالنبّوءة واقعة وصحيحة على المستوى التاريخي. وهذه أيضاً من التنبؤات الإعجازية التي سجلت في المصادر قبل حدوثها بقرون.

سابعاً: خلع العرب اعنتها وتملكها البلاد، وخروجها عن سلطان العجم:

وهو ما نعيشه في هذا العصر، عصر الثورات في البلاد العربية بقصد التحرر من الاستعمار الأجنبي، وسيطرة أشخاص من أهل البلاد على الحكم.

وخلع الأعنة تعبير مجازي أما عن الثورة أو عن الانحراف عن زمام الدين وأحكامه حلاً وتصريف الأمور تحت شعارات أخرى لا تمت إلى الدين بصلة. وكلاهما قد حدث فعلاً. والتعبير بالعرب ربما كان قرينة على ذلك، حيث يمكن أن يدل على أن الثورات تقوم على أساس شعار العروبة لا على أساس الإسلام.

---

(١) أنظر الكنى والألقاب، ج٣، ص١٧١، ط النجف ١٣٧٦ - ١٩٥٦.

(٢) أنظر ص ٢٥٤ وما بعدها.

وتملكها البلاد يعني سيطرة أناس من أهل البلاد على الحكم. وخروجها عن سلطان العجم عبارة عن محاولتها التحرر من الاستعمار والخروج عن سيطرته. فإن لفظ العجم غير مختص بالفرس، كما يتخيل العامة، بل يشمل كل شخص غير عربي، مهما كانت لغته.

فانظر إلى هذا التنبؤ الذي لم يحدث إلا بعدما يزيد على الألف عام من صدوره وتسجيله في المصادر.

ثامناً: ثبق في الفرات، حتى يدخل الماء في أزقة الكوفة:

يقال: ثبق النهر، إذا كثر ماؤه وأسرع جريه. وهو عبارة أخرى عن الفيضان. وقد حصلت هذه النبوءة في العديد من السنين، وشاهدت الكوفة مثل هذا الفيضان كثيراً. وقد عاصرنا بعض ذلك.

تاسعاً: عقد الجسر مما يلي الكرخ بمدينة بغداد:

كان الناس في بغداد، خلال العصر العباسي بشكل عام، يكتفون بجسر أو جسرين بين جانبي دجلة[١] في الأغلب. وأما اليوم فبين جانبي بغداد عدة جسور، بعضها تجاه الكرخ وبعضها تجاه الرصافة.

ولم نستطع أن نتبين تاريخياً أن أول جسر عقد إلى جانب الكرخ، كان في أي عام ومن قبل أي سلطة. وليس ذلك مهماً في حدود بحثنا.

عاشراً: اختلاف صنفين من العجم، وسفك دماء كثيرة فيما بينهم:

وإذا كان المراد من العجم، غير العرب من البشر، كما قلنا، كان كل

(١) أنظر دليل خارطة بغداد، ص١٤٩ وص١٩٣.

حرب تقع بين معسكرين أو دولتين غير عربيتين، يمكن أن يكون مصداقاً لهذه النبوءة.

ويكفينا أن نعرف أن مثل هذه الحروب لم تكن مهمة ولا ملفتة للنظر عالمياً في زمن النبي ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام. وإنما تمخضت هذه الحروب في الأزمنة المتأخرة عن ذلك بعدة قرون.

ولسنا بحاجة إلى تحصيل المثال على ذلك، من الحروب... بعد الحروب التي وقعت بين ألمانيا وفرنسا أو بين بريطانيا وفرنسا أو بين تركيا واليونان... أو غير ذلك خلال التاريخ الحديث.

بل يكفينا النظر إلى الحربين العالميتين الواقعتين في النصف الأول من القرن الحالي. فإن كل واحدة منهما تمثل خلافاً دموياً بين عدة دول غير عربية. وقد تسببت إلى إزهاق الملايين من النفوس. وقد كانت أشد تأثيراً على بلاد الإسلام من الحروب الأوروبية الداخلية التي كانت تحدث بين الإفرنج في العصور الأسبق منها.

نكتفي بهذا المقدار من التنبؤات المتحققة تاريخياً، وهي بمجموعها تشكل دليلاً قطعياً على صدق قائليها المعصومين عليهم السلام ذلك الصدق الدال على صدق سائر أقوالهم بما فيه اخبارهم عن ظهور الإمام المهدي عليه السلام.

وقد يخطر في الذهن هذا السؤال: وهو أننا باستعراض هذه العلامات الواقعة تاريخياً، بل حتى العلامات التي لم تقع، مما سنذكره... نرى أن أكثرها تدور حول المنطقة الإسلامية من العالم. وأما التعرض إلى الحوادث تقع في المناطق الأخرى فهو في غاية القلة. فلماذا حدث هذا الاختصاص؟.

فنقول في جوابه: إن لهذا الاختصاص دخلاً أساسياً في التخطيط الإلهي

ليوم الظهور. فإن المخلصين الممحصين الذين يتم إعدادهم لتكفل مسؤولية الظهور مع المهدي عليه السلام هم من المسلمين لا محالة. وهم الذين ينبغي أن تنبههم العلامات - كما قلنا - إلى تحقق الظهور. مضافاً إلى الأفراد المخلصين من المرتبتين الثانية والثالثة، من مراتب الإخلاص التي قلناها.

ومعه فمن المنطق أن تختص هذه العلامات، بالشكل الذي تحقق هذا الهدف... وذلك لا يكون إلا إذا كانت تحدث في العالم الإسلامي، أو تكون ملفتة لنظر المسلمين إن حدثت في الخارج. وعلى هذا درجت كل العلامات الواردة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة عليهم السلام إيفاء لهذا الغرض.

وبهذا ينتهي الكلام في النقطة الأولى من الناحية الأولى، وهو ما دل التاريخ على حدوثه من العلامات.

النقطة الثانية:

فيما يشك في حدوثه من العلامات.

وما يمكن ضبطه من أسباب الشك، كقاعدة عامة، سببان:

أحدهما: الشك في مدلول الرواية، باعتبار العلم برمزيتها، وإن المراد منها مصاديق لا تتضح من اللفظ بصراحة. ومن هنا لا يفهم بوضوح انطباقها على الحوادث التاريخية الحاصلة... وعدمه.

ثانيهما: الشك في ما قاله التاريخ، بمعنى احتمال أن يكون المشار إليه في بعض التنبوءات، أموراً أهملها التاريخ، ولم يتعرض لها. وما أكثر ما أهمل التاريخ من الحوادث.

ويتدرج في ذلك عدد من الوقائع والحروب، ونحوها، المذكورة في هذه

الروايات. وسنحمل عنها فكرة كافية في الجهة الآتية من الكلام إن شاء الله تعالى.

ولا يوجد ما يحول دون هذا الشك، سوى التدقيق الزائد في فهم الروايات، ومحاولة تنظيمها منطقياً موافقاً لقواعد الإسلام، كما سنحاول في الجهة الآتية. مع التدقيق في المصادر التاريخية، وفهمها فهماً منظماً أيضاً. وما بقي من الشكوكات، لو فرض ثبوتها بالتشدد السندي، فالأفضل إيكال علمها إلى الله عز وجل.

النقطة الثالثة:

فيما يشك في تقدمه على الظهور، وتأخره عنه، بأحد السببين السابقين.

ويكون تداركه بالتدقيق في الروايات وفهمها فهماً منظماً بما في ذلك الروايات التي تتحدث عن الحوادث السابقة على الظهور أو التي تتحدث عما يحدث بعده.

والضابط الذي يمكن التوصل إليه الآن، قبل الوصول إلى تفاصيل الجهة الآتية: هو أن كل حادثة تدل على الانحراف أو على بعض نتائجه، فهي متقدمة على الظهور، باعتبارها مرتبطة بعصر الفتن والانحراف المسبب عن التمحيص الإلهي، كما سبق أن عرفنا.

وكل رواية تدل على حسن الزمان وحصول الرفاه فيه وتطبيق الإسلام، فهو راجع إلى ما بعد الظهور. وقد أسلفنا ذلك، وأقمنا القرينة على أن ما دل على الانحراف غير مربوط بالحوادث المباشرة لقيام الساعة، بل بالحوادث السابقة على الظهور.

إلا أن ما يندرج ضمن هذا الشك قليل نسبياً، مع تكفل الكثير من الروايات، التصريح بهذا التوقيت.

النقطة الرابعة:

فيما يعلم بتأخره عن الظهور من الحوادث. وهو لا يكون من علامات الظهور بطبيعة الحال.

يندرج في ذلك: ما يقع بعد الظهور مباشرة أو ما ينتج عنه، أو ما يقع بعده بتاريخ طويل، أو ما يقع قبل الساعة مباشرة. وكل ذلك قد نفرض قيام الدليل على تعيينه الزمني، كما هو الأغلب، وقد نفرض الشك في ذلك وتعذر الاستدلال عليه... فيبقى علمه إلى الله عز وجل. وكل ذلك مما سنذكر تفاصيله في التاريخ الآتي من هذه الموسوعة إن شاء الله تعالى.

وبهذا تنتهي الناحية الأولى من الجهة الرابعة، في الترتيب الزمني للحوادث.

الناحية الثانية:

في انقسام علامات الظهور من ناحية وقوعها على الأسلوب الطبيعي أو الإعجازي.

وهي تنقسم إلى ثلاثة أقسام، يقع الكلام فيها ضمن ثلاث نقاط:

النقطة الأولى:

في الحادث الطبيعي الذي لا إعجاز فيه. وإنما اكتسب علاميته وإماريته عن الظهور، باعتباره حادثاً مهماً ملفتاً للنظر، اختاره النبيﷺ أو أحد الأئمة عليهم السلام، ليكون دالاً على الظهور.

يندرج في ذلك كل ما أسلفناه مما وقع من العلامات في التاريخ، وكل

الحوادث التي اكتسبت علاميتها ودلالتها باعتبار دخلها في التخطيط الإلهي كما قلنا. كما يتدرج في ذلك كثير من العلامات المروية الأخرى، كقتل النفس الزكية وخروج الدجال، وعدد من الحروب المروية مما عرفناه ومما سنعرفه.

ولا بد أن نلاحظ، بهذا الصدد أن المراد من كونه طبيعياً، هو أن الحادث المقصود حقيقة للرواية لم يقع عن طريق المعجزة. وقد تكون الدلالة المطابقية للعبارة القائمة على الرمز، توحي بوجود المعجزة، كالخبر الذي ورد عن الدجال ان معه جنة ونار فناره جنة وجنته نار، والخبر الذي ورد عن انحسار الفرات عن كنز من ذهب. ونحوه مما سيأتي مع تفسيره في الجهة الآتية.

النقطة الثانية:

ما كان قائماً على المعجزة بمقدار إقامة الحجة، طبقاً لقانون المعجزات الذي ذكرناه.

ونحن في صدد حساب ذلك، لا بد أن نرجع فيه إلى كل مورد، لنرى مطابقته لهذا القانون وعدمه. وهذا واضح.

وإنما لا بد الآن من الإشارة إلى ما سبق ان أشرنا إليه، ولم نعط تفسيره الكامل. من ان المستفاد من بعض الروايات قيام بعض العلامات على الإعجاز، خصيصاً لتنبيه المخلصين الممحصين على الظهور. فما هو تفسير ذلك؟.

ولعل أوضحها واصرحها في ذلك ما روته المصادر الإمامية، بسند يكاد يكون متشابهاً لولا اختلاف في نسخ النساخ، عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: - برواية الشيخ الطوسي[1] -: (آيتان تكونان قبل القائم، لم تكونا منذ

---

(١) الغيبة، ص٢٧٠ وانظر الإرشاد ص ٣٣٩ وغيبة النعماني ص١٤٤.

هبط آدم عليه السلام إلى الأرض. تنكسف الشمس في النصف من شهر رمضان والقمر في آخره.

فقال رجل: يا ابن رسول الله، تنكسف الشمس في آخر الشهر، والقمر في النصف؟.

فقال أبو جعفر: إني لأعلم بما تقول، ولكنهما آيتان لم تكونا منذ هبط آدم عليه السلام).

وروى النعماني في غيبته[1] عن أبي جعفر عليه السلام أيضاً أنه قال: (ان بين يدي هذا الأمر انكساف القمر لخمس تبقى والشمس لخمس عشرة، وذلك في شهر رمضان، وعنده يسقط حساب المنجمين).

وبسند آخر عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: (علامة خروج المهدي كسوف الشمس في شهر رمضان في ثلاث عشرة وأربع عشرة منه).

ولا شك بإمكان ذلك عقلاً، وليس بمستحيل فالكسوف الشمسي يقع بسبب توسط القمر بين الشمس والأرض. ومن الواضح انه لا فرق في النتيجة وهي اختفاء الشمس، بين أن يكون القمر مظلما في آخر الشهر أو أن يكون مضيئاً في وسطه.

كما ان خسوف القمر يحدث لتوسط الأرض بينه وبين أن يكون هلالاً في أول الشهر أو آخره، وبين أن يكون بدراً في وسطه. غير ان الظل الأرضي إذا صار على القسم المظلم من القمر لم يؤثر فيه شيء ولم يمكن رؤيته. وأما إذا صار هذا الظل على القسم المضيء من القمر، أي الهلال، اثر فيه وذهب ببعضه أو بجميعه.

---

(١) ص١٤٥.

فبحسب التجريد العقلي ممكن وبقدرة الله تعالى ممكن. وهو الذي خلق الكون، وله التصرف فيه كيف يشاء. وإنما الشيء الذي لا بد أن نعرفه هو مطابقته لقانون المعجزات، مع التأكد من كفاية هذه الأخبار للإثبات التاريخي مع التشدد السندي الذي تسير عليه.

أما بحسب قانون المعجزات، فلا شك ان في حدوث ذلك تأكيداً وترسيخاً لفكرة المهدي عليه السلام في أذهان الناس، لا عند المخلصين الممحصين فقط، بل عند كل من يعرف بأن هذه الآية ستقع قبل الظهور. وسيتحول العديد من الناس إلى أشد المؤمنين بالمهدي عليه السلام والمدافعين عنه، ممن لم يكن قبل ذلك على هذا الإيمان. أو بتعبير آخر: انه يوجب صعود درجات الإخلاص في أنفس المخلصين لإحدى مراتب الإخلاص السابقة.

ولعل ظاهر هذه الروايات، كون هذه الآية من الآيات القريبة من الظهور. ومعه يكون إيجادها إرشاداً وتنبيهاً للمخلصين الممحصين بالاستعداد للقاء القائم المهدي عليه السلام والجهاد بين يديه. باعتبار ان الفرد منهم لا يشعر بنجاز شرط الظهور وتحققه كما قلنا. ولعله أيضاً يغفل عن عدد العلامات التي تقع وقوعاً طبيعياً أو يجهل ارتباطها بالمهدي عليه السلام. ومن هنا كان لا بد للتنبيه القوي أن يقع لكي يهز كل الضمائر المخلصة.

ومن المعلوم ان التفات مجموع المخلصين الممحصين إلى قرب الظهور ووقوعه ضروري. لأن المفروض ان عددهم بمقدار الحاجة لا أكثر، فإن نقصوا كان ذلك مخلاً بنجاح اليوم الموعود. ومن هنا انبثقت الحاجة إلى هاتين الآيتين.

وأما من حيث كفاية هذه الأخبار للإثبات التاريخي، فهي من حيث العدد متعاضدة ومتساندة في إثبات مؤداها. ومعه تكون مقبولة، ما لم تَتَنَافَ مع

قانون المعجزات، وإلاّ لزم رفضها. فلو جزمنا بتوقف إقامة الحجة، أو إيجاد اليوم الموعود عليها، فهو، وإلا كان قانون المعجزات منافياً مع هذه الروايات.

ونحن لا نستطيع الجزم بهذا التوقف لكفاية المعجزات الأخرى لإقامة الحجة واضطلاعها بالمهمة، فلا يتعين الحاجة إلى هذه المعجزة بالتعيين.

نعم، لو لم تكن هذه الظاهرة إعجازية، بل كانت نادرة الوقوع جداً في الكون، بحيث لم توجد في عمر البشرية الطويل وإن كانت لعلها قد وجدت قبلها، كما قد يستشعر من الرواية. ففي مثل ذلك تكون الروايات الدالة على حدوثها كافية للإثبات التاريخي.

إلا أن هذا الفهم بعيد جداً، بعد فرض حدوث الخسوف والكسوف النادرين في شهر واحد، فتبقى الظاهرة إعجازية. ولتدقيق هذه الفكرة مجال آخر.

ولعل مما يتدرج ضمن هذه المعجزات: الصيحة والنداء، مما لم نحمله على محمل طبيعي. ومنها الخسف بالبيداء إذا لم نحمله على العقاب الدنيوي المستعجل أو على حماية أهل الحق. وسيأتي التعرض إلى كل ذلك في الجهة الآتية إن شاء الله تعالى.

النقطة الثالثة:

ما دل على إقامة المعجزات أكثر مما يقتضيه قانون المعجزات.

وأوضح ذلك واصرحه ما دل على قيام المعجزات من قبل أنصار الباطل والمنحرفين عن الحق. وذلك أدهى وأمر من مجرد قيام المعجزة بلا موجب، فإن فيه تأييداً للباطل وإغراء بالجهل يستحيل صدوره عن الله عز وجل.

فإن قال قائل: ان مبرر مشروعية ذلك هو أنه قائم على أساس التمحيص

والامتحان وسبب له. حيث تدل الأدلة على ان سبب التمحيص منقسم إلى قسمين: طبيعي وإعجازي. ولعمري ان السبب الإعجازي أشد تمحيصاً وآكد نتيجة. فإن الإيمان بكذب من قامت المعجزة على يديه من أصعب الأشياء.

قلنا: كلا، فإن هذا مما لا يستقيم بالبرهان. فإن التمحيص الموجب للتربية الحقيقية، ليس هو إلا ما كان عن سبب طبيعي وعن عيش حياتي طويل.

وأما التمحيص الإعجازي، فقد يكون ممكنا لو توقف عليه إتمام الحجة. يندرج في ذلك كل معجزات الأنبياء فإنه -لا محالة- محك للتمحيص والاختبار إذ يرى من يؤمن بنتائجها ممن يكفر بها.

وأما المعجزة الموهمة بالباطل والمغررة للجاهل، فغير ممكنة الصدور عن الله عز وجل بالبرهان. والإيمان بكذب من قامت المعجزة على يده غير ممكن إلا على أساس الانحراف. وذلك ليس إلا للبرهان القائم على ان الله تعالى لا يظهر المعجزة على يد الكاذب، كما برهن عليه في محله من العقائد الإسلامية.

فكيف يكون الباطل المستحيل طريقاً للتمحيص وإقامة الحق، وتربية المخلصين. ولعمري ان ذلك قائم على الفهم السيِّئ لقوانين الإسلام.

إذن فلا بد من استعراض ما ورد من الروايات المتنبئة بحوادث من هذا القبيل، لأجل التخلص عنها في الجهة الآتية. ولا بد أن نلاحظ سلفاً ان ما هو الميزان في الرفض والأخذ بالرواية إنما هو مقصودها الواقعي لا عبارتها الرمزية.

وسنذكر الآن عدداً مما خالف قانون المعجزات، فما كان صريحاً في ذلك

رفضناه. و ما كان رمزياً باعتبار الفهم المتكامل للروايات الذي سوف يأتي في الجهة الآتية، أمكن الأخذ به على تقدير إمكان إثباته بالتشدد السندي.

ويمكن تعداد المهم من ذلك ضمن الأمور التالية:

الأمر الأول:

طول عمر الدجال، على أساس الأطروحة الكلاسيكية المشهورة عنه.

حيث دل ما أخرجه مسلم في صحيحه من الروايات و غيره، على ان الدجال هو ابن صائد، وانه لم يؤمن برسول الله ﷺ بالرغم من طلبه شخصياً منه. بل هو ادعى الرسالة، وحاول عمر بن الخطاب قتله، فقال له رسول الله ﷺ : (ان يكنه فلن تسلط عليه، وإن لم يكنه فلا خير لك في قتله)[1] وفي رواية أخرى: (ان يكن الذي ترى فلن تستطيع قتله)[2] وفي رواية ثالثة: (فإن يكن الذي تخاف فلن تستطيع قتله)[3].

والمراد: انه لو كان هو الدجال، فهو غير قابل للقتل أساساً، لأن الله تعالى قد قدر له طول عمره. وهذا النص، بالرغم من أنه لا يعطي الجزم بأن ابن صائد هو الدجال بالتعيين. ولكنه يدل بوضوح بأنه لو كان هو الدجال، فهو ممن لا بد من بقائه إلى حين قيامه وظهوره. وبما يؤيد ذلك ما أخرجه مسلم أيضاً[4] عن رسول الله ﷺ أنه قال: (ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال). لو فهمنا منه طول العمر.

ولا نريد أن نناقش في ان ابن صائد هو الدجال أم لا. فقد طعن في ذلك

(١) صحيح مسلم، ج ٨، ص١٩٢.

(٢) المصدر، ص١٨٩.

(٣) المصدر، ص١٩٠.

(٤) المصدر، ص٢٠٧.

محمد بن يوسف الكنجي في كتابه البيان[١]. وأنكره ابن صائد نفسه، فيما أخرجه مسلم عنه[٢] قائلا: (يزعمون أني الدجال، ألست سمعتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: انه لا يولد له. قال الراوي: قلت: بلى. قال: فقد ولد لي: أو ليس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يدخل المدينة ولا مكة. قلت: بلى. قال: فقد ولدت بالمدينة و ها أنا ذا أريد مكة).

و مما يدل على طول عمر الدجال: حديث الجساسة، الذي أخرجه عدد من الصحاح منهم مسلم[٣] و فيه يقول الدجال: (انا المسيح، واني أوشك ان يؤذن لي في الخروج فأسير في الأرض فلا ادع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة و طيبة فهما محرمتان علي كلتاهما). فإذا علمنا انه لم يؤذن له بالخروج من حين عصر تميم الداري إلى الآن، وهو ما يزيد على الألف عام... عرفنا كيف يدل هذا الحديث على طول عمره.

ولعمري ان من العجب ان إخواننا أهل السنة والجماعة، يؤمنون به وبالمصادر الحديثة التي دلت عليه. ولكنهم يستبعدون غيبة المهدي عليه السلام وطول عمره. مع قلة الروايات عن الدجال وطول عمره و تكاثرها عن المهدي عليه السلام. بالرغم في سببية الإمام المهدي عليه السلام لهداية العالم وتنفيذ الغرض الإلهي الكبير، وليس الدجال كذلك.

فالجماعة يرون الدجال شخصاً طويل العمر، غائباً منعزلا في جزيرة في البحر، كما يدل عليه حديث الجساسة. وأما المهدي عليه السلام فشخص يولد في زمانه. على حين ان الذي ينبغي أن يقال بكونه هو الحق عكس ذلك - لو مشينا على الأطروحة الكلاسيكية لفهم الدجال- وهو ان المهدي طويل العمر

(١) ص١٠٨.

(٢) جـ ٨، ص١٩٠.

(٣) جـ ٨، ص٢٠٥.

وغائب عن الأنظار بالشكل الذي ذكرناه في القسم الأول من هذا التاريخ واما الدجال فشخص يولد في حينه.

فإن المهدي عليه السلام مذخور لثورة الحق و تطبيق الغرض الإلهي الكبير. فهل بالإمكان أن يقال: ان الدجال مذخور لثورة الباطل وإغراء الناس بالجهل؟! وهل يصح أن يكون هذا غرضاً إلهياً، بشكل من الأشكال!!.

وإنما الصحيح، انطلاقاً من هذه الأطروحة، كون الدجال شخصاً اعتيادياً منحرفاً أو كافراً يوفق لانتشار حكمه وسلطته على رقعة كبيرة من الأرض.

فيكون كل من اتبعه على الباطل، وكل من خالفه على الحق.

وأما على الأطروحة المقابلة، وهي التي تنفي ان يكون الدجال شخصاً بذاته وإنما هو عبارة رمزية عن التيارات الكافرة والمنحرفة فكرياً وسياسياً واقتصادياً... فهذا ما سنعرضه بشكل تفصيلي في الجهة الآتية. وقد يكون من الدليل عليها ما ورد من طول عمر الدجال على أي حال.

الأمر الثاني:

ما ورد من منع الدجال دخول الحرمين: مكة والمدينة، بطريق إعجازي.

يدل عليه حديث الجساسة نفسه[١] إذ يقول فيه الدجال: (فلا أدع قرية إلا هبطتها في أربعين ليلة غير مكة وطيبة فهما محرمتان عليّ كلتاهما. كلما أردت أن أدخل واحدة أو واحدا منهما استقبلني ملك بيده سيف صِلتاً يصدني عنها).

وهذا الحديث غير صالح للإثبات التاريخي، بعد التشدد السندي الذي اتخذناه.

وهو لا يوضح لماذا يحرم على الدجال دخول مكة والمدينة، ولماذا يمنع عنهما إعجازياً. فإن كلا الأمرين لا يصحان.

(١) المصدر والصفحة.

فإن هذه الحرمة لا يخلو حالها من أحد شكلين:

الشكل الأول:

أن تكون حرمة تكوينية قهرية، يخططها الله تعالى من أجل حفظ احترام البلدين المقدسين من ان يعبث الدجال فيهما فساداً.

وهذه الحرمة غير ثابتة لهذين البلدين جزماً، وإلا لما أمكن إحراق الكعبة في عهد يزيد بن معاوية الأموي[١]، ولا استباحة المدينة ثلاثة أيام في وقعة الحرة[٢] ولا هجوم القرامطة على الكعبة وسفكهم الدماء في المسجد الحرام وخلعهم الحجر الأسود ونقله إلى هجر[٣].

وإذا لم تكن مكة والمدينة محصنتين تحصيناً إلهياً قهرياً ضد هذه الحوادث وأمثالها، فلا معنى لمنع الدجال عنهما بهذا الشكل على أي حال.

الشكل الثاني:

أن تكون الحرمة تكليفية، تشبه في فكرتها حرمة القتل والسرقة، مع إمكان الفعل بحسب أصله. وتنشأ هذه الحرمة من أحد سببين محتملين، إن تم أحدهما فهو، وإلا كانت منتفية أيضاً.

السبب الأول:

ان الدجال شخص كافر نجس، كالكلب والخنزير في نظر الإسلام.

فيحرم عليه دخول الحرمين المقدسين.

ولا نريد أن نناقش في كفر الدجال ونجاسته، إلا أن حرمة دخوله، على هذا

---

(١) الكامل، جـ ٣، ص٣٥٤.

(٢) المصدر، ص٣١٠ وما بعدها.

(٣) المصدر، ص٢٠٤ وانظر تاريخ الغيبة الصغرى ص٣٤٥.

التقدير، من تكليف المسلمين، فيجب عليهم دفعه عنها وصده عن دخولها ان استطاعوا. أما هو فلا يشعر بهذه الحرمة، لأنه كافر، وهو خلاف ظاهر الحديث.

السبب الثاني:

أن يكون سبب الحرمة تحصين أهل مكة والمدينة من الغواية والانحراف الذي يعطيه الدجال.

وهذه الحرمة صحيحة، وثابتة لمعطي الانحراف وآخذه. إلا أنها غير مختصة بأهل مكة، بل شاملة لكل الناس. على انها قد شرعت لأجل وضع الناس تحت التمحيص، ومن حيث إطاعة هذا التشريع وعصيانه، بما في ذلك أهل الحرمين والدجال نفسه، فلا معنى لأن يكون التحصين مكتسباً أهمية وقوة فوق درجة التمحيص الإلهي. ولئن كان الحرمان مقدسين في الإسلام، فإن ساكنيهما كسائر الناس، لم يثبت لهما أفضلية عن الآخرين.

ومعه فالصحيح، ان الله تعالى إذا أراد منع الدجال من دخول مكة والمدينة، بشكل لا يزيد المخطط العام للدعوة الإلهية، فانه يوجد أحد أمرين:

الأمر الأول:

أن يصرف الله تعالى ذهن الدجال وهمته أساساً عن غزو هاتين المدينتين أو دخولهما، بشكل لا يستلزم الجبر ولا الإعجاز، فمثلاً يمكن أن تصبح ظروف الدجال بشكل يدرك بوضوح عدم مطابقة دخول المدينة ومكة مع مصالحة.

الأمر الثاني:

ان يمنع الدجال من دخولهما من قبل المسلمين الصالحين، عن طريق الحرب أو غيرها.

هذا كله طبقا للفهم الكلاسيكي للدجال.

الأمر الثالث:

اختلاف الزمان عما هو عليه الآن.

فمن ذلك: ما أخرجه مسلم[١] عن رسول الله ﷺ وقد تحدث عن أيام الدجال. قال الراوي: (قلنا يا رسول الله، وما لبثه في الأرض. قال: أربعون يوما، يوم كسنة ويوم كشهر ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم. قلنا يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كالسنة، أتكفينا فيه صلاة يوم؟ قال: لا. اقدروا له قدره).

وكما روى طول الزمان روى قصره أيضاً.

أخرج البخاري[٢] عن النبي ﷺ أنه قال: (يتقارب الزمان...) الخ.

وأخرج ابن ماجة[٣]: قال رسول الله ﷺ - وهو يتحدث عن الدجال -: (وان أيامه أربعون سنة، كنصف سنة، والسنة كالشهر، والسنة كالجمعة، وآخر أيامه كالشررة، يصبح أحدكم على باب المدينة، فلا يبلغ بابها الآخر حتى يمسي. فقيل له: يا رسول الله. كيف نصلي في تلك الأيام القصار. قال: تقدرون فيها الصلاة، كما تقدرونها في هذه الأيام الطوال، ثم صلوا).

ويكفينا في بطلان الحديثين، تنافيهما وتعارضهما في المدلول، من حيث دلالة أحدهما على طول الزمن والآخر على قصره، في نفس الوقت، وهو عصر الدجال.

فإن قال قائل: ليس الطول والقصر، على وجه الحقيقة، بل يراد به الكناية

---

(١) جـ ٨ ص١٩٧.

(٢) جـ ٩، ص٦١.

(٣) جـ ٢، ص١٣٦٢.

عن الجو النفسي الذي يعيشه المسلمون يومئذ. فإنه من المحسوس وجداناً مع الأُنس والفرح ينقضي الزمان بسرعة، فكأنه قد قصر، ومع الهم والكمد ينقضي ببطء فكأنه قد طال.

قلنا: ان هذا التفسير يبطل الفهم الإعجازي للحديث، ويجعل المسألة نفسية طبيعية... لا انه لا يحل التعارض، لتهافت الخبرين من حيث الدلالة على الجو النفسي يومئذ. والمفروض هو الحديث عن الجو العام لدعم المسلمين، فهل هو جو الفرح لكي يكون الزمن قصيراً كما دل عليه أحد الخبرين، أو هو الحزن والكمد، لكي يكون الزمن طويلاً، كما دل عليه الخبر الآخر. إذن فالتعارض لا زال موجوداً.

فإن قال قائل: لعل حركة الدجال تحدث في بلاد السويد والنرويج التي يختلف فيها نظام الأيام عن نظامنا.

قلنا: هذا لا يمكن حمل الحديث عليه لوجهين:

الوجه الأول:

ان المفروض في الفهم الاعتيادي للدجال، هو خروجه في بلاد الإسلام، وما أخرجه ابن ماجة صريح في أن المسألة لا تعدو الحجاز والعراق والشام. فراجع، في حين ان البلاد الاسكندنافية ليست من بلاد الإسلام.

الوجه الثاني:

ان النظام المعطي في الحديث للأيام فذ في بابه، فالحديث الذي يخبرنا عن طول الزمان يقول: ان يوماً واحداً من أيام الدجال طوله كطول سنة واليوم الذي بعده كطول شهر واليوم الذي بعده طوله كطول أسبوع. وباقي الأيام إلى الآخر كأيامنا اعتيادية.

والحديث الذي يخبرنا عن القصر، يقول: ان السنة نفسها تصغر تدريجاً، فتصبح أولاً كطول ستة أشهر، ثم كطول شهر ثم كطول الأسبوع، وهكذا حتى تبقى الأيام في النهاية كالشرارة الواحدة، وتكون السنة عبارة عن ٣٦٠ شرارة. قد لا تعدو الساعة الواحدة الزمنية.

ومثل هذا النظام في الطول أو القصر، لا يوجد في أي مناطق العالم كما هو معلوم.

فإذا عرفنا ان إيجاد هذا النظام الجديد في أيام الدجال، بالمعجزة، لا مبرر له، بل يكون في مصلحة الدجال نفسه، عرفنا عدم صحة هذه الأخبار. ما لم تدخل في فهم منظم متكامل جديد، سنذكره في الجهة الآتية إن شاء الله تعالى.

الأمر الرابع:

قتل الدجال لمؤمن ثم إحياؤه له.

فمن ذلك ما أخرجه مسلم[١] عن أبي سعيد الخدري، قال: (حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً طويلاً عن الدجال، فكان فيما حدثنا أن قال: يأتي وهو محرَّم عليه أن يدخل نقاب المدينة، فينتهي إلى بعض السباخ التي تلي المدينة. فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس أو من خير الناس. فيقول له: أشهد أنك الدجال الذي حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم. فيقول الدجال: أرأيتم ان قتلت هذا ثم أحييته، أتشكون في الأمر.

فيقولون: لا. قال: فيقلته ثم يحييه. فيقول حين يحييه: والله ما كنت فيك أشد قط بصيرة مني الآن. قال: فيريد الدجال أن يقتله، فلا يسلط عليه).

وفي حديث آخر لمسلم[٢] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه:

---

(١) جـ ٨، ص١٩٩ وانظر البخاري، جـ ٩، ص٧٦ بلفظ مقارب جداً.

(٢) جـ ٨، ص٢٠٠.

(فان رآه المؤمن قال: يا أيها الناس، هذا الدجال الذي ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: فيأمر الدجال به فيشج، قال: فيقول: خذوه وشجوه، فيوسع بطنه وظهره ضرباً. قال: فيقول: أوَمَا تؤمن بي، فيقول أنت المسيح الكذاب.

قال: فيؤمر به فيؤشر بالمئشار من مفرقه حتى يفرّق بين رجليه. قال: ثم يمشي الدجال بين القطعتين. ثم يقول له: قم. فيستوي قائماً. قال: ثم يقول له أتؤمن بي. فيقول: ما ازددت فيك إلا بصيرة.

ثم يقول: يا أيها الناس، انه لا يفعل بعدي بأحد من الناس. قال: فيأخذه الدجال ليذبحه، فُيجعل ما بين رقبته إلى ترقوته نحاساً، فلا يستطيع إليه سبيلاً.

فيأخذ بيديه ورجليه، فيقذف به، فيحسب الناس إنما قذفه في النار، وإنما أُلقي في الجنة. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا أعظم شهادة عند رب العالمين).

وهذا المضمون الذي يدل عليه ظاهر العبارة، من أوضح موارد إقامة المبطلين للمعجزات وقد سبق أن برهنّا على فساده.

وقد يمكن الدفاع عن هذا المضمون، بأن تمكين الله تعالى للدجال من إقامة المعجزات، يراد به فضحه وكشف كفره وغلظته للناس عن طريق صمود هذا المؤمن أمامه.

إلا أن هذا الدفاع غير صحيح، فأنه إنما يصح على تقدير انحصار أسلوب فضحه وكشف دجله بذلك. إلا أنه من المعلوم عدم انحصاره بذلك. إذ يمكن أن تكشف عنه أفعاله، عن طريق التمحيص الذي يمر به، فيوجب فضح نفسه بنفسه ويجري إلى حتفه بظلفه، كالذي نرى من المبادئ المنحرفة اليوم، ومن بعض الجبابرة السابقين، الذين لم يخلفوا بعدهم إلا الكراهة، كالحجاج وطغرل بك وتيمورلنك واضرابهم. ومعه لا حاجة إلى إقامة المعجزات من أجل كشفه.

ويدلنا على ذلك قول المؤمن - في نفس الرواية -: (يا أيها الناس، انه لا يفعل بعدي بأحد من الناس. يبشرهم بأنه لن يقتل أحداً بعده. ومعنى ذلك أن قتله للناس معروف فيهم مشهور بينهم، والتذمر من ظلمه عام في المجتمع. حاله في ذلك حال سعيد بن جبير الذي دعا حين أراد الحجاج قتله قائلاً: اللهم لا تسلطه على أحد بعدي). في قضيته المشهورة. ومعه فلا حاجة إلى قيام المعجزة لكشفه.

هذا بحسب ظاهر العبارة. وأما حمل هذه الأحاديث على الرمز، فهو في غاية الإشكال.

الأمر الخامس: ضخامة الحمار الذي يركبه الدجال:

وذلك: فيما رواه الصدوق في إكمال الدين[1] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه: (أنه يخرج على حمار ما بين أذنيه ميل، يخرج ومعه جنة ونار، وجبل من خبز ونهر من ماء...) الخ. الحديث.

ومن المعلوم أن ما بين أذني الحمار الاعتيادي لا يعدو عرض الأصبعين أو الثلاثة أصابع. فإذا كان هذا المكان منه بمقدار ميل، فيكف بضخامة أجزاء جسده الأخرى.

وهذا - بلا شك - من فوارق الطبيعة المنسوبة إلى أحد المبطلين، وقد برهنا على عدم إمكان الأخذ به أو التصديق به، بحسب القواعد الإسلامية العامة.

نعم، يمكن حمله على الرمز على ما سيأتي في الجهة الآتية: عطفاً على عدد من الأمور التي أخرجها الصدوق من صفات الدجال، مما يمكن حمله على الرمز، ويندرج في الفهم المتكامل العام، على ما سنوضح إن شاء الله تعالى.

---

(١) أنظر النسخة المخطوطة.

وأما أن معه جبلاً من خبز ونهراً من ماء، فهو معارض، بما أخرجه الصحيحان[١] عن المغيرة بن شعبة أنه قال: - واللفظ للبخاري -: (ما سأل أحد النبي صلى الله عليه وسلم عن الدجال ما سألته: وأنه قال لي: ما يضرك منه؟ قلت: لأنهم يقولون أن معه جبل خبز ونهر ماء. قال: هو أهون على الله من ذلك).

وسيأتي تفسير ذلك، بشكل يرتفع به التعارض بين هذين الخبرين، فانتظر.

الأمر السادس:

ما أخرجه الصحيحان[٢] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: (لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى).

ومن الواضح أن ما يدل عليه ظاهر العبارة، حادث معجز لا ربط له بإقامة الحجة، فلا يكون الأخبار عنه قابلاً للتصديق.

إلا أن المظنون أنه يراد به ظهور المهدي عليه السلام نفسه. فإنه يظهر في أرض الحجاز، كما دلت عليه الروايات، كما سيأتي في التاريخ القادم. وأما التعبير عنه بالنار فباعتبار كونه ناراً على المشركين والكافرين والمنحرفين. مع الإشارة إلى سعة ضوئه ونوره بمعنى عدله ولطفه، بالمقدار الذي يفهمه الناس أيام عصر النبي صلى الله عليه وآله من سعة الأرض، وانه بين أرض الحجاز إلى بصرى الشام بون بعيد ومسافة مترامية.

والنص على أعناق الإبل، فيه دلالة على أن الإبل متوجهة بوجهها وعنقها

---

(١) البخاري، جـ ٩ ص٧٤، ومسلم، جـ ٨، ص٢٠٠.

(٢) البخاري، جـ ٩، ص٧٣، ومسلم، جـ ٨، ص١٨٠.

إلى مصدر النار والنور. ومعنى ذلك: ان المتوجّه إلى نور المهدي عليه السلام والمعتقد بهداه هو المستضيء بنوره والمهتدى بعدله وحكمه.

وأما كون الظهور من اشراط الساعة، فواضح، باعتبار كونه سابقاً عليها، ولو بدهر طويل من الزمن.

الأمر السابع: النار التي تخرج من اليمن:

وذلك: فيما أخرجه مسلم[١] عن النبي صلى الله عليه وآله في تعداد أشراط الساعة، أنه قال: (وآخرها نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم). وفي رواية أخرى: (ونار تخرج من قعر عدن ترحّل الناس). ونحوه ما رواه الشيخ في الغيبة[٢] إلا أنه قال: (تسوق الناس إلى المحشر).

والظاهر أن هذا - على تقدير صحته - من أشراط الساعة المتأخرة عن الظهور، والقريبة من يوم القيامة. كما تشير إليه الرواية الأولى، مصرحة أنها آخر الآيات. ومعه يخرج عن محل بحثنا، فلا حاجة إلى تمحيصه.

الأمر الثامن: أنه سوف يحسر الفرات عن كنز من ذهب:

أخرج الصحيحان[٣] بسند يكاد يكون مشتركاً وبلفظ واحد عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: (يوشك الفرات أن يحسر عن كنز من ذهب، فمن حفره فلا يأخذ منه شيئاً).

وأخرها[٤] بسند آخر يقول: عن جبل من ذهب. وأضاف مسلم[٥] عليه:

---

(١) جـ ٨، ص٣٩ وكذلك الحديث الذي بعده.

(٢) انظر ص٢٦٧.

(٣) البخاري، جـ٩، ص٧٣، ومسلم جـ ٨، ص١٧٥.

(٤) نفس المصدرين والصفحتين.

(٥) جـ ٨، ص١٧٤.

(يقتتل الناس عليه، فيقتل من كل مئة تسعة وتسعون. ويقول كل رجل منهم: لعلي أكون أنا الذي أنجو)، ومثلها رواية أخرى أيضاً[١]. وأخرجت الصحاح الأخرى مثل ذلك، غير أننا لا نروي عنها فيما أخرجاه.

ونحن إذا غضضنا النظر عن عدم إمكان إثبات مثل هذا المضمون، بالتشدد السندي، أمكننا أن نفهمه على عدة أطروحات:

الأطروحة الأولى:

ما هو ظاهر العبارة من أن ماء الفرات ينكشف ويزول عن محله، فيظهر تحته أكداس عظيمة من الذهب، فيطمع فيه الناس ويقتتلون على أخذه. والتكليف الإسلامي الواجب يومئذ - كما تصرح به الرواية الأولى -: (أن لا يشارك الفرد في الطمع ولا في الحرب، بل عليه أن ينصرف عن الأخذ من هذا الذهب تماماً).

وهذه الأطروحة لو صحت، فهي لا تدل على حصول المعجزة، في انحسار الفرات، بل لعله ينحسر تحت ظروف طبيعية معينة، كتغيير مجراه، فيرى الناس تحته ذهباً كثيراً لم يكونوا يعلمون بوجوده.

إلا أن حصول ذلك بعيد جداً بالوجدان، لا يكاد يكون محتملاً أصلاً.

الأطروحة الثانية:

أن يفسر هذا الحديث بمقدار الخيرات العظيمة التي ينتجها هذا النهر المبارك... أما بحمله على الخيرات الزراعية التي تحصل على جانبيه على مر التاريخ، وقد تحصل في بعض السنين أضعاف ما تحصل في سنوات أخرى. وأما بحمل الخبر على أنه سيُستخرج من مياهه النفط المسمى بالذهب الأسود.

---

(١) المصدر، ص١٧٥.

ولعل هذا أنسب بما يعطيه الحديث من أن الكنز كامن في جوف الفرات أو تحت مائه، وأنه لا يمكن استخراجه إلا بإزالة الماء بشكل من الأشكال.

ومعه، يحمل اقتتال الناس على التنافس الاستعماري على منطقة الفرات طمعاً بكنوزه من قبل الدول الكبرى المتعددة، هذا التنافس الذي كلف الكثير من الأموال والنفوس. وأما بقاء الواحد بالمائة من المتحاربين، فلا بد أنه يحمل على المبالغة في كثرة القتلى لا على التحديد.

الأطروحة الثالثة:

أن يحمل الفرات على معنى الحق أو الدعوة الإلهية، بقرينة قوله عز من قائل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[1]. مع تفسير الفرات بالحق والاجاج بالباطل. بقرينة ورودها في سياق الحديث عن الدعوة الإلهية، فيما سبقها من الآيات. قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا ﴿٥١﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٥٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ ...﴾ الخ. ويحمل الحجر المحجور على الفاصل الذاتي البرهاني الذي لا يمكن خلطه بين الحق والباطل.

ويكون معنى انحسار الفرات عن الذهب، اتضاح الحق بمقدار كبير وزيادة مخلصيه ومؤيديه، في عصر الفتن والانحراف... فيتصدى لهم جماعة من المنحرفين والكافرين، فيقاتلهم المؤمنون دفاعاً عن أنفسهم فيكثر القتلى حتى يمكن أن يقال: على وجه المبالغة: أنه لم يبق من الناس المتحاربين، إلا واحداً من المائة.

ويحمل النهي عن الأخذ من الذهب على لزوم عدم الاعتداء على الحق والمشاركة في الحرب ضده.

(١) الفرقان: ٥٣.

فإن صحت إحدى هذه الأطروحات الثلاث، فهو وإن لم تصح كلها، ولم يصح الخبر بالتشدد السندي، فقد استرحنا منه، وإن صح سنداً ولم نفهم مدلوله، أوكلنا علمه إلى الله تعالى ورسوله.

الأمر التاسع: وقوع المسخ:

أخرج ابن ماجة[1] عن النبي ﷺ: (بين يدي الساعة مسخ وخسف وقذف). وفي حديث آخر: (ويكون في آخر أمتي خسف ومسخ وقذف). وبهذا المضمون حديثان آخران.

وأخرج المفيد في الإرشاد[2] عن أبي الحسن موسى عليه السلام في حديث قال: (والمسخ في أعداء الحق).

وهذا المضمون لا يمكن أن يصمد للنقد. فإن المسخ وإن كان ممكناً ومتحققاً في التاريخ، كما نص عليه القرآن الكريم... إلا أنه لا يقع في هذه الأمة، للدليل الدال على أن العقوبات التي وقعت على الأمم السابقة لا يقع مثلها على هذه الأمة، ومن هنا سميت بالأمة المرحومة.

نعم، يمكن أن يحمل المسخ على الرمز، من حيث انتقال الأفراد من الهداية إلى الضلال. وهو أمر صحيح ومتحقق في عدد من الأفراد. إلا أن حمل الروايات عليه خلاف الظاهر.

الأمر العاشر: رجوع الأموات إلى الدنيا:

اختص بذلك الشيخ المفيد في الإرشاد[3]، حيث روى مرسلاً قائلاً: (قد

---

(١) أنظر كل ما رويناه هنا عن ابن ماجة في ج ٢، ص١٣٤٩، وما بعدها.

(٢) ص٣٣٨.

(٣) أنظر ٣٣٧.

جاءت الآثار بذكر علامات لزمان قيام القائم المهدي عليه السلام وحوادث تكون أمام قيامه وآيات ودلالات... وعد منها: وأموات ينتشرون من القبور حتى يرجعوا إلى الدنيا، فيتعارفون فيها ويتزاورون).

وظاهره حدوث ذلك خلال عصر الغيبة الكبرى. ولعله من الآيات الخاصة المنبهة للمخلصين على قرب الظهور. ولكن مما يهون الخطب أن هذا الخبر مما لا يصلح للإثبات التاريخي، لكونه مرسلاً، ليس له سند.

فإن قال قائل: فإن هذا خبر من أخبار الرجعة، وهي كثيرة. وليس معنى الرجعة إلا رجوع الإنسان إلى الحياة بعد الموت.

قلنا: أن الرجعة يقال بها عادة بعد الظهور، وليس قبله. وهذا الخبر نص بوقوع قيام الأموات أمام قيام القائم عليه السلام أي قبله، وهو مما لم يقل به أحد.

وأما تحقيق أخبار الرجعة وإعطاء الفهم المتكامل لها، فسوف يأتي في التاريخ القادم إن شاء الله تعالى.

الأمر الحادي عشر: خروج الشمس من مغربها:

عد في الإرشاد، في نفس السياق السابق لعلامات الظهور، عد منها: طلوعها من المغرب[1].

وأخرج البخاري[2] عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: (لا تقوم الساعة... حتى تطلع الشمس من مغربها. فإذا طلعت ورآها الناس آمنوا أجمعون، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت في إيمانها خيراً).

---

(١) ص٣٣٦.

(٢) جـ ٩، ص٧٤.

وأخرج مسلم عدة أحاديث مشابهة لهذا النص[١]. وأخرج أيضاً[٢]: (أول الآيات خروجاً طلوع الشمس من مغربها).

وروى الشيخ في الغيبة[٣] عن رسول الله ﷺ أنه قال: (عشر علامات لا بد منها... وعد منها: طلوع الشمس من مغربها).

والظاهر أن هذه الآية من علامات الساعة المباشرة، بدليل ربطها في الأحاديث بالزمن الذي لا ينفع نفساً إيمانها، لم تكن آمنت من قبل. وهو يوم القيامة، على التفسير المشهور.

ومعه فالشمس تخرج من مغربها عند خراب النظام في المجموعة الشمسية لدى اقتراب يوم القيامة.

وأما كونها من علامات الظهور، بحيث تحدث خلال عصر الغيبة الكبرى، فلم يثبت إلا بخبر الإرشاد الذي قلنا أنه لا يكفي وحده للإثبات التاريخي.

وفي بعض الأخبار تفسير خروج الشمس من مغربها بظهور المهدي عليه السلام بعد غيبته. أخرج الصدوق في الإكمال[٤] بإسناده عن النزال بن سبرة قال: خطبنا علي بن أبي طالب عليه السلام فحمد الله وأثنى عليه وصلى على محمد وآله ثم قال: (سلوني أيها الناس قبل أن تفقدوني، ثلاثاً. فقام إليه صعصعة بن صوحان فقال: يا أمير المؤمنين متى يخرج الدجال. فتحدث عندئذ أمير المؤمنين عليه السلام وقال فيما قال: يقتله الله عز وجل بالشام... على يد من يصلي عيسى المسيح بن مريم خلفه. وبعد أن انتهى من كلامه قال النزال بن سبرة

(١) جـ ١، ص٩٥ وما بعدها.

(٢) جـ ٨، ص٢٠٢.

(٣) ص٢٦٧.

(٤) أنظر النسخة المخطوطة.

فقلت لصعصعة بن صوحان: يا صعصعة ما عنى أمير المؤمنين عليه السلام بهذا القول. فقال صعصعة: يا سبرة ان الذي يصلي خلفه عيسى بن مريم هو الثاني عشر من العترة التاسع من ولد الحسين بن علي عليه السلام وهو الشمس الطالعة من مغربها، يظهر عند الركن والمقام، فيطهر الأرض ويضع ميزان العدل فلا يظلم أحد أحداً. . .) الحديث.

وهذا التفسير أمر محتمل على أي حال، بعد حمل التعبير على الرمز لا على الحقيقة. ولا ينافي ذلك ربطها بالآية الكريمة المشار إليها، فإنها أيضاً مفسرة بالظهور في بعض الأخبار على ما سوف يأتي التاريخ القادم. لكن يهون الخطب ان هذا الخبر الذي أخرجه الصدوق، لا يثبت أمام التشدد السندي.

الأمر الثاني عشر: الصيحة:

وهو مما اختصت به المصادر الإمامية، وأكثرت من روايته وأكدت عليه.

فمن ذلك، ما رواه النعماني في الغيبة[١] عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه كان يتحدث عن بعض العلامات: قلنا: (هل قبل هذا شيء من شيء أو بعده من شيء. فقال: صيحة في شهر رمضان، تفزع اليقظان وتوقظ النائم وتخرج الفتاة من خدرها).

وفي رواية أخرى[٢] عنه عليه السلام أنه قال: - فيما قال -: (الفزعة في شهر رمضان. فقيل: وما الفزعة في شهر رمضان. فقال: أو ما سمعتم قول الله عز وجل في القرآن: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾. هي آية تخرج الفتاة من خدرها وتوقظ النائم وتفزع اليقظان).

---

(١) ص ١٣٧.

(٢) ص١٣٣.

وعن[١] أبي عبد الله الصادق عليه السلام أنه قال: (للقائم خمس علامات... وعد منها: الصيحة من السماء).

وفي رواية أخرى[٢] عن الإمام الباقر عليه السلام - فيما قال -: (فتوقعوا الصيحة في شهر رمضان وخروج القائم ان الله يفعل ما يشاء).

وفي الاحتجاج[٣] في التوقيع الذي أخرجه السفير الرابع السمري قبل موته عن المهدي عليه السلام: - يقول فيه -: (فمن ادعى المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة، فهو كذاب مفتر).

وروى الشيخ الصدوق في الإكمال[٤] عن الإمام الباقر عليه السلام في حديث عن المهدي عليه السلام، قال: (ومن علامات خروجه... وعد منها: وصيحة من السماء في شهر رمضان).

وفي منتخب الأثر[٥] عن ينابيع المودة عن أبي عبد الله عليه السلام: (خمس قبل قيام القائم من العلامات... وقال في آخره: فتلوت هذه الآية - يعني قوله تعالى: ﴿إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ..﴾ الآية -، فقلت: أهي الصيحة. قال: نعم، لو كانت الصيحة خضعت أعناق أعداء الله عز وجل). ورواه أيضاً في تفسير البرهان[٦] ضمن اثني عشر حديثاً من أخبار الصيحة.

وهذه الآية من القرآن، لا تدل على وقوع الصيحة بالتعيين، بل لا تدل

---

(١) المصدر والصفحة وانظر غيبة الشيخ، ص٢٦٧.

(٢) ص ١٣٥.

(٣) انظر ص٢٦٧، وانظر تاريخ الغيبة الصغرى، ص٥٨٤ وما بعدها.

(٤) انظر المصدر المخطوط.

(٥) ص٤٥٤، وانظر الينابيع، ص٤٢٦.

(٦) في تفسير سورة الشعراء، في المجلد الثاني، ص٧٦٢.

على وقع شيء على التحقيق، لتعليق الحدوث على مشيئة الله عز وجل. بل قد يقال: أنها تدل على عدم وقوع ما هو المعلق على المشيئة. لما أشار إليه الشيخ الطوسي[١] قائلاً: أخبره - يعني الله تعالى لنبيهﷺ - بأنه قادر على أن ينزل عليهم آية ودلالة من السماء تظل أعناقهم لها خاضعة، بأن تلجئهم إلى الإيمان. لكن ذلك نقيض الغرض بالتكليف، لأنه تعالى لو فعل ذلك لما استحقوا ثواباً ولا مدحاً. لأن الملجأ لا يستحق الثواب والمدح على فعله، لأنه بحكم المفعول فيه. أقول: وأشار إلى بعض هذا المعنى الطباطبائي في تفسير الميزان[٢].

إلا أن ذلك لا ينفي صحة مثل هذه الروايات، لأن الأئمةعليهم السلام لم يستدلوا بالآية للدلالة على وقوع الصيحة، بل للدلالة على إمكانها بمشيئة الله عز وجل. وأما وصول الإيمان بسببها إلى حد الإلجاء والخضوع القهري، كما قال الشيخ الطوسي، فهو مما لا نسلم به، لوضوح حفظ الاختيار بعدها. إذ يتصور العقل أن ينبري بعض الماديين لتفسيرها على أساس مادي (علمي)!! فإن الشبهات المادية في عصر الفتن والانحراف أوسع من أن تحصر. فمن آمن بما دلت عليه الصيحة بوضوح من إثبات دعوى المؤمنين، كان مختاراً في فعله وتفكيره.

يكفينا من ذلك استدلال الأئمةعليهم السلام في هذه الأخبار بالآية على إمكان الصيحة، ولو صح كلام الشيخ كان هذا الاستدلال باطلاً، لأنه يستحيل على الله تعالى أن يلجئ الفرد إلى الإيمان. في حين أن هذه الأخبار كثيرة، وقابلة للإثبات التاريخي.

---

(١) تفسير التبيان، جـ ٨، ص٥.

(٢) جـ ١، ص٢٧٢.

فإذا بطل الدليل على بطلانه، كان ممكناً بقدرة الله تعالى، فإذا دلت عليه هذه الطائفة الكبيرة من الأخبار، كان أمراً صحيحاً وثابتاً، وتكون الصيحة من الدلائل القريبة المنبهة على الظهور.

هذا، ويبقى السؤال عن مضمون الصيحة. وهل هي مجرد صوت بلا معنى، أو أنها كلام معنى ذو مدلول، وما هو مدلوله. وسيأتي جواب ذلك في التاريخ القادم، حيث نقيم القرائن على أن المراد بها النداء باسم المهدي عليه السلام وليست شيئاً آخر غيره.

الأمر الثالث عشر: الخسف في البيداء:

وهو مما استفاضت به أخبار الفريقين.

أخرج مسلم[١] عن أم سلمة عن رسول الله صلى الله عليه وآله: (يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث، فإذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم. فقلت: يا رسول الله، فكيف بمن كان كارهاً؟ قال: يخسف به معهم، ولكنه يبعث يوم القيامة على نيته).

وأخرج أيضاً عن حفصة أنها سمعت النبي صلى الله عليه وآله يقول: (لَيَؤُمَّنَّ هذا البيت جيش يغزونه، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض يخسف بأوسطهم وينادي أولهم آخرهم، ثم يخسف بهم، فلا يبقى إلا الشريد الذي يخبر عنهم).

وفي حديث ثالث: أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (سيعوذ بهذا البيت - يعني الكعبة - قوم ليست لهم منعة ولا عدد ولا عدة. يبعث إليهم جيش، حتى إذا كانوا ببيداء من الأرض خسف بهم).

---

(١) جـ ٨، ص١٦٧، وكذلك الاخبار الذي بعده.

وفي حديث رابع: (ان أناساً من أمتي يؤمون بالبيت برجل من قريش قد لجأ بالبيت، حتى إذا كانوا بالبيداء خسف بهم. فقلنا يا رسول الله، إن الطريق قد يجمع الناس. قال: نعم، فيهم المستبصر والمجبور وابن السبيل، يهلكون مهلكاً واحداً ويصدرون مصادر شتى، يبعثهم الله على نياتهم).

وأخرج ابن ماجة والترمذي وأحمد والحاكم، وغيرهم، أحاديث في ذلك، غير أننا لا نذكر هنا فيما أخرجه الشيخان أو أحدهما، توخياً للاختصار.

ومن المصادر الإمامية، ما رواه النعماني في الغيبة[1] عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (للقائم خمس علامات، وعد منها: الخسف في البيداء).

وفي خبر آخر[2] عنه عليه السلام قال الراوي: (قلت له: ما من علامة بين يدي هذا الأمر؟ فقال: بلى. قلت: و ما هي؟ قال: هلاك العباسي... إلى ان قال: والخسف في البيداء).

و في خبر آخر[3] عنه عليه السلام أنه قال: (من المحتوم الذي لا بد أن يكون قبل قيام القائم، خروج السفياني و خسف بالبيداء).

وذكر الشيخ المفيد[4] مما ذكر من العلامات قال: وخسف بالبيداء.

وفي منتخب الأثر[5] عن تفسير الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾. عن ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في خسف البيداء. و ذلك: ان ثمانين ألفاً يغزون الكعبة ليخربوها، فإذا

(١) ص١٣٣، وانظر غيبة الشيخ، ص٢٦٧.

(٢) غيبة النعماني، ص١٣٩.

(٣) المصدر، ص١٤١.

(٤) ص ٣٣٤.

(٥) ص٤٥٦.

دخلوا البيداء خسف بهم.

وفيه أيضاً[١] عن مجمع البيان في تفسير الآية نفسها، عن أبي حمزة الثمالي، قال: سمعت علي بن الحسين والحسن بن الحسن بن علي يقولان: هو جيش البيداء يؤخذون من تحت أقدامهم.

و فيه أيضاً[٢] عن أم سلمة، تقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعوذ عائذ بالبيت، فيبعث الله جيشاً حتى إذا كانوا بالبيداء - بيداء المدينة - خسف بهم.

وأخرج في تفسير البرهان عدداً من الأخبار الدالة على ذلك أيضاً، منها: ما عن أبي خالد الكابلي عن أبي جعفرعليه السلام، قال: (يخرج القائم فيسير... حتى ينتهي إلى البيداء، فيخرج جيش السفياني فيأمر الله عز و جل الأرض، أن تأخذ بأقدامهم. وهو قوله عز و جل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾). الحديث.

وهذا الخسف الموعود، وإن كان اعجازياً، إلا أنه لا منافاة فيه مع (قانون المعجزات) بل منسجم معه تمام الانسجام. يتضح ذلك مما تدل عليه هذه الروايات نفسها من ان هذا الخسف إنما يحدث لأجل إنقاذ العائذ الذي يعوذ بالبيت، أو القوم الذين لا عدد لهم ولا عدة. ويكفينا ان نتصور ان هؤلاء القوم هم ممثلو الحق الحقيقيون الذين يتوقف عليهم النصر يوم الظهور سواء كان المهدي نفسه احدهم، كما ربما تدل عليه الرواية الأولى مما ذكرناه و الأخيرة، أو لم يكن. يكفينا ذلك لنفهم ضرورة انقاذهم ولو بالنحو الإعجازي. وقد

---

(١) جـ ٢، ص٨٧٥، في تفسير سورة سبأ.

(٢) المصدر والصفحة.

سبق ان قلنا: ان كل ما يتوقف عليه الظهور، فهو مما لا بد أن يحدث لكونه مرتبطاً بالغرض الإلهي الأعلى لهداية البشر. و هو من أهم وأخص أشكال إقامة الحجة، والمطابقة مع قانون المعجزات.

وسيأتي في الجهة الآتية مقدار ارتباطه بعصر الفتنة والانحراف، والتخطيط العام للعلامات.

فهذا هو المهم من العلامات الإعجازية التي يحتمل فيها الخروج على قانون المعجزات والزيادة عليه. وقد ثبت أن عدداً كبيراً منها لا واقع له، لو فهمنا منه المعنى المطابقي غير الرمزي. وأن حدوث المسخ وإحياء الأموات قبل الظهور وطول عمر الدجال وضخامة حماره وقتله للمؤمن وإحياءه له، مما لا أساس له. وإن انحسار الفرات عن الذهب ليس بإعجاز بل هو أمر طبيعي. وإن خروج الشمس من مغربها ليس من علامات الظهور، وإن الصيحة والخسف مطابقة لقانون المعجزات غير مخالفة له، وقد نطقت بها الأخبار الكثيرة، فلا بد من الالتزام بها.

هذا تمام الكلام في النقطة الثالثة فيما دل على إقامة المعجزات أكثر مما يقتضيه القانون.

وبه ينتهي الكلام في الناحية الثانية في انقسام علامات الظهور من ناحية المعجزات. وهو نهاية الكلام في الجهة الرابعة، في بعض التقسيمات العامة لهذه الروايات.

الجهة الخامسة:

في تعداد مفردات العلامات، ومحاولة فهمها فهماً منظماً شاملاً.

ويقع الكلام فيها ضمن ناحيتين أساسيتين، باعتبار تعداد مفردات العلامات

المتبقية بعد الجرد السابق، من ناحية، ومحاولة إعطاء المفهوم العام المنظم المتكامل عن مجموعة العلامات أو عن أكثرها، بمقدار الإمكان، من ناحية ثانية.

ولا بد أن نبدأ بالتعداد أولاً، لنحاول أن نفهم كل علامة مروية فهماً مستقلاً منفرداً، لنرى في الناحية الثانية الآتية ارتباطها المجموعي مع العلامات الأخرى.

الناحية الأولى:

في تعداد مفردات العلامات، غير ما سبق أن أوردنا فيه الروايات.

ونحن إذ نحاول هذا التعداد، لا ينبغي أن نتوخى الاستيعاب، فإنه يوجب التطويل بلا طائل، وإنما نذكر العلامات الرئيسية، ونحاول تحديد مفهومها وتوقيتها وخصائصها الرئيسية. ونورد هذه العلامات ضمن عدة نقاط:

النقطة الأولى: خروج الرايات السود من خراسان:

وقد سبق أن تكلمنا عن مفهومها وحددناه بثورة أبي مسلم الخراساني. فلا بد أن نورد هنا بعض ما يدل عليها من الروايات، كما وعدنا، وبعضها ما يحتمل فيه المعارضة مع هذا المفهوم على ما سنسمع.

فمن ذلك: ما أخرجه الترمذي[1] عن رسول الله ﷺ أنه قال: (تخرج من خراسان رايات سود، فلا يردها شيء حتى تنصب بإيلياء). قال الترمذي: (هذا حديث غريب حسن).

وروى النعماني في الغيبة[2] عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: انتظروا

(١) جـ ٣، ص٣٦٢.

(٢) ص١٣٣.

الفرج من ثلاث. فقيل يا أمير المؤمنين، وما هن؟ فقال: . . . والرايات السود من خراسان.

وعد في الإرشاد[١] من العلامات التي وردت بها الآثار: (إقبال رايات سود من خراسان).

وروى الشيخ في الغيبة[٢] عن أبي جعفر عليه السلام قال: (تنزل الرايات السود التي تخرج من خراسان إلى الكوفة. فإذا ظهر المهدي عليه السلام بعث إليه بالبيعة).

وهذا الخبر الأخير دال على قرب ظهور هذه الرايات من ظهور المهدي عليه السلام. إلا أنه بمفرده غير قابل للإثبات التاريخي، مع التشدد السندي الذي سرنا عليه، نعم، لو فرض صحة الخبر لدل على عدم كون هذه الرايات هي رايات أبي مسلم الخراساني.

النقطة الثانية: قتل النفس الزكية:

وقد اختصت بذلك المصادر الإمامية أو كادت، ولم يذكر في صحاح العامة ما يدل على ذلك.

فمن ذلك: ما رواه النعماني[٣] عن أبي عبد الله عليه السلام، أنه قال: (للقائم خمس علامات. . . وعد منها: قتل النفس الزكية).

وأخرج النعماني أيضاً[٤] والمفيد في الإرشاد[٥] والشيخ في الغيبة[٦]

---

(١) ص٣٣٦.

(٢) ص٢٧٤.

(٣) انظر غيبة النعماني، ص١٣٣.

(٤) المصدر، ص١٣٤.

(٥) المصدر، ص٣٣٨.

(٦) ص٢٦٦.

عنه عليه السلام، في تعداد أمور محتومة. منها: قتل النفس الزكية.

وروى النعماني أيضاً[١] عنه عليه السلام، قال الراوي: (قلت له: ما من علامة بين يدي هذا الأمر؟ قال: بلى.

قلت: وما هي؟ قال: هلاك العباسي... وقتل النفس الزكية).

وأخرج المفيد في الإرشاد[٢] عن أبي جعفر الباقر عليه السلام والشيخ في الغيبة[٣] والصدوق في إكمال الدين[٤] عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام بلفظ متقارب - واللفظ للمفيد - أنه قال: (ليس بين قيام القائم عليه السلام وقتل النفس الزكية أكثر من خمس عشرة ليلة).

وعد في الإرشاد[٥] مما جاءت به الآثار من العلامات لزمان قيام القائم، قال: (وقتل نفس زكية بظهر الكوفة في سبعين من الصالحين. وذبح رجل هاشمي بين الركن والمقام).

وروى الصدوق أيضاً[٦] عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: (خمس قبل قيام القائم... وعد منها قتل النفس الزكية). وعنه عليه السلام أيضاً: (قبل قيام القائم خمس علامات محتومات، وعد منها: قتل النفس الزكية). وفي رواية أخرى في تعداد أمور محتومة عن الإمام الباقر عليه السلام قال: (وقتل النفس الزكية من المحتوم).

إلى غير ذلك من الأخبار.

---

(١) الغيبة، ص١٣٩.

(٢) ص٣٣٩.

(٣) ص٢٧١.

(٤) انظر المخطوط.

(٥) ص٣٣٦.

(٦) انظر هذا الحديث وما يليه من الأحاديث في النسخة المخطوطة من إكمال الدين.

ولا بد أن نتكلم عن النفس الزكية، ضمن عدة أمور:

الأمر الأول:

يراد بالنفس الزكية: النفس الكاملة الطيبة، من زكا إذا نما وطاب. ويراد بالنمو في منطق الإسلام التكامل بالعلم والإخلاص والتضحية.

ويمكن أن يراد - بالدقة - من الكمال أحد معنيين:

المعنى الأول:

ما هو المطلوب إسلامياً من الفرد المسلم من قوة الإيمان والإرادة واندفاع الإخلاص والتضحية. ومعه يكون المراد بالنفس الزكية مع غض النظر عما يأتي في الأمر الثالث - شخصاً من المخلصين الممحصين في الغيبة الكبرى، وأنه يقتل نتيجة للفتن والانحراف.

المعنى الثاني:

أن يكون المراد من الكمال - في هذا الصدد-: البراءة من القتل. فيكون مساوياً لقوله عز وجل: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا﴾[1]. ولعل التعبير بالنفس الزكية بالقرآن يوحي تماماً بأن المراد من الأخبار نفس ذاك المعنى، وهو البراءة من القتل.

غير أن الذي يقرب المعنى الأول، ويكون قرينة عليه، هو أن المنساق والمتبادر من كل واحدة من هذه الروايات، إن المراد بالنفس الزكية رجل معين يكتسب مقتله أهمية خاصة. ولا شك أن هذا منسجم مع المعنى الأول. لأن مقتل الرجل المخلص الممحص، لا يكون - عادة - إلا على صعيد عالٍ من

---

(١) الكهف: ٧٤.

مستويات العمل الإسلامي، فيكون ملفتاً للنظر اجتماعياً، ومثيراً أسفاً إسلامياً عميقاً. بخلافه على المعنى الثاني، إذ مجرد كون المقتول بريئاً من القتل لا يكسبه أهمية خاصة ولا يكون مقتله ملفتاً للنظر، على حين ينبغي أن تكون العلامة مما يعرف - عادة - بين الناس، وإلا سقطت فائدة دلالتها على الظهور.

على انه على هذا المعنى الثاني، يمكن حمله على معنى كلي واسع. ويكون المراد: أن من آثار عصر الفتن والانحراف أن يقتل عدد من الناس بدون ذنب. وهذا ما حدث فعلاً على أعداد ضخمة من البشر على مر التاريخ.

فإن كان المعنى الأول منسجماً مع ما هو المنساق والمفهوم من هذه الروايات، دون المعنى الثاني، تعين الحمل عليه. ولا تكون الآية قرينة عليه. لإمكان أن يكون المراد من النفس الزكية من الآية المعنى أيضاً، أو أن يختلف معنى الآية عن معنى الرواية.

الأمر الثاني:

هل تقتل النفس الزكية بين الركن والمقام.

لا شك أن المركوزة في الأذهان والمتناقل على الألسن هو ذلك. حتى اعتبره صاحب (منتخب الأثر) من المسلَّمات فقال[1]: وقتل النفس الزكية: قتل محمد بن الحسن الذي يقتل بين الركن والمقام.

إلا أن ذلك لا يكاد يثبت بعد التشدد السندي الذي التزمناه، فقد أورد صاحب البحار حديثين لا يكادان يثبتان بعد هذا التشدد. وأما الارتكاز الذهني فلا يكفي للإثبات التاريخي أيضاً. فإن حدث ذلك في مستقبل الزمان، كان

(١) انظر المصدر، ص٤٥٤.

دليلاً على صدقه، وإن لم يحدث لم يكن علينا أن ننتظره، فإنه مما لا دليل لنا عليه. مضافاً إلى معارضته، بما رواه الشيخ المفيد في الإرشاد من حدوث: قتل نفس زكية بظهر الكوفة في سبعين من الصالحين[١] وقد سمعناه. وهذا الخبر وإن لم يكن له قابلية الإثبات، إلا أنه ليس بأسوء حالاً من خبر مقتله بين الركن والمقام، فيصلح لمعارضته، ومع المعارضة يتساقطان معاً عن إمكان الإثبات التاريخي. وأما ما ذكره في الإرشاد[٢] أيضاً من حدوث: ذبح رجل هاشمي بين الركن والمقام، كما سمعنا. فهو لا يدل على المقصود. إذ قد لا يكون هذا الرجل الهاشمي زكياً ممحصاً.

مضافاً إلى ضعف الخبر وعدم كفايته للإثبات التاريخي.

الأمر الثالث:

إنطباق هذه الروايات على محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب، أبي عبد الله، الملقب بالنفس الزكية ، الثائر في زمن أبي جعفر المنصور الخليفة العباسي.

ولعمري أن هنالك ما يدل على هذا الانطباق، فلو استطعنا أن ننفي القرائن الدالة على نفيه تعين الالتزام بإثباته وأن النفس الزكية المقصودة، هو هذا الثائر العلوي.

ومن هنا يقع الكلام على مستويين:

المستوى الأول:

في القرائن الدالة على نفي هذا الانطباق. وإن النفس الزكية الموعودة هو غير هذا الثائر العلوي.

---

(١) ص٣٣٦.

(٢) نفس الصفحة.

وهي عدة قرائن محتملة:

القرينة الأولى:

إن النفس الزكية لا بد أن تقتل بين الركن والمقام. وهذا الثائر العلوي لم يقتل هناك. وهذا على تقدير ثبوته قرينة كافية، على نفي هذا الانطباق، إلا أنه مما لم يثبت كما أسلفنا.

القرينة الثانية:

تأخر اخبار الأئمة عليهم السلام بهذه العلامة من علامات الظهور عن مقتل هذا الثائر العلوي. مما يدل على أن مقتل النفس الزكية يبقى متوقعاً ومنتظراً بعد مقتل النفس الزكية: الثائر. وهذا على تقدير ثبوته قرينة كافية أيضاً على نفي الانطباق. إلا أنه لم يثبت.

فإن كل ما وجدناه من الروايات الدالة على هذه العلامة، مروية عن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام. أما الإمام الباقر عليه السلام فعصره سابق على عصر العلوي الثائر. وأما الإمام الصادق عليه السلام فهو معاصر للمنصور العباسي وللنفس الزكية الثائر. وكان عليه السلام ينفي لعبد الله بن الحسن - والد النفس الزكية - نجاح ثورته وثورة ولديه، ويقطع أمله في نيل الخلافة، ويقول له: (إن هذا الأمر، والله ليس إليك ولا إلى ابنيك، وإنما هو لهذا - يعني السفاح - ثم هذا - يعني المنصور - ثم لولده من بعده، لا يزال فيهم حتى يؤمروا الصبيان ويشاوروا النساء.

فقال عبد الله: والله يا جعفر، ما أطلعك الله على غيبة، وما قلت هذا إلا حسداً لابني. فقال: لا والله، ما حسدت ابنك. وان هذا - يعني المنصور - يقتله على أحجار الزيت، ثم يقتل أخاه بعده بالطفوف، وقوائم فرسه في الماء)[1].

---

(١) مقاتل الطالبيين، ص١٨٩.

وعلى أي حال، فليس هناك أي دليل على صدور مثل هذه الروايات بعد هذا الثائر العلوي إن لم يكن المظنون خلافه.

القرينة الثالثة:

إن هذا الثائر العلوي لم يكن زكياً ممحصاً، إذن، فلا بد أن نتوقع مقتل مخلص ممحص بعد ذلك، غير هذا الثائر.

والدليل على انحرافه ادعاؤه المهدوية، فيما يروي عنه في مقاتل الطالبيين.

وقد قدم أبوه على أنه هو المهدي، بعد زوال الدولة الأموية وقبل تأسيس الدولة العباسية، قائلاً في خطبة له في بني هاشم[1]: (وقد علمتم أنا لم نزل نسمع أن هؤلاء القوم إذا قتل بعضهم بعضاً خرج الأمر من أيديهم فقد قتلوا صاحبهم - يعني الوليد بن يزيد - فهلم نبايع محمداً، فقد علمتم أنه المهدي.

فقال له الإمام الصادقعليه السلام : أنها والله، ما هي إليك ولا إلى بنيك، ولكنها لهؤلاء، وان ابنيك لمقتولان)[2].

وكان محمد بن عبد الله بن الحسن، منذ كان صبياً، يتوارى ويراسل الناس بالدعوة إلى نفسه، ويسمى بالمهدي[3].

ولسنا نريد أن ندخل في مناقشة ذلك، ويكفينا اليقين بأنه قتل قبل أن يملك العالم، وهو دليل كاف على كذب المدعي، كما قلنا. ولكن المقصود أنه على هذا المسلك لا يكون زكياً بل كذاباً منحرفاً. إذن فلا بد أن نتوقع مقتل شخص آخر يكون زكياً ممحصاً غير هذا الثائر. والالتزام بانحراف هذا الثائر،

---

(١) المصدر، ص١٨٨.

(٢) المصدر، ١٨٩.

(٣) المصدر، ص١٧٧.

لو صح هذا النقل التاريخي، أمر لا مناص منه. ولكنه لا ينفي كونه هو المقصود بالتنبؤ، في علامات الظهور.

وأما تسميته بالنفس الزكية، فقد سماه بذلك من كان يعتقد بكونه زكياً، حتى اشتهر به، وقد استعمل لقبه في الروايات طبقاً لشهرته.

القرينة الرابعة:

تقدم مقتل هذا الثائر العلوي على ولادة المهدي المنتظر عليه السلام. ومعه لا يصح جعله علامة على ظهوره. ومعه لا بد أن ننتظر مقتل شخص آخر يسمى أو يوصف بالنفس الزكية.

إلا أن هذه القرينة لا تصح، لوضوح إمكان جعل العلامة سابقة على ولادة المهدي عليه السلام. بعد أن كان التخطيط الإلهي لليوم الموعود، لا يبدأ ببدء الإسلام فحسب، بل ببدء البشرية من أولها. إذن فكل الإرهاصات تشير إليه. وقد سمعنا جعل هلاك الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وخروج الرايات السود من العلامات... وكل ذلك مما حدث قبل ولادة المهدي عليه السلام.

القرينة الخامسة:

إن التنبؤ بمقتل النفس الزكية جاء في الروايات، مقترناً أو متأخراً عن بعض ما يعلم بعدم حدوثه إلى الآن. إذن فيكون مقتضى الفهم العام من السياق أنه أيضاً لم يتحقق إلى الآن. ومعه يتبين أن لا يكون مشاراً به إلى قتل ذلك الثائر العلوي، بل إلى مقتل رجل آخر، يقتل في مستقبل الدهر.

فمن ذلك: رواية الخمس علامات، كقول الإمام الصادق عليه السلام: (للقائم خمس علامات، السفياني واليماني والصيحة من السماء، وقتل النفس الزكية

والخسف بالبيداء)[١]. ورواية تعداد الأمور المحتومة كقوله عليه السلام: (النداء والسفياني من المحتوم واليماني من المحتوم وقتل النفس الزكية من المحتوم. . .) الحديث[٢].

ومن المعلوم أن خروج السفياني واليماني والصيحة مما لم يحدث، إذن فقتل النفس الزكية، مما لم يحدث أيضاً.

وهذا الكلام غير صحيح، فإن ما يقتضيه السياق هو عدم حدوث كل هذه الأمور عند صدور الرواية. وهذا صحيح. ثم أن بعضها يسرع بالحدوث وبعضها يتأخر. وهذا لا ربط له بظهور الكلام وسياقه. وبخاصة أن العطف في الرواية بين العلامات بالواو، وهي ليست دالة على الترتيب، مثل (أو) أو ثم، كما ينص النحاة.

القرينة السادسة:

مما سبق أن سمعناه من الخبر القائل: (ليس بين قيام القائم وبين قتل النفس الزكية إلا خمس عشرة ليلة). وحيث نعلم بالقطع واليقين تأخر الظهور عن مقتل ذلك الثائر العلوي لا بخمس عشرة ليلة، بل بأكثر من ألف عام. إذن فيتعين أن لا يكون التنبؤ منصباً على ذلك، بل على مقتل رجل آخر.

إلا أن هذه القرينة غير صحيحة، فإن هذا الخبر وان تعدد في المصادر، فقد رواه المفيد في الإرشاد والشيخ في الغيبة والصدوق في إكمال الدين وغيرهم إلا أن ذلك يعود إلى راوٍ واحد. فإنه مروي عن ثعلبة عن شعيب عن صالح. وقد وصف ثعلبة في الإرشاد والإكمال بابن ميمون ووصف شعيب في الغيبة والإرشاد بالحداد، ووصف في الإكمال بالحذاء. ووصف صالح في

(١) غيبة النعماني، ص١٣٣.

(٢) المصدر، ص١٣٤.

الإرشاد بابن ميثم وفي الإكمال بابن مولى بني العذراء.

وعلى أي حال، فإن هذا الخبر على أحسن تقدير خبر واحد، وقد رفضنا التمسك بمثله في تشددنا السندي.

إذن فلم يثبت نفي هذه الفكرة وهي أن النفس الزكية الموعود ليس هو النفس الزكية الثائر العلوي. بل يبقى ذلك محتملاً على أي حال، وسنذكر في المستوى الثاني مثبتاته والقرائن الدالة على صحته.

المستوى الثاني:

فيما يدل من القرائن على ثبوت هذا الانطباق... وأن التنبؤ منصب على ثورة ذلك العلوي، ليس إلا.

فمن ذلك: ما رواه الأصفهاني في المقاتل[١] بسنده عن محمد بن علي - الباقر عليه السلام - عن آبائه، قال: (النفس من ولد الحسن).

وهذا الحديث واضح الدلالة في الإشارة إلى النفس الزكية المعهود التنبؤ بها في الأخبار. وهو لم ينطبق إلا على هذا الثائر العلوي، بل قد قيل فيه خصيصاً، كما هو ظاهره حيث أورده الأصفهاني في ترجمته.

ومن ذلك: ما رواه أيضاً[٢] بسند إلى عبد الله بن موسى: (ان جماعة من علماء أهل المدينة أتوا علي بن الحسن، فذكروا له هذا الأمر - يعني المطالبة بالحكم - فقال: محمد بن عبد الله أولى بهذا مني. فذكر حديثاً طويلاً. قال: ثم أوقفني على أحجار الزيت فقال: ههنا تقتل النفس الزكية. قال : فرأيناه في

(١) ص١٨٤.

(٢) المصدر والصفحة.

ذلك الموضع المشار إليه مقتولاً).

وما رواه أيضاً بسنده عن مسلم بن بشار، قال: (كنت مع محمد بن عبد الله، عند غنائم خشرم. فقال لي: ها هنا تقتل النفس الزكية - أقول: يعني نفسه -. قال: فقتل هناك).

إذن فالنفس الزكية ليست إلا ذلك الثائر العلوي، ولعمري أنها علامة مهمة وملفتة للنظر، حيث اتسعت ثورته، حتى خاف منها المنصور، كما يتضح لمن راجع المقاتل ولا نريد أن ندخل في تفاصيله.

النقطة الثالثة: ظهور الدجال:

وقد اختصت به المصادر العامة تقريباً، وليس في المصادر الإمامية إلا النزر القليل. وأما في مصادر العامة فالأخبار عنه وعن صفاته أكثر من أن تحصى، وقد نسبت إليه كثيراً من الضرائب، لا بد من تمحيصها بغض النظر عن حملها على الرمز - وهو ما سنتكلم عنه فيما بعد - لنرى ما يتم منها، وما لا يتم. ونتكلم عن ذلك ضمن أمور:

الأمر الأول:

مقتضى القواعد العامة التي عرفناها، لزوم الاعتراف بخروج الدجال، إجمالاً.

لأن الأخبار الدالة على وجوده بالغة حد التواتر القطعي بلا شك. لكن صفاته وتفاصيل خصائصه لا تثبت، لأنها واردة - في الأغلب - في أخبار آحاد لا يمكن بالتشدد السندي الأخذ بها. ومعه يكون هناك مجال كبير في حمله وحمل عدد من صفاته على الرمز، على ما سوف يأتي.

الأمر الثاني:

فيما أخرجته المصادر العامة من صفاته.

ونحن نكتفي بما أخرجه الصحيحان توخياً للاختصار، ما لم تدع حاجة خاصة إلى التوسع.

أولاً: أن النبي صلى الله عليه وسلم حذر أمته منه.

أخرج البخاري[١] عن أنس قال: (قال صلى الله عليه وسلم: ما بعث نبي إلا أنذر أمته الأعور والكذاب. إلا أنه أعور وإن ربكم ليس بأعور). وأخرج مسلم[٢] نحوه.

ثانياً: أن النبي صلى الله عليه وسلم استعاذ من فتنته.

أخرج البخاري[٣] عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيذ في صلاته من فتنة الدجال).

ثالثاً: أنه كافر.

أخرج البخاري[٤] في الحديث السابق عن أنس: (وأن بين عينيه مكتوب: كافر) وأخرج مسلم[٥] في حديث: (مكتوب بين عينيه: كافر. يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب).

---

(١) جـ ٩، ص٧٥ - ٧٦.

(٢) جـ ٨، ص١٩٥.

(٣) جـ ٩، ص٧٥.

(٤) المصدر، ص٧٦.

(٥) جـ ٨، ص١٩٥.

رابعاً: أنه يدعي الربوبية. أخرج ابن ماجة[١] عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفة الدجال. وفيه يقول: (أنه يقول: أنا ربكم). وفيما أخرجه الصدوق من خبر الدجال[٢] ما يدل على ذلك.

إذ يقول عن الدجال أنه: (ينادي بأعلى صوته يسمع ما بين الخافقين من الجن والإنس والشياطين. يقول: إليَّ أوليائي، أنا الذي خلق فسوى وقدّر فهدى، أنا ربكم الأعلى).

وقد نوقشت دعواه هذه في الأخبار بعدة وجوه:

الوجه الأول:

قول النبي صلى الله عليه وسلم - فيما روى ابن ماجة-: (ولا ترون ربكم حتى تموتوا). والمراد الاستدلال برؤيته في الحياة على عدم كونه إلهاً، لأن الله تعالى لا يرى.

الوجه الثاني:

قول النبي صلى الله عليه وسلم فيما سمعناه: (أنه مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كاتب وغير كاتب).

الوجه الثالث:

(أنه يطعم الطعام ويمشي في الأسواق. وإن ربكم لا يطعم الطعام ولا يمشي في الأسواق ولا يزول تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً)[٣].

---

(١) جـ ٢، ص١٣٦٠.

(٢) انظر المصدر المخطوط.

(٣) انظر إكمال الدين المخطوط.

الوجه الرابع:

(أنه أعور وأن الله ليس بأعور).

وقد أخرج الشيخان ذلك، وهو مما يؤيد فكرة دعواه للربوبية، بالرغم من أنهما لم يخرجا ما يدل عليها صريحاً... إذ لا تصلح هذه الأخبار إلا لمناقشة هذه الدعوى، وإلا كان التأكيد على كونه أعور، أمراً مستأنفاً.

أخرج البخاري[١] عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: (قام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس فأثنى على الله بما هو أهله، ثم ذكر الدجال، فقال: إني لأنذركموه. وما من نبي إلا وقد أنذر قومه. ولكني سأقول لكم فيه قولاً لم يقله نبي لقومه. انه أعور، وأن الله ليس بأعور).

وأخرج في حديث آخر[٢] عن صفته أنه: رجل جسيم أحمر جعد الرأس أعور العين كأن عينه عنبة طافية).

وأخرج مسلم[٣] في حديث: (إلا أنه أعور وإن ربكم ليس بأعور). وفي حديث آخر: (الدجال أعور العين اليسرى). وفي حديثين آخرين: (أنه ممسوح العين).

وتجد هذا المضمون في سائر الصحاح وفي مسند أحمد ومستدرك الحاكم وغيرها، بشكل مستفيض.

خامساً: طول عمره. وهو مما لم ينص عليه الشيخان في صحيحيهما صراحة. وقد أخرج مسلم ما يدل على ذلك بغير الصراحة. وهو أمران:

---

(١) جـ ٩، ص٧٥.

(٢) المصدر والصفحة

(٣) جـ ٨، ص١٩٥ وكذلك ما بعده من الاخبار.

الأمر الأول:

حديث الجساسة[١] الذي يقول فيه الدجال عن نفسه: (أنا المسيح واني أوشك أن يؤذن لي في الخروج: فاخرج فأسير في الأرض فلا أدع قرية إلا هبطتها... الخ). وحيث نعلم أن الدجال لم يؤذن له بالخروج إلى حد الآن، إذن فهو لا زال باقياً إلى حد الآن، وسيبقى إلى حين يؤذن له بالخروج.

الأمر الثاني:

أخبار ابن صياد التي تدل جملة منها أنه كان معاصراً للنبيﷺ ولم يؤمن به. كالخبر الذي أخرجه مسلم[٢] عن عبد الله قال: (كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررنا بصبيان فيهم ابن صياد، ففر الصبيان وجلس ابن صياد. فكأن رسول اللهصلى الله عليه وسلم كره ذلك. فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: تربت يداك. أتشهد أني رسول الله؟ فقال: لا بل تشهد أني رسول الله. فقال عمر بن الخطاب: ذرني يا رسول الله حتى أقتله. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ان يكن الذي ترى فلن تستطيع قتله). وفي حديث آخر[٣]: (إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أن يكنه فلن تسلط عليه وإن لم يكنه، فلا خير لك في قتله).

ومن الواضح دلالة مثل هذا القول على وجود غرض إلهي في حفظ حياته، والمنع عن قتله، ليكون هو دجال المستقبل!!.

وبعض الأخبار التي أخرجها مسلم[٤] تدل على تكذيب ابن صياد نفسه للشائعة التي تقول أنه الدجال... وقد سبق أن روينا بعضها.

---

(١) المصدر، ص٢٠٥.

(٢) نفس المصدر، ص١٨٩.

(٣) المصدر والصفحة.

(٤) المصدر، ص١٩٠ - ١٩١.

سادساً: قتله للمؤمن وإحياؤه له. وقد خرّج الشيطان ذلك، وقد سبق أن نقلناه وناقشناه.

سابعاً: (إن معه ماء وناراً).

فمن ذلك ما أخرجه البخاري[١] عن النبيﷺ أنه قال في الدجال: (أن معه ماء وناراً، فناره ماء بارد وماؤه نار).

وأخرج مسلم[٢]: (إن الدجال يخرج وان معه ماء وناراً. فأما الذي يراه الناس ماء فنار تحرق، وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب. فمن أدرك ذلك منكم فليقع في الذي يراه ناراً، فإنه ماء عذب طيب).

وأخرج في حديث آخر: (أنه يجيء معه مثل الجنة والنار، فالتي يقول أنها الجنة هي النار).

ثامناً: (اختلاف نظام الزمان في عهده). وقد سبق أن رويناه وناقشناه.

وتاسعاً: (أنه أهون على الله من ذلك).

وظاهره نفي أن يكون معه جبل خبز ونهر ماء. وقد سبق أن رويناه عن كلا الصحيحين.

عاشراً: ما رواه ابن ماجة[٣]: (إن من فتنته أن يأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت. وإن من فتنته أن يمر بالحي فيكذبونه، فلا تبقى لهم سائمة إلا هلكت. وإن من فتنته أن يمر بالحي فيصدقونه، فيأمر السماء أن تمطر فتمطر ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت، حتى تروح مواشيهم من

(١) جـ ٩، ص٧٥.

(٢) جـ ٨، ص١٩٦، وكذلك الحديث الذي بعده.

(٣) جـ ٢، ص١٣٦٠ وما بعدها.

يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه وأمده خواصراً وأدره ضروعاً. وأنه لا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه، إلا مكة والمدينة. . .) الحديث.

حادي عشر: (أنه ما بين خلق آدم إلى قيام الساعة خلق أكبر من الدجال). أخرجه مسلم. وفي حديث آخر أنه قال: (أمر أكبر من الدجال)[١].

ثاني عشر: (أنه يقلته المسيح عيسى بن مريم عند نزوله). وقد أخرج مسلم أكثر من حديث دال على ذلك. فمن ذلك[٢] قولهﷺ عن الدجال: (فبينما هو كذلك، إذ بعث الله المسيح بن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقي دمشق، بين مهرودتين. . . فيطلبه حتى يدركه بباب لُد فيقتله).

وفي حديث آخر قال رسول اللهﷺ: (يخرج الدجال في أمتي أربعين. . . فيبعث الله عيسى بن مريم، كأنه عروة بن مسعود، فيطلبه، فيهلكه).

فهذه هي المهم من صفات الدجال في المصادر العامة الأساسية.

الأمر الثالث: في تمحيص هذه الصفات:

لا شك أنه بغض النظر عن فهم رمزي شامل لهذه الأخبار، لا يصح شيء من هذه الصفات تقريباً.

فإننا إذا أخذنا بالتشديد السندي، فالأمر واضح، لأن هذه الأخبار - في غالبها - آحاد لا يمكن الاعتماد عليها.

---

(١) كلاهما في جـ ٨، ص٢٠٧.

(٢) انظر جـ ٨، ص١٩٨.

وإن غضضنا النظر عن التشدد، نرى أن هذه المضامين إعجازية المحتوى منسوبة إلى الدجال وهو من أشد الناس كفراً وطغياناً. وقد سبق أن بينا عدم إمكان ذلك.

ولعمري، إن كلتا نقطتي الضعف هاتين: ضعف السند وإيجاد المعجزات المنحرفة، مستوعبتان للأعم الأغلب من هذه الصفات، ما عدا صفات طفيفة ككونه أعور العينين!! فإنه مستفيض النقل في الأخبار.

ومعه يدور الأمر بين شيئين لا ثالث لهما، فأما أن نرفض هذه الأخبار تماماً. وأما أن نحملها على معنى رمزي مخالف لظاهرها. ومن الواضح رجحان الحمل على المعنى الرمزي على الرفض التام. وبخاصة وأن مجموع هذه الأخبار متواتر عن النبيﷺ، ولا نحتمل فيه - وهو القائد الرائد للأمة الإسلامية - أن يربي الأمة على مثل هذه العجائب والسفاسف. فيتعين أن يكون المراد الحقيقي معان اجتماعية حقيقية واسعة، عبر عنها النبيﷺ بمثل هذه التعابير طبقاً لقانون: حدث الناس على قدر عقولهم. آخذاً المستوى الفكري والثقافي لعصره بنظر الاعتبار. ومن هنا ينفتح باب الأطروحة الثانية لفهم الدجال. وهي التي سنتعرض لها في الناحية الثانية الآتية.

وعلى كل حال، سواء رفضنا هذه الأخبار، أو حملناها على غير ظاهرها، فإن المفهوم - على كلا التقديرين - إن وجود الدجال أمر محق، ولكنه ليس رجلاً معيناً متصفاً بهذه الصفات التي يدل عليها ظاهر هذه الأخبار. ولم يتحقق ذلك فيما سبق، ولن يتحقق في المستقبل. وإنما هو عبارة عن ظواهر اجتماعية عالمية كافرة، سيأتي التعرض لها إن شاء الله تعالى.

النقطة الرابعة: ظهور السفياني:

وقد اختصت به المصادر الإمامية، وليس له في المصادر الأولى للعامة أي

أثر... ولعل فيه تعويضاً عن فكرة الدجال الذي اختص به العامة أو كادوا، لمبررات معينة ستأتي الإشارة إليها.

والأخبار عنه في المصادر الإمامية، وإن كانت كثيرة، إلا أنها لا تبلغ بأي حال مقدار أخبار الدجال التي حفلت بها المصادر العامة. كما أنها خالية عن نسبة الأمور الإعجازية إلى السفياني، على ما سنعرف. وبذلك يندفع الاعتراض المهم الذي كان وارداً على أخبار الدجال، من حيث عدم إمكان صدور المعجزة من أصحاب الفعالة والمنحرفين.

وتتم إيضاح فكرة السفياني ضمن أمور:

الأمر الأول: في الأخبار الدالة على وجوده وصفاته.

أولاً: في تسميته وإثبات أصل وجوده:

أخرج الشيخ في غيبته[١] عن أبي عبد الله الصادق عليه السلام، أن أبا جعفر الباقر عليه السلام كان يقول: (خروج السفياني من المحتوم). وفي خبر آخر[٢] عن أمير المؤمنين عليه السلام قال: (قال رسول الله صلى الله عليه وآله: عشر قبل الساعة لا بد منها: السفياني...) الحديث.

وأخرج الصدوق في الإكمال نحواً من هذا الأخير[٣]. وفي خبر آخر عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (إن أمر السفياني من المحتوم). وفي خبر آخر عنه عليه السلام: (قبل قيام القائم خمس علامات محتومات: اليماني والسفياني...) الحديث.

---

(١) المصدر والصفحة.

(٢) انظر المصدر المخطوط.

(٣) المصدر، ص٢٦٧.

وأخرج النعماني في غيبته[١] عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (للقائم خمس علامات: السفياني...) الحديث.

وأخرج[٢] أيضاً عنه عليه السلام، قال الراوي: قلت له: ما من علامة بين يدي هذا الأمر. فقال: بلى. قلت: وما هي؟ قال: هلاك العباسي وخروج السفياني...) الحديث.

وفي خبر آخر[٣] عنه عليه السلام في تعداد علائم الظهور، قال: (إذا اختلف ولد العباس... وظهر السفياني...) الحديث.

وفي البيان الذي ختمت به الغيبة الصغرى، وهو ما أخرجه السمري عن الإمام المهدي عليه السلام يقول فيه[٤]: (فمن ادعى المشاهدة قبل خروج السفياني والصيحة، فهو كذاب مفتر).

إلى غير ذلك من الأخبار... وهي بمقدار تكفي للإثبات التاريخي، ومعه لا بد من الالتزام بوجود السفياني في الجملة.

ثانياً: اسمه ونسبه:

في خبر[٥] عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: (يخرج ابن آكلة الأكباد عن الوادي اليابس. إلى أن قال: اسمه عثمان وأبوه عنبسة وهو من ولد أبي سفيان).

---

(١) انظر، ص١٣٣.

(٢) المصدر، ص١٣٩.

(٣) المصدر والصفحة.

(٤) الاحتجاج، ج ٢، ص٧.

(٥) انظر منتخب الاثر، ص٤٥٧ عن اكمال الدين.

وأخرج الشيخ[١] عن علي بن الحسين عليه السلام في حديث. قال: (ثم يخرج السفياني الملعون من الوادي اليابس، وهو من ولد عنبسة بن أبي سفيان).

ثالثاً: زمان خروجه على وجه الإجمال:

أخرج الشيخ[٢] عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (خروج الثلاثة: الخراساني والسفياني واليماني، في سنة واحدة في شهر واحد، في يوم واحد....) الحديث.

وأخرج الصدوق[٣] في إكمال الدين عنه عليه السلام ، قال: (ان أمر السفياني من المحتوم وخروجه في رجب).

رابعاً: مكان خروجه:

أخرج الصدوق[٤] عن أبي منصور البجلي، قال: (سألت أبا عبد الله عليه السلام عن اسم السفياني، فقال: وما تصنع باسمه، إذا ملك كور الشام الخمس: دمشق وحمص وفلسطين والأردن وقنسرين، فتوقعوا الفرج. قلت: يملك تسعة أشهر؟ قال: لا. ولكن يملك ثمانية أشهر لا يزيد يوماً).

وأخرج النعماني[٥] عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام في حديث طويل يقول فيه: (لا بد لبني فلان[٦] من أن يملكوا، فإذا ملكوا ثم اختلفوا تفرق

---

(١) انظر غيبة الشيخ، ص٢٧٠.

(٢) المصدر، ص٢٧١.

(٣) انظر المصدر المخطوط.

(٤) المصدر المخطوط.

(٥) انظر غيبة النعماني، ص١٣٥.

(٦) يعني بني العباس.

ملكهم وتشتت أمرهم، حتى يخرج عليهم الخراساني والسفياني، هذا من المشرق وهذا من المغرب، يستبقان إلى الكوفة كفرسي رهان هذا من هنا، وهذا من هنا، حتى يكون هلاك بني فلان على أيديهما. أما أنهم لا يبقون منهم أحداً).

ثم قال: (خروج السفياني واليماني والخراساني في سنة واحدة. في شهر واحد، نظام كنظام الخرز، يتبع بعضه بعضاً... الخ) الحديث.

وأخرج أيضاً[١] عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنه قال: (لا بد أن يملك بنو العباس. فإذا ملكوا واختلفوا وتشتت أمرهم، خرج عليهم الخراساني والسفياني، هذا من المشرق وهذا من المغرب يستبقان إلى الكوفة كفرسي رهان، هذا من ههنا وهذا من ههنا، حتى يكون هلاكهم على أيديهما. أما أنهما لا يبقون منهم أحداً أبداً).

خامساً: عقيدته:

يظهر من بعض الأخبار أنه مسيحي، أو من صنائع المسيحيين. كالخبر الذي أخرجه الشيخ في الغيبة[٢]. قال: (يقبل السفياني من بلاد الروم منتصراً في عنقه صليب، وهو صاحب القوم).

ويظهر من بعض الأخبار أنه من المسلمين المنحرفين المبغضين لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. كالذي أخرجه الشيخ[٣] عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (كأني بالسفياني - أو لصحاب السفياني - قد طرح رحله في رحبتكم بالكوفة، فنادى مناديه: من جاء برأس شيعة علي فله ألف درهم.

---

(١) المصدر السابق، ص١٣٧.

(٢) ص٢٧٨.

(٣) نفس المصدر، ص٢٧٣.

فيشب الجار على جاره ويقول هذا منهم. فيضرب عنقه ويأخذ ألف درهم. أما أن إمارتكم يومئذ لا تكون إلا لأولاد البغايا...) الحديث.

سادساً: إن الجيش الذي يخسف به في البيداء هو جيش السفياني نفسه:

فمن ذلك ما أخرجه النعماني[١] يسنده إلى الإمام أبي جعفر الباقر عليه السلام، أنه قال في حديث ذكر فيه السفياني: (ويبعث السفياني بعثاً إلى المدينة فينفي المهدي منها إلى مكة فيبلغ أمير جيش السفياني أن المهدي قد خرج إلى مكة، فيبعث جيشاً على أثره، فلا يدركه حتى يدخل مكة خائفاً يترقب على سنة موسى بن عمران. قال: وينزل أمير جيش السفياني البيداء، فينادي مناد من السماء: يا بيداء أبيدي القوم، فيخسف بهم. فلا يفلت منهم إلا ثلاثة...) الحديث.

ومن ذلك: ما رواه في منتخب الأثر[٢] عن ينابيع المودة مروياً عن علي كرم الله وجهه في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ﴾. قال: (قبيل قائمنا المهدي يخرج السفياني فيملك قدر حمل امرأة تسعة أشهر. ويأتي المدينة جيشه حتى إذا انتهى إلى البيداء خسف الله به).

وما رواه أيضاً[٣] عن البرهان في علامات مهدي آخر الزمان مروياً عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام قال: (السفياني من ولد خالد بن يزيد بن أبي سفيان... إلى أن قال: ويخرج رجل من أهل بيتي في الحرم فيبلغ السفياني، فيبعث إليه جنداً من جنده، فيهزمهم. فيسير إليه السفياني بمن معه. حتى إذا جاوزوا ببيداء من الأرض خسف بهم، فلا ينجو منهم إلا المخبر عنهم).

---

(١) انظر الغيبة، ص١٤٩ وما بعدها.

(٢) ص٤٥٤.

(٣) نفس المصدر، ص٤٥٨.

إلى غير ذلك من الأخبار.

فإن صحت هذه الأخبار، كانت كل الأخبار التي تتحدث عن الجيش الذي يخسف به في البيداء، والتي هي مستفيضة بين الفريقين، كانت دالة على بعض أعمال السفياني. وبخاصة وقد سمعنا من الأخبار التي أخرجتها صحاح العامة من ذلك: إن الخسف يكون بسبب تهديد الجيش لعائذٍ يعوذ بالبيت الحرام أو قوم لا عدة لهم يعوذون به. وها نحن نسمع هذه الاخبار تفسر هذا العائذ وهؤلاء القوم بالمهدي عليه السلام وأصحابه. وهو مطلب واضح لا غبار عليه، إذ من يمكن أن يستحق هذا الدفاع الإلهي عنه غيره عليه السلام.

إلا أن صعوبة واحدة تبقى، وهي أن هذه الأخبار الأخيرة، هل هي قابلة للإثبات التاريخي مع التشدد السندي أو لا. ومهما كان الجواب، فالأمر موافق مع الاعتبار كما رأينا.

فهذه هي أهم الأوصاف التي ذكرت للسفياني في المصادر الإمامية. ولا شك أن أكثرها لا يمكن إثباته تاريخياً بعد التشدد السندي.

نعم، بعد حمل جملة منها على الرمزية، من أجل أن تربط بالمضمون العام لعصر التمحيص والامتحان... يكون مضمون أكثرها صحيحاً على ما سنرى.

الأمر الثاني:

في تمحيص دلالة هذه الأخبار بوجه عام، مع غض النظر عن التشدد السندي والحمل الرمزي.

فإن في هذه الأخبار عدة نقاط ضعف، مما يضعف احتمال صدورها عن المعصومين عليهم السلام، ومن ثم إمكان الأخذ بها بصفتها صالحة للإثبات التاريخي.

النقطة الأولى:

التهافت من ناحية مدة ملك السفياني. إذ نسمع من أحد الأخبار أنه بمقدار حمل امرأة تسعة أشهر ومن خبر آخر نفي ذلك صراحة، وأنه لا يملك أكثر من ثمانية أشهر.

النقطة الثانية:

إن من هذه الأخبار ما يدل على أن حركة السفياني مشاركة في زوال ملك بني العباس، مع حركة الخراساني. وهذا يعني أنها قد حدثت وانتهت. لأن ملك العباسيين قد زال منذ أمد بعيد.

ولكن ينافي ذلك دلالة الأخرى على ارتباط حركة السفياني بالخسف، فإن الخسف مما لم يحدث بعد قطعاً إلى حد الآن. ومعه يكون السفياني متأخراً عن دولة العباسيين بدهر طويل، بحيث لا يمكن الارتباط بهم بأي شكل من الأشكال.

النقطة الثالثة:

أنه دلت بعض هذه الأخبار على أن زوال ملك بني العباس نتيجة لحركتين مضادتين متعاصرتين هما حركة الخراساني وحركة السفياني. ولم يعرف شيء من ذلك في التاريخ. وإنما الغزو المغولي هو الذي استأصلهم وأزال دولتهم، وبقي بعدهم منفرداً بالحكم مدة من الزمن، ولا يعرف له قرين آخر في المنطقة.

النقطة الرابعة:

التهافت في تعيين عقيدته كما سمعنا. وأنه هل هو من المسيحيين أو من المسلمين المنحرفين.

وقد يخطر في الذهن: أن الخبر الثاني الذي رويناه في عقيدته، لم يدل على أنه من المسلمين وإنما دل على مطاردته لشيعة علي عليه السلام فلعله مسيحي يعمل ذلك إذن فلا تنافي بين الخبرين.

إلا أن هذا لا يصح، لأكثر من جواب: أولاً: أن المسيحي مهما كان شديداً ضد المسلمين، من البعيد جداً أن يخصص عدواته بشيعة علي دون غيرهم. وإنما هذا من عمل المسلمين المنحرفين عادة. وثانياً: أن الخبر الأول الدال على كونه مسيحياً، غير قابل للإثبات التاريخي، على كل تقدير، لأنه ليس مروياً عن معصوم، فإن الشيخ أخرجه بسنده عن بشر بن غالب قال: (يقبل السفياني...) الخ. وليس فيه دلالة على أنه مروي عن أحد المعصومين عليهم السلام.

الأمر الثالث:

وقد يخطر في الذهن اتحاد شخصيتي الدجال والسفياني في رجل واحد. وخاصة بعد التشدد السندي الذي اتخذناه، واسقاط تفاصيل أوصافهما عن الاعتبار. ولا يبقى من المتيقن إلا أن كلا الاسمين عنوان لرجل منحرف خارج على تعاليم الإسلام ومفسد في مجتمع المسلمين، ففي الإمكان انطباقهما على رجل واحدة وحركة واحدة.

ومما يؤيد ذلك ما عرفناه، من أن التعبير بالدجال هو المتخذ في المصادر العامة عادة، والتعبير بالسفياني هو المتخذ في مصادر الإمامية، ففي الإمكان افتراض أن يكون التعبيران معاً عن رجل واحد، نظر إليه أصحاب كل مذهب من زاويتهم المذهبية الخاصة.

إلا أن هذا لا يكاد يصح، لا على المستوى الرمزي ولا على المستوى الظاهر.

أما على المستوى الرمزي، فالأمر واضح، لأن الدجال يمثل حركة الانحراف عن الإسلام أساساً أو الكفر الصريح، بسبب الشهوات وإتباع المصالح الخاصة. والسفياني يمثل حركة القلاقل والشبهات في داخل نطاق المجتمع المسلم. على ما سنوضح فيما يأتي. ومن المعلوم أن هاتين الحركتين مستقلتان لا اتحاد بينهما على المستوى العام، وإن اتفقنا في بعض النتائج ضد الإسلام.

وأما على مستوى الأخذ بالظاهر، فواضح أيضاً على مستويين:

المستوى الأول:

فيما إذا أخذنا بالتشدد السندي ورفضنا الأخذ بالصفات المنسوبة إلى هذين الشخصين، فإنه يكفينا ظهور الاسمين في تعدد المسمّين، وإن جهلنا بصفاتهما. إذ لو كانا شخصاً واحداً لعبر عنه في الأخبار بتعبير واحد.

المستوى الثاني:

فيما إذا لم نأخذ بالتشدد السندي، وأخذنا بالصفات المنسوبة إليهما، فيكون الفرق بينها أوضح وأصرح، والتعدد أبين.

وأهم الفروق بينهما في حدود ما أعطته الأخبار التي سمعناها، ما يلي:

أولاً: إن الدجال يفترض فيه طوله العمر، دون السفياني.

ثانياً: إن الدجال يدعى بابن صائد، والسفياني يدعى بعثمان بن عنبسة.

ثالثاً: إن السفيان من أولاد أبي سفيان، دون الدجال.

رابعاً: إن الدجال يدعي الربوبية، دون السفياني.

خامساً: إن الدجال كافر. وأما السفياني فلا نص في الأخبار يدل على ذلك، إن لم يكن الظاهر كونه مسلماً.

سادساً: إن الدجال يملك كل قرية ويهبط كل وادي، ما عدا مكة والمدينة. وظاهر ذلك أن حركته أوسع من حركة السفياني على سعتها.

سابعاً: إن الدجال أعور العينين. وأما السفياني فهو ذو عينين سليمتين.

وهذه الفروق، يمكن أن تكون في غالبها فرقاً بين الحركتين على المستوى الرمزي الذي أشرنا إليه.

النقطة الخامسة: ظهور اليماني:

وقد اختصت به أيضاً المصادر الإمامية ، ووصفت حركته بأنها حق... باعتبار كونه داعياً إلى المهدي عليه السلام .

روى النعماني[1] عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: (للقائم خمس علامات: السفياني واليماني...) الخ الحديث.

وفي رواية أخرى عنه عليه السلام[2] في تعداد أمور محتومة، قال: واليماني من المحتوم.

وروى أيضاً[3] عن الإمام الرضا عليه السلام أنه قال: (قبل هذا الأمر: السفياني واليماني...) الحديث.

---

(١) الغيبة، ص١٣٣ .

(٢) المصدر، ص١٣٤.

(٣) المصدر والصفحة.

وفي رواية أخرى[١] عن أبي جعفر محمد بن علي عليه السلام في رواية طويلة ذكر فيها راية السفياني والخراساني، ثم قال: (وليس في الرايات راية أهدى من راية اليماني. هي راية هدى، لأنه يدعو إلى صاحبكم، فإذا خرج اليماني حرم بيع السلاح على الناس وكلهم مسلم. وإذا خرج اليماني فانهض إليه، فإن رايته راية هدى، ولا يحل لمسلم أن يلتوي عليه، فمن فعل ذلك، فهو من أهل النار، لأنه يدعو إلى الحق، وإلى طريق مستقيم).

وأخرج الشيخ[٢] عن أبي عبد الله عليه السلام، حديث الخمس علامات، وعد منها: خروج اليماني.

وفي رواية أخرى[٣] عن أبي عبد الله عليه السلام قال: (خروج الثلاثة: الخراساني والسفياني واليماني في سنة واحدة في شهر واحد في يوم واحد، وليس فيها راية بأهدى من راية اليماني، يهدي إلى الحق).

وفي رواية أخرى[٤] عن محمد بن مسلم قال: (يخرج قبل السفياني: مصري ويماني).

إلى غير ذلك من الروايات في مختلف المصادر الإمامية. وهي مستفيضة تقريباً، وصالحة للإثبات التاريخي بالرغم من التشدد السندي الذي اتخذناه، إذ ليس في مقابلها قرينة نافية. إلا أن ما يثبت بها هو حركة اليماني في الجملة، وأما سائر الصفات، بما فيها كونه على حق، فهو مما لا يكاد يثبت بالتشدد السندي.

---

(١) المصدر، ص١٣٥.

(٢) غيبة الشيخ، ص٢٦٧.

(٣) المصدر، ص٢٧١.

(٤) جـ ٨، ص١٩٨.

فإذا تم ذلك، أمكن حمله على بعض الحركات التي حدثت في اليمن. فيكون من العلامات التي حدثت في التاريخ. وهذا هو المطابق لمنهجنا في البحث. لكن لو افترضنا الاعتراف بكونه على حق، واحتملنا أن يكون قائد الحركة يمانياً وإن لم تكن الحركة في اليمن، أو كان منطلق الحركة اليمن ولم تقتصر عليها، فتكون من الأمور الموعودة التي لا دليل على سبق حدوثها.

وأما على المستوى الرمزي، فهي تمثل حركة أهل الحق في مقابل الانحراف والضلال الموجود في عصر الغيبة، على ما سنذكره.

النقطة السادسة: خروج ياجوج وماجوج:

أخرج مسلم وابن ماجة[1] عن النواس بن سمعان عن رسول الله ﷺ حديثاً مطولاً يذكر في أوله الدجال وبعض صفاته وأفعاله. ثم يذكر نزول عيسى بن مريم عليه السلام عند المنارة البيضاء شرقي دمشق.

ثم يقول: - واللفظ برواية مسلم -: (فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى أني قد أخرجت عباداً لي لا يدان لأحد بقتالهم، فحرز عبادي إلى الطور. ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حدب ينسلون. فيمر أوائلهم على بحيرة طبريا، فيشربون ما فيها، ثم يمر آخرهم، فيقولون: لقد كان في هذا ماء مرة.

ويحضر نبي الله عيسى وأصحابه حتى يكون رأس الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم. فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النغف في رقابهم فيصبحون فرسى كموت نفس واحدة.

ثم يهبط نبي الله عيسى وأصحابه إلى الأرض، فلا يجدون في الأرض

(١) جـ ٢، ص١٣٥٦.

موضع شبر، إلا ملأه زهمهم ونتنهم. فيرغب نبي الله عيسى وأصحابه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البخت، فتحملهم فتطرحهم حيث شاء الله.

ثم يرسل الله مطراً لا يُكِنُّ منه بيت مدر ولا بر، فيغسل الأرض حتى يتركها كالزلقة. ثم يقال للأرض: انبتي ثمرتك وردي بركتك. فيومئذ تأكل العصابة من الرمانة ويستظلون بقحفها. ويبارك الله في الرسل حتى أن اللقحة من الإبل لتكفي ألفاً من الناس. واللقحة من البقر لتكفي القبيلة، واللقحة من الغنم لتكفي الفخذ).

وأخرج مسلم بسند آخر[١] عن يزيد بن جابر نحو ما ذكرناه، وزاد بعد قوله: (لقد كان بهذه مرة ماء. ثم يسيرون حتى ينتهوا إلى جبل الخمر وهو جبل بيت المقدس، فيقولون: لقد قتلنا أهل الأرض، هلم فلنقتل من في السماء. فيرمون بنشابهم إلى السماء، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماء).

فهذه هي أفعال يأجوج ومأجوج بعد فتح ردمهم. وهي هي نهايتهم، لو صح هذا الخبر. وحيث نعلم أن نزول عيسى عليه السلام، يكون قريباً أو مقارناً لظهور المهدي عليه السلام، فيكون خروج يأجوج ومأجوج وهلاكهم بدعوات المسيح عليه السلام، سابقاً على الظهور، أي في عهد الغيبة الكبرى.

وإذا غضضنا النظر عن التشدد السندي، كان المضمون العام لهذا الحديث أمراً محتملاً، وقابلاً لتفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُتِحَتۡ يَأۡجُوجُ وَمَأۡجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٖ يَنسِلُونَ ۝٩٦ وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[٢]... إذا

---

(١) جـ ٨، ص١٩٩.

(٢) الأنبياء: ٩٧.

أمكن تفسير الوعد الحق بظهور المهدي عليه السلام باعتبار ما قلناه من أن الغرض الأساسي لله تعالى من إيجاد خلقه، متمثل بتحققه.

وواضح من الآية: إن فتح يأجوج ومأجوج سابق على الوعد الحق. . . فيكون سابقاً على الظهور. تماماً كما فهمناه من الحديث. فيكون الحديث والآية متصادقان على معنى واحد مشترك، مع غض النظر عن تفاصيل الحوادث التي أوردها الحديث.

ونحن لا نريد أن ندخل في تفاصيل المراد من يأجوج ومأجوج وإثبات حقيقتهم وكيفية بناء السد ضدهم وفتحه. فإن لذلك مجال آخر. ويكفينا بهذا الصدد ظاهر القرآن الكريم. وهو خال من العجائب التي نسبت في عدد من المصادر إليهم.

فإن ما يدل عليه ظاهر الكتاب الكريم، هو أنهم قوم بدائيون متوحشون كانوا يعيثون في الأرض الفساد، فكان السد الذي بناه ذو القرنين سبباً لنجاة الناس منهم. وبقي هؤلاء وراء السد، حتى إذا بلغوا من الكثرة في المستوى العقلي والحضاري، ما يستطيعون به السيطرة على هذا السد، فإنهم يخرجون إلى العالم مرة أخرى ويتجدد فسادهم، ويذوق البشر منهم الأمرين. كيف وهم أصبحوا حاقدين على البشر الآخرين من بناء السد ضدهم.

وسوف يصادف خروجهم من وراء السد، الزمان السابق على يوم الظهور بقليل، بمقتضى ما فهمناه من الآية الكريمة، والحديث. وسوف نعرض أطروحة متكاملة عن فهم هؤلاء الناس في التاريخ القادم إن شاء الله تعالى.

والإشكال المهم الذي يحول دون هذا الفهم هو احتمال أن يراد بالوعد الحق يوم القيامة. ولعمري أنه أمر محتمل وإن كان سياق الآية مناسب تماماً مع افتراض كون المراد به يوم الظهور.

فإن الاحتمالات الأولية في الوعد الحق في الآية ثلاثة:

الأول: أن يكون المراد به الوعد الإلهي بفتح يأجوج ومأجوج، من ردمها.

كما قد يفهم من قوله تعالى: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾.

الثاني: أن يكون المراد به يوم القيامة.

الثالث: أن يراد به الوعد بظهور المهدي عليه السلام في اليوم الموعود.

أما الاحتمال الأول، فهو بعيد عن ظهور الآية التي نتكلم عنها، فإن ظاهرها تأخر الوعد الحق عن فتح يأجوج ومأجوج، وإن فتحهم يكون عند اقتراب الوعد الحق، لا عند نجازه. ومن المعلوم أنه لو كان المراد بالوعد الحق: الوعد بفتحهم، لكان فتحهم تحقيقاً لذلك الوعد، لا أنه يكون مقترباً.

إذن فالوعد بفتح يأجوج ومأجوج لو كان مراداً من قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾... فهو غير مراد من قوله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ﴾. بل المراد به وعد آخر متأخر زماناً عن الفتح.

ومعه يبقى هذا الوعد الحق، مردداً بين الاحتمالين الآخرين.

وقد يمكن أن يستدل للاحتمال الثاني، وهو أن يكون المراد من الوعد الحق: الوعد بيوم القيامة... يستدل عليه من سياق الآيات التي وردت هذه الآية في ضمنها. وحيث يكون السياق متعرضاً إلى حوادث القيامة، فيعرف أن الوعد الحق يراد به الوعد بالقيامة أيضاً.

قال الله تعالى: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ

كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾. وكل ذلك يحدث في يوم القيامة، فيكون دالاً على أن المراد من الوعد الحق هو ذلك.

إلا أنه يمكن لهذا المستدل أن يتنازل عن هذا الفهم، إذا علم إمكان حمل الوعد الحق على ظهور المهدي عليه السلام بالرغم من هذا السياق. فإن تطبيق الأطروحة العادلة الكاملة بعد الظهور، يصوغ المجتمع البشري بشكل جديد وقويم لا قبل للكافرين والمنحرفين به، ومعه يكون من الطبيعي أن تكون ﴿شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾. ومن الطبيعي أيضاً أن يقولوا في ذلك المجتمع الكريم: ﴿يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا﴾ في عصر الغيبة الكبرى: عصر الفتن والانحراف: ﴿فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾ فاشلين في التمحيص الإلهي.

والتوبة لا تكون مقبولة من المنحرفين الراسبين في التمحيص، بل سيبادر الإمام المهدي عليه السلام لقتلهم واستئصالهم جملة وتفصيلاً على ما سيأتي في التاريخ القادم. ومن هنا يذهبون بسرعة إلى جهنم. طبقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمۡ وَمَا تَعۡبُدُونَ﴾ من أشخاص ومصالح، كانت مقدسة من عهد الفتن والانحراف، ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمۡ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾.

ليس هذا فقط. بل يمكن أن يكون قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ وَعۡدُ رَبِّي جَعَلَهُۥ دَكَّآءَۖ وَكَانَ وَعۡدُ رَبِّي حَقّٗا﴾... لا يراد به الوعد بفتح يأجوج ومأجوج، بل الوعد بالظهور أيضاً. طبقاً لما فهمناه من الآية والحديث من أن فتح يأجوج ومأجوج يكون قبيل الظهور. ويكون المراد من مجيئه في الآية الكريمة، المشارفة على المجيء، ولو بقرينة الآية الأخرى.

هذا الذي قلناه كله، بحسب الإمكان والاحتمال. وأما صعود هذه الفكرة إلى مرتبة الإثبات التاريخي، فهو متوقف على استظهارها جلياً من الآية، ولا

يكفي كونها مناسبة معها. فإن تساوي الاحتمالين في معنى الوعد الحق، لا يعني إمكان الاستدلال على المطلوب. ومعه يكون تأييد الآية للحديث الشريف غير متحقق. فيبقى الحديث بدون قرينة. ومعه لا يمكن أن يصمد أمام التشدد السندي ويسقط عن إمكان الإثبات التاريخي. ومعه نبقى جاهلين بتقدم خروج يأجوج ومأجوج على عهد الظهور.

يبقى التساؤل عن مدى صحة التفاصيل الموجودة في الحديث، ومدى إمكان الأخذ بها. والصحيح أنها لا تكاد تصلح للإثبات التاريخي. وهذا واضح إن أسقطنا الحديث تماماً. وأما إذا غضضنا النظر عن ذلك واعتبرنا الآية قرينة عليه، وأخذنا به. فإننا إنما نأخذ بالحديث بمقدار مطابقته للآية، وهو دلالته على فكرة تقدم خروج يأجوج ومأجوج على الظهور. وأما التفاصيل، فتبقى غير ثابتة طبقاً للتشدد السندي، ومعه لا يكون من المهم أن ننظر في تمحيص هذه التفاصيل.

* * *

فهذه جملة مهمة من علائم الظهور، كما وردت في نصوص الأخبار.

تبقى بعض العلامات الأخرى، التي يفهم من النصوص قربها الشديد للظهور، كالنداء باسم المهدي عليه السلام ونزول عيسى بن مريم عليه السلام وغيره... فهذا ما ينبغي تأجيله إلى التاريخ القادم، تاريخ ما بعد الظهور.

الناحية الثانية:

في محاولة إعطاء المفهوم العام المنظم عن مجموع العلامات جهد الإمكان، بنحو يرتبط بالقواعد العامة التي عرفناها من قانون المعجزات وقانون التمحيص وشرائط الظهور، ونحوها.

ويمكن التعرض إلى العلاقات على مستويات ثلاثة:

المستوى الأول:

ما يكون مندرجاً في ظواهر الانحراف العام، الناتج عن تمحيص عصر الغيبة الكبرى. سواء ما وقع منه كدولة العباسيين والحروب الصليبية، وما لم يقع كظهور الدجال والسفياني.

المستوى الثاني:

ما يكون مندرجاً في ظواهر الانحراف العام، الناتج عن تمحيص عصر تقويمه قبل عصر الظهور. سواء ما وقع منها كثورات الحسنيين في عصر الخلافة، أو مما لم يقع كحركة اليماني والنفس الزكية، لو ثبت وجودها.

المستوى الثالث:

ما يكون على مستوى التنبيه الإلهي الإعجازي على خطورة الانحراف وقرب الظهور، كالصيحة والخسوف في آخر الشهر والكسوف في وسطه.

فلا بد من التكلم على كل هذه المستويات.

المستوى الأول:

ما يكون على مستوى الانحراف العام السائد في عصر الغيبة أسباباً له أو مسببات:

ويندرج في ذلك أكثر العلامات الواردة في الأخبار، سواء ما حدث منها أو ما لم يحدث. فإنها جميعاً تعبر عن أشكال السلوك المنحرفة في المجتمع

المنحرف. سواء حملنا هذه العلامات على وجهها الصريح أو على وجهها الرمزي.

أما إذا حملناها على صراحتها، فالأمر واضح، ولا يحتاج إلى مزيد كلام. سواء في ذلك انحراف القيادة الإسلامية، بعد النبي ﷺ أو حدوث دولة بني العباس أو خروج الرايات السود بقيادة أبي مسلم الخراساني. أو اختلاف أهل المشرق والمغرب أو ثورة صاحب الزنج أو الحروب الصليبية أو مقاتلة الترك أو نزول الترك بالجزيرة أو نزول الروم الرملة أو قتل النفس الزكية أو ظهور الدجال والسفياني، طبقاً للفهم الكلاسيكي لهما... إلى آخر ما عددناه من أمثال هذه العلامات.

وأما إذا حملناها على أنها مسوقة مساق الرمز، فهو المهم الذي نستطيع به أن نقدم فهماً متكاملاً لمجموع العلامات. وإن كان سيكلفنا هذا الفهم الاستغناء عن بعض التفاصيل الواردة في الأحاديث. وقد سبق أن قلنا أن شيئاً من التفاصيل لم يثبت بعد التشدد السندي، ولكنه بعد الحمل الرمزي ستكون أكثر التفاصيل قد تحققت في الخارج في التاريخ البشري. وكل ما تحقق في التاريخ فالإخبار عنه صادق كما سبق أن ذكرنا. وكل شيء من التفاصيل لا يدخل في هذا الفهم الرمزي العام، يبقى لا دليل على ثبوته وصدقه، ومن ثم يقتضي التشدد السندي نفيه.

وإن أهم وأعم ما يواجهنا في هذا الصدد، مفهوم الدجال، الذي يمثل الحركة أو الحركات المعادية للإسلام في عصر الغيبة عصر الفتن والانحراف... بادئاً بالأسباب الرئيسية وهي الحضارة الأوروبية بما فيها من بهارج وهيبة وهيمنة على الرأي العام العالمي، ومخططات واسعة... ومنتهياً إلى النتائج وهو خروج عدد من المسلمين عن الإسلام واعتناقهم المذاهب

المنحرفة، وما يعم الأفراد والمجتمعات من ظلم وفساد.

فليس هناك ما بين خلق آدم إلى يوم القيامة خلق منحرف أكبر من الدجال. باعتبار هيبة الحضارة الأوربية وعظمتها المادية ومخترعاتها وأسلحتها الفتاكة، وتطرفها الكبير نحو سيطرة الإنسان والإلحاد بالقدرة الإلهية... بشكل لم يعهد له مثيل في التاريخ، ولن يكون له مثيل في المستقبل أيضاً. لأن المستقبل سيكون في مصلحة نصرة الحق والعدل.

ويؤيد هذا الفهم قوله في الخبر الآخر: (ليس ما بين خلق آدم إلى يوم القيامة أمر أكبر من الدجال). والتعبير بالأمر واضح في أن الدجال ليس رجلاً بعينه وإنما هو اتجاه حضاري معاد للإسلام.

(وإن من فتنته أن يأمر السماء أن تمطر فتمطر، وأن يأمر الأرض أن تنبت فتنبت). وكل هذا وغيره مما هو أهم منه من أنحاء السيطرة على المرافق الطبيعية مما أنتجته الحضارة الأوربية.

ولا يخفى ما في ذلك من الفتنة، فإن أعداداً مهمة من أبناء الإسلام حين يجدون جمال المدينة الأوربية، فأنهم سوف يتخيلون صدق عقائدها وأفكارها وتكوينها الحضاري بشكل عام. وهذا من أعظم الفتن والأوهام التي يعيشها الأفراد في العصور الحاضرة. وهي غير قائمة على أساس صحيح. إذ لا ملازمة بين التقدم التكتيكي المدني والتقدم العقائدي والفكري والأخلاقي... يعني لا ملازمة بين الجانب الحضاري والجانب المدني في المجتمع فقد يكون المجتمع متقدماً إلى درجة كبيرة في الجانب المدني ومتأخراً إلى درجة كبيرة في الجانب الحضاري... كما عليه المجتمع الأوربي. كما قد يكون العكس موجوداً أحياناً في مجتمع آخر.

(وإن من فتنته أن يمر بالحي فيكذبونه، فلا تبقى لهم سائمة إلا هلكت، وإن من فتنته أن يمر بالحي فيصدقونه فيأمر السماء أن تمطر فتمطر، ويأمر الأرض أن تنبت فتنبت، حتى تروح مواشيهم من يومهم ذلك أسمن ما كانت وأعظمه، وأمدّه خواصراً وأدرّه ضروعاً).

وهذا يعني على وجه التعيين: أن المكذب للمد المادي الأوربي والواقف أمام تياره يمنى بمصاعب وعقبات ويكون المال والقوة إلى جانب السائرين في ركابها المتملقين لها المتعاونين معها. والتعبير بالحي يعني النظر إلى المجتمع على العموم.

وهذا هو الصحيح بالنسبة إلى المجتمع المؤمن في التيار المادي، إذ لو نظرنا إلى المستوى الفردي، فقد يكون في إمكان الفرد المعارض أن ينال تحت ظروف معينة قسطاً من القوة والمال.

والدجال أيضاً يدعي الربوبية إذ ينادي بأعلى صوته يسمع ما بين الخافقين... يقول: (إليّ أوليائي، أنا الذي خلق فسوى وقدر فهدى أنا ربكم الأعلى).

وكل ذلك واضح جداً من سير الحضارة الأوربية وأسلوبها. فإنها ملأت الخافقين بوسائل الإعلام الحديثة بماديتها، وعزلت البشر عن المصدر الإلهي والعالم العلوي الميتافيزيقي، فخسرت بذلك العدل والأخلاق والفكر الذي يتكلفه هذا المصدر. وأعلنت عوضاً عن ذلك ولايتها على البشرية وفرضت ايديولوجيَّتها على الأفكار وقوانينها على المجتمعات، بدلاً عن ولاية الله وقوانينه. وهذا يعني ادعاءها الربوبية على البشر أي أنها المالكة لشؤونهم من دون الله تعالى.

ومن الملحوظ في هذا الصدد، أن الوارد في الخبر أن الدجال يدعي

الربوبية، لا أنه يدعي الإلوهية... والربوبية لا تحمل إلا المعنى الذي أشرنا إليه.

وأما دعوتها، لأوليائها من أطراف الأرض، ليتم تثقيفهم الفكري وتربيتهم الأخلاقية والسلوكية تحت إشرافها، ولترتبط مصالحهم الاجتماعية والاقتصادية بها... فهذا أوضح من أن يذكر أو يسطر.

(ولا يبقى شيء من الأرض إلا وطئه وظهر عليه) وهو ما حدث فعلاً بالنسبة إلى شمل التفكير الأوربي في كل البسيطة. فليس هناك دولة في العالم اليوم لا تعترف بالاتجاهات العامة للفكر والقانون الأوربي. ونريد بأوربا كِلَيْ قسميها الرأسمالي والشيوعي. فإن كليهما معاد للإسلام، وممثل للدجال بأوضح صوره.

وأما استثناء مكة والمدينة من ذلك، فقد يكون محمولاً على الصراحة، وقد يكون محمولاً على الرمز. أما حملها على الصراحة، فيعني أن سكان هاتين المدينتين المقدستين سوف لن يعمهما الفكر الأوربي والمد الحضاري المادي. بل يبقى سكانها متمسكين بالإسلام، بمقدار ما يفهمونه، صامدين تجاه الإغراء الأوربي إلى حين ظهور المهدي عليه السلام.

وأما حملها على الرمزية، فهو يعني أن الفكرة الإلهية المتمثلة بمكة، والفكرة الإسلامية المتمثلة بالمدينة المنورة، لا تنحرف بتأثير المد الأوربي، بل تبقى صامدة، محفوظة في أذهان أهلها وإيمانهم. وهذا يدل على انحفاظ الحق في الجملة بين البشر، وأن الانحراف لا يشمل البشر أجمعين، وإن كانت نسبة أهل الحق إلى غيرهم، كنسبة مكة والمدينة إلى سائر مدن العالم كله.

وهذا مطابق لما عرفناه من نتائج التخطيط الإلهي، ببقاء قلة من المخلصين

الممحصين المندفعين في طريق الحق. وأكثرية من المنحرفين والكافرين. ويكون لأولئك القلة المناعة الكافية ضد التأثر بالأفكار المادية والشبهات المنحرفة. بل أن هذه الشبهات لتزيدهم وعياً وإيماناً وإخلاصاً.

وهذا هو معنى ما ورد في بعض أخبار الدجال من منعه عن مكة والمدينة بواسطة ملك بيده سيف مصلت يصده عنها، وأن على كل نقب ملائكة يحرسونها. فإن تشبيه العقيدة الإسلامية بالملك ومناعتها بالسيف مما لا يخفي لطفه. وأما كون الملائكة على كل نقب، فهو يعني الإدراك الواعي للمؤمن بأن للإسلام حلاً لكل مشكلة وجواباً على كل شبهة، فلا يمكن لشبهات الآخرين أن تغزو فكره أو تؤثر على ذهنه.

والدجال طويل العمر، باق من زمن النبيﷺ حين لم يؤمن برسالته من ذلك الحين، بل ادعى الرسالة دونه، ولا زال على هذه الحالة إلى الآن.

فإن الدجال أو المادية، تبدأ أسسها الأولى من زمن النبيﷺ حيث كان للمنافقين أثرهم الكبير في ادكاء أوارها ورفع شأنها. فكانوا النواة الأولى التي حددت تدريجاً سير التاريخ على شكله الحاضر، بانحسار الإسلام عن وجه المجتمع في العالم وسيطرة المادية والمصلحية عليه.

إذن فالمنافقون الذين لم يؤمنوا برسالة النبيﷺ، أولئك الذين كان مسلك الدجل والخداع مسلكهم إذ يظهرون غير ما يبطنون، هم النواة الأولى للمادية المخادعة التي تظهر غير ما تبطن، وتبرقع قضايا بمفاهيم العدل والمساواة. فهذا هو الدجال، بوجوده الطويل.

ومن هنا نفهم معنى ادعائه للرسالة، فإن المادية كانت ولا زالت تؤمن بفرض ولايتها على البشر، غير أنها كانت في المجتمع النبوي ضعيفة التأثير

جداً، لا تستطيع الارتباط بأي إنسان. ولكن حين أُذِنَ للدجال المادي بالخروج، في عصر النهضة الأوربية، استطاعت المادية أن تفرض ولايتها وسلطتها على العالم.

ومن هذا المنطلق نفهم بكل وضوح معنى أنه عند الدجال ماء ونار، وماؤه في الحقيقة هو النار، وناره هي الماء الزلال. وقال النبيﷺ - في الحديث -: (فمن أدرك ذلك فليقع في الذي يراه ناراً فأنه ماء عذب طيب).

فإن ماء الدجال هو المغريات والمصالح الشخصية التي تتضمنها الحضارة المادية لمن تابعها وتعاون معها. وناره عبارة عن المصاعب والمتاعب والتضحيات الجسام التي يعانيها الفرد المؤمن الواقف بوجه تيار المادية الجارف. وتلك المصالح هي النار أو الظلم الحقيقي، وهذه المصاعب هي الماء العذب أو العدل الحقيقي.

ومن الطبيعي أن النبيﷺ بصفته الداعية الأكبر للإيمان الإلهي، ينصح المسلم بأن لا ينخدع بماء الدجال وبهارج الحضارة ومزالق المادية، وأن يلقي بنفسه فيما يراه ناراً ومصاعب، فإنه ينال بذلك طريق الحق والعدل.

ونستطيع في هذا الصدد أن نفهم: أن نفس سياق الحديث ولهجته دال على ذلك. فإن قوله: (فأما الذي يراه الناس ماء فنار تحرق، وأما الذي يراه الناس ناراً فماء بارد عذب). يكاد يكون أيضاً واضحاً في أنه ليس المراد به الماء والنار على وجه الحقيقة، بل هو ماء ونار على وجه الرمز. وإلا لزم نسبة المعجزات إلى المبطلين، وقد برهنا على فساده.

ومن طريف ما نستطيع أن نلاحظه في المقام: أن النبيﷺ لم يقل في الخبر: أن الناس جميعاً حين يقعون في الماء فإنهم يجدونه ناراً أو حين يقعون في النار، يجدونها ماء. بل يمكن أن نفهم أن بعض الناس وهم المؤمنون

خاصة هم الذين يجدون ذلك. وإلا فإن أكثر الناس حين يقعون في ماء الدجال أو بهارج المادية لا يجدون إلا اللذة وتوفير المصلحة، كما أنهم حين يقعون في المصاعب والمتاعب لا يجدون إلا الضيق والكمد.

والدجال أعور، نعم بكل تأكيد، من حيث أن الحضارة المادية تنظر إلى الكون بعين واحدة، تنظر إلى مادته دون الروح والخلق الرفيع والمثل العليا. ومن يكون الأعور إلا غير المدرك للحقائق رباً صالحاً للولاية على البشرية... وإنما تكون الولاية خاصة بمن ينظر إلى الكون بعينين سليمتين، بما فيه من مادة وروح ويعطي لكل زاوية حقها الأصيل (وإن ربكم ليس بأعور).

والدجال كافر، لأنه مادي ومن أعداء الإسلام وأبعدهم عن الحق والصواب: (مكتوب بين عينيه كافر يقرؤه كل مؤمن كاتب وغير كاتب) فإن هذه الكتابة ليست من جنس الكتابة! وإنما هي تعبر عن معرفة المؤمنين بكفر المنحرفين ونفاقهم، وهذا لا يتوقف على كون الإنسان قارئاً وكاتباً أو لم يكن. ومن المعلوم اختصاص هذه المعرفة بالمؤمنين (يقرؤه كل مؤمن) لأنهم يعرفون الميزان الحقيقي العادل لتقييم الناس. وأما المنحرفون، فهم لا يقرأون هذه الكتابة، وإن كانوا على درجة كبيرة من الثقافة. لأنهم مماثلون لغيرهم في الكفر والانحراف. ومن الطبيعي أن لا يرى الفرد أخاه في العقيدة كافراً.

ومن أجل هذا كله حذر النبي ﷺ منه أمته واستعاذ من فتنته، لأجل أن يأخذ المسلمون حذرهم على مدى التاريخ من النفاق والانحراف والمادية. بل قد حذر كل الأنبياء أممهم من فتنة الدجال. لما سبق أن فهمنا أن المادية السابقة على الظهور هي من أعقد وأعمق الماديات على مدى التاريخ البشري (ما بين خلق آدم إلى يوم القيامة) وتشكل خطراً حقيقياً على كل الدعوات المخلصة للأنبياء أجمعين.

وهو - بالرغم من ذلك كله - (أهون على الله من ذلك) باعتباره حقيراً

أمام الحق والعدل. مهما كانت هيمنته الدنيوية وسعة سلطته. وليس وجوده قدراً قهرياً أو أثراً تكوينياً اضطرارياً، وإنما وجد من أجل التمحيص والاختبار، بالتخطيط الإلهي العام، وسوف يزول، عندما يقتضي هذا التخطيط زواله، عند الظهور، وتطبيق يوم العدل الموعود.

ومن هنا نفهم أنه لا تعارض بين الخبر الدال على أن معه جبل خبز ونهر ماء، والخبر الدال على أنه أهون على الله من ذلك. فإن هوانه عند الله لا ينافي حصوله على السلطة والإغراء، أخذاً بقانون التمحيص والإمهال الإلهي طبقاً لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1]. فهذه هي الفكرة العامة الرمزية عن الدجال.

وأما السفياني، فهو يمثل خط الانحراف في داخل المعسكر الإسلامي، أو الفكرة الإسلامية العامة. يندرج في ذلك كل الحركات والعقائد الخاطئة التي تدعي الانتساب إلى الإسلام، مما كان أو يكون إلى يوم الظهور الموعود.

ومن هنا اعتبر أبو طاهر القرمطي، في بعض الروايات: السفياني الأول، والسفياني الموعود هو الثاني. مع أن هذا القرمطي لا ينتسب إلى أبي سفيان بحال. وإنما صفته الأساسية هو أنه قائد لحركة كبيرة من حركات الانحراف في المجتمع الإسلامي. إذن فهو ينتسب إلى أبي سفيان عقيدة وإن لم ينتسب نسباً.

وفي الإمكان معرفة اتجاهه الفكري والعسكري، مستنتجاً مما نسب إليه في الأخبار من الأفعال والمشاغبات في المجتمع المسلم. يكون آخرها إرساله الجيش ضد الجماعة الممثلين للحق المستجيرين بالبيت الحرام في مكة.

---

(١) يونس: ٢٤.

وحينما يصل جيشه إلى البيداء يخسف بهم أجمعين، لا ينجو منهم إلا المخبر... حفظاً لحرمة البيت الحرام من ناحية، وحفظاً للجماعة الممحصين الذي يجب أن يقوموا بمهام اليوم الموعود. ولعل المهدي عليه السلام نفسه يكون من بينهم يومئذ.

وهذه الحركة بالذات تقوم بها بعض السلطات المنحرفة في المجتمع المسلم، فهي أوضح أشكال الفكرة العامة للسفياني، بالشكل الذي فهمناها.

وخروج السفياني من الوادي اليابس، محمول على المستوى الفكري الذي يتصف به، فإنه ينطلق فكرياً عن أيدولوجية ممحلة وضحلة وجافة. بمعنى أنها تتجافى الحق وتقوم على الفهم الخاطئ.

وعلى أي حال، فكل من الدجال والسفياني، طبقاً لهذا الفهم، مما قد حدث في التاريخ فعلاً، وليس أمراً منتظراً. نعم، لم تصل حركة السفياني إلى نتائجه النهائية التي هي الخسف.

بقي علينا الحديث عن الفهم الرمزي ليأجوج ومأجوج. وهذا ما أجلناه، كما قلنا، إلى التاريخ القادم، لابتنائه على مقدمات لم تتوفر لعرضها في هذا التاريخ.

* * *

المستوى الثاني:

ما يكون على مستوى مكافحة الانحراف وجهاده ومحاولة تقويمه.

يندرج في ذلك ما حدث في التاريخ، كالثورات التي كانت تحصل في زمن الأمويين والعباسيين. وهي تعرف بمراجعة التاريخ العام ولسنا الآن بصدد تحليلها.

وإنما المهم محاولة فهم ما لم يحدث من ذلك. وهو أمران، بحسب ما حددته الروايات:

الأمر الأول:

خروج اليماني الذي رايته ودعوته قائمة على الحق، إن ثبت ذلك بالتشدد السندي الذي تسير عليه.

وحينئذ، فإما أن نحمله على المعنى النوعي الرمزي أو نحمله على المعنى الشخصي الصريح.

فإن حملناه على المعنى الشخصي، بمعنى وجود شخص معين مناصر للحق متصف بهذه الصفات... فهو مما لم يعهد حدوثه في التاريخ، فيكون منتظراً. وهذا هو الأقرب إلى ظاهر التعبير، وخاصة مع اتصافه بكونه يمنياً.

وإن حملناه على المعنى النوعي الرمزي الدال على وجود حركات وثورات محقة في عصر الفتن والانحراف، تدعو إلى الحق وتلتزم به، وهذا مما حدث في التاريخ بكثرة... منها الثورات الداعية إلى الرضا من آل محمدﷺ في عصر الخلافة.

ولعله يوجد في مستقبل الزمان حركات أخرى بشكل وآخر، تحدث فتزعزع الانحراف، وتثبت معنى البطولة والصمود في سبيل الحق.

وهذا يندرج في الحقيقة، تحت معنى التمحيص الاختياري الذي سبق أن عرفناه، وهو المتضمن للإعلاء الإرادي إلى درجة الإخلاص والصبر في نفس الفرد والمجتمع. والثأر للحق دائماً يكون على هذا المستوى الرفيع.

الأمر الثاني:

مقتل النفس الزكية، فإنه أحد الثائرين في وجه الظلم والانحراف

والطغيان... ولا تكون ثورته ناجحة، بل يكون ذلك سبباً لمقتله. وقد جعل مقتله علامة للظهور باعتبار أهميته وعمق فكرته.

سواء كان مما حدث فعلاً، كما رجحناه، أو مما لم يحدث، كما هو مقتضى الفهم الكلاسيكي الذي تعضده بعض الروايات التي أخرجها في البحار، كما سمعنا.

فإن كان مما حدث فيما سبق، فقد عرفنا أنه هو محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. وأنه أحد الثائرين بوجه الدولة العباسية في عصورها الأولى.

وإن كان مما لم يحدث، فيكفينا مجرد التنبؤ بمقتله وأهميته لنعرف أنه مقتول بين الظالمين المنحرفين لا محالة. على أن مكان مقتله، وهو ما بين الركن والمقام يدلنا على أهمية مقتله وخطورته بنظر قاتليه والمعتدين عليه، حيث لا يكون بإمكانهم القبض عليه أو تأجيله أو إخراجه من المسجد الحرام، بل يكون من مصلحتهم استعجال قتله هناك، وهتك الحرمة الإسلامية الكبرى لذلك المسجد المقدس. وما ذلك إلا لعمق دعوته وصراحتها في الحق، ومجافاتها لمسالك الظلم والانحراف.

وسوف نفصل الكلام، طبقاً لهذا الفهم، في التاريخ القادم، وسنعرف أنه يصبح رسول المهدي عليه السلام إلى المسلمين، وأنه يقتل قبل ظهوره بقليل.

المستوى الثالث:

ما كان على مستوى التنبيه الإلهي الإعجازي على خطورة الانحراف وقرب الظهور.

وأهم ما يندرج في ذلك: الصحية والنداء باسم المهدي عليه السلام وكسوف

الشمس في وسط الشهر وخسوف القمر في آخره. وهي وإن كان بالإمكان حملها على الرمز، إلا أنه بعيد. والمعتقد أن الدلالة عليها صريحة غير رمزية. وقد سبق أن عرفنا مالها من التأثير في تنبيه المؤمنين الممحصين على قرب الظهور، ولزوم المبادرة إلى نصرة الإمام المهدي عليه السلام.

وأما المعجزات الأخرى المروية، فليست على هذا المستوى الثالث: أما النار التي تخرج من الحجاز تضيء لها أعناق الإبل في بصرى، فقد حملناها على ظهور المهدي عليه السلام نفسه. ومعه لا معنى لإدراجها في العلامات.

وأما النار التي تخرج من قعر عدن أو من اليمن، تسوق الناس إلى المحشر، فهي على تقدير ثبوتها بعد التشدد السندي، من علامات القيامة المتأخرة عن الظهور، لا من علامات الظهور نفسه. وكذلك خروج الشمس من مغربها، إلا إذا حملنا ذلك على الرمز إلى ظهور المهدي عليه السلام نفسه، كما سبق أن حاولنا أن نفهمه. وعلى كلا التقديرين، فهو ليس من علامات الظهور.

وأما انحسار الفرات عن كنز من ذهب، فقد تكلمنا عنه، وعرفنا كونه أمراً طبيعياً غير إعجازي.

وأما رجوع الأموات إلى الدنيا ووقوع المسخ، وظهور وجه وصدر في الشمس[1] وغيرها مما ذكرناه أو مما لم نذكره، فلم يثبت شيء منها بالتشدد السندي، ومعه لا حاجة إلى محاولة حملها على المعنى الرمزي، وإن كان ذلك في بعضها ممكناً.

فهذا هو الكلام، في الناحية الثانية، في تأسيس الفهم العام لعلامات

(١) الارشاد: ص٣٣٧.

الظهور. وقد علمنا بكل تفصيل ووضوح مقدار ارتباطها بعصر الفتن والانحراف، وبالتالي بقانون التمحيص الإلهي.

وبهذا ينتهي الكلام في الجهة الخامسة في تعداد مقررات العلامات، ومحاولة فهمها فهماً منظماً شاملاً.

وبه ينتهي الكلام في الفصل الثاني في علامات الظهور.

وهو نهاية الحديث في القسم الثالث من هذا التاريخ.

وهذا غاية مقصودنا من بيان تاريخ الغيبة الكبرى. تم على يد مؤلفه المحتاج إلى رحمة ربه الكريم محمد بن محمد صادق بن محمد مهدي بن إسماعيل الصدر الموسوي.

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على سيدنا ومولانا سيد الأنبياء والمرسلين وخاتم النبيين وآله الطيبين الطاهرين. وعجل الله فرج مهديّهم بقية الله في أرضه أمل المظلومين ونقمة الله على الظالمين والمطبق لشريعة سيد المرسلين. وجعلنا من المخلصين المعدّين لنصرته في اليوم الموعود. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

٨ رمضان ١٣٩٠ ٩ تشرين الأول ١٩٧٠

محمد الصدر

أهم مصادر هذا التاريخ

١- الاحتجاج، تأليف أبي منصور أحمد بن علي بن أبي طالب الطبرسي، مط. النعمان، النجف الأشرف، عام ١٣٨٦/١٩٦٦.

٢- الارشاد، للشيخ محمد بن النعمان الملقب بالمفيد، ط طهران عام ١٣٧٧ هـ.

٣- إعلام الورى بأعلام الهدى، تأليف أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي، ط طهران مط. الحيدري، عام ١٣٣٨ هجري شمسي.

٤- إكمال الدين وإتمام النعمة للشيخ أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن موسى بن بابويه الملقب بالصدوق. نسخة مخطوطة في مكتبتنا الخاصة. كتبت بيد أبي القاسم القاري في النجف الأشرف. انتهى منها في يوم الخميس سلخ شهر ربيع المولود عام ١٢٧٩ هجرية.

٥- بحار الأنوار، تأليف الشيخ محمد باقر بن محمد تقي المعروف بالمجلسي. الجزء الثالث عشر. ط الحجر عام ١٣٠٥ هـ.

٦- البرهان في تفسير القرآن للسيد هاشم السيد سليمان بن السيد إسماعيل الحسيني البحراني. ط الحجر، إيران، عام ١٣٠٢ هـ.

٧- تاريخ الغيبة الصغرى. للمؤلف، ط بيروت عام ١٩٧٢ م.

٨- الجامع الصحيح للحافظ أبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة التِّرمذي، مط. الفجالة الجديدة، القاهرة عام ١٣٨٧/ ١٩٦٧.

٩- الخرايج والجرايح للشيخ قطب الدين أبي الحسين سعيد بن هبة الله بن الحسين الراوندي، ط. الهند، على الحجر، عام ١٣٠١ هـ.

١٠- دليل خارطة بغداد قديماً وحديثاً. تأليف الدكتور مصطفى جواد والدكتور أحمد سوسة، مطبوعات المجمع العلمي العراقي. مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد عام ١٣٧٨/١٩٥٨.

١١- سنن أبي داود للحافظ أبي داود سليمان بن الأشعث بن اسحاق الأزدي السجستاني، ط. مصر، الأولى عام ١٣٧١/ ١٩٥٢.

١٢- سنن الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة، بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار احياء الكتب العربية، عام ١٣٧٣/ ١٩٥٣.

١٣- الغيبة، للشيخ أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، ط النجف ط الثانية، عام ١٣٨٥هـ.

١٤- الغيبة للشيخ أبي عبد الله محمد بن إبراهيم بن جعفر الملقب بالنعماني، ط تبريز عام ١٣٨٣هـ.

١٥- صحيح البخاري، لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردذبة البخاري الجعفري. مطابع الشعب، مصر ١٣٧٨هـ.

١٦- صحيح مسلم: لأبي الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوراي. مطبعة محمد علي صبيح وأولاده. مصر.

١٧- الصواعق المحرقة في الرد على أهل البدع والزندقة. للمحدث شهاب الدين أحمد بن حجر الهيتمي المكي، ط مصر عام ١٣١٢ هـ.

١٨- الفتوحات الإسلامية، بعد مضي الفتوحات النبوية، للسيد أحمد بن زيني دحلان مفتي مكة، ط مصر، مهمل من التاريخ.

١٩- القاموس المحيط، لمجد الدين الفيروز آبادي، ط مصر، مهمل من التاريخ.

٢٠- الكافي (الأصول) لثقة الإسلام، الشيخ محمد بن يعقوب الكليني، نسخة خطية في مكتبتنا الخاصة. وقع الفراغ من تحريرها في عصر يوم الثلاثاء من شهر ذي القعدة الحرام سنة ١٠٧٧ هـ بيد محمد بن طاهر بن آقاجان الشوشتري.

٢١- الكامل في التاريخ، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني المعروف بابن الأثير، بيروت - لبنان عام ١٣٨٧/١٩٦٧.

٢٢- كشف الغمة في معرفة الأئمة، لأبي الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح الأربلي. ط قم إيران عام ١٣٨١ هـ.

٢٣- مفاتيح الجنان، تأليف الشيخ عباس القمي. ترجمة السيد محمد رضا النوري النجفي، ط طهران عام ١٣٥٩.

٢٤- مقاتل الطالبيين ، لأبي الفرج الأصبهاني، إصدار دار احياء علوم الدين، بيروت - لبنان ١٣٨٠/ ١٩٦١.

٢٥- منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر عليه السلام. تأليف لطف الله الصافي،

ط طهران، الثانية، مهمل من التاريخ.

٢٦- منتهى الآمال، للشيخ عباس القمي، ط طهران -إيران-، عام ١٣٧١ هـ.

٢٧- الثاقب، لثقة الإسلام الميرزا حسين الطبرسي النوري. ط إيران، عام ١٣٤٧ هجري شمسي.

٢٨- وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة، للشيخ الحسن بن الحر العاملي، ط الحجر-طهران، عام ١٣١٤ هـ.

٢٩- ينابع المودة، تأليف الحافظ سليمان بن إبراهيم القندوري الحنفي، الطبعة السابعة، ط النجف الأشرف، الحيدرية، عام ١٣٨٤/ ١٩٦٥.

أهم محتويات الكتاب